# كان التاريخية

أول

دورية عربية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية
متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩هـ
صدر العدد الأول سبتمبر ٢٠٠٨م

السنة الحادية عشرة
العدد الثاني والأربعون
ديسمبر ٢٠١٨ – ربيع أول ١٤٤٠

ISSN: 2090 - 0449
Digital Object Identifier DOI
Journal Factor Serial JF2097
Universal Impact Factor UIF
Internation Scientific Indexing ISI
Global Serials Directory UlrichsWeb
Scientific Journal Impact Factor SJIF
Impact Factor for Arabic Scientific Journals AIF
Arabic Index of Measuring the Quality of Scientiffic Journals AIMSJQ
www.kanhistorique.org











رقمية الموطن
عربية الهويـة عالمية الأداء





**دورية كان التاريخية.- س١١، ع٤٢ (ديسمبر ٢٠١٨/ ربيع أول ١٤٤٠)**

Dawriyyať Kān al-Tārīḫiyyať
Iliktrūniyyať, muḥakkamať , rub' sanawiyyať
Vol. 11, no. 4٢ [December 2018 ]
Cairo – Arab Republic of Egypt.
http://www.kanhistorique.org
Information on this issue: www.kanhistorique.org/Archive/2018/Issue42

**تصنيف ديوي العشري – مقالات ودراسات ع٤٢ ديسمبر ٢٠١٨**

| | |
|---|---|
| ٩٠٩,٠٧ | الحروب الصليبية |
| ٩٥٣ | التاريخ العام للعرب والمسلمين |
| ٩٥٣,١ | المملكة العربية السعودية |
| ٩٥٣,٠٧١ | تاريخ الأندلس |
| ٩٦٠,٠٤ | تاريخ أفريقيا (العام والخاص) |
| ٩٦١,١٠٥ | تاريخ تونس الحديث – الاحتلال الفرنسي |
| ٩٦٤,٠٩ | تاريخ المغرب الحديث |
| ٩٦٥ | تاريخ الجزائر – الاحتلال والاستقلال |

---

**دورية كان التاريخية**

إصدار مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر.- س١، ع١ (سبتمبر ٢٠٠٨).- القاهرة: المؤسسة، ٢٠٠٨ – ٢٠١٨.

دورية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

ردمد ٠٤٤٩ – ٢٠٩٠

١- تاريخ　　٢- الآثار

٣- التراجم　　٤ - التراث

**ديوي ٩٠٥**

---

**Historical Kan Periodical**
Published by Historical Kan Organization.- Vol.1, no.1 [September 2008].- Cairo: Organization, 2008 – 2018.
Peer-reviewed, open-access journal.
Indexed and abstracted in several international databases.
ISSN: 2090 – 0449 (Online)
Keywords: History, Heritage, Archaeology, Biographies.

أول دورية عربية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية
متخصصة في الدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩هـ
صدر العدد الأول منها في سبتمبر ٢٠٠٨م




ISSN: 2090 – 0449 Online

## مسجلة ومفهرسة في قواعد البيانات الببليوجرافية العالمية

- Academic Journals Database
- Access to Mideast and Islamic Resources, AMIR
- CORE: Open Access repositories
- Directory of Abstract Indexing for Journals, DAIJ
- Directory of Open Access Scholarly Resources, ROAD
- Directory of Research Journals Indexing, DRJI
- Eurasian Scientific Journal Index
- Google Scholar
- Host Online Research Databases, EBSCO
- Journal Database – Zurich Open Repository and Archive
- JOURNAL FACTOR – forum for promoting research work
- Journal Guide- Research Square
- ROOT INDEXING – Journal abstracting and indexing
- The researchBib Journal database
- Ulrichsweb
- WorldCat

## مدرجة في الأدلة الرقمية لمكتبات الجامعات والمراكز البحثية العالمية

- Birmingham Public Library
- Max Planck Institute for the Physics of Complex Systems
- National Cheng Kung University Library
- National Taiwan Normal University Library
- NYPL (New York Public Library)
- OALib - Open Access Library
- OREGON Health & Science University
- San Francisco Public Library
- SAN JOSÉ STATE UNIVERSITY
- Stanford University Libraries & Academic Information Resources
- State Library of New South Wales
- State Library of Queensland (Australia)
- The J. Paul Getty Trust
- The University of Texas at El Paso Library
- Toronto Public Library
- UCDAVIS University Library
- University of California
- University of Michigan
- University of Rochester
- University of South Australia
- Villanova University

## دراسات ومقالات الدورية مفهرسة وذات خلاصات

www.kanhistorique.org




أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
دار ناشري للنشر الإلكتروني
أول دار نشر إلكترونية عربية مجانية تأسست يوليو ٢٠٠٣ – الكويت
www.nashiri.net




أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية – سان فرانسيسكو – الولايات المتحدة

www.archive.org




مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة معلومات اللغة والأدب والعلوم الإنسانية
دار المنظومة "الرواد في قواعد المعلومات العربية" – السعودية
www.mandumah.com

مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة بيانات المنهل
أول قاعدة بيانات عربية تأسست ٢٠١٠ – الإمارات

www.almanhal.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة البيانات العربية الرقمية "معرفة"
شركة عالم المعرفة للمحتوى الرقمي تأسست ٢٠٠٤ - الأردن

www.e-marefa.net




دورية كان التاريخية مدرجة في:
دليل الدوريات العربية المجانية
الدوريات العلمية المُحكّمة الصادرة في الوطن العربي والمتاحة على شبكة الإنترنت مجاناً
www.dfaj.net




موقع دورية كان التاريخية مسجل لدى:
هيئة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة
الآيكان منظمة غير ربحية تأسست ١٩٩٨ – كاليفورنيا
www.icann.org

| | |
|---|---|
| كُتّاب الدورية | 456 |
| الدول العربية والأجنبية | 27 |
| الجامعات والمؤسسات الأكاديمية والعلمية | 138 |
| المقالات والدراسات المنشورة في الدورية | 806 |

## المشرف العام

**بهاء الدين ماجد**

مدير إدارة الخرائط "السابق"
دار الكتب والوثائق القومية المصرية

تعتبر الدوريات شريانًا رئيسًا من شرايين المعلومات في المكتبات ومراكز المعلومات وخاصةً المكتبات الأكاديمية التي تولي اهتمامًا خاصًا للدوريات العلمية في مختلف مجالات المعرفة. ولقد ظلت الدوريات المطبوعة هي السائدة في مقتنيات المكتبات الأكاديمية حتى قبيل نهايات القرن العشرين وقبل التحول الجذري في وسائل نقل المعلومات إلى الوسيط الرقمي الذي يزداد يومًا بعد يوم.

## الهيئة الاستشارية



تحددت مهام أعضاء الهيئة الاستشارية وفق مذكرة تأسيس دورية كان التاريخية في غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، حيث تتكون الهيئة الاستشارية من خبراء ومتخصصين بهدف التعاون مع طاقم عمل الدورية لخدمة البحث العلمي، وتقديم الدعم الفني من خلال تبادل الآراء والمقترحات. والتواصل مع المؤسسات الأكاديمية العربية والأساتذة والباحثين بما يعزز مكانة الدورية في الأوساط العلمية. وتقديم المشورة والنصح في الموضوعات المطروحة من قبل هيئة التحرير. والتعريف بأهداف الدورية، وتشجيع الباحثين على النشر العلمي الرقمي. وتولي مهمة التوصية فيما يتعلق بتطوير الدورية من حيث الشكل والمضمون.

## الهيئة العلمية



## هيئة التحرير



## مدير التحرير

د. إسراء المنسي

عملت هيئة التحرير ومنذ اليوم الأول على بناء الأرضية الثقافية الرقمية من أجل المساعدة في استحداث وعي ثقافي تاريخي عند الجيل العربي الشاب، وخصوصًا فيما يتعلق بأهمية التاريخ والتراث وارتباطهما المباشر بالهوية العربية والإنتاج الإبداعي الثقافي المستدام




"كان التاريخية" أول مبادرة عربية مستقلة متخصصة، تدعم مبدأ "المعبر المفتوح" في تداول المعرفة على شبكة الإنترنت بتشجيع النشر الرقمي للدراسات التاريخية. "كان التاريخية" غير هادفة للربح وتتيح نصوصها كاملة على شبكة الإنترنت، وتسعى إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي.

## الإشعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي، إنما هي منبر علمي ثقافي مستقل يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

## موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المقالات والدراسات العلمية والأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العربية، وأصحاب الدراسات العليا، والباحثين في الدراسات التاريخية، والمهتمين بالقراءات التاريخية، وتعبر الموضوعات المنشورة في الدورية عن وجهة نظر كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

## حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمّل دورية كان التاريخية أيّة مسؤوليّة عن الموضوعات الّتي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكُتاب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين أو تنتهك حقوق الملكيّة أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.

## حقوق الطبع والنشر والترجمة

جميع حقوق الطبع والنشر الورقي والرقمي والترجمة محفوظة لدورية كان التاريخية، وبموجب الاعتماد والتسجيل الممنوح للدورية يحق لرئيس التحرير اتخاذ الإجراءات القانونية تجاه أي فرد أو مؤسسة أو موقع على شبكة الإنترنت يعيد استخدام محتويات الدورية بدون اتفاقية قانونية.

## رخصة التشارك الإبداعي

دورية كان التاريخية مسجلة تحت التراخيص العامة غير التجارية لدى منظمة التشارك الإبداعي في سان فرنسيسكو استنادًا إلى موقعها الإلكتروني. "كان التاريخية" غير تجارية ولا تفرض رسوم على المراجعة والتحكيم والنشر.

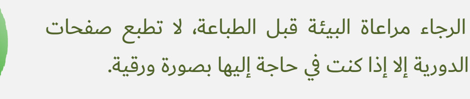
## إدارة المعرفة

كَان التَّارِيْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

## علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.







حاصلة على "**معامل التأثير العالمي**" (UIF) للمجلات العالمية والعلمية

حاصلة على "**معامل التأثير العربي**" (AIF) للدوريات العلمية العربية المَحَكَّمة

مسجلة في **دليل أولريخ الدولي للدوريات** (UlrichsWeb) تحت رقم ٦٨٨٨١٤

## رئيس التحرير

**د. أشرف صالح محمد**

أستاذ مساعد تاريخ وتراث العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن رشد

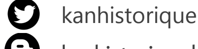


Evening Prayer in Tangiers
Painted in 1879
Jean-Jules-Antoine Lecomte du Nouy
(1842 – 1923)

## المراسلات

توجه المراسلات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

**mr.ashraf.salih@gmail.com**


historicalkan
groups/kanhistorique
kanhistorique

kanhistorique.blogspot.com

goodreads.com/kanhistorique

www.kan.nashiri.net




# دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

## السياسات والقواعد والإجراءات

ترحب دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة الْتَّارِيْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

### سياسات النشر

تسعى دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكُتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

### هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقًا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسبًا للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

### هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمًا سريًا بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوئها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهاج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتازت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

# قَوَاعِدُ النَّشَرِ

## إرشادات المؤلفين [ الاشتراطات الشكلية والمنهجية ]

ينبغي ألّا يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال/ الجداول)، الهوامش، المراجع.

### البحوث والدراسات العلمية

تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.

تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات/ منتديات/ مواقع/ مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.

يجب أن يتسم البحث العلمي بالجَوْدة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

- **عنوان البحث:**
يجب ألا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيس.
- **نبذة عن المؤلف (المؤلفين):**
يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم/ الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفة الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون- الموبايل/ الجوال- الفاكس).
- **صورة شخصية:**
ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.
- **ملخص البحث:**
يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (٢٥٠ - ٣٠٠) كلمة.
البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.
- **الكلمات المفتاحية:**
الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجها في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.
- **مجال البحث:**
الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".
- **المقدمة:**
تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة، وحدود البحث الزمانية والمكانية.
- **موضوع البحث:**
يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سلمية واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).
- **الجداول والأشكال:**
ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.
- **الصور التوضيحية:**
في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في <ملف منفصل> على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution)
- **خاتمة (خلاصة):**
تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.
- **الهوامش:**
يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وبإمكان الباحث استخدام نمط American Psychological Association " APA" الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.
- **المراجع:**
يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقًا للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية، ...الخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

# قَوَاعِدُ النَشَر

## قواعد عامة

تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.

المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).

ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

## حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفى الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأى كاتبها وعلى مسئوليته هو وحده ولا تعبر عن رأى أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسئولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

## عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصًا وافيًا لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف/ المحقق/ المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

## عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل،
- ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

## تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر/ ورشة عمل/ سيمنار) مركزًا على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

## الإصدارات والتوزيع

- تصدر دَّورِيةُ كَان التَّارِيْخِية أربع مرات في السنة:
- (مارس– يونيو – سبتمبر – ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسَل الأعداد الجديدة إلى كُتَّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، وشبكات التواصل الاجتماعي.

## المراسلات

- تُرسَل الاستفسارات والاقتراحات للبريد الإلكتروني:
  **info@kanhistorique.org**
- تُرسَل الأعمال المطلوبة للنشر إلى رئيس التحرير:
  **mr.ashraf.salih@gmail.com**

# مُحْتَوَيَاتُ الْعَدَدِ



# كُتَّابُ الْعَدَدِ

| الاسم | المؤسسة | البلد |
|---|---|---|
| العربي عقون | جامعة قسنطينة (٢) | الجزائر |
| المحجوب قدار | الأكاديمية الجهوية للتربية الوطنية | المغرب |
| إمام الشافعي محمد حمودي | جامعة الأزهر | مصر |
| أشرف صالح محمد سيد | جامعة ابن رشد | هولندا |
| باي بوعلام | جامعة أبوبكر بلقايد تلمسان | الجزائر |
| بورمضان عبد القادر | جامعة ٢٠ أوت ـ ١٩٥٥ | الجزائر |
| زياد عبد الله العلي طلافحة | دائرة الآثار العامة | الأردن |
| زينب التومي | جامعة الجزائر | الجزائر |
| سطام زهير الخطيب | جامعة البلقاء التطبيقية | الأردن |
| شعيب مقنونيف | جامعة أبوبكر بلقايد تلمسان | الجزائر |
| عبد العزيز رمضان | جامعة الملك خالد | السعودية |
| عبد القادر سلاّمي | جامعة تلمسان | الجزائر |
| عبد القادر سوداني | جامعة صفاقس | تونس |
| عبد القادر محمود الحصان | مديرية آثار محافظة المفرق | الأردن |
| عزيز بويغف | الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين | المغرب |
| عماد جاسم حسن الموسوي | جامعة ذي قار | العراق |
| غسان محمود وشاح | الجامعة الإسلامية (غزة) | فلسطين |
| محمد البشير رازقي | كليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة | تونس |
| محمد الغزواني | أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي | المغرب |
| محمد عطا الله الخليفات | جامعة البلقاء التطبيقية | الأردن |
| محمد يوسف محمد | جامعة سار | تشاد |
| موسم عبد الحفيظ | جامعة أبوبكر بلقايد تلمسان | الجزائر |
| وليد موحن | جامعة الحسن الثاني المحمدية | المغرب |

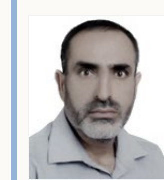
* حسب الترتيب الأبجدي

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].



# نقوش عربية شمالية "ثمودية"
## من غدير الملاح، الحصن، وادي السحمي، معان


د. عبد القادر محمود الحصان
أخصائي الآثار الإسلامية والنقوش القديمة
مدير مديرية آثار محافظة المفرق
المملكة الأردنية الهاشمية


د. زياد عبد الله العلي طلاحفة
مديرية آثار المفرق
دائرة الآثار العامة
عمان - المملكة الأردنية الهاشمية

### مُلَخّصْ
*يقدم هذا البحث دراسة تحليلية لغوية لسبعة نقوش عربية شمالية "ثمودية"، عُثر عليها في مواقع متفرقة من الأردن" غدير الملاح، الحصن، ووادي السحمي، معان"، وتبرز أهمية هذه النقوش بأنها أخبرت عن أحداث وقعت في الماضي وممارسة لبعض الطقوس التعبدية مثل: الذبح على النصب للآلهة "اللات" والإخبار بأن اللات ذكرت جميع الأشياع ويناقش هذا البحث أفعالاً جديدة ترد لأول مرة في النقوش مثل: ذبح، مسرت، مر، سنا، وأسماء أعلام وجنس جديدة مثل: عقعذ شكمت، هفرك، جحثث، ضبر، أصرتي، نفش. يرجع الباحثين أن تاريخ الكتابات الثمودية تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد، وهناك كتابات يرون أنها أقدم عهدًا من القرن السابع، غير أن أكثر ما عثر عليه يعود تأريخه إلى ما بعد الميلاد، أطلق على هذه الخطوط بالنقوش الثمودية، ولها صلة بخط "طور سيناء"، والمسند، هذه النقوش تعبر عن أمور شخصية لا تفيد المؤرخ الذي يريد تدوين تاريخ قوم ثمود فائدة كبيرة، فهي تفيد الباحث اللغوي الذي يريد الوقوف على لغة الثموديين ومعرفة أسمائهم ولهجاتهم، وتفيد في دراسة اللهجات العربية قبل الإسلام (مهباش٢٠٠٣: ١٢). وذكرت الكتابات الثمودية أن قوم ثمود كانوا يعرفون الزراعة وأنهم وأصحاب ماشية، وكانت لهم مستوطنات ثابتة استقروا فيها، وأنهم اشتغلوا بالتجارة، وكانت لهم معابد ثابتة أيضًا، وأصنام يتعبدونها، ورد ذكرها في كتاباتهم، منها الصنم "ود"، و"شمس"و "مناف"و "مناة" و"كاهل" وبعلت" (علي، جواد ٢٠٠٢).*

**بيانات الدراسة:**

تاريخ استلام البحث: ٠٤ يوليو ٢٠١٧
تاريخ قبـول النشـر: ١٥ نوفمبر ٢٠١٧

**كلمات مفتاحية:**
اللهجات العربية القديمة، النقوش الثمودية، البادية الأردنية، النقوش العربية، الثموديون

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0054792

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**
زياد عبد الله العلي طلاحفة، عبد القادر محمود الحصان. "نقوش عربية شمالية "ثمودية" من غدير الملاح، الحصن، وادي السحمي، معان".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة -العدد الثاني والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٨. ص ١٠ – ٢٥.

### مُقَدِّمَةُ

يعود أول توثيق لاسم ثمود إلى نقش الملك الآشوري سرجون الثاني في الربع الأول من القرن الثامن قبل الميلاد، حيث ورد اسمهم كقبيلة تمكن الغزو الآشوري بداية القرن الثامن قبل الميلاد من إدكام الطوق عليها مع قبائل مرسمان وأبايدي والقبائل العربية التي تسكن بعيدًا في الصحراء، حيث أسكن الباقين منهم على قيد الحياة منطقة فلسطين والأردن، كما تفصح عن ذلك أسطر نقش سرجون الثاني.

وقد جاءت أسماؤها في الحوليات الآشورية على النحو التالي: تامودي، (إيبا) اديدي، مارسيما (ني)، في حين جاء اسم ثمود في نصوص نابونائيد من القرن السادس قبل الميلاد على صيغة مختلفة قليلاً تيمودا. وقد أوردت النقوش السبئية اسم ثمد إشارة إلى قبيلة، وماثلتها النقوش الصفائية في أيراد الصيغة علاوة على صيغة ثمدو، ولعلها كانت تلفظ ثمود لورودها في النبطية بصيغة ثمودو. أما المصادر الكلاسيكية فذكرت اسمي ثمودينو وثمودني إشارة إلى ثمود. وكانت مواطنهم حسب هذه المصادر الجزء

الشمالي الغربي من بلاد العرب ومناطق أعالي الحجاز. وقد عدهم هويلاند قبيلة أو اتحادًا قبليًا عاش في المنطقة الشمالية الغربية من الجزيرة العربية.

لقد كانت السمة الغالبة على الثموديين أنهم أقرب إلى الحضر منهم إلى البدو، فقد مارسوا النشاط التجاري بين الجزيرة العربية والشام ومصر، ولعلهم كانوا على علاقة وثيقة بتجارة الأنباط، وقد مهروا بتجارة القوافل الصحراوية، ويشير كل من المستشرقين وينت وريد إلى أن الثموديين والصفائيين حلوا محل الأنباط في قيادة القوافل التجارية عبر وادي السرحان. وكان للثموديين حضورهم الواضح في الأجزاء الجنوبية الشرقية والوسطى من الأردن، سواء أكان هذا الحضور نتيجة الاستقرار الزراعي، أو الخدمة في فرقة الفرسان الرماة التي خصَّها البيزنطيون بالثموديين، وقد عززت أعداد النقوش الثمودية المتأخرة في المنطقة المذكورة فكرة هذا التواجد. ولقد دأبت روما وبيزنطة بعدها إلى تشكيل كتائب عسكرية مساندة من القبائل العربية ممن يستخدمون القوس والنشاب من على صهوات جيادهم بدءًا من القرن الثاني الميلادي، بسبب الخوف من تمردهم وثورتهم، وقد أفرزت آلاف النقوش الثمودية في الحسمى الأردنية وفي المناطق المتاخمة لحدود الدولة الرومانية، بل عشرات النقوش الثمودية في مناطق التحصينات الرومانية، على استخدام الرومان لهذه القبائل دروعا بشرية وجيوشًا رديفة لها، وعُرفت هذه الجماعة المجندة باسم وحدات الفرسان العربية الثمودية.

ولقد تسللت قبائل عربية عديدة من شمال الجزيرة العربية إلى بلاد الشام في فترات زمنية مختلفة، مستغلة فترات الضعف السياسي لدول المنطقة، مثل دولة لحيان، ودولة الأنباط، وبعدها دولة تدمر، ولم تخلُ مناطق مؤاب وشرقي البحر الميت من تواصل زحف القبائل العربية، والذي بدأ يتجه نحو المناطق الحضرية غربًا. اعتمد الثموديون في حياتهم الاقتصادية على دعائم ثلاث رئيسية، برزت في نقوشهم بشكل واضح في بعض المرات وغابت أو كادت في مرات أخرى كثيرة، وأولى هذه الدعائم بدون شك هي الرعاية وتربية الماشية، والتي أفصحت عنها نقوشهم كثيرًا. والدعامة الثانية هي الزراعة، والتي جاءت في نقوشهم بشكل أقل من الدعامة السابقة، وبنصوص أقل إفصاحًا وتوضيحًا لهذا النوع من النشاط الاقتصادي. وجاءت الدعامة الثالثة، وهي التجارة، بصورة أقل من سابقتيها، وهي الأكثر غموضًا من خلال النصوص، والتي تحتاج إلى الاستنطاق الحثيث، والذي قد يدخل الباحث في نطاق التخيل والتخمين في بعض المواقف، وتعدى هذا بعض الدعامات الثانوية، والتي من أهمها الصيد، والتحالفات، والتي نوهت لها بعض النقوش بصور مختلفة.

كان المظهر الرئيس للحياة الاقتصادية والاجتماعية في البادية الأردنية في شمالي الحجاز وجنوبي بادية الشام في فترة التواجد العربي القبلي قرويا، يعتمد على الاقتصاد الريفي، فقامت القبائل العربية بدورها في دلالة وحماية القوافل التجارية، وفي نقل البضائع، وتربية الماشية، والدفاع عن الحدود، لدرء هجمات القبائل الأخرى، وشكلت خط دفاع بشري لحماية مصالح الدولة الرومانية أمام شعوب الشرق. وتوحي عشرات النقوش العربية الشمالية بالبيئة الصحراوية الرعوية، وتكرسها أكثر من غيرها، الأمر الذي يؤكد بداوتهم وتنقلهم الدائم أو الموسمي، واعتمادهم في المقام الأول على الرعي وتربية الماشية، ولعل هذا دأبّ دأبَ عليه سكان البادية، سيما في مراحل هجراتهم الأولى من الجزيرة العربية إلى بادية الشام، ونتلمس فيما بعد عوامل تأقلم العربي مع البيئة الزراعية الرعوية، فإن أرض الحماد الأردنية أرض صالحة لتربية الماشية، ولذا فإنها قد أمدت بلاد الشام بالغذاء من اللحوم، وكان البدوي يقايض المدينة مقابل ذلك بالمصنوعات والحبوب.

لقد كثرت في مرتفعات البادية أكوام من الحجارة البازلتية، أطلق عليها اسم الرجوم، وقد كانت بمثابة أبراج مراقبة، أو علامات على طرق التجارة، حيث يسير الدليل التجاري أمام القافلة من رجم إلى رجم، متطلعا إلى الأرض ليتأكد من خلو الطريق، لعل العرب من سكان الحماد والحرات قد استفادوا من جيرانهم الأنباط في عملية التجارة، ولعل قسما من الأنباط كان قد اندمج في القبائل العربية الشمالية، وذلك بعد سقوط دولتهم عسكريًا وسياسيا بداية القرن الثاني الميلادي، وقد يكونوا هم الذين نشطوا في عملية التجارة، ورافقهم في ذلك قسم من الثموديين.

لقد تشكلت الحياة العربية الشمالية بمجملها في الصحراء والبادية، غير أن النقوش العربية الشمالية قد انتشرت فوق مساحة واسعة، تنوعت طبوغرافيتها فشملت بادية الشام، ووادي السرحان شمالي جزيرة العرب وجبل الدروز وجبل سيس في حوران. ولم يكن الثموديون بمنأى عن جيرانهم العرب الأنباط في بصرى، ولعل مصالحهم كانت تلتقي كثيرا، وخصوصا في حالات الصراع مع الرومان، ولعل بدايات الاندماج الثمودي مع الأنباط، كان خلال القرن الأول الميلادي، في أوائل حكم الرومان، حيث بدأ العرب الثموديون

والعرب الأنباط يشعرون فيه بالخطر القادم المشترك (المعاني، الدستور العدد ١٤٨٦٧ تاريخ ٢٠٠٨/١٢/٦).

**غدير الملاح**

موقع أثري هام يقع على جانب وادي راجل من الجهة الغربية اليمنى على بعد ثمانية كيلو مترات من البقاعوية ويرتفع عن مستوى سطح البحر(620م)، وهو موقع طبيعي منخفض وتتجمع مياه الأمطار القادمة من جبل حوران وتبقى فيه المياه معظم أيام السنة، وتعود جذور الاستيطان فيه للعصور الحجرية الحديثة وكذلك الثقافة الناطوفية على السواء ويلاحظ المباني الدائرية الخاصة لتلك المرحلة المبكرة وهي عبارة منازل على هيئة صير وكذلك مصائد للحيوانات دائرية الشكل عثر بداخلها على عدد من رؤوس النبال الصوانيه وكذلك سكاكين جيدة الصنع ويمتد التراكم الحضاري من العصور البرنزية الحديدية والكلاسيكية وخاصة الثمودية الصفائية، والنبطية والعصر الروماني والبيزنطي وصولاً للحضارة العربية الإسلامية الأموية العباسية الأيوبية والمملوكية حتى العثمانية مع استيطان حديث للعشائر الشرفات والعظمات، وقد سمي بذلك الاسم لأن الملاحين "بائعي الملح "القادمين من قريات، الأزرق كانوا يقيمون على هذا الغدير عند ذهابهم للشام وحوران على طريق الملح المسماة لاحقًا طريق وادي السرحان (الحصان١٩٩٩: ١٨٧).

**الحصن**

تقع بلدة الحصن إلى الجنوب الشرقي من مدينة إربد، وترتفع عن سطح البحر حوالي٦٨٠م، تعتبر الحصن من البلدات القديمة، وتشير بعض المصادر إلى أنها شهدت حضارة وازدهار في عدة عصور تركت أثارها في تل الحصن وبجواره، وهو تل صناعي يتكون من تراكم الأتربة على مبانيه التي اختفت تحتها وذلك عبر العصور المختلفة التي مرت عليه، ويقع التل في الجهة الشمالية من مدينة الحصن الحالية.

أما الآثار الموجودة في الحصن فتعود إلى عدة عصور وحقب تاريخية بقيت حاضرة فيه حيث اِمتد هذا التراكم الحضاري من العصور البرنزية والحديدية والكلاسيكية والعصر الروماني والبيزنطي وصولاً للحضارة العربية الإسلامية الأموية العباسية الأيوبية والمملوكية حتى العثمانية (العبادي١٩٨٧: ٣٠).

**وادي السحيمي**

يقع هذا الوادي ضمن المنطقة المحيطة ببلدة دير كهف من الجهة الشمالية الشرقية على بعد ثلاثة كيلو مترات ضمن منطقة منخفضة يحيط بها العديد من التلال البركانية المكونة من الطف البركاني ويتصل هذا الوادي بوادٍ آخر اسمه العيساوي، و"جلتة العيساوي" إلى غدير الفحل الذي يتكون من بقعة صخرية تتجمع فيها المياه موسميًا لعدة أشهر مما أدى وعبر العصور إلى استيطان بشري موسمي وشبه دائم من العصور الحجرية وحتى الآن دونما انقطاع ويقطن المنطقة حاليًا فخذ من عشائر المساعيد يسمى "بالسميران" (الحصان١٩٩٩: 341-٣٤٢).

**معان**

تقع مدينة معان إلى الجنوب من العاصمة عمان على بعد ٢١٠ كيلو متر، وترتفع قرابة ١٠٠٠م، وتعتبر مركز المحافظة وهي من أكبر الأردن مساحة إذ تبلغ حوالي (٣٢٫٨٣٢)كم[٢] وتقع قرب دائرة عرض ١٢-٢٠ شمالاً، وخط طول ٤٤-٣٥ شرقًا وتعتبر عقدة المواصلات في جنوب الأردن اليوم، وهكذا كان شأنها عبر العصور بأنها عقدة للمواصلات عبر الشمال والجنوب بواسطة الطريق الملوك، تراجانيوس، وطريق الحاج الشامي وصولاً إلى طريق ذيوكلتيانوس الواصل لوادي السرحان وطريق البخور والملح القادمين اليمن والحجاز باتجاه بلاد الشام زمن خلال الدراسات الميدانية والمراجع التاريخية يتضح أن معان لها أهمية عبر العصور الحجرية مرورًا بالبرونزية والحديدية والحضارة الأدومية والنبطية وصولاً للحضارة العربية الإسلامية وحتى الصر الحديث دونما انقطاع (الحصان١٩٩٩: ١٧٧).

## أولاً: بنيةُ النقوش

### ١/١- نقوشُ المُلكية

بيانُ مُلكيتهم لتلك النقوش والتي دونت على الحجارةِ على نحو هذا النقش لفلانِ بن فلان.

### ١/٢- النقوشُ الإخبارية

احتوت هذه النقوشُ على أحداثٍ وقعت في الماضي وهي تبين ما يلي:

١– الإخبار عن "ح ر س" صاحب النقش بأنه رعى الغنم لشخص اسمه "ضب" كما في النقش رقم١ .

٢ _ الإخبار عن نجاته من الحرب ولجوئه إلى جماعته في النقش رقم١ .

٣– الإخبار عن "ج ح ث ث" بأنه قام بالذبح وتقديم القربان للنصب تقربًا لمعبودته "اللات" كما في النقش رقم١ .

٤ _ الإخبار بأن "اللات" قد ذكرت جميع أفراد عشيرة "حاصد" في النقش رقم١ .

٥ ـ الإخبار بأنه "م ر" على "ع ق ع ذ" وأرضاه كما في النقش رقم١.

٦ - الإخبار أن صاحبي القبر في الرجم هما "ع ذ ب، ن ب" كما في النقش رقم٢أ، ٢أ.

٧- الإخبار بأن "ت م" وجم على كلب كما في النقش رقم٣.

٨ - الإخبار بأن "ز ب د ن" من قبيلة عمرت وجم على أخيه كما في النقش رقم٤.

٩ - الإخبار بأن"سعد اله" قيظ على راسن" كما في النقش رقم٥.

**١/٣- النقوش الإعلانية**

ويتمثل هذا اللون من النقوش في النقش رقم ١، والذي أعلن به"ح ر س" بأن هناك حربًا قد وقعت وأنه قد نجا منها.

## ثانيًا: قراءة النقوش ونقل معانيها إلى العربية الفصيحة

**النقش رقم ١(اللوحة١ الشكل١):**

**النقش بالحروف العربية.**

ل ح ر س ب ن ش ك م ت أل هـ ف ر ك و ر ع
ي ع ل ض ب ر ل ض ب م س ر ت م ح ر ب أ
ل أ ص ر ت ي و ن ص ب و ذ ب ح ج ح ث ت أ
ل ح ص د و ذ ك ر ت ل ت ا ش ي ع ن ك ل
ل هـ و م ر و هـ ن أ ع ق ع ذ

**نقله إلى العربية:**

لحرس بن شكمت ال هفرك ورعي على ضبر لضب مسرت م حرب إل اصرتي ونصب وذبح جحثت أل حصد وذكرت لت اشياعن كللهم ومر وهنأ عقعذ.

**المعنى:**

لحارس بن شاكمت من قبيلة هفرك ورعي على ثمار شجر الجوز البري لشخص اسمه ضب، وسعى خارجًا من الحرب إلى قبيلته التي عطفت عليه وقدمت له المساعدة، فأقام جحثت النصب من قبيلة حاصد وذبح عليها، فذكرت اللات أبناء القبيلة كللهم ومر"حارس صاحب النقش على" عق عوذ" وهنائه.

**الإيضــاح:**

ل

اللام لام الملكية، بها عادة النقوش الثمودية والصفائية، وتفسر على أنها بواسطة (by) أي كُتب النقش من قبل فلان، أو إلى(for) أو(to)(Littmann 1943:8).

**ح ر س**

علم بسيط، حَرَسَ الشيء يَحْرُسُه حفظه، وأَحْرَسَ بالمكان أقام به حَرْسًا (اللسان مادة: حرس)، عرف بصيغته هذه في نقوش الثمودية (الذييب2003، نقش77: 80)، والصفائية "ح ر س" (Ababneh2005,In854:326؛HIN١٨٤)، وجاء في اللحيانية" ح ر س" (HIN١٨٤ ؛ أبوالحسن٢٠٠٢، نقش٢٩٠: ٢٢٥)، وفي النبطية ورد العلم "ح ر س و" (Cantineau 1978:100).

**ش ك م ت**

علم بسيط على وزن فاعلة، يدلُّ على شِدَّةٍ في شيءٍ وقوّة، والشكيمة شكيمة اللِّجام، والجمع شكائم (ابن فارس١٩٧٢، ج٣: ٢٠٦)، وقد ورد العلم "ش ك م" في النقوش الثمودية (الذييب2003، نقش7: 36)، وظهر في الصفائية "ش ك م" (HIN354).

**أ ل**

"أل" أداة النسب التي تسبق أسماء الأعلام للدلالة على أنه اسم قبيلة، وأصلها "ذ أ هـ ل" كما هو مثبت في النقوش المعينية، والفرق بين هذه وتلك هو أن حرف الهاء تبدل في النقوش العربية الشمالية إلى الهمزة، كما هو الحال في العربية الفصحى (السعيد ١٤٢٤: ٩٩)، "آل": أصلها "أهل" حذفت صوت الهاء للتخفيف (حراحشة٢٠٠٦، نقش٢: ١١٤)، وكذلك يرى البعض أن "آل" منقلبة من "أهل" وهذا مستند على الارتباط الدلالي والتركيبي، إذ إن "هـ" انقلبت "ء" ثم تحولت إلى صوت مد طويل "آ" فأصبحت "آل" (صدقة ٢٠٠٥، نقش ١: ٤٨)، ويرى ليتمان أن "ذ" تلفظ "ذو" كاسم موصول ويكون موافقًا "لذو" كما هو بلهجة قبيلة طيء (ليتمان١٩٤٩: ٢٥٢).

**هـ ف ر ك**

اسم مفرد مذكر على وزن هفعل، الفاء والراء والكاف أصلٌ يدلُّ على استرخاءٍ في الشيء وتفتيلٍ له، فركت الشيءَ بيدي أفرُكه فركًا، والانفراك استرخاء المَنْكِب (ابن فارس١٩٧٢، ج٤: ٤٩٥).

"هـ ف ر ك" اسم قبيلة ثمودية، ونرى أنها ترد لأول مرة في النقوش الثمودية، ظهر في النقوش الصفائية اسم العلم "ف ر ك" (HIN466؛ حراحشة٢٠١٠، نقش47 :42)، ووردت الكلمة "هـ ف ر ك ا" بالنبطية وتفيد معني: القائد،

ويستخدم أيضًا بمعنى: حاكم، والي، وربما يشير هذا اللقب أيضًا إلى منصب عسكري أو إداري (العجلوني٢٠٠٣: ١٧٣).

**و ر ع ي**

الواو حرفُ استئناف، رعي فعل ماضٍ على وزن فَعَل، الراء والعين والحرف المعتل الياء أصلٌ صحيحٌ يعني المراقبة والحفظ رعيتُ الشيء رقبته، والراعي الوالي، والراعي يرعى الماشية يحوطها يحفظها (ابن فارس ١٩٧٢، ج٢ :٤٠٨)، وفي التنزيل قول الله تعالى ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى﴾ {طه آية ٥٤}، كلوا من هذه النباتات والثمار واتركوا أنعامكم تسرح وترعى من الكلأ الذي أخرجه الله (الصابوني١٩٨١،ج٨ :٦١).

هو فعلٌ شائعُ الاستعمال في النقوشِ الثمودية (الذيبب ٢٠٠٠: ١٩١)، وجاء "ر ع ي" في النقوش الصفائية (ISB50؛ الخريشة ٢٠٠٢ نقش١٧: ١٧)، وورد في السبئية على صيغة الفعل "ي ر ت ع ن ن" تعني رعى أو أرتعى، ورد على صيغة "ر ع ى" تعني الراعي (بيستون ١٩٨٢: ١١٣)، وفي اللحيانية ورد على صيغة اسم "هرعي" الراعي (أبوالحسن٢٠٠٢، نقش٢٨٩: ٢٢٣)، ويرد في اللهجة الجبالية والمهرية على صيغة "رع ء" وتعني رعى، أو ارتعى، و "رع ي" تعني الراعي، و "مُ رع ي" تعني: مرعى (مريخ٢٠٠٠: ٣٨٥).

**ع ل**

حرف جر يرد اسمًا وحرفًا بمعنى: فوق، ويرد في النقوش الثمودية بحذف حرف العلة من آخره ويجر الاسم الظاهر ومن معانيه: الاستعانة، الظرفية الزمانية، الظرفية المكانية، والتفصيل والتخصيص، الظرفية بمعنى: فوق، ويأتي بمعنى: إلى (الروسان ٢٠٠٧: ٧٦).

**ض ب ر**

اسم جنس مفرد مذكر على وزن فَعَل، الضَّبِر شجر جَوْز البرّ ينوّر ولا يعقد وهو جوزٌ صلبٌ، وليس هو الرمّان البَرِيّ "أو الفستق البري"، وهو من نبات جبال السَّرَاةِ واحدته ضَبِرَة (اللسان مادة: ضبر)، الضاد والباء والراء أصلٌ صحيحٌ يدل على جمعٍ وقُوّةٍ، ضَبرَ الشَّيءَ: جَمَعه، وضَبرَ الفرسُ قوائِمَه، إذا جَمَعَها ليَثِب (ابن فارس١٩٧٢، ج٣ :٣٨٦)، ونرى أن هذه الكلمة ترد لأول مرة في النقوش الثمودية.

**ل**

انظر لام الملكية في بداية النقش.

**ض ب**

اسم مفرد مذكر على وزن فعل، الضاد والباء أصلٌ واحدٌ، الضَّبّ الغِلُّ في القلب، والضبُّ من دوابِّ الأرضِ، ضبَّ النّاقة، فهو مِثل ضَفَّها إذا حَلَبَها بالكفّ جميعًا ناقةٌ ضَبَّاءُ وبعيرٌ أضبُّ (ابن فارس١٩٧٢، ج٣ :٣٥٨)، وما زال يعيش حتى الآن في البادية الأردنية وهو يشبه الزواحف البرمائية ويأكله البدو كعلاج لبعض الأمراض. اسم ورد في نقوش ثمودية أخرى "ض ب" (BpII156)، وظهر في الصفائية (Ababneh2005,In1076:376 ؛HIN380).

**م س ر ت**

"م س ر ت" فعل ماضٍ مزيد على وزن فعلة، مَسَرَ الشيءَ يَمْسُرُه مَسْرًا، استخرجه من ضيق، يَمْسُرُ الناسَ أي يُغْرِيهِمْ، ومَسَرْتُ به ومَحَلْتُ به أي سَعَيْتُ به، والماسِرُ الساعِي (اللسان مادة: مسر). ونرى أن هذا الفعل يرد لأول مرة في النقوش الثمودية.

**م**

ترد أصلية وزائدة وبصيغتين "من"، و"م" مدغمة ومن معانيها: الابتداء، بيان الجنس، التعليل والسببية، الظرفية المكانية (الروسان ٢٠٠٧: ٧٦).

**ح ر ب**

فعل ماضٍ مجرد على وزن فَعَلَ، الحاء والراء والباء أصلٌ صحيح يفيد السَّلْب يقال حَرَبْتُه مالَه، وقد حُرِبَ مالَه، أي سُلِبَه، حَرَبًا نَقِيضُ السِّلم (ابن فارس١٩٧٢، ج٢: ٤٨)، والحرباء الأرض الغليظة (اللسان مادة: حرب)، ورد "ح ر ب" في نقوش ثمودية أخرى تفيد معنى: الأرض الغليظة (الذييب2003، نقش99: 108)، وظهر في الصفائية "ح ر ب" بمعنى: حارب (SIJ٥٩؛CIS2577)، وجاء في النقوش السبئية "ح ر ب"، بمعنى حارب، و"ح ر ب ت" بمعنى: معركة، قتال (بيستون١٩٨٢: 69).

**أ ل**

حرف الجر يعني: إلى ومن معانيه الانتهاء إلى الغاية الزمنية، والتعين، ويأتي بمعنى: "على" (الروسان ٢٠٠٧ :٧٥).

**أ ص ر ت ي**

اسم جنس مفرد مؤنث، والياء للنسبة، الهمزة والصاد والراء، أصلٌ واحدٌ يتفرع منه أشياء متقاربة، إصْرِي "مِيثاقِي وعَهْدي، العهد يقال له إصْرٌ، والقرابة تسمى آصِرَةٌ، وكل عقدٍ وقرابةٍ وَعهدٍ إصرٌ، والعرب تقول "ما تأصِرُني على فلان آصِرَةٌ"، أي ما تعطفني عليه قرابة، والآصِرَةُ ما عَطَفك على رجل من رَحِم أو قرابة أو صِهْر أو معروف، والجمع الأَوَاصِرُ، ومن معانيها أي عطفوا عليّ بغير عهدٍ ولا قرابة (ابن فارس١٩٧٢، ج١ :١١٠).

ورد "أ ص ر"، في النقوش الثمودية فعلًا ماضيًا مجردًا لازمًا على وزن فَعَلَ بمعنى: عمل خيرًا (Ajlouni 1986:٣٧). ونرى أن هذا الكلمة ترد لأول مرة في النقوش الثمودية.

**ون ص ب**

الواو حرف عطف، "ن ص ب"، فعل ماضٍ مجرد على وزن فعل، النون والصاد والباء أصلٌ صحيح يدلُّ على إقامةِ شيءٍ وإهدافٍ في استواء، والنَّصْب حجرٌ كانَ يُنصَب فيُعبَد، وتصبُّ عليه دماءُ الذّبائح للأصنام، والنَّصائب حجارةٌ تنصَبُ حوالَيْ شَفِير البئر فتجعلُ عضائد (ابن فارس١٩٧٢، ج٥: ٤٣٤).

فعلٌ ظهر في نقوشٍ ثمودية أخرى (المهباش٢٠٠٣ :١٣٠)، وورد "ن ص ب"، في النقوش الثمودية اسم مفرد مذكر، ومؤنث معرف لأنه مسبوق بأداة التعريف الهاء، يعني"الرسم، الرسمة"، وعرف ذلك من خلال رسمة مرافقة لفارس يمسك رمح بيده (أسكوبي٢٠٠٤، نقش ٥٦: ١٠٣)، وورد كذلك "ن ص ب"فعل أمر بصيغة الطلب والترجي يعني: أمرِض"، و النّصب وهو الإعياء من العناء"، والنّصب هو الداء والبلاء والشر"، والنّصب أيضًا هو "المرض والوجع (أسكوبي٢٠٠٤، نقش٢٣٩: ٣٣١)، وظهر في النقوش الصفائية "ن ص ب" (WH1064)، وجاء في اللحيانية "ن ص ب" بمعنى: ما نصب من الحجارة وعبد من دون الله (القدرة ١٩٩٣: ١٣٢).

**و ذ ب ح**

والواو حرف عطف، "ذ ب ح"، فعل ماضٍ مجرد على وزن فعل متعد بمعنى ذبح قدم ضحية (العبادي ٢٠٠٦، نقش١٠: ٥٣)، الذال والباء والحاء أصلٌ واحد، وهو يدلُّ على الشّقّ، فالذَّبح: مصدر ذبَحْت الشّاة ذبحًا (ابن فارس١٩٧٢، ج٢ :٣٦٩). نرى أن هذا الفعل يرد لأول مرة في نقوش ثمودية، وظهر في الصفائية "ذ ب ح" (العبادي ٢٠٠٦، نقش ١٠: ٥٣)، وجاء في النقوش السبئية "ذ ب ح" (بيستون ١٩٨٢: ٣٧).

**ج ح ث ث**

اسم مركب من"جح، وثوث"، الجُحُّ كل شجر انبسط على وجه الأرض، كأنهم يريدون انْجَحَّ على الأرض أي انْسَحَب والجُحُّ: صغار البطيخ والحنظل قبل نُضجِه، واحدته جُحَّة (اللسان مادة: جحح)، ولا يزال يعيش هذا النبات حتى الآن وبكثرة في محيط أودية البادية عامة ووداي راجل خاصة، وهو من النباتات التي تنبت صيفًا وتعيش بعلية.

اسم ورد في نقوش ثمودية أخرى(HIN153)، وظهر في الصفائية(HIN153).

**ثوث**: بُرْدٌ ثُوثِيٌّ: كَفُوفيٌّ، بأَن تاءه بدل (اللسان مادة: ثوث).

**أ ل**

انظر "أل"في بداية النقش.

**ح ص د**

اسم مفرد مذكر على وزن فعل، الحاء والصاد والدال تفيد معنى: قطْع الشيء، حصدتُ الزّرعَ وغيرَه حَصْدا، والحصائد جمع حَصِيدة، وهو كلُّ شيءٍ قيل في الناس باللِّسان وقُطِع به عليهم (ابن فارس ١٩٧٢، ج٢: ٧١). "حاصد" اسم قبيلة ثمودية كان تواجدها في منطقة الجوف شمال الجزيرة العربية (الروسان ١٩٨٧: ١٠٠)، وذكرت قبيلة "حاصد" أيضًا في نقش عثر عليه غرب منطقة الرويشد في البادية الأردنية الشرقية يذكر بأن حرب دارت ما بين قبيلة حاصد الثمودية وقبيلة "ضيف" الصفائية في منطقة بصرى (هدروس١٩٨٧: ١٤٧).

**و ذ ك ر ت**

الواو حرف عطف، "ذ ك ر ت" فعل ماضٍ في حال التأنيث مسبوق بحرف العطف، متبوع باسم الربة اللات يعني: ذكرت (الخريشة ٢٠٠٠: ٦٨)، الذال والكاف والراء أصل صحيح ذَكَرْتُ الشيء، خلافُ نسِيتُه ثم حمل عليه الذِّكْر باللِّسان، اجعلْه منك على ذُكْرٍ، أي لا تَنْسَه، والذِّكر والشَّرَف (ابن فارس١٩٧٢، ج٢: ٣٥٨). ورد هذا الفعل في نقوش ثمودية أخرى (الذييب ١٩٩٩ نقش١٧٣: ١٦٥)، وظهر في الصفائية "ذ ك ر ت" (LP85)، وفي النبطية ورد "ذ ك ي ر" بمعنى: ذكرى (الذييب ٢٠٠٢ نقش٨: ٤٤).

**ل ت**

اللات من الآلهة العربية المعروفة والأكثر ذكرًا في النقوش الصفائية والثمودية، ووردت في القرآن الكريم قال تعالى ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾ (النجم آية ١٩)، قال الخازن: هذه أسماء أصنام اتخذوها آلهة يعبدونها، واشتقوا لها أسماء من أسماء الله عز وجل فقالوا من الله اللات، ومن العزيز العُزّى (الصابوني١٩٨١، ج١٧: ٢٨)، واعتبرت اللات إلهة الصفائيين الرئيسة وأكثرها ذكرًا في دعائهم من خلال نقوشهم ودخل اسمها في العديد من الأسماء المركبة مثل: تيم اللات، وقد مجد في مواضع مختلفة في كل من الأردن، السعودية، سوريا وورد في صيغ مختلفة "ا ل ل ت"، "ل ت""ه ل ت" و"الت" أي اللات" آلهة أنثى، وقد تم الكشف أثناء الأعمال

الميدانية عن كثير من الرسومات الخاصة بها والتي تمثلها امرأة منفوشة الشعر سمينة من وسطها تشبه الآلهة الأم العائدة للعصور الحجرية الحديثة، ويراد بها الشمس، وقد ذكرها ابن كلبي في كتابه الأصنام حيث يقول: "واللات صخرة مربعة وكان يهودي يلت السويق وكان سدنتها من ثقيف، وقد بنو عليها بناء وكانت قريش وجميع العرب تعظمها، ولم تزل كذلك حتى أسلمت ثقيف فبعث رسول (ﷺ) المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها" (ابن الكلبي ١٩٢٤: ١٦-١٧).

**ا ش ي ع ن**

"ا ش ي ع ن"، "أشياعنا"، اسم مضاف إلى ضمير المتكلم، وبناء الكلمة ومعناها كفصحة العربية تمامًا (الخريشة ٢٠٠٠: ٦٨)، وهو جمع تكسير، مفرده شيعة، والشيع القوم الذين يجتمعون على الأمر، وهم أتباع الرجل وأنصاره، وجمعها شِيَع وأشياع (حراحشة ٢٠١٠، نقش١٥٦: ٨٧)، الشين والياء والعين أصل يدلُّ على معاضدة ومساعفة، والشِّيعة هم الأعوان والأنصار (ابن فارس١٩٧٢، ج٣: ٢٣٥). ظهرت هذه الصيغة في النقوش الثمودية أخرى "ا ش ي ع ن" (الخريشة ٢٠٠٠: ٦١)، وجاء في الصفائية "ا ش ي ع" (حراحشة ٢٠١٠، نقش ١٥٦: ٨٧؛ العبادي ٢٠٠٦، نقش٥: ٤٤).

**ك ل ل هـ م**

كلمة مكونة من "كلل" وضمير الجمع المتصل والعائد على قبيلة "حاصد" (الذيبب ١٩٩٩، نقش175: 166)، كلمة تفيد معنى: جميعهم وقد كتبت للدلالة على التضعيف، وأضيفت إلى ضمير الغائبين المتصل بهم (الخريشة ٢٠٠٠: ٦٨). عرفت هذه الصيغة في نقوش ثمودية أخرى (الذيبب ١٩٩٩، نقش175: 166؛ King1990 :685).

**و م ر**

الواو حرف عطف، "م ر" فعل ماضٍ مجرد على وزن فعل، مَرَّ عليه وبه يَمُرُّ مَرًّا أي اجتاز، ومَرَّ يَمُرُّ مرًّا ومُرورا ذهَب، مُرُّ مَرًّا ومُرورًا جاء وذهب، ومرَّ به ومَرَّه: جاز عليه (اللسان مادة: مرر). فعل ورد في نقوش ثمودية أخرى (مهباش٢٠٠٣:125)، وظهر في الصفائية "م ر"بمعنى: مر، اجتاز" (LP1291).

**و س ن أ**

والواو حرف عطف، "س ن أ" فعل ماضٍ مجرد على وزن فَعَلَ، ساناه راضاه سانَيْتُ الرجلَ راضيْتُه وداريته وأحسنت معاشرته (اللسان مادة: سنا)، والمُساناةُ: الملاينةُ في المُطالَبة، سانَيْتُ الرجل، إذا راضيتَه وداريتَه وأحسنَ معاشرته، مأخوذ من قولك سَنَّيْت الشيءَ والأمر إذا فَتَحْت وجهه، تَسَنَّى الرجلُ إذا تسهَّل في أُموره؛ وتَسَنَّيْتُ فلانًا إذا تَرَضَّيْته (الصحاح في اللغة: مادة سنا). نرى أن هذا الفعل يرد لأول مرة في النقوش الثمودية، ظهر في النقوش الصفائية "س ن ي ت" (طلافحة، تحت النشر).

**ع ق ع ذ**

اسم مركب من "عوق، وعوذ"، العين والياء والقاف أصل صحيح ومن الممكن أن يكون بناؤه من عَوق ومن عيق، رجل عَوْق لا خير عنده، والجمع أَعْواق، ورجل عُوَق جبان، كلمة هذليَّة وعاقَهُ عن الشيء يَعُوقه عَوْقًا: صرفه وحبسه والتَّعويقُ: تَرْبيث الناس عن الخير (ابن فارس١٩٧٢، ج٤: ١٩٧). جاء في النقوش الثمودية "ع و ق" (BpII271) وظهر في الصفائية "ع و ق أ ل" (HIN٤٤٩).

العين والواو والذال أصلٌ صحيح يدلُّ على معنىً واحد، وهو الالتجاء إلى الشَّيء، تقول أعوذ بالله، جلَّ ثناؤه، أي ألجأ إليه تبارك وتعالى، عَوْذًا أو عِياذًا (ابن فارس ١٩٧٢، ج٤: ١٨٣). وورد "المصوغ الثنائي "ع ذ" والذي يمكن أن يقرأ "ع و ذ" في نقوش ثمودية أخرى (الذييب ٢٠٠٠ب، نقش٥٩: 60)، وجاء بصيغة "ع ذ" في النقوش الثمودية (BpII32)، وجاء في القتبانية "ع ذ ذ، ع ذ ذ م" (Hayajneh1998:187).

**النقش رقم ٢ أ(اللوحة٢ الشكل ٢):**

عُثِرَ على هذا النقش الثمودي في محافظة اربد شمال الأردن، وفي منطقة سهلية تقع إلى شرق من مدينة الحصن بحوالي ثلاث كيلو مترات على رجم يرتفع قليلاً عن سطح الأرض، وكتب على حجر مستطيل الشكل تقريبًا كلسي ابيض اللون وهو عبارة عن شاهد قبري لشخصيين دفنا في هذا الرجم.

**ل ع ذ ب هـ ن ف س**

**نقله إلى العربية:**

**ل عذب هنفسن**

**المعنى:**

**ل عذاب هذا القبر**

**الإيضاح:**

**ل**

اللام لام الملكية، وتبدأ بها عادة النقوش الثمودية والصفائية، وتفسر على أنها بواسطة (by) أي كُتب النقش من قبل فلان، أو إلى (for) أو (to) (Littmann1943:8).

ع ذ ب

اسم مفرد مذكر على وزن فَعَلَ، العَذْبُ الماء الطيِّب، واستعذبَ القوم ماءهم، إذا استقوه عَذْبًا، والعذاب العقوبة، وقد عذَّبته تعذيبًا (الصحاح في اللغة مادة: عذب)، ونرجح أن الاسم "عذب" في هذا النقش أقرب ما يكون في المعاني السابقة. ورد هذا الاسم في نقوش ثمودية أخرى (BpI209)، وفي الصفائية ورد"ع ذ ب" (HIN411)، وفي المعينية جاء الاسم"ع ذ ب"(HIN411).

هـ ن ف س

الهاء اسم إشارة تفيد معنى: هذا (أسكوبي٢٠٠٤، نقش93: ١٤٧)، "ن ف س" تفيد معنى: القبر، ولا ترد هذه الكلمة في العربية بهذا المعنى وهي كلمة نبطية مأخوذة من الآرامية، وترد تارة بالسين وبالشين تارة أخرى، ففي نقش النمارة وردت بصوت السين "ن ف س"، وفي نقش "فهر بن سلي" وردت بصوت الشين "ن ف ش و" (الحصان٢٠٠٧: ٤٠)، النَّفْس الرُّوحُ، والجمع من كل ذلك أَنْفُس ونُفُوسه (ابن فارس١٩٧٢، ج٥ : ٤٦٠). نرى أن هذا الاسم يرد لأول مرة في النقوش الثمودية، وظهر في الصفائية "ن ف س" (WH244؛ الروسان٢٠٠٦، نقش٣٢٨: ٢٤٧)، وجاء في اللحيانية "ن ف س" (القدرة١٩٩٣ : ١٣٢)، وفي النبطية "ن ف ش و" (CantineauII1978:121).

**النقش رقم ٢ ب (اللوحة ٢ الشكل ٢):**

**ل ن ب هـ ن ف س**

**ل ن ب**

اسم مفرد مذكر على وزن فَعَلَ، ناب عنّي، أي قام مقامي، والنَّوبة واحدة النُّوَبِ وهم يتناوبون النوبة فيما بينهم والنُّوبَةُ الاسم من قولك نابَهُ أمرٌ وانتابه، أي أصابه، والنائبة، المصيبة (الصحاح في اللغة مادة: نوب). نرى أن هذا الاسم يرد لأول مرة في النقوش الثمودية، وظهر في الصفائية "ن أ ب" (HIN577).

**هـ ن ف س**

انظر النقش ٢ أ.

**النقش رقم ٣ (اللوحة ٣ الشكل ٣):**

**ل ت م ب ن ح و ر ب ن ر ف د أ ل بن ق ن ف و و ج م ع ل ك ل ب**

**نقله إلى العربية:**

**ل تم بن حور بن رفدإل بن جانف ووجم على كلب**

**المعنى**

**لتيم بن حور بن رفدإل بن جانف وحزن على كلب.**

ل

اللام لام الملكية، وتبدأ بها عادة النقوش الثمودية، وتفسر على أنها بواسطة (by) أي كُتب النقش من قبل فلان، أو إلى(for) أو (to). (Littmann 1943:8)

ت م

اسم علم بسيط"تيّم"، التاء والياء والميم أصلٌ واحدٌ، وهو التَّعبيد، يقال تَيَّمه الحُبُّ إذا استَعْبَدَه، ومِنه تَيْمُ الله أي عبد الله (ابن فارس١٩٧٢، ج١: ٣٣٩). اسم ورد في النقوش الثمودية أخرى"ت م" (الذييب ٢٠٠٢، نقش١٠٨: ١١٤)، وجاء هذا الاسم في نقوش صفائية (الخريشة ٢٠٠٢، نقش: ١٢٢؛ عبد الله ١٩٧٠، نقش٢١: ٣)، وورد كاسم قبيلة عربية صفائية (عبادي١٩٩٧ ب:٢٢٨).

ح و ر

اسم مفرد مذكر على وزن فعل، الحاء والواو والراء ثلاثة أصول الأول الحَوَر شدّةُ بياض العينِ في شدّةِ سوادِها، والثاني الرجوع، فيقال حارَ، إذا رجَع، والثالث المِحْوَر الخشبةُ التي تدور فيها المَحَالة (ابن فارس ١٩٧٢، ج٢: ١١٥). اسم ورد في النقوش الثمودية أخرى "ح و ر" (الذييب٢٠٠٢، نقش١٠٨: ١١٤)، وجاء هذا الاسم في نقوش صفائية (الخريشة٢٠٠٢، نقش:١٢٢؛ عبدالله ١٩٧٠، نقش٢١: ٣)، وورد كاسم قبيلة عربية صفائية (عبادي١٩٩٧ب:٢٢٨).

رف د أ ل

اسم علم مركب، من العنصر الأسمى "ر ف د"، والعنصر الإلهي "إيل"، ويأتي بمعنى: عطية الإله (الذييب ٢٠٠٢، نقش٣٦: ٥٣)، الراء والفاء والدال أصلٌ واحدٌ مطّرد، وهو المعاوَنة والمظاهَرة بالعَطاء وغيره، فالرَّفْد مصدر رَفَدَهُ يَرْفِدُه، إذا أعطاه، والاسم الرِّفْد (ابن فارس ١٩٧٢، ج٢: ٤١١). اسم ورد في نقوش ثمودية أخرى (الذييب٢٠٠٢، نقش٣٦: ٥٣؛ ٤٠٥ :King 1990)، وجاء هذا الاسم في نقوش صفائية (Ababneh2005,In83:116)، وعرف في السبئية "رف د م" (HIN84).

**ج ن ف**

اسم مفرد مذكر على وزن فعل، الجَنَفُ المَيْلُ والجَوْرُ، وجَنِفَ عليه جَنَفًا وأَجْنَفَ مالَ عليه في الحكم والخُصومة، وجَنِفَ في مُطْلَقِ المَيْلِ عن الحَقِّ، والأَجْنَفُ: المُنْحَني الظَّهْرِ (القاموس المحيط مادة جنف). نرى أن هذا الاسم يرد لأول مرة في النقوش الثمودية.

**و و ج م**

تُعَدّ هذه العبارة من السياقات ذات الشيوع في النقوش الصفائية والثمودية وعبر في دلالتها عن عدة معانٍ منها: حُزْن، حَزِن (صدقة، حراحشة ٢٠٠٥، نقش٢: ٥٥)، والواو حرف عطف وضع حجارة، "وجم" فعل ماض مجرد على وزن فَعَلَ ويرد في اللهجة الصفائية بمعنى: حزن، وضع حجرًا على قبر، ومسبوق بواو الاستئناف (HCH5)، أما المعنى أما في المعجمات العربية: فالوجم هو حجارة مركومة بعضها فوق بعض ترتفع فوق الأرض، على شكل رجم تسمى: الوجم توضع على رؤوس الجبال والآكام، وهي علامات وأبنية يهتدي بها في الصحاري (اللسان مادة: وجم).

ومن خلال المعطيات المادية الميدانية يُلاحظ بأن معظم المدافن كانت وتزال وعبر العصور، ومن العصر الحجري الحديث وحتى الآن دونما انقطاع توضع على رؤوس الجبال والتلال المطلة على الآفاق الواسعة لبعدها الديني لأن المناطق العالية دائمًا تكون أقرب إلى السماء أي أنها قريبة إلى الآلهة، وكما أنها تكون واضحة المعالم، فالزيارة الحولية والنجعات والتي تتم حسب موسم الأمطار لتلك المناطق يصبح القبر الرجمي مزارًا معروفًا عبر الأجيال فتوضع النقوش الرثائية على حوافه، وذلك في الذكرى السنوية أو عند الزيارة أو المرور بالمكان لتؤكد الحزن على الميت، وهذا الأمر يؤكده تراكم النقوش على عدة أجيال والتي تذكر الميت نفسه على ذلك الرجم، والذي يعاد استخدامه أكثر من مرحلة تاريخية كما هو في رجم: العبد، المعن، ومقطع ذيل الفرس وغيرها، مع العلم بأن هذه الرجوم كانت تستخدم أيضًا للمتابعة ورصد الطرائد الحيوانية، ومراقبة طرق القوافل التجارية.

ودلالة "الوجوم" عند أهل البادية الأردنية هو دفن القتيل في رؤوس الجبال لأن ذلك يعطيهم موقعًا للمراقبة لمن حولهم وذلك عندما يكون الغزو فيما بينهم فيدفنون قتيلهم وأعينهم تراقب الجهات المختلفة خشية المباغتة، وكذلك لإبعاد الشخص المدفون عن مسيل الماء، وليبقى اسم صاحب القبر معروفًا لديهم مهما ابتعدوا وارتحلوا عنه، وكان العرب في الجاهلية يضعون على قبر من مات منهم أو قتل حجرًا أو أحجارًا، وهكذا ظلت تلك الأوجام معالم يهتدي بها العرب في الصحراء إلى ما بعد الإسلام. ويتواجد في البادية الأردنية العديد من القبور التي تحمل أسماء لأشخاص ولا سيما من كان مهمًا مثل قبر هانئ، وقبر سعد في منطقة الصفاوي في البادية الأردنية، وقبور في أزمنة مختلفة (الهتم ١٩٩٨، مقابلة شخصية).

**ع ل**

حرف جر يرد اسمًا وحرفًا بمعنى: فوق، ويرد في النقوش الثمودية، الصفائية بحذف حرف العلة من آخره ويجر الاسم الظاهر ومن معانيه: الاستعانة، الظرفية الزمانية، الظرفية المكانية، والتفصيل والتخصيص، الظرفية بمعنى: فوق، ويأتي بمعنى: إلى (الروسان٢٠٠٧: ٧٦).

**ك ل ب**

اسم مفرد مذكر على وزن فعل، الكلب يدلُّ على تَعلُّق الشَّيء بالشَّيء في شِدَّة، والكَلْب كُلُّ سَبُعٍ عَقورٍ، وغَلَبَ على هذا النَّابِحِ (القاموس المحيط مادة: كلب). وكَلْبُ وبنو كَلْبٍ وبنُو أَكْلُبٍ وبنو كَلْبة كلُّها قبائلُ، وكَلْبُ حَيٌّ من قُضاعة، وكِلابٌ: في قريش، وهو كِلابُ بنُ مُرَّة، وكِلابٌ: في هَوازِنَ، وهو كِلابُ بن ربيعة بن عامر بن صَعْصَعة (اللسان مادة: كلب)

وهو اسم ورد في الثمودية (الذييب1999، نقش13 :36)، وجاء الصفائية "ك ل ب" (LP320؛ الذييب2003، نقش: 107، 50)، وجاء "ك ل ب" اسمًا لأحد القبائل الصفائية (الروسان1987:١٢٤)، وفي اللحيانية ورد "ك ل ب" (HIN502)، وظهر في النبطية بصيغة "ك ل ب و" (Negev1990:36)، وفي القتبانية ظهر بنفس الصيغة "ك ل ب" (Hayajneh 1998:221)، وفي التدمرية ظهر بصيغة "ك ل ب ا" (Stark1971:150).

**النقش رقم ٤ (اللوحة ٤ الشكل ٤):**

**ل ز ب د ن ب ن ز ب د ن ذ ا ل ع م ر ت و وج م ع ل ا خ هـ**

**نقله إلى العربية:**

**ل زبدن بن زبدن ذأل عمرت ووجم عل أخيه المعنـ**

**لزبدان بن زبدان ذآل عمرت وحزن على أخيه.**

**ل**

اللام لام الملكية، وتبدأ بها عادة النقوش الثمودية، وتفسر على أنها بواسطة (by) أي كُتب النقش من قبل فلان، أو إلى (for) أو(to). (Littmann 1943:8)

**ز ب د ن**

اسم مفرد مذكر على وزن فعلان، الزاء والباء والدال أصلٌ واحدٌ يدلُّ على تولُّد شيءٍ عن شيء، ومن ذلك زَبَدُ الماءِ وغيرِه، والزُّبْد، وهو العطيّة، يقال زَبَدْتُ الرّجلَ زَبْدا أعطيتُهُ (ابن فارس١٩٧٢، ج ٣: ٤٣). ورد الاسم "ز ب د" في النقوش الثمودية (HIN294)، وجاء في النقوش الصفائية بصيغة "ز ب د" (CIS ٦٤٤)، و"ز ب د ي" (CIS ٢٢١٦)، و"ز ب د إ ل" (CIS 2587)، وفي اللحيانية ورد بصيغة "ز ب د ت" (أبو الحسن٢٠٠٢، نقش٣١٣: ٢٦١)، وظهر في النبطية بصيغة "ز ب د و" (الذييب2003، نقش153 :161)، وفي السبئية ظهر بنفس الصيغة "ز ب د" (HIN294).

**ز ب د ن**

انظر الاسم السابق.

**ذ ا ل**

انظر النقش ١.

**ع م ر ت**

اسم مفرد مذكر على وزن فعلة، العَمْر والعُمَر والعُمْر الحياة (اللسان مادة: عمر). وعمرت اسم قبيلة ثمودية ذكرت في نقش في منطقة الجوف (الذييب ٢٠٠٣، نقش٧: ٣٨)، وورد اسم "ع م ر ت" أيضًا اسمًا لقبيلة صفائية أيضًا وموقعها في بادية الشام والاجفايف بالأردن (الروسان١٩٨٧: ٣٣٦).

**و و ج م**

انظر النقش ٣.

**ع ل**

انظر النقش ٣.

**أ خ هـ**

اسم مفرد مضاف إلى الضمير المتصل المفرد المذكر للغائب، والعائد لصاحب النقش وتعني: "أخيه" وهذه الصيغة وردت في نقوش ثمودية أخرى (الذييب ٢٠٠٣، نقش١: ٣١).

**النقش رقم ٥أ (اللوحة٥ الشكل ٥):**

**ل س ع د ل هـ ب ن ح ل م و ق ي ظ ع ل ر س**

**ن ح....و ف ع د ....**

**و و ا ل**

**نقله إلى العربية:**

**لسعد اله بن حلم بن.... وقيظ على رسن**

**ح..و فعد ووأل.**

**المعنى:**

**لسعد اله بن حالم بن.....وقيظ على "نوع النبات "ح..و والتجاء إلى "المكان الذي يوجد فيه" الماء.**

**ل**

اللام لام الملكية، وتبدأ بها عادة النقوش الثمودية والصفائية، وتفسر على أنها بواسطة (by) أي كُتب النقش من قبل فلان، أو إلى (for)أو(to)(Littmann 1943:8).

**س ع د ا ل هـ**

اسمُ علم مركب، السينُ والعينُ والدالُ أصلٌ واحدٌ يدلُّ على خيرٍ وسرور خلافَ النحسِ (ابن فارس 1972، ج٣:٧٥)، السعد اليمن وهو نقيضُ النحسِ، والسعادةُ خلافُ الشقاوةُ، والسعد والسعود كوكبان، والسُّعُد "بالضمِ" من الطيبِ والسعد ضَرْبٌ من التمر، وبنو سعد من القبائلِ العربيةِ الكبيرة وأما سعد بكر فهم أظآر سيدنا محمد (ﷺ)، وسعد اسم مكان بنجد (اللسان مادة: سعد).

وهو اسمٌ ورد في الثمودية (TIJ 89؛ الذييب2000، نقش41، ص49)، وجاء في الصفائية "س ع د"(ISB,113؛ طلافحة 2000، نقش، 55:أ24)، و"س ع د" اسمًا لأحد القبائل الصفائية (الروسان1987:317)، وفي اللحيانية ورد"س ع د" (أبو الحسن2002، نقش 151:240)، وظهر في النبطية بصيغة "س ع د و" (Khraysheh 1986:181)، وفي القتبانية ظهر بنفس الصيغة "س ع د"( Hayajneh 1998:160)، وفي التدمرية ظهر بصيغة "ش ع د" (Stark1971:115)، وهو من الأسماءِ المعروفة عند العرب البدو (Hess 29: 1912).

**إ ل هـ**

إله تدلُ على "الله" مسبوقًا بهاء النداءِ وأصله "إلهه" وتكونُ مع الأسماءِ المركبةِ، ونلحظ أن "الله" كان إلهًا تعبد بهِ العربُ قبل أن يصبح الإله الواحد عند المسلمين، وكان العربُ يدعون الله كما يدعون اللات لتكتب لهم السلامة (ديسو١٩٥٩: ١٣٤)، وكما عرف النبطيون "إله" وذلك لوروده مع بعض الأعلامِ النبطية المركبة مثل "أوس أ ل هـ ي" (الذييب١٩٩٤: ١٦١)، وعرف عند العرب الجنوبيين وهذه دلالة أن الله معروفٌ عند العرب قبل الإسلام وكان مقدسًا (الروسان١٩٨٧: ٤٣١)، وتعبد الثموديين "بإله" وقد نعتوه بعدة صفات منه الحي، الحكيم، المساعد، المنتقم (طلفاح١٩٩٣: ٤٥).

ح ل م

اسم مفرد مذكر على وزن فعل، الحلم ترك العَجَلة والحِلْم خلافُ الطَّيش (اللسان مادة حلم).

و ق ي ظ

الواو حرف استئناف، القيظ هو صميم الصيف، وهو من طلوع الثريا إلى طلوع سهيل، والجمع أقياظ، وقيوظ (اللسان مادة: قيظ). ورد هذا الفعل في نقوش الصفائية والثمودية عديدة، وصحب بأفعال تشير إلى الخوف، والقلق، وعدم الاستقرار، ولعل ذلك بسبب طبيعة القيظ الصحراوي، حيث يقل الماء والكلأ فيكون عرضة لهجمات وإغارة القبائل على بعضها البعض (المعاني ٢٠٠٤: ٢٠١).

ع ل

انظر النقش (٣).

ر س ن

اسم جنس نوع من النبات، والرَّاسَن نبات يشبه نبات الزنجبيل (اللسان مادة: رسن). ونرى أن هذا الاسم يرد لأول مرة في النقوش الثمودية.

ح...ص

ف ع د

الفاء حرف عطف، "ع د" اسم جنس، العِدُّ الماء الذي له مادَّةٌ لا تَنْقَطِعُ كماء العين والبئر، والجمع الأَعْداد، والقَديمُ من الرَّكايا عِدًّا، والماءُ العِدُّ بلغة تميم الكثير، وبلغة بكر بن وائل يطلق العِدُّ على الماءُ القليل (اللسان مادة: عدد). ونرى أن هذا الاسم يرد لأول مرة في النقوش الثمودية.

....

و و أ ل

الواو حرف إستئناف، "و أ ل" فعل ماضٍ مجرد لازم على وزن فعل، وَأَلَ يَئِلُ، وائِلُ إذا التجأ إلى موضع ونَجا (اللسان مادة: وأل)، ويرد كذلك "وأل" اسمًا، وهو الاسم الخاص "وائل" في كتاب الأنساب العربية في وقتنا الحاضر (السعيد١٤٢٤، نقش١٥: ١١٩)، وفي التنزيل قول الله تعالى﴿ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ {الكهف آية ٥٨}، لن يجدوا لهم ملجأ ولا منجى (الصابوني١٩٨١،ج٨: ٢١)، وكلمة "مَوْئِلًا" تأتي بمعنى: "ملجأ" بلغة بني كنانة (سلوم١٩٨٧: ٤٨١).

وورد"و أ ل"اسمًا في نقوش ثمودية أخرى (الذييب١٩٩٩، نقش٥: ٢٨)، وورد أيضًا "و أ ل ت" اسمًا في النقوش الثمودية (الذييب٢٠٠٢، نقش٦٨: ٨٠)، وظهر هذا الفعل في النقوش الصفائية (WH٨٢٢؛CSNS422)، ورد أيضًا "و أ ل" اسمًا في نقوش صفائية (علولو١٩٩٦، نقش٣٤٥: ١٢٩).

**النقش رقم ٥ب (اللوحة ٥ الشكل ٥):**

**ل ق ي ص بن أ د م ن بن ق ي ص**

ل

اللام لام الملكية، وتبدأ بها عادة النقوش الثمودية والصفائية، وتفسر على أنها بواسطة (by) أي كُتب النقش من قبل فلان، أو إلى (for)أو(to)(Littmann 1943:8).

ق ي ص

اسم مفرد مذكر على وزن فعل، قسْتُ الشيءَ بالشيء: قدَّرته على مثاله، ويَقْتاسُ الولد بأبيه اقْتِياسًا، أي يسلك سبيله ويقتدي به (الصحاح في اللغة مادة: قيس).

ورد الاسم "ق ي ص" في النقوش الصفائية (HIN492)، حيث مالت اللهجات العربية القديمة أمثال لهجتي: لهجة أسد وتميم إلى إبدال السين صادًا، ووجد كذلك تشابه بين اللهجات العربية القديمة واللهجة اللحيانية، فقد وجد في نقوشهم أنهم يبدلون السين صادًا، ومثال ذلك: "واصق" و "صقًا" بدل "واسق" "وسقًا" وفي لهجات نجد الحديثة يقولون: "خير الأمور أوصطها"، ولهجة أهل البادية الأردنية تؤثر صوت الصاد على صوت السين في بعض الكلمات، ولا سيما إذا كانت في أوائل الكلمات: "صيخ" في "سيخ"، "وإصْماط في سماط"، "وصمل" في "سمل" وصجن في سجن". (طلافحة ٢٠٠٠: 114). والتفسير الصوتي لتفخيم السين وقلبه صادًا أن كلا الصوتين من مخرج واحد ومطبقان وكلاهما صوت رخو مهموس ولا فرق بينها إلا في سين مرققة وصاد مفخمة (عبد الجليل ١٩٩٨: ١٦٤)، نرى أنه حدث في هذا الاسم إبدال بين حرف السين وحرف الصاد، فأصبح "قيص" بدل "قيس".

أ د م ن

اسم مفرد مذكر على وزن أفعل، الدِمْنُ البَعَرُ، والدمْنَةُ آثار الناس، والدِمْنَةُ الحقد، والجمع دِمَنٌ، ورجلٌ مُدْمِنُ خمرٍ، أي مداومُ شربها (الصّحّاح في اللغة مادة دمن).

ق ي ص

انظر اسم صاحب النقش.

## خَاتِمَةُ

قدمت هذه النقوش موضوع البحث قضايا تاريخية ولغوية واجتماعية في دراسة وفهم حياة الإنسان العربي قبل الإسلام، حيث بين صاحب النقش الأول انه من قبيلة "هفرك" كان يرعى عند شخص اسمه "ضب" وقد شارك في غزو وقد نجى منها ووصل إلى قبيلة التي قدمت له المساعدة وأقام شخص آخر واسمه "جحثث" من قبيلة حاصد الأنصاب وذبح عليها فذكرت اللات أبناء القبيلة جميعًا ومر صاحب النقش والذي اسمه "حارس" وقدم التهنئة ل "عق عوذ"، أما النقش الثاني فهو شاهد قبري لشخصيين دفنا في رجم وحيد في ارض سهليه تقع شرق بلدة الحصن شمال الأردن، وتعتبر هذه المكان من المناطق التي يندر أن يرتادوه الثموديين ولكن لا نستطيع أن نقدم الدليل أو نرجح رأيًا حول وجود هذا الحجر الذي كتبا عليه هذين الشاهدين القبرين، أما النقش الثالث فهو لشخص اسمه تيم وجم على شخص آخر اسمه كلب، وهذه الصيغ معروفة في النقوش العربية القديمة وخاصة ما هو في شمال الجزير العربية مثل الثمودية والصفائية والوجوم هو وضع الحجارة على القبر كدليل على تقديم العزاء والحزن، وكذلك في النقش الرابع بأن شخص واسمه زيدان من قبيلة عمرت وجم على أخية وكما في النقش الثالث وأما النقش الخامس فهو لشخص اسمة "سعد" امضى فترة القيض في منطقة خصبة وفيها الماء، ويوجد بعض الكلمات غير واضحة في النقش وأما النقش الخامس: "ب" والموجود على نفس الحجر فهو لشخص اسمه قيص وهو نقش تذكاري ذكر فيه اسمه واسم أبيه وجدة.

بينت هذه النقوش أن هناك التقاء في بعض مفردات النقوش واللهجات العربية القديمة مثل: بني كنانة في كلمة "مَوْئِلا"، ودلت المقارنة لبعض الأسماء والأفعال مع النقوش السبئية والمعينية القتبانية والنبطية واللحيانية والثمودية على مدى انتشار بعضها وانحسار بعضها.

## المختصرات

**ADAJ :**Annual of the Department of Antiquites of Jordan

**CIS** :Crops Inscriptionum Semiticarum

**HCH** :G.L. Harding.1953.

**HIN:** Harding,G.L.1971.

**ISB:** W.G .Oxtoby.1968.

**RĖS:** South Arabian Insciptions in:Repertoire d,Epigraphie, Semitique,Acadamie des Inscriptiones et.Bells-Lettrs , Paris.

**LP:**Littmann,E.Safaitic Inscriptions,1943.

**SIJ** Winnett.F.V.Safaitic Inscriptions from Jordan,1957.

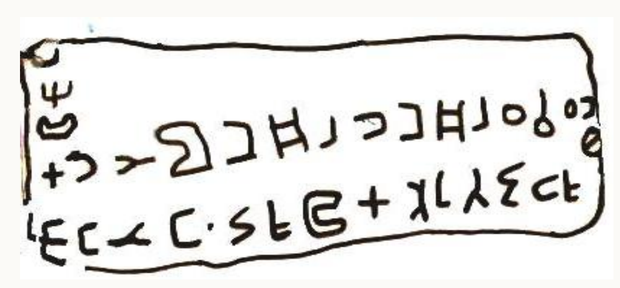
**TIJ**: Harding,G.and Littmann,E.1952.

**WH:** Winnett.F.V. and Harding,G.L.1978.

## الملاحق



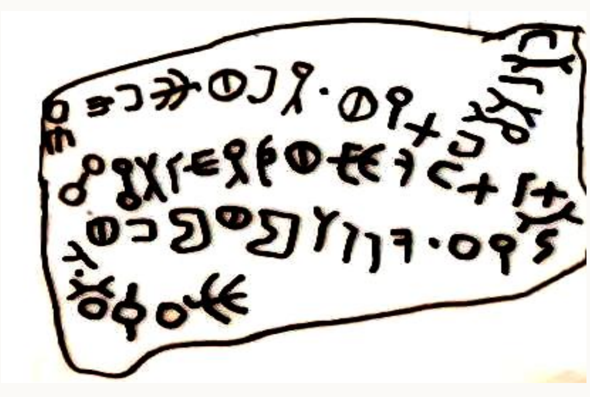
اللوحة١: لقطة للحجر النقش رقم١ أ

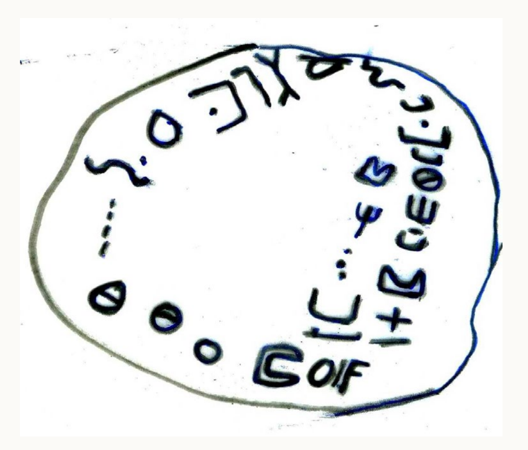


الشكل:١ تفريغ الكتابات في اللوحة رقم ١أ النقش١


اللوحة١: لقطة للحجر النقش رقم١ ب

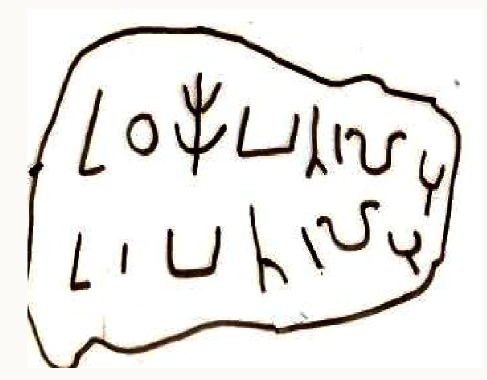

اللوحة٣: لقطة للحجر النقش رقم ٣ .

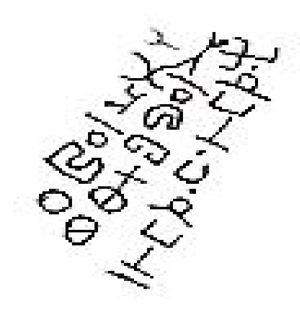

الشكل: ١ تفريغ الكتابات في اللوحة رقم ١ ب النقش١ ب.


الشكل: ٣ تفريغ الكتابات في اللوحة رقم ٣ النقش رقم ٣.


اللوحة٢: لقطة للحجر النقش رقم٢

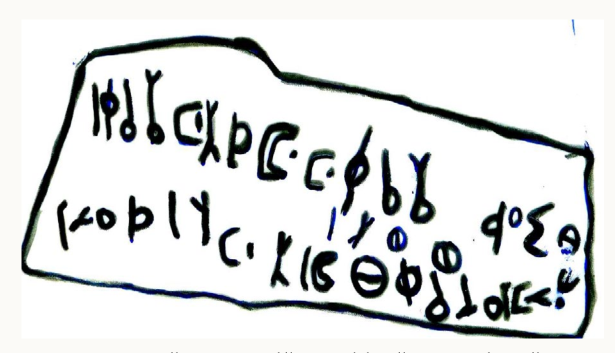

اللوحة٤: لقطة للحجر النقش رقم ٤ .


الشكل: ٢ تفريغ الكتابات في اللوحة رقم ٢ النقش رقم ٢.

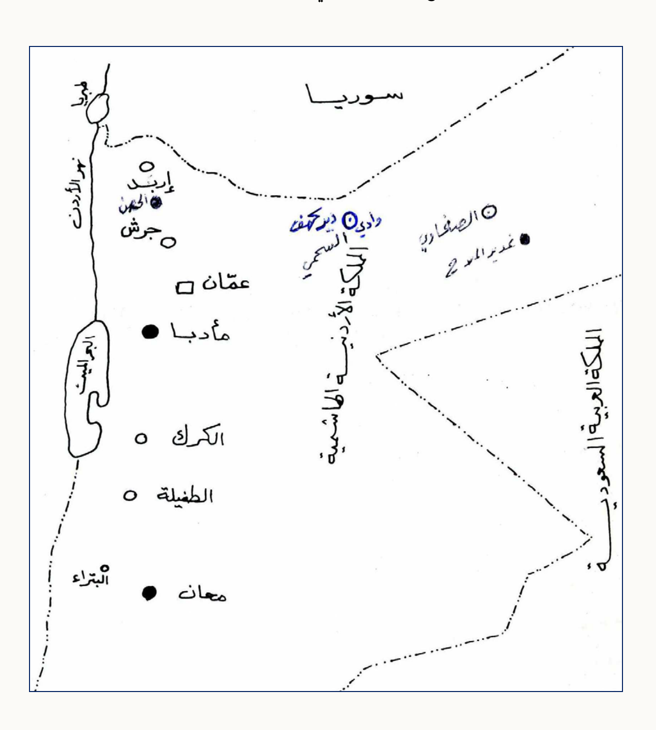

الشكل: ٤ تفريغ الكتابات في اللوحة رقم ٤ النقش رقم ٤ .



اللوحة٤: لقطة للحجر النقش رقم ٥.



الشكل: ٥ تفريغ الكتابات في اللوحة رقم ٥ النقش رقم ٥.




خارطة الأردن

ويبين عليها موقع معان، الحصن، غدير الملاح، وادي السحمي

## المراجع

### أولاً: المراجع العربية


- أسكوبي، خالد ٢٠٠٤، **النقوش الثمودية بين الحجر وعقيلة أم ذناصر دراسة تحليلية** رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الملك سعود، الرياض.
- بيستون، جاك، ريكمنز، الغول، محمود، والتر، مولر.١٩٨٢، **المعجم السبئي**، مكتبة لبنان، ودار نشريات بيترز، بيروت.
- الجوهري، إسماعيل بن مراد، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق احمد عبد الغفور العطار، دار العلم للملايين، بيروت.
- حراحشة، رافع١٩٩٤، **الفعل في النقوش الصفوية**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد.
- .........، ٢٠٠٧، نقوش صفائية من البادية الأردنية، **مجلة النقوش والرسوم الصخرية** العدد الأول، دائرة الآثار العامة، عمان، الأردن.
- ........، ٢٠١٠، **نقوش صفوية من البادية الأردنية دراسة وتحليل، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع**، طبع بدعم من وزارة الثقافة، عمان، الأردن.
- الخريشة، فواز٢٠٠٢، **نقوش صفوية من بيار الغصين، مدونة النقوش الأردنية**، منشورات جامعة اليرموك، عمادة البحث العلمي والدراسات، إربد.
- .....، فواز٢٠٠٠ ، أدوماتو، الرياض.

أبو الحسن، حسين.٢٠٠٢، **قراءة جديدة لكتابات لحيانية من جبل عكمة بمنطقة العلا**، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.

- الحصان، عبد القادر محمود ١٩٩٩، **محافظة المفرق ومحيطها عبر رحلة العصور**، دراسات ومسوحات أثرية ميدانية، منشورات وزارة السياحة والآثار، مطابع الأرز، عمان، الأردن.
- ........، ٢٠٠٨، **القلاع والخانات التركية العثمانية على طريق الحاج الشامية في الديار الأردنية**، الطبعة الأولى منشورات وزارة الثقافة، مطبعة السفير، عمان.
- ديسو، رنيه١٩٥٩، **العرب في سوريا قبل الإسلام**، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، راجعه محمد مصطفى زيادة، نشرته لجنة التأليف والنشر، القاهرة.
- الذييب، سليمان بن عبد الرحمن ١٩٩٤، دراسة تحليلية جديدة لنقوش نبطية من موقع القلعة بالجوف: المملكة

العربية السعودية، **مجلة جامعة الملك سعود، الآداب(١)**، مج٦، ص ص١٥١_١٩٤.

- ......١٩٩٨، **نقوش الحجر النبطية**، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.
- ......١٩٩٩، **نقوش ثمودية من المملكة العربية السعودية**، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.
- ......٢٠٠٠، **نقوش قارا الثمودية بمنطقة الجوف:لمملكة العربية السعودية**، الرياض، مؤسسة عبد الرحمن السديري الخيرية.
- .......٢٠٠٠ أ، **المعجم النبطي**، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.
- ......٢٠٠٢، **نقوش ثمودية من سكاكا (قاع فريح، والطوير،والقدير)**، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.
- .....٢٠٠٣، **نقوش صفوية من شمالي المملكة العربية السعودية**، مؤسسة عبد الرحمن السديري الخيرية، الرياض.
- ......٢٠٠٣ أ، **نقوش ثمودية جديدة من الجوف ـ المملكة العربية السعودية**، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.
- الروسان، محمود١٩٨٧، **القبائل الثمودية والصفوية دراسة مقارنة**، جامعة الملك سعود، عمادة شؤون المكتبات، الرياض.
- .........٢٠٠٦، **نقوش صفوية من وادي قصاب بالأردن دراسة ميدانية تحليلية مقارنة**، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة الملك سعود، الرياض.
- ...........٢٠٠٧، حروف الجر ودلالاتها في النقش الصفائية، **مجلة النقوش والرسوم الصخرية، العدد الأول**، دائرة الآثار العامة، عمان.
- السعيد، سعيد١٤٢٤، نقوش ثمودية من تبوك، **الدارة**، العدد الرابع ـ السنة التاسعة والعشرون، ص٩٧_١٢٩، الرياض.
- سلوم، داود١٩٨٧، **المعجم الكامل في لهجات الفصحى**، عالم الكتاب، بيروت.
- الصابوني، محمد على، **صفوة التفاسير**، دار القران الكريم، لبنان، بيروت.
- صدقه، ٢٠٠٥، **فهم جديد للفعل خرص في النقوش الصفوية**، وقائع ملتقى اليرموك الثاني لدراسة النقوش والكتابات القديمة، تحرير عمر الغول، جامعة اليرموك، اربد.
- طلافحة، زياد٢٠٠٠، **لغة النقوش الصفوية وصلتها بلهجة أهل البادية الشمالية الأردنية**، دراسة مقارنة، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة.
- طلفاح، أحمد ١٩٩٣، **الآلهة عند الثموديين**، رسالة ماجستير غير منشورة، أربد، جامعة اليرموك.
- العبادي، أحمد. ١٩٨٧؛ في ربوع الأردن: جولات ومشاهدات، عمان: دار الفكر.
- العبادي، أحمد١٩٨٧، **جولات ومشاهدات في ربوع الأردن**، دار الفكر، عمان.
- عبادي، صبري١٩٩٦، نقوش صفوية جديدة في الأردن/وادي الحشاد، **مجلة دراسات، المجلد الثلاث والعشرون**، العدد الثاني، ص ص٢٤٢ ـ ٢٥٢، الجامعة الأردنية.
- .......، صبري١٩٩٧ب، نقش صفوي من متحف التراث الأردني في معهد الآثار والأنثروبولوجيا في جامعة اليرموك، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، ٢٤، العدد الثاني، ص ص٢٢٧ ـ ٢٣٣.
- .....، صبري، ٢٠٠٦، **نقوش صفوية من وادي سلمي"البادية الأردنية"**، مطبعة الجامعة الأردنية، عمان.
- عبد الله، يوسف، ١٩٧٠، **نقوش صفوية في متحف جامعة الرياض**، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأمريكية، بيروت.
- عجلوني، أحمد٢٠٠٣، **حضارة الأنباط من خلال نقوشهم**، مشروع بيت الأنباط للتأليف والنشر، البتراء، الأردن.
- ابن فارس، أبو الحسن أحمد١٩٩٠، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة.
- القدرة، حسين محمد عايش١٩٩٣، **دراسة معجمية لألفاظ النقوش اللحيانية في إطار اللغات السامية الجنوبية**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد.
- ليتمان، إنو١٩٤٧، لهجات عربية قبل الإسلام، **مجلة مجمع اللغة العربية**، القاهرة.
- الكلبي، أبو منذر هشام بن محمد بن سائب١٩٢٤، **كتاب الأصنام**، تحقيق أحمد زكي باشا، القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر.

- مريخ، عادل ٢٠٠٠، **العربية القديمة ولهجاتها دراسة مقارنة بين ألفاظ المعجم السبئي وألفاظ لهجات عربية قديمة (الجبالية والمهرية)**، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي.
- ابن منظور١٩٥٥، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت.
- المهياش ٢٠٠٣، **خالد بن عبد العزيز، مفردات النقوش الثمودية دراسة دلالية مقارنة في إطار اللغات السامية**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك سعود، الرياض.
- الهتم، شحادة محمد ١٩٩٨، **مقابلة ميدانية**، الصفاوي، الأردن.


## ثانيًا: المراجع غير العربية


- Ababneh, M.,2005, **Neue Safaitische Inschriften und deren bildliche Darstellungen**,Aachen.
- Cantineau, J.,1978. **Le Nabatéen,** Paris :Librairie Ernest Leroux (2vols).
- Branden, AIb. Van Den., (1956) A, **Les Textes Thamoudeensde Philb,vol.1, Inscriptions dud,** Louvain: Bibliotheque Museon, vol.40.
- **CIS** :Crops Inscriptionum Semiticarum.
- **Harding**,G. L. 1971. **An Index and Concordance of pre-Islamic Arabian Names and Inscriptions**: Toronto.(HIN)…….,1953.
- The Cairn of Hani`.**ADAJ 2**:8-56 (HCH).
- Hayajneh,H,.1998, **Die Personennamen der qatabanichen Inscriften,** Hildesheim:Georg Olms Verlag.
- Hess, J1912, **Beduinennaman aus Zentra-arabien**. Heidelbberg.
- King,G., **Early North Arabian Thamudic E: A Preliminary description based on a new corpus of inscriptions from the Hisma desert of southern of Jordan and published material,Unpublished Ph.D thesis** School of Orriental and African Studis, 1990, P.500.
- Negev, A.1991 **Pesonal Names in the Nabatean Realem,** Jerusalem: Qedem Mongraphs of the Institute of Archaeology (PNNP).
- Littmann, E.,1943. **Safaitic Inscriptions,** Leiden: Publications of Princeton University Archaeological Expeditions to Syria in 1904-1905 and1909.(LP).
- Oxtoby, W. 1968. **Some of the Safaitic Bedouin,** New Haven: American Oriental Series 50.( ISB).
- RĖS: **South Arabian Insciptions in: Repertoire d,Epigraphie, Semitique** Acadamie des Insciptions et, Bells-Lettrs, Paris.
- Al - Said, S.1995. **Die Personennamen in den minäischen Inschriften,** Wiesbaden: Harrassowoitz.
- Winnett, F. Harding .G.1978. **Inscriptions from Fifty Safaitic Cairns:** Toronto: University of Toronto Press, (WH).
- Winnett.F.V.1957.**Safaitic Inscriptions from Jordan**, Toronto: University of Toronto Press, (SIJ).

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

مقالات

# مسيلة والماسيل
# مقاربة موجزة في أصول مدينة مسيلة

**أ. د. العربي عقون**
أستاذ التاريخ القديم والآثار
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة قسنطينة (٢) – الجمهورية الجزائرية

## مُلَخّص

*إنّ الطوبونيميا هي أحد روافد المعرفة التاريخية، والحال أنّ المادّة التاريخانية المتعلّقة بتاريخنا القديم نادرة في المصادر الأدبية ما عدا بعض الإشارات هنا وهناك، في هذه الظروف لا يبقى سوى وسيلة واحدة: الحفريات اللسانية، أداة لمحاولة رأب الصدع الذي نتج عن ضياع الوثائق التاريخية عبر العصور. تحمل الطوبونيميا إذن دلالات عميقة، تتجاوز مجرّد التسمية إلى هوية المكان. في هذا السياق نحاول من خلال هذه المقاربة الموجزة دراسة الأصول التاريخية لمدينة مسيلة زابي في الفترة الرومانية، محمّدية خلال العهد الإسلامي. لقد أصبح موضوع الطوبونيميا يثير الكثير من التساؤلات حتى في الأوساط الأكاديمية وقد يبدو الأمر هيّنا عند البعض، ولكن الموضوع على درجة من الأهمية، لأن اسم المكان يحمل هوية المكان، فضلاً عن أنه عنوان لتاريخ طويل، ولذلك أردنا من خلال هذه المقاربة الموجزة تقديم محاولة لربط مدينة مسيلة بتاريخها من خلال اسمها العريق بقدر عراقتها، فيثير التقارب إلى حدّ التطابق الفوني بين اسم مدينة مسيلة قاعدة إقليم الحضنة، والماسيل (Massyles) وهو ذلك الاتحاد القبلي الذي انبثقت منه أعرق عائلة ملكية في تاريخ أفريقيا الشمالية القديم فضولاً معرفيًا يدفع إلى البحث والتقصّي في المصادر القديمة وحتّى التراث الشفوي.*

**بيانات المقال:**

تاريخ استلام المقال: ٢٥ فبراير ٢٠١٧
تاريخ قبـول النشـر: ١٧ يونيو ٢٠١٧

**كلمات مفتاحية:**
الطوبونيميا، مسيلة، الماسيل، تاريخ أفريقيا الشمالية، تاريخ أفريقيا القديم

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0054793

**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**
العربي عقون. "مسيلة والماسيل: مقاربة موجزة في أصول مدينة مسيلة".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الثاني والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٨. ص ٢٦ – ٣٠.

## مُقَدِّمَةُ

يثير التقارب إلى حدّ التطابق الفوني بين اسم مدينتنا: مسيلة قاعدة إقليم الحضنة، والماسيل (Massyles) وهو ذلك الاتحاد القبلي الذي انبثقت منه أعرق عائلة ملكية في تاريخ أفريقيا الشمالية القديم فضولاً معرفيًا يدفع إلى البحث والتقصّي في المصادر القديمة وحتّى التراث الشفوي، وها هي ذي الإنياذة[١] تخلّد هؤلاء الماسيل في معرض قصّة ذلك الطروادي الضالّ (إينيوس Enée) الذي كان يسير بجوار ساحل مدينة كومة (Cumes)[٢] حتّى وصل إلى كهف عرّافة ليجد نفسه في حضرة كاهنة أبولون (Apollon)، فتوجّه بالدعاء إلى ذلك الإله ضارعا إليه شاكرًا له حمايته إياه، وهو يجوب البحار والبراري: "... لقد مخرت بحارا عديدة في ظلّ رعايتك! ودخلت أراضي شعب الماسيل البعيدة! والبلاد التي يحدّها السيرت!".[٣]

لقد كان تراث شعوب البحر المتوسط محلّ عناية العديد من الباحثين الذين أنجزوا أعمالاً خالدة في هذا المجال، وهي أعمال تشدّ القارئ وتثير فيه الخيال الملحمي الذي لا يخلو من الحقيقة، عن الجغرافيا المتوسّطية: الموانئ والجزر والأقوام التي عاشت على ضفاف المتوسّط، مهد الحضارات القديمة،

ومن تلك الأقوام: شعب الماسيل الذي كانت له مملكة في نوميديا ما بين قرطاج وموريتانيا، ومن أبرز ملوك هؤلاء الماسيل: ماسينيسا ***(Masinissa)*** خطيب الأميرة القرطاجية صوفونيسبة[٤] التي هزّت مأساتها أحاسيس العديد من الشعراء لأنّ الشعر عند القدامى ليس لتحريك شعور السامع والقارئ فحسب ولكن كان دوره أن يرسّخ –على الخصوص– الثقافة والمعرفة في أوساط الشعب، ممّا يوحي بأنّ هؤلاء الماسيل الذين كانوا يسكنون المنطقة الشرقية من الجزائر الحالية، كانت لهم عاصمة اسمها دون ريب "ماسيلا ***Massyla***" ومع أنّ كتب التاريخ العربية تقول أنها تأسّست سنة ٣١٥ هـ[٩٢٧-٩٢٨م] من طرف أبي القاسم محمّد بن عبيد الله[٥] إلاّ أنّ الموضوع تبيّن أنّه أعمق من ذلك بكثير، والحال أنّ علاقة الأعلام الجغرافية والقبلية القديمة بالأسماء الحديثة ليست محض صدفة والمقاربة بينها على جانب كبير من الأهمّية، وهذا للاستفادة من معطيات الطوبونيميا.[٦]

في الواقع لا يزال سكّان البوادي المجاورة لمسيلة يطلقون اسم بني مسيل ***(Béni-M'sil)*** على الحضر من سكّان مسيلة وهم أقدم سكّانها، ولعلّ الذاكرة الشعبية التي احتفظت بهذه التسمية – إن لم تكن مصادفة – تشير إلى سكّانها القدامى الماسيل، وهذا يدعّم فرضية نزوح الماسيل القدامى إلى ناحية مسيلة بعد إجلائهم من طرف الاستعمار الروماني من الأراضي التلّية المجاورة لسيرتا. ظهرت المدينة خلال الفترة الرومانية باسم زابي اليوستنيانية ***(Zabi Jusiniana)*** ولكن هذا الاسم طواه التاريخ إلا إذا اعتبرنا أنّ اسم الزاب الحديث هو استمرار حيّ له خاصّة وأنّه علَم على واحات بسكرة المجاورة، أما في مسيلة فقد بقي اسم البازيليكا[٧] مما يدلّ على أهمية المدينة إداريًا وكنسيًا.

## ١- ارتباط أسماء المدن باسم ساكنيها

من المعروف أنّ عددا هامّا من أسماء الأماكن احتفظ بذكرى أقوام كانوا يسكنون فيها ذات فترة تاريخية وتركوا أسماءهم لتدلّ على ذلك، والأمثلة كثيرة في هذا الباب، وحتّى في جهات أخرى من العالم مثل اليونان وفارس وفلسطين؛ هذه البلاد تحمل أسماء شعوبها، وبلاد مثل جرمانيا ***(Germanie)*** والعربية ***(Arabie)*** وفرنسا ***(France)*** هي بلاد يسكنها على التوالي: الجرمان والعرب والفرنجة، والذي يصدق على البلدان يصدق على الجبال والأودية والسهول، فالإقليم يأخذ اسم الشعب الذي يسكنه، والنهر قد يأخذ اسم الشعب الذي يسكن على ضفافه، والمدينة في كثير من الأحيان تأخذ اسم القبيلة التي أسّستها أو سكنتها، والشمال الأفريقي يؤكّد ذلك مع أنّه ليس قاعدة عامّة فالفضاء الذي تشغله قبيلة أو كنفدرالية قبائل يأخذ اسم تلك القبيلة أو الكنفدرالية، ومصداقا لهذا نجد جبل هنتاتة جنوبي مرّاكش وجبل شفشاوة، وهنتاتة وشفشاوة كما نعرف هما قبيلتان تسكنان تلك الجبال[٨] والأمثلة في الجزائر كثيرة، ففي الأطلس البليدي نجد جبل بني مصرة وجبل موزاية وإلى الجنوب من بوسعادة نجد جبال أولاد نايل، وإلى الجنوب من مدينة عنّابة نجد جبال بني صالح وإلى الشرق من أوراس نجد جبال وبلاد النمامشة، هذه الجبال كلّها تسمّى باسم الأقوام التي تسكنها[٩].

ما يصدق على الجبال يصدق على الأودية، ففي مرّاكش هناك وادي شفشاوة وقرب البليدة هناك وادي موزاية وفي الصحراء وادي امزاب، وفي المتّيجة وادي واجار الذي يخترق إقليم قبيلة واجار، أمّا المدن التي تحمل اسم قبيلة لأنّها أنشئت فوق إقليمها فهناك أمثلة عديدة منها في المغرب: مكناس: مدينة قبيلة مكناسة وقصر مصمودة ما بين سبتة وطنجة وكان في الأساس حصنًا لقبيلة مصمودة، وفي الجزائر مدن عديدة تحمل أسماء قبائل منها ندرومة؛ مدينة قبيلة بهذا الاسم، ووزينة ***(Ouzina)*** وهي بلدة في سهل سرسو الشرقي احتفظت بذكرى أوزيناس ***(Uzinaces)*** العتيقة، وقلعة هوارة شمال شرقي معسكر قبل أن تحمل اسم قلعة بني راشد[١٠]. إنّ لَمْدِيَّة[١١] وبجاية هما اسمان لقبيلتين من المجموعة الصنهاجية، أنشئت فوق إقليمهما مدينتان بنفس الاسم[١٢] ومع أنّ بجاية جدّدها الناصر بن علنّاس وسمّاها: **الناصرية**[١٣] لتخليد اسمه إلاّ أنّ السكّان فضّلوا اسم القبيلة التي شيّدت المدينة فوق أرضها، فأصبح اسم علم رائج وشهير وامّحى اسم الناصرية من الذاكرة الشعبية نهائيًا.

## ٢-أصل اسم مسيلة

يشكّل اسم مسيلة الجزء الثاني من اسم مدينة أخرى هي تيسمسيلت (تيس-مسيلت ***Tis-msilt***) فمن الناحية الاشتقاقية نجد أن جذر الاسمين واحد وهو الجذر الثلاثي م س ل ***MSL*** والتاء في بداية ونهاية تيسمسيلت هي علامة التأنيث في الأمازيغية كما هو معروف أما حرف السين فهو

للمطاوعة، مع أننا وجدنا من يقول أنّ تيسمسلت تعني مغرب الشمس، وهو تفسير غير مؤكّد بعد. ليس ببعيد أن يكون اسم مسيلة[١٤] استمرارًا لاسم الماسيل القديم، ومع أنّ مجدّدها في العصر الإسلامي نسبها إلى نفسه: المحمّدية، إلاّ أنّه كما هو الحال في اسم بجاية امّحى اسم المحمّدية من الذاكرة الشعبية واستمرّ اسم مسيلة على الدوام،لأنّ السكّان فضّلوا اسم قبيلة ماسيلا القديمة على اسم الأمير محمّد بن عبيد الله.[١٥]

يبقى أن نبحث عن الدليل الذي يثبت استقرار الماسيل في هذه الجهة لنثبت تكريس هذا الاسم واستمراره ويمكن أن نعمد إلى المقارنات، فقد حدّد كامبس إقليم المملكة الماسيلية في القرن الثالث ق.م. وموطن الماسيل وملوكهم[١٦]، وأنّها تمتدّ من منطقة سيرتا إلى شمالي تونس بجوار قرطاج والخندق الملكي ***(Fossa Regia)*** الذي يمثّل الحدود بين قرطاج البونية (مقاطعة أفريقيا الرومانية في وقت لاحق) والمملكة الماسيلية النوميدية، كما يمتدّ نفوذ مملكة الماسيل جنوبا إلى قبائل الرحّل دون تحديد شكل ذلك النفوذ أو حدوده، وليس مستبعدًا أن يكون الماسيل الذين فقدوا السيادة في مملكتهم على إثر الاحتلال الروماني قد تراجعوا نحو الجهات الداخلية، أو أنّهم طردوا من طرف قبائل منافسة لهم وأقوى منهم وليس منطقيًا أن نقول بأنّهم انقرضوا وامّحوا نهائيا، بل يمكن القول أنّهم فقدوا موطنهم وضعفوا وأصبحوا مجرّد قبيلة ثمّ تراجعوا عن مواطنهم الغنية في الشمال نحو الجبال والسهوب الداخلية.

إنّ نزوح الماسيل إلى الجنوب الغربي والجلاء عن موطنهم الأصلي في جوار سيرتا، بحثًا عن ملجأ آمن خلف جبال الحضنة هو أحد الاحتمالات، لأنّ قبيلة كبرى كانت مجاورة لهم هي قبيلة النيسيبيين ***(Les Nicibes)*** الذين ذكرت النصوص التاريخية استمرارهم في الوجود إلى العهد البيزنطي بتيجس (عين البرج) بالقرب من سيقوس غير بعيد عن سيرتا، لا نعرف الظروف التي أجبرتهم على النزوح من هناك بحثًا عن مكان آمن إلى نفس الجهة التي يحتمل أن يكون الماسيل قد نزحوا إليها، وهؤلاء النيسيبيون هم الذين أسّسوا مدينة نقاوس التي تحمل اسمهم[١٧]، وبذلك يتكرّر نفس النزوح الذي يكون الماسيل قد تعرّضوا له من قبلهم، فهل يمكن اعتبار هذه المقاربة بين الماسيل ومسيلة طريقًا يوصل إلى ربط حلقات التاريخ المغاربي المبتورة بفعل الكتابات التاريخية "غير البريئة" دائمًا!.[١٨]

ورد اسم الماسيل في عديد النصوص القديمة فهذا سترابون يشير إلى أنّ الماسيل يزرعون أراضٍ عالية الجودة[١٩] ولعل ذلك كان عندما كانوا في منطقة التلال القسنطينية قبل أن يستولي الرومان على أفريقيا ويدفعون بالكنفدرالية القبلية الماسيلية إلى الجنوب نحو الأراضي الأقل خصوبة، أو أنّ الماسيل هم الذين انسحبوا جنوبًا بعد فقدان مكانتهم وسقوط مملكتهم.

تكون الكنفدرالية الماسيلية التي تجمع عديد القبائل قد شكّلت القوة السياسية الأولى في أفريقيا القديمة ومنها انبثقت أعرق الأسر الملكية التي أنجبت أشهر الملوك مثل ماسينيسا ويوغرطة ويوبا، وكان بطليموس[٢٠] الذي اغتيل في روما آخر ملوكها، تلك هي العائلة الملكية الماسيلية التي استمر ملوكها في حكم كل أفريقيا الشمالية خاصة بعد انقراض الأسرة المورية، ومع أنّه ليس من اليسير الجزم بالمنطقة الأصلية للماسيل إلاّ أنّ المرجح هو أن تكون هذا الإقليم الشاسع الممتدّ ما بين مدن سيرتا وثوقا ***(Thugga)*** وتيفست ***(Thiveste)*** وضريح مدغاسن ولعل الدراسات الطوبونيمية ستجيبنا ذات يوم لأن أسماء المكان كثيرا ما تحتفظ بها الذاكرة الجماعية الشعبية فتظل متداولة من جيل إلى آخر.

اعتمادًا على دراسات أثرية لمنطقة سيرتا خاصّة آثار الفترة البروتوتاريخية في جبل فورتاس بجوار سيقوس حيث عثر على منحوتات لزعماء محليين وعلى كتابات ليبية، يمكن أن تكون تلك المنطقة هي مهد الجماعة السكانية التي تكوّنت منها نواة القبيلة الماسيلية التي تكون قد توسّعت وأنشأت في ما بعد مدن سيرتا وتيفست وثوقا وكذا المعلم البارز: مدغاسن، هذا الأخير يعود إلى القرن الثالث ق.م. فهو معاصر إذن للعائلة الملكية الماسيلية[٢١].

## خَاتِمَةٌ

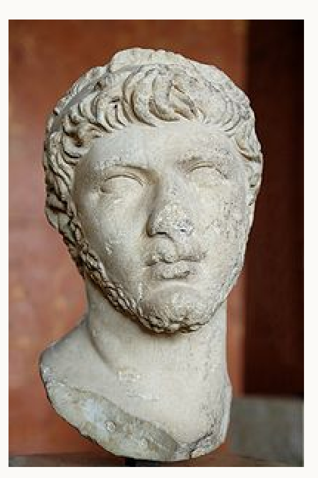
لقد أصبح موضوع الطوبونيميا يثير الكثير من التساؤلات حتى في الأوساط الأكاديمية وقد يبدو الأمر هيّنا عند البعض، ولكن الموضوع على درجة من الأهمية، لأن اسم المكان يحمل هوية المكان، فضلا عن أنه عنوان لتاريخ طويل، ولذلك أردنا من خلال هذه المقاربة الموجزة تقديم محاولة لربط مدينة مسيلة بتاريخها من خلال اسمها العريق بقدر عراقتها، والحال أنه ينبغي عند القيام بأي مقاربة تتعلق بالتونونيميا ربط أسماء الأماكن بسياقها التاريخي فمن غير المنهجي أن نبحث عن مدلول اسم مدينة عريقة ظهرت منذ قرون قبل الميلاد في لغة بدأ ظهورها التدريجي بعد ذلك بأكثر من عشرة قرون.




خريطة رقم (١)

أهمّ المدن والبلْدات في المنطقة الشرقية من الجزائر الحالية خلال الفترة الرومانية (القرن IV الميلادي)

## الملاحق



صورة رقم (١)

بطليموس آخر ملوك السلالة الماسيلية

## الهَوامِشُ:

(١) الإنياذة **(Enéide)** هي قصيدة ملحمية مطوّلة، تتغنّى بأمجاد الرومان، ألّفها الشاعر الروماني فرجيليوس على غرار ملحمة الإلياذة الإغريقية **(Iliade)**.

(٢) كومة في اللاتينية **(Cumae)** مدينة في إقليم كمبانيا على ساحل البحرالتيراني **(Mer Tyrrhénienne)** غير بعيد عن عن نابولي، وكانت مستعمرة إغريقية أنشئت في القرن الثالث ق.م.

*(3) "...magnas obeuntia terras tot maria intraui duce te, penitusque repostas Massylum gentes praetentaque Syrtibus arua".* ***Enéide, VI, 56-60.***

(٤) صوفونيسبة **(Sophonisbe)** أميرة قرطاجية كانت مخطوبة لماسينيسا ولكن قرطاج زوّجتها زواجًا سياسيًا لخصمه سيفاكس لأنّه حليفها، وعندما انهزمت قرطاج وأسر حليفها سيفاكس **(Syphax)** فضّلت صوفونيسبة الانتحار على حياة الأسر المهينة.

(٥) ابن حمّاد، **أخبار ملوك بني عبيد**، تحقيق التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، نشر دار الصحوة القاهرة د.ت. ص١٢.

(٦) الطوبونيميا من الأصل الإغريقي: **(topos)** مكان، و**(onuma)** اسم، أي اسم المكان، فالطوبونيميا إذن تعتني بدراسة أسماء الأماكن لغويًا وتاريخيًا انظر:

- ***Larousse Encyclopédique, Paris 1979, Article : Toponymie, p. 1404***

(٧) تحرّف اسم بازيليكا (*Basilic*) في ألسنة العوامّ إلى بشيلقا وهو اليوم اسم قرية مجاورة لمسيلة. *B'chilga*

*(**8**) Encyclopédie de l'Islam, Art. Chefchawa*

(٩) للمزيد، انظر:

*Ben cheneb(S.), Masila = massyli, dans RHCM, V, 1968, pp.12-15.*

(١٠) ابن خلدون؛ العبر، المجلّد **VIII**، ص ١٦٥.

(١١) ما يزال يقال للمنتمي لمدينة لمدية في العامية تلمداني وهذا من اسمها الأمازيغي: ثيلمدنت *Tilemdent* التي تحولت إلى لمدية.

(١٢) ابن خلدون، العبر، المجلّد **VII**، ص١٥٧.

(١٣) وهي التي امتدحها شاعرها ابن الفكّون في قصيدة مطلعها:

دع بالعراق بغداد وشامها فالناصرية ما إن مثلها بلدا!

(١٤) حاول البعض إجراء مقاربة لغوية وذلك بافتراض اشتقاق اسم مسيلة من مسيل الماء وهو خطّ جريانه، وإذا كان هذا الجريان يتكرّر في أماكن أخرى فإنّنا لا نجد اسم مسيلة يتكرّر مع أن ذلك الجريان يوجد في كلّ الجهات وبنفس المعطيات الجغرافية ممّا يجعل هذا الافتراض ضعيفا، كما حاول البعض الرجوع إلى الطوبونيميا الأمازيغية انطلاقا من المنطوق الأمازيغي لاسم المدينة وهو مسيلت**(M'Silt)** الموجود في صيغة المذكّر أمسيل **(Amsil)** في عديد الجهات لاستنباط معنى له عبر لهجات اللغة الأمازيغية ومنه بلدة بهذا الاسم تقع بين مسيلة وبوسعادة.

*(**15**) Encyclopédie de l'Islam, III. P. 921 .*

*(**16**) CAMPS(G.), Origines du Royaume Massyle , IN R.H.C.M. , 1967, N°3 p.35*

*(**17**) LANCEL (S.), Suburbures et Nicibes , IN Libyca, T. III, 1955, pp. 289-298.*

(١٨) في الدراسة الفونية لأسماء: ماسيلد، ماسيل، مسيلة يلاحَظ امتداد الصوت في حرف الياء في الأسماء الثلاثة وهذا ما يدعّم هذه المقاربة أيضًا.

*(**19**) Strabon, XVII, III, 11*

(٢٠) بطليموس الموريتاني *(***Ptolémée de Maurétanie***)* حكم في الفترة ما بين ٢٣-٤٠ بعد الميلاد، ورث عن أبيه يوبا الثاني مملكة شاسعة تمتدّ من منطقة سطيف إلى المحيط الأطلنطي، إلاّ أنّها مملكة خاضعة للتبعية لأباطرة روما، كانت نهايته دراميّة فقد دعي إلى حضور حفل إمبراطوري لكن الإمبراطور كاليغولا بيّت له سوء النيّة فأمر باغتياله، وبذلك انتهى حكم آخر ملك من السلالة الماسيلية من جهة أبيه فهو ابن يوبا الثاني بن يوبا الاول بن يامبسال الثاني بن غودة بن مسطانبال بن ماسينيسا، كما أنه يعتبَر آخر ملك من السلالة البطلمية من جهة أمّه فهو ابن كليوباطرة سيليني البنت الوحيدة لكليوباطرة **VII** من مارك أنطوان/ انظر:

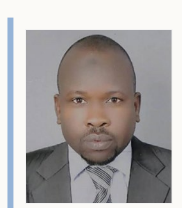
*-COLTELLONI-TRANNOY (Michèle), Le royaume de Maurétanie sous Juba II et Ptolémée (25 av. J.-C.-40 ap. J.-C), Etudes d'Antiquités Africaines, (CNRS Editions), Paris 1997, p. 34.*

*(21) CAMPS (G.), Aux origines de la Berbérie, MASSINISSA OU LES DÉBUTS DE l'HISTOIRE. IN Libyca, T. VIII, 1er semestre 1960, p. 178.*

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].



# تاريخ الهجرات العربية إلى إفريقيا جنوب الصحراء
## تشاد نموذجًا



**د. محمد يوسف محمد**
دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر
مدير الشؤون الأكاديمية والدراسات
جامعة سار - جمهورية تشاد

**مُلَخّصْ**

*تناول البحث تدفق الهجرات العربية إلى حوض البحيرة التشادية، وبيَّن أن جذور الهجرات العربية تعود إلى أزمنة سحيقة يصعُب الجزم في أرجحها ولكن المتفق عليه هو قِدم الهجرات العربية ومما لا شك فيه أن تواصل سكان البحيرة التشادية مع العرب نشأ منذ وقت مبكر وهو ما تعززه الشواهد التاريخية واللغوية والأثرية والواقع المعاش، وعلى الرغم من ثبوت الهجرات العربية منذ وقت مبكر والاتصال ببلاد والسودان الشرقي ومصر والجزيرة العربية في فترة ما قبل الإسلام، إلا أن تلك الهجرات لم تكن ذات تأثير كبير وواضح على سكان البحيرة التشادية وما حولها، ويرجع ذلك إلى أن العرب وقتها ولم يكونوا أصحاب رسالة، بل هدفهم البحث عن مُناخات وفُرص أفضل لسوائمهم أو لكسب عيشهم ليس كما هو الحال عندما جاءوا أصحاب رسالة يحملون عقيدة واحدة ويتكلمون لغة واحدة وينشدون أهدافًا موحدة، ويكادون يتفقون في السلوك العام المنضبط بتعاليم الإسلام، أما الدور الثقافي والاجتماعي والسياسي للهجرات العربية فيتمثل في احتضان البحيرة للثقافة العربية الإسلامية التي أصبحت مركز إشعاع بدد ظلام الجهل ونشر العلم والحضارة الإسلامية. كما ضربت قوافل الهجرات العربية أروع الأمثلة في التأقلم مع البيئة الإفريقية والتكيف معها فقد تسرب الإسلام ومعه العربية إلى البحيرة التشادية بتدرج واعتدال، فلم يقم بقلع الناس من جذورهم، بل قدم مبادئه ومُثله للناس دون أن يجتث أنظمهم القديمة، فعايش المهاجرون العرب السكان واختلطوا بهم، فكان أن دخل الناس في دين الله طائعين مختارين أفواجا، ولم يلبثوا أن صاروا دعاة لهذا الدين الجديد في أوساط أهليهم وذويهم وجيرانهم، فكان الاستعراب نتيجة طبيعية لتلك السيادة وذلك المزج، فنشأت عربية دارجة ليست بأقل نفعًا من أي عربية دارجة تستعمل في أي دولة عربية الآن وهي بلا شك أوضح وصالحة للكتابة من أكثر تلك اللغات العامية.*

**بيانات الدراسة:**
تاريخ استلام البحث: ٢٨ سبتمبر ٢٠١٦
تاريخ قبول النشر: ١٠ يناير ٢٠١٧

**كلمات مفتاحية:**
الهجرات العربية، بحيرة تشاد، اللغة العربية، نشر الإسلام، تاريخ إفريقيا

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0054794

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**
محمد يوسف محمد. "تاريخ الهجرات العربية إلى إفريقيا جنوب الصحراء: تشاد نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الثاني والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٨. ص ٣١ – ٣٩.

## مُقَدِّمَةُ

تقع جمهورية تشاد في وسط القارة الإفريقية في منطقة تمتد من خط العرض (٨) و(٢٣) في الشمال، وبين درجتي خط الطول (١٤) و(٢٤) في الشرق. وتبلغ مساحتها ١٢٨٤٠٠٠كم٢ وهي مساحة أكبر من مساحة فرنسا بمرتين، وقد أخذت بحيرة تشاد اسمها من البحيرة التي أطلق عليها العرب منذ القدم بحيرة الشط، وهذه البحيرة تقع في الوقت الحاضر على حدود كل من نيجيريا والكمرون والنيجر، والملاحظ أن دولة تشاد وحدها أخذت تسميتها من هذه البحيرة.

يهدف البحث إلى تسليط الضوء على دوافع الهجرات العربية إلى تشاد، وتوضيح تاريخ الهجرات دورها في انتشار اللغة العربية والثقافة الإسلامية. أما أهمية البحث فتتمثل في لفت الأنظار إلى الوجود العربي الإسلامي في أواسط إفريقيا منذ زمن ضارب بجذوره في القدم، وباعتبار أن هذه المنطقة مجالًا حيويًا لنشر الإسلام واللغة العربية، إضافة

إلـى شـعوري بحاجـة المكتبـة العربيـة لدراسـة تمـيط اللثـام وتـنفض الغبـار وتجلـي الغشـاوة عـن واقـع تشـاد العربـي الإسلامي.

ومـن أهـم المصـادر والمراجـع التـي تـم الاعتمـاد عليهـا: إبراهيم صالح بن يونس الحسني: تاريخ الإسلام وحياة العرب في إمبراطورية كانم برنو وعبد السلام بغدادي: الجماعات العربيـة فـي إفريقيـا، دراسـة فـي أوضـاع الجاليـات والأقليات العربيـة فـي أفريقيـا جنـوب الصحـراء. جامعـة الملـك فيصـل بتشـاد: اللغـة العربيـة فـي تشـاد الواقـع والمسـتقبل، نـدوة علمية دولية، نُظمت من قبل جامعة الملك فيصل في تشاد ورابطة الجامعات الإسـلامية، فـي الفتـرة ما بين ٢١ إلـى ٢٥ ينــاير٢٠٠١م. جامعــة إفريقيــا العالميــة: المــؤتمر الــدولي بمناسبة مـرور أربعة عشـر قرنا علـى الإسـلام فـي أفريقيـا، والـذي نظمتـه جامعـة أفريقيـا العالميـة بالسـودان، الخرطـوم، بتـاريخ (٢٦ – ٢٧) نـوفمبر٢٠٠٦ الموافـق (٦ -٧) ذو القعـدة ١٤٢٧ هـ، الكتـاب الرابـع عشـر. د عبـد الرحمن عمـر المـاحي: الدعوة الإسلامية في إفريقيا الواقع والمستقبل.

## أولاً: دوافع الهجرات العربية إلى أفريقيا

### ١/١- أسباب الهجرات الأولى:

إن الهجـرات السـامِيَّة مـن الجزيـرة العربيـة معروفـة منـذ القـديم، وقـد تمثلـت أسـبابها غالبًـا فـي الجفـاف الـذي الحق ضررًا فادحًا بالنبات في بلاد العرب، والنزاع على السلطة الذي أدى بدوره إلى تهديم السدود وخزانات المياه، وقد هاجر أهلُ الجزيـرة إلـى أفريقيـا التـي لا يفصلهـا عـنهم سـوى بحـر ضـيق سهل العبور، ولم يقتصر الانتقال على العرب فقط بل انتقلت بعض العناصر من إفريقيا إلى الجزيرة العربية(١) أما أسباب الهجـرات إلـى حـوض تشـاد فيعـود إلـى مـا امتـازت بـه منطقـة الحـوض مـن ميـاه غزيـرة عذبـة وسـهل منبسـط واسـع، و تربـة غنيـة صـالحة للزراعـة ولـوفرة المراعـي فيهـا وللتجـارة لسـهولة التنقل منها واليها.

فلمـا كانـت منطقـة الحـوض بهـذا الموقـع الاسـتراتيجي الممتاز، وهذه المكانـة التاريخيـة الهامـة وذلـك المنـاخ الرعـوي الزراعي الطيـب، جـذبت إليهـا منـذ القـديم أي بمـا لا يقـل عـن ستة آلاف سنة قبل الميلاد مجموعـات بشـرية كثيـرة متنوعـة أتتها من الشمال والشرق والجنـوب مـنهم العـرب والأمـازيغ أو البربـر والزنـوج، فكانـت لهـم مركـز نشـاط وحيـاة ومكـان امن واسـتقرار لخلـو أراضـيها مـن العوائـق الطبيعيـة كالصـحراء والغابات والمرتفعـات الجبليـة مـن جهـة، ولتحصـينها مـن علـى البُعد بشـبه دائـرة مـن السلاسـل الجبليـة التـي تحـيط بهـا مـن الشرق والشمال والجنوب من جهة ثانية، ولبعدها الشاسع من منـاطق الاحتكـاك المباشـر للقـوى العظمـى بـين الشـرق والغرب آنذاك من جهة ثالثة.(٢)

### ٢/١-أسباب الهجرات الثانية

### (١/٢) ١- الأسباب الدينية:

كان معظـم جنـود الحمـلات العسـكرية التـي سـيَّرها ولاة المسـلمين فـي مصـر نحـو بـلاد السـودان الشـرقي مـن رجـال القبائل العربية الذين شاركوا في الفتح الإسلامي لمصر، أو من المدد الذي ظل يصل تباعًا إلـى مصـر مـن الجزيـرة العربيـة لتقويـة السـلطة وحمايـة الدولـة والتوسـع فـي الفتـوح ومـن الواضـح أن الـوُلاة فـي مصـر لـم يكونـوا يتـردَّدون فـي تسـيير الحمـلات العسـكرية تجـاه النوبـة أو السـودان الشـرقي، كلمـا أغاروا على الحدود والمدن الجنوبية للدولة الإسلامية، أو كلما تمـرَّدوا عـن دفـع مـا علـيهم مـن (بقـط والتـزام)، فكـان مـن الأهداف الرئيسة التي حرَّكت أولئك المقاتلين هو الجهاد في سـبيل اللـه - تعـالى - لـردِّ كيـد الأعـداء والـدفاع عـن الدولـة المسـلمة، وحمـل لـواء الـدعوة الإسـلامية وتبليغهـا للعبـاد، تدفعهم لذلك نصوص صريحة من القـرآن الكـريم، وتـرغِّبهم في ذلك ؛ كقوله - تعالى -: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِـي سَـبِيلِ اللَّـهِ بِـأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِـهِمْ أَعْظَـمُ دَرَجَـةً عِنْـدَ اللَّـهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقوله - تعالى -: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْـرُ أُولِـي الضَّـرَرِ وَالْمُجَاهِـدُونَ فِـي سَـبِيلِ اللَّـهِ بِـأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِـهِمْ فَضَّـلَ اللَّـهُ الْمُجَاهِـدِينَ بِـأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِـهِمْ﴾ [النساء: ٩٥]، ومن أقواله (ﷺ): (مَنْ مات ولم يَغْزُ ولم يحدِّث نفسـه بـالغزوِ مـات علـى شُـعبة مـن نفـاقٍ)، وقولـه (ﷺ): (المجاهد في سبيل الله مضمون على الله إما إلى مغفرته ورحمته، وإما أن يرجعه بأجر وغنيمة، ومثل المجاهد في سبيل اللـه كمثـل الصـائم القـائم الـذي لا يفتـر حتـى يرجـع)؛ فهـذه النصـوص الواضـحة الصـريحة مـن الكتـاب والسـنة كانـت هـي الـدافع الحقيقـي لمشـاركة هـؤلاء الرجـال فـي هـذه الحمـلات الجهادية، إضافة إلى حماسهم لأجل تبليغ الدعوة الإسلامية.

### (١/٢) ٢-الأسباب السياسية:

وهذه تختلف وتتباين بحسـب الأوضـاع فـي البلـدين مصـر والسـودان الشـرقي أو النوبـة؛ فمنهـا دوافـع خاصـة بتـأمين النظام السياسي في مصـر وتقويـة شـوكته حيـث عمـد عـددُ من الولاة في مصر إلى جلب قبائل عربية بأسـرها إلـى مصـر؛ لتكـون قـوة لهـم وسـندًا يحميهـم ويغطِّـي ظهيـرهم، ومـن الـدوافع السياسـية كـذلك أن النوبـة ظلـت ملجـًا لكثيـر مـن الهاربين من مصر، أو من الجزيرة العربية بسبب الثورات وتغيُّر نظُـم الحكـم، ويقـدُم هـؤلاء القـادة الهـاربين عـادة فـي أعـداد ضخمة وكبيرة من أتباعهم وأهلهم ، وحوادث التاريخ تبـيِّن أنه حين اجتاحت قـوات العباسـيين الولايـات الإسـلامية هـرب آخـر الخلفاء الأُمَويين إلى مصر؛ حيـث قُتـل هنـاك، ثـم هـرب أبنـاء عبيـد اللـه جنوبًـا إلـى النوبـة مصـحوبين بعـدد مـن الأقـارب

والأتباع، البالغ عددهم نحو ٤٠٠ شخص، واستجار الأُمَويون الفارين بملك النوبة فلم يُجِرهم.[٣]

وتوالت بعد هجرة الصحابة والأمويين هجرات أخرى للمسلمين لأسباب سياسية ودعوية وتجارية، نتج عنها انتشار الإسلام في تلك المجتمعات الجاهلية، وتحويلها إلى إمارات وسلطنات إسلامية، تركت معالم حضارية تستحق الوقوف عندها ليس للذكرى وإنما لتذكير الجيل الحاضر بواجب الاعتناء بالتاريخ المجيد والحفاظ على الهوية الإسلامية التي تتجدد جهود طمسها من أعداء هذا الدين من وقت لآخر، ومحاولة إعادة الأفارقة إلى جاهلية جهلاء ووثنية عمياء بشتى الوسائل، ومن أهمّها تحريف التاريخ والتجهيل بالماضي الإسلامي، وقطع الروابط والعلاقات التاريخية بين إفريقيا والإسلام وبين الأفارقة والعالم الإسلامي.[٤]

## ثانيًا: هجرات العرب الأولى إلى بحيرة تشاد

فمنذ قديم الزمان والجزيرة العربية تفيض على جيرانها بمدد إنساني غزير ولقد كان نصيب الحبشة والسواحل الشرقية وافرًا ومتتابعًا وقد ساعد على هذا ضِيق البحر الأحمر في المكان المُسمى باب المندب[٥] ولقد عرف العرب منطقة حوض بحيرة تشاد لحوالي ستة آلاف سنة قبل الميلاد، واستوطنوا فيها شرقًا وغربًا شمالا وجنوبا حتى وصلوا مناطق الغابات والأدغال[٦] ولعل الهجرة التي نتجت عن سد مأرب أبرز الأمثلة على ما كان من اندماج وتواصل ولعل قصة الأزد بنوع خاص أقوى الهجرات تمثُّلا لحركة التمازج القبلي.[٧]

وقد بلغت الهجرات العربية أقصاها ما بين سنة ١٥٠٠ ق.م- ٣٠٠ ق.م في عهد دولتي: (معين، وسبأ)، وحمل المعينيون والسبئيون لواء التجارة في البحر الأحمر ووصلوا في توغلهم غربًا إلى وادي النيل، ونشطت حركة التجَّار العرب، بخاصة زمن البطالمة والرومان، ولا شك أن عددًا غير قليل من هؤلاء استقروا في أجزاء مختلفة من حوض النيل، ولحق بهم عدد من أقاربهم وأهليهم، وفي القرنين السابقين للميلاد عبر عدد كبير من الحِمْيَريين مَضِيق باب المندب، فاستقر بعضهم في الحبشة، وتحرك بعضهم الآخر متتبعًا النِّيل الأزرق، ونهر عطبرة، ليصلوا من هذا الطريق إلى بلاد النوبة، كما يُرجَّح أنهم لم يتوقفوا عند هذا الحد، بل قد اندادوا في هجرتهم حتى المناطق الغربية لسودان وادي النيل حيث حوض بحيرة تشاد.[٨]

وتشير بعض المصادر التاريخية إلى أن الهجرات العربية نحو بحيرة تشاد قديمة قدم التاريخ العربي فقد عرفت الجماعات العربية الهجرة إلى هذه البحيرة العذبة الواقعة في جنوب الصحراء الأفريقية قبل ظهور الإسلام بسنوات عديدة ويذكر أحد المصادر الغربية أن العرب جاءوا إلى بحيرة تشاد في حوالي القرن السادس بعد الميلاد شأنهم في ذلك شأن بعض القبائل التشادية التي وفدت إلى تشاد في أزمنة مختلفة، إذ كانت منطقة تشاد عمومًا والبحيرة على وجه خاص بحكم موقعها الجغرافي وأهميتها كانت مورد عذب ودائم للمياه ونقطة التقاء القوافل التجارية القادمة من الديار المجاورة ومنها الديار العربية، فالعرب انحدروا إلى منطقة البحيرة وما جاورها من الشمال والشرق ولم ينقل العرب سلعهم التجارية أو حلُّوا بسوائمهم من إبل وغنم وحسب وإنما نقلوا معهم لغتهم العربية بل وعاداتهم وحياتهم الاجتماعية،[٩] فقد كانت أولى الهجرات العربية إلى البحيرة التشادية هي هجرة أفراد أسرة سيف بن ذي يزن وأبناء عمومتهم القرعان من الشرق عن طريق باب المندب، فقد كان ذي يزن الذي ينتمي إلى حِمْيَر بن يُعرب بن قَحطان قد حَكَم قبائل حِمير في جنوب الجزيرة العربية، فقامت جيوش ملك الحبشة بقيادة إبرهة الأشرم بمهاجمة مملكة بني حمير فقُتل ذو يزن وأسر أبناءه كرو وقرو بينما فَرَّ ابنه سيف ولجأ إلى كِسْرَى ملك الفُرس الذي ساعده في استعادة مُلك أبيه من إبرهة الأشرم، ثم تزوَّج سيف من شامة بنت إبرهة التي وقعت في الأسر وأنجبت ابنيه: ماقُومي (ماء قومي) ومالبِني (ماء لبني) ولأسباب غير معروفة هاجرت أسرة بن ذي يزن إلى الجزء الشمالي من حوض بحيرة تشاد عن طريق باب المندب ما عدا الإبن كرو الذي بقي في صحراء قوادين الصومالية حيث لازال يعيش أبناءه الذين يُعرفون بقبيلة الكور أما شقيقه الأصغر قرو فاستقر في شمال تشاد ومات في قرية قرو شمال شرق فيا لارجو وهي تحمل اسمه ولازال أبناءُه يعيشون في شمال تشاد ويُعرفون بقبائل القرعان.

أما أبناء سيف بن ذي يزن، ماقومي (ماء قومي) وملبني (وماء لبني) فاستقرا شرق بحيرة تشاد، فأنجب ماقومي (ماء قومي) ابنين هما: كانِم (جد الكانمبو)، وكانُور (جد البرنو)، بينما أنجب شقيقه مَلْبِني (ماء لبني) ابنان هما: بلال (جَد البلالة)[١٠] وبابل (جد البابلية)، فهم أبناء عمومتهم وأخوالهم من ناحية الأم. هذه الأسرة أنجبت أول أسرة مالكة تسيطر على المنطقة الواقعة شرق بحيرة تشاد وأسسوا مملكة كانم.[١١]

## ثالثًا: هجرات العرب الثانية إلى بحيرة تشاد

دخل العرب بشكل قوي التاريخ منذ القرن السابع الميلادي الأمر الذي أدى إلى تغيير خريطة العالم القديم اللغوية والثقافية والدينية والعِرقية، وكان ذلك كله بعد بزوغ الدعوة الإسلامية في مكة المكرمة وتسجيلها الانتصارات من مدينة النبي (ﷺ) وتوحيدها العرب المشتتين لأول مرة في التاريخ ثم انطلاقتها المعروفة بهم في آفاق المعمورة شمالاً وشرقًا وغربًا فيما عُرف بالفتوح الإسلامية لينتشر اللسان العربي لسان الوحي الإلهي المبين في أرجاء واسعة[١٢] بيد أن الهجرة الحقيقية والكبرى ذات الآثار العظيمة

قد نمت بعد ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي وتذكر بعض المصادر أن سَنة قُدوم العرب والمسلمين إلى تشاد هي سنة (٤٦هـ/٦٦٦م) وذلك عندما وصل القائد المسلم عقبة بن نافع إلى جبل كوَّار بمنطقة تبستي شمال تشاد،[١٣]، والإسلام دين لطيف ينتقل مع الريح لا تقف في سبيله الحواجز الرملية والجبلية أو المائية، وبقوته الذاتية وفضائله التي لا تُعد ولا تُحصى عبَر الصحراء وانتشر نوره في بلاد السودان الأوسط.[١٤]

إن أهم نقطة تحُّول في تاريخ العلاقة بين العرب المسلمين وبين سكان السودان حدثت بعد الفتح الإسلامي لمصر سنة ٢١هـ في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، بقيادة الصحابي عمرو بن العاص كانت هي توقيع المسلمين لمعاهدة البقط[١٥] ذلك أن هذه المعاهدة تضمنت بنودًا مهمة سهَّلت وسمحت للقبائل العربية بالهجرة والتدفق نحو داخل أفريقيا،[١٦] وبعد الفتح الإسلامي لمصر ثم اتفاقية البقط السالفة استقرت جيوش المسلمين في الفسطاط والإسكندرية والمناطق الاستراتيجية الأخرى وكان أغلبهم من عرب الجنوب، ثم توافدت بعض القبائل الجنوبية الأخرى فزادت من أعداد القبائل العربية ثم ظلت القبائل لا تنقطع وفودها بعد ذلك إما من تلقاء نفسها طلبًا للعيش أو بتشجيع من بعض الولاة والعمال،[١٧] ومن الهجرات العربية إلى تشاد ما حدث أثناء الفتنة الكبرى مع قيام الدولة الأُموية فقد أصبحت بلاد النوبة والمناطق الموالية لها في السودان الأوسط ملاذًا تلجأُ إليه القبائل العربية وذلك عن طريق مصر ووادي النيل والبحر الأحمر ودرب الأربعين وفزَّان.[١٨]

وفي سنة (٤٣هـ) استقدم أحد وُلاة مصر نحو اثني عشر ألفًا من هؤلاء العرب أغلبهم من عرب الشمال لأن الدولة الأُموية خافت من أن يستبد الجنوبيون بأمر البلاد فأرادت أن تُكثر من الشماليين ما وسِعها ذلك ولتحقيق هذا الغرض استقدموا قبيلة قيس إلى مصر سنة ١٠٩هـ جلبوا نحوًا من ثلاثة آلاف أسرة استقروا في منطقة بلبيس حتى أصبح عدد الأسرات العربية المقيَّدة في ديوان العَطاء في العصر الأموي نحوا من أربعين ألف أسرة خدموا في جيش الدولة أو اشتغلوا بالتجارة بين مصر والشام، أو بين مصر والمغرب[١٩] - وصولاً إلى حوض بحيرة تشاد – وفي القرن الأول الهجري السابع الميلادي قام الجيش والحاكمون الأمويون، بهجرة إلى شمال أفريقيا لا يقل عددهم عن مائتي ألف مقاتل واستوطنوا العواصم والمدائن والقرى وأغلبهم ينتسب إلى القحطانيين، وقد نزح قسم منهم إلى الأندلس وبقي جزء وافرُ في إفريقيا ولا سيما القيروان.[٢٠] ثم انسابت حركتهم نحو بحيرة تشاد. وفي عهد عبد الملك بن مروان هاجر بعض الأُمويين إلى أفريقيا فرارًا من ظلم الحَجَّاج بن يوسف الثقفي،[٢١] وقد كانت الهجرات تدخل بلاد النوبة بعد اتفاقية البقط السالفة والسودان الأوسط دون أن يستشعر الملوكُ أي خطر فقد كانت الهجرات في معظمها مسالمة لا تعدوا أن تكون جماعات بريئة تتلمس الإذن بالمقام وتخالط السكان ولا تسيء إليهم ولا تُقلق بال الحاكمين وكانوا يتركونها وشأنها لا يتعرضون لها بسوء وتتابع حياتها في حرية وهدوء وطمأنينة.[٢٢] وهناك من الشواهد ما يدل على أن سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية قد صحبه فرار كثيرين من بني أُمية وأنصارهم وإقامتهم ببلاد النوبة والسودان الأوسط وكان هؤلاء اللاجئون عاملاً هاما في نشر الإسلام واللغة العربية بين أهل هذه البلاد.[٢٣]

كما وصل العرب إلى تشاد عن طريق النيل وعبر الصحراء من ناحية الشَّمال واستقروا حول بحيرة تشاد واختلطوا بالوطنيين وظهرت عناصر متميزة ... عرفوا باسم شُوَا، الذين يتحدثون العربية حتى اليوم في شمال الكاميرون وشمال شرق نيجيريا وقديما ًوصف ياقوت الحموي أهل كانم قائلا: وهم في زي العرب وأحوالهم (وفي مخطوطة عربية ترجع كتابتها إلى الفترة ما بين١٦٥٧- ١٦٦٩م، ورد أنَّ بعض جنود جيش عمر بن عبد العزيز جاءوا إلى برنو عن طريق اليمن واستطاعوا أن يكُونِّوا أسرة مالكة كما ذكر البكري وأورد ذلك ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان أنَّ قوما من بني أُميةً هاجروا إلى كانم عند محنتهم أيَّام العباسيين فرارًا من بطش العباسيين إلى جنوب شرق بحيرة تشاد وأن هؤلاء الفارين بأرواحهم قد استقروا بهذه الأماكن النائية والبعيدة عن يد العباسيين وخطرهم، وبعدها طاب لهم المقام هناك وكان ذلك عام (١٧٥هـ/٧٩١م) وتشير بعض المصادر على أن إسلام الزغاوة تم على يد هؤلاء، ويبدوا أن النقلة النوعية في الحضور العربي ببحيرة تشاد قد تمت خلال العهد الكانمي الذي شهد تدفقًا كبيرًا للقبائل العربية نحو المنطقة المحيطة ببحيرة التشاد من الشمال والشرق بل وحتى من الجنوب الغربي.[٢٤]

ومما يجدر ذكره ولا سيما على صعيد دراستنا المتعلقة بالهجرات العربية الى تشاد أن أسواق كانم شهدت وعبر عصورها المختلفة وفودًا تجارًا مصريين وليبيين ومغاربة وسودانيين (من السودان الشرقي). وغيرهم شكلوا مع الأيام جانب من نواة الجاليات العربية المعاصرة في تشاد. وعلى صعيد مماثل شهدت تشاد خلال العهد الكانمي قدوم عدد كبير من القبائل العربية إلى البلاد سعيًا وراء البحث عن الماء والكلأ لسوائمها والأمان والاستقرار لأفرادها بعد أن ضاقت الحال بكثير منهم في مصر أيام الدولة المملوكية مدة حكم السلطان الغوري إذ اشتد المماليك على كثير من القبائل العربية التي لم تذعن لسلطانهم فهبَّت الدولة على مطاردتهم والتنكيل بهم خصوصًا القبائل البدوية الراحلة الأمر الذي أجبرهم على الهجرة إلى خارج حدود الدولة المصرية ومنهم من رحلوا إلى بلاد كانم مثل قبائل الحسانية أو الحساونة وجذام والعبابدة أو(العبيدية) وهذه القبائل لم

تقطن بلاد كانم وحسب وإنما أصبحت تمثل أهم القبائل التي ظلت تعتمد عليها الدولة الكانمية في تكوين جيشها القوي نظرًا لمعرفتها بركوب الخيل وفنون القتال.

ومن القبائل التي هاجرت إلى كانم عن طريق بلاد النوبة في العصر المملوكي جهينة: وهي خليط من القبائل العدنانية والقحطانية وبطونها المختلفة وكذلك اشترك فرع من قبيلة فزارة في هذه الهجرات التي شهدها العصر المملوكي وقد وصل العرب إلى بلاد كانم عن طريق النيل من جهة الشرق وعبر الصحراء من ناحية الشمال وانتشرت قبائلهم في شمال بحيرة تشاد وفي إقليم برنو غرب البحيرة كما انتشروا في الإقليم الشرقي والأوسط حتى منطقة دار فور الواقعة حاليا ضمن الأراضي السودانية.[٢٥] ومما يجدر ذكره هنا؛ أن القبائل العربية في تشاد في عهدها الكانمي صار لها وضعان: الأول: القبائل التي عاشت شرق البحيرة ظلت تحتفظ بأسمائها الأصلية التي قدمت بها من الجزيرة العربية، أما الوضع الثاني فيخص القبائل العربية التي عاشت في الجزء الغربي من البحيرة وهو إقليم البرنو الذي تقع معظم أجزاءه في دولة نيجريا المجاورة فقد عُرفوا باسم شُوا وهذه التسمية أطلقها عليهم السكان المحليون وهذا اللفظ كانوا يطلقونه على القبائل العربية كلها بصرف النظر عن اختلاف عشائرها.[٢٦]

ويبدو من سياق ما تقدم؛ أن كثيرًا من القبائل العربية بأرض كانم أو ما جاورها من بلاد تشاد بعد أن طاب لها المقام بتلك الأرض استدعت إخوانها وأفراد عشيرتها من أرض مصر والجزيرة العربية ليلحقوا بها، وعاش العرب في تلك الديار حيث لا تختلف عن حياتهم في أوطانهم الأولى في الجزيرة العربية وكانت حياتهم الاجتماعية مبنية على عصبية الدم ورباط القبيلة والانقياد التام لرئيس القبيلة، وحافظوا على كثير من عاداتهم الطيبة التي منها إكرام الضيف وإغاثة الملهوف، وهي العادات العربية الأصيلة التي كانت سائدة فيهم منذ حياتهم الأولى في الجزيرة العربية.[٢٧]

أما في دار وداي فيؤكد مخطوط محلي أن الحكم جاء إلى المسلمين منذ أن حكم عرب البِرقِد وهم الأسرة التاسعة في سلسلة الأسر التي حكمت هذه المنطقة، ثم وصل الحكم إلى جماعات بني هلبة بني مالك بن قيس ثم حكمت قبائل الزغاوة وكان اسم ملكهم بَرقو ... ثم حكمت قبائل التُنجر الذين انحدروا من شمال أفريقيا وأخيرا جاء حكم عبد الكريم بن جامع (مجدد الإسلام) ومن معه من شيوخ الإسلام الذين استمرت ذريتهم تحكم الى اليوم في مملكة وداي.[٢٨] هكذا توالت الهجرات العربية إلى بحيرة تشاد وطبعت البلاد بطابع لا يزال مستمرًا إلى اليوم.[٢٩]

## رابعًا: هجرات العرب الثالثة إلى بحيرة تشاد

أما الهجرة التي قام بها الهلاليون في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي إلى إفريقيا، والتي تمثل الطور الأخير والمشهور من اغتراب العرب نحو أفريقيا تُعتَبر من الهجرات العربية المهمة التي دخلت الشمال الأفريقي في أوائل المائة الخامسة للهجرة هي هجرة قبائل بني هلال ومعها قبائل المعقل وبني سليم وغيرها وقد هاجرت كثير من هذه القبائل إلى مناطق شمال تشاد والنيجر ومالي وموريتانيا.[٣٠] فمنذ النصف الثاني من القرن الأول الهجري بُعيد فتح مصر استمرت هجرات العرب حتى بعد عهد العباسيين، وفي ظل النفوذ الفاطمي في مصر هاجرت قبائل من طيئ وفزارة ... بتشجيع من الفاطميين وخاصة الخليفة المعز لدين الله الفاطمي الذي أنزلهم بصعيد مصر حتى أصبحت مصر في آخر العهد الفاطمي تتمثل في جميع شجرة النسب العربية فمن عرب الجنوب جُزام وطيئ وجُهينة ومن عرب الشمال كِنانة وفزارة وغث وربيعة وجوزان وهلال وقد سلكوا ثلاثة طرق رئيسة نحو دواخل أفريقيا.

| | |
|---|---|
| الطريق الأول: | من أسوان من صعيد مصر إلى بلاد النوبة في شمال السودان |
| الطريق الثاني: | من مصر إلى برقة فطرابلس ثم تونس والمغرب، وهذا هو الطريق الذي سلكته قبائل بني هلال وحلفاءهم من التنجر من تونس عابرين الصحراء الكبرى إلى دار مَبَا ودار فور بقيادة أحمد معقور الهلالي |
| الطريق الثالث: | يبدأ من أسيوط مارًا بواحات مصر في الصحراء الغربية عابرًا الصحراء الكبرى إلى بحيرة تشاد.[٣١] |

## خامسًا: الهجرات العربية الرابعة والأخيرة إلى البحيرة التشادية

في سنة ١٨٤٢م هاجرت من ليبيا إلى تشاد العديد من القبائل العربية من أصول ليبية مثل: أولاد سليمان والقذاذفة، وورفلة، والمغاربة، والرعيصات. وقد كانت هجرات هذه القبائل نتيجة لعدة عوامل أهمها: الضرائب الباهظة التي كانت تفرضها السلطات التركية والتي أدت في كثير من الأحيان إلى التذمر والرفض والثورة مثل ثورة عبد الجليل سيف النصر التي انتهت بموته عام ١٨٤٢م مما دَعى أتباعه من القبائل السابقة إلى الهجرة إلى تشاد والاستقرار في كانم قرب بحيرة تشاد، وفي سنة ١٩٣٠م استقبلت أرض تشاد العديد من القبائل والعشائر الليبية مثل: أولاد سليمان من المَيَايْسة والشِّريدات والجَبائر واللِّهيْوات وقبائل القَذاذفة من القُحوص والخطرة وأولاد عمر وقبائل الوَرفلَّة من السبابيع والشفاترة وغيرها، وبعض القبائل الأخرى كالتمامة والجماعات والشرفة والهوانة والمغاربة والزوية والمجابرة

والحسون والعربيات. وقد هاجرت هذه القبائل إلى تشاد أمام القصف المُركَّز الذي تقوم به الطائرات الايطالية عام١٩٢٩م وقد توزَّعت هذه القبائل في المدن التشادية في الشمال والشرق والوسط والغرب بينما ظلت فئات كبيرة منهم بدو يتنقلون بقطعان الإبل حول المنخفضات الشمالية مثل عقي وجراب وبدلي.[٣٢]

والسؤال الذي يطرح نفسه؟ لماذا هاجرت القبائل العربية من ليبيا وقبلها من الجزيرة العربية إلى بحيرة تشاد؟ أليس من المنطق والصواب أن تتجه الهجرات إلى وادي النيل أو إلى الشام ومناطق الهلال الخصيب أو إلى وادي الرافدين حيث الخصب والنماء! بدلاً من الاتجاه نحو بحيرة تشاد؟

إن الإجابة على هذا السؤال تتلخص في العامل الأمني الذي ظلت تتميز به منطقة بحيرة تشاد والذي اكتسبته من موقعها الحصين المُحاط بسُور من السلاسل والمرتفعات الجبلية من جهة ولموقعها النائي عن عواصم مراكز الحضارة حيث الصراعات الدينية والسياسية التي شهدتها تلك المناطق والتي ظلت باستمرار عوامل طرد للسكان من جهة ثانية، أما العامل الثاني الذي ظل يمثل عامل جذب قوي أو ميزة من مميزات موقع تشاد وهو تنوع المُناخ وغزارة الأمطار وتنوع الأقاليم وملائمتها لأنماط حياة السكان المختلفة (الرعي التجارة والزراعة).[٣٣]

## سادسًا: آثار الهجرات ثقافيًا

من أهم آثار الهجرات تحويل منطقة بحيرة تشاد إلي مركز إشعاع وحضارة إسلامية، كما خلقت الهجرات تداخلاً وتمازجًا بين سكان الحوض أدى إلى اختلاط في الدماء فنتج عن كل ذلك في الجانب اللغوي منه، لغة عُرفت بالعربية التشادية لها خصائصها اللغوية المتعلقة بالأصوات والظواهر السياقية والبنيوية والدلالية ولها مميزاتها الصوتية بمحافظتها على جُل أصوات العربية وإن فقدت شيئًا منها فمرده الطبيعة الجغرافية الجديدة شأنها في ذلك شأن كل لغات المعمورة عندما تتجاور تتأثر بغيرها كما تؤثر في غيرها،[٣٤] فالعرب الموجودون في حوض البحيرة التشادية يؤمنون بعروبتهم وليس إيمانهم بها بأقل من إيمانهم بوجودهم وحياتهم، وليست عربيتهم الدارجة بأقل نفعًا من أي عربية دارجة تُستعمل في أي دولة عربية الآن، وهي بلا شك أوضح وصالحة للكتابة من أكثر تلك اللغات العامية.[٣٥]

كما أن قوافل الهجرات العربية إلى البحيرة التشادية عرفت رجالا اشتهروا بالشجاعة والكرم، وآخرين حملوا لواء العلم والدين والعربية في أصقاع الصحراء على جِمال حملت الزاد الجسمي والعقلي في صناديق من كتب العلم والمعرفة في رحلات تخترق الصحراء في شهور وأحيانًا في سنوات لا في سيارات فارهة ولا طائرات مرفّهة! بل سيرًا على الأقدام والدواب! يتصدون للوثنية والبدع والخرافات وينشرون الدين الإسلامي السمح بلا مقابل وبلا راتب وبلا تشجيع ولا أوسمة! حسبهم الله ونعم الوكيل وحسبهم إيمانهم الدافع الحقيقي لهذا للعمل! مُصلحين مجاهدين انشئوا الزوايا والمدارس لتعليم القرءان وأصول الدين الإسلامي العظيم، ومعلمين نشروا العربية الفصحى في أمم مازالت تدبجها منذ آلاف السنين[٣٦] كل ذلك كان بفعل هجرة الصحابة والتابعين وهجرات أخرى للمسلمين لأسباب دعوية و سياسية واقتصادية، نتج عنها انتشار الإسلام في تلك المجتمعات وتحويلها إلى إمارات وسلطنات إسلامية، تركت معالم حضارية تستحق الوقوف عندها، ليس للذكرى وإنما لتذكير الجيل الحاضر بواجب الاعتناء بالتاريخ المجيد والحفاظ على الهوية الإسلامية التي تتجدد جهود طمسها من أعداء هذا الدين من وقت لآخر، ومحاولة إعادة قاطني حوض البحيرة التشادية إلى جاهلية جهلاء ووثنية عمياء بشتى الوسائل! ومن أهمّها تحريف التاريخ والتجهيل بالماضي الإسلامي، وقطع الروابط والعلاقات التاريخية بين إفريقيا والإسلام وبين الأفارقة والعالم الإسلامي.[٣٧]

ومن الأسباب التي ساعدت علي نشر الإسلام والعربية في إفريقيا، مقدرة قوافل الهجرات العربية بفعل الإسلام علي التأقلم مع البيئة الإفريقية الجديدة والتكيف معها، فقد تسرب الإسلام ومعه العربية إلي المجتمعات الوثنية في بتدرج واعتدال، فلم يقم بقلع الناس من جذورهم؛ بل قدم مبادئه ومُثله للناس دون أن يقتلع نُظمهم القديمة، فعايش المهاجرون المسلمون الناس واختلطوا بهم، وعاشوا معهم حياتهم؛ فكان أن دخل الناس دينَ الله طائعين مختارين، ولم يلبثوا أن صاروا دعاة لهذا الدين الجديد في أوساط أهليهم وذويهم وجيرانهم، أضف إلي ذلك ميزات الإسلام الاجتماعية والثقافية وقوة جذبها، بل حتى ممارساته التعبدية فقد كان لعملية الوضوء، وطريقة أداء الصلاة مثلاً أثرًا كبيرًا علي الناس، كما أن الملبس الإسلامي، والسلوك الإسلامي جعلت من الإسلام دينا يحسه ويراه ويشاهده الجميع، ويتأثر به الكثيرون، كما أن التحول للإسلام لم يؤد إلي اختلال النظام الذي كان سائدا، ولم يؤد إلي أزمات نفسية لدي معتنقيه، بل تسرب وتغلغل في يسر وهدوء وسلام فكان طابعه السلم والإقناع، ولم يُشهر دعاتُه السيف إلا في حالات الدفاع عن النفس والعقيدة، فالتقوا حول الملوك والحكام والرعية ودعوهم بالموعظة الحسنة إلي دين الله، واندمجوا في المجتمعات التي استقروا فيها، وصاهروا الأهالي فكسبوهم دعاة جددًا للإسلام واحترموا العادات والتقاليد ولم يحتقروها فنجحوا في نشر دينهم وأسسوا المدارس والمساجد، فانتشرت مع الدين اللغة العربية، وزاد من انتشارها هجرة بعض القبائل العربية واستقرارها في أنحاء متفرقة من حوض البحيرة التشادية.[٣٨]

لقد كانت ضخامة آثار الهجرات العربية موضع دهشة المؤرخين وإعجابهم نظرًا لرسوخ قواعد هذه الظاهرة ورسوخ آثارها في كل أرجاء حلَّت فيها سيادة الإسلام وكان من أبرز هذه الآثار ذلك المزج العرقي واسع النطاق بين العرب والشعوب التي فُتحت بلدانها أو هاجر العرب إليها ودخلت في دين الله أفواجا وكان الاستعراب نتيجة طبيعية لتلك السيادة وذلك المزج، والاستعراب المقصود هنا كان استعرابًا لسانيًا ودينيًا وثقافيًا شاملاً واندماجًا كُليًا في بوتقة العروبة بمعناها الحضاري والثقافي والإنساني لا بمعناها الإثنلوجي العرقي التعصبي البغيض الذي قد يذهب إليه بعض دُعاة التعصب وأصحاب الأفق الضيق،[٣٩] وبصفة عامة فان هجرات القبائل العربية نتج عنها انتشار الدين الإسلامي وانتشار اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن الكريم والخطاب الإسلامي.[٤٠] ويعيش التشاديون اليوم في حوض حضاري يقع في هذا الامتداد الجغرافي من سلطنة عمان شرقًا على المحيط الهندي، إلى موريتانيا على المحيط الأطلسي غربًا وكان هذا الامتداد مسرحًا لمد بشري منذ عشرات آلاف السنين في الاتجاهين.[٤١]

هكذا اختلط العرب بالزنوج تزاوجًا وتجاورًا حتى بَعُد ما بينهم وبين عرب الجزيرة بشيء من سُمرة البشرة ودكنة اللون، لكنهم ظلوا بلغتهم العربية القريبة من الفصحى يقارعون اللغات الأخرى على مر السنين والأيام كما ظلوا يتمسكون بأصولهم العدنانية والقحطانية الصحيحة يأبون الاندثار الكلي والذوبان الشامل في تلك الشعوب الأفريقية الحامية الزنجية، فتشكلت منهم في منطقة حوض بحيرة تشاد الأمة التشادية منذ ذلك التاريخ وحتى الآن يوم أن صاغ العرب بأصولهم العريقة ولسانهم الفصيح تراث لغة الضاد في هذه الديار ووسموه بميسم العروبة من أبناء قحطان وعدنان منذ قرون مضت قبل الإسلام، ثم تعزز ذلك الميسم العربي بشكل أكثر وأوسع بدخول الإسلام المبكر في تشاد.[٤٢] وهكذا استمرت الهجرات العربية من الجزيرة العربية إلى أفريقيا من الفتح الإسلامي وحتى استقرار الأمور في الجزيرة العربية وإنشاء المملكة العربية السعودية وظهور البترول حيث كانت الأوضاع الاقتصادية في مصر قبل استغلال بترول الخليج أحسن حالاً من الجزيرة العربية.[٤٣]

## خَاتِمَةُ

شهدت تشاد قدوم موجات من الهجرات العربية في مختلف الأزمنة نظرًا لتوفر الماء والكلأ وبُعدها ومن مناطق الصراع في الجزيرة العربية وما حولها وتقبل أهلها للإسلام، كل ذلك جعلها منطقة جاذبة، جذبت إليها الهجرات العربية في مختلف العصور فتتالت الهجرات نحوها خاصةً مع بزوغ نور الإسلام حتى ظهور البترول في الخليج العربي فتوقفت هذه الموجات. وقد كانت ضخامة آثار الهجرات العربية موضع دهشة المؤرخين وإعجابهم نظرًا لرسوخ قواعد هذه الظاهرة ورسوخ آثارها في كل أرجاء حلَّت فيها سيادة الإسلام واللغة العربية وكان من أبرز هذه الآثار ذلك المزج العرقي واسع النطاق بين العرب والشعوب التي فُتحت بلدانها.

## نتائج الدراسة

- عرفت تشاد اللغة العربية قبل ستة آلاف سنة قبل الميلاد.
- تعددت أسباب ودوافع الهجرات لكن العامل الديني هو الأقوى.
- لم تفرض اللغة العربية على السكان فرضا لذا تطلب انتشارها مئات السنين.
- تشاد دولة عربية مجهولة بحكم أن العربية لغة التخاطب اليومي بين معظم السكان.
- من أهم أثار الهجرات انتشار الإسلام واللغة العربية.

**التوصيات:**

ضم تشاد إلى جامعة الدول العربية

## الهَوامِشُ:

(١) عبد الحميد بوسماحة: **المسير في تغريبة بني هلال بين الواقع والخيال**، أطروحة دكتوراه دولة في الآداب، كلية الآداب واللغات قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، ٢٠٠٤-٢٠٠٥، ص٣٠.

(٢) محمد عمر الفأل: **الهجرات العربية إلى منطقة حوض بحيرة تشاد قبل الإسلام**، ندوة علمية دولية بعنوان: اللغة العربية في تشاد الواقع والمستقبل، نُظمت من قبل جامعة الملك فيصل في تشاد ورابطة الجامعات الإسلامية، في الفترة ما بين ٢١ إلى ٢٥ يناير٢٠٠١، ص١٢٨.

(٣) ربيع محمد الحاج: **الهجرات العربية إلى بلاد النوبة والسودان الشرقي وآثارها الثقافية والحضارية**، الموقع، شبكة الألوكة، تاريخ الإضافة: ٢٠١٣/٦/١١ ميلادي - ١٤٣٤/٨/٢ هجري.

(٤) عبد الله خضر أحمد: **أثر الهجرة في تكوين الإمارات الإسلامية في إفريقيا الحبشة نموذجًا**، مجلة قراءات إفريقية، العدد التاسع عشر، محرم - ربيع الأول 1435هـ، يناير – مارس 2014م، ص١٢.

(٥) عبده بدوي: **الشعر العربي في السودان**، سلسلة عالم المعرفة، الكتاب رقم٤١، ص٧.

(٦) محمد عمر الفال: مرجع سابق، ص١٢٥.

(٧) شكري فيصل: **المجتمعات الإسلامية في القرن الأول نشأتها مقوماتها تطورها اللغوي والأدبي دار العلم للملايين**، ط الخامسة بيروت لبنان يوليو١٩٨١، ص٢٤.

(٨) ربيع محمد الحاج: المرجع نفسه.

(٩) عبد السلام بغدادي: **الجماعات العربية في إفريقيا، دراسة في أوضاع الجاليات والأقليات العربية في أفريقيا جنوب الصحراء**، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، بدون ط، ص٥٤٤.

(١٠) أكَّد هذه المعلومة السيد: القاضي عبد العزيز بن القاضي محمد بن القاضي محمود قاضي الفتري، وهو من أبناء البلالة، حيث قال: البلالة أصلهم عرب من حمير من اليمن من أبناء تُبَّع: عبر برنامج بثته القناة التشادية ومتاح في الشبكة الدولية للمعلومات بعنوان: *www.onrtv tchad histoir de bilala a traver les siecles*، والباحث يحتفظ بنسخة منه في مكتبته المرئية.

(١١) يوسف بريمة سليمان: "**تشاد الدولة العربية المجهولة**"، المؤتمر الدولي بمناسبة مرور أربعة عشر قرنًا على الإسلام في أفريقيا، والذي نظمته جامعة أفريقيا العالمية بالسودان، الخرطوم، بتاريخ ٢٦ – ٢٧ نوفمبر٢٠٠٦ الموافق (٦ – ٧) ذو القعدة١٤٢٧هـ، الكتاب الرابع عشر، ص٢٢٣ – ٢٢٤.

(١٢) محمود المقداد: **تاريخ الدراسات العربية في فرنسا**، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، الكتاب رقم ١٦٧ نوفمبر ١٩٩٢، ص٥-٦.

(١٣) عبد السلام بغدادي: المرجع نفسه، ص٥٤٤-٢٤٥.

(١٤) عبد الرحمن عمر الماحي: **الدعوة الإسلامية في إفريقيا الواقع والمستقبل**، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، بالجماهيرية العظمى، ص٦٦.

(١٥) الأصل اللغوي لكلمة البقط تم إرجاعه إلى عدد من اللغات وهي: اللاتينية والإغريقية (اليونانية) واللغة المصرية القديمة واللغة العربية واللغة النوبية (الدنقلاوية وربما المحسية) وعلى الرغم من هذه الاختلافات التي يصعب من خلالها تحديد هذا الأصل على وجه التأكيد يمكن القول: أن جميع هذه الأصول لها ما يبررها غير أن الأصل العربي يظل الأضعف ويظل الأصل النوبي (الدنقلاوي) الأقرب إلى الترجيح، أما مدلول كلمة البقط فقد ذكر الباحثون معان عدة منها: جزية خراج هدية عطاء. وقد وقعت اتفاقية البقط بين المسلمين والنوبة بعد حصار دنقلة فطلب ملكهم الصلح وكان ذلك يوم الجمعة من شهر صفر ٣١هـ وهذه الاتفاقية تعتبر أكبر تكذيب للقائلين بان الإسلام انتشر بحد السيف. انظر: كمال محمد جاه الله: "**البقط قراءة في أصل الكلمة ومدلولها**"، المؤتمر العالمي حول عهد البقط، بمناسبة مرور١٤٠٠عام هجري على الاتفاقية، منشورات جامعة أفريقيا العالمية ص٣٤.

(١٦) ربيع محـمد القمر الحاج: **الهجرات البشرية وأثرها في تشكيل السلوك الاجتماعي في إفريقيا منطقة النوبة وحوض النيل نموذجًا**، ندوة التداخل والتواصل بجامعة إفريقيا العالمية، ص٤.

(١٧) إبراهيم صالح بن يونس الحسني: **تاريخ الإسلام وحياة العرب في أمبروطورية كانم ـ برنو**، توزيع دار النهضة الإسلامية العالمية، ط مكتبة القاضي شريف، كانو، نيجيريا، ١٩٧٦، ص١٨-١٩.

(١٨) الماحي: بتصرف، ص ٦٩.

(١٩) إبراهيم صالح: ص١٨-١٩.

(٢٠) عبد **الحميد** بو سماحة: ص٣٠.

(٢١) محمد رفيع محمد: **القبائل البدوية في محافظة البحر الأحمر**، دار الرسالة الذهبية، بدون دار نشر ولا طبعة، ص٣٦.

(٢٢) الماحي، ص٦٩.

(٢٣) المرجع نفسه، ص٦٨.

(٢٤) عبد السلام بغدادي: ص٥٤٥ – ٥٤٧.

(٢٥) المرجع نفسه، ص٥٤٧-٥٤٩.

(٢٦) المرجع نفسه، ص٥٤٧-٥٤٨.

(٢٧) المرجع نفسه، ص٥٤٩.

(٢٨) محمد صالح محمد أيوب: **وسط أفريقيا بين الثقافة الإسلامية والغربية (شاد نموذجًا)**، الناشر بورصة الكتب للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠١٢ م/١٤٣٣ هـ، ص٤١.

(٢٩) **الماحي**، ص٦٨.

(٣٠) محمد **احمد** الملقب بالشفيع: **التواصل الحضاري العريق بين المناطق الافريقية الواقعة شمال الصحراء الكبرى وجنوبها**، أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الأفريقية على جانبي الصحراء، التي نظمتها كلية الدعوة الإسلامية بليبيا

وكلية الآداب بتطوان بالغرب، في الفترة ما بين ١٢ إلى ١٤ مايو ١٩٩٨ ص١٦٧.

(٣١) محمد عمر الفال: ص١٢٥. سعيد عبد الرحمن الحنديري: **تطور الحياة** السياسة **في تشاد منذ الاحتلال الفرنسي حتى نهاية حكم تمبلباي (١٩٠٠-١٩٧٥)**، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، سلسلة الدراسات التاريخية (٢٩) ط الأولى ١٩٩٨.

(٣٢) سعيد عبد الرحمن الحنديري: **تطور الحياة السياسة في تشاد** منذ الاحتلال **الفرنسي حتى نهاية حكم تمبلباي (١٩٠٠-١٩٧٥)**، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، سلسلة الدراسات التاريخية (٢٩) ط الأولى، ١٩٩٨، ص٢٩.

(٣٣) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(٣٤) عثمان محمد آدم: "**العربية في حوض البحيرة التشادية**"، دورية متعددة التخصصات يصدرها مدرسة المعلمين العليا بمروا، الكمرون، عدد خاص، رقم ٤ لعام ٢٠١٥، ص٢٢٠.

(٣٥) إبراهيم صالح، ص١٧ بتصرف.

(٣٦) محمد سعيد القشَّاط: **أعلام من الصحراء**، مؤسسة ذي قار، ط الثانية ١٩٩٩، ص٥- ٦.

(٣٧) عبد الله خضر أحمد: **أثر الهجرة في تكوين الإمارات الإسلامية في إفريقيا (الحبشة نموذجًا)**، مجلة قراءات أفريقية، العدد التاسع عشر، محرم- ربيع الأول 1435 هـ ، يناير -مارس 2014 م ص١٢.

(٣٨) ربيع محمد الحاج: المرجع نفسه.

(٣٩) محمود المقداد: **تاريخ الدراسات العربية في فرنسا**، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، الكتاب رقم ١٦٧ نوفمبر ١٩٩٢ ص٥-٦.

(٤٠) ربيع محمد الحاج: الهجرات العربية، المرجع نفسه.

(٤١) عثمان سعدي: البربر **الأمازيغ عرب عاربة (وعروبة الشمال الأفريقي عبر التاريخ)**، الناشر شعبة التثقيف والتعبئة والإعلام، طرابلس الجماهيرية العظمى، ط الثانية الفاتح ١٤٢٨، ص١٧.

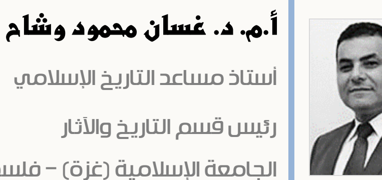
(٤٢) سعيد عبد الرحمن الحنديري: المرجع نفسه.

(٤٣) محمد رفيع محمد: **القبائل البدوية في محافظة البحر الأحمر**، دار الرسالة الذهبية، بدون ن ص١٢.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

دراسات

# جوانب من حياة المرأة العراقية في القرن الرابع الهجري
## من خلال كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للتنوخي البصري (ت. ٣٨٤ هـ)



**أ.م. د. غسان محمود وشاح**
أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي
رئيس قسم التاريخ والآثار
الجامعة الإسلامية (غزة) – فلسطين

**مُلَخّصْ**

*تتحدث الدراسة عن الجوانب الحضارية من حياة المرأة العراقية في القرن الرابع الهجري، كما ظهرت من خلال كتاب نشوار المحاضرة للتنوخي. وقد اعتمد الباحث على المنهج التاريخي التحليلي الوصفي، حيث شملت الدراسة تعريف بالمؤلف والكتاب وتفاصيل جمع الكتاب ومنهجية الكاتب في التأليف. كما تناولت الدراسة جوانب حضارية من المرأة العراقية مثل موقف السلطة والمجتمع من المرأة كرعايتها صحيًا واجتماعيًا وحمايتها أمنيًا، والصور الإيجابية والصور السلبية لها في تلك الحقبة، وبعض الظواهر الاجتماعية التي تأثرت بها المرأة العراقية وظهرت من خلال روايات الكتاب. تهدف الدراسة إلى الاستفادة من كتب الأدب في رسم صورة حضارية صادقة عن المجتمعات، وتقديم صورة واضحة عن كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة باعتباره من الكتب النادرة والقيمة، وتقديم صورة واضحة عن القاضي أبي علي المحسن التنوخي من خلال الترجمة له، بالإضافة إلى تسليط الضوء على جوانب من حياة المرأة في العراق في العصر العباسي الثاني القرن الرابع الهجري وإبرازه كموروث حضاري.*

**بيانات الدراسة:**

تاريخ استلام البحث: ٠٩ مايو ٢٠١٨
تاريخ قبـول النشـر: ١٩ مايو ٢٠١٨

**كلمات مفتاحية:**

الدولة الإسلامية، المرأة العراقية، العصر العباسي، الانحراف الاجتماعي، التنوخي

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0054795

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

غسان محمود وشاح. "جوانب من حياة المرأة العراقية في القرن الرابع الهجري من خلال كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للتنوخي البصري (ت. ٣٨٤ هـ)".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الثاني والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٨. ص ٤٠ – ٤٨.

## مُقَدِّمَةٌ

هنـاك العديـد مـن كتـب الأدب التـي يمكـن مـن خلالها التعرف على طبيعة المجتمعات ومكوناتها كما يمكـن رسـم صورة صادقة عن الحياة الاجتماعية في هذه المجتمعات، كما يمكـن اسـتنباط أسـاليب المعيشـة وعـادات وتقاليـد وأوضاع عناصر المجتمع ويأتي كتاب نشـوار المحاضرة للتنـوخي على رأس هـذه الكتـب، فهـو يمثـل مخـزون لـيس أدبـي فقـط، بـل تـاريخي وحضـاري واجتمـاعي يمكـن الاعتمـاد عليـه كمصـدر للمعلومات والأحداث، وهـو مـن تـأليف القاضـي أبـي علـيّ بـن المحسـن التنـوخي وهـو مـن الكتـب النـادرة مـن حيـث القيمة وطريقة العرض فهو كتاب لم ينقل أخباره مـن كتـب أخرى بـل كانت من أفواه الرجال وما دار بينهم فـي المجالـس كما يـذكر صاحب النشـوار حيـث اسـتغرق تأليفـه عشـرون عامًـا (٣٦١هـ-٣٨٠هـ)، وتنـاول الكثيـر مـن الأمـور الحياتيـة والاجتماعيـة فـي العراق خلال العصـر العباسـي. وسـوف نتنـاول مـن خـلال هـذا الكتاب موضوعًا مهمًـا، وهـو جوانـب مـن حيـاة المـرأة العراقيـة فـي العراق فـي القرن الرابع الهجري حيث أن أحداث هذا الكتاب ومـا رواه النشـوار تغطـي تقريبًـا هـذا القـرن مـن عمـر الدولـة العباسية، وسـوف تسلط الدراسة الضـوء علـى بعـض القضـايا المهمة في حياة المرأة في العراق وما ركز عليه التنوخي وأبرزه

من خلال رواياته، مثل دور المرأة في الجانب الثقافي وعمل المرأة في شتى المجالات وموقف المجتمع والسلطة من المرأة.

## أولاً: التعريف بالمؤلف والكتاب

### ١/١-التعريف بالمؤلف:

القاضي أبو علي المحسن بن أبي القاسم علي بن محمد بن أبي الفهم داود بن إبراهيم ابن تميم التنوخي[١]، ابن الإمام المحدث النحوي الأديب الشاعر القاضي أبو القاسم البغدادي له مصنفات منها كتاب العروض، وديوان شعر توفي عام (٣٤٢هـ/ ٩٥٣م)[٢]، وابنه علي بن المحسن ولد في البصرة عام (٣٦٥هـ/٩٦٧م)، وتوفي ببغداد عام (٤٤٧هـ/١٠٥٥م)، الذي سمع الحديث وقبلت شهادته عند الحكام في حداثته، وكان محتاطًا صدوقًا يميل إلى الاعتزال، وتقلد القضاء في عدة مناطق منها المدائن، وكان راويًا للحديث، والتنوخي نسبة إلى تنوخ وهو اسم لعدة قبائل اجتمعوا قديما بالبحرين وتحالفوا على التوازر والتناصر وأقاموا هناك فسموا تنوخا، والتنوخ الإقامة[٣]، وولد القاضي أبي القاسم التنوخيّ في ربيع الأول عام (٣٢٧هـ/٩٣٩م) في البصرة، وتوفي في محرم (٣٨٤هـ/٩٩٤م)، في بغداد[٤]، ولد في بيت فقه وعلم، فنشأ منذ طفولته محبًّا للدرس[٥].

له كتاب "الفرج بعد الشدة" وذكر في أوائل هذا الكتاب أنه كان على العيار في دار الضرب بسوق الأهواز في عام (٣٤٦هـ/٩٥٧م)، وذكر بعد ذلك بقليل أنه كان على القضاء بجزيرة ابني عمر، وله ديوان شعر أكبر من ديوان أبيه، وكتاب "نشوار المحاضرة"، وله كتاب "المستجاد من فعلات الأجواد"، وسمع بالبصرة من أبي العباس الأثرم، وأبي بكر الصولي، والحسين بن محمد بن يحيى بن عثمان النسوي وطبقتهم، ونزل ببغداد وأقام بها، وحدث إلى حين وفاته وكان سماعه صحيحًا، وكان أديبًا شاعرًا إخباريًا، وكان أول سماعه الحديث في عام (٣٣٣هـ/٩٤٥م)، وأول ما تقلد القضاء من قبل أبي السائب عتبة بن عبيد الله بالقصر، وبابل وما والاهما في سنة تسع وأربعين[٦]. قال عنه الذهبي: "كان أديبًا إخباريًا، علامة، مصنفًا، متفننًا، شاعرًا، روى عنه ابنه أبو القاسم علي"[٧].

### ٢/١-منهجية الكاتب في تأليف الكتاب:

وضح التنوخي منهجيته في الكتابة، وذلك بقوله عن الكتاب بأنّه "كتاب يشتمل على ما تناثر من أفواه الرجال، وما دار بينهم في المجالس" وقال: إنّه سمّاه "نشوار المحاضرة، لأنّ النشوار ما يظهر من كلام حسن، ويقال: إنّ لفلان نشوارًا حسنًا، أي كلامًا حسنًا"، وذكر عن سبب تأليفه الكتاب "أنّه اجتمع قديمًا مع مشايخ، قد عرفوا أخبار الدول، وشاهدوا كل غريب عجيب، وكانوا يوردون كلّ فنّ من تلك الفنون، فيحفظ ذلك، ويتمثل به، فلما مرت السنين، ومات أكثرهم، خشي أن يضيع هذا الإرث، فأثبته في هذا الكتاب" وقال: إنّه ألّف هذا الكتاب "ليستفيد منه العاقل اللبيب، والفطن الأريب، ويجد فيه ما يحثّه على العلم بالمعاش والمعاد، والمعرفة بعواقب الصلاح والفساد، وما تفضي إليه أواخر الأمور، وتساس به كافة الجمهور" وقال المؤلف مزهوًا بكتابه: "إنّه ما سبق إلى كتب مثل هذا الكتاب، ولم تخلّد بطون الصحف، بشيء من جنسه وشكله"، وإنّ كثيرا مما ورد في الكتاب "لا نظير له، ولا شكل، وهو وحده جنس وأصل"[٨].

يُعَدّ كتاب نشوار المحاضرة من الكتب النادرة في عالم الكتاب العربي، قضى التنوخيّ في تصنيف كتابه هذا عشرين عامًا، وأخرجه في أحد عشر مجلدًا، واشترط فيه على نفسه، ألا يضمّنه شيئًا نقله من كتاب، بأنّه "كتاب يشتمل على ما تناثر من أفواه الرجال، وما دار بينهم في المجالس"، ثم تراجع عن زهوه، فختم المقدمة متواضعًا، وقال: "إنّه يرجو ألا يبور ما قد جمعه، ولا يضيع ما قد تعب فيه وكتبه، فلو لم يكن فيه إلّا أنّه خير من أن يكون موضعه بياضًا، لكانت فائدة" بدأ تعلّقي بكتاب النشوار[٩]. وأردف قائلاً عن تدوين الأخبار: "ولعل قارئها والناظر فيها، واستضعفها ووجدها خارجة عن السنن المعروفة في الأخبار، والطريق المألوف في الحكايات والآثار الراتبة في الكتب، ولمتداولة بين أهل الأدب، لاسيما مالم يعلم السبب الذي رغّبني في كتابتها، وهو أني اجتمعت قديمًا مع مشايخ وعلماء وأدباء، قد عرفوا أحاديث الممل، وأخبار الممالك والدول، وحفظوا مناقب الأمم ومعايبهم، وفضائلهم ومثالبهم، وشاهدوا كل فنّ غريب، ولون طريف عجيب من أخبار الملوك والخلفاء، والكتاب والوزراء، والسادة والأمراء، والرؤساء والفضلاء، والمحصلين والعقلاء، والأجواد والبخلاء،...[١٠].

أما عن الظروف التي أخذ فيها التنوخي الروايات والقصص، فقال: "وكان القوم الذين استكثرت منهم، وأخذت ذلك عنهم، يحكونه في أثناء مذاكراتهم، وفي عرض مجاراتهم، وبعد انقضاء ملحهم وآدابهم"، أما طريقته في تصنيف الكتاب فيقول: "فأوردت ما كتبته مما كان في حفظي سالفًا، مختلطًا، بما سمعته آنفًا، من غير أن أجعله أبوابًا مبوبة، ولا أُصنفه أنواعًا مرتبة، لأن فيها أخبار تصلح أن

يذاكر بكل واحد منها في عدة معاني، وأكثرها ما لو شغلت نفسي فيه، بالنظم والتأليف، والتصنيف والترتيب؛ لبرد واستثقل، وكان إذا وقف قارئه على خبر من أول كل باب فيه، علم أن مثله باقية، فقل لقراءة جميعه ارتياحه ونشاطه، وضاق فيه توسعه وانبساطه، ولكان ذلك أيضًا يفسد ما في أثنائه من الفصول والأشعار، والرسائل والأمثال، والفصول التي إن رتبت على الأبواب وجب أن توصل بما تقدم من أشباهها، وتردد في الكتب من أمثالها، فينتقص ما شرطناه، ويبطل ما ذكرناه، من أن هذه الأخبار جنس لم يسبق إلى كتبه، وأنا إنما تلقطتها من الأفواه دون الأوراق، ويخرج بذلك عن القصد والمراد، والغرض[11].

## ثانيًا: جوانب من حياة المرأة العراقية من خلال كتاب نشوار المحاضرة

اهتم الإسلام منذ البداية بالنساء وحث على الإحسان لهن وإعطائهن جميع الحقوق الواجبة، وأوضح الدين الإسلامي أن المرأة أمانه عند الرجل سواء كان أب، أو أخ، أو زوج، أو أبن، فمن الطبيعي أن يهتم المجتمع العراقي زمن الدولة العباسية بالنساء، ومن مظاهر ذلك الاهتمام:

**١/٢-اهتمام المجتمع والدولة بالمرأة العراقية:**

حيث برز اهتمام المجتمع والدولة بالمرأة العراقية في العصر العباسي في القرن الرابع الهجري من خلال ما أورده التنوخي في كتابه نشوار المحاضرة ومذاكرة أخبار الناس على عدة صور نذكر منها:

**(١/٢) ١-الاهتمام في صحة المرأة العراقية وتبان قوتها في مجال الإنجاب والحمل**

من مظاهر الاهتمام بالمرأة العراقية في القرن الرابع الهجري كما أورده التنوخي في رواياته أنه كان هناك اهتمام من ناحية الرعاية الصحية للمرأة الحامل، حيث أن الروايات تظهر أنه كان هناك جهات ترعى وتهتم بهذا الجانب، وتحصي وتوثق ما يخص ذلك من معلومات عن مدة الحمل، حيث تحدثت الروايات عن إحصاء احدى عشر شهر لأمرة حامل وضعت بنتًا وعاشت سنين، "فقال: لي القاضي أبو الحسن: كان لأبي، زوجة من ولد الأشعث بن قيس، كوفيّة، فحملت منه أحد عشر شهرًا بحساب صحيح ضبطناه وأعلمناه، مع شدّة الاستظهار والتحصيل، فيما يجب تحصيله والاستظهار به في مثل ذلك، فولدت بعد أحد عشر شهرًا بنتًا، فعاشت البنت سنين، ولها أولاد"[12].

وكذلك أعداد الأجنة في البطن الواحد، فتذكر الروايات أن امرأة وضعت أربع أجنة في بطن واحد وقال: "وحدّثني أبي عن جدّي إنّه شاهد بالكوفة، أربعة إخوة ولدوا في بطن واحد، وعاشوا كلّهم، وأسنّوا، ومنهم من أعقب"[13]، هذا التوثيق يدل على الاهتمام بالمرأة العراقية في هذا الجانب، ويدل على قوتها في الإنجاب في حادثة الأربع توائم وما يدلل على أن حادثة إنجاب التوائم ليس حادثة عرضية؛ بل هي تنم عن قوة المرأة العراقية في الإنجاب، وتمتعها بالصحة الجيدة، والاهتمام الحسن سواء على مستوى الدولة، أو الأسرة، أن التنوخي ذكر رواية أخرى عن ثلاث توائم غيرها "قال لنا القاضي: إنّ إسماعيل بن أبي خالد المحدّث، له ثلاثة إخوة ولدوا في بطن واحد، وكلهم عاشوا وأسنّوا "[14]، هذه القصص الأدبية يمكن أن نستنبط منها مدى اهتمام المجتمع بصحة المرأة، ويعبر عن مكانة المرأة الكبيرة في المجتمع والحرص على توفير الوسائل التي تضمن تمتعها بالصحة والعافية، ويمكن استشعار أهمية ذلك عندما نقارن بين ذلك الاهتمام وما كانت تعانيه المرأة في المجتمعات الغير إسلامية المجاورة في تلك الفترة.

**(١/٢) ٢-الاهتمام بالمرأة العراقية التي توفي زوجها:**

كانت الدولة تعنى بمساعدة المرأة العراقية التي تحتاج للمساعدة وهنا يورد التنوخي في هذا المجال ما كانت الدولة تقدمه للأرامل من مساعدات حيث ذكرت الروايات أن الوزير أبي محمد المهلبي كان لديه كشف بأسماء أكثر من ثلاث آلاف امرأة وأسرة فقيرة كان تكفلها كاتبه على ديوان السواد، أبو الحسين عبد العزيز بن إبراهيم، كانت تتلقى المساعدة لمن توفي عنها زوجها فتوفي هذا الكاتب فقام الوزير بكفالة أسرته ومن كان بكفالته حتى أنه أشيع في تلك الفترة أنه أن طاب الموت فهو يطيب في عهد الوزير أبي محمد المهلبي لما كان يجده أهل المتوفى وزجته من عناية الدولة فيقول التنوخي "من مكارم أخلاق الوزير أبي محمد المهلبي وكان رحمه الله من بقايا الكرام... إنّ كاتبه على ديوان السواد، أبو الحسين عبد العزيز بن إبراهيم، المعروف بابن حاجب النعمان، سقط من روشن في دار أبي محمّد على دجلة، فمات في اليوم الثامن من السقطة... فعزّاهم بأعذب لسان، وأحسن بيان، ووعدهم الإحسان. ثم قال لأبي المكارم بن ورقاء، وكان سلف الميت: إنّ ذيل أبي الحسن طويل، وقد كنت أعلم إنّه يجري على أخواته وأولادهنّ وأقاربه شيئا كثيرا في كلّ شهر، وهؤلاء الآن يهلكون بموته، ولا حصّة لهم في إرثه، فقم إلى ابنة أبي محمد المادرائي -يعني

زوجة المتوفّى-، فعزّها عنّي، واكتب عنها جريدة بأسماء جميع النساء اللواتي كان أبو الحسن يجري عليهنّ، وعلى غيرهنّ، من الرجال وضعفاء حاشيته، وقال لأبي العلاء: إذا جاءك بالجريدة، فأطلقها عاجلاً لشهر، وتقدّم بإطلاقها على الإدرار، فبلغت الجريدة ثلاثة آلاف وكسرا في الشهر، وعملت في المجلس وأطلق مالها وامتثل جميع ما رسم به أبو محمد. .... وقلت أنا، لأبي محمد في ذلك اليوم: لو كان الموت يستطاب في وقت من الأوقات، لطاب لكل ذي ذيل طويل، في أيّام سيّدنا الوزير"[١٥].

هذه القصص والروايات توضح اهتمام المجتمع الإسلامي عامة والعراقي خاصة بالمرأة إذا فقدت رب الأسرة ولم تجد من يعيلها مع أبنائها، ويوضح لنا أن مسؤولية تأمين حاجات النساء تكون مسؤولية المجتمع ولا يمكن تركها فريسة للفقر والجوع، وهذا الاهتمام لا نجده في كثير من المجتمعات في وقتنا الحاضر التي تركتهم حكوماتهم ولم تقدم لهم يد المساعدة في مواجهة مشاكلهم اليومية في البحث عن متطلبات الحياة القاسية، بل يمكن أن تكون سبب ومشكلة في المجتمع لا معين له.

**(١/٢) ٣-الاهتمام بالمرأة العراقية الفقيرة وصاحبت الحاجة:**

فقد أورد التنوخي من الروايات ما يثبت اهتمام الدولة بالمرأة العراقية الفقيرة وتخصيص لها ما يسد حاجتها، لا بل ما يغنيها ومنها "قال: وقفت امرأة لحامد بن العبّاس[١٦] على الطريق، فشكت إليه الفقر، وطلبت منه البرّ، ورفعت إليه قصّة كانت معها، فلمّا جلس، وقّع لها بمائتي دينار. فأنكر الجهبذ دفع هذا القدر إلى مثلها، فراجعه. فقال حامد: والله ما كان في نفسي أن أهب لها إلّا مائتي درهم، ولكنّ الله أجرى لها على يدي مائتي دينار، فلا أرجع في ذلك، أعطها، فدفع إليها"[١٧].

يتضح لنا مما سبق أن الدولة الإسلامية وخاصة في العراق كان لديها مؤسسات اجتماعية خاصة بالنساء التي لا يوجد لديهن معيل أو منفق، وهذا يشبه وزارة الشؤون الاجتماعية في عصرنا، وإن دل على شيء؛ فإنما يدلل على مدى اهتمام المجتمع بتوفير متطلبات الحياة لجميع أفراد المجتمع وخاصة النساء، وهذا الاهتمام لم يعرفه العالم المتحضر إلا في العصر الحديث.

**(١/٢) ٤-توفير الأمن للمرأة العراقية ومكافئة كل شخص يدافع عن شرفها:**

فهذا أمير المؤمنين المعتضد[١٨] يكافئ خياطًا دافع عن امرأة قام رجل بخطفها من الشارع آخذها إلى منزله ليزني بها "فقال: أنا رجل أؤمّ، وأقرئ في هذا المسجد، منذ أربعين سنة، ومعاشي من هذه الخياطة، لا أعرف غير هذا، وكنت منذ دهر قد صلّيت المغرب، وخرجت أريد منزلي، فاجتزت بتركيّ كان في هذه الدار، فإذا قد اجتازت امرأة جميلة الوجه عليه، فتعلّق بها وهو سكران ليدخلها داره، وهي ممتنعة تستغيث، وليس أحد يغيثها، وتصيح، ولا يمنعها منه أحد، وتقول في جملة كلامها: إنّ زوجي قد حلف بطلاقي ألا أبيت عنه، فإن بيّتني هذا، أخرب بيتي، مع ما يرتكبه منّي من المعصية، ويلحقه بي من العار، قال: فجئت إلى التركيّ، ورفقت به، وسألته تركها، فضرب رأسي بدبّوس كان في يده. فشجّني، وآلمني، وأدخل المرأة، فصرت إلى منزلي فغسلت الدم، وشددت الشجّة، واسترحت، وخرجت أصلّي العشاء، فلمّا فرغنا منها، قلت لمن حضر: قوموا معي إلى عدوّ الله، هذا التركيّ، ننكر عليه، ولا نبرح، حتى نخرج المرأة، فقاموا، وجئنا، فضججنا على بابه، فخرج إلينا في عدّة من غلمانه، فأوقع بنا الضرب، وقصدني من بين الجماعة، فضربني ضربًا عظيمًا، كدت أتلف منه، فحملني الجيران إلى منزلي كالتالف، فعالجني أهلي، ونمت نوما قليلاً للوجع، وأفقت نصف الليل، فما حملني النوم فكرًا في القصّة فقلت: هذا قد شرب طول ليلته ولا يعرف الأوقات، فلو أذّنت، وقع له إنّ الفجر قد طلع، فأطلق المرأة، فلحقت بيتها قبل الفجر، فتسلم من أحد المكروهين، ولا يخرب بيتها، مع ما قد جرى عليها، فخرجت إلى المسجد متحاملاً، وصعدت المنارة، فأذّنت، وجلست أطّلع منها إلى الطريق، أترقّب منها خروج المرأة، فإن خرجت، وإلّا أقمت الصلاة، لئلّا يشكّ في الصباح، فيخرجها، فما مضت إلّا ساعة، والمرأة عنده، فإذا الشارع قد امتلأ خيلاً ورجلاً ومشاعل، وهم يقولون: من هذا الذي أذّن الساعة؟ أين هو؟ ففزعت وسكتّ، ثم قلت أخاطبهم، لعلّي أستعين بهم على إخراج المرأة، فصحت من المنارة: أنا أذنت"[١٩].

لم يكتفي هذا الرجل على تعريض نفسه للهلاك والموت من أجل الدفاع عن شرف هذه المرأة؛ بل عمد إلى الحيلة من أجل ذلك ولم تقعده جراحه، ولم تنال من عزيمته، وهذا دليل آخر على حرص الدولة والمجتمع على الدفاع عن شرف المرأة العراقية وحمايتها، وعندما أخذ إلى الخليفة بسبب الأذان في غير الوقت لم ييأس ولم يخشى طرح القضية بين يديه لعلمه أن الدولة تحث على الدفاع عن المرأة وشرفها، وهذا دليل

إضافي على اهتمام الدولة بذلك "فقالوا لي: انزل، فأجب أمير المؤمنين. فقلت: دنا الفرج، ونزلت، فمضيت معهم، فإذا هم غلمان مع بدر فأدخلني على المعتضد، فلما رأيته هبته، وارتعدت، فسكّن منّي، وقال: ما حملك على أن تغرّ المسلمين بأذانك في غير وقته، فيخرج ذو الحاجة في غير حينها، ويمسك المريد للصوم، في وقت أبيح له فيه الإفطار؟ فقلت: يؤمنني أمير المؤمنين، لأصدق؟ فقال: أنت آمن على نفسك، فقصصت عليه قصة التركيّ، وأريته الآثار التي بي، فقال: يا بدر، عليّ بالغلام والمرأة، الساعة، وعزلت في موضع، فلما كان بعد ساعة قليلة، أحضر الغلام والمرأة، فسألها المعتضد عن الصورة، فأخبرته بمثل ما قلته، فقال لبدر: بادر بها الساعة إلى زوجها مع ثقة يدخلها دارها، ويشرح له خبرها، ويأمره عنّي بالتمسّك بها، والإحسان إليها"[٢٠].

وهنا يأتي دليل آخر وذلك بمحاسبة من اعتدى على المرأة وقتله على اهتمام الدولة بحماية المرأة "قال: فما كان لك فيهنّ، وفي هذه النعمة العريضة، كفاية عن ارتكاب معاصي الله عزّ وجلّ، وخرق هيبة السلطان؟ حتى استعملت ذلك، وتجاوزته إلى الوثوب بمن أمرك بالمعروف؟ فأسقط الغلام في يده، ولم يحر جوابا. فقال: هاتم جوالق، ومداقّ الجص، وقيودا، وغلّا، فأحضر ذلك. فقيّده، وغلّه، وأدخله الجوالق، وأمر الفرّاشين، فدقّوه بمداقّ الجص. وأنا أرى ذلك، وهو يصيح، ثم انقطع صوته، ومات. فأمر به، فغرّق في دجلة، وتقدّم إلى بدر بحمل ما في داره" [٢١].

ويقرر المعتضد هذا الخياط على ما فعل ويديه على ما فعل ويأمره بالاستمرار بذلك ويوصله بأمير الجند وحتى يقره أن يأذن في غير الموعد، اذا لم يلقى قبولاً من أمير الجند كعلامة له مباشر، وهذا إن دل؛ فيدل على حرص أمير المؤمنين على صيانة شرف الأمة "ثم قال لي: يا شيخ أيّ شيء رأيت من أجناس المنكر، كبيرًا كان أو صغيرًا، أو أيّ أمر، صغيرًا كان أو كبيرًا، فمر به وأنكره، ولو على هذا، وأومأ بيده إلى بدر، فإن جرى عليك شيء، أو لم يقبل منك، فالعلامة بيننا أن تؤذّن في مثل هذا الوقت، فإنّي أسمع صوتك فأستدعيك، وأفعل مثل هذا بمن لا يقبل منك، أو بمن يؤذيك، قال: فدعوت له وانصرفت، وانتشر الخبر في الأولياء والغلمان، فما سألت أحدًا منهم بعدها إنصافًا لأحد، أو كفًّا عن قبيح إلّا أطاعني، كما رأيت، خوفًا من المعتضد، وما احتجت أن أؤذّن إلى الآن في غير وقت الأذان"[٢٢].

مما سبق يتضح لنا، أن المجتمع لم يكتفي بتوفير الحاجات المادية للنساء؛ بل تعدى ذلك إلى الحرص على توفير الأمن للنساء حتى من قبل من بعض الأفراد الذين لا تقع على عاتقهم مسؤولية ذلك.

**(١/٢) ٥-حرص المرأة العراقية على الحشمة والتستر وعدم الظهور أمام الرجال:**

وهذا ما أورده التنوخي في كتابه المشاكلة؛ حين ادعى والد أحد الزوجات على زوجة بنته مبلغ من المال كبير مهرًا لها على غير ما أتفق عليه، وعند المثول أمام القاضي رفض الزوج أن تكشف الزوجة وجهها أمام الشهود، وأقر بالمبلغ من أجل ذلك، وتقديرًا له من الزوجة العفيفة والمحتشمة سامحته بالمهر، فيقول التنوخي عن جماعة: "سمعت أبا عبد الله محمد بن أحمد بن موسى القاضي، يقول: حضرت مجلس موسى بن إسحاق، القاضي بالري، سنة (٢٨٦هـ/ ٨٩٩م)، فتقدّمت امرأة، فادعى وليّها على زوجها خمسمائة دينار مهرًا، فأنكر، فقال القاضي: شهودك؟ قال: قد أحضرتهم، فاستدعى بعض الشهود، أن ينظر إلى المرأة، ليشير إليها في شهادته، فقام الشاهد، وقال للمرأة: قومي، فقال الزوج: تفعلون ماذا؟ قال الوكيل: ينظرون إلى امرأتك، وهي مسفرة، لتصحّ عندهم معرفتها. فقال الزوج: أنا أشهد القاضي، أنّ لها عليّ هذا المهر الذي تدّعيه، ولا تسفر عن وجهها. فأخبرت المرأة بما كان من زوجها، فقالت: وأنا أشهد القاضي، أنّي قد وهبته هذا المهر، وأبرأته منه في الدنيا والآخرة فقال القاضي: يكتب هذا في مكارم الأخلاق "[٢٣].

ما أعظم قدر المرأة في المجتمع العربي الإسلامي، فمن القصة السابقة يتضح مدى اهتمام المجتمع بالمرأة حتى بين المتخاصمين فإن الرجل رفض كشف وجه مطلقته التي تطالبه بدفع المال، وفضل الخسارة المادية على ذلك حفاظًا عليها، لقد خسرت الحضارة الإنسانية الكثير ببعدها عن مبادئ وتعاليم الدين الإسلامي في جميع المجالات.

**٢/٢- امتهان المرأة العراقية**

رغم الصورة المشرقة التي ظهرت بها المرأة العراقية، والتي هي الغالبة إلا أنه وللأسف وكما هو في كل الشعوب تظهر علينا فئة تهين هذه المرأة تحت أسباب كثيرة، إما من أجل المال، أو السلطان، أو اللهو، أو أمور أخرى، فقد أورد التنوخي صور عدة من إهانة المرأة العراقية منها على سبيل الذكر لا الحصر، **السجن والتعذيب:**

فقد كانت الدولة لا تتوانى عن سجن وتعذيب المرأة العراقية مهما كانت الأسباب، وكانت تلاقي صنوف العذاب الشديد، فلم يتوانى الخليفة القاهر عن تعذيب أم المقتدر زوجة أبيه، عندما قتل المقتدر، وذلك بسبب المال، يقول

التنوخي: "وهذه شغب أم المقتدر بالأمس، تنعّمت ما لم يتنعّمه أحد، ولعبت من أموال الدنيا بما استفاض خبره، فلما قتل المقتدر قبض عليها القاهر... يطالبها بالأموال"(٢٤).

ويبرز التنوخي بشاعة وهول التعذيب التي تعرضت له المرأة العراقية متمثلة بأم المقتدر؛ لأن ذلك ينم عن سياسة دولة رأس الهرم هو من يمارس ذلك، وضد امرأة كانت تُعَدّ السيدة الأولى في ذلك الوقت، فما هو حال عوام الناس فيقول التنوخي: "الخليفة القاهر يعذب أم المقتدر زوجة أبيه،... فعذّبها صنوف العذاب حتى قيل إنّه علّقها بثدييها، وحتى علّقها منكّسة، فبالت، فكان بولها يجري على وجهها"(٢٥).

ولم يكتفى بالتعذيب الجسدي للمرأة بل عمدوا على اعتماد التعذيب النفسي، دون مراعاة لا جنس كونها أنثى، ولا من كونها امرأة كبيرة السن، فهذا العباس بن الحسين الشيرازي، وأبو الفرج وهو محمد بن العباس بن الحسين بن فسانجس؛ اقتادوا المرأة المسنة (تجنّي)، وهي أمّ أبي الغنائم الفضل بن الوزير المهلبي، وأمرا بضرب ابنها أبي الغنائم بين يديها للضغط عليه للاعتراف بأموال خبئها، "فأخذ أبو العلاء في جملة المأخوذين، وعوقب أشدّ عقوبة، وضرب أبرح ضرب، وهو لا يقرّ بشيء، ولا يعترف بذخيرة.... فأتي بأمّ أبي الغنائم الفضل بن الوزير المهلبي، وأمرا بضرب ابنها أبي الغنائم بين يديها"(٢٦).

كل مجتمع فيه الفاسد والظالم، الذي يرتكب كثير من الأفعال التي تنافي دينه، وعادات وتقاليد مجتمعة، وهذا في كل زمان ومكان، هذا ما حدث في كثير من القصص التي أوردها التنوخي في كتاب نشوار المحاضرة، والتي لا يمكن إسقاطها على المجتمع بشكل عام.

**٣/٢-المجالات التي عملت بها المرأة العراقية**

لقد اقتحمت المرأة العراقية عدة مجالات في العمل جنبًا إلى جنب مع الرجل، وقد ثبت ذلك من خلال ما أورده التنوخي في كتابه النشوار من روايات ومن هذه المجالات:

**(٣/٢) ١-مجال الأدب والشعر:**

علق التنوخي على جملة أبيات للشاعرة عابدة بنت محمد بقوله: "أنشدتني عائدة بنت محمد الجهنيّة لنفسها، وهذه امرأة فاضلة، حين هجت أبا جعفر محمدًا بن القاسم الكرخي، فهجته هذه المرأة بما تحقّق عندي أنّها صادقة فيه، لأنّه يليق بكلام النساء، وقد كانت تنشدني لنفسها أفحل من هذا الكلام، وكتبت ذلك عنها، وهو ثابت في مواضع من كتبي"(٢٧). ويحدث التنوخي عن عاتكة المخزومية أم الحسن السلامي(٢٨)، أنها حضرت مجلس عضد الدولة ببغداد في عيد الفطر سنة (٣٦٧ هـ/٩٧٨م)، وأنشدت لنفسها قصيدة طويلة، ضمنتها أبياتًا مدحية، منها:

شتَّان بين مدبر ومدمر
روعتُه من بعد دهرٍ راعني
صيد الليوثِ حصائد الغزلانِ
وسقيتُه ما كان قبلُ سقاني
فلقد سهرتُ لياليًا ولياليًا
حتى رأيتُكيا هلالَ زماني(٢٩).

وهذا يبين لنا مكانة المرأة العراقية في بلاط الحكم، فقد كانت تعمل كاتبة وكان لها مكانة كبيرة عند الحكام حيث كانت تحضر مجالس الدولة، وذلك بسبب نجاحها في مجال الشعر والأدب وفصاحة لسانها، فقد شاركت الرجال هذه المجالس المهمة التي كانت تصدر منها القرارات الهامة الخاصة بالحكم وإدارة الدولة والتعامل مع جميع القضايا الصغيرة والكبيرة الخاصة بالأمراء والمسؤولين والخاصة بعامة الشعب.

**(٣/٢) ٢-الغناء:**

وردت بعض الروايات التي تتحدث عن الغناء؛ حيث كانت بعض النساء تعمل في الغناء، -خاصة الجواري-ومن هذه القصص، قيل: أن رجلًا يقال له الدكنيى كان غني جدًا بسبب ميراث من والده، كان ينفق الأموال الكثيرة على المغنيات(٣٠)، وكانت الجواري تنتشر في البلاد خاصة في بيوت الأغنياء والحكام، وقد كانت تشترى من أجل الغناء في كثير من الأوقات، وكانت تغني الجواري من خلف ستار وأحيانًا دون ذلك(٣١).

وكان للمرأة العراقية حظ في الغناء، وهذا من الأعمال التي مارسته المرأة العراقية في العصر العباسي، وهو لون من ألوان الفنون التي كانت الدولة تهتم به وتشجعه، فأورد التنوخي: أن الرقية زوجة أبي علي الحسن بن هارون مارست هذا النوع من الفن، وإمتدحها الوزير المهلبي عندما سمعها تغني وشجعها على ذلك، ويقول: "حدّثني أبي قال: كنا في دعوة أبي علي الحسن بن هارون الكاتب، وحضر فيها الوزير، أبو محمد، الحسن بن محمد المهلبي، وهو إن ذاك، يخلف أبا جعفر الصيمري على الأمر ببغداد، فغنّت الرقّية، زوج أبي علي، صوتًا من وراء الستارة، أحسنت فيه، فأخذ المهلبي الدواة، فكتب في الحال على البديهة، وأنشدنا لنفسه:

ذات غنى في الغناء من نغم
تنفق في الصوت منه إسرافا

كأنّها فارس على فرس
ينظر في الجري منه أعطافا"[٣٢].

**(٢/٣) ٣-الطب والتداوي:**

فمن النساء من عملت بهذه المهنة ولسنوات طويلة، ومما يثبت ذلك؛ روايتا لتنوخي عن المرأة العجوز التي كانت تداوي الناس عن علم ودراية، ومما يدلل ذلك ذكرها لأسم المرض في الرواية التي أوردها التنوخي حيث قال: "عجوز تداوي من البثور، وقال: كانت بي بثور في ساقي، قد تطاولت، فخرجت إلى قرية تقارب مابروان، من أعمال الأنبار، فنزلت على مزارع فيها، يقال له إبراهيم بن شمعون، فرأى تلك البثور، فقال لي: عندنا عجوز ترقى من هذا، فأحضرنيها، فقالت: هذه علّة يقال لها الدروك، وأنا أرقيها، فرقتها طويلًا، ثم ألقت على ساقي الآس، والدهن، وقالت: لا تنزعه ثلاثة أيام، فلما كان بعد ثلاثة أيّام نزعته، وقد عوفيت"[٣٣].

**٢/٤-صفات المرأة العراقية في العصر العباسي**

إن الوفاء من شيم أصحاب الخلق الرفيع، وينم عن مجتمع راقي يهتم بتربية أبنائه على الأخلاق الحميدة، وهو كذلك ينم عن وجود نماذج راقية للوفاء، وما أعظم ذلك عندما يكون الوفاء من المرأة تجاه من تحب من أهلها، وزوجها وأبنائها، وهذا بالفعل ما تميزت به المرأة العراقية على مختلف مكانتها، سواء كانت من السادة أم من العبيد، وهنا نذكر مثالين على الوفاء من طبقتين مختلفتين؛ لنثبت صحة هذا الكلام من خلال ما أثبته التنوخي في كتابه النشوار ونذكر بعض الشواهد على ذلك منها:

**(٢/٤) ١-وفاء المرأة العراقية لزوجها:**

فهذه بنت بدر مولى المعتضد، زوجة أمير المؤمنين المقتدر بالله، عندما قتل زوجها المقتدر سلمت هي وبقي مالها "قال: كانت بنت بدر مولى المعتضد، زوجة أمير المؤمنين المقتدر بالله، فأقامت عنده سنين، وكان لها مكرمًا، وعليها مفضلًا الأفضال العظيم، فتأثّلت حالها، وانضاف ذلك إلى عظيم نعمتها الموروثة، وقتل المقتدر، فأفلتت من النكبة، وسلم لها جميع أموالها وذخائرها، حتى لم يذهب لها شيء، وخرجت من الدار"[٣٤]، وأحبت حدثًا وهو محمد بن جعفر وكان يعمل عندها، وتدرج في العمل إلى أن أصبح كفيلًا على ضياعها، وتجارتها، وأموالها، "وكان يدخل إلى مطبخها حدث، يحمل على رأسه، يعرف بمحمد بن جعفر، وكان حركًا، فنفق على القهرمانة بخدمته، فنقلوه، إلى أن صار وكيل المطبخ، وبلغها خبره، ورأته، فردّت إليه الوكالة في غير المطبخ، وترقّى أمره، حتى صار ينظر في ضياعها، وعقارها، وغلب عليها، حتى صارت تكلّمه من وراء ستر، وخلف باب"[٣٥]، وطلبت منه الزواج "...وزاد اختصاصه بها، حتى علق بقلبها، فاستدعته إلى تزويجها، فلم يجسر على ذلك، فجسّرته، وبذلت مالًا، حتى تمّ لها ذلك "[٣٦]، ودفعت له الأموال لتشجعه على ذلك، حتى لا يحس بأنه أدنى منها، واعترض الأهل على ذلك؛ فأقنعتهم ببذل المال لهم، وكذلك القضاة إلى أن تزوجت منه، "وقد كانت حالته تأثّلت بها، وأعطته، لما أرادت ذلك منه، أموالًا جعلها لنفسه نعمة ظاهرة، لئلّا يمنعها أولياؤها منه لفقره، وأنّه ليس بكفء، ثم أهدت القضاة بهدايا جليلة حتى زوّجوها منه، واعترضها الأولياء، فغالبتهم بالحكم والدراهم، فتمّ له ذلك ولها"[٣٧]، وعاشت معه بكل وفاء عدة سنين وتوفيت "وتركت له المال وفاء منها فأقام معها سنين، ثم ماتت، فحصل له من مالها، نحو ثلاثمائة ألف دينار" [٣٨]

**(٢/٤) ٢-الكرم:**

كانت المرأة العراقية كريمة مع من تعرف ويمكن أن تتنازل عن الكثير من أجل أسرته، ومن القصص التي أوردها التنوخي في كتاب نشوار المحاضرة؛ قصة السورجي وزوجته حيث قال: "حدثني أبو محمد قال حدثني السوراجي شيخ كان يجاورنا مستور قال: كانت لي امرأه صالحة، فكنت إذا اشتريت لحمًا لتطبخه لنا طبخته وغرفته جميعه وجاءتني به، وكنت أكولًا، فكنت آكله جميعه وتجوع هي وأولادها، فقلت لها: يا هذه إذا طبخت شيئًا فأقسميه قسمين، وجيئيني بأحدهما ودعي الآخر لنفسك وأولادك، فقالت: لا والله لا أفعل هذا بل أقدمه إليك كله، لتأكل أجوده، فأنك أنت تسأل عنه"[٣٩].

**٢/٥-ظواهر اجتماعية منحرفة تأثرت بها المرأة العراقية**

**(٢/٥) ١-ارتكاب الفاحشة:**

إن المجتمعات عبر التاريخ كان بها البشر الصالحين وغير ذلك، والكثير من الأشخاص رجالًا ونساء يقوم بأفعال تتنافى مع مبادئ وعادات وتقاليد مجتمعاتهم، كذلك المرأة في العراق زمن الدولة العباسية، فقد أورد التنوخي بعض القصص التي توضح بعض الفواحش التي ارتكبتها بعض النساء في غاية الفجور والانحراف، لكن هذه أفعال لا يمكن إسقاطها على نساء المجتمع العراقي في تلك الحقبة، ومن الأمثلة على ذلك قصة المرأة التي كانت تزني في فراش زوجها مدة طويلة من الزمن، ووصل بها الأمر إلى أن تزني مع ابنها باستخدام حيلة دون أن يعلم[٤٠]، وغيرها من الأحداث

التي لا يصدقها عقل وإن صحت فهي من المؤكد حالة شاذة في المجتمع.

**(٥/٢) ٢-التأثر بعقائد الشيعة:**

وردت قصص في كتاب نشوار المحاضرة تدلل على تأثر بعض النساء بمعتقدات الشيعة المنحرفة، حيث ورد قصة بعنوان "لم أمرضه فأسلو لا ولا" كان مريضًا يتحدث خلالها عن رؤيا في المنام يرى المريض فاطمة الزهراء بنت الرسول (ﷺ)، وأمرته أن ينشد قصيدة يقول فيها لم أمرضه فأسلو ... لا ولا[٤١]، وجاء في بعض القصص أن بعض النساء قامت بتحريف بعض الآيات في القرآن الكريم[٤٢].

**(٥/٢) ٣-الإجهاض:**

قصة تبين سعي بعض النساء في المجتمع العراقي عملن على إجهاض الحمل مثل قصة المرأة البغدادية والتي جاء بعنوان "بغدادية تقعد جنينها فقاعيًا على باب الجنة"[٤٣]، قال المحسن: أن امرأه طلبت الطلاق من زوجها بعد خلاف كبير بينهم، وكانت حامل بطفل فقال لها أن الطلاق سيتم بعد الإنجاب، فقالت له أنها ستتخلص منه وعندما سألها كيف قالت: "أقعده على باب الجنة فقاعي" بمعنى أنها ستشرب ماء السداب لتسقط؛ فيلحق الصبي بالجنة فيكون كالفقاعي[٤٤]، وهذه القصة أيضًا لا يمكن إسقاطها على معظم النساء في تلك الفترة؛ بل هي أخطاء لبعض النساء كما يخطئ جميع البشر في كل زمان ومكان.

وجميع القصص التي سبقت لا تعبر عن جميع النساء؛ بل هي تخص بعض النساء، فلا يمكن تعميم تلك الأفعال على المجتمع العراقي مركز الخلافة الإسلامية في تلك الفترة، ومركز العلم والعلماء، والفقهاء، والقضاة، وغير ذلك، الذين لا يمكن أن يسمحوا لتكون مثل تلك الأفعال ظاهرة في المجتمع الإسلامي.

## نتائج الدراسة

- التنوخي مؤرخ وصاحب منهجية خاصة في الكتابة بحيث نقل رواياته من أفواه الرجال ولم يأخذ ولم يكرر الروايات التي أوردها هو أو التي نقلها عن الآخرين.
- المرأة العراقية لاقت اهتمامًا من الدولة على مستوى الصحة والأمن والعفة والمساعدة المالية خصوصًا في حالات الفقر أو الترمل وغيرها.
- كما أن سياسة الدولة لم تكن تعفي النساء من التعرض للسجن وحتى تعذيبهن عند الحاجة ولم تكن تراعي كبر السن والمكانة في ذلك.
- كانت المرأة العراقية فاعلة في المجتمع فقد عملت في شتى المجالات الفن والطب وغيرها من المهن المهمة.
- تميزت المرأة العراقية بعدد من الصفات الحسنة؛ كالوفاء لزوجها وأسرتها، والحشمة في اللباس والحديث والحركة.
- أورد كتاب نشوار المحاضرة بعض الصفات السلبية للمرأة العراقية وسبب ذلك أن المؤلف كان يجلس في مجالس اللهو التي تضم أحيانًا شريحة غير ملتزمة من الرجال فمن المرجح أن هذه الروايات مصدرها هؤلاء الرجال.
- ذكر المؤلف بعض الروايات التي تعكس بعض الظواهر السلبية للمرأة العراقية، هذه الروايات لا تمثل الصورة العامة للمرأة العراقية، فمن الطبيعي وجود هذه الحالات في كل مجتمع.

## الهَوامِشُ:

(١) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (ت: ٦٨١هـ). **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**. المحقق: إحسان عباس. دار صادر. بيروت. ط/٤-١٩٧١. (ج٤/ ١٥٩).

(٢) أبو المعالي، شمس الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن بن الغزي (ت:١١٦٧هـ). **ديوان الإسلام**. الجامع الكبير لكتب التراث العربي والإسلامي الأردن الإصدار ٤. ٢٠٠٨م. (ج٢/٢٨).

(٣) السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي، أبو سعد (ت: ٥٦٢هـ). **الأنساب**، المحقق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره. مجلس دائرة المعارف العثمانية. حيدر آباد. ط١. ١٩٦٢م. (ج٣/ ٩٠).

(٤) ابن خلكان، **وفيات الأعيان** (ج٤/ ١٦٣).

(٥) التنوخي، المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم داود التنوخي البصري، أبو علي (ت:٣٨٤هـ)، **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة**. (تحقيق: مصطفى حسين عبد الهادي). دار الكتب العلمية. بيروت. ط١. ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م. (ج١/ ١٩).

(٦) ابن خلكان، **وفيات الأعيان** (ج٤/ ١٦٠).

(٧) الذهبي، **تاريخ الإسلام** دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٥. (ج٨/ ٥٦٦).

(٨) التنوخي، **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة**، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٤. (ج١/ ٧).

(٩) المصدر السابق (ص٨).

(١٠) التنوخي، **نشوار المحاضرة** (ج١/ ١١).

(١١) المصدر السابق (ص ١٢).

(١٢) التنوخي، **نشوار المحاضرة** (ج١/١٣١).

(١٣) المصدر السابق (ص ١٣١).

(١٤) المصدر السابق (ص ١٣١).

(١٥) التنوخي، **نشوار المحاضرة** (ج١/ ٧٠).

(١٦) هو أبو محمد حامد بن العباس تولى الخراج والضياع بفارس، ثم أصبح وزير زمن الخليفة المقتدر وبقي أربع سنين وعشرة أشهر وعشرين يوم في الوزارة؛ الطبري، **الرسل والملوك** (ج٥/٦٣٣)؛ ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي أبو فرج. (ت:٥٩٧هـ). **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**. دار صادر. بيروت. ط١. ١٣٥٩هـ. (ج١٣/٦١)؛ ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد بن علي (ت ٦٠٨هـ). **التذكرة الحمدانية**. (تحقيق إحسان عباس وبكر عباس). دار الثقافة. بيروت. ط١. ١٩٩٦م. (ج٣/ ٣٦٣).

(١٧) التنوخي، **نشوار المحاضرة** (ج١/ ٣١٤).

(١٨) محمد بن المعتضد ويكنى أبا منصور، تولى الخلافة عام ٣٢٠هـ وغزل بعد سنة وستة أشهر، وكان أبيض يعلوه حمرة، مربوعًا، حسن الجسم، أعين، وافر اللحية؛ يُنظر: المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت: ٣٤٦). **التنبيه والإشراف**. الجامع الكبير لكتب التراث العربي والإسلامي الأردن الإصدار ٤. ٢٠٠٨م. (ج١/١٤٠).

(١٩) التنوخي، **نشوار المحاضرة** (ج١/٣١٤).

(٢٠) المصدر السابق (ج١/٣١٦).

(٢١) التنوخي، **نشوار المحاضرة** (ج١/٣١٦).

(٢٢) المصدر السابق (ص٣١٨).

(٢٣) التنوخي، **نشوار المحاضرة** (ج٧/٢٤١).

(٢٤) المصدر السابق (ج٢/٧٦).

(٢٥) المصدر السابق (ص٧٦).

(٢٦) التنوخي، **نشوار المحاضرة** (ج٤/١٢٣).

(٢٧) المصدر السابق (ج٢/٢٢٢).

(٢٨) عاتكة بنت محمد بن القاسم بن محمد بن يحيى بن حابس بن عبد الله بن يحيى بن عبد الله بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، أم الحسن بن محمد عبد الله السلامي الشاعر، قال ابن النجار: كانت شاعرة فصيحة؛ التنوخي، **نشوار المحاضرة** (ج٥/٢٦٩).

(٢٩) التنوخي، **نشوار المحاضرة** (ج٥/٢٦٧).

(٣٠) المصدر السابق (ج٧/٢٤١).

(٣١) التنوخي، **نشوار المحاضرة** (ج١/١٨٧).

(٣٢) التنوخي، **نشوار المحاضرة** (ج٧/١٩٩).

(٣٣) المصدر السابق (ج٢/٩٤).

(٣٤) المصدر السابق (ج٥/١٠).

(٣٥) التنوخي، **نشوار المحاضرة** (ج٥/١٠).

(٣٦) المصدر السابق (ج٥/١٠).

(٣٧) المصدر السابق (ج٥/١٩١).

(٣٨) المصدر السابق (ج٥/١٩١).

(٣٩) التنوخي، المحسن بن أبي القاسم. **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة** (ج٣/٦٢).

(٤٠) التنوخي، **نشوار المحاضرة** (ج٥/١٢٢).

(٤١) المصدر السابق (ج٢/٢٣١).

(٤٢) المصدر السابق (ج١/١٩٥).

(٤٣) المصدر نفسه (ج٧/١٠٥).

(٤٤) المصدر نفسه (ج٧/١٠٥).

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

مقالات

# السخرية السياسية في عصر الموحدين
# من خلال نموذج أحمد بن يحيى العبدري



**د. المحجوب قدار**
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
الأكاديمية الجهوية للتربية الوطنية فاس
مكناس – المملكة المغربية

## مُلَخّصْ

*مثّلت السخرية السياسية أحد أوجه نقد السلطة الحاكمة خلال العصر الوسيط الإسلامي، اتخذها البعض وسيلة للتعبير عن مواقفه تجاه بعض انحرافات الحكام والاحتجاج ضد بعض قراراتهم الجائرة أحيانًا في حق الرعية، وقد تراوحت بين النقد الضمني والنقد الصريح. ويُعَدّ أحمد بن يحيى العبدري الذي عاش خلال القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي من بين العلماء القلائل الذين أحسنوا توظيف هذا النوع من النقد تجاه حكام بني عبد المؤمن في الغرب الإسلامي، فقد استطاع أن يمارس سخريته السياسية عليهم مستغلاً قدراته العلمية والإبداعية الساخرة وشجاعته السياسية. وقد كشف البحث عن أثر النقد الساخر في الواقع السياسي للموحدين وقدرته على تغييره، سيما إذا كان صادرًا من عالم أديب كبير مثل العبدري الذي أتقن هذا الفن وضحى بامتيازاته من أجل تقويم النظام الحاكم وذلك وفق رؤيته الخاصة. لكن خوف السلطة الحاكمة من نقد العبدري ووعيها بخطورته في تأليب العامة والخاصة عليها هو ما دفعها إلى معاقبته وإلجامه، الشيء الذي يعكس الطبيعة المغلقة للنظام الموحدي.*

**بيانات المقال:**

تاريخ استلام المقال: ١٦ يونيو ٢٠١٧
تاريخ قبـول النشـر: ١٠ يناير ٢٠١٨

**كلمات مفتاحية:**

السخرية السياسية، أحمد بن يحيى العبدري، المنصور الموحدي، الموحدون، نقد ساخر، عصر وسيط، السلطة الحاكمة

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0054796

**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**

المحجوب قدار. "السخرية السياسية في عصر الموحدين من خلال نموذج أحمد بن يحيى العبدري".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الثاني والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٨. ص٤٩ – ٥٤.

## مُقَدِّمَةُ

استطاع الموحدون بناء دولة قوية في الغرب الإسلامي بين القرنين السادس والسابع الهجريين امتدت على أطراف شاسعة من المغرب والأندلس، وعلى الرغم من قوة نظامهم السياسي وما حققه من إنجازات، فإنه لم يسلم من النقد الذي استهدف انحرافات وأخطاء السلطة الحاكمة. لكن أشد أنواع ذلك النقد هو ما اتخذ طابع السخرية السياسية بحكم أنه يجمع بين النقد الضمني والصريح فضلاً عن قدرته الكبيرة على لفت الانتباه إلى أخطاء وهفوات الحكام، فكان بذلك أبلغ أثرًا وأكثر وقعًا أحيانًا من النقد المباشر.

ويُعَدّ أحمد بن يحيى العبدري أحد العلماء والأدباء الكبار الذين أتقنوا فن النقد الساخر من آل عبد المؤمن، استغل قدراته الإبداعية وجرأته السياسية في توجيه رسائل سياسية قوية إلى خلفاء الدولة الموحدية بطريقة ساخرة. فكان بذلك نموذجًا بارزًا، على الرغم من الصمت الذي طال أخباره في المصادر التاريخية الإخبارية. وقد استطعنا معرفة أخبار العبدري بفضل ما نقلته لنا بعض كتب التراجم. فإذا كان موضوع الاحتجاج الثوري في الفترة الوسيطية قد أخذ حيزًا مهما من اهتمامات الباحثين باعتباره مثل أحد أشكال المواجهة الدامية أحيانًا بين السلطة الحاكمة والثوار[1]، فإن الاحتجاج الساخر الذي مثل نقدا سلميا لم ينل حظه الكامل بعد في

الدراسات التاريخية. وقد وظفت فيه أدوات وأساليب مختلفة، وتم ممارسته غالبًا بشكل فردي، كما خلف نتائج مهمة في كثير من الحالات.

ولا شك أن الحاجة إلى دراسة تاريخ النقد والاحتجاج وأثرهما على الواقع السياسي تبدو أكيدة لإماطة اللثام عن بعض جوانب تفاعل المجتمع بمختلف فئاته مع القرارات السياسية للسلطة الحاكمة، وبيان مدى تأثر أصحاب القرار بما يثار عنهم من نقد ساخر، فضلاً عن معرفة رد فعلهم منه. وسنحاول مقاربة هذه الإشكالية من خلال دراسة نموذج أحمد بن يحيى بن أحمد بن سعود العبدري الذي عاش خلال القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي.

## أولاً: أحمد بن يحي العبدري والسخرية السياسية

عرف العصر الموحدي بروز عدد كبير من العلماء والأدباء والفلاسفة الذي أغنوا الحضارة المغربية والإسلامية بعلمهم وإنتاجاتهم الغزيرة، فأضحت المدن الكبرى في الغرب الإسلامي مراكز إشعاع ثقافية مهمة استقطبت الكثير من الأعلام، وعلى رأسها مراكش عاصمة الدولة آنذاك التي حج إليها العلماء من الأندلس وغيرها للاستفادة من أجوائها العلمية وللظفر ببعض خطط الدولة. ولقد كان أحمد بن يحيى العبدري من بين العلماء الذين نزحوا من الأندلس إلى حضرة الدولة الموحدية فسطع نجمه بها. فمن يكون أحمد بن يحيى العبدري؟

هو أحمد بن يحيى بن أحمد بن سعود العبدري[٢]، يكنى أبا العباس وأبا جعفر، عاش خلال القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، أندلسي الدار قرطبي النشأة، نزل مراكش شأنه شأن عدد من العلماء أمثال ابن رشد وابن طفيل وابن زهر ...، ولا نعلم متى نزح العبدري إلى مراكش لكنه بقي بها إلى أن توفي بها سنة ٥٩٩ هـ[٣]. ولقد عرف بسعة علمه وعمق معرفته "فكان مشاركًا في فنون العلم محدثًا مسندًا عالي الرواية حلو النادرة قوي العارضة صدرًا في مشيخة أهل العلم بمراكش"[٤]. إلا أنه غلب عليه إتقانه لفن الأدب، فخلف فيه المنظوم والمنثور وهو في الغالب مما ضاع من تراث الغرب الإسلامي.

أخذ العلم على يد شيوخ كبار وروى عن الكثير منهم أمثال أبي اسحاق بن مروان بن حبيش وأبي بحر سفيان بن العاصي وأبي بكر بن عبد الله بن العربي وغيرهم، كما روى عنه أبو الربيع بن موسى بن سالم وأبو عبد الله بن محمد بن دادوش وأبو يعقوب بن يحيى بن عيسى بن عبد الرحمن التادلي المعروف بابن الزيات (ت. ٦١٧هـ) صاحب كتاب التشوف[٥]. ومن شدة اهتمامه بالعلم اقتناؤه لعدد كبير من دفاتر العلم، حتى أنها قومت عند وفاته بأزيد من ستة آلاف دينار[٦].

ولا شك أن كفاءة العبدري العلمية هي التي فتحت له الطريق نحو التقرب من السلطة الحاكمة والأمراء ورؤساء الدولة، فقد كتب لعدد من الأمراء بفضل براعته الأدبية والخطابية وجودة خطه[٧]، وبذلك تمكن من الدخول في فلك النخبة المجتمعية وقتئذ، وحسبنا أن كان "خطيبا عند الأمراء مقداما في مجالسهم مقبول القول لديهم مبرزا عند الخاصة والعامة"[٨]. كما كان يحاضر طلبة العلم بمجالس المنصور ويذاكرهم بين يديه، حتى أصبحت له مكانة كبيرة لدى بني عبد المؤمن "مرعي الجانب ملحوظًا بين التكرمة محترما لشاذته واضطلاعه بالمعارف"[٩].

ومما ميز العبدري إلى جانب سعة علمه شخصيته المرحة وروح النكتة والدعابة التي كان يضطلع بها، حتى أنه اشتهر بين الخاصة والعامة بنوادره وطرائفه، الشيء الذي مهد له الطريق لقلوبهم، وهو ما استغله لتوجيه رسائل قوية إلى السلطة الموحدية بطريقة نقدية ساخرة كلما سنحت له الفرصة، "فقد كثر منه الاجتراء على الأمراء من آل عبد المؤمن وتكرر شكيته عليهم وتشنيع أحوالهم"[١٠].

وغير خاف ما للنقد الساخر من تأثير وقدرة ساحرة على لفت الأنظار نحو المواقف الخاطئة عند بعض الساسة، كما أنها قد تكون أبغ أثرًا من سائر فنون النقد. وغني عن القول إن هذا النقد يمثل أحد نماذج السخرية السياسية التي تعكس أحد أوجه التعبير الرافض للواقع السياسي، ووسيلة للتعبير عن عدم الرضا عن الأوضاع العامة والرغبة الأكيدة في التغيير ومقاومة الفساد وتصحيح العلل الموجودة في السلطة والحياة الاجتماعية عامة. كما أنه ليس فنًا حديثًا كما قد يبدو للبعض بل قديم النشأة تمت ممارسته من قبل خلال كل العصور خاصة خلال العصر العباسي.

## ثانيًا: سخرية العبدري السياسية من الخليفة يعقوب المنصور الموحدي

لم تسلم السلطة الموحدية من الانتقاد سواء من طرف العلماء أو من المتصوفة أو حتى من عامة الناس في بعض المواقف والتصرفات التي كانت تقدم عليها ولا تلقى قبولا من طرف الناس. وقد اتخذ ذلك النقد مراتب متعددة تراوحت

بين النقد الضمني والصريح، بل تطورت أحيانًا إلى أشكال أخرى كاندلاع ثورات شعبية ذات زعامات مذهبية أو صوفية، كثورة الجزيري بين سنتي ٥٧٩ و٥٨٦ هـ، وثورة عبد الرحيم بن الفرس أحد علماء الأندلس، وثورة الجزولي سنة ٥٩٧ هـ[١١].

وإذا كان البعض قد اختار الأسلوب المباشر في نقد أخطاء السلطة الحاكمة، فإن البعض الآخر قد فضل النقد الساخر كطريقة وأسلوب للتعبير عن مواقفه من السياسة العامة للبلاد، وتمرير رسائل انتقاد قوية للحكام بطريقة ساخرة تجمع بين النقد الضمني والصريح وتستهدف إصلاح الأوضاع وتصحيح الأخطاء. وبحكم ما يتطلبه هذا الفن من موهبة وقدرة إبداعية مميزة فضلا عن الشجاعة وقوة الشخصية فإنه قلما واجه به العلماء والأدباء السلطة الحاكمة، سيما وأن ممارسة هذا النقد الساخر يتطلب وجود سلطة سياسية منفتحة تتيح مساحة كبيرة من الحرية. ولعل انتفاء هذه الشروط هو ما أسهم في ندرة ممارسي هذا الفن في العصر الموحدي. وعلى الرغم من ذلك فقد برزت شخصية العبدري التي جمعت بين الكفاءة العلمية والشجاعة السياسية والروح المرحة، فاستطاع بذلك ممارسة سخريته السياسية على حكام بني عبد المؤمن بطريقة فنية غير مباشرة، ومما شجعه على ذلك قربه من السلطة الموحدية فضلاً عما تمتع به من شخصية مرحة، ولا غرو فقد كان "حلو النادرة قوي العارضة .."[١٢]، وهذا ما جعله مقبول الجانب في حضرتهم[١٣].

وقد اتخذت سخرية العبدري طابعًا خاصًا ومتنوعًا سيما في مواجهة خلفاء الموحدين حيث تنوعت سخريته بين استخدام الكلمات والمعاني والاستعانة بالتقليد والتشبيه. ومن مواقفه الساخرة الشهيرة في مواجهة أخطاء الخليفة المنصور أنه لما قام هذا الأخير بتقديم "بنيه وصغار إخوته وبني أعمامه وذوي قرابته ولاة في البلاد ترشيحا لهم وإشادة بمكانتهم لديه وتنبيها لقدرهم"[١٤]، لم يرق ذلك لرؤساء الدولة وأنكروا ذلك عنه، لكنهم لم يقدروا على مواجهته ومجاهرته. أما العبدري فإنه لم يسكت عنه بل قرر مواجهته بطريقته الخاصة والاحتيال عليه بسخريته المعهودة لفسخ ذلك التقديم، وقد وافق ذلك فصل شدة القيظ "فعمد إلى أزياء الملابس التي جرت عادة المترفين باستعمالها في فصل شدة القر كالفرو وثياب الملف والقباطي والبرانس، فاستكثر من لباسها وظاهر بعضها ببعض وحضر بهذا بمجلس خواص الطلبة ومجتمعهم بدار الإمارة، فعجبوا من استعماله مثل تلك الشارة في ذلك الفصل واستشعروا أن فعله ذلك لإحدى فواقره، ومقدمة لبعض نوادره فسألوه عن سبب مظاهرته بتلك الملابس في ذلك الفصل الذي لا يستطيع أحد استعمال مفرداتها فقال لهم: إنما قدرت أنه فصل القر وشدته وأنا منه في شهر ينير بلسان الروم ... فقيل له: وما الذي حملك على هذا التقدير فقال: إني رأيت المدائن فرقت على الصبيان والأطفال يعبثون بها ويعيثون فيها ثم يأكلونها، يوري عن المدائن وهي البلاد بالمدائن التي عهد ببلاد المغرب والأندلس عملها في النيروز من الدقيق ... ثم يدفع ذلك كله إلى الأصاغر إدخالا للسرور وتوسيعًا في الترفيه لأحوالهم، وتبشيرًا بخصب عامهم وتفاؤلاً لبسط الرزق فيه لهم، فيبهجون ويتمكن جذلهم ويتفاخرون بمقاديرها بينهم ويتمادى ... لديهم أياما بحسب كثرتها وقلتها، ثم يأتون عليها أكلا وتفكها بما معها من أصناف الطرف والفواكه".[١٥]

وغير خاف أن النص السالف يحبل بدلالات ومعاني انتقاد قوية لقرار المنصور تعيين أبنائه وقرابته على رأس الولايات، أتقن العبدري التعبير عنها بأسلوبه الخاص الذي عمد فيه إلى قلب العوائد. منبها إلى أن تدبير أمر الولايات يحتاج إلى رجال أكفاء يقدرون المسؤولية بغض النظر عن كونهم أبناء الخليفة أو غيرهم، وليس إلى صبيان صغار يضيعونها فتضيع بذلك البلاد في يد الأعداء سواء في المغرب أو الأندلس. مشيرًا إلى أن أمر الولايات أكثر من أن تفرق على صبيان صغار لإرضائهم وإدخال السرور عليهم بقدر ما تتطلب التأني في التعيين والحزم في التدبير. وقد عبر عن الولايات بالمدائن[١٦] التي تطلق أيضا في بلاد المغرب والأندلس على إحدى الحلويات التي يعملها "أهل المغرب من العجين بأصناف الألوان في النيروز المعروف عندهم بينير"[١٧]. فالوقت الذي تصنع فيه في هذه الحلوة المعروفة بالمدائن وتوزع على الصبيان هو فصل الشتاء وهو فصل يستدعي التكثير من اللباس، ولما رأى العبدري أن الولايات قد فرقت على أبناء المنصور وقرابته صغار السن في وقت صادف شدة القيظ وجدها فرصة للربط بين العنصرين في سخريته من الخليفة. وكأن لسان حاله يقول إذا كانت المدائن قد فرقت على الأطفال فما العيب في أن ألبس لباس الشتاء في الصيف وقد قلبت العوائد؟

ولسنا في حاجة إلى التأكيد على الشجاعة التي ينم عليها هذا الموقف الذي اتخذه العبدري من قرار المنصور والذي لم يقدر على مثله كبار رؤساء الدولة الذين اكتفوا بإنكار القرار خُفية، وخيفة من عقاب الخليفة. كما يبدو من خلال موقف الحاضرين بمجلس خواص الطلبة بدار الإمارة من سخرية العبدري أنهم ألفوا نوادره وسخريته المعهودة ممن حوله ومن قرارات الخليفة نفسه. وتجدر الإشارة إلى أن أمر تعيين آل عبد المؤمن لأبنائهم وقرابتهم على رأس الولايات قد كان معمولا به منذ عهد الخليفة عبد المؤمن خاصة بعد إعلان الحكم الوراثي[١٨]. حيث حرص عبد المؤمن على إدماج آل بيته في دواليب الدولة بغية تقوية البيت الداخلي، وتأمين دولته من الانفلاتات التي قد تحدث في بعض الولايات، لكن أن يصل نقد فرد معدود على الخاصة إلى هذا المستوى من السخرية من السلطة الحاكمة أمام الملأ فهذا أمر يستدعي التساؤل عن موقف الخليفة المنصور منها، ثم عن أثرها في الدولة والمجتمع؟

## ثالثًا: آثار ونتائج السخرية السياسية للعبدري

من المستبعد أن يكون الهدف الأساسي من النقد الساخر التي يمارسه البعض ضد الحكام والمتنفذين في السلطة هو الترويج عن أنفسهم وإضحاك الناس، فلا شك أن ممارسي النقد كانوا يستهدفون تغيير الواقع السياسي وتقويم اعوجاج السلطة الحاكمة بطريقتهم الخاصة فضلا عن إثارة انتباه الناس إلى مكامن الخطأ في إجراءات الحكام، فالعبدري لم يكن في الواقع يقوم بالسخرية السياسية من السلطة الحاكمة فقط من أجل إضحاك الناس والترفيه عنهم، بل كان يطمح إلى أبعد من ذلك. فهل استطاع فعلا أن يؤثر في قرارات الدولة وتغيير الواقع وفق رؤيته الخاصة؟

يطالعنا ابن عبد الملك المراكشي أن سخرية العبدري من قرار الخليفة المنصور كانت "سببا في فسخ ذلك التقديم وصرف هؤلاء الأصاغر عن تلك الولايات في البلاد"[١٩]، وعلى الرغم مما ينطوي عليه هذا التصريح من مبالغة فإن الوقائع التاريخية تفيد بأن الخليفة المنصور لم يكن يتوانى في إعفاء وعزل كل من يثبت في حقه التقصير في جانب الرعية، ومن ذلك إعفاؤه للسيد أبي زيد والي بجاية لعدم قدرته على تدبير أمورها بسبب الفتنة التي قامت بها وقدم عليها السيد أبا عبد الله[٢٠]. كما عزل السيد الرشيد والي مرسية بتهمة موالاة الأدفنش ومحالفته وجوره في حق الرعية وأخذ أموال التجار[٢١]، ونفس الإجراء اتخذه في حق ابن عمه ابن أبي الربيع والي تادلا بتهمة "خلعه للطاعة ومجاهرته بالشقاق"[٢٢]؛ ولما تحقق المنصور من أفعال هذين السيدين الأخيرين أمر بإعدامهما[٢٣]. ومهما يكن من أمر هذا الفسخ فقد كان للعبدري أثر بالغ فيه بالنظر إلى النقد اللاذع والساخر الذي وجهه للخليفة المنصور أمام خواص طلبته وخاصته وبدار الإمارة.

ومع ذلك كان من البديهي أن يلقى العبدري عقابًا شديدًا من وراء نقده الساخر لقرارات أعلى سلطة في البلاد، خاصة إذا علمنا أن النظام السياسي الموحدي قد تميز بصرامته وتشدده مع منتقديه، علاوة على كونه نظامًا مغلقًا تركزت فيه كل السلطات في شخص الخليفة. لكن المثير للانتباه أن الخليفة المنصور لم يعاقبه عقب تلك النازلة بل استمر العبدري في الحضور في مجالسه وإلقاء المحاضرات على الطلبة بين يديه محفوفا بالرعاية والتكرمة[٢٤]، وإن كانت تلك السخرية الجريئة للعبدري قد أثرت على أمراء آل عبد المؤمن فاستثقلوه واستجفوه[٢٥]. فهل يدل هذا على سعة مساحة حرية التعبير في عهد المنصور؟ أم أنه أرجأ له العقوبة إلى حين تلبسه بجرم مشهود احتراما لعلمه ومكانته ضمن الخاصة والعامة؟

يبدو من خلال الشواهد التاريخية أن المنصور الموحدي قد ضيق مساحة التعبير أمام الرعية خاصة منهم العلماء سيما إذا تعلق الأمر بانتقاد السلطة الحاكمة، وحسبنا دليلا على ذلك نكبته لابن رشد، فقد عاقب هذا الأخير بسبب أفكاره وانتقاده للأوضاع في الأندلس، ولعلاقته المحتملة بأبي يحيى أخي المنصور الذي دعا لنفسه في قرطبة لما كان المنصور مريضًا[٢٦]. كما أن قرار الإبعاد قد شمل عددًا من العلماء الآخرين الذين نحوا نحوه في نقد الدولة[٢٧].

والواقع أن عقاب المنصور لأبي العباس كان مسألة وقت فقط، فالراجح أنه رأى أن عقابه للعبدري على سخريته تلك وهو المعروف بنوادره وفواقره[٢٨] يعد بمثابة إثبات الخطأ على نفسه، لذلك فإنه لم ينس له تلك الزلة التي اعتبرها إهانة للبيت الحاكم، بل أرجأ له العقوبة وبدأ يتعقب هفواته ويتحين له الفرصة، إلى أن وجد منه يوما بمجلسه ريحا مسكرا، وحينئذ لم يتوان المنصور في إقامة الحد عليه. ومن غيضه وحقده عليه حرص على أن يجلد بين يديه انتقاما منه على جرأته وسخريته؛ لكنه لم يجلده سوى أربعين جلدة، "فلما بلغ جالده أربعين جلدة أشار إليه أبو العباس بأن يكف وابتدر

لباس ثيابه وقال للمنصور: أنا أحد عبدانكم ولا يجب عليّ سوى أربعين جلدة منتهى حد العبد فقبل ذلك المنصور منه على علمه بما في طيه من التنكيت عليه"(٢٩). وإذا كانت خفة ظله قد شفعت له ونجته من أربعين جلدة الأخرى، فإنها لم تحل بينه وبين الإبعاد الذي اتخذه في حقه المنصور، حيث هجره ومنعه من حضور مجلسه(٣٠) لكن هذه المرة تحت غطاء شرعي غير قابل للشك فيه. ولم يكتف بذلك بل بلغ به الأمر أن فرض عليه ما يشبه الإقامة الجبرية بأن منعه من التصرف في حوائجه كما منع عنه لقاء الناس(٣١). واستمر حاله على ذلك خلال عهد الناصر، إلا أنه أباح له ما منعه عنه المنصور من التصرف في حوائجه ولقاء الناس، فأصابه الإخمال على إثر ذلك وبقي كذلك إلى أن توفي.(٣٢)

وعلى الرغم من شجاعة أبي العباس في التجرأ على الحكام وشهرته بين قومه بالتهكم والسخرية، فغير بعيد أن تكون سخريته تلك من الخليفة المنصور في هذه النازلة قد جاءت بإيعاز من بعض رؤساء الدولة وبتشجيع منهم، وهو ما يستشف من رواية ابن عبد الملك نفسه الذي لم يستبعد أن تكون حيلة العبدري تلك قد صدرت عن أحد رؤساء الدولة الذي أوعز له بالقيام بشيء ما لفسخ ذلك التقديم(٣٣)؛ خاصة إذا علمنا بأجواء المنافسة الشديدة التي كانت بين الأشخاص المحيطين بالخليفة حول الخطط وتطلعهم إلى قيادة الولايات. ويبدو أن ابن عبد الملك المراكشي قد أعجب بسخرية العبدري من خلفاء بني عبد المؤمن، وإن كان قد وصف أعماله النقدية أحيانًا بالأخبار الجافية(٣٤)، لكن لا شك أنه كان مؤيدا للأهداف التي استهدف تحقيقها العبدري من وراء سخريته، ولا أدل على ذلك من نقله لنا نازلة أحمد بن يحيى مع الخليفة الموحدي المنصور.

ومهما يكن فقد كان مصير العبدري هو النكب كسائر الأشخاص الذين انتقدوا السلطة الحاكمة سواء نقد صريح أو ضمني. فعلى الرغم من المكانة العلمية التي بلغها والكفاءة التي أبان عنها، فإن ذلك لم يشفع له لدى بني عبد المؤمن. ومع أن السلطة الحاكمة لم تحكم عليه بالإعدام المادي إلا أنها قضت عليه بالإعدام الرمزي من خلال إبعاده وإقصائه من حضور المجالس العلمية في حضرة الخليفة أو مجالس الطلبة. بل الأكثر من ذلك تم منعه من اللقاء بالناس، مما يبرز خوف السلطة من النقد، خاصة ذلك الذي يكون مغلفا بالسخرية، وذلك لقدرته على ترك الوقع الكبير في الناس والتأثير عليهم، ومن ثم تحريك غضب وسخط الناس على السلطة.

والحق يقال إن سلوك النقد الذي أبداه وعبر عنه العبدري هو عين الصواب بصفته عالما، ذلك أنه بالإضافة إلى إنتاج المعرفة هناك دور النقد والتطوير الذي هو من الأدوار الحيوية للعلماء تجاه الأمة. كما أنه دور يروم البحث عن البدائل والاستعداد للتضحية بكل شيء بما في ذلك الحياة والحرية الفردية من أجل منع الظلم ونشر العدل، وهذا هو دور العالم النموذجي الذي لا يظل ساكتا ومفعولا به كسائر الناس، بل يحاول ما أمكنه الإصلاح بدل التواطؤ مع السلطة ضد مصلحة المستضعفين من الأمة.

## خَاتِمَةٌ

قصارى القول، إن النقد الساخر من بني عبد المؤمن مثل أحد أوجه نقد السلطة الحاكمة، كما عبر عن موقف قطاع عريض من المجتمع وعلى رأسهم العلماء من التصرفات والقرارات الخاطئة للحكام، استطاع العبدري بشجاعته وبروحه المرحة التعبير عنه وفق رؤيته وخطته لبناء مجتمع تسوده العدالة الاجتماعية. وقد ساعده موقعه القريب من السلطة الحاكمة في إيصال رسائل النقد إلى مكانها الصحيح وتبليغها لمن يهمهم الأمر، مستغلا كل الفرص والمناسبات السانحة، ومستفيدا من مكانته العلمية لدى الخاصة والعامة، ولدى بني عبد المؤمن أنفسهم.

ونظرًا لارتباط ممارسة هذا النقد الساخر بمجموعة من القدرات والمؤهلات فضلا عن الشجاعة والجرأة السياسية، فإن حضوره كان قليلاً في العصر الموحدي، لكن آثاره كانت أكثر وقعا من النقد المباشر، وحسبنا أن العبدري استطاع من خلال سخريته أن يؤثر في صناعة القرار السياسي داخل الدولة. مما يؤكد على أهمية النقد الساخر في تحقيق ما يعجز عنه النقد الصريح أحيانًا، وفي المقابل يعكس خطورة هذا النوع من الاحتجاج على الأنظمة الحاكمة خاصة إذا كانت تلك السخرية صادرة من علماء كبار مشهود لهم بالكفاءة العلمية والمصداقية لدى العامة والخاصة. وما دام أنه ليس هناك تغيير بدون ضحايا أو على الأقل بدون مقابل، فإن شجاعة العبدري وجرأته قد كلفته فقدان الكثير من الامتيازات التي كان يتمتع بها. كما تبين من خلال البحث تفاعل السلطة مع النقد الساخر خاصة ذلك الذي كان يحمل رسائل سياسية مهمة، ولا غرو فالتعريض أهجى من التصريح.

## الهَوامِشُ:

(١) للتعرف على ثورات العصر الموحدي ينصح بالرجوع إلى كتاب: **العمراني محمد، الثورات والتمردات بالمغرب الأقصى خلال العصر الموحدي**، دار نشر المعرفة، الرباط، ٢٠٠٥. زنيبر محمد، **المغرب في العصر الوسيط: الدولة والمدينة والاقتصاد**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ط.١، ١٩٩٩، ص٩٣-٢٨٠.

(٢) انظر ترجمته عند: ابن عبد الملك الأنصاري المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، تحقيق محمد بن شريفة، السفر الأول، القسم الأول، دار الثقافة، بيروت، د. ت، ص ٥٦٥. ابن الآبار، **التكملة لكتاب الصلة**، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥، ج.١، ص ٨٤. ونقل عنهم: السملالي العباس بن إبراهيم، **الإعلام بمَنْ حل مراكش وأغمات من الأعلام**، راجعه عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط. ٢، ١٩٩٣، ج.٢، ص١٠٣-١٠٦.

(٣) ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل** ...، م. س، السفر الأول، ص ٥٦٥. ابن الآبار، **التكملة**...، م. س، ص ٨٤.

(٤) ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل** ...، م. س، السفر الأول، ص ٥٦٤.

(٥) المصدر نفسه، ص ٥٦٤.

(٦) المصدر نفسه، ص ٥٦٥. ابن الآبار، **التكملة**...، م. س، ص ٨٤.

(٧) ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل**...، م. س، السفر الأول، ص ٥٦٥. ابن الآبار، **التكملة** ...، م. س، ص ٨٤.

(٨) ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل**...، م. س، السفر الأول، ص ٥٦٥.

(٩) المصدر نفسه، ص ٥٦٦.

(١٠) المصدر نفسه، ٥٦٥.

(١١) العمراني محمد، **الثورات والتمردات**...، م. س، ص ١٠٦-١٢٨.

(١٢) ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل**...، م. س، السفر الأول، ص٥٦٥.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٥٦٤.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٥٦٥

(١٥) المصدر نفسه، ص٥٦٥-٥٦٦.

(١٦) وقد أنشد الشاعر الأديب أبو عمران موسى الطرياني في هذه الحلوة المعروفة بالمدائن (جمع مدينة) قوله:

مدينة مصـــــــورة تحار فيها السحرة
لم تبنها إلا يـــــدا عذراء أو مخدرة
بدت عروسا تجتلى من درمك مزعفرة
ومالها مفاتـــح إلا البنان العشرة

ابن سعيد المغربي، **المغرب في حلى المغرب**، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط. ٤، ص ٢٩٤.

(١٧) المصدر نفسه، ص ٢٩٤.

(١٨) ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب قسم الموحدين**، تحقيق الأساتذة محمد إبراهيم الكتاني ومحمد زنيبر ومحمد بن تاويت وعبد القادر زمامة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط.١، ١٩٨٥، ص٥٠. ٩٢-٩٤. ٢٥٢. ابن صاحب الصلاة (ت. ٥٩٤ هـ)، **المن بالإمامة**، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي ط.٣، بيروت، ١٩٨٧، ص ١٤١. ٢١٦-٢١٩. ابن الأثير (ت. ٦٣٠ هـ)، **الكامل في التاريخ**، مراجعة وتصحيح محمد يوسف الدقاق، المجلد ٩، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.٤، ٢٠٠٢، ص ٤٠٨. **تنظيماتهم ونظمهم**، دار الغرب الإسلامي، بدون تاريخ، ص١٨٢.

(١٩) ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل**...، م. س، السفر الأول، ص ٥٦٦.

(٢٠) ابن عذاري، **البيان**...، م. س، ص١٨١-١٨٣.

(٢١) المصدر نفسه، ص١٩٩.

(٢٢) المصدر نفسه، ص١٩٩.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ٢٠٠.

(٢٤) ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل** ...، م. س، السفر الأول، ص٥٦٦.

(٢٥) المصدر نفسه، ص٥٦٥.

(٢٦) ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، تحقيق إحسان عباس، السفر السادس، دار الثقافة، بيروت، ط.١، ١٩٧٣، ص٢٦. الجابري محمد عابد، **المثقفون في الحضارة العربية: محنة أحمد بن حنبل ونكبة ابن رشد**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط. ٢، يناير ٢٠٠٠، ص١٥١.

(٢٧) المرجع نفسه، ص١٢٦.

(٢٨) ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل** ...، م. س، السفر الأول، ص٥٦٥.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٥٦٦. وقد كان ذلك معتقد آل عبد المؤمن وطائفتهم قديمًا وحديثًا أن كل من خرج عن قبائلهم المعتقدة في هداية مهديهم وعصمته فهم عبيد لهم أرقاء. المصدر نفسه، ص ٥٦٦.

(٣٠) المصدر نفسه، ص٥٦٦.

(٣١) المصدر نفسه، ص٥٦٧.

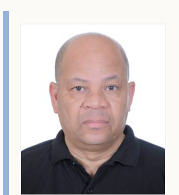
(٣٢) المصدر نفسه، ص٥٦٧.

(٣٣) المصدر نفسه، ص٥٦٥.

(٣٤) المصدر نفسه، ص٥٦٥.

# حَمَلَة العلم إلى المغرب والأندلس

## دراسة تحقيقية في تاريخ العلماء والرَواة للعلم في الأندلس، لابن الفرَضي (ت. ٤٠٣هـ)



**أ. د. عبد القادر سلّامي**

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب واللغات

جامعة تلمسان – الجمهورية الجزائرية

**مُلَخّصٌ**

*تُعَدّ الأندلس قبلة علماء المشرق وملتقى حملة العلم ورواته، لذا وجدت كتب التراجم سبيلها إلى رسم معالم لهذه الآصرة الثقافية بين المغرب والمشرق في أبهى صورها من حيث اهتدى أمثال الحافظ أبي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي المعروف بابن الفرضي (ت. ٤٠٣هـ) إلى تأليف عزيز فيها سماه "تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس". وتسعى الدراسة الموالية إلى رصد الأعلام الوافدين على الأندلس على النحو الذي جادت به قريحة ابن الفرضي في تراجمه "تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس"، بما يعدّ تذكيرًا بدور حملة العلم من المشرق إلى الأندلس ومن ثم إلى المغرب، أمثال: أحمد بن الفضل بن العبّاس البهراني الدِّينَوري الخفّاف، يكنَى: أبا بكر: (ت. ٣٤٩هـ)، وجُزَيّ بن عبد العزيز بن مروان بن الحَكَم بن أبي العاص ابن أميّة بن عبد شمس بن عبد مَناف: أخو عُمر بن عبد العزيز، حَنَش بن عبد لله الصّنعاني، وزياد بن عبد الرحمن اللّخمي: المعروف: بزياد شَبْطُون جدّ بني زياد، وعبيد الله بن عمر بن أحمد بن محمد بن جعفر القيسي الشافعي، وهو ماما عمد ابن الفرضي في الترجمة لهم، دون أن يحظ هذا الجهد التحقيقي، في حدود تقصينا إلى دراسة مستقلّة أو إشارات سابقة.*

**بيانات الدراسة:**

| | | | |
|---|---|---|---|
| تاريخ استلام البحث: | ١٤ | يناير | ٢٠١٧ |
| تاريخ قبـول النشـر: | ٢٣ | مايو | ٢٠١٧ |

**كلمات مفتاحية:**

ابن الفرضي، تاريخ العلماء، المغرب والأندلس، علماء المشرق، الرّواة

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0054797

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

عبد القادر سلّامي. "حَمَلَة العلم إلى المغرب والأندلس: دراسة تحقيقية في تاريخ العلماء والرّواة للعلم في الأندلس، لابن الفرَضي (ت. ٤٠٣هـ)".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الثاني والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٨. ص٥٥ – ٦٢.

## مُقَدِّمَةٌ

لئن قدّم ابن الفَرضي لكتابه "تاريخ العلماء والرّواة للعلم بالأندلس" بقوله: "هذا كتابٌ جمعناه في فقهاء الأندلس وعلمائهم ورُواتهم، وأهل العناية منهم ملخّصًا على حروف المعجم... وغرضنا فيه: ذكر أسماء الرّجال وكُناهُم وأنْسَابهم، ومن كانَ يَغْلُبُ عليه حفظ الرّأي منهم؛ ومن كان الحديثُ والرّواية أمْلَكَ وأغلَبَ عليه؛ ومن كانت له إلى المشرق رِحْلَةٌ؛ وعمّن روى، ومن أجَلِّ من لَقِيَ؟ ومن بَلَغَ منهم مبْلَغَ الأخْذ عنه؛ ومنْ كان يُشَاوَرُ في الأحْكام ويُسْتَفْتى؛ ومَنْ وَلِيَ منهم خُطّة القضَاء؛ ومن المَوْلد والوفاة، ما أمْكَنَني، على حسَب ما قَيَّدْتُه"، فكان له في ذلك فضل السّبْق في الترجمة للعلماء الأندلسيين مولدًا ووفاة أو وفاة على النّحو تيسّر للوافدين على الأندلس ممّن دخل الأندلس للجهاد من التّابعين. على أنّ ما ساقه من إيرادات إضافات وتخريجات وتأكيدات ومعاينات لابن الفرضي لم نجد لها ذكرا أو ما يضددها في بعض كتب التحقيق التّرجمية التي رجعنا إليها- ودلّلنا على كلّ ذلك في موضعه من الهوامش-من مثل: الجذوة للحميدي (ت.٤٨٨هـ) والبغية للسيوطي (ت. ٩١١هـ)، وهما من الخالفين.

## أولاً: ابن الفرضي (حياته وثقافته وآثاره)

### ١/١-التعريف بابن الفرضي

هو: أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزديّ؛ المعروف: بابن الفرضي. كان حافظًا متقنًا عالمًا، ذا حظ من الأدب وافر.[١] قال الحميديّ (ت. ٤٨٨هـ): أخبرني أبو محمّد عليّ بن أحمد؛ قال: أخبرني أبو الوليد بن الفرضي؛ قال: "تعلقت بأستار الكعبة، وسألت الله: الشّهادة؛ ثم انحرفت، وفكّرت: في هول القتل؛ فندمت وهممت أن أرجع: فأستقيل الله ذلك؛ فاستحييت".[٢] قال أبو محمد: فأخبرني من رآه بين القتلى: فدنا منه، فسمعه يقول بصوت ضعيف -وهو في آخر رمق-: "لا يُكلَم أحد في سبيل الله. والله أعلم بمن يُكلم في سبيله إلاّ جاء يوم القيامة وجرحه يثعَب دما، اللّون لون الدم، والرّيح: ريح المسك. "كأنه: يعيد على نفسه الحديث الوارد في ذلك. (قال): ثم قضى نحبه على إثر ذلك.[٣] وهذا الحديث في الموطأ: عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة: مسندًا عن النّبي (ﷺ).[٤]

### ٢/١- شيوخه:

سمع في الأندلس: من أبي زكرياء يحيى بن مالك بن عابد، ومحمد ابن أحمد ابن يحيى بن مفرج القاضي، ومحمد بن يحيى بن عبد العزيز المعروف: بابن الخزّاز، ومحمد بن أبي دُليم، وأبي أيوب سليمان بن أيوب، وأبي عبد الله محمد بن أحمد بن مسعود. وسمع بإفريقية: من أبي عبد الله بن عبد الله النَّفْريّ المعروف: بابن أبي زيدٍ، وأبي الحسَن عليّ بن محمّد بن خلَفٍ، المعروف: بالقابسيِّ. وسمع بمصر: من أبي بكر أحمد بن محمد بن إسماعيل المهندس، وأبي محمد الضِّرار.وسمع بمكّة: من أبي يعقوب بن يوسف بن أحمد بن يوسف بن الدَّخيل الصَّيْدلاني المكّي.[٥]

### ٣/١-وفاته وآثاره:

تُوُفّي ابن الفرضي (رحمه الله) في حدود سنة ٤٠٣هـ؛ مقتولاً مظلومًا في تلك الفتَن وذلك بعد أن خلّف شعرًا وكتبًا لغوية وتراجم تبوأت مكانة مرموقة بعده. فقد كان أديبًا شاعرًا مجيدًا أنشد له أبو بكر عليّ بن أحمد الفقيهُ:[٦]

إنّ الذي أصْبَحْتُ طَوْعَ يَمْينه
إنْ لَمْ يَكُنْ قَمـــرًا: فليسَ بِدُونِه
ذُلِّي لهُ في الحُبِّ: مِنْ سُلْطَانِه؛
وسقامُ جَفْني: مِنْ سُقـــــامِ جُفونِه

له عدّة مؤلّفات؛ منها: كتاب: في المُؤتَلف والمختلِف. وحدّث وحدّث عنه ابن أبي زيد: برسالته في الفقه. وحدّث عنه القابِسي: بكتابه المعروف بكتاب: "المُنَبِّه لذوي الفِطَن من غَوائِل الفتَن". وعنه أبو عمر بن عبد البرّ: بتاريخه في العلماء والرّواة للعلم بالأندلس.[٧]

## ثانيًا: الأعلام الوافدون على الأندلس وأخبارهم

### ١/٢- أحمد بن الفضل بن العبّاس البهراني الدِّينَوري الخفّاف؛ يكَنّى: أبا بكر (ت.٣٤٩هـ)

قدم الأندلس في شهر ربيع الأوّل سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة(٣٤١هـ).[٨] وكان يُخْبِرُ أنّ مولدهُ بالدِّينَور، وأنّه تحوّل إلى بغداد، وأنّه أقامَ بُرهة لا يكتُبُ ثمّ تعلّم الكتابة الرّامُور. فكان يكتبُ كتابًا ضعيفًا بالهجاء. سمع الحديث؛ من جماعة ببغداد، والبصرة والشّام. ولزِمَ محمد بن جَرير الطّبَريِّ وخدمه، وتحقّق به وسَمِع منه مصنّفاته فيما زَعَمَ، ولم يَكُنْ ضَابِطًا لما رَوى. وكانَ: إذا أتى بكتابٍ من كُتُب الطَّبريّ قال: قد سَمِعته منه. وسَمِعته يقرأ عليه ويحدّثُ به عنه.[٩]

سمع ببغداد: من أحمد بن الحسَن بن عبد الجَبَّار الصُّوفي، وأحمد بن العبّاس الطُّوسيّ صاحب الزُّبيْر بن بَكَّار، وابن مُجاهد صاحب القراءات، وجعفر بن محمد المستفاض الفريابي، وأبي بكر عبد الله بن أبي داود بن الأشعث السّجستاني. وسَمع من أبي خليفة بن الحباب. وسَمع بالشّام: من خَيْثَمَة بن سُليمان وغيره جماعة يطول ذِكرُهم. وكانت عنده مناكيرُ، وقد تسَهل النّاس فيه وسَمِعوا منه كثيرًا. حدّث عنه جماعةٌ من شُيُوخنا. قال لي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يحيى: لقد كان الدّينوري بمصرَ يلعبُ به الأحداثُ ويتغامزُون عليه، ويسرقُون كتُبَه. وما كانَ ممّن يكتب عنه محلّل. ثمّ قَدِم الأنْدلُس فانجفَل النّاسُ إليهن وازْدَحَمُوا عليه أو كما قال. وتُوفّي أبو بكر الدّينوري بقُرطبة ليلة الثّلاثاء لخمْس خلَوْن من المحرّم سنة تسعٍ وأربعين وثلاثمائة. (٣٤٩هـ) وقد بلغ من السن اثنَتَيْن وثمانين سنة وأيامًا. من كتاب محمد بن أحمد بن يوسف بخطّه.[١٠]

### ٢/٢-جُزَيّ بن عبد العزيز بن مروان بن الحَكَم بن أبي العاص ابن أميّة بن عبد شمس بن عبد مَنَاف: أخو عُمر بن عبد العزيز:

أخبرنا القاضي محمد بن أحمد قال: أنا عبد الرّحمن بن أحمد بن يُونس قال: جزيّ بن عبد العزيز بن مَرْوانَ بن الحكم؛ يروي عن أخيه زبان بن عبد العزيز، وعن ربيعة بن أبي عبد الرّحمن. روى عنه موسى بن عليّ بن رباح، ومعاوية بن صالح الحِمصيّ. هربَ إلى الأندلس من بني العبّاس وبها ماتَ. وكان: قد حضَر الوقعة مع مَروان[١١] ليلة بُوصير فسَلِم. وأخبرنا يحيى بن مالك العائذي الطّرطُوشيّ قال: نَا أبو صالح قال: نَا أبو سعيد. قال: ويُقال إنّ الذي حضَر الوقعة وسَلِم هو

جزيّ ابن زبّان بن عبد العزيز. وهو عندي أصحّ.[12] قال الرّازي: دخل جُزَيّ بن عبد العزيز الأندلس سنة أربعين ومائة (١٤٠هـ).[13]

**٣/٢- حَنَش بن عبد لله الصّنعاني:[14] (ت. ١٠٠هـ)**

صنعاء الشّام[15] عداده في المصريّين تابعيّ كبير، ثقة. أخبرنا الخطّاب بن سَلمَة قال: نَا قاسم بن أصبَغ قال: دخَل الأندلس من التّابعين حَنش بن عبد الله الصّنعاني صَنْعاء الشّام، وعليّ بن رباح وأبو عبد الرّحمن الحُبُليّ، وموسى بن نُصَيْر.أخبرنا عبدُ الله بن محمد بن عليّ قال: نَا أحمد بنُ خالدٍ، قال: ذكر لنا محمد بن وضّاح أنّ بعض الوزراء أخبره: أنّه وجد شهادة عليّ بن رَبَاح وحَنَش بن عبد الله في عهْد مَنْبلَونة. قال ابنُ وَضّاح :وكانا تابعيْن.أخبرني محمد بن أحمد الحافظ قال: نَا أبو سعيد الصّدفي الحافظ قال: حَنش بن عبد الله بن عَمرو بن حنْظلَة بن فَهد بن قنان بن ثَعْلبة بن عبد الله بن تامر السَّبئي والصَّنْعاني؛ يُكَنّى: أبَا رَشيق كان مع علي بن أبي طالب بالكُوفة، وقَدِم مصْرَ بعد قتْل عليّ، وغَزا المغرب مع رُوَيْفِع بن ثابت، والأندلس مع مُوسى بن نُصيْر، وكان فيمَن ثار على ابنِ الزّبيْر على عبد الملك بن مَروان، فأُتيَ به عبدَ الملك في وثاقٍ: فعفا عنه؛ وكان حين الملك حين غَزا المغرب نزَل عليه بإفريقيا. حدّث عنه الحارث بن يزيد، وسَلامَانُ بن عامر، وعامِرُبنُ يحيى، وسَيّار بن عبد الرّحمن، وأبو مروان مولى تجيب، وقَيْس بن الحَجَّاج؛ وربيعة بنُ سُليْمان وغيرهم. توفّي بإفريقيا سنة مائة. وكان أوّل من وَلِيَ عَشُور إفريقية في الإسلام، وَوَلَده بمصر اليوم ولدُ سعيد بن سَلمَة بن منصور بن حَنَش. أخبرنا محمد قال: نَا محمد عبد الرّحمن قال: نَا ابنُ قدير قال: نَا أحمد بن عمْروٍ قال: نَا ابنُ وهب قال: حدّثني عبد الرحمن بن شُريح، عن قيس بن الحجّاج، عن حَنَش أنّه كان إذا فرغ من عشائه وحوائجه وأراد الصّلاة من اللّيل: أوقد المصابيحَ، وقرب إناء ماء؛ فكان إذا وجَد النّعاس استنشق الماء؛ وإذا تَعايَا في آية نظر في المصحف. أخبرنا العائذيّ قال: نَا ابنُ الوِرد قال: نَا يحيى بن أيّوب قال: نَا سعيد بن الحكم بن أبي مَرْيم، عن نافع بن يزيد قال: حدّثني قيس بن الحجّاج أنّه سمع حَنَشًا يقول في هذه الآية: ﴿الذين يُنفقونَ أمْوالَهم باللّيْل والنَّهار﴾[16] الآية. قال: في عَلَف الخيْل.[17] أخبرنا محمد بن أحمد بن مسعُود قال: نَا محمد بن مُطَيْس قال: نَا عبد المجيد بن إبراهيم، قال: نَا عبد الله بن يزيد المُقْري قال:قال أبُو زيد حُنَيْس بن عُمْرَان اليافِعيّ: عن روْح بن الحارث يعني ابن حَنَش السَّبئي، عن أبيه، عن جدّه أنّه قال لبَنيه: "يا بُنَيَّ إذا دَهمَكُم أو كَرَبَكُمْ أمْرٌ فلا يُبَيِّتَنَّ أحدكُم إلاّ وهو طاهرٌ في لِحافٍ طاهر: -وأظنُّه قال: على فراش طاهر- ولا تَبيتَنَّ معه امرأة؛ ثُمَّ ليقرأ: ﴿والشَّمْس وضُحاها﴾[18] سبْعًا؛ ﴿و اللَّيْل إذا يغْشى﴾[19] ثمّ ليقلْ: اللّهمَّ اجعَلْ لي من أمْري هذا فَرجًا ومَخْرَجًا، فإنَّه يأتيه آتٍ في أوّل ليلة أو في الثّالثة، أو في الخامسة - وأظنّه قال: أو في السّابعة- فيقول: المخرج منه كذا وكذا". قال أبو زيد: "فأصَابَني ووَجعٌ شديدٌ، فلم أدْرِ: كيف آتِي له فابْتَتُّ على هذه الحال ليلَةً، فأتاني آتيَان في أوّل ليلة، فقال أحدهما لصاحبه: جُسَّه، فجعل يلمسُ جَسَدي؛ فلمّا بلغَ مَوْضِعًا من رأسي، قال: احتَجَمَ ها هنا –ولا تَحْلِقْهُ-ولكنْ بغِراءٍ. ثمّ قال أحدهما أو كلاهما: فكيف لوْ ضَمَمْتَ إليهما: والتّين والزَّيْتون؟". فلمّا أصبَحْتُ: سألتُ، فقلت: أيُّ شيءٍ بغراَء؟ فقال: خُطْنٌ أو شيءٍ يّسْتَمْسَكُ به المِحْجمَةُ. (قال): فاحتجمتُ: فبرئتُ؛ فأنا اليَومَ ليسَ أُحَدِّثُ بهذا أحدًا، فعالج به، إلاَّ: وجد فيه الشِّفاء بإذن الله". قال عبد الله: كذا قال ابنُ فُطيْسٍ في حديثه عن حُنيْسٍ؛ وكذلك وجدتُه بخطّه في أصله. والصواب: أنَيس. أخبرنا محمد بن أحمد قال: نَا أبو سعيد عبد الرّحمن بن يُونس في تاريخه، نَا موسى بن هارون بن كامل قال: نَا عليّ بن شَيْبَة قال: نَا المقرئ. يعني: عبد الله بن يزيد قال: نَا أبو زيد أُنَيس بن عمران اليافعيّ عن روح بن الحارث بن حَنَش السبئي، عن أبيه عن جدّه فذكر نحوه. أخبرنا أحمد بن خالد قال: نَا الحُسَين بن صَفْوان قال: نَا ابنُ أبي الدُّنيا قال: نَا محمد بن سعْد قال: نَا الوَاقِدي، قال: حَنَش بن عبد الله الصَّنْعاني: كان من الإبل ونزل مصر ومات بها. روى عن المصريين. ووجدْتُ في كتابي عن أبي محمد البَاجيّ أو غيره: حَنَش بن عبد الله من التابعين دخلَ الأندلس، وكان بسَرقُسطة وأسّس جامعها وبها مات، وقبره معروف بها إلى اليوم.أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن القاسم الثّغري قال: نَا أبو بكر محمد بن الشِّبْل: أنّ حَنش بن عبد الله دخل الأندلس وهو من التّابعين. قاله لنا أبو محمد الثَّغري: رأيتُ قبْر حَنَش بسَرَقُسْطة وقبره بها عند باب اليَهُود بغربَيّ المدينة معروف إلى اليوم.[20]

**٤-زياد بن عبد الرحمن اللَّخمي: المعروف بزياد شَبْطُون جدّ بني زياد (ت. ٢٠٤هـ)**

وقال أحمد: هو زياد بن عبد الرّحمن بن زياد بن عبد الرّحمن بنُ زهيْر: وزياد الثّاني هو الدّاخل بالأندلس. قاله أحمد بن محمد الرّازيّ. قال أحمد: وجَدْتُ في موضع آخر نسَب زياد هو: زياد بن عبد الرّحمن بن زُهير بن ناشِرة بن حُسيْن بن الخطّاب بن الحارث بنُ دُبّة بن الحارث بن وائل بن راشدة بن أدب بن

بذيلة بن لخم بن عَدّي. وقد قيل إنّه من ولد حَاطب بن أبي بَلْتَعة: من أهل قُرطبة؛ يُكنّى: أبا عبد الله. أخبرني الحسَيْن بن محمد بن عُمر بن لُبابة قال: وممّن روى عن مالك بن أنَس من أهل الأندلس زياد بن عبد الرحمن شَبْطُون.[٢١] سَمِع: من مالك الموطّأ. وله عنه سَماعٌ هو معروف بسَماع زياد، وسَمع: من معاوية بن صالح، وكانت ابنةُ معاوية بن صالح تحته. قال أحمد: بلغني عن عبيد الله يحيى، عن أبيه يحيى أن الأمير هشام ابن الحَكَم رحمه الله أراد زياد بن عبد الرحمن على القضاء، فخرج هاربا بنفسه فقال هشام: ليت النّاس كزياد، حتى أكفى أهل الرّغبة في الدّنيا. وأمّنه فرجع. وكان هشام يقول: صَحِبت النّاس وبَلوتهم فما رأيت رجلاً يَسِرّ من الزّهد أكثر ممّا إلى زياد بن عبد الرّحمن. وروى زياد بن عبد الرّحمن: عن عبد الله بن عقبة، وعن اللّيث بن سعد، وعن عبد الله بن عبد الرّحمن، وسليمان بن بلال، وعبد الرحمن بن أبي الزِّناد، وعبد الله بن عمر العمري، وأبي معشر، ويحيى بن أيوب، وموسى بن علي بن رَبَاح، ومحمّد بن عبد الله بن عبيد بن عمير اللّيثي، والقاسم بن عبد الله بن إسماعيل ابن داود، وهارون بن عبد الله بن أبي يحيى، ومحمد بن أبي أسامة العمري، وعبد الله ابن عبد الرّحمن القرشي، وأبو معمر بن عبّاد بن عبد الصّمد صاحب أنس، وعبد الرّحمن بن أبي بكر بن أبي مَليكة، وابن داود، وسفيان بن عُيَيْنَة، وعمر بن قَيْس، وابن أبي حازم. وروى يحيى بن يحيى عن زياد بن عبد الرَّحمن المُوَطأ قبل أن يرحل إلى مالِك. ثم رحل فأدرك مالكا فرواه عنه إلاّ أبوابا في كتاب الاعتكاف شَكَّ في سماعها من مالِك فأبقى روايته فيها عن زياد عن مالِك فأبقى روايته فيها عن زياد عن مالِك. وتُوُفّيَ: زياد بن عبد الرَّحْمَن رحمه الله سنة أربَع ومائتين (٢٠٤هـ) قبل موت الحَكَمِ بعَامَيْنِ ذَكَرَ ذَلك: أحمد.[٢٢]

### ٥-عبيد الله بن عمر بن أحمد بن محمد بن جعفر القيسي الشافعي:[٢٣] (ت. ٣٦٠هـ)

من أهل بغداد، ويكنى أبا القاسم[٢٤]. قدم الأندلس في المحرّم من سنة سبع وأربعين وثلاثمائة (٣٤٧هـ)، وأخذ عن المالكيين، وتصدر للعلم سنوات وألف فيه كتبا جليلة. كانت وفاته بقرطبة ليلة الجمعة لأربع بقين من ذي الحجة سنة ٣٦٠هـ. تفقّه ببغداد على مذهب الشّافعي، وتحقّق فيه وناظرَ فيه عند أبي سعيد أحمد بن بن محمد الأصطرخيّ وأبي بكر محمد الصّيرفيّ، وأبي إسحاق إبراهيم بن أحمد المَرْوَزيّ، وأبي عبد الله الحُسَيْن بن إسماعيل المحامليّ القاضي. وأخذ من المالكيّين: عن أبي الفرَج عَمْرو بن محمد البَصري، والحسَن بن مُنتاب، ومحمد بن محمد بن راهويه، وغيرهم. وقرأ القرآن على أبي بكر بن مجاهد، وأبي الحسَن بن شَنْبُور، وأبي بكر بن المنادى. وكتب الحديث ببغداد عن أبي القاسم البَغَويّ عبد الله بن محمد، وأبي بكر عبد الله بن أبي داود السّجستانيّ ويحيى بن محمد بن صاعد وغيرهم جماعة. وكتب بالرقّة: عن أبي رثوَيْط وغيره، وكتب بدمشق: عن أبي أحمد الجوهريّ، وكتب بحلب: عن ابن رَوَيْط وغيره، وكتب بدمشق: عن أبي الدّحداح التّميميّ، وأحمد بن محمد بن ملاس، ومحمد بن يوسف الهرويّ. وكتب بالرّملة: عن أبي نعيم الفضل بن محمد البغداديّ، وعليّ بن الحسَن النّجاد المُسْتَمْلَى وأبي الحَسن شَاذَان الفضليّ وجماعة سواهم. وكتب بمكّة من أبي جعفر الدّيْبَليّ، وأبي جعفر العقيليّ، وابن الإعرابيّ، وأبي محمد بن المقبري. وكتب بمصر: عن أبي جعفر الطحَاويّ، وأبي الحُسَيْن بن أبي الحديد، وأبي بكر أحمد بن مَسْعُود الزُّبَيْريّ، وأبي الطّاهر العلاّف في عدد سوى هؤلاء كثير من البغداديين والشّاميين، والمصريين وغيرهم. وكان فقيهًا على مذهب الشّافعيّ، إمامًا فيهن بصيرًا به؛ عالمًا بالأصول والفَتوى، حسَنُ النَّظر والقياس، وكان مع ذلك إمامًا في القراءات، ضابطًا للحروف، كثير الرّواية للحديث إلاّ أنّه لم يكُن ضابطًا لما روى منه. وكان التفقّه أغلبُ عليه من الحديث، وسمعتُ محمّد بن أحمد بن يحيى ينسِبُه إلى الكذب، ووقفْتُ على بعض ذلك في تاريخ: أبي زَرْعَة الدِّمَشْقيّ من أصوله: وقع إليّ وقرأته على أبي عبد الله بن مُفَرِّج فرأيتُه قد ادّعى روايته عن رجُل من أهل دمَشْق يقالُ له: بَكْر بن شُعَيْب زَعَمَ أنّه حدّثه عن أبي زرعة، وكان أبو عبد الله قد لقي الرَّجُلَ وكَتَبَ عنه، وحكى انّه لم تكُن له سِنٌّ يَجُوزُ أن يُحدّث بها عن أبي زَرعة. وكان عُبيْد الله قد بَشَر إسْنادًا كان في آخر الكتاب وكتب مكانه هذا الرّجل. ولعبيد الله بن عُمر هذا كتُبٌ مؤلَّفةٌ كثيرةٌ في الفقه والحُجّة والردّ، والقراءات والفرائض وغير ذلك. وكان: الحكَم قد أنْزَلَه وتوسَّع له في الجِراية ولم يَزَلْ مؤلف له إلى أن مات. وكانت وفاته بقُرطبة ليلة الجُمعة لأربع بَقين من ذي الحجّة سنة ستّين وثلاثمائة (٣٦٠هـ) وكان مولده ببغداد: في ذي القعدة سنة خمس وتسعين ومائتيْن. ذكر ذلك عنه: أحمد بن محمد بن يوسف؛ وكتبه من كتابه بخطّه. وكان مسْكنُه ببغداد في الجانب الغربيّ: بالكرم المفرش، فيما يُجاوزُ نهر عيسى. رأيتُ ذلك بخطّ المستنْصر بالله رحمه الله.[٢٥]

## ثالثًا: تحقيقات ابن الفرضي التّرجمية في الميزان

لئن قدّم ابن الفَرضي لكتابه بقوله: "هذا كتابٌ جمعناه في فقهاء الأندلس وعلمائهم ورُواتهم، وأهل العناية منهم ملخّصًا على حروف المعجم...وغرضنا فيه: ذكر أسماء الرّجال وكُناهُم وأنْسَابِهِم، ومن كانَ يَغْلُبُ عليه حفظ الرّأي منهم؛ ومن كان الحديثُ والرّواية أمْلَكَ وأغلَبَ عليه؛ ومن كانت له إلى المشرق رِحْلةٌ؛ وعمّن روى، ومن أجَلّ من لَقِيَ؟ ومن بَلَغَ منهم مبْلَغَ الأخْذ عنه؛ ومنْ كان يُشَاوَرُ في الأحْكام ويُسْتَفْتى؛ ومَنْ وَلِيَ منهم خُطّة القضاء؛ ومن المولِد والوفاة، ما أمْكَنني، على حسَب ما قَيَّدْته"،[٢٦] فكان له في ذلك فضل السّبْق في الترجمة للعلماء الأندلسيين مولدًا وووفاة أو وفاة على النّحو تيسّر للوافدين على الأندلس ممّن دخل الأندلس للجهاد من التّابعين، ومنهم: حنَش بن عبد الله الصّنعاني وقد أكّد دون تحفّظ أنّه من "صنعاء الشّام وعداده في المصريّين تابعيّ كبير، ثقةٌ "وأنّه" كان مع علي بن أبي طالب بالكّوفة". كما تقصّى بعض أخباره بتواتر واضح حين قال:" أخبرنا عبدُ الله بن محمد بن عليّ قال: نَا أحمد بنُ خالد، قال: ذكر لنا محمد بن وضّاح أنّ بعض الوزراء أخبره: أنّه وجد شهادة عليّ بن رَبَاح وحَنَش بن عبد الله في عهْد مَنْبَلُونَة. قال ابنُ وَضّاح: وكانا تابعيْن" وحين أورد لحَنش اجتهادا تفسيريا لبعض آي القرآن الكريم لم يقُلْ به غيره، فقد "أخبرنا العائذيّ قال: نَا ابنُ الوِرد قال: نَا يحيى بن أيّوب قال: نَا سعيد بن الحكم بن أبي مَرْيم، عن نافع بن يزيد قال: حدّثني قيس بن الحجّاج أنّه سمع حَنَشًا يقول في هذه الآية: ﴿**الذين يُنفقونَ أموالَهُم باللَّيْل والنَّهار**﴾ الآية. قال: في عَلَف الخيل. "كما عمد ابن الفَرَضي إلى الإدلاء بشهادة معاينة لأحد معاصريه لقبر حَنش الصّنعاني حين قال "رأيتُ قبْر حَنَش بسَرَقُسْطة وقبره بها عند باب اليَهُود بغربِيْ المدينة معروف إلى اليوم". قاله لنا أبو محمد الثّغري". وأنّه "توفّي بإفريقيا سنة مائة".

أمّا أحمد بن الفضل بن العبّاس البهراني الدِّينَوري الخفّاف؛ يكْنَى: أبا بكر الذي فقد ذكر أنّه "كان يكتبُ كتابًا ضعيفًا بالهجاء". وأكّد ملازمته لمحمد بن جَرير الطّبَريّ وخدمته له، وتحقّق به وسَماعه منه مصنّفاته فيما زَعَمَ، غير أنّه "لم يَكُنْ ضَابِطًا لما رَوى. وكانت عنده مناكير، وقد تسَهل النّاس فيه وسَمعوا منه كثيرًا. لقد كان الدِّينوري بمصرَ يلعبُ به الأحداثُ ويتغامزُون عليه، ويسرقُون كتُبَه. وما كانَ ممّن يكتب عنه محلّل. ثمّ قَدِم الأنْدلُس فانجفَل النّاس إليهن وازْدَحَمُوا عليه أو كما قال"، وفي الأمر كما ترى من التناقض ما يجعلنا ندعو إلى التثبّت في سلوك هذا المذهب من عدمه. كما أكّد تولّى ابن الرضي تأكيد تاريخ وفاة أحمد بن الفضل بـ(٣٤٩هـ): من كتاب محمد بن أحمد بن يوسف بخطّه.

أمّا جُزَيّ بن عبد العزيز بن مروان بن الحَكَم، أخو عُمر بن عبد العزيز، فأكّد بأنّه من "حضَر الوقعة مع مروان بن محمد وسَلِم" فقال بشأنه". "وهو عندي أصحّ"، وذلك لتواتر خبر حضوره لوقعة. كما تفرّد ابن الفَرضي بإيراد تاريخ وفاة جُزَي بن عبد العزيز نقلاً عن الرّازي، وقد قال: "دخل جُزَيّ بن عبد العزيز الأندلس سنة أربعين ومائة". أمّا زياد بن عبد الرحمن اللّخمي: المعروف: بزياد شَبْطون، فلم يؤكّد ابن الفَرَضي "سماعه الموطّأ من مالك بن أنس، بل ذهب إلى أنّ له عنه سَماعٌ هو معروف بسَماع زياد"، كما "سَمع: من معاوية بن صالح، وكانت ابنةُ معاوية بن صالح تحته".

أمّا عبيد الله بن عمر بن أحمد بن محمد بن جعفر القيسي الشافعي: فذكر ابن الفرضي أنّه "قرأ القرآن على أبي بكر بن مجاهد"، وأنّه مع كونه "كان فقيهًا على مذهب الشّافعيّ، إمامًا فيهن بصيرًا به؛ عالمًا بالأصُول والفَتوى، حسَنُ النَّظر والقياس، وكان مع ذلك إمامًا في القراءات، ضابطًا للحروف، كثير الرّواية للحديث إلاّ أنّه لم يكُن ضابطًا لما روى منه. وكان التفقّه أغلبُ عليه من الحديث، وسمعتُ محمّد بن أحمد بن يحيى ينسِبه إلى الكذب"، ويبدو أن الفَرضي قد تحرّى صحّة ذلك بقوله: "ووقفْتُ على بعض ذلك في تاريخ: أبي زَرْعَة الدِّمَشْقيّ من أصوله: وقع إليّ وقرأته على أبي عبد الله بن مُفَرِّج فرأيتُه قد ادّعى روايته عن رجُل من أهل دمَشْق يقالُ له: بَكْر بن شُعَيْب زَعَمَ أنّه حدّثه عن أبي زرعة، وكان أبو عبد الله قد لقي الرَّجُلَ وكتَبَ عنه، وحكى انّه لم تكُن له سِنٌّ يَجُوزُ أن يُحدّث بها عن أبي زرعة. وكان عُبيْد الله قد بَشَر إسْنادًا كان في آخر الكتاب وكتب مكانه هذا الرّجل". وإذا كان لنا أن نبدي رأيًا في أمر ما رآه ابن الفرَضي، فإننا لا نستبعد أن يكون الأمر ردّ فعل لحادثة معينة أو لأكثر من حادثة، خاصّة أنّنا لا نعرف الظروف التي برز فيها هذا التفضيل بعد النّفور.

وذكر ابن الفرضي خبرًا تفصيليًا عن إقامة عبيد الله، فقال: "كان مسْكَنُه ببغداد في الجانب الغربيّ: بالكرم المفرش، فيما يُجاوِزُ نهر عيسى. رأيتُ ذلك بخطّ المستنْصر بالله رحمه الله" على أنّ ما سُقناه من إيرادات إضافات وتخريجات وتأكيدات ومعاينات لابن الفرضي لم نجد لها ذكرا أ وما يضحدها في بعض كتب التحقيق التّرجمية التي رجعنا إليها-ودلّلنا على كلّ ذلك في موضعه من الهوامش- من مثل: الجذوة للحميدي (ت.٤٨٨هـ) والبغية للسيوطي (ت.٩١١هـ)،

وهما من الخالفين (وقد احتذياه في التضعيف أو التأكيد أحيانًا، مع شيء من التفصيل أحيانًا)، ما يقوم على صدقية التحرّي عن ابن الفرضي وقد اعتمد أسلوب الرواية والتواتر والمشاهدة والتحرّي ديدنا. قال: "ولَمِ أزَلْ مُهْتَمّا بهذا الفنّ، مُعْتَنيا به مُولعًا بجَمْعه والبحْث عنه، ومُسائلة الشُّيُوخ عمّا لم أعْلمْ منه حتّى اجتمع لي من ذلك (بحمد الله وعَونه) ما أمَّلْتُهُ، وتقيَّد في كتاب هذا من التَّسميَة ما أعْلَمُه يُقيّدُ في كتابٍ أُلّف في معناه في الأندلس، قبله".[٢٧]

## خَاتِمَةٌ

تُعَدّ الأندلس قبلة علماء المشرق وملتقى حملة العلم ورواته، لذا وجدت كتب التراجم سبيلها إلى رسم معالم لهذه الآصرة الثقافية بين المغرب والمشرق في أبهى صورها من حيث اهتدى أمثال الحافظ أبي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي المعروف بابن الفرضي (ت. ٤٠٣هـ) إلى تأليف عزيز فيها سماه "تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس" في جزأين من تحقيق السيد عزت العطار الحسيني في مصر في طبعة ثانية سنة ١٤٠٣هـ-١٩٨٨م. وهو كتاب يبحث في تاريخ العلماء والرواة للعلم والأدباء والشعراء وذوي النباهة من أهل الأندلس؛ هذه العدوة التي كانت منبرًا تبوأه أهل المشرق أمثال: أحمد بن الفضل بن العبّاس البهراني الدِّينَوري الخفّاف، وجُزَيّ بن عبد العزيز بن مروان بن الحَكَم بن أبي العاص، حَنَش بن عبد لله الصّنعاني، زياد بن عبد الرحمن اللَّخمي المعروف: بزياد شَبْطُون، عبيد الله بن عمر بن أحمد بن محمد بن جعفر القيسي الشافعي، فكان بذلك فاتحة لعهد كثُر فيه حلّ وترحال أهل الأندلس كذلك نحو (المغرب) ومن ثَمّ إلى المشرق أمثال: أحمد بن سعيد بن حزم بن يونس الصدفي[٢٨]: من أهل قرطبة؛ يكنّى: أبا عمر: الذي "عني بالآثار والسُّنَن وجمع الحديث. سمع[٢٩]: من عبيد الله بن يحيى بن وسعيد بن عثمان العناقيّ وسعيد بن حِمْيَر، وسَعْد بن مُعاذ، وأصبغ بن مالك، وطاهر بن عبد العزيز، ومحمّد بن أحمد بن الزرّاد، وعبد الله بن محمّد بن أبي الوليد الأعرج، ومحمد بن عُمر بن لُبَابَة، وأسلم بن عبد العزيز، وأبي عُبيدة: صاحب القبلة، وأحمد بن خالد، ومحمد بنْ حَيُّون، وعبد الله بن محمد بن حنين، وأبي محمد بكر بن العَيْن، وأبي عمر أحمد بن بشربن الأغْبَس، وابن ثوّابة، وجماعة سواهم كثير. ورحل سنة إحدى عشر مع أحمد بنت عُبادة الرعيني ومحمد بن عبد الله بن أبي عيسى. فسمع بمكّة: من أبي جعْفَر العَقيليّ، وأبي بكر بن المُنذر، وأبي جعفر محمد بن إبراهيم الدّبيلى، وأبي سعيد الأعرابي، أبي مروان عبد الملك بن بَحْر بن شَاذَان الجلَّاب المستملى وغيرهم. وبمصر: من أبي بكر محمد بن زبان بن حبيب بن عبد الله بن حبيب بن عبد الله ابن داود بن وَرْدَان الحَضْرميّ، ومحمد بن محمد البقّاح، وأبي عبيد الله محمد بن الرّبيع بن سُليمان، وأبي بكر محمد بن موسى بن عيسى بن موسى الحضْرميّ، وأبي العبّاس إسماعيل بن داود بن وَرْدان. وجماعة سواهم. وسمع بالقيروان: من أحمدَ بنَ نَصْر أبي جعفر، ومحمد بن محمد بن اللبّاد، وإسحاق بن إبراهيمَ بن النّعمان وغيرهم. ثمّ انصرَف إلى الأندلس، فصنّف تاريخًا في المحدّثين بلغ فيه الغاية، قُرئ عليه[٣٠]؛ ولم يَزَلْ يُحدّث إلى أن تُوفّي. وكانت وفاته (رحمه الله) ليلة الخميس لسبع بقين من جمادى الآخرة سنة خمسين وثلاثمائة (٣٥٠هـ). أخبرنا بذلك جماعة من أصحابنا. ومولده يومَ الجمعة لخمسٍ خَلَونَ من شهر ربيع الآخر سنة أربع وثمانين ومائتين. (٢٨٤هـ).[٣١]

وأمثال: داود بن هذيل[٣٢] بن منّان: من أهل طُليْطلة: رحلَ حاجًّا فسَمع بمكّة: من عليّ بن عبد العزيز كثيرًا، ومن محمد بن عليّ الصّائغ، وبمصر: من أحمد أبي عمر البزّاز، وأحمد بن شُعَيْب النّسائي، وعبد الله بن عبد السّلام راوية محمد بن يحيى النِّيْسابوري، ثمّ انصرف على الأندلس، ونزل طُلَيطلة فلمْ يَرْضَها، وتحوّل عنها إلى قُرطُبة فسَكن بالرّصافة. وكان لا يُحبّب إلى الأسماع إلّا قليلًا، وكان رجُلًا ثِقَةً. سَمع: منه عبد الله بن محمد بن حنين، وأحمد بن محمد بن عبد البرّ، وعبد الله بن عثمان، وإسحاق بن إبراهيم، وغيرهم. وتوفّي (رحمه الله): بقرطبة سنة خمس عشرة وثلاثمائة. (٣١٥هـ) ذكر بعض أمره وتاريخ وفاته أحمد. ودُفنَ بمقبرة فرانك.[٣٣]

أما ابن الفرَضي فقد كان نفسه مثالًا للتلاقح الفكري بين أهل المشرق والمغرب يلخّصه ما جاء في قصيدته التي قالها في رحلته إلى المشرق وكتبها بها إلى أهله:[٣٤]

مضَتْ لي شهورٌ-منذُ غِبتُمْ-ثلاثةٌ؛
وما خِلتني: أبْقَى-إذا غِبْتُمُ-شهرَا
وما لي حياةٌ-بعدكُمْ-: أسْتلِذُّها؛
ولَوكانَ هذا: لَمْ أكنْ في الهوى، حرًا
يمَثِّلُكم لي، طولُ التّنائي، هَوَاكُمُ؛
بلى: زادَنِي وَجْدًا، وجدّد لي ذِكْرى
يُمثِّلْكُمْ لي، طولُ شوقي إليكُمْ؛
يُدنيكُمُ : حتّى أناجيكُمْ سِــــــرًا
سَأسْتَعْتبُ الدّهْرَ المُفرِّقَ بيننَا
وهَلْ نَافِعي: أنْ صِرْتُ أسْتَعْتِبُ الدَّهْرَا؟
أُعَلِّلُ نَفْسي: بالمُنَى في لقائكُمْ؛

واسْتَسْهِلُ البَرَّ الذي جُبْتُ، والبَحْـرَا
ويُؤْيِسُني طَيُّ المَرَاحِلِ دُونَكُمْ:
أَرُوحُ على أرضٍ، وأغْدُوا على أخرى
وتاللّه: ما فارَقْتُكُمْ: على قِلَى لكُمْ،
ولكنّـــها الأقْدارُ: تَجْري كما تُجْرى
رَعَتْكُم من الرّحمن: عَيْنُ بَصيرَةٌ؛
ولاَ كَشَفَتْ أيْدي الرَّدى، عنْكُمُ، سِتْرَا
رحمة الله عليه.

## الهَوامِشُ:

(١) الحميدي، عبد الله: **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه والأدب وذوي النباهة والشعر**، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م. (٢٥٤/٦)

(٢) المرجع نفسه، ٢٥٥/٦.

(٣) المرجع نفسه،٢٥٥/٦.

(٤) ابن أنس، مالك: **موطأ مالك، ومعه إسعاف المُبَطَّأ برجال الموطأ لجلال الدين السيوطي**، تقديم ومراجعة وتنسيق فاروق سعد، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٤، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ص ٣٧٠.

(٥) الحميدي، **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، ٢٥٤/٦-٢٥٥.

(٦) المرجع نفسه، ٢٥٦/٦.

(٧) المرجع نفسه، ٢٥٥/٦-٢٥٦.

(٨) ذكر الحميدي أنّه "دخل الأندلس قبل الخمسين وثلاثمائة". **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، ١٤٠/٤.

(٩) ذكر الحميدي أنّه: "سمع من جعفر بن محمد الفريابي ومن أبي جعفر محمد بن جرير الطبري كتابه في التاريخ المعروف "بذيل المذيل" وكتاب "صريح السنة" له و"فضائل الجهاد" له ورسالته إلى أهل طبرستان المعروفة "…. وحدث بهذه الكتب ومن آخر من حدث عنه هنالك أبو الفضل أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن التاهرتي وأبو عمر أحمد بن الحسن قال: أخبرني غير واحد عن […] عن أبي عمر بن عبد البر. قال حدثاني بأحاديث خراش عن الدينوري عن العدوري عن خراش، وقد حدث عنه أبو القاسم خلف بن هاني الأندلسي في سنة اثنتين وأربعمائة، قال الحميدي: رأيت سماعه عليه سنة ست وأربعين ومائتين في جامع قرطبة وهو يومئذ ابن ثمان وسبعين سنة. يُنظر: المرجع نفسه، ١٤٠/٤-١٤١.

(١٠) ابن الفرضي: **تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس**، تحقيق السيد عزت العطّار الحسيني، ط٢، المؤسسة السعودية بمصر، القاهرة، مطبعة المدني، ١٣٧٣هـ-١٩٥٤م، ٧٥/١-٧٦.

(١١) هو مروان بن محمد. يُنظر: الحميدي: **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، ١٩٠/٥.

(١٢) أورد الحميدي خبرًا تفصيليًا مفاده: "وكان قد حضر الوقعة مع مروان بن محمد ليلة بوصير في ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة فسلم وهرب مع من هرب، ويُقال إن الذين حضر الوقعة وسلم هو جزي بن زبان بن عبد العزيز. قال أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى: وهذا عندي أصحّ. والله أعلم". يُنظر: المرجع نفسه، ١٩٠/٥-١٩١.

(١٣) ابن الفرضي: **تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس**، ١٢٣/١.

(١٤) قال الحميدي: هو حَنَش بن عبد الله بن عمرو بن حنظلة بن فهد وقيل: نَهْد بن قَنّان وقيل: قيان بن ثعلبة بن عبد الله بن ثامر السباي وهو الصدنعاني، يكنى أبا رِشدين. (يُنظر: الحميدي: **جذوة المقتبس**، ٢٠١/٥-٢٠٢). ومن مظاهر الاختلاف في نسبه: "وقال ابن عيسى: أخبرنا ابن وهب عن عبد الأعلى بن الحجاج عن أخيه قيس بن الحجاج عن حنش بن عبد الله أن ابن عباس قال له: إن استطعت أن تلقى الله وسيفك حليته حديد فافعل، هذا آخر كلام البخاري، فقد جعل حنش بن عبد الله حنش بن علي، وجعلهما رجلاً واحدًا، وجعل الخلف في اسم أبيه وقيل عن الذي يروى عن فضالة بن عبيد هو حنش بن علي الصنعاني من صنعاء الشام قرية بدمشق يقال لها صنعاء، وأبو الأشعث الصنعاني منها أيضًا، قال علي بن المديني، ولهذا ظن قوم أن حنش بن عبد الله من صنعاء الشام لا من صنعاء اليمن، وأن الاختلاف في اسم أبيه واسمه واحد، وقد وجدنا حنشين آخرين عن علي رضي الله عنه أحدهما: حنش بن المعتمر صاحب علي، وحنش بن ربيعة الذي صلى خلف علي صلاة الكسوف، ذكرهما على بني المديني، وقال البخاري: حنش بن المعتمر أبو المعتمر الصنعاني، وقال بعضهم: حنش بن ربيعة سمع عليًا. روى عنه سماك والحكم بن عتيبة الكوفي يتكلمون في حديثه هذا منتهى كلام البخاري، فقد جعل الاثنين اللذين ذكرهما علي بن المديني واحدًا وجعل الخلف في اسم أبيه والله أعلم". (الحميدي: **جذوة المقتبس**، ٢٠٢/٥-٢٠٣). ولم يورد ابن الفرَضي هذا الاختلاف، بل ترك أمر حسم الخلاف الذي أورد الحميدي تفاصيله، بقوله: "والأظهر في حنش الذي ابتدأنا بذكره وذكرنا الاختلاف فيه أنه ابن عبد الله، وقد ذكروه كذلك تواريخ مصر، حققوا نسبه في رواياتهم، وذكروا مشاهدة وتصرفه وانتقاله، وهم أعلم بمن ملك بلادهم، وتصرف في جهاتهم، وسكن في أعمالهم، وكان من عمالهم". يُنظر: المرجع نفسه، ٢٧٩/١.

(١٥) من صنعاء الشام قرية بدمشق يقال لها صنعاء"، وهي قرية على باب دمشق دون المزّة خَرِّبت ن وهي اليوم مزرعة وبساتين، يقال إنّ حنشًا الصّنعاني منسوب إليها. يُنظر: الحميدي: **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، ٢٠٢/٥. والحميري، محمد بن عبد المنعم: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، ط٢، مؤسسة ناصر للثقافة، ١٩٨٠م، ص ٣٦٠.

(١٦) **القرآن الكريم**، الآية ٢٧٤ من سورة البقرة.

(١٧) نزلت هذه الآية في عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. يُنظر: علي محمد الضبّاع، تنوير المقباس من تفسير ابن عبّاس، ص٣٩.

(١٨) **القرآن الكريم**، الآية (١) من سورة الشمس.

(١٩) **القرآن الكريم**، الآية (١) من سورة الليل.

(٢٠) ابن الفرضي: **تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس**، ١٤٨/١-١٥١. وقد أورد صاحب الجذوة خبرًا تفصيليًا مفاده: "ويقال: إن قبره وقبر موسى بن علي بن رباح في موضع واحد عند باب القبلة خارج المدينة قرب السور، وأن الباجي رحمه الله عند كونه بسرقسطة وقف عليهما وبمقربة منهما قبر أبي عمر بن محمد بن دراج". يُنظر: الحميدي: **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، ٢٨٠/١.

(٢١) "وهو أول من أدخل الأندلس فقه مالك بن أنس وكانوا قبل ذلك على مذهب الأوزاعي". المرجع نفسه، ٢١٨/٦.

(٢٢) ابن الفرضي: **تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس**، (١/ ١٨٢-١٨٣).

(٢٣) الأزدي. يُنظر: السيوطي، جلال الدين بن عبد الرحمن: **بغية الوعاة في طبقات اللّغويين والنحاة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت،١٢٨/٢.

(٢٤) المرجع نفسه.

(٢٥) ابن الفرضي: **تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس** (١/ ٢٩٥-٢٩٧)

(٢٦) المرجع نفسه، (١/٨-٩).

(٢٧) المرجع نفسه،٩/١.

(٢٨) (المُنْتجيلي): يُنظر: الحميدي، عبد الله، **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، ١٢٥/٤.

(٢٩) (بالأندلس). يُنظر: المرجع نفسه.

(٣٠) وألف في "تاريخ الرجال" كتابًا كبيرًا جميع فيه ما أمكنه من أقوال الناس في أهل العدالة والتجريح، سمعه منه خلف بن أحمد المعروف بابن أبي جعفر، وأحمد بن محمد الإشبيلي المعروف بابن الحرّار، قال أبو عمر بن عبيد البر: ويقال: إنه لم يكمل إلا لهما سماعه منه. يُنظر: المرجع نفسه.

(٣١) ابن الفرضي: **تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس**،٥٥/١-٥٦.

(٣٢) الهذيل. يُنظر: الحميدي، **جذوة المقتبس**، ٢١٤/٥.

(٣٣) ابن الفرضي: **تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس** (١٧١/١)، وينظر: الحميدي: **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**،٢١٤/٥.

(٣٤) الحميدي: **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، ٢٥٦/٦.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].



# المورسكيون والمجال المتوسطي والوعي بالتفاوت
## إبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكرياء الأندلسي نموذجًا



**د. محمد الغزواني**
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
دكتوراه في التاريخ الحديث
جامعة ابن طفيل – المملكة المغربية

### مُلَخّصْ

*تُعَدّ إشكالية التفاوت، التي بدأت تتضح معالمها بين أوربا والعالم الإسلامي، منذ نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، من أهم الإشكاليات التي استأثرت باهتمام كبير من قبل باحثين ومؤرخين معاصرين عرب و أجانب، لكن من يدرس مخطوط "العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بآلات الحروب والمدافع" لصاحبه إبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكرياء الأندلسي، سيدرك أن هذه الإشكالية لاقت اهتمامًا كبيرًا من قبل صاحب المخطوط السالف الذكر، وهذ ما يجعل أن الكتابات حولها بدأت في مرحلة مبكرة تعود إلى القرن السابع عشر، وهي الفترة التاريخية التي عاش فيها صاحب المخطوط. اندرج تأليف هذا المخطوط، ضمن سياق تاريخي بات فيه المجال المتوسطي يعرف مجموعة من التحولات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية، بدءًا من القرن الخامس عشر الميلادي وحتى متم نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، فخلال هذه المدة الزمنية، اكتملت ملامح تلك التحولات. وفي غمرة هذه الأخيرة، جاء تصنيف المخطوط، في محاولة من صاحبه التحسيس ولفت الانتباه، إلى ما يجري في الضفة الأوربية من تطور وتقدم، وكل ذلك ارتبط في نظره بتزايد اهتمام الأوربيين بالبحر والملاحة والسلاح، والأخذ بكل ما من شأنه أن يساهم في جعل أوربا تفرض إيقاعها على باقي العوالم الأخرى وخاصة العالم الإسلامي. فمقاربته لهذا الموضوع ولو بشكل غير مباشر يؤكد أنه كان على وعي تام بهذا التحول الذي تسير عليه أوربا، والذي أصبحت توظفه من أجل الهيمنة على الآخرين المخالفين لها من حيث العقيدة. وحتى يحسب له وعيه المبكر بإشكالية التفاوت، التي أخذت تطبع المجال المتوسطي منذ القرن الخامس عشر، نبعت فكرة كتابة هذا المقال، إيمانا منا بأن الشخصية التاريخية، ستظل المحرك والمنتج الأساسين لصناعة التاريخ، ونظرًا لأهمية إشكالية التفاوت التي باتت معالمها اليوم بارزة للعيان، حاولنا من خلال هذا المقال الوقوف على مظاهرها من داخل مخطوط "العز والرفعة والمنافع" مسلحين بمنهج علمي رصين يروم رصد وتحليل الأسباب الحقيقية التي جاءت في المخطوط.*

**بيانات الدراسة:**
تاريخ استلام البحث: ٠٢ يوليو ٢٠١٨
تاريخ قبول النشر: ٠٨ أكتوبر ٢٠١٨

**كلمات مفتاحية:**
المورسكيون، الجهاد البحري، المجال المتوسطي، ابن غانم الأندلسي

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0054798

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**
محمد الغزواني. "المورسكيون والمجال المتوسطي والوعي بالتفاوت: إبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكرياء الأندلسي نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الثاني والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٨. ص ٦٣ – ٧١.

### مُقَدِّمَةُ

شكل المجال المتوسطي على مدى قرون، مجالاً جغرافيًا خصبًا لعدد من المؤرخين والباحثين، نظرًا لطبيعة الأحداث والوقائع التي احتضنها، وعظمة الحضارات التي استوطنها سواء في ضفته الشمالية حيث أوربا المسيحية، أو في ضفته الجنوبية حيث الأمة العربية المسلمة. وسيظل بحكم موقعه الاستراتيجي المتميز الذي استلهم حضارات العالم منذ القديم ذاكرة تاريخية عذراء، فكل باحث أراد أن يعيد قراءة أحداثه التاريخية إلا ووجد فيه ما يستحق الدراسة والتحليل. فالمخطوطات التي كتبت حول المجال المتوسطي سواء التي تم الكشف عنها أو تلك التي لازالت حبيسة الرفوف،

تُعَدّ حاملاً معرفيًا مهما يتيح لكل باحث إمكانية الكشف عن عدة حقائق تاريخية، ما أحوجنا إليها اليوم لربط الماضي بالحاضر من جهة، وتجديد المعرفة التاريخية من جهة أخرى.

لم يعد علم التاريخ يهتم فقط بدراسة الماضي الإنساني، وكل ما يتصل به من أحداث وتحولات، وإنما بدأ يتجه في العقود الأخيرة إلى دراسة من هو مسؤول عن صناعة تلك الأحداث والوقائع والتحولات، فهذه الأخيرة لا يمكن أن تصبح ضمن دائرة التاريخ إلا من خلال "الشخصية التاريخية"، على اعتبار أن التاريخ بمختلف تفاصيله لا يمكن فصله عن الإنسان من جهة، ولا يمكن دراسته بمعزل عن "الشخصية التاريخية". ومن هذا المنطلق تكون الأحداث والوقائع التاريخية من جهة والشخصية من جهة ثانية عنصرين أساسيين ومتلازمين في المعرفة التاريخية وكل ما يتصل بها، كما أن فصل أحدهما عن الآخر مسألة صعبة في الكتابة التاريخية. ونظرًا لأهمية "الشخصية" ودورها في إنتاج الأحداث التاريخية وتطورها عبر الزمن، ارتأينا أن نقدم دراسة تاريخية لشخصية موريسكية معروفة عند البعض وغير معروفة عند البعض الآخر، فالكتابات التاريخية التي اهتمت بهذه الشخصية الموريسكية تبقى محدودة جدًا على الرغم من قيمتها التاريخية كشخصية موريسكية وازنة، ونظرًا لشح هذه الكتابات، قررنا أن نضيف ما يغني الذاكرة التاريخية، المتعلقة بهذه الشخصية. فالدراسات التي تحدثت عنها، سواء في المعاجم وكتب التراجم والسير والأعلام لم تقدم ما يفي بالغرض. ونظرًا لهذا الشح المعرفي الحاصل في الكتابات التاريخية حول هذه الشخصية الموريسكية نبعت فكرة البحث في كل ما يتصل بها، وتقديم إضافة في الموضوع.

الإضافة التي نسعى إلى تقديمها جزء وافر منها توفر لنا من خلال دراستنا وتحقيقنا لمخطوط "العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بآلات الحروب والمدافع"[1]، وبفضل ذلك وقفنا على معطيات تاريخية مهمة، فحرصنا أن نفصح عنها للقارئ بما يخدم التعريف بهذه الشخصية الموريسكية من الناحية التاريخية. فشخصية إبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكرياء الأندلسي، تُعَدّ من الشخصيات الموريسكية الوازنة في زمانها، لكنها لم تنل النصيب الأوفر الذي تستحقه خاصةً في مجال الكتابة التاريخية. ولكوننا راكمنا معرفة تاريخية جد متواضعة حول هذه الشخصية التاريخية، من خلال دراستنا للمخطوط السالف الذكر والذي يمثل قيمة علمية عالية ومصدر تاريخي مهم لا يمكن أن يتجاوزه كل باحث وهو يشتغل على كل ما يتصل بالسلاح الناري ومراحل تطوره، نبعت فكرة استثمار تلك المعلومات التاريخية التي كشفنا عنها، آملين أن يجد الطالب والقارئ والباحث ما يغني الذاكرة من معلومات تاريخية حول هذه الشخصية الموريسكية. فمَنْ هي هذه الشخصية الموصوفة بالموريسكية؟ وما البيئة التاريخية التي عاشت فيها؟ وما هي الظروف التي ساهمت في هجرتها من إسبانيا إلى منطقة الشمال الإفريقي؟ ولماذا استقرت بتونس حيث اختمرت لها فكرة تأليف أهم مخطوط حول السلاح الناري؟ وما طبيعة التحولات التي عاصرتها والتي بات يعرفها المجال المتوسطي منذ القرن الخامس عشر الميلادي؟ وكيف نظرت إلى تلك التحولات التاريخية التي أخذت تتبلور في هذا المجال المتوسطي؟ هذه الأسئلة وغيرها من الأسئلة المتفرعة عنها، سنحاول الإجابة عليها، والهدف في النهاية يبقى رسم الصورة التاريخية لهذه الشخصية الموريسكية.

## أولاً: إبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكرياء: أصله، حياته، هجرته وانخراطه في حركة الجهاد البحري وتكوينه العسكري

**١/١-أصله:**

هو إبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكرياء الأندلسي الذي عرف في بعض المراجع التاريخية بلقب "الرياش"، وهذا اللقب وبعد البحث فيه تبين أنه ما هو إلا تحريف لكلمة "رايس" وهي كلمة عربية تطلق على ربابنة السفن البحرية عند العرب. ومن الأشياء الأخرى التي وردت مغلوطة حول اسمه الحقيقي في بعض المراجع التاريخية، تلك الإشارة التي وردت عند "الزركلي"[2] الذي وصفه بكونه "إبراهيم المعجام الرياش". وهذا الاسم وبعد التدقيق فيه وقياس درجة صحته تبين لنا في النهاية أنه هو الآخر غير صحيح وإنما اسمه الحقيقي هو "إبراهيم غانم الشهير بالرياش بن أحمد غانم الأندلسي"[3]، وبناءً على ما تقدم فإن "المعجام" ليس اسمه، وإنما هي "صفة" كأن نقول إن فلان يدعى باللغة الأعجمية أو العجمية كذا وكذا، و "الرياش" ليس إسمه ولكن تعني "ريس البحر"، وبالتالي الصفتين معًا ليس لهما أي علاقة بإسمه الصحيح.

**٢/١-حياته:**

ازداد إبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكرياء الأندلسي بقرية "نولش"[4] الواقعة بالقرب من إقليم غرناطة، وذلك خلال الربع الأخير من القرن السادس عشر بحسب التقدير التاريخي، إذ ليس هناك تاريخ مضبوط لولادته

ومعظم المراجع والمصادر التاريخية التي تحدثت عنه لم تورد تاريخ ميلاده. لذلك وبحسب المؤشرات التي أوردها في كتابه "العز والرفعة" فإن فترة ولادته تلتقي ببداية عمل "محاكم التفتيش" الإسبانية التي اكتشفت أن القسم الأكبر من الأندلسيين الذين فضلوا المكوث في غرناطة وأحوازها، قد حافظوا على دينهم وجل مقدساتهم الإسلامية، وما يتصل بها من طبائع وأعراف وتقاليد إسلامية أخرى، على الرغم من تظاهرهم بالاندماج وقبولهم مبدأ التنصير. وبذلك تكون المرأة الأندلسية قد لعبت دورًا كبيرًا في الحفاظ على الهوية العربية الإسلامية كما أشارت إلى ذلك الباحثة الإسبانية كارسيا أرينال[5].

وأمام هذا الواقع لم يكن أمام "محاكم التفتيش" من حل سوى إعدام الكثير من الأندلسيين بعدما شكت في ولائهم الديني للإسلام، كما أجبرت الكثير منهم على الهجرة إلى خارج حدود غرناطة. وفي هذا السياق لجأت عائلة ابن غانم الأندلسي إلى مدينة إشبيلية. وللإشارة فإن ابن غانم الأندلسي تظاهر كبقية الموريسكيين بالتنصير، وهذا راجع إلى البيئة الثقافية التي نشأ فيها وتعلمه للغة الإسبانية (القشتالية) التي شكلت وسيلة أساسية ستمكنه من إخفاء ولائه للإسلام من جهة، كما ستساعده كذلك في تعلم كل ما يتصل بفنون الصناعة البحرية من جهة أخرى.

**٣/١-تكوينه العسكري:**

اشتغل ابن غانم الأندلسي طيلة حياته بصناعة المدافع التي أتقنها وأبدع فيها، فأتاحت له فرصة ركوب البحر في الكثير من السفن الكبيرة خاصة تلك التي كانت تتجه إلى "العالم الجديد" والتي سماها ابن غانم الأندلسي في كتابه هذا بـ "الهنود المغربية البعيدة". وأثناء مغامراته مع البحر وتنقله الدائم بين الموانئ الأندلسية والأمريكية لم يكتف فقط بتعلم العلوم البحرية، وإنما تعلم أيضًا العلوم الحربية، وذلك من خلال مجالساته المتكررة لربابنة البحر الإسبان، وملاحظاته لمختلف أنواع التداريب المتعلقة بفن المدفعية وكل ما يتصل بأمور البحر.

يظهر من خلال قراءة "العز والرفعة" أن شخصية المؤلف المهنية مرت بمرحلتين أساسيتين: الأولى مرحلة الأخذ والتعلم على الأقل في مجال فن صناعة المدافع وكل ما يتصل بها من فروع عسكرية أخرى خاصةً صناعة البارود. وأهم ما ميز هذه المرحلة، التعلم عن طريق الاستماع والملاحظة والتجريب، وحسبنا في ذلك ما أورده في كتابه السالف الذكر حين قال: "وكانوا يجتمعون مع أكابر القوم للكلام في تلك الصناعة، وتارة يأتون بالكتب المؤلفة في ذلك الفن وهي كثيرة، لأن العارفين بالعلم المباشرين للعمل وغيرهم لما رأوا أن ملوكهم يعظمون أهل ذلك الفن ومن يؤلف فيه فتنوا به، وكنت أجالسهم وأحفظ بعض ما يتفقون عليه وأشتغل بيدي في المدافع". [6] أما المرحلة الثانية فتتمثل مميزاتها الأساسية في إشرافه المباشر على استعمال الآلات الحربية بعد هجرته إلى تونس، وخلال هذه المرحلة اختمرت لديه الكثير من الأشياء المرتبطة بصناعة المدافع.

إن المرحلتين السالفتان الذكر ساهمتا في بلورة شخصيته المهنية ذات التكوين العسكري، حيث انتقل من صفة الشخص المتعلم لفن هذه الصناعة الحربية إلى صفة القائد العارف بأسرارها وكل ما يتصل بها لينتهي به المطاف في الأخير إلى التأليف فيها والتنظير في أدق تفاصيلها، بعدما برزت شخصيته العلمية بشكل كبير. لم يسجل ابن غانم الأندلسي في كتابه مسار تعلمه وعلى يد من درس وتتلمذ، فرغم بعض الإشارات التي ساقها المؤلف بخصوص طريقة تكوينه خاصةً في المجال العسكري البحري إلا أنها تظل غامضة ومبهمة. فالمؤلف لم يذكر كيف تعلم، وبأي طريقة اكتسب خبرته العسكرية، كما أنه لم يشر إلى أي أحد كان له الفضل في تعلمه، الأمر الذي يدفعنا منذ البداية إلى ترجيح فرضيتين: الأولى أنه أتقن صناعة المدافع بالتجربة والملاحظة باعتبار أنه اشتغل في هذه الصناعة إلى جانب الإسبان كموريسكي متخفي.

أما الفرضية الثانية مفادها أن المؤلف تتلمذ ربما على يد بعض العلماء النصارى لكن دون أن يذكر أي اسم لهؤلاء وحجتنا في ذلك أنه عاين مجالس التعليم وربما كان تلميذا في تلك المجالس، وهذه الفرضية يثبتها قوله التالي: "إذا أراد أحد أن يكون من جملة التلاميذ فيلتمس فيه صحيح البدن، ذو قوة، ليس بضعيف ولا رهيف ولا أشل ولا أعور ولا أصم ولا سكران (مدمن خمر)، ويأتي ببينة أنه نصراني قديم في الأصل..." [7] فهل كان ابن غانم فعلا تلميذا داخل مجلس الربابنة الإسبان؟ أم أن مواصفات هذا التعليم العسكري وصلت إليه كخبر أي كرواية شفهية فقط؟ فبالعودة إلى النص، لا نجد أي إشارات تثبت هذه الفرضية لكن دائمًا يعترف أنه أخذ الكثير من أمور هذه الصناعة عن طريق الملاحظة والتجريب، وهذا ما استنتجناه عندما قال في معرض حديث آخر: "وكنت أجالسهم وأحفظ بعض ما يتفقون عليه وأشتغل بيدي في المدافع وجميعهم لا يظنون في إنني أندلسي". [8]

شكلت فترة التخفي العقائدي وإظهار التنصير أهم فترة تاريخية ميزت حياة ابن غانم الأندلسي، فهذه الفترة التي عاش فيها متخفيا مضمرا هويته الأندلسية ذات الجذور الإسلامية لم تكن بالطويلة، إذ سرعان ما تم اكتشاف تستره العقائدي الذي كان سبب دخوله السجن إلى أن خرج منه بسبب شخص وصفه بكونه "واحدًا من أكابر الإسبان" الذين كانوا من رفاقه في السفر بحرًا، والذي وقف إلى جانبه، بل وتوسط له حتى تم إطلاق سراحه. لكنه تعرض بعد ذلك لمضايقات جعلت حياته صعبة فحاول الحصول على إذن بالهجرة إلى الضفة الجنوبية من البحر الأبيض المتوسط، لكنه إذن قوبل بالرفض من قبل السلطات الإسبانية[9]، الأمر الذي اضطره إلى دفع رشوة حتى حصل على غايته. ويرجح أن تلك الهجرة تمت حوالي سنة (١٠١٨هـ/ ١٦٠٩م)، وهي هجرة تزامنت مع فترة طرد الموريسكيين من الأندلس.

**٤/١-هجرته وانخراطه في حركة الجهاد البحري:**

هاجر ابن غانم الأندلسي مع مجموعة من بني قومه إلى تونس، وذلك في عهد الداي عثمان وجدنا في ذلك ما نقله لنا في هذا الكتاب بقوله: "فخرجت من تلك البلاد إلى بلاد المسلمين مع جملة الأندلس، وكانوا منعوني من ذلك فعملت بنية بأنني من الأندلس لنخرج معهم، ولم ينفعني شيئ من ذلك. ثم أنفقت دراهم في الرشوات، وخرجت من بينهم وجئت إلى مدينة تونس حرسها الله فوجدت فيها كثيرا من الأصحاب والأحباب من الأندلس. وأقبل علي أمير المدينة عثمان داي رحمه الله تعالى وقدمني على مائتي رجل من الأندلس وأعطاني خمسمائة سلطانية (دينارًا) ومائتي مكحلة ومائتي سكينا وغير ذلك ممن يحتاج إليه في سفر البحر".[10]

إن الشهادة التي قدمها لنا في هذه السطور تحمل تركة تاريخية مليئة بالأحداث، كما أنها تستحق إعادة قراءتها بمنطق البحث والتحليل التاريخيين، لإحياء عدة قضايا لم يصرح بها جهرا، لكن دلالاتها التاريخية تقتضي الوقوف عندها نظرا لأهميتها التاريخية. فإذا عدنا فقط إلى هذه الشهادة وتلك التي سبق التذكير بها من قبل، فإننا نستنتج أن المؤلف رغم اكتشاف تستره العقائدي لم يتخذ ضده أي إجراء من تلك الإجراءات التي كانت "محاكم التفتيش" تنزلها بمن كانت تعتقد أنه لازال على علاقة بثقافته العربية الإسلامية. المعاملة السيئة التي اعتادت عليها "محاكم التفتيش" لم تستعملها في حق ابن غانم الأندلسي، بل أكثر من ذلك لم يسمح له حتى بالهجرة خارج إسبانيا رغم مطالبته بذلك. فلماذا تعاملت السلطات الإسبانية معه بهذا الشكل؟

يستنتج مما سبق أن شخصية ابن غانم الأندلسي كان لها من التكوين العسكري وخاصةً في مجال البحرية، ما جعلها قادرة على نقل تلك المعرفة العسكرية، التي شكلت منذ القرن الخامس عشر الميلادي إحدى أهم مقومات التفاوت، بين الضفة الشمالية والجنبية للمجال المتوسطي. وبحكم أن الإسبان كانوا يدركون مدى معرفة وإتقان شخصية ابن غانم لفنون هذه الصناعة، ربما من هنا نبعت فكرة عدم القبول بهجرته نحو البلاد العربية الإسلامية، لأنهم اعتبروا السماح له بالهجرة، يعني نقل تلك المعرفة العسكرية وتصديرها نحو البلدان العربية والإسلامية.

لقد تمكن ابن غانم الأندلسي من الهجرة نحو شمال إفريقيا وتحديدًا نحو تونس التي اعتبرت الوجهة المفضلة للموريسكيين والأندلسيين عمومًا. ومنذ وصوله إلى تونس تزعم "حركة الجهاد البحري" بأمر من داي تونس، حيث خاض مجموعة من المعارك ضد الإسبان في عرض البحر الأبيض المتوسط، وتحديدا قبالة السواحل التونسية. وحول هذه المعارك يخبرنا ابن غانم الأندلسي عن إحداها وقعت في عهد الداي عثمان والتي كاد أن يشرف فيها على الهلاك.[11] كما خاض الرجل كذلك معارك بحرية ضد النصارى أبرزها تلك التي يصفها بقوله: "وبعد أن بريت ركبنا البحر وسافرنا فيه في طلب الكفار وأموالهم. ونحن بقرب مدينة مالقة وهي على حاشية البحر الصغير تلقينا غرابًا، وذلك في نصف شهر غشت والبحر ساكن ولا شيء من الرياح، ووقع الحرب الشديد ومات من الجانبين خلق كثير ودام الطراد الكبير حتى لم يبق منا إلا القليل.."[12] وبانتهاء المعركة اعتقل ابن غانم من قبل الإسبان وسجن لمدة سبع سنوات، وبعد ذلك خرج من السجن بصفقة تمت بين الداي يوسف وحاكم غرناطة كان موضوعها تبادل الأسرى بين الجانبين. ونتيجة ذلك عاد إلى تونس وحط رحاله بمرفأ حلق الواد[13] حيث عين رئيسا على شؤون المدفعية، وفيه ألف كتابه "العز والرفعة"[14]، وبهذا التأليف يكون ابن غانم الأندلسي قد كان سباقًا للكتابة في مجال الصناعة الحربية بمنطقة شمال إفريقيا، وبتونس بقي مشرفًا على كل ما يتعلق بمجال البحر وسلاحه إلى أن بعد سنة ١٠٤٨هـ بقليل. فما الظرفية التاريخية التي عاصرها ابن غانم الأندلسي؟

## ثانيًا: عصر المؤلف والإحساس بالتفاوت

### ١/٢-عصر المؤلف:

عاصر المؤلف فترة تاريخية أصبح فيها المجال المتوسطي يعرف تحولات مهمة، فهو ولد حوالي الربع الأخير من القرن السادس عشر الميلادي، وهذه الحقبة الزمنية تميزت بأحداث تاريخية غيرت المعالم التاريخية لهذا المجال المتوسطي. إن فهم هذه الحقبة التاريخية وانعكاساتها على ضفتي البحر الأبيض المتوسط لا يمكن أن يتأتى إلا من خلال فهم السياق العام الذي أنتج هذه التحولات التاريخية التي عاصرها المؤلف والتي أصبح المجال المتوسطي مسرحًا لها. وهكذا شكل حدث خروج المورسكيين من إسبانيا الحلقة الأهم في تلك التحولات التاريخية التي ارتبطت بالبحر الأبيض المتوسط منذ بداية القرن الخامس عشر الميلادي. فحدث طرد المورسكيين مؤشر تاريخي يعبر عن هذا التحول التاريخي، فالكتابات[15] التي عاصرت حدث الطرد بررته محاولة بذلك إثبات حقيقة متعلقة بأحقية قرار الطرد، بل أكثر من ذلك نظرت إليه بكونه حدث لا يتعارض أبدًا مع القيم الإنسانية والأخلاقية. معطى تاريخي آخر لا يمكن فصله عن جملة المتغيرات التاريخية التي عرفها هذا المجال المتوسطي يتمثل في وصول فليب الثاني إلى الحكم في إسبانيا (١٥٥٦-١٥٩٨م)، وسيطرة العثمانيين على أجزاء واسعة من البحر الأبيض المتوسط.

فوجود العثمانيين في كل من إفريقيا وأوربا إبان مرحلة التوسع العثماني الذي وصل ذروته خلال القرن السادس عشر الميلادي، جعل منهم قوة تحاصر المجال المتوسطي وتتحكم فيه خاصة من الناحية الإقتصادية، وبالتالي أصبح العنصر المورسكي الذي تعاطف معه العثمانيون في نظر الإسبان يشكل الخطر الاستراتيجي القادم. ومن أجل استباق هذا الخطر جاء قرار ١٥٦٧م الذي نص على منع المورسكيين من استعمال لباسهم ولغتهم. فمثل هذا القرار سببًا أساسيًا في حرب غرناطة (١٥٦٨م-١٥٧١م). فشكل انهزام المورسكيين في كل مواجهاتهم مع الجيش الإسباني، وما تلاه من ملاحقات في حقهم من قبل "محاكم التفتيش" تحولًا آخر في البحر الأبيض المتوسط. فكيف تعامل المورسكيون مع جملة هذه التحولات وهذا الواقع المتوسطي الذي وجدوا أنفسهم محاصرين فيه. إشكالية سننطلق منها لإثبات بعض الحقائق التاريخية حول أشكال النضال التاريخي في الفكر العسكري المورسكي من جهة، وكيف استطاع البعض منهم أن يحمل لهذه الأمة مشروعًا عسكريًا كان الأخذ به وفهمه وتوظيفه في سياق تلك التحولات التي بات يشهدها المجال المتوسطي، سيغير مجموعة من تلك الحقائق التاريخية التي أصبحت تعرفها ضفتا البحر الأبيض المتوسط منذ القرن الخامس عشر الميلادي.

فتراجع الدور التاريخي للدولة الإسلامية أصبح واضحا مع عصر ملوك الطوائف، بعدما انقسمت هذه الدولة إلى إمارات وأصبحت تقاتل بعضها بعضا[16] الأمر الذي نتج عنه ضعف الوجود الإسلامي ليس كعقيدة بل كمجتمع بجزيرة الأندلس. فإذا كان عصر ملوك الطوائف مثل وبلا منازع بداية النهاية لحضارة أهل الأندلس كما يحلوا للبعض تسميتها، فإن سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م جسد نهاية الوجود لدولة المسلمين بالأندلس. لكن رغم هذه الحقيقة التاريخية، استمر الوجود الإسلامي داخل بلاد الأندلس من قبل طائفة من العلماء المورسكيين التي حاولت بما تمتلك من قوة وأصالة أن تعلن نضالها ضد من اعتقدت أنه شرد أهلها ومزق ثقافتها وحضارتها في أكثر من مناسبة[17].

أعلن المورسكيون نضالهم الأول نصرة لقضيتهم مباشرة بعد سقوط آخر معاقلهم الإسلامية بغرناطة سنة ١٤٩٢م، وكان ذلك واضحا من خلال عدم قبولهم لفكرة الاندماج والذوبان في المجتمع الإسباني. وجاء نضالهم الثاني عام ١٥٦٨م، والثالث مع خروجهم الأخير سنة ١٦٠٩م[18]. ومن بقي بالأندلس واجه هذا الواقع رغم ضعف الإمكانيات لكن بثقة معنوية كبيرة، وفي غياب أي مساعدة حقيقية بحكم التحولات والمتغيرات السياسية التي كان يشهدها المجال المتوسطي آنذاك، فظلوا يواجهون واقعهم بكل السبل المتاحة، فتعايشوا مع هذا الواقع بإظهار التنصير دون أن ينسوا العقيدة أو يتنكروا للتراث العربي الإسلامي. وشكل تشبث هذه الطائفة الأندلسية -الموصوفة ظلما بالمورسكية- بدينها وثقافتها رغم ما تعرضت له. وهكذا شكل هذا الصمود وهذا الثبات الحلقة الأساسية في النضال المورسكي ضد الإسبان الذين راهنوا على فكرة اندماج المورسكيين في الحضارة الإسبانية كشكل من أشكال التصفية العرقية والحضارية لهذه الطائفة.

وإلى جانب من بقي بالأندلس في ظل هذا الواقع الجديد، هناك طائفة أخرى اختارت الهجرة لتبدأ فصولًا أخرى من المعاناة، إذ تعرض هؤلاء وهم في طريق الهجرة للسرقة والنهب في البر والبحر، ومع وصولهم إلى منطقة شمال إفريقيا التي ظلت الوجهة المفضلة لكثير منهم بحكم عامل القرب الجغرافي والإحساس بالانتماء العروبي والإسلامي

لهذه الضفة المتوسطية، إضافة إلى عوامل أخرى تتعلق بالوجود العثماني بهذه المنطقة وتعاطفه الكبير مع القضية الموريسكية. وبمجرد وصولهم اختاروا طواعية الانخراط في الجهاد البحري للتعبير عن استمرار دورهم التاريخي في هذا المجال المتوسطي، وهو أسلوب كذلك رأى فيه كثير وسيلة من وسائل الانتقام من الإسبان الذين أخرجوهم من ديارهم ونكلوا بهم على يد محاكم التفتيش[19]. وحول هذا الجانب يحدثنا المؤلف بقوله: "... وجئت إلى مدينة تونس حرسها الله فوجدت فيها كثيرًا من الأصحاب والأحباب من الأندلس. وأقبل علي أمير المدينة عثمان داي رحمه الله تعالى وقدمني على مائتي رجل من الأندلس وأعطاني خمسمائة سلطانية ومائتي مكحلة ومائتي سكينا وغير ذلك ممن يحتاج إليه في سفر البحر..." [20].

**٢/٢-الوعي بالتفاوت وسبل تداركه:**

تبنى الموريسكيون الجهاد البحري في سياق الصراع العسكري والبحري ضد الأوربيين في البحر الأبيض المتوسطي. وفي سياق هذه التحولات جاء تصنيف كتاب "العز والرفعة"، فالكتاب عندما نضعه في السياق التاريخي العام الذي كان يميز حوض البحر الأبيض المتوسط، نشعر بأن المؤلف يحاول أن يقدم بعض المظاهر المرتبطة بإشكالية التفاوت التي أخذت تميز الضفة الشمالية مقارنة مع الضفة الجنوبية. فالكتاب بقيمته العلمية يمثل مشروعًا نهضويًا جاء ليتدارك بداية تجاوز أوربا للأمة العربية الإسلامية، ومن جهة أخرى جاء تعبيرًا عن الصمود التاريخي الذي خاضه المؤلف ضد أوربا المسيحية بشكل عام وإسبانيا المسؤولة عن مأساة مسلمي الأندلس بشكل خاص. فدواعي تصنيفه لم تكن بهدف التأليف، بقدر ما كانت نتيجة حتمية لوعي هذا الرجل الأندلسي بحجم التحولات التي بدأ يعرفها الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط، والتي أخذت تفرز تناقضات جوهرية بين ضفتيه الجنوبية والشمالية، وهي تحولات ليست في صالح الأمة العربية والإسلامية. وحول هذا التحول التاريخي الذي بدأت معالمه تتضح مع أواخر القرن السادس عشر يحدثنا الباحث الفرنسي "جاك بيرك" فيقول: "إن منطقة شمال إفريقيا وتحديدًا المغرب حتى القرن السادس عشر لم يكن مجالًا متوسطيًا بعيدًا كل البعد عن السيرورة الحضارية العامة التي هيمنت على بلدان شمال البحر الأبيض المتوسط، إلا أنه ابتداءً من القرن نفسه بدأت الهوة الحضارية بين الضفتين تتسع وتتعمق فبات تقدم أوربا شرطًا مرافقًا لتأخر المغرب بل وتأخر كل البلدان العربية".[21]

هذه الهوة التي بدأت تتسع لصالح الضفة الشمالية من البحر المتوسط، كان لها ما يبررها من الناحية التاريخية، فالتحولات التي عرفها المجال المتوسطي، والتي لم تكن في صالح الأمة العربية بشكل عام والعنصر الموريسكي بشكل خاص، حدثت بسبب التحول السياسي الذي حصل في أوربا وخاصة ذاك الذي أنتج مفهوم " الدولة القومية État-Nation"، وهذا ما أكده فرنان برودل حيث قال: "تتلخص مأساة البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر في نمو الكيانات السياسية العملاقة... لكن بعد مرور هذا القرن السادس عشر تخلت الظروف السياسية عن هذه الأجسام الضخمة لصالح الدولة الوطنية الحديثة"[22].

نعتقد أن المؤلف كان واعيًا قبل أن يؤلف هذا الكتاب، بأن الضفة الشمالية من البحر الأبيض المتوسط وتحديدا إسبانيا، تحاول الانفراد بالمبادرة من أجل فرض إيقاعها على الضفة الجنوبية من البحر الأبيض المتوسط. لذلك ألف هذا الكتاب في محاولة منه، على الأقل التأسيس لمرحلة جديدة قد تعيد التوازن بين ضفتي المتوسط، بعدما اتسعت الهوة لصالح الضفة الشمالية من هذا المجال المتوسطي، وأصبحت أوربا تستحوذ على المبادرة، في حين أصبح العالم الإسلامي يدخل مرحلة الانكماش والتراجع.

انطلاقا من هذا الوعي التاريخي، حاول المؤلف أن يستبق رياح هذا التجاوز، ويضع هذا التصنيف الذي اعتبر أهم تأليف عربي إسلامي في مجال كان حكرا على طائفة من أهل أوربا قبل فترة القرن السادس عشر[23]. كما حاول المؤلف من خلال مضامين هذا الكتاب، أن يطلق صيحة تاريخية نحو الأمة الإسلامية يدعوها إلى الفطنة واليقظة، وكذلك إلى اكتساب مبادئ المعرفة العسكرية وإعداد السلاح إذا هي أرادت مواجهة أوربا الآخذة في الصعود والتطور. كما كان واعيًا كذلك بحجم التأخر الذي كانت تعرفه مجموعة من الأقطار العربية خاصة على مستوى إدارة المجال العسكري، وحول هذا الجانب يقول: "ولما رأيت الطائفة المسماة بالمدافعيين المرتبين لا معرفة لهم بالعمل (يستخدمون المدافع بجهل)، وأنهم لا يعمرون ولا يرمون بما يقتضيه العمل عزمت على تصنيف هذا الكتاب لأن كل مدفع له قيمة ومال وتعب في إيجاده (أي في صناعته)"[24].

فإدراكه لمظاهر التجاوز التي كانت تميز الضفة الشمالية مقارنة بالضفة الجنوبية، والتي لم تكن في صالح الأمة العربية والإسلامية. وانطلاقًا من الصورة التي كونها ابن غانم الأندلسي عن الضفة الشمالية من البحر الأبض

المتوسط، وبحسب المصلحة قرر تصنيف هذا الكتاب الذي أراده أن يكون مشروع يقظة ونهضة في الفكر العسكري العربي الإسلامي، بحسب ما يفهم من سياق كلامه: " ولا قصدت به نفعاً دنياوياً، بل الإخلاص لله تعالى بترجمته، لنكتب منه نسخًا ونبعثها إن شاء الله لبعض المواضع في بلاد المسلمين، ونذكر فيه ما يحصل النفع من وجوه، وللمدافعين القائمين بما يوجب عليهم من الحقوق فيما تصدَروا إليه وتكلفوا به من خدمة أمراء المسلمين، ويحصل لهم الأجر عند الله سبحانه بتفريج المسلمين بإتقان أعمالهم وتخويف أعدائهم الكافرين"[25].

مكننا قراءتنا المتكررة لهذا المخطوط، الكشف عن مجموعة من القضايا التاريخية المرتبطة تحديدا بالمجال المتوسطي، وتمثل إشكالية "التفاوت" أهم قضية عبر عنها المؤلف، فالتعبير عنها بحمولتها التاريخية مسألة من الصعب إثباتها، لكن الإشارات حولها متعددة سواء بوعي من المؤلف أو بغير وعيه منه. فرغم انتمائه الثقافي إلى الحضارة العربية الإسلامية إلا أنه أشار في أكثر من مناسبة وبإعجاب كبير بما كان يحصل في الضفة الشمالية من البحر الأبيض المتوسط ليس كمجال جغرافي آخذ في التطور، وإنما كحضارة إنسانية همها الوحيد والأساسي هو التطور والتقدم، وحول هذه الجوانب يحدثنا قائلاً: "وقد رأيت بين النصارى حسن التدبير والاعتناء بكل ما يحتاج إليه من الأمور في شأن المدفع" [26]، ويزيد على ذلك ويقول: "واطلعت عليهم وتحققت أن لهم تدبيرًا حسنًا وترتيبًا عظيمًا لآلات الحرب البارودية" [27]. وبقدر ما أعجب بكثير من الأمور الموجودة في الحضارة الأوربية بحكم الإقامة الطويلة وسط الإسبان سواء كمواطن في بادئ الأمر أو كموريسكي متخفي من محاكم التفتيش، بقدرما وقف الرجل على مجموعة من مظاهر التأخر عندما رحل عن جزيرة الأندلس نحو الضفة الجنوبية من البحر الأبيض المتوسط، وقد عبر عن ذلك بقوله: "ولما رأيت المسماة بالمدافعيين المرتبين لا معرفة لهم بالعمل... ولا يرمون بما يقتضيه العمل...عزمت على تصنيف هذا الكتاب"[28].

شكلت هذه الشهادة التاريخية بالنسبة إلينا إشارة قوية استخلصها المؤلف من خلال مقارنته لأوضاع الجيوش الأوربية والجيوش العربية الإسلامية، خاصةً على مستوى الخبرة والكفاءة العسكرية. ويبدو أن تلك المقارنة أوصلته إلى مجموعة من الاستنتاجات التي نتفق معه فيها ولعل أهمها تدني الخبرة الحربية وكل ما يتصل بها، إضافة إلى جهل الجنود (المدافعيين) العرب والمسلمين بفنون المدفعية وأسلحة البارود. وتلك الاستنتاجات وغيرها تبدو واضحة من خلال قوله: "ثم يوكل على تسخيره والرمي به من يكسره ويفنيه في الرمية الأولى أو في الثانية "[29]. ورغم أن الكتاب كتب بهدف التعريف بصناعة الآلات الحربية، التي مثلت بالنسبة للمؤلف وحسب قوله "أشرف الصنائع وأحسنها والتي يحتاج لها في أمور السياسة"[30] إلا أنه كان واعيا بمسألة التفاوت الموجودة بين ضفتي المتوسط، وما تأليفه لهذا الكتاب إلا لكي تدرك الطبقة الحاكمة في الأمة العربية والإسلامية هذا التفاوت الذي أخذت معالمه السياسية والعسكرية وحتى الحضارية تظهر للكل، آملاً أن تأخذ المجتمعات العربية والإسلامية بمبادئ التقدم والتطور انطلاقًا من المعرفة الحربية التي ركز عليها من خلال هذا المخطوط، ومن تم خلق توازن بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط.

فإذا كان الاقتصاد البحري شكل وبلا شك مصدر تفوق أوربا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر[31]، فمؤلفنا يبدو واعيًا بهذا الجانب الذي مثل الحجر الأساس في فرض واقع التفاوت بين الضفتين، لذلك كان حريصًا على نقل كل هذه التفاصيل الدقيقة عن كيفية الوصول إلى امتلاك المعرفة العسكرية، كما اعتبر أن أسس البحرية العسكرية لا يمكن فصلها عن المقومات الأساسية للبحرية التجارية خاصةً في تلك الفترة التاريخية. فإذا كان قد ركز على ضرورة الأخذ بمنهج امتلاك المعرفة الحربية عموما، فإنه دائمًا يربطها بأمور البحر، وبالتالي الصورة الذهنية التي كان يستحضرها تتمثل في كون أن السيطرة على البحر لا يمكن ان تحصل بمعزل عن امتلاك هذه المعرفة العسكرية وفي مقدمتها السلاح الناري. وحول هذا الجانب فسر كيف أن أوربا بشكل عام وإسبانيا بشكل خاص اهتمت بالصناعة البحرية وأنشأت أوراشا لخدمة هذه الصناعة، التي حظيت باهتمام الطبقة الحاكمة التي عظمت هذه الصناعة ووفرت لها شروط النجاح.



## خَاتِمَةُ

نستنتج من خلال ما سبق، أن مؤلف "العز والرفعة" عندما أقدم على تأليف هذا الكتاب، ربما كان يسعى إلى أن تأخذ الأمة العربية الإسلامية بالنظرة التاريخية الواعية المنفتحة على المستقبل من أجل تدارك هذا التفاوت الذي بدأت معالمه تتسع أكثر فأكثر في المجال المتوسطي، لكن تحقيق هذا الهدف كان يقتضي من هذه الأمة العودة لدراسة تراثها وماضيها إذ هي أرادت مسايرة هذا التحول التاريخي، وهنا نستحضر ما قاله الباحث قسطنطين زريق حول ضرورة العودة إلى هذا الماضي: "لا بد من العودة إلى الماضي من أجل استخراج مقومات الحاضر وشواغله من أجل التخطيط الصائب للمستقبل".[32] فهذا المستقبل هو الذي كان الشغل الشاغل لمؤلف "العز والرفعة"، لذلك كان هدفه الأخذ بالمعرفة العسكرية بما يحقق المنفعة لهذه الأمة، وفي نفس الوقت كان يحاول أن يشكل بواسطة هذه العرفة العسكرية السياق تحديث الأمة والنهوض بأوضاعها العسكرية على أمل أن تقف في وجه أوربا التي أصبحت في اعتقاده بحكم تفوقها العسكري تهدد العديد من البلدان العربية الإسلامية. فإذا كانت الحداثة سيرورة وديناميكية لا تتوقف، فإننا نعتقد أن تأليف هذا الكتاب جاء ليساهم في هذه السيرورة، إلا أن الأخذ به على الشكل الذي أراده ابن غانم الأندلسي لم يتحقق بسبب غياب شروطه التاريخية والموضوعية. وبذلك ظلت صيحة هذا المورسكي قبل وبعد وفاته غير مفهومة بأبعادها التاريخية والاستراتيجية في أكثر من قطر عربي - إسلامي.

## الهَوامِشُ:

(1) مخطوط "العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بآلات الحروب والمدافع". يوجد في الخزانة الوطنية، الرباط، تحت رقم ج ٨٧.

(2) خير الدين الزركلي، **الأعلام**، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر،٢٠٠٢، ص. ٣٠.

(3) هكذا أثبت المؤلف نسبه في المتن. انظر: ابراهيم ابن أحمد غانم ابن محمد بن زرياء الأندلسي، **العز والرفعة**، ص،٩.

(4) قرية توجد بالقرب من إقليم غرناطة. انظر: إبراهيم ابن أحمد غانم ابن محمد بن زرياء الأندلسي، مصدر سابق، ص. ٩.

(5) نقلاً عن: محمد رزوق، **الأندلسيين وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر**، إفريقيا الشرق، الطبعة الثالثة، ١٩٩٨، ص. ٦١.

(6) إبراهيم ابن أحمد غانم ابن محمد بن زرياء الأندلسي، مصدر سبق ذكره، ص ٩.

(7) المرجع نفسه، ص. ١٨،.

(8) إبراهيم ابن أحمد غانم ابن محمد بن زرياء الأندلسي، مصدر سبق ذكره ص. ١٠.

(9) المرجع نفسه، ص. ١٠.

(10) المرجع نفسه، ص. ١٠.

(11) إبراهيم ابن أحمد غانم ابن محمد بن زرياء الأندلسي، مصدر سبق ذكره، ص. ١٠.

(12) المرجع نفسه، ص. ١٠.

(13) يقع على الساحل التونسي، ويحتوي على قلعة حصينة تشتمل على برجين: أولهما البرج المائي، وثانيهما برج الملح. وقد كان محط صراع بين الإسبان والعثمانيين لفترة طويلة، ولم يتمكن العثمانيون من ضمه إلا في غشت ١٥٧٣م. انظر، نيقولاي إيفانوف، **الفتح العثماني للأقطار العربية (١٥١٦-١٥٧٤م)**، ترجمه إلى العربية يوسف عطا الله، وراجعه مسعود ظاهر، دار الفارابي، بيروت، ط. ١، ١٩٨٨، ص٢٢٨.

(14) محمد حجي، "**المورسكيون والجهاد البحري في المغرب الكبير"**، ضمن ندوة "المورسكيون في المغرب" مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الندوة الثانية، مطبعة المعارف الجديدة – الرباط، ٢٠٠١، ص. ٧١.

(15) انظر مقال للأستاذة ميلودة الحسناوي منشور بمطبوعات المملكة المغربية، "**المورسكيون في المغرب"**، الندوة الثانية، ٢٠٠، ص. ١٢٦.

(16) أنطونيو دومينقير هورتز برنارد بنثنت، ترجمة عبد العال صالح طه، **تاريخ مسلمي الأندلس الموريسكيون** "حياة... ومأساة أقلية"، دار الإشراق، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، ص ٥.

(17) المرجع نفسه، ص،٧.

(18) المرجع نفسه، ص. ١٤.

(19) محمد رزوق، **الأندلسيين وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر**، إفريقيا الشرق، الطبعة الثالثة، ١٩٩٨، ص ٢١٠.
(20) إبراهيم ابن أحمد غانم الأندلسي، مصدر سبق ذكره، ص ١٠.
(21) Jacques Berque, Ulemas, fondateurs, insurges du MaghrebXVII siècle, la bibliotheque arabe, collection hommes et societes (Paris: Sindbad, 1982) p.18.
(22) Fernand Braudel ,La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II,Paris, ArmandColin, 1966, T.2, P.9et 47.
(23) حول هذا الجانب المتعلق باحتكار المعرفة العسكرية خاصة من قبل الإسبان أنذاك يقول صاحب "العز والرفعة": "ويكون للقبطان المدافعي بيت أو موضع ليجتمع فيه بعض تلاميذه في صناعة آلات البارود، فيجلس هو على كرسي عالي وتلاميذه أنزل منه، حينئذ إذا أراد أحد أن يكون من جملة التلاميذ فيلتمس فيه صحيح البدن، ذو قوة،ليس بضعيف ولا رهيف ولا أشل ولا أعور ولا أصم ولا سكران، ويأتي ببينة أنه نصراني قديم في الأصل وأن لا يكون من الإنْقْلِيزْ ولا فرنجي ولا فْلَمِنْكُ ولا يكون إلا اشْبَانْيُولِ وإيطَالْيَانُ معناه من بلاد اطاليه". انظر: إبراهيم ابن أحمد غانم ابن محمد بن زرياء الأندلسي، مصدر سبق ذكره، ص١٨.
(24) إبراهيم ابن أحمد غانم ابن محمد بن زرياء الأندلسي، مصدر سبق ذكره، ص،١١.
(25) إبراهيم ابن أحمد غانم ابن محمد بن زرياء الأندلسي، مصدر سبق ذكره، ص ١١.
(26) نفسه، ص ١٧.
(27) نفسه، ص ١٧.
(28) نفسه، ص ١١.
(29) إبراهيم ابن أحمد غانم ابن محمد بن زرياء الأندلسي، مصدر سبق ذكره، ص ١١.
(30) المرجع نفسه، ص،١١١٢.
(31) عبد المجيد القدوري، **المغرب وأوربا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز)**، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠ ص، ٣٣٧.
(32) قسطنطين زريق، **نحن والتاريخ**، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٩٧٤،٣، ص ٢٨ وص٤٥.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].



# القراصنة في البحر المتوسط خلال عصر الحروب الصليبية
## ٤٨٩ – ٦٩٠هـ/ ١٠٩٥ – ١٢٩١م



**أ.د. إمام الشافعي محمد حمودي**
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية
رئيس قسم التاريخ - كلية اللغة العربية
جامعة الأزهر - جمهورية مصر العربية



**د. أشرف صالح محمد سيد**
أستاذ مساعد تاريخ وتراث العصور الوسطى
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ابن رشد - هولندا

## مُلَخّصْ

*تُعَدّ فترة الحروب الصليبية من أهم الحقب التاريخية في العصور الوسطى، ومن الظواهر التي تدعو إلى الانتباه في هذه الفترة، كثرة انتشار اللصوص والقراصنة، فمع أن الحركة الصليبية كانت حركة دينية، كما كان يدعي الجانب الصليبي؛ إلا أنه كان من أسباب الحركة الصليبية رغبة البابوية في التخلص من المجرمين الأوروبيين بإرسالهم إلى الشرق بحجة تكفير الذنوب، فأدى ذلك إلى انخراط الآلاف منهم في الحركة الصليبية على طول امتدادها الزماني والمكاني، فأصبحت بلاد الشام وسواحلها مرتعًا خصبًا لأعمالهم الإجرامية، هذا فضلاً عن أعمال اللصوص والقراصنة الشرقيين من السلب والنهب والسطو. وقد استعان الباحثان بمنهج البحث التاريخي لتحقيق هدف الدراسة وإلقاء الضوء على لصوص البحر (القراصنة) والذي لم تبخل المصادر التاريخية المعاصرة للحروب الصليبية من الحديث عنهم باستفاضة، كدليل قوي على كثرتهم في ذلك العصر. حيث تناولت الدراسة أسباب انتشار القرصنة في عصر الحروب الصليبية، وجنسيات وأسماء قراصنة البحر المتوسط، وأوكار القراصنة وجرائمهم وطرائق الحد من القرصنة في البحر المتوسط خلال عصر الحروب الصليبية، وقد تبين أن أعمال السلب والنهب التي قام بها القراصنة كانت لها آثار من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والدينية.*

**بيانات الدراسة:**

| | | | |
|---|---|---|---|
| تاريخ استلام البحث: | ٢٧ | يناير | ٢٠١٨ |
| تاريخ قبـول النشـر: | ١٩ | مايو | ٢٠١٨ |

**كلمات مفتاحية:**
الصليبيون، القرصنة، البحر المتوسط، الأراضي المقدسة، لصوص البحر، تاريخ السلب والنهب

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0054799

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**
إمام الشافعي محمد حمودي، أشرف صالح محمد سيد. "القراصنة في البحر المتوسط خلال عصر الحروب الصليبية (٤٨٩ – ٦٩٠هـ/ ١٠٩٥ – ١٢٩١م)".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الثاني والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٨. ص ٧٢ – ٨١.

## مُقَدِّمَةُ

تعود القرصنة في البحر المتوسط إلى العصور القديمة، ولم تقتصر على سكان شمال إفريقيا، بل مارسها فرسان القديس يوحنا انطلاقًا من رودس ومالطة، وكذلك أوربيون ضد بعضهم البعض، وضد السفن الإسلامية، فكان الأوربيون حتى القرن الرابع عشر الميلادي أسياد المتوسط يعيشون من نهب البضائع ومن تجارة الرقيق، ويرى الباحث الإيطالي سلفاتور بونبو أن القرصنة كانت أداة استراتيجية وسياسية للدول الأوربية وللحكام المسلمين.(١)

ولعله من الأهمية بمكان قبل الحديث عن القراصنة في البحر المتوسط خلال عصر الحروب الصليبية أن نتعرف على مفهوم القرصنة، وما يتعلق بها من ألفاظ أخرى كانت تستخدم في ذلك العصر. وهناك مخاوف أخرى في البحر، تكمن في القرصان أو لصوص البحر، الذين يهاجمون الواحدة من السفن مثلما يهاجم المقاتلون قلعة من القلاع،(٢) فإن أعظم قُطاع الطرق والسارقين خطورة ووحشية في البحر.(٣) القرصان، لصوص البحر (إفرنجية)،(٤) وقرصان مفرد، والجمع قراصنة وقراصين، وهو لص البحر، مَنْ يُحوَل اتجاه سفينة أو طائرة إما لسلب الحمولة، وإما لغاية سياسية أو نحوها، وراية

القرصان: راية سوداء تحمل جمجمة بيضاء وعظمتين متصالبتين.(٥)

ولفظ القرصان غير عربية، فهي مأخوذة من اللغة الإيطالية (Cursaro) بمعني لص البحر، وهي مأخوذة بدورها من اللاتينية (Cursarius) المشتقة من فعل بمعني جري، لأنهم كانوا يهربون بعد نهب السفينة، وبنت اللغة العربية منها فعل قرص، والقرصنة، والجمع القرصان.(٦) فأصل لغتها اللاتينية، ثم انتقلت إلى الإيطالية، ومن الإيطالية دخلت اللغة العربية، فهي من الكلمات المُعرَبة، ويعد كتاب محيط المحيط لبطرس البستاني أول معجم في العصر الحديث ذكر هذه اللفظة بين دفتيه.

وتعني القرصنة الهجوم أو محاولة الاعتداء على السفن التجارية، وظل هذا الاسم ملتصقا بأعمال القرصنة خلال العصور الوسطي، ليطلق على السلب والأسر من أي سفينة تصادف القرصان بصرف النظر عن نوع السفينة وجنسية من على متنها ودينه.(٧) أما القراصنة، فهم مجموعة فوضوية خارجة عن القانون، تعتدي على الملاحة وتستولي على التجارة البحرية، وتكون السفن والسواحل البحرية كافة عرضة لهجماتهم وغاراتهم الخاطفة، وغاية هدفهم هو الغنيمة على حساب الضرر العام.(٨)

## ١-أسباب انتشار القرصنة في عصر الحروب الصليبية

على الرغم من أن البيئة في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية كانت مهيأة لانتشار السرقة البرية والبحرية، نظرًا لوجود اللصوص والقراصنة الشرقيين، ولتدفق أعداد كبيرة من اللصوص والقراصنة الأوروبيين نحو الشرق العربي، إلا أن دوافع اللصوصية والقرصنة في عصر الحروب الصليبية كانت متعددة، بل وبعضها كان وليد ظروف العصر نفسه. والبعض الآخر كان متداخلاً مع بعضه البعض أيضًا، ويمكن إجمال دوافع اللصوصية والقرصنة خلال عصر الحروب الصليبية حسب أهميتها في الآتي:

### ١/١-الرغبة في الحصول على الأموال

كان دافع الحصول على الأموال من الدوافع الأساسية لعمليات السرقة من خلال اللصوص أو القراصنة في أي عصر من العصور، فكان الحصول على المال أو متاع الناس من الدوافع الأساسية لعمليات قُطاع الطرق والقراصنة في عصر الحروب الصليبية. لقد تنبه مؤرخو عصر الحروب الصليبية إلى هذا الدافع في ارتكاب جريمة السرقة، يقول المؤرخ المجهول عن الدافع لهذه الجريمة:(٩) "إن الحاجة أمَ الجريمة" ويقول الرَحالة فيلكس فابري:(١٠) "إن الرجل الغني يخاف من اللصوص أكثر من المُعدم". وقد نوَه على ذلك الدافع أيضًا المؤرخ الإنجليزي متَي باريس، فقال:(١١) "بحضور اللص يبتهج المسافر الذي لا يحمل ذهبًا". وذلك على أساس أن الغني هو مَنْ يمتلك المال، وبالتالي هو الهدف الرئيس للصوص وقُطاع الطرق. هذا فضلاً عن أن أغلب الشواهد التاريخية التي سترد في ثنايا هذا الكتاب تؤكد على أن أغلب عمليات اللصوصية والقرصنة في عصر الحروب الصليبية كانت بدافع الحصول على الأموال والأمتعة.

### ٢/١-اضطراب الأوضاع السياسية والعسكرية

لازم اندلاع شرارة الحروب الصليبية وما أعقبها من أحداث امتدت نحو قرنين من الزمان، اضطراب كبير في الأوضاع السياسية والعسكرية في بلاد الشام، نظرًا لأن الحرب كانت سجالاً بين المسلمين والصليبيين، ففر العديد من السكان من المدن والقرى، وقامت أنظمة جديدة وسقطت أخري، وقد ساعد ذلك العديد من اللصوص كي يمارسوا نشاطهم الإجرامي في هذا البحر الهائج من الاضطرابات السياسية والعسكرية.

ولما رفض الإمبراطور البيزنطي الزواج من أخت كونت طرابلس، استدعي كونت طرابلس جماعة من القراصنة والعيَارين وأرباب أبشع الجرائم، وعهد إليهم بالعيث فسادًا في أراضي الإمبراطور بعد أن حملهم في سفن مخصصة لذلك، وأمرهم بإضرام النار في كل مَنْ يصادفونه، وألا يستثنوا من بطشهم كنيسة ولا ديرًا، وقد أطاع هؤلاء الرجال الكونت، وأبحروا وانسابوا في كل ممتلكات الإمبراطور ينفذون أوامر الكونت على مجال واسع في كل ناحية، جزيرة كانت، أو أرضا تجاور بحرًا.(١٢) ولم تكن عملية استئجار القراصنة لأعمال السلب والنهب قاصرة على الصليبيين فيما بينهم البعض، فقد كان القراصنة برعاية من ملوك الجزر والمدن الأوروبية ولا سيما المطلة على البحر الأبيض المتوسط، يشجعونهم على السلب والنهب، بل حتى القتل للتجار العرب المسلمين في سبيل ضرب التجارة، كي لا يستفاد العرب المسلمين من الموارد الاقتصادية التي تدرها بسبب انعدام الأمن والأمان بالطرق.(١٣)

وعندما دمرت الحرب بين البنادقة والبيزنيين البلد والسكان ماديًا ومعنويًا، قام ثُلَة من القراصنة المحترفين تقاطروا من كل الأنحاء، واستغلوا هذه الفوضى الشاملة، فراحوا يقتلون وينهبون بلا تمييز كل ما تصل إليه أيديهم.(١٤)

### ٣/١-تعطيل القوانين

من أسباب انتشار اللصوص والقراصنة في عصر الحروب الصليبية، تعطيل القوانين وعدم معاقبة المجرمين بعد أن تثبت عليهم الجريمة، وقد مثَّل هذا دافعًا كبيرًا للصوص والقراصنة لارتكاب العديد من جرائم السرقة والسطو.

وكان التباطؤ في القبض على اللصوص والقراصنة يمثل عاملاً كبيرًا لارتكاب جرائم السرقة في عصر الحروب الصليبية، يقول يعقوب الفيتري مؤكدًا على هذا الأمر: "إن السهولة التي تمكنهم من الهرب من العقاب، تعتبر حصانة لهم تمكنهم من فعل الخطأ، إذ أنهم بعد عمل الفظائع الكبيرة، يقسمون كذبًا بالمسيح، ويذهبون إلى المسلمين المجاورين، أو أنهم يركبون ظهر سفينة شراعية أو مركب ويبحرون إلى جزر البحر".[١٥]

على صعيد التساهل مع القراصنة وجرائمهم، كان سادة الجزر في البحر المتوسط يتساهلون أحيانًا في وجود بعض القراصنة عندهم.[١٦] وفي فترات الاضطرابات العامة، كانت المدن التجارية الإيطالية جنوا وبيزا بنوع خاص، وكذا البندقية بدرجة أقل، تتساهل مع أعمال القرصنة، وإن لم تكن تشجعها، ولم تكن القراصنة تعرقل التجارة الوطنية، لأن القراصنة كانوا يتسامحون دائمًا مع مواطنيهم، وفي عهد الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس الثالث،[١٧] كان هو نفسه يطلب مساعدة القراصنة ضد نظائرهم، نظرًا لانحلال البحرية البيزنطية، أو يسعى للتحالف مع دولة بحرية ليحارب قراصنة دولة أخرى.[١٨] وعندما غابت شمس البحرية الإسلامية، نشط القراصنة في الغرب المسيحي في مياه البحر المتوسط،[١٩] وفي شرق البحر المتوسط، كان اخضاع هؤلاء القراصنة الذين يعكرون صفوا الأمن والسلام، يستوجب بحرية قوية، ولكن البحرية اليونانية كان قد أصابها الانحلال بإهمال الأباطرة أنفسهم، ففيما مضى كانت الأمم التجارية تخشى المخاطر التي تتعرض لها سفنها بتواجدها في المياه اليونانية، ومن ثَمَّ كانت تلتمس حماية السفن الحربية البيزنطية.[٢٠]

### ٤/١-الاحتجاج ضد الظلم

من الأسباب الملفتة للنظر لانتشار عمليات اللصوص والقرصنة، الاحتجاج ضد الظلم، ومحاولة بعض فئات المجتمع تشكيل مجموعات عصابية لاسترداد حقوقهم التي سُلبت، سواء كان هذا الحق المسلوب من السلطة الحاكمة أو من بعض الفئات المدنية. على الرغم من أنه لا يمكن إطلاقًا تبرير مهنة القرصنة، أو تصويرها في قالب مثالي ككل، إلا أنه لا يمكن في الوقت ذاته أن ننكر أنها كانت في بعض الأحيان شكلاً من أشكال الاحتجاج، خروجًا من مجتمع قائم على الظلم، مجتمع تنظمه علاقات تعسفيه، وتتحكم فيه بشكل صارم مؤسسات جائرة.[٢١]

ومن الشواهد التاريخية على أن امتهان القرصنة كانت نتيجة لوقوع الظلم أحيانًا على بعض الأشخاص مما دفعه إلى القرصنة، أنه في عام (٥٩٥هـ/ ١١٩٨م)، كان هناك جنوي يدعى (جافوريو Gaffairo) يقوم برحلات كثيرة إلى مدينة القسطنطينية بصفته تاجرًا، لكن تصدى له رجل جشع هو الأميرال (ميشيل ستريفنوس) ففكر في الانتقام، وتحول إلى القرصنة، ونجح في وضع الإمبراطور البيزنطي في مأزق حرج بالإغارة والقرصنة على جزر الأرخبيل في البحر المتوسط التابعة للدولة البيزنطية.[٢٢] وفي سنة (٦٤٩هـ/ ١٢٥١م)، شكَّل البنادقة والبيازنة والجنويون مؤامرة ضد ملك فرنسا لويس التاسع، لأن ملك فرنسا رفض أن يعطيهم أموالاً نظرًا لاشتراكهم معه في غزو مدينة دمياط في الحملة الصليبية السابعة على مصر، فقاموا بإغلاق الموانئ بغلاييهم،[٢٣] وراقبوا البحر بحرص، من أجل سلب أو إغراق أي فرنسي، يمكن أن يعبر البحر.[٢٤]

## ٢-جنسيات وأسماء قراصنة البحر المتوسط في عصر الحروب الصليبية

كان من بين القراصنة أُناس متعلمون وآخرون من حُثالة المجتمع، وضباط ملكيون، وبحارة وموظفون عملوا فيما مضى في إدارة الأسطول البحري، ولصوص نكرة تواءموا جميعًا على ظهر سفينة واحدة.[٢٥] ولم يكن موظفو الإمبراطورية البيزنطية يخجلون من حياتهم، بل إن منهم مَنْ كان يفعل أكثر من ذلك، فيجهزون بأنفسهم السفن لأغراض القرصنة، مثال ذلك، حاكم (تاسوس Thasos)، و(اسكوبيلوس Scopelos)، و(سيريجو Cerigo) وبخاصة حاكم رودس، ويدعى (كريفيكيوتس Krivikiotes).[٢٦]

وفي مجال السرقة عن طريق القرصنة، من أسماء القراصنة، نقرأ عددًا كبيرًا يدل على أنهم من أصل غربي، وهذا يرجع إلى العناصر الغربية التي اختلطت بالجنسية اليونانية قبل الحملة الصليبية الرابعة وبعدها أيضًا.[٢٧] إن الجنويين والبيزيين كانوا أكثر مَنْ يعمل في مهنة القرصنة، ويشكلون القسم الأكبر من طائفة القراصنة الذين كانت تعُج بهم المياه اليونانية، وكانت حالة البحرية اليونانية السيئة للغاية تسمح لهم بأن يشنوا غاراتهم بقوة.[٢٨] كان العبيد في

الكيان الصليبي من جملة القراصنة أيضًا، يقول فيلكس فابري مؤكدًا على ذلك:[٢٩] "عبيد الغليون –سُفن القراصنة– بشكل عام لصوص". بل يقول عنهم في موضع آخر:[٣٠] "إن انعدام الثقة بعبيد الغليون وسرقاتهم، يزعج الحجاج كثيرًا، لأنه لا يمكن تأمينهم على أي شيء، لأن عبد الغليون يسرق كل ما تطاله يده، أو يضعها عليه". كان من بين القراصنة أُناس متعلمون وآخرون من حثالة المجتمع، فكان على كل مَنْ يدخل في عداد أي عصابة كبيرة مثل هذه أن يُوقّع على ميثاقها، ولو بمجرد رسم صليب، وفي الوقت نفسه يقوم بتقبيل الكتاب المقدس.[٣١] فمع أن مَنْ سيعمل في مجال القرصنة، كان سيقوم بأعمال السلب والنهب والسطو، إلا أنه كانت تؤخذ عليه المواثيق الدينية.

هذا، وتكاد الشواهد التاريخية التي تؤكد على انخراط الشرقيين في سلك القرصنة في عصر الحروب الصليبية، أن تكون نادرة جدًا، ومن هذه الروايات، أنه كان هناك ثلاثة من البحارة الصليبيين في طريقهم إلى مدينة صور، فلما بعدوا عن الميناء الذي خرجوا منه، كان بعض القراصنة من الترك قد لمحوهم حين مغادرتهم الميناء، فخرجوا إليهم، فلما رآهم البحارة يقتربون منهم في سرعة تولاهم الهلع واستبد بهم الجزع.[٣٢]

أما بخصوص أسماء القراصنة التي ورد ذكرها في المصادر التاريخية، فنستطيع أن نذكر تسعين اسمًا، يتبع اسم كل قرصان منهم قائمة طويلة أو قصيرة بالأعمال الشريرة التي اقترفها، بخلاف هؤلاء القراصنة الذين يخرجون من موانئ اليونان وجزرها، وتوجد مجموعة من القراصنة الجنويين.[٣٣] من أسماء هؤلاء القراصنة (جورج مانياكس) الذي كان في بداية حياته قائدًا بيزنطيًا من القادة المرتزقة في حرب الصليبيين ضد المسلمين.[٣٤] ومنهم القرصان (جانيمير البولوني) الذي استولى على ميناء ومدينة اللاذقية، وتم طرده منها بواسطة الإمبراطور البيزنطي.[٣٥]

وقد ورد في المصادر التاريخية اسم القرصان الجنوي (ليوني فترانو Leone Vetrano) الذي كان يجوب مياه جزيرة (كورفو) في البحر المتوسط ويسيطر عليها،[٣٦] وكذلك القرصان الجنوي (أندريا جافور Andrea Gaffore) نقرأ اسمه مرة بصفته قرصانًا عاديًا، ثم بصفته قائد أسطول امبراطوري يضم ثماني عشر سفينة حربية.[٣٧] ومن القراصنة الإنجليز، القرصان الإنجليزي (وليم مارش بن غيوفري مارش)،[٣٨] ومن القراصنة الإنجليز(يوستاس الراهب) الذي كان رجلاً فاسدًا جدًا، وقرصانًا شريرًا،[٣٩] ومن مدينة تسالونيك، ورد في المصادر التاريخية اسم القرصان (يوحنا سنسيرازون jean Senserazon)، و(يوحنا دي لوكافو Jean de lo Cavo).[٤٠]

ومن أسماء القراصنة أصحاب الأعمال المشتركة، القرصان الجنوي (ولهلمس جراسوس Wilhelmus Grassus) والآخر بيزي يدعي (أنريكو بسكاتوري Enrico Pescatore).[٤١] وكان من أكبر القراصنة الكونت هنري المالطي (Henri de Malte).[٤٢] ومن أسماء القراصنة أيضًا، القرصان البندقي (ماركو سانودو Marco Sanudo)، وكان له أصدقاء من القراصنة منهم، (مارينو داندولو) والأخوان (جريميا وأندريا غيزي Geremia et Andrea Ghisi)، (دومينيكو ميشيل Domenico Michiel)، و(بيترو جوستنياني Pietro Giustiniani)، و(ليوناردو فوسكولو Leonardo Foscolo)، و(جاكوبو باروتزي Jacopo Barozzi)، و(جيوفاني كيوريني Giivanni Quirini)، و(فيلوكالو نافيجاجوزو Filocalo Navigajoso).[٤٣]

هذا، ولم نعثر في المصادر التاريخية على أي اسم لقرصان من القراصنة الشرقيين طوال عصر الحروب الصليبية، سواء كان من المسلمين أو من المسيحيين الشرقيين، وربما يرجع ذلك إلى أن أعمال القراصنة الشرقيين كانت محدودة للغاية، وإما لسيطرة الجنويين والبيازنة والبنادقة على أغلب أعمال القرصنة في مياه البحر المتوسط.

## ٣-أوكار القراصنة في البحر المتوسط في عصر الحروب الصليبية

إذا كانت هذه هي أشهر الأوكار بالنسبة للصوص في البر، فكان من الطبيعي أن تكون للقراصنة في البحر أوكار مختلفة عن ذلك، تمثلت في الموانيء والجزر النائية البعيدة عن الأساطيل البحرية للسلطة الحاكمة. كان الميناء البيزي عند مصب نهر(فنيكا Phineca) غربي (مير Myre) في (ليسيا ycie) ينتسب اسمه دون شك إلى وجود قراصنة جعلوا منه مأوى لهم أكثر منه إلى تجار مسالمين يترددون عليه. وكان ثغرًا (مودون وكورون) في المورة من أوكار القراصنة.[٤٤] وكان ميناء (آنيا Ania) على الساحل الأسيوي للأرخبيل البيزنطي، الواقع بجوار مدينة كوش جنوبي مدينة أفسس القديمة في عهد السيادة البيزنطية، مأوى حقيقيًا للقراصنة من الروم والفرنجة. ومن الموانيء التي يفضلها القراصنة جزيرة (ساموتراس Samothrace)، (زيا Zia)، (ساموس Samos) وموانئ (مالفوازي Malvoisie) وتسالونيك على الساحل الأوروبي.[٤٥]

ومن أهم أوكار القراصنة في الجزر النائية وغير النائية في البحر المتوسط، جُزر القرصان التي لا تقهر، مثل جُزر الإغريق، والبحر الأدرياتيكي، وبحر (تيرين Tyrhene) وكريت وقبرص، صقلية، مع الجزر والمناطق المجاورة للمحيط.[٤٦] وفي غرب البحر المتوسط، أضحت جزر البليار أوكارًا للقراصنة الذين كانت جيرتهم ثقيلة الوطأة، ليس على سكان مدينة برشلونة فحسب، ولكن وبوجه عام على كل المسيحيين في الجزء الغربي من البحر المتوسط.[٤٧] لكن الصليبيين الأسبان استولوا على جزيرة (مايوركا) الإسلامية التي كانت مليئة بالقراصنة وقُطاع الطرق، وكانت بشكل خاص مضرة جدًا بالتجار والحجاج الذين يسافرون بحرًا بين أفريقيا وإسبانيا.[٤٨] وكان القراصنة واللصوص يستخدمون الجزر الصغيرة في تخزين المسروقات، ففي إحدى الجزر الصغيرة القريبة من جزيرة رودس، يوجد بها مخزونًا كبيرًا من اللحوم المجففة، كانت قد جُلبت إلى هناك من قبل قرصان البحر واللصوص فيه، ولعل ذلك كان بعد الاستيلاء عليها مرة إثر أخرى، فقد خزّنوها هناك.[٤٩]

## ٤-جرائم القراصنة في البحر المتوسط في عصر الحروب الصليبية

كانت القرصنة وبالاً على الأعداء المنافسين، عند نشوب الحرب، كان لدى القوم بحارة شجعان ومدربون، ولا يعرفون الخوف، مستعدون لخوض غمارها، وشوهد أكثر من زعيم قديم من زعماء القراصنة يتولى أمير حرب قيادة أسطول وطنه أو أسطول دولة صديقة.[٥٠]

أما عن الكفاءة القتالية للقراصنة خلال عصر الحروب الصليبية، فقد كان الجنويون يسيطرون على البحار، ويجوبونها بسفنهم الخاصة[٥١] المسماة (غانيس)، ويقومون بأعمال القرصنة ضد الروم والمسلمين، فيعودون إلى جنوة بالأسلاب والغنائم الوفيرة.[٥٢] وهناك شهادة أخرى على براعة القراصنة في القتال خاصةً في مجال الصيد، جاءت من الرَحالة لودولف فون سوخم، الذي يقول عن ذلك:[٥٣] "توجد في جزيرة القديس بطرس – بالبحر المتوسط – خيول وحشية صغيرة جدًا، ولسرعتهم من غير الممكن إمساكهم إلا من قبل اللصوص الذين يطلقون السهام عليهم ويأكلونهم من أجل التمتع بلحم الطرائد".

وقد تعددت جرائم القراصنة في البحر المتوسط في عصر الحروب الصليبية مثل السرقة، المقرونة بالقتل والحرق والإغراق لسفن الضحايا في بعض الأحيان. وقد انتشرت القرصنة في أوروبا قبل أن تنتشر في البحر المتوسط على نطاق واسع في العصر الصليبي، حيث كان القراصنة الأوروبيون يجوبون البحر المتوسط، ويقومون بأعمال القرصنة ضد المسلمين وغير المسلمين. فقد كانت الجزر الصغيرة في الأرخبيل في البحر المتوسط، التي يمتلكها سادة من أُسر فينيسية، تسهم بقراصنتها الأشداء الذين يغامرون بغاراتهم حتى أرمينيا الصغرى وقبرص وكبتشاك (Kiptchak).[٥٤]

في سنة (٥٩١هـ/١١٩٤م)، أقبلت سفن قراصنة من بيزا، وانقضت على السفن اليونانية، إلى أن اقتربت من مدينة القسطنطينية، وصارت على مرمى البصر منها، فحرقت بعض هذه السفن اليونانية، وباعت سفنًا أخرى، وأعملت السلب والقتل في كل مكان. وأدرك الإمبراطور البيزنطي مدى العار الذي سوف يلحق بحكومته إذا لم يتمكن من القضاء على هذا الإخلال بالأمن، إلا أنه لم يكن يملك القوة الكفيلة بذلك، فبعث إلى بيزا بمبعوثه (جاك البيزي Jucques) حاملاً رسالة تفصح عن يأسه، وحصل جاك البيزي من قناصلة بيزا على تعهد بمطاردة القراصنة بقوة السلاح.[٥٥] وهذه الرواية تدل على مدى قوة القراصنة الأوروبيين في البحر المتوسط، لدرجة وصلت إلى نهب أملاك الدولة البيزنطية نفسها، بل إن الدولة البيزنطية عجزت عن صدهم.

مع وجود الصليبيين في بلاد الشام ووقوع أغلب مدنها على السواحل الشرقية للبحر المتوسط، كان من الطبيعي أن تمتد جرائم القراصنة إلى ممتلكات المسلمين والصليبيين على حد سواء في مياه البحر المتوسط، فضلاً عن الاعتداء على الموانئ الشامية. يقول المؤرخ الصليبي فوشيه الشارتري عن القرصنة البحرية في مياه البحر المتوسط، بعد أن سقطت القدس في يد الصليبيين:[٥٦] "كانت الطريق البرية مسدودة بوجه حجاجنا حتى ذلك الوقت، وقدموا في تلك الأثناء عن طرق البحر إلى يافا، ولم يكن لدينا ميناء غيرها، قدم الحجاج بوجل وهيبة في سفن فرادي أو مجموعات من ثلاث أو أربع سفن، يشقون طريقهم في بحر من القراصنة المعادين".

ويقول دانيال الراهب عن تعرضه للنهب من القراصنة عبر طريقه إلى أنطاكيا من خلال البحر المتوسط:[٥٧] "قابلنا أربعة مراكب، تحمل قراصنة قاموا بمهاجمتنا وسرقتنا" فقد كان قراصنة البحر المتوسط يُهشمون يوميًا عظام المسيحيين ابتداءً من أرمينيا.[٥٨] هذا، ولا يعني تعرض الصليبيين

السالف الذكر لأعمال القرصنة في البحر المتوسط، بأن هؤلاء القراصنة كانوا من المسلمين، فقد كان قراصنة بيزا والبندقية يهاجمون جميع السفن، ما عدا سفنهم الوطنية، وكانت المدن التجارية في جنوب إيطاليا ملاذًا للقراصنة الأفريقيين، وكانت تعقد معهم أحلافًا وتشترك معهم في بعض الحملات، وكان القراصنة الأفريقيون يحظون بترحيب طيب في سالرنو وأمالفي ونابولي.(٥٩)

لقد انتشرت أعمال القرصنة البحرية في عصر الحروب الصليبية، وكانت تمارس كمهنة وحرفة، ولم يتم القضاء عليها، حيث انتشرت أعمال القرصنة في أعالي البحار، وفى الموانئ المسيحية وفى ميناء مدينة عكا التي كانت عاصمة للمملكة الصليبية في مرحلتها الثانية، فأصبح خطر القرصنة الذي يهدد السفن عظيمًا، يماثل الأخطار والأهوال الطبيعية كالعواصف وغيرها التي كانت تهدد أيضًا الرحلات البحرية.(٦٠)

استمرت أعمال القراصنة في البحر المتوسط على مدى الوجود الصليبي في بلاد الشام. من ذلك، أن ( Diether of Katzenellenbogen) الكونت (ديثر أوف كاتزنلنبوغن) كان في طريقه إلى تسالونيك بعد أن فارق الحملة الصليبية الخامسة، قبل عبورها إلى دمياط والاستيلاء عليها، ولكن سفينته وقعت بيد القرصان قرب جزيرة قبرص، وأُحرقت، ونجا الكونت من غرق السفينة، وسبح مع عدد قليل من الرجال.(٦١) وإذا كان لصوص أوروبا لم يرحموا أطفال أوروبا فيما يعرف بصليبية الأطفال، وقاموا بنهبهم، فقد كان هذا هو الحال بالنسبة إلى قراصنتهم، بل كان فعل القراصنة مع هؤلاء الأطفال الأبرياء أشد وأبشع ولا يتوافق مع روح الحروب الصليبية التي لم تعرف الكراهية والتعصب إلا ضد المسلمين بوجه خاص والشرقيين بوجه عام. فعندما وصل هؤلاء الأطفال إلى موانئ البحر المتوسط، جرى إغراق الكثير منهم من قبل القرصان، كما جرى بيع أعداد كبيرة منهم رقيقًا إلى المسلمين، وإلى أجانب آخرين.(٦٢)

لم تتوقف أعمال القراصنة الصليبيين في البحر المتوسط ضد جنس أو دين أو لون معين، بل شملت الجميع، وكان للمسلمين نصيب في التعرض لجرائم هؤلاء القراصنة. ففي سنة (٥٠٤هـ/ ١١١٠م)، خرجت جماعة من التجار المسافرين من تنيس ودمياط ومصر ببضائع وأموال جمة، كانوا قد ضجروا وملوا طول المقام، وتعذر مسير الأسطول في البحر(٦٣) وحملوا نفوسهم على الخطر، وأقلعوا في البحر فصادفتهم مراكب الإفرنج الجنويين، فاعتقلوا سبعين تاجرًا عربيًا، وحصل في أيديهم من الأمتعة، أربعمائة صندوق مملوءة سكرًا مصريًا، وخمسين حملاً أقمشة دمياطية وغير ذلك من الأمتعة، والمال ما يزيد على مائة ألف دينار، وأسروهم وعاقبوهم، واشتروا أنفسهم بما بقي لهم من الذخائر في دمشق وغيرها.(٦٤)

وفى سنة (٥٨٨هـ/ ١١٩٢م)، قام قرصانان أحدهما جنوي يدعى (ولهلمس جراسوس Wilhelmus Grassus) والآخر بيزي يدعى (أنريكو بسكاتوري Enrico Pescatore) بزيارة جزيرة رودس وسواحل آسيا الصغرى الجنوبية، واستوليا على سفينة أو أكثر من سفن البندقية القادمة من مصر متجهة إلى القسطنطينية، فاستولوا على ما بها من بضائع ثمينة، وقتل القراصنة السفراء والتجار، ولم يتركوا حيًا سوى الغربيين، وعاملوا بمثل هذا سفينة لومباردية كان على متنها الأسقف البيزنطي (بافوس Paphos) الذي أسروه.(٦٥)

وكان القراصنة البيزيون مولعون بالسلب والنهب، ومن ثمَّ راحوا يطاردون سفن البنادقة، وينهبون ركابها، ويجردونهم من كل ما معهم، فلا يتركون لهم سوى ما عليهم من قمصان، والسفن الصغيرة كانت تترك حمولتها، حتى ولو كانت من الجُبن أو الفاصوليا أو السمك.(٦٦) تحكي الحوليات الجنوية أن بيزا استدعت قراصنتها في عام (٥٩٣هـ/ ١١٩٦م)، لتعزيز الحرب ضد جنوا،(٦٧) وكان (جيوفاني ستيريوني Stirione) قرصانًا قديمًا من (كالابريا) بجنوب إيطاليا، وأصبح أميرالاً في خدمة الإمبراطور البيزنطي.(٦٨)

عندما قامت الحرب الصليبية الأولى، كان للقراصنة الأوروبيين الدور الأكبر في تثبيت أركان الاحتلال الصليبي لبعض مدن بلاد الشام. كان (جاينمر البولوني) من القرصان المحترفين، وبفضل حنكته وتجربته، أدرك حاجة الصليبيين إلى مساعدة بحرية، عندما وصل إلى خليج مرسين، عند مصب نهر البردان أسفل مدينة طرسوس، بعد أن حشد طائفة من زملائه القرصان من الدانيين والفريزيان والفلمنكيين، أبحر من الأراضي المنخفضة في أواخر فصل الربيع، ولما بلغ مياه شرق البحر المتوسط، أخذ يسعى للاتصال بالصليبيين، وفرح حين أدرك أنه صار قريبا من جيش كان قائده بلدوين، فصار بأسطوله مصعدًا في النهر حتى طرسوس، وبذل الولاء لبلدوين.(٦٩)

إذ بعد أن استولى الصليبيون على مدينة طرسوس في الحملة الصليبية الأولى، شاهد جماعة بلدوين من على الأسوار عددًا كبيرًا من السفن المتنوعة في البحر على بعد ثلاثة أميال تقريبًا من المدينة، فركب بعض الفرسان يستطلعون الأمر، ويسألونهم من أي شعب هم وماذا

يريدون؟ فأجابوهم بأنهم من قراصنة البحر، وهم مسيحيون من فلاندرز وانتفيرين، وفريزلاند، ومن مناطق فرنسا، ركبوا البحر منذ ثمانية أعوام يعملون في القرصنة، وسلب ونهب السفن الأخرى في عرض البحر، فأتفق القراصنة والحجاج على عقد تحالف بينهم والسير معًا إلى القدس، فجهَز بلدوين جيشه واتحد مع القراصنة، وانضم منهم ثلاثمائة إلى حراسة مدينة طرسوس، ومائتين إلى جيش بلدوين.[٧٠]

لم يكن هؤلاء الرجال مجرد قراصنة، بل عبارة عن جيش صغير (٥٠٠ قرصان) لا شك أنهم كانوا إضافة فارقة في كل أعمال بلدوين الأول العسكرية في بلاد الشام بعد ذلك. وكان هذا ما تم بالفعل، ففي سنة (٥٠٢هـ/ ١١٠٨م)، جمع بلدوين جيوشًا من كل الجهات، من القوات الإيطالية خاصةً من بيزا وجنوا والبندقية وأمالفي، مع القراصنة من كل حدب وصوب، وصار مع قواته يريد حصار مدينة صيدا.[٧١]

## ٥-طرائق الحد من القرصنة في البحر المتوسط عصر الحروب الصليبية

كان لسلطات الدولة الصليبية أو الإسلامية دور كبير في التصدي لهؤلاء المجرمين من القراصنة والقضاء على شأفتهم في مياه البحر المتوسط. كما تصدت السلطات الصليبية للصوص بالحملات العسكرية والأمنية، تصدت أيضًا للقراصنة بالحملات العسكرية عن طريق الأساطيل البحرية. فقد جاء بناء الأسطول البحري الإنجليزي إبان حكم الملك (هنري الثالث ١٢٠٧-١٢٧٢م) ليكون له بعض الأثر في إعاقة نمو القرصنة،[٧٢] لأن نمو التجارة في البحار أواخر القرون الوسطى تطلب تطهير هذه البحار من القراصنة، فالبندقية مثلاً اعتبرت البحر الأدرياتي منطقة نفوذ لها، فقامت بتطهيره من القراصنة، كما تم تطهير بحر الشمال والبحر البلطيقي شمال أوروبا.[٧٣]

وأصدر الإمبراطور البيزنطي إلى قائد الأسطول البيزنطي الأوامر بأن ينزل العقاب باللاتين – لصليبيين– لما قاموا به من أعمال القرصنة ضد جزيرة قبرص، بعد أحداث الحملة الصليبية الأولى.[٧٤] وعندما زادت غارات القرصان الجنوي (جافوريو Gaffairo) على الدولة البيزنطية، رأى الإمبراطور البيزنطي أليكسيوس الثالث أن الحرب المكشوفة لا تجدي معه، ولجأ إلى الحيلة وتفاوض معه بواسطة بعض الجنويين من سكان القسطنطينية الذين كانوا يعرفون مواطنيهم، وبذل له الوعود، وانخدع القرصان جافوريو، ولم يأخذ حذره لسوء حظه، وذات يوم أغار عليه فجأة (ستيريوني) قائد الأسطول البيزنطي على رأس سفن بيزنطية وبيزية، فأسره وقتله.[٧٥] وهكذا أتت هذه الحملة البحرية بثمارها، وقضت على نشاط هذا القرصان.

وفي سنة (٥٩١هـ/١١٩٤م)، أقبل أسطول من خمس سفن يقودها قراصنة بيزيون، وألقت السفن مراسيها أمام (أبيدوس Abydos) وراحت تنهب أملاك البيزنطيين، وتُوقف القوافل المتجهة إلى مدينة القسطنطينية، وأرسل السفراء البيزيون في القسطنطينية أنفسهم تحذيرات إلى القراصنة، ولكن دون جدوى، وأخيرًا اقتربت سفن حربية بيزنطية، وحملت القراصنة على الفرار.[٧٦]

في أحداث الحملة الصليبية الثالثة، أرسل الملك الانجليزي وليم، قائده (مارجريت) في أسطول إلى الأراضي المقدسة في فلسطين، عقب تحرير القدس الشريف على أيدي المسلمين، فأسرع القائد مارجريت بسفنه، وبما تحت يده من الشواني[٧٧]، وتغلب على مَنْ صادفهم من القراصنة، ودمَر سفنهم وأعطبها، فتمخض ذلك عن أن بسط الأمان ظلَه على الطريق، مما شجع غيره على الاقتداء به، كما فرض سلطانه على كل ناحية في البحر، بما في ذلك الجزر النائية.[٧٨]

وفي أحداث الحملة الصليبية الخامسة، جعل الإمبراطور فردريك، الكونت (ماثيو أوف أبوليا) مسئولاً عن منطقة أبوليا -على البحر الأدرياتيكي– فالتحق بالحملة الصليبية الخامسة على مصر، فجاء مع ثمانية غلايين، عاد اثنان منهم إلى القراصنة، كان قد تم الاستيلاء عليهما، لأنهما كانا يهددان المسيحيين – الصليبيين-أثناء السفر في البحر.[٧٩]

لم تقتصر السلطات في الدولة على القيام بالحملات العسكرية البحرية للتصدي للقراصنة في البحر، ولكن كان من المألوف أن يرافق السفن التجارية عدد من سفن الحراسة.[٨٠] كانت توجد إلى جانب السفن الفردية، أساطيل حقيقية تُسمى (قوافل)، وكان التجار الذين يُحضرون معهم سلعًا ثمينة يفضلون هذه الوسيلة في السفر، لأنها تكفل لهم أمنًا كبيرًا من غارات القراصنة، وكان ينظم بصفة عامة في موانئ الغرب الأوروبي رحلتان كبيرتان في الموسم الملائم: الأولى في أعياد الفصح تقريبًا، والثانية في عيد القديس يوحنا المعمدان (٢٤ يونيه).[٨١]

ومن وسائل الحد من القرصنة في البحر المتوسط وسواحله في عصر الحروب الصليبية تحصين الموانئ، فقد كانت مدينة صور -مثلاً- مدينة جميلة لها خليج يتوسطها بين برجين عظيمين، تدخله السفن للرسو عند الميناء، وبين

البرجين سلسلة حديد معترضة، عليها الحراس الأمناء، يربطونها في أول الليل، فيتعذر على سفن القرصان سبيل الدخول للسلب والنهب من البر أو من البحر، وليس في بلاد الدنيا ما يماثل هذا الميناء شأنًا.[٨٢] ومن هذه الوسائل أيضًا، عقد المعاهدات للتصدي لنشاط القراصنة في عصر الحروب الصليبية في البحر المتوسط. في عهد الإمبراطور البيزنطي أليكسيوس الثالث، كان هو نفسه يطلب مساعدة القراصنة ضد نظائرهم، نظرًا لانحلال البحرية البيزنطية، أو يسعى للتحالف مع دولة بحرية ليحارب قراصنة دولة أخرى. فقد خص الإمبراطور أليكسيوس الثالث، البيزيين برعايته، وكثيرًا ما زودهم بالسفن ليقاتلوا بها القراصنة أو غيرهم من الأعداء.[٨٣]

وفى سنة (٦١١هـ/١٢١٤م)، وقعت معاهدة بين البنادقة والبيزيين، تعهد فيها البنادقة بالامتناع عن كل عمل من أعمال النهب والسلب البحرية ضد البيزيين، وأعلنوا استعدادهم لتجهيز سفن تتعاون مع سفن بيزا لقمع أعمال القراصنة.[٨٤] ولا شك أن هذه المعاهدة كان لها أثر كبير في الحد من أعمال القرصنة في البحر المتوسط، لأنها وقعت بين أكبر رعاة للقراصنة في البحر المتوسط في ذلك العصر.

## خَاتِمَةٌ

ترتب على أعمال السلب والنهب التي قام بها القراصنة في عصر الحروب الصليبية العديد من الآثار، فمن الناحية الاقتصادية، كان للنشاط الفعال من جانب القراصنة أثره الفعال على ارتفاع أسعار السلع، في بعض المدن الأوروبية، ومن ثَمَّ على ارتباط الاقتصاد في كل من إنجلترا وفرنسا ودول أخرى،[٨٥] لذا كان من صالح التجارة تطهير البحار من اللصوص الذين يعيثون فيها فسادًا.[٨٦] وكانت أعمال القرصنة سببًا في ثراء بعض المدن في عصر الحروب الصليبية، فقد ذكر أحد المؤرخين بأن مدينة دمياط ازدادت ثروة بالتجارة وبممارسة القرصنة.[٨٧]

أما على المستوى الاجتماعي، فإن المدن البحرية عاشت دائمًا في خوف من تعدي القراصنة على سفنها،[٨٨] وبالنسبة إلى جزر البحر المتوسط وسواحله التي لم يكن لها أسطول قوي يحميها في عصر الحروب الصليبية فإن المصيبة كانت فادحة، فلما قام الجانبان الفاطمي والفرنجي بأعمال القرصنة، فإن سكان الموانئ الساحلية مثل عسقلان وقيسارية وأرسوف، هم الذين اشتدت معاناتهم لها.[٨٩]

ومن الناحية العسكرية، كان القراصنة ولصوص البحر يعيقون كثيرًا إرسال المؤن والإمدادات إلى الأراضي المقدسة، بالاستيلاء على الذاهبين إلى تلك البلاد والآيبين منها، ونهبهم.[٩٠] فعندما فكر فيلب السادس ملك فرنسا في القيام بحملة صليبية جديدة، كان عليه أن يكفل حرية مواصلاته، غير أن هذه المواصلات سوف تكون مهددة طالما لم يضع حدًا لجرأة هذا الشعب من القراصنة، تلك الجرأة التي تشتد يومًا بعد يوم.[٩١]

وفي وقت تميز بتضخم الظاهرة الدينية، كانت أعمال القراصنة أحيانًا تُعيق الصليبيين من الوصول إلى الأماكن المقدسة، ففي سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٤م)، نشب خلاف بين الجنويين والبنادقة، وبلغت الخصومة بين هاتين الفئتين إلى حد أن أسطولهما حارب أحدهم الآخر، وصار البحر خطيرًا جدًا، إلى درجة أن ما من حاج صليبي يتجرأ على زيارة الأماكن المقدسة، لأن الفئتين كانتا قويتين في البحر والبر، وكانتا أداتا رعب لكل من الصليبيين والمسلمين سواء.[٩٢]

## الهَوامِشُ:

(١) عبد الرؤوف سنّو، "**التجارة الألمانية والقرصنة في غربي البحر المتوسط: إشكالياتها وعقبات تطويرها (١٧٦١ – ١٨٣٠)**"، مجلة أوراق جامعية (بيروت)، العدد (٣٧) ٢٠١١.

(٢) لودولف فون سوخم: **وصف الأرض المقدسة**. ترجمة/ سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، دمشق ١٩٩٩م. ج٣٧/ ص٢٦٧.

(٣) فيلكس فابري: **رحلات فيلكس فابري**. ترجمة/ سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، دمشق ٢٠٠٠م. ج٣٧/ ص٢٢٧.

(٤) بطرس البستاني: **محيط المحيط**. مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٧م. مادة قرص.

(٥) أحمد مختار عمر: **معجم اللغة العربية المعاصرة**. عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م. ج٣/ ص١٧٩٨.

(٦) خير الدين الأسدي: **موسوعة حلب المقارنة**. منشورات جامعة حلب، سوريا ١٩٨١م. ج٥/ ص١٧٦.

(٧) عبد الرحمن بشير: **القرصنة غربي المتوسط**. حوليات كلية الآداب، جامعة الزقازيق، العدد ٣٢ سنة ٢٠١٢م. ص ١٨.

(٨) المرجع السابق: العدد ٣٢ سنة ٢٠١٢م. ص ١٩.

(٩) **الحرب الصليبية الثالثة**: ترجمة/ حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠م. ج١/ ص١٦٥.

(١٠) **رحلات فيلكس فابري وجولاته**: الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية. ج٣٨/ ص٢٢٨.

(١١) **التاريخ الكبير**: ترجمة/ سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، دمشق ٢٠٠١م. ج٤٠/ ص٤٨٩.

(١٢) المصدر السابق: ج٣/ ص٤٤٩.

(١٣) إيلاف عاصم مصطفى: "**دور البابوية والقراصنة في شلّ حركة التجارة الشرقية في البحر الأبيض المتوسط (١٢٩١-١٤٩٨م)**". مجلة كلية التربية الأساسية، الجامعة المستنصرية، العراق، العدد٧٣ سنة ٢٠١٢م. ص٢٧١-٢٧٢.

(١٤) ف. هايد: **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى**. ترجمة/ أحمد رضا محمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩١م. ج٢/ ص١٠٢.

(١٥) **تاريخ بيت المقدس**: ترجمة/ سعيد البيشاوي، دار الشروق، عمان، الأردن، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.ص١٣٥.

(١٦) ف. هايد: **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى**. ج١/ ص٢٨٣.

(١٧) المرجع السابق: ج١/ ص٢٨٣.

(١٨) **ألكسيوس الثالث**: إمبراطور بيزنطة خلال الأعوام من ١١٩٥ إلى ١٢٠٣م، وقد وصف بالضعف والفساد والانحلال وسيطرة زوجته عليه، تم القبض علية عام ١٢١٠م، وأمضى باقي عمره في أحد أديرة في مدينة نيقية. محمد مؤنس عوض: **معجم أعلام عصر الحروب الصليبية في الشرق والغرب**، مكتبة الآداب، القاهرة ٢٠١٤م. ص ٥٧٠-٥٧١.

(١٩) عبد الرحمن بشير: "**القرصنة غربي المتوسط**". حوليات كلية الآداب، جامعة الزقازيق، العدد ٣٢، سنة ٢٠١٢م. ص٦١.

(٢٠) ف. هايد: **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى**. ج١/ ص٢٤٤.

(٢١) باتسيك ماخوفسكي: **تاريخ القرصنة في العالم**. ترجمة/ أنور محمد إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٨م.ص٧.

(٢٢) ف. هايد: **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى**. ج١/ ص٢٤٨.

(٢٣) **الغليون**: نوع من السفن اعتاد الحجاج الصليبيون على عبور البحر الأبيض المتوسط بها إلى الأرض المقدسة، وهو نوع من المراكب المتوسطة الحجم العاملة في البحر، وهو ليس من النوع الأكبر. وهي مراكب مستطيلة ترحل من شاطئ إلى آخر، وتبقى مبحرة على مقربة من الشاطئ، ولها ستين مقعدًا على كل جانب، ولكل مقعد ثلاثة من البحّارة، معهم ثلاثة مجاديف. فيلكس فابري: **رحلات فيلكس فابري**. الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية. جـ٣٨ ص٢٣٢، لودولف فون سوخم: **وصف الأرض المقدسة**. الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية. ج٣٧/ ص٢٧٣.

(٢٤) متى باريس: **التاريخ الكبير**. الموسوعة الشامية. ج٤٠/ ص١٢٠٣.

(٢٥) باتسيك ماخوفسكي: **تاريخ القرصنة في العالم**. ص٨-٩.

(٢٦) ف. هايد: **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى**. ج٢/ ص١٠١.

(٢٧) ف. هايد: **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى**. ج٢/ ص١٠٠.

(٢٨) المرجع السابق: جـ١ ص٢٤١.

(٢٩) **رحالات فيلكس فابري وجولاته**: الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية. ج٣٨/ ص٢٤٤.

(٣٠) المصدر السابق: جـ٣٨ ص٢٦٥.

(٣١) باتسيك ماخوفسكي: **تاريخ القرصنة في العالم**. ص٨-٩.

(٣٢) مجهول: **الحرب الصليبية الثالثة**. ج٢/ ص١٤٠.

(٣٣) ف. هايد: **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى**. ج٢/ ص١٠١.

(٣٤) عزيز سوريال عطية: **الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب**. ترجمة/ فيليب صابر سيف، دار الثقافة، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٧٧م. ص١٥٧.

(٣٥) رنسيمان: **تاريخ الحروب الصليبية**. ترجمة/ السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٩٣م. ج١/ ص٣٨١.

(٣٦) ف. هايد: **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى**. ج١/ ص٢٨٠-٢٨١.

(٣٧) المرجع السابق: ج٢/ ص١٠٠.

(٣٨) متىَ باريس: **التاريخ الكبير**. الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية. ج٤٠/ ص٥٠٩.

(٣٩) روجر أوف ويندوفر: **ورود التاريخ**. الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية. ترجمة/ سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، دمشق ٢٠٠٠، ج٣٩/ ص٧٤٥.

(٤٠) ف. هايد: **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى**. ج٢/ ص١٠١.

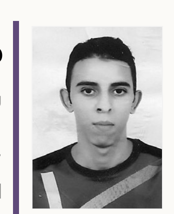
(٤١) ف. هايد: **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى**. ج١/ ص٢٤١-٢٤٢.

(٤٢) المرجع السابق: ج١/ ص٢٩٩.
(٤٣) المرجع السابق: ج١/ ص٢٨٢-٢٨٣.
(٤٤) ف. هايد: **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى**. ج١/ ص٢٤٤، ٢٧٩.
(٤٥) المرجع السابق: ج٢/ ص١٠١، ٢٠٦.
(٤٦) متي باريس: **التاريخ الكبير**. الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية. ج٤٠/ ص٤٣٣.
(٤٧) ف. هايد: **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى**. ج١/ ص٣٣١.
(٤٨) متي باريس: **التاريخ الكبير**. الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية. ج٤٠/ ص٥٠.
(٤٩) لودولف فون سوخن: **وصف الأرض المقدسة**. الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية. ج٣٧/ ص٢٨٥.
(٥٠) ف. هايد: **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى**. ج١/ ص٢٤٤.
(٥١) كان من السفن الشائع استخدامها في القرصنة في البحر الأبيض المتوسط حتى القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، هي القادوس، وهي عبارة عن مركب شراعي ذي مجاديف. عبد الرحمن بشير: **القرصنة غربي المتوسط**، حوليات كلية الآداب، جامعة الزقازيق، العدد ٣٢ سنة ٢٠١٢م. ص٢١.
(٥٢) بنيامين التطيلي: **رحلة بنيامين التطيلي**، ترجمة/ عزرا حداد، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م. ص١٩٢.
(٥٣) **وصف الأرض المقدسة**: الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ج٣٧/ ص٢٧٥.
(٥٤) ف . هايد: **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى**. ج٢/ ص١٠٢.
(٥٥) ف . هايد: **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى**. ج١/ ص٢٤٣.
(٥٦) **تاريخ الحملة إلى القدس**: ترجمة/ زياد العسلي، دار الشروق، عمان، الأردن، الطبعة الأولى ١٩٩٠م. ص١١١.
(٥٧) **رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب في الديار المقدسة ١١٠٦-١١٠٧م**: ترجمة/ سعيد البيشاوي، مؤسسة مهنا، عمان، الأردن، الطبعة الأولى ١٩٩٢م: ص١٠٥.
(٥٨) مارينو سانوتو: **الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها**. ترجمة/ سليم رزق، مؤسسة الريحاني، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩١م. ص١٢٥.
(٥٩) ف . هايد: **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى**. ج١/ ص٦٨.
(٦٠) يوشع براور: **الاستيطان الصليبي في فلسطين**. ترجمة/ عبد الحافظ البنا، دار عين، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠١م، ص٢٤٦.
(٦١) أولفر أوف بادربورن: **الاستيلاء على دمياط**: ترجمة/ سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، دمشق ١٩٩٨م. ج٣٣/ ص٨٤-٨٥.
(٦٢) فيلكس فابري: **رحلات فيلكس فابري**. الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ج٣٨/ ص١١٥٦.
(٦٣) يفهم من هذه العبارة بأن التجار المسلمين كانوا يسافرون في البحر المتوسط تحت حماية الأسطول الإسلامي خوفًا من هؤلاء القراصنة الصليبيين، ولما تعذر سيره مع هؤلاء التجار وطال انتظاره، تعجلوا المسير بمراكبهم دون حماية، مما عرضهم لهجوم القراصنة.
(٦٤) ابن القلانسي: **ذيل تاريخ دمشق**. مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٨م. ص١٧١، ابن العبري: **تاريخ الزمان**. ترجمة/ إسحق أرملة، دار المشرق، بيروت ١٩٩١م. ص١٣٢.
(٦٥) ف. هايد: **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى**. ج١/ ص٢٤١-٢٤٢.
(٦٦) ف. هايد: **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى**. ج٢/ ص١٠٠.
(٦٧) ف. هايد: **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى**. ج١/ ص٢٤٤.
(٦٨) المرجع السابق: ج١/ ص٤٤٨.
(٦٩) رنسيمان: **تاريخ الحروب الصليبية**. ج١/ ص٢٩٨-٢٩٩.
(٧٠) ألبرت فون آخن: **تاريخ الحملة الصليبية الأولى**. الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية. ج٥١/ ص٥٠-٥١.
(٧١) المصدر السابق: ج٥١/ ص٢٧٢.
(٧٢) باتسيك ماخوفسكي: **تاريخ القرصنة في العالم**. ص٦٣.
(٧٣) سعيد عبد الفتاح عاشور: **أوروبا العصور الوسطى**. لجنة البيان العربي، القاهرة، لم تذكر سنة الطبع. ج٢/ ص١١٦.
(٧٤) رانسيمان: **تاريخ الحروب الصليبية**. ج١/ ص٤٤٦.
(٧٥) ف . هايد: **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى**. ج١/ ص٤٤٨.
(٧٦) المرجع السابق: ج١/ ص٢٤٣.
(٧٧) الشواني: سفن حربية كبيرة، ومفردها شيني. أحمد دهمان: **معجم ألفاظ المصطلحات التاريخية في العصر المملوكي**. دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٩٠م. ص١٠٠.
(٧٨) مجهول: **الحرب الصليبية الثالثة**. ج١/ ص٥٠.
(٧٩) أولفر أوف بادربورن: **الاستيلاء على دمياط. الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية**. ج٣٣/ ص٧٩.
(٨٠) يوشع براور: **الاستيطان الصليبي في فلسطين**. ص٢٤١.
(٨١) ف. هايد: **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى**. ج١/ ص١٩١.
(٨٢) **رحلة بنيامين التطيلي**: ص٢٣٨.
(٨٣) ف. هايد: **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى**. ج١/ ص٢٤٤-٢٤٨.
(٨٤) ف. هايد: **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى**. ج١/ ص٢٩٧.
(٨٥) باتسيك ماخوفسكي: **تاريخ القرصنة في العالم**. ص٦٣.
(٨٦) ف. هايد: **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى**. ج٢/ ص١٠٢.
(٨٧) أولفر أوف بادربورن: **الاستيلاء على دمياط**. الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية. ج٣٣/ ص٦٤.
(٨٨) سعيد عاشور: **أوروبا العصور الوسطى**. ج٢/ ص١١٦.
(٨٩) رنسيمان: **تاريخ الحروب الصليبية**. ج١/ ص٤٥٧.
(٩٠) متي باريس: **التاريخ الكبير**. الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ج٤٠/ ص٧٨٦.
(٩١) ف. هايد: **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى**. ج٢/ ص٦٧.
(٩٢) فيلكس فابري: **رحلات فيلكس فابري**. الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ج٣٨/ ص١١٧٠.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].



# العلاقات التجارية بين شمال المغرب والمغارب
## من الفترة الوسيطة إلى التاريخ المعاصر



**وليد موحن**
باحث في سلك الدكتوراه الحديث والمعاصر
جامعة الحسن الثاني المحمدية
الدار البيضاء – المملكة المغربية

### مُلَخّصْ

*لقد دأبت الاسطوغرافيا التاريخية المتعلقة بالتأريخ للمجال المغاربي على الجانب السياسي والمعطى الحربي والشأن السلطاني وابتعدت عن المساحلة في النواحي الاقتصادية والاجتماعية التي تعد رحيق وأس الكاتبة التاريخية المعاصرة حسب ما جادت به المدارس التاريخية الراهنة، وقد قطع هذا الباب أشواطا في الأصقاع الأوربية، وخلف دراسات ثرية، وأطروحات غنية، ومونوغرافيات جزلة ومحكمة استطاعت أن تنكب على الجوانب الخفية من التأريخ للاقتصاد والفرد والهامش وغيرها من التجليات الغائرة. انطلاقًا من هذا المعطى ارتأينا تسليط الضوء على العلاقات التجارية والاقتصادية بين شمال المغرب والمغارب من خلال تتبع مساراتها ومصادرها وأهم تجلياتها من رحيق المادة المصدرية المتوفرة سواء تلك المكتوبة باللغة العربية أو التي حبرتها أيادي غربية من أجل رؤية منسجمة لفحوى هذه العلائق في مدها وجزرها. يطرح البحث في الشق الاقتصادي والتجاري بخصوص المجال المغربي جلة من الإشكالات المنهجية والمعرفية، خاصةً أن "المغاربيون" يعتبرون هذا المجال المومأ إليه مجالاً جغرافي ليست له حدود مرسومة إلى غاية الاستعمار والحماية، وانما ينتمي إلى فلك رئيس هو "العالم الإسلامي– "دار الإسلام" مقابل العالم الغربي– "دار الكفر" مما يطرح صعوبات تتجلى في استكناه المادة المصدرية التي أرخت لهذه الفترة. إن العلاقات التجارية بين شمال المغرب والمغارب بلغت مرحلة كبيرة من الأوج والازدهار انطلاقا من العصر الوسيط كما نستشف من المصادر الجغرافية، أو الفترة الحديثة على الرغم من الصراعات التي كانت قائمة في المنطقة، وخضوع الأقطار المغاربية للسيطرة العثمانية، غير أن هذه المبادلات بلغت مكمن عظيم إبان الفترة المعاصرة وإن كان جزء من المغارب في هذه الفترة فقد استقلاله وسقط في شباك الإمبريالية الفرنسية انطلاقًا من سقوط الجزائر المدوي سنة ١٨٣٠ وما أعقبها من انتكاسات شملت عموم المجال المغربي من ضغوط استعمارية وجوائح وبائية وأفات دنيوية بشكل سلطت عليه الضوء الكتابات السلطانية وما وصلنا من محطوطات تاريخية ونتف مصدرية.*

**بيانات المقال:**

| | | | |
|---|---|---|---|
| تاريخ استلام المقال: | ٣١ | يوليو | ٢٠١٧ |
| تاريخ قبـول النشـر: | ٢٨ | نوفمبر | ٢٠١٧ |

**كلمات مفتاحية:**
التاريخ التجاري، الرحلات الحجازية، المغارب، التجارة المغربية، شمال المغرب

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0054800

**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**
وليد موحن. "العلاقات التجارية بين شمال المغرب والمغارب من الفترة الوسيطة إلى التاريخ المعاصر".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الثاني والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٨. ص ٨٢ – ٨٧.

### مُقَدِّمَةُ

عـرف البحـث التـاريخي طفـرة نوعيـة باختراقـه لمـام عـدة موضـوعات تاريخيـة، وكشـفه عـن مكنـون عـدة مصـادر دفينـة تمـيط اللثـام عـن جلـة مـن القضـايا الإشـكالية علـى شـاكلة الأوضـاع الاقتصـادية والمبـادلات التجاريـة ونوعيتهـا. وان كـان الفكـر التـاريخي الأوربـي قـد قطـع أشـواط هامـة فـي هـذا المضمار، من خلال النهل من نهج مدرسة الحوليات عبر أعمالها الرائـدة مـن طـرف جهابـذة هـذا الاتجـاه وعلـى رأسـهم فرنانـد

بروديل، ولوسيان فيفر، وجون لوي مييج في بحثه في المجال المغربي.

فان أقطارنا المغاربية لازالت مثل هده الأبحاث تظل في ظل الشح والندرة فجل الدراسات انصرفت إلى الجانب السياسي والدبلوماسي وما باح به من حروب ومعاهدات واتفاقيات، وفي هذا الصدد ووعيا منا بأهمية "التاريخ الاقتصادي" ارتأينا أن نبحث في موضوع "العلاقات التجارية بين شمال المغرب والمغارب" وهو موضوع ما زال بكرًا، يتطلب البحث والتنقيب بين ثنايا السطور والنتف المنتشرة بين ردهات المصادر والمراجع والمونغرافيات المحلية والوطنية والمغاربية.

فلا غرو أن المبادلات التجارية بين شمال المغرب والمغارب عرفت شأوا عظيمًا برغم من النزر اليسير في بطون المصادر والمراجع، وسنحاول بين متون هذا العرض أن نستجلي هذه العلاقات من خلال التعريف بالمصادر والمراجع التي يمكن النهل منها، وكذا معرفة جغرافية المنطقة باعتبار أن العوامل الجغرافية تلعب أدوار أساسية في تفسير حركية التاريخ خاصةً في شقه الاجتماعي، إضافة إلى تتبع النشاط التجاري بين شمال المغرب والمغارب في بعده الزمني الطويل وذلك بتتبع نشاطه من الحقبة الوسيطية إلى الفترة المعاصرة.

ولا شك أن الميدان التجاري وسليلة الاقتصادي ما زال يعاني من نقص مهول في ميدان الدراسات والأبحاث والأطروحات الجامعية، حيث يشير الأستاذ عمر أفا أن تاريخ التجارة لم يتم التطرق إليها بما تستحق من العناية والاهتمام، فمن خلال ما يزيد عن عشرة ألف وثمانمائة رسالة وأطروحة جامعية في مجالات العلوم الإنسانية بالمغرب منها ألفُ وخمس وسبعون رسالة وأطروحة خاصة بالتاريخ لم يتعرض لتاريخ التجارة حتى الآن غير إحدى عشرة دراسة. هذا بالنسبة لكل الحقب والدول المتعاقبة على تاريخ المغربي.[١] فما بالك بالتاريخ التجاري للمغارب.

## ١-المادة المصدرية المتعلقة بالموضوع

إن البحث في تاريخ المغارب يطرح عدة إشكالات منهجية تتعلق بطبيعة المادة المصدرية وشحها، حيث يشير الدكتور عثمان المنصوري بأن هناك فقرا في الدراسات المتعلقة بالفضاء المغربي على الرغم من غناه، فما زال الحديث عن هذا النوع من الدراسات من باب الأماني،[٢] وفي السياق نفسه يشير الدكتور محمد حبيدة في كتابه "بؤس التاريخ" أن الدراسات ذات صلة بمجموع المغارب الكبير ظلت ناقصة.[٣] فالباحث والدارس إن أراد استكناه الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية عليه بالصبر والأناة وصبر أغوار المصادر والتنقيب بين ثناياها. ومن المصادر التي يمكن أن تشكل ينبوع يمتح منه الباحث مدته نذكر:

**١/١-ينبوع الرحلات الحجازية إلى الأراضي المقدسة**

عرفت العلاقات المغربية المشرقية امتدادًا روحيًا وتواصلًا ثقافيًا منذ فترات مبكرة، حيث شكلت الرحلة إلى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج هاجسا لدى معظم المغاربة، خاصتهم وعامتهم، وقد دأب بعض العلماء المغاربة خلال فترات مختلفة من تاريخ المغرب على تدوين رحلاتهم في أسلوب أدبي متين،[٤] ومن هنا من الممكن أن يقتنص الدارس بعض القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي أوردها هؤلاء الرحالة في معرض رحلتهم عن بلدان المغارب. حيث كان الركب ينحو إلى مصر عبر الجزائر وتونس وطرابلس وبذلك يكتسي هذا الركب أهمية تجارية قصوى.[٥]

**٢/١-المصادر الرئيسة**

كتبت المصادر الرئيسة أساسًا في البلدان المغاربية من أجل الحديث عن الحياة السياسية ومناقب وسجايا السلطات الحاكمة، وهذا لا يمانع أن هذه المصادر تضم بين طياتها معطيات ثرية حول الحياة الاقتصادية والمبادلات التجارية في خضم ما باحث به.

**٣/١-المصادر الجغرافية**

بما تضمنته من أوصاف مجالية ومعطيات طبيعية، تحفل مثلًا هذه المصادر ببعض المعطيات الاقتصادية والتجارية التي تغني البحث في تاريخ المغارب منها.

- ابن حوقل: صورة الآراض
- المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم
- البكري: المسالك والممالك
- الحسن الوزان: وصف أفريقيا
- مارمول كاربخال: أفريقيا

**٤/١-المراجع**

ما زال البحث التاريخي المغاربي يعوزه التنقيب في قضايا التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، مع وجود بعض المحاولات الجادة من نظير:

-فاطمة بلهواري، التكامل الاقتصادي والمبادلات التجارية بين المدن المغاربية خلال العصر الوسيط، منشورات الزمن، الدار البيضاء، ٢٠١٠.

-إدريس بوهليلة، الجزائريون في تطوان خلال القرن ١٣هـ-١٩م، مساهمة في التاريخ الاجتماعي للمغرب الكبير، منشورات الشباك، تطوان، ٢٠١٢.

Vanacker, C., «Géographie économique de l'Afrique du Nord», in Annales, S.E.C, 1973

## ٢-المعطيات الطبيعية للمغارب

لا بد لنا ونحن ندرس النشاط الاقتصادي لبلاد المغرب من تأييد ما قاله أحد الباحثين، من أن أي نشاط تجاري لمجتمع ما يتطلب الإحاطة بالبيئة الطبيعية، ونوعية العناصر التي يتكون منها، لأن العملية الاقتصادية هي تفاعل الإنسان مع بيئته،[٦] والإنسان نتاج طبيعته.

تشكل بلاد المغارب وحدة جغرافية متميزة عن بقية أجزاء القارة الإفريقية، وقد كان لطبيعة الأرض ونوع المناخ تأثير في توزيع المياه ومناطق الاستقرار فيها، وبالتالي في أنشطتها الاقتصادية، وتتكون تضاريسها من سلاسل جبلية وهضاب وصحراء، وتتخللها أودية، وأنهار، وعيون، لذا يمكن تقسيم بلاد المغرب جغرافيًا إلى ثلاثة أقسام رئيسة، وهي المنطقة الساحلية، والجبلية، والصحراوية.[٧] وتمتد المنطقة الساحلية على طول شواطئ البحر الأبيض المتوسط حتى مدينة طنجة واعتبرت هذه المنطقة تجمع بشري منذ زمن مبكر. وتوجد بجانب السهل الساحلي منطقة سهول داخلية، وغالبًا ما تكون منفصلة ومنقطعة في صورة تلال، كسهل فاس ومكناس، وتلمسان وبني سليمان بالجزائر، وباجة في تونس، وقد ساعدت هذه السهول على امتداد الطرق التجارية بين مدن بلاد المغرب المختلفة خلال العصر الوسيط.

أما المنطقة الجبلية فتمتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، ولعل أهمها في موضوعنا هي الريف في شمال غرب المغرب، والتل في الجزائر وتونس. في حين تعتبر المنطقة الصحراوية القسم الأكبر من بلاد المغرب، فتمتد من واحات برقة، وفزان، وزويلة، وورجلان، إلى سجلماسة[٨]، أما شمال المغرب فلا توجد فيه صحاري على غرار باقي بلدان المغرب القاحلة، ومع ذلك فإن الينابيع والواحات تنتشر في أغلب المواضع، وبفضلها أمكن للقوافل التجارية أن تخترق هذا المجال. أما بخصوص المناخ فهو متمايز بين المتوسطي والصحراوي. وتتوزع الخريطة البشرية لبلاد المغرب بين قبائل بربرية وعربية وأفارقة وسودان، وكان لهذه التشكيلة دور مهم في المجالات الاقتصادية المختلفة.

## ٣-العلاقات الاقتصادية بين شمال المغرب والمغارب: العصر الوسيط

يطرح البحث في الشق الاقتصادي والتجاري بخصوص العصر الوسيط جلة من الإشكالات المنهجية خاصةً أن المغاربة شانهم بذلك شأن باقي المسلمين كانوا لا يعتبرون أنفسهم أجانب بالبلاد الإسلامية بحكم الشعور الذي تعمق لديهم بالانتماء إلى الدار نفسها. فجل المبادلات كانت قائمة مع الأقطار الأوربية، وقد أشار كانرد (CANAR) أن الرسائل التي كانت متبادلة بين المسلمين ونظرائهم في باقي أقطار الإسلام لم تحمل البتة أية هموم تجارية تذكر.[٩]

ولا نعدم الإشارات المصدرية بخصوص الفترة الوسيطية في بعض المصادر الجغرافية بخصوص العلاقات التجارية بين شمال المغرب والمغارب، حيث يذكر ابن حوقل في كتابه "صورة الأرض" عن مدينة البصرة[١٠] بأن القطن كان منتشرًا في أرجائها معروفة بالمتاجرة فيه وتصديره إلى مجموعة من المناطق من بينها "أفريقيا" حيث يقول: "مدينة مقتصدة عليها سور ليس بالمنيع ولها مياه عن خارجها من عيون عليها بساتين من شرقيها ولها غلات كثيرة من القطن المحمول إلى إفريقية وغيرها ومن غلاتهم القمح والشعير والقطاني وسهمهم من ذلك وافر.[١١] كما اشتهرت المدينة بكثرة الثروة الحيوانية فيها ورحابة مراعيها، وإنتاجها للألبان حتى سُميت في متون المصادر "بمدينة الألبان" على حد تعبير أبي عبيد الله البكري ولا نستبعد تصديرها إياه إلى سائر المغارب على شاكلة القطن.

كما حملت من فاس البرانس المديونية إلى سائر المغرب كما كان يصدر فائض الذهب بسلجلماسة إلى شتى الأقطار الأوربية والمغاربية انطلاقا من ميناء أصيلا وسبتة، وتخبرنا الرحلات الحجازية أن النحاس كان يصدر من المغرب إلى المشرق عبر قوافل الحجيج المتجه إلى بيت الله، وبما أن المناطق المغاربية طريق رئيسة في مسار الرحلات المكية، فقد انتشرت تجارة النحاس بها. بالإضافة إلى ذلك كانت المواشي ضمن الصادرات وشملت طلبات المشرق من المغرب الأقصى، ناهيك على التمور، والقرظ، واللبودة، والبزاة السود. ومن هذا يمكن لنا أن نتبين أن القوافل التجارية

وخط سيرها من المغرب الأقصى عبر المغارب إلى المشرق كان مرتعًا تجاريًا غنيًا ما زال في حاجة ماسة إلى البحث والتنقيب.[١٢]

كما عرفت هذه المبادلات التجارية عدة صراعات وحزازات بين السكان[١٣] في هذه الأقطار، فهذا ابن عذارى المراكشي يحدثنا أن رجلاً من جند كتامة قام على رجل من تجار أهل القيروان، فلما دافعوه عنه، شهروا عليهم بالسلاح، وأردوا نهب الحوانيت. وكذلك قضية أوردها الونشريشي ضمن نوازله حول قضية عقارية وتجارية وقعت بين أحد التلمسانين ونظراءه المغاربة في مدينة فاس عام ٨٧٩ هـ.

وقد شكلت المنتوجات الزراعية نسبة كبيرة من قائمة التبادل التجاري بين أقاليم المغرب الثلاثة، خاصةً وأن الكثير من مدن المغارب التي كانت تنتج المحاصيل الزراعية بأنواعها وهذا ينطبق على التجارة بين المغرب الأقصى وإقليمي المغرب الأوسط والأدنى. فقد حمل الفستق من مدينة قفصة إلى المغرب الأقصى. أما غلات الزيتون والزيت والتي اشتهرت بإنتاجها مدينة سفاقس في المغرب الأدنى فكانا يحملان إلى مدن أقاليم المغرب. كما عرفت مدن المغرب الأوسط مثل بونة وزلو بإنتاجها الوافر للحنطة والشعير ومدينة ادبس بإنتاجها الواسع للزعفران،[١٤] وإن كُنا لا نملك إشارة صريحة إلى تصديره غالى شمال المغرب المتوسطي بالذات ذلك أن المصادر اكتفت بذكر بلاد المغرب الأقصى دون مدنه إلا في حالة شاذة مثلاً ذكر مدينة البصرة السالفة الذكر. ولا شك أن ميدان المبادلات التجارية خاصة في الحقبة الوسيطية في حاجة ماسة إلى اختراق المصادر الدفينة من كتب النوازل والتراجم والمناقب والطب والفلاحة وغيرهم.

## ٤-العلاقات التجارية في الفترة الحديثة

أضحى المغارب من الناحية السياسية في الفترة الحديثة ذا وضعية اعتبارية خاصة، فالمغرب الأقصى استقر به الحال بعد فوضى مجالية إلى حكم الأشراف السعديين ونظرائهم العلويين، والمغربين الأوسط والأدنى أصبحا داخل نطاق الدولة العثمانية، وقد نشطت الرحلات الحجازية بصفة وازنة إبان هذه الفترة، فلا نعدم الرحلات التي قطعت المغارب في اتجاه البقاع المقدسة محملة بشتى ضروب وأنواع السلع التي صرفت جلها في أقطار المغرب عند استراحاتها.

ومن الرحلات التي انطلقت من قاعدة تطوان نذكر: رحلة ابن عثمان المكناسي، ورحلة الرافعي التطواني، فقد ظهر حسب الأستاذ مصطفى الغاشي نوع من التعامل التجاري بين الحجاج والسكان المحليين، بحيث كانت القوافل محملة ببعض البضائع التي يمكن ترويجها مع سكان المناطق التي يمر منها الركب[١٥]، فيقول أبي سالم العياشي: "فإذا أخذت في تجهيز أمرك فاشتر شيئًا من الجلد الأحمر فهو نافق أمامك".[١٦] ومن البضائع التي كانت منتشرة كثيرة في قوافل الحجاج برًا وبحرًا "القرنفل والكحل والسواك والزعفران والجاوي والمشط وشيء من الإبر والكاغذ".[١٧] وفي مدينة مليلية وصل مركبًا من الجزائر يحمل (١٢) أثني عشر مدفعًا ثقيلاً لأنجاد حسن باشا الذي كان يحاصر مدينة فاس وذلك عام ١٥٥٨م، وقد اهتم أتراك الجزائر بهذا الحسن وسموه بالميناء الجديد.[١٨]

والملاحظ في الفترة الحديثة أن التجارة والاقتصاد تراجعًا بشكل كبير ومهول بفعل الأوبئة والمجاعات التي كانت ضاربة أطنابها، والحروب التي كانت أوبتها شامخة، والظروف السياسية المترددة، سواء بعد وفاة أحمد المنصور الذهبي، أو السلطان العلوي المولى إسماعيل.

## ٥-العلاقات التجارية في الفترة المعاصرة

برغم أن جل الأبحاث وجهت أنظارها إلى المعاملات التجارية مع الأقطار الأوربية، مقدمة معلومات ضافية حول وارداتها وصادراتها، فإننا لا نعدم المادة المصدرية بخصوص تبودلت التجارية بين شمال المغرب والمغارب في الفترة المعاصرة، والتي ستعرف ضغوطات استعمارية انتهت بسقوط المغرب الكبير في شباك الإمبريالية الأوربية.

وقد لعب مرسى تطوان في القرن الثامن عشر دورًا رئيسًا بحيث أضحى المرسى الوحيد لسائر المنطقة الشمالية، بالإضافة إلى تمتع المدينة بنوع من الاستقلالية عن السلطة المركزية، وفي الوقت نفسه مرفأ بحريًا رئيسًا، وبذلك أضحى مرفأ تطوان الوحيد المؤهل لاستقبال السفن الواردة من الخارج.[١٩] ومن أوجه التجارة بين تطوان والجزائر نذكر أن جزء كبير منها كان يقوم على الوسق فكانت تطوان تصدر نحو الجزائر قسطًا مهمًا من إنتاجها الحرفي مثلاً البلاغي وأنواع الحصير، وقد انتقلت هذه الصناعة إلى الجزائر على يد أسرة الحسيسين التي كان أفرادها ينتقلون بين تطوان ووهران، كما كانت تطوان قاعدة لتزويد الأمير عبد القادر بالأسلحة. بينما كانت تستورد تطوان من الجزائر منتجات الحرير وبعض الأواني الصفرية وكذلك القزذرة.[٢٠]

ومع احتلال الجزائر هاجر إلى تطوان ثلة من الأسر الجزائرية التي عملت على إثراء الحياة التجارية، وإدخال حرف جديدة إلى الحاضنة التطوانية كما أشار الأستاذ إدريس بوهليلة في كتابه "الجزائريون في تطوان". ومن التجار المغاربة الذين حلوا بالقطر الجزائري نذكر محمد السليماني صاحب كتاب "اللسان المعرب عن التهافت الأجنبي على المغرب"، حيث كان يقيم العديد من التجار الفاسيين في قطر تلمسان "،[٢١] ولا يخبرنا صاحب الكتاب عن نوعية التجارة التي كانت سائدة في هذه المدينة. وحسب الأستاذ عكاشة برحاب فانه يستفاد من الوثائق القليلة أن القوافل التجارية المتوجهة من فاس إلى غرب الجزائر كانت تربط بانتظام، أما المواد المنقولة، فبعضها منتجات مغربية من أصل فلاحي (حبوب، ملابس صوفية، جلود خام أو مواد مصنعة، أو جلود مصنعة زيوت، حناء، عسل...).[٢٢]

غير أن الوضع تغيير بعد احتلال فرنسا للجزائر، فأصبحت الجزائر البلد الإسلامي، تعيش في ظل نظام غير إسلامي، فبادر السلطان عبد الرحمان إلى معارضة إقامة علاقة تجارية بين البلدين. وتخوف أن تستعمل التجارة مطية لامتداد النفوذ الفرنسي إلى المغرب.[٢٣] وفي سنة ١٨٦٧، أصدرت السلطات الفرنسية بالجزائر مرسوما نص على إعفاء المنتجات المغربية من أداء الرسوم الجمركية، مع محاولة جادة من طرف بريطانيا من أجل الحد من هذه التجارة وسيطرتها على المبادلات مع موانئ شمال المغرب.[٢٤] كما أن التجارة البحرية بين ميناء سبتة ووهران كانت قائمة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث يخبرنا الرحالة الفرنسي (Henri Duverier) هنري دوفيري، أنه في ١٨ نوفمبر من سنة ١٨٥٢، سيطر الإسبان على مركب محمل بالسلع في حوزة القلعيين متجهًا إلى ثغر وهران.

ويَعتقد بعض الدارسين أن أصول قبيلة بطيوة المستقرة بأرزيو في المنطقة الوهرانية تعود إلى قبيلة بني سعيد الريفية، التي يحتمل أن تكون استقرت في الجزائر منذ القرن الثامن عشر نتيجة المبادلات التجارية التي كانت قائمة خاصةً بين سبتة ومليلية ونظيرتهم وهران، وقد تحدثت الكثير من الدراسات عن هذه الهجرات التجارية وفي مقدمتها.[٢٥]

*Auguste Mouliéras, Le maroc inconnu Marquis de Sagonzac; Voyages au Maroc*

وقد لعب أيضًا ميناء طنجة دورًا كبيرًا في تصدير واستيراد عدة منتجات سواءً إلى الأقطار الأوربية أو إلى الأسواق المشرقية والمغاربية، حيث يشير الدكتور خالد بن الصغير أنه في سنة ١٨٧٢ ثم شحن ما يربو عن ٢٦٤ بالة احتوت على ٧٩٢٠٠ زوجة صدرت نحو الجزائر.[٢٦] وبخصوص إيالة تونس يخبرنا الناصري أن المغرب قدم حمولات تجارية إلى تونس بعد سفارة الرياحي لدى مولاي سليمان الذي وفد إلى فاس في سياق أزمة غذائية طاحنة، طالبًا باسم باي تونس تقديم إمدادات مغربية لمواجهة المسغبة، مما يدل على أن العلاقات بين تونس العثمانية والدولة المغربية كانت قائمة بصفة ودية، ولا شك أن المبادلات التجارية مهمة بين الطرفين.[٢٧]

## خَاتِمَةٌ

خلاصة القول، إن العلاقات التجارية بين شمال المغرب والمغارب بلغت مرحلة كبيرة من التطور، انطلاقًا من العصر الوسيط كما نستشف من المصادر الجغرافية، أو الفترة الحديثة على الرغم من الصراعات التي كانت قائمة في المنطقة، وخضوع الأقطار المغاربية للسيطرة العثمانية، غير أن هذه المبادلات بلغت شأوا عظيما في الفترة المعاصرة وإن كان جزء من المغارب في هذه الفترة فقد استقلاله وسقط في شباك الإمبريالية الفرنسية. إن موضوع العلائق التجارية بين شمال المغرب والمغارب، يعد مجالا رحبا للبحث، قد يبوح بعدة معطيات ثرية وغنية عن الحياة الاقتصادية من خلال استقصاء المصادر المحلية والوطنية، والتنقيب في الأرشيفات العثمانية والأوربية، من أجل تحديد طبيعة المبادلات التي كانت قائمة بين هذه الأقطار والمدن المغاربية.

**ومن أهم الخلاصات التي توصلنا إليها بين ثنايا هذا العرض المتواضع:**

- أن العلاقات التجارية بين شمال المغرب والمغارب كانت قائمة بينة شملت عدة منتاجات أساسية، وبلغت قمتها وشأوها في الفترة الوسيطية.
- أن المادة المصدرية متوفرة بكثرة، تحتاج فقط إلى صبر وأناة في اختراقها، وكشف مكنونها، ورصد زادها، وعدم الاقتصار على المصادر المعرفة، بل ينبغي إماطة اللثام على المصادر الدفينة من كتب المناقب والتراجم والطب والفلاحة وغيرها. إضافة إلى الدراسات الأجنبية التي دونما شك تُعَدّ عمدة في التأريخ لتاريخ المغارب قاطبة، وفي شقه التجاري خاصة.[٢٨]

## الهَوامِشُ:

(١) أفا عمر، **التجارة المغربية في القرن التاسع عشر البنيات والتحولات ١٨٣٠-١٩١٢**، منشورات مكتبة دار الأمان، الرباط، ٢٠٠٥، ص٧.

(٢) المنصوري عثمان، "**التقارير الختامية عن أعمال ورشات الآيام الوطنية للجمعية المغربية للبحث التاريخي**"، مجلة البحث التاريخي، العدد ٤٤، ٢٠١٥، ص١٢٤.

(٣) محمد حبيدة، **بؤس التاريخ، مراجعات ومقاربات**، دار الأمان، ٢٠١٥، ص٥٤.

(٤) أمعيط نور الدين، **الرحلة المغربية إلى الحجاز خلال العصر الوسيط: رحلة العبدري نموذجًا**"، مجلة أمل، العدد (٤٨).

(5) R .Thomassy. Le Maroc et ses caravanes.Meurtim édition.Paris. P.61 .1845

(٦) عز الدين موسى أحمد، **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس هجري**، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٣، ص٣٥.

(٧) بلهواري فاطمة، **التكامل الاقتصادي والمبادلات التجارية بين المدن المغاربية خلال العصر الوسيط**، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠١٠، ص١١.

(٨) مؤلف مجهول، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار: وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب**، تحقيق: عبد الحميد سعد زغلول، جامعة الإسكندرية، ١٩٥٨، ص١٠٩.

(9) Canard(M); Les relations des Mérinides avec les Memeloukes; Annales des l institut des études orientales; 1939; Paris; P.73.

(١٠) مدينة أسست في الفترة الإدريسية ولعبت أدوار طلائعية، وتحولت في فترة وجيزة من مجرد قرية إلى مدينة عامرة ومركز اقتصادي كبير، تعرضت للاندثار ولم تعد لها قائمة في وقتنا الحالي، تقع على طريق سوق أربعاء الغرب في اتجاه وزان، على بعد حوالي ٤٠ كلم من الساحل الأطلنطي وحوالي ٢٠ كلم جنوب مدينة القصر الكبير.

(١١) حوقل أبي القاسم، **صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ١٩٩٦، ص٨٠.

(١٢) **النشاط التجاري في المغرب الأقصى خلال القرن ٩-١١م**، رسالة ماجستير تحت أشراف صباح إبراهيم الشيخلي، جامعة بغداد، ٢٠٠٤، ص٧٩.

(١٣) المرجع نفسه، ص٨٠.

(١٤) **النشاط التجاري في المغرب الأقصى خلال القرن ٩ هـ -١١م**، مرجع سابق.

(١٥) مصطفى عبد الله الغاشي، **الطرق وظروف الرحلة إلى مكة في الفترة الحديثة – المغرب الأقصى نموذجًا-ضمن المغرب والأندلس دراسات في التاريخ والأركيولوجيا** –تقديم وتنسيق محمد الشريف، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية تطوان، ٢٠٠٦، ص١٦٦.

(١٦) المرجع نفسه، ص١٦٦ نقلاً عن: أبو سالم العياشي "الرحلة الصغرى".

(١٧) المرجع نفسه، ص١٦٧.

(١٨) عبد العزيز بنعبد الله، **تاريخ المغرب العصر الحديث والمعاصر**، الجزء الثاني، مكتبة السلام، الدار البيضاء، دون سنة النشر، ص٨٠.

(١٩) عبد العزيز سعود، **تطوان في القرن الثامن عشر: السلطة-المجتمع-الدين**، منشورات جمعية تطاون أسمير، مطبعة الخليج العربي، ط١، تطوان، ٢٠٠٧، ص١٩٥.

(٢٠) عبد العزيز سعود، **تطوان في القرن التاسع عشر**، مطبعة الحداد يوسف إخوان، تطوان، ١٩٩٦، ص٤٣ .

(٢١) محمد السليماني، **اللسان المعرب عن التهافت الأجنبي حول المغرب**، مطبعة الأمنية، الرباط، ١٩٧١، ص١٥٦.

(٢٢) عكاشة برحاب، **مشكلة التجارة بين المغرب والجزائر ١٨٣٠-١٩٠٧**، ضمن ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، جامعة الحسن الثاني، الجزء (٢)، الدار البيضاء، ١٩٨٩، ص٢٤٧.

(٢٣) المرجع نفسه نقلاً عن: أطروحة عبد الرحمان الموذن ايناون والمخزن ١٨٧٣-١٩٠٧، رسالة جامعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ص٤٢٠.

(24) Miége J.L;Le Maroc et L Europe 1830-1894; P.U.F; Paris,1962, T2, P.267.

(٢٥) ميمون أزيزا، هجرة أهل الريف إلى الجزائر بين قساوة الطبيعة وعنف الاستعمار (١٨٥٦-١٩٥٦) ضمن ندوة العنف في تاريخ المغرب، أشغال الأيام الوطنية (٢١) للجمعية المغربية للبحث التاريخي ١٤-١٦ نونبر ٢٠١٣، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ٢٠١٣، ص١٤.

(٢٦) خالد بن الصغير، **الحركة التجارية بمرسى طنجة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر**، ضمن ندوة طنجة في التاريخ المعاصر ١٨٠٠-١٩٥٦، الناشر العربي للثقافة، طنجة، ١٩٩١، ص٨٦.

(٢٧) أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، وزارة الاتصال والثقافة، الرباط، ٢٠٠١، ج٥، ص١٩٧.

(٢٨) وقد فتح الموضوع شهيتنا، وأفصح عن نهمنا حيال التنقيب في مثل هذه المواضيع الجادة في التاريخ الاقتصادي الذي لم يفرج بعد عن كنوزه، ويُعَدّ منجمًا بكرًا ينبغي كشفه.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

دراسات

# معارك معان وجوارها في الثورة العربية الكبرى ١٩١٧ – ١٩١٨م



**أ. د. سطام زهير الخطيب**
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية معان الجامعية -جامعة البلقاء التطبيقية
المملكة الأردنية الهاشمية



**د. محمد عطا الله الخليفات**
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية معان الجامعية -جامعة البلقاء التطبيقية
المملكة الأردنية الهاشمية

## مُلَخّصْ

*تعالج هذه الدراسة مسرح العمليات العسكرية التي شهدتها مدينة معان والمناطق المجاورة لها ضمن إطار الثورة العربية الكبرى، وذلك للأثر الكبير الذي أحدثته تلك العمليات من معارك وهجمات وغارات في مجريات الثورة ونتائجها، ليس على صعيد الأرض الأردنية فحسب، وإنما في سائر عمليات الثورة. وتتبعت الدراسة بالبحث والتحليل معارك معان جميعها، والتي يمكن تصنيفها إلى ثلاث مستويات: معارك تحرير جوار معان (أبو اللسن، المريغة، أوهيدة، دلاغة، وادي موسى، الشوبك)، ومحطات سكة الحديد (غدير الحاج، فصوعة، المدورة، الجردونة، عنيزة) ومعان القصبة، وذلك وفقًا للتسلسل الزمني والمكاني للمعارك، مع عرض للأهداف التي سعت لتحقيقها ومجرياتها ونتائجها. وانتهت الدراسة إلى الوصول لعدد من النتائج منها: أن معارك معان وجوارها كانت الأهم والأطول في مجريات الثورة على الأرض الأردنية لأهمية موقع معان الاستراتيجي كحلقة وصل بين القوات التركية في دمشق والمدينة المنورة، وأن معان القصبة شكلت الحلقة الأصعب في معارك معان لتحصيناتها القوية وانضمام الأهالي للأتراك في مقاومة الجيش العربي.*

**بيانات الدراسة:**

تاريخ استلام البحث: ٢٥ يناير ٢٠١٧
تاريخ قبـول النشـر: ١٣ مايو ٢٠١٧

**كلمات مفتاحية:**
تاريخ الأردن الحديث، معارك، الثورة العربية الكبرى، معان، الجيش العربي

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0054801

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**
سطام زهير الخطيب. محمد عطا الله الخليفات، "معارك معان وجوارها في الثورة العربية الكبرى ١٩١٧ – ١٩١٨م".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الثاني والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٨. ص٨٨ – ١٠٥.

## مُقَدِّمَةُ

لا شك أن رصاصة الشريف الحسين بن علي في سماء مكة يوم السبت (٩ شعبان ١٣٣٤هـ/ ١٠ حزيران ١٩١٦م)، لم تكن مجرد رصاصة أطلقت في الهواء، وإنما كانت صرخة مدوية هدفها تحرير الأقطار العربية الآسيوية من التبعية للدولة العثمانية، وحفظ الدين الإسلامي، وتمكين العرب من بناء الدولة العربية الكبرى التي فقدوها منذ زهاء أربعة قرون، ويتجلى ذلك من خلال قول الشريف الحسين بن علي "نحن نحارب من أجل غايتين شريفتين حفظ الدين وحرية العرب عامة".[1] وتطلع الشريف الحسين إلى أن تبدأ الثورة في مكة ودمشق بآن واحد، مع نزول قوات الحلفاء (بريطانيا وفرنسا) من جهة البحر المتوسط، ليتم بذلك حصر الأتراك بين فكي كماشة، غير أن الظروف حالت دون ذلك فقد امتنع الحلفاء عن إنزال قواتهم في بلاد الشام، وأدت سياسة البطش والإرهاب التي انتهجها حاكم سوريا أحمد جمال باشا (١٩١٤-١٩١٦م) من تعجيل نشوب الثورة فيها[2]، لكن ذلك لم يهن من عزيمة الشريف الحسين فأعلن ثورته من مكة إيذانًا بنهاية الليل الطويل، لتبدأ بذلك أحداث الثورة العربية الكبرى، والتي تعتبر بحق نقطة تحول وانعطاف في تاريخ العرب الحديث، نتج عن قيامها بعث الثقة والأمل في نفوس العرب جميعًا.

وتألفت القوات العربية التي حملت لواء الثورة من ثلاثة جيوش أوكلت مهمة قيادتها إلى أبناء الشريف الحسين، وهي: الجيش الجنوبي بقيادة الأمير علي، والجيش الشرقي بقيادة الأمير عبدالله، والجيش الشمالي بقيادة الأمير فيصل، وتنفيذًا للتعليمات العليا بأن ينتشر ضغط العرب على الأتراك على طول الخط الحديدي، جاء تقدم جيش الأمير فيصل نحو الشمال فاستولى على مدينة الوجه في ٢٤ كانون الثاني ١٩١٧م، ثم احتل العقبة في ٦ تموز ١٩١٧م، ومنها أخذ يضيق على معان[٣]. ولما كانت الأراضي الأردنية المفتاح لبلوغ قوات الثورة إلى دمشق، فقد شهد مسرح العمليات الأردني العديد من المعارك مع الأتراك طوال ستة عشر شهرًا – ابتداءً من حزيران ١٩١٧م وحتى نهاية أيلول ١٩١٨م – سطر خلالها أبناء شرقي الأردن أروع صور البسالة والإقدام، وقدموا فيها تضحيات جسيمة، ويمكن تفسير انضواء الكثيرين من أبناء الأردن تحت راية الشريف الحسين، ومسارعتهم للالتحاق في ركب ثورته العربية، للعديد من العوامل، أهمها:

١. شعور الأهالي في المنطقة بوطأة الأتراك الذين أثقلوا كاهل السكان بالضرائب.
٢. فرض الحكومة العثمانية قانون الخدمة العسكرية الإجباري على أهالي شرقي الأردن.
٣. تعامل الحكومة العثمانية بقسوة ووحشية شديدتين مع تمرد الشوبك عام ١٩٠٥م، وتمرد الكرك ١٩١٠م، الأمر الذي أثر في نفوس الأهالي ودفعهم للانضواء تحت لواء الثورة[٤].
٤. الحاق الأتراك أضرارًا كبيرة بالثروة الحرجية في الأردن والتي استعملوها وقودًا لقاطرات سكة الحديد، فقد أنشأت الحكومة التركية عام ١٩١٤م، خطًا فرعيًا لسكة الحديد من محطة عنيزة[٥] إلى الشوبك ليسهل نقل الحطب من غابة الهيشة[٦] بعربات القطار، ولم تكتف بذلك بل فرضت السخرة على الأهالي لقطع الأشجار ونقلها[٧].

ومع أن العمليات العسكرية التي نفذتها جيوش الثورة على المسرح الأردني، شملت كافة الأراضي الأردنية تقريبًا، إلى أن ما شهدته معان وجوارها من معارك شكل الحلقة الأطول والأهم في مجرى تلك المعارك، وذلك لعدة أسباب:

١. تمسك الأتراك بمعان نظرًا لموقعها الاستراتيجي كحلقة وصل ما بين القوات التركية في المدينة المنورة ودمشق.
٢. اتساع رقعة العمليات العسكرية ضمن محور معان، والتي امتدت من رأس النقب جنوبًا وحتى عنيزة شمالاً، ومن المدورة شرقًا حتى خط دلاغة[٨] – وادي موسى – الشوبك غربًا.
٣. انتشار القلاع ومحطات سكة الحديد داخل معان وحولها، الأمر الذي منح الأتراك أفضلية من حيث التحصين والتموين.
٤. تضارب موقف أهالي منطقة معان من الثورة، ففي الوقت الذي لبت فيه قبائل محيط معان من الحويطات[٩] والنعيمات[١٠] والليائنة[١١] والشوابكة[١٢] نداء الثورة، وقف أهالي مدينة معان (القصبة) موقفًا مناهضًا للثورة ومؤيدًا للأتراك، الأمر الذي أطال صمود مدينة معان بشكل مغاير تمامًا لحال المدن الأردنية الأخرى.

من هنا جاء اختيار محور معارك معان في الثورة العربية الكبرى موضوعًا للبحث، وذلك لعدم أفراد دراسة متخصصة تتناول الموضوع على حد علم الباحث، ثم إن الدراسات التي عالجت موضوع الثورة العربية الكبرى – وهي كثيرة – عرضت لمعارك معان إما بشكل مختصر، أو ضمن عرض شامل لمجريات الثورة العربية دون أفراد دراسة مستقلة بمعارك معان، وهي على الرغم من أهميتها وقيمتها العلمية للقارئ والباحث، إلا أنها لا توفر مادة متسلسلة مترابطة لأحداث وجزيئات الموضوع. وفيما يلي عرض شامل لكافة المعارك التي شهدتها معان والمناطق المجاورة لها، وفقًا للتسلسل الزمني والمكاني لوقوع المعارك ومجرياتها منذ انطلاق الثورة وحتى انسحاب القوات التركية منها.

## أولاً: معارك معان الأولى

### ١/١- معركة غدير الحاج[١٣] وأبو اللسن[١٤]

بعد أن استولى الجيش الشمالي بقيادة الأمير فيصل على مدينة الوجه في كانون ثاني ١٩١٧م، أخذ الأمير فيصل يكاتب زعماء قبائل الشمال التي تقطن في أطراف بلاد الشام (الحويطات والرولة وبني صخر[١٥]) يحثهم على القيام في وجه الأتراك، وقد استجاب بعضهم لندائه، ووفدوا على مقره في الوجه، وكان أبرز هؤلاء الوافدين عوده أبو تايه[١٦] شيخ حويطات التوايهه الذين كانوا يسكنون حوالي معان،

وقد فرح الأمير فيصل بقدومه كثيرًا، ويصور لنا لورنس[١٧] حمية اللقاء الأول بين فيصل وعوده بقوله: "دخل علينا خادم الأمير وهمس في أذنه ببضع كلمات فشاهدت وجهه يتألق أثرها فرحًا وسرورًا، وبادرني قائلًا: لقد حضر عوده.. فصحت مغتبطًا وسائلًا: حضر عوده ؟؟!!"[١٨].

ونظرًا لما لمسه الأمير فيصل من لهفة شديدة من قبل عوده أبو تايه بتوسيع عمليات الثورة نحو الشمال، قرر إرسال حملة صغيرة برئاسة الشريف ناصر بن علي[١٩] وعوده أبو تايه، ورافق هذه الحملة اثنان من الزعماء السوريين المعروفين وهم: نسيب البكري (وهو مدني من عائلة مرموقة وعضو جمعية الفتاة)، والثاني القائد زكي الدروبي (ضابط سابق في الجيش العثماني)، ورافق الحملة أيضًا لورنس باعتباره خبيرًا في زرع المتفجرات[٢٠]، وأوكل الأمير فيصل للحملة مهام عديدة أهمها: نزع الضغائن بين قبائل الشام حضر وبدو ودعوتهم للانضمام إلى الثورة، وإزعاج الترك من خلال القيام بمناوشات استطلاعية على الجسور والمحطات، فضلًا عن الدعاية للثورة وجمع المتطوعين[٢١].

وفي يوم ٩ أيار غادر رجال الحملة ومعهم بعض البنادق لتوزيعها هدايا على شيوخ القبائل لاستمالتهم، و٢٠ ألف ليره ذهبية لكي ينفق منها على ما يستجد من عمليات، ويسير برفقتهم ٣٥ فردًا من متطوعي البدو كحرس[٢٢]، واتجهت الحملة شمالًا ثم انحرفت شرقًا تقطع الصحراء حتى وصلت وادي السرحان بعد مسير عشرين يومًا، فاتصل الشريف ناصر وعوده بقبائل تلك الأنحاء وتمكنا خلال أسبوعين من تجنيد ما يقرب من ٥٠٠ متطوع من قبائل الرولة والحويطات على رأسهم شيخ قبيلة الرولة نوري الشعلان[٢٣]، بينما ذهب نسيب البكري إلى جبل الدروز لكسب تأييدهم للثورة، أما لورنس فيقال أنه بلغ دمشق والتقى بالقائد رضا الركابي[٢٤] وطلب منه تشجيع العرب للقيام في وجه الأتراك.

وفي يوم ١٨ حزيران عاد لورنس إلى وادي السرحان ليجتمع بالشريف ناصر وعوده أبو تايه، وفي اليوم التالي انطلقت الحملة كلها والتي أصبحت أكثر من ٥٠٠ مقاتل بالزحف نحو الجفر[٢٥] فبلغتها يوم ٢٨ حزيران، وهناك تقرر أن يسير بعض رجال الحملة لمضارب عشيرة الدمانية[٢٦]، كي يتعاونوا معهم للإغارة على مخفر "الفويلة" الواقع بين أبو اللسن ورأس النقب، ويبدو أن رجال الدمانية أرادوا أن يسجلوا لأنفسهم البطولة، فقاموا بالإغارة يوم ٣٠ حزيران على المخفر قبل وصول رجال الحملة، مما مكن الأتراك من صدهم، وعندئذ انسحب مقاتلي الدمانية إلى الجبال المجاورة، فقام الجنود الأتراك بمهاجمة مضارب العشيرة وقتلوا رجل عجوز وست نساء وسبعة أطفال، فما أن وصل خبر هذه المذبحة لرجال الدمانية حتى استشاطوا غضبًا فانقضوا على الأتراك المهاجمين وفتكوا بهم جميعًا.[٢٧] وبمجرد وصول أنباء أحداث الفويلة والدمانية للحملة الرئيسية، حتى شدت مطاياها بقيادة عوده أبو تايه باتجاه محطة "غدير الحاج"، فوصلتها بعد ظهر يوم ١ تموز، وعلى الفور قام رجال الحملة بنسف الخط الحديدي مع الجسور القائمة هناك، ثم خاضت الحملة اشتباكًا سريعًا مع حامية المحطة، اجبروا خلالها الجنود الأتراك على الهرب من ساحة القتال بعد أن كبدوهم بعض القتلى[٢٨].

وهكذا كانت معركة "غدير الحاج" أول معارك الثورة على الأرض الأردنية عامة، ومعان خاصة، حققت خلالها قوات الثورة نصرًا سريعًا، مما جعلها فاتحة الطريق لمزيد من النصر والتقدم، وهذا ما كان في اليوم التالي، إذ ما أن وصلت لقوات الثورة أنباء وصول كتيبة تركية قادمة من معان لتعزيز حامية أبو اللسن، حتى تحرك عوده أبو تايه ورجال حملته يغذون السير غربًا تجاه جبال الشراة المطلة على عين أبو اللسن حيث معسكر الأتراك، وهناك اجتمعوا برجال قبيلة الدمانية بزعامة شيخهم قاسم أبو دميك والذين كانوا ينتظرون وصولهم على أحر من الجمر، وعلى الفور قاموا بإعادة ترتيب أنفسهم وتوزيع المهام فيما بينهم، هذا في الوقت الذي قامت فيه بعض قوات الخيالة بقطع خطوط الهاتف والتلغراف الموصلة إلى معان، وفي الصباح الباكر من يوم ٢ تموز ١٩١٧م، بادرت قوات الثورة بالهجوم على الحامية التركية، فرد الترك على الهجوم بالمدافع الجبلية[٢٩].

واستمر تبادل النار بين الطرفين إلى ما بعد ظهر ذلك اليوم، ويبدو أن عوده أبو تايه قد أدرك في تلك اللحظات خطورة بقاء الأتراك في مواقعهم لأن ذلك من شأنه قطع الطريق على الحملة مع العقبة وإحباط جميع نجاحاتها، مما دفعه ذلك إلى الصعود لتل مرتفع فنادى رجاله حتى تجمعوا حوله، ثم صرخ فيهم بصوته الجهوري لتحريك النخوة في نفوسهم، فانطلقوا على الفور كالسيل الجارف في هجوم مزدوج على مواقع الأتراك، حيث قام الخيالة يتقدمهم عوده بنفسه بالهجوم من ناحية، في حين قامت الهجانة وعددهم ٤٠٠ وكان لورنس فيهم بالهجوم من الجهة المقابلة، وسرعان ما أسفرت المعركة عن هزيمة الأتراك بعد أن سقط منهم زهاء ٣٠٠ قتيل ونحو ١٦٠ أسير[٣٠].

وهكذا انتهت المعركة الثانية على الأرض الأردنية بنصر مؤزر، مما كان لذلك بعيد الأثر في تعزيز الثقة بنفوس العرب، وخاصة رجال بادية معان، إذ لم تعد مواجهة القوات النظامية جيدة التسليح يخيفهم، ولعل الفضل في ذلك يعود إلى جسارة عوده أبو تايه الذي قاد المعركة وخرج منها سليمًا دون أذى رغم أن فرسه قتلت وأن ست رصاصات اخترقت ثيابه في عدة مواضع.[٣١] ويبدو أن الشريف ناصر وعوده أبو تايه لم يرغبوا في تفويت فرصة استغلال انتصار أبو اللسن، فأرسلوا بعض قواتهم تجاه المريغة[٣٢] فاستولوا عليها، ثم استولوا على قرية أوهيدة[٣٣]، وبمجرد أن بلغت هذه الأنباء معان أصيب الأتراك باضطراب كبير، وسارعوا إلى طلب النجدات العسكرية استعدادًا لمجابهة هذا الخطر الذي بات يهددهم، أما عن الحملة الرئيسية فقد سارت تحت الخطى جنوبًا نحو العقبة عن طريق رأس النقب[٣٤]، بعد أن تكللت جميع عملياتها بالنجاح.

**٢/١-معارك تحرير دلاغة ووادي موسى والشوبك**

فور اكتمال تحرير العقبة في تموز ١٩١٧م، باشر الفريق جعفر العسكري الذي تولى قيادة الجيش النظامي الشمالي، بإعادة تنظيم القوات العربية التي كانت تتألف من قوتين نظامية وغير نظامية، وقد استطاع العسكري بحلول شهر آب أن يصل بجيش الشمال إلى فرقتين تضم كل منها لوائين بالإضافة إلى لواء المدفعية، وقوات العشائر، هذا إلى جانب البعثات الأجنبية (الفرنسية والإنجليزية)[٣٥]. وتمت التشكيلات للفرقتين العسكريتين على النحو التالي:

**الفرقة الأولى:** قائدها العقيد حسن وفقي الدمشقي، وتألفت من لوائين: الأول لواء العقبة بقيادة الرئيس تحسين علي، والثاني لواء القويرة بقيادة الرئيس عبد اللطيف نوري الحلبي.

**الفرقة الثانية:** قائدها الزعيم قاسم راجي، وتألفت من لوائين: الأول لواء القويرة بقيادة المقدم خالد السليماني، والثاني اللواء الهاشمي (على أن يكون مقره وادي موسى) بقيادة مولود مخلص[٣٦]، كما الحق بهذه الفرقة لواء المدفعية بقيادة الرئيس جميل المدفعي.[٣٧]

وبعد أن أكمل جعفر العسكري تنظيم القوات، قرر في آب ١٩١٧م، تحرير كل من القويرة ووادي موسى، وأسند مهمة تحرير القويرة للواء الثاني من الفرقة الأولى، في حين كلف اللواء الهاشمي من الفرقة الثانية تحرير وادي موسى. وما يهمنا هنا تحرير وادي موسى، حيث نهض مولود مخلص في الحال لتنفيذ مهمته، فسار في نهاية آب بكتيبة مؤلفة من الهجانة والبغالة سالكًا طريق وادي عربة، وذلك أن الأتراك كانوا قد استعادوا السيطرة على طريق رأس النقب أبو اللسن، فاستولى أولاً على بلدة دلاغة التي كانت القوات التركية قد احتلتها بعد استيلاء القوات العربية على العقبة، وتم ذلك دون أية مقاومة تذكر، لأن الحامية التركية الصغيرة التي كانت في القرية انسحبت قبل وصول القوات العربية، ثم أن أهالي دلاغة كانوا قد انحازوا لقوات الثورة.[٣٨]

ولم يكن أمام مولود مخلص أمام هذا النصر السريع الذي تحقق في دلاغة إلا أن تقدم تجاه وادي موسى، بعد أن أبقى حامية عربية في دلاغة بقيادة الضابط السوري راسم سردست، واستطاع مولود من الوصول إلى آثار البتراء القديمة دون قتال واتخذ منها مركزًا له، وما أن رأت قبائل اللياثنة بزعامة الشيخ خليل الحسنات وصول طلائع قوات الثورة إلى بلدتهم حتى تشجعت هي الأخرى للقيام في وجه الأتراك، فبدأت بالإغارة على صفوف الأتراك الذين كانوا يتنقلون بين هضاب وادي موسى، وقد نجحوا في الاستيلاء على الكثير من المواشي والدواب بعد قتل حراسها، واستمرت الغارات على هذا النحو لعدة أسابيع، وهذا ما جعل الأتراك في تلك النواحي يفقدون اتزانهم وصوابهم[٣٩]، ويذكر لورنس أنه تم الاتفاق مع سلاح الجو الإنجليزي لتكثيف الغارات على معان وأبو اللسن تزامنًا مع الهجوم العربي على وادي موسى وذلك لإشغال الأتراك عما يجري في الوادي، فالقت الطائرات الإنجليزية خلال يومين ٢٣ قنبلة على معان، و٧٤ قنبلة على الفويلة وأبو اللسن[٤٠]. ولم يكن للأتراك من سبيل أمام توالي هجمات القوات العربية وغارات البدو واللياثنة، إلا أن بادرت بالانسحاب تجاه بسطة[٤١] والهيشة، وبذلك تم لمولود مخلص وبكل كفاءة واقتدار، تحرير وادي موسى في منتصف أيلول، لتصبح وادي موسى منذ هذا التاريخ مركزًا للواء الهاشمي[٤٢]، ومنطلقًا للعمليات المقبلة تجاه الشوبك.

وما أن انتهى مولود مخلص من إعادة ترتيب صفوف قواته في وادي موسى حتى قام في نهاية شهر أيلول ١٩١٧م، بتجريد حملة مؤلفة من ١٣٠ جنديًا نظاميًا، إلى جانب ٢٠٠ متطوع من قبائل المنطقة[٤٣]، وشنت الحملة هجومها الأول على سكة الحديد الفرعي بين محطة عنيزة والهيشة (غابة الشوبك)، التي كان الأتراك ينقلون منها الحطب كي يستعملوه وقودًا للقطارات، فنزعوا جانبًا من خط السكة، ثم احتلت القوة بلدة الشوبك (نجل)، واستسلمت حاميتها الصغيرة، ثم كرت القوات العربية راجعة وهاجمت السرية

التركية المرابطة في غابة الهيشة وأسرت ٢٠ من رجالها، لكن يبدو أن صعوبة المنطقة حالت دون تمكنهم من التغلب عليها كليًا، وعندما وجد مولود مخلص أنه لا جدوى من القتال في غابة لا يعرف مسالكها قرر الانسحاب إلى وادي موسى(٤٤).

وتشير إحدى الروايات إلى أنه عندما وصل خبر احتلال القوات العربية إلى الشوبك وغابة الهيشة أصيبت القيادات التركية في أضنة بالهلع، وذلك لأن الأتراك في أمس الحاجة للحصول على الحطب، فصدرت الأوامر إلى محمد جمال باشا قائد الفيلق الثامن التركي الذي كان يتخذ من معان مركزًا له، بأن يحرر الهيشة مهما كلفه ذلك، فهاجمها جمال باشا بجميع قواته، وبمساندة ثلاث طائرات، فتمكن من إجلاء العرب عنها(٤٥)، لتفشل بذلك المحاولة الأولى لتحرير الشوبك.

**٣/١- معركة وادي موسى الثانية**

أثار استيلاء الجيش العربي على وادي موسى حفيظة محمد جمال باشا قائد الجيش التركي في معان، فقرر استردادها لأهميتها العسكرية، وجهز لهذه الغاية حملة مكونة من ثلاث كتائب مشاة، وكتيبة خيالة من الشراكسة المتطوعين بقيادة ميرزا باشا(٤٦)، وسرية بغالة وبعض المدافع والطائرات(٤٧)، أما القوات العربية المرابطة في وادي موسى بقيادة مولود مخلص فكان قوامها ٣٥٠ جنديًا نظاميًا بين هجانة وبغالة، ومدفعين جبليين وأربعة مدافع رشاشة و٢٥٠ متطوعًا من قبائل اللياثنة والبدو سكان وادي موسى والطيبة والراجف(٤٨) ودلاغة(٤٩).

أما عن تاريخ المعركة، فعلى الرغم من إجماع مختلف الروايات التاريخية التي تحدثت عن المعركة، على أنها جرت في تشرين أول ١٩١٧م، إلا أنه يلاحظ أن هناك اضطراب فيما بينها في تحديد يوم المعركة وكم استغرقت من الوقت على وجه التحديد، فهناك من اكتفى بالقول أنها جرت في تشرين أول(٥٠)، وهناك من يجعلها يوم ٢١ منه(٥١)، والبعض يورد أنها حدثت خلال يومي ٢٢-٢٣(٥٢)، ويروي الماضي أنها حدثت يوم ٢٧(٥٣)، وينفرد الزبيدي بجعلها يوم ٣١(٥٤)، أما نوري السعيد – رئيس أركان حرب الجيش الشمالي - فيكتفي في مذكراته بالقول أنها جرت في أواخر صيف ١٩١٧م(٥٥)، بينما لم يتطرق العجلوني - الذي كان في الشوبك لحظة بدء الهجوم التركي - لتاريخ المعركة كليًا، على الرغم من وصفه لبدء الهجوم، فنجده يقول "وفي الصباح.. رأينا الطائرات الألمانية تقصف معسكر مولود وتقتل الحيوانات، والناس في ذعر منها"(٥٦).

أما عن الوقت الذي استغرقته المعركة، فقد تراوحت حسب الروايات ما بين يوم وثلاثة أيام(٥٧)، لكن يتضح من خلال أحداث المعركة أنها استمرت يومًا واحدًا، ولكن على ثلاثة مراحل، ولعل هذا هو سبب الاضطراب في تحديد مدة المعركة عند البعض.

وأيًا كان تاريخ المعركة - الذي على ما يبدو هو أحد الأيام العشرة الأخيرة من تشرين الأول ١٩١٧م- فإن الذي يهمنا هنا هو مجريات ذلك اليوم، إذ تشير المعلومات إلى أن القوات العربية تجهزت لصد الهجوم التركي بأن أعدت كمينًا محكمًا لهذه الغاية يقوم على استدراج الأتراك حتى الممر الضيق (السيق) المؤدي إلى آثار البتراء ثم إحكام القبضة عليها، وذلك أنها اتخذت لها خطوط دفاع أمامية خارج البلدة إلى الشرق منها، فعندما وصلت القوات التركية قادمة من ثلاث جهات: بسطة ومعان والهيشة، بادرت القوات العربية منذ ساعات الفجر الأولى بمفاجئتها بإطلاق النار من أماكن جبلية كانت قد تحصنت فيها، وردت القوات التركية على نيران القوات العربية بان نصبت مدفعيتها الثقيلة وأخذت تدك مواقع اطلاق النار من الجبال المواجهة لها، واشترك في هذا الهجوم الطائرات التركية والألمانية، وكانت تحوم فوق العرب أثناء القتال وتلقي عليهم القذائف من ارتفاع ٣٠٠ متر فقط، واستمرت المدافع التركية بضرب مواقع العرب لمدة ساعتين، لكن دون جدوى إذ تمكنت قوات مولود ورجال اللياثنة من ردهم على أعقابهم بعد أن أصلوهم نيران حامية(٥٨).

على هذا الحال انتهت الجولة الأولى من المعركة، ثم عند الظهيرة استأنف الأتراك الهجوم، واستطاعوا أن يستولوا على التحصينات الخارجية، وهنا أمر مولود مخلص المتطوعين العرب بالتراجع إلى التلال الجنوبية داخل البلدة، بينما تمركز الجنود النظاميين في التلال الشمالية وشددوا إطلاق النار على الترك المتقدمين من الشرق(٥٩). ثم افتتحت المدفعية التركية في الجولة الثالثة من الهجوم نيران حامية كانت تصبها صبًا على مراكز العرب حتى ظن الأتراك أنهم جعلوها رمادًا وأطلالًا، فأصدر محمد جمال باشا أوامره اثر ذلك بالهجوم المباشر، وكان ذلك قبل غروب الشمس بقليل، مما اضطر مولود مخلص للانسحاب بقواته إلى داخل الوادي (السيق) المؤدي للمدينة الأثرية(٦٠)، وهو يصيح بالمتطوعين من البدو واللياثنة: " إلى الجبل يا أبناء الصحراء "، فتحصنوا جميعًا داخل الوادي السيق(٦١).

وهنا ظن الأتراك أن الهزيمة قد حلت بقوات الجيش العربي، فتقدمت بعض وحداتهم في الوادي (السيق)، وعندئذ أطبقت عليهم القوات العربية من الجانبين ومن أعلى الصخور، وفي الوقت ذاته قامت بعض قوات اللياثنة بالتفاف حول ميسرتهم، ودار القتال بين الفريقين بالسلاح الأبيض (الحراب)، وهذا ما يدل على شدة المعركة، وبعدما أظهر الجانبين بسالة وبطولة في القتال، أدرك الأتراك أن لا أمل لهم في إحراز أي نصر، فاخذوا يتراجعون بسرعة نحو بسطة بعد أن تكبدوا خسائر فادحة قدرت بحوالي (٤٠٠) بين قتيل وجريح، و(٥٠٠) أسير، في حين بلغت الخسائر العربية نحو (٤٥) شخصًا[٦٢].

ويشير نوري السعيد في مذكراته إلى دور أهالي وادي موسى من اللياثنة في هذه المعركة بقوله: " لم يمض على انسحاب حامية وادي موسى في الظلام أكثر من ساعتين حتى لحق بهم بعض الخيالة من العرب من عشيرة اللياثنة، وأخبروا مولود مخلص بأن عشيرتهم بالاشتراك مع أهالي وادي موسى قد أجهزوا على القوات التركية وأبادوها"[٦٣]. أما جعفر العسكري والذي حسب رواية الدنجتون كان متواجدًا في وادي موسى يوم المعركة[٦٤]، فقد علق على دور اللياثنة وخاصة أهالي الطيبة بقوله: "ولا أنسى هنا.. الشجاعة الفائقة العظيمة التي أبداها اللياثنة ولا سيما أهالي طيبة، ففي الحقيقة كان أولئك اللياثنة الجبليون يلفتون نظر الإنسان بطول قامتهم، وقوة أبدانهم وشجاعتهم الفائقة".[٦٥]

وكان من نتائج هذا النصر الذي تحقق بفعل التعاون ما بين القوات العربية وأهالي وادي موسى، أن اضطر الأتراك إلى الانسحاب إلى منطقة بسطة بعد أن تعلموا درسًا قاسيًا في عدم مهاجمة أي موقع عربي حصين، وفي الوقت ذاته أثار هذا الانتصار فرحة الحلفاء، فأرسل قادة الجيش الإنجليزي ببرقيات التهنئة والتبريكات إلى الأمير فيصل[٦٦]. ومما يجدر ذكره هنا، أنه نظرًا لزوال خطر الأتراك عن وادي موسى بعد هذه المعركة، قامت قيادة الجيش العربي في منتصف تشرين الثاني ١٩١٧م، بنقل القوات النظامية التي يقودها مولود مخلص من وادي موسى إلى القويرة بعد أن حل محلهم قوات من المتطوعين من أبناء العشائر.

**٤/١- معركة تحرير المريغة وأوهيدة**

قاد فشل هجوم الأتراك على وادي موسى إلى وصول القادة الأتراك إلى قناعة مفادها أن الاستيلاء على القويرة هو السبيل الوحيد لوقف أي تقدم للقوات العربية نحو الشمال، ولتحقيق هذه الغاية أرسل الأتراك في تشرين ثاني ١٩١٧م حملة من معان تجاه القويرة، أما الجيش العربي فما أن وصلته تلك الأنباء حتى أعد على عجل حملة لمواجهة الترك تكونت من فوج مشاة وسرية رشاش ورعيل من الخيالة، وتولى قيادتها مولود مخلص الذي أصبح يتمتع بقدرات فائقة في قتال الأتراك، واصطدمت الحملتان في المريغة في أواخر تشرين ثاني، ونظرًا لما وجده الأتراك من بسالة قوية من الجيش العربي فقد اضطر للتراجع إلى عين أوهيدة ومنها إلى معان[٦٧].

وهكذا استطاعت القوات العربية بقيادة مولد مخلص من افشال مخططات الأتراك بالزحف نحو القويرة، كما أنها نجحت في انتزاع موقعين مهمين – المريغة وأوهيدة – من السيطرة التركية، وتمكنت من الاحتفاظ بهما على الرغم من الهجمات المعاكسة. وظل مولود مخلص طوال شتاء ١٩١٧-١٩١٨م، يضيق الخناق على معان من معسكره في أبو اللسن ويشن عليها الغارات الخاطفة، على الرغم من الظروف الصعبة التي عاناها من جراء تراكم الثلوج وشدة البرد[٦٨].

**٥/١- معركة تحرير الشوبك الثانية**

في يوم ٣ تشرين الثاني ١٩١٧م، وصل الأمير زيد بن الحسين على رأس قوة نظامية مؤلفة من ١٥٠٠ جندي إلى العقبة، ليتولى مسؤوليات قيادة الجيش الشمالي إلى جانب أخيه فيصل، ولم تلبث قيادة الجيش الشمالي حتى انتقلت خلال هذا الشهر من العقبة إلى القويرة، وعلى الرغم من صعوبة فصل الشتاء ١٩١٧-١٩١٨م، فقد أعد الأمير فيصل في أواخر كانون الأول حملة قوية أسند قيادتها إلى أخيه الأمير زيد، وتكونت الحملة من ثلاثة أرتال زحفت من القويرة باتجاه الشمال، وبينما كانت وجهة الرتلين الأول والثاني إلى الطفيلة وجرف الدراويش، تقرر أن يتولى قيادة الرتل الثالث الشريف عبد المعين، وأن تكون وجهته الشوبك[٦٩].

زحفت هذه الأرتال إلى أهدافها، وما يهمنا هنا هو الرتل الثالث، حيث تقدم الشريف عبد المعين تجاه رأس النقب ثم أبو اللسن ومنها سار إلى وادي موسى، وكانت أبو اللسن لحظت انطلاق الحملة لا تزال تحت سيطرة الأتراك، لكن مع تقدم الحملة انسحب منها الأتراك، وكان الأمير فيصل يتوقع أن يحدث الشيء نفسه حال تقدم القوات العربية تجاه الشوبك، ونلمس ذلك من خلال برقيته إلى أخيه زيد والمؤرخة في ٣ كانون الثاني ١٩١٨م، والتي جاء فيها " بشرتكم بالتلفون عن انسحاب الأتراك من أبا اللسن، والظاهر أن سيعقبها انسحابهم من الهيشة "[٧٠]. وفي يوم ١٣ كانون

الثاني ١٩١٨م، تقدم الشريف عبد المعين من وادي موسى تصحبه قوة من أهالي الوادي، تجاه غابة الهيشة، فما كاد يقترب منها حتى انسحب منها الأتراك مدبرين، فصح بذلك توقع الأمير فيصل، ويلخص لنا لورنس مجريات تحرير غابة الهيشة بقوله: " سار عرب البتراء تحت قيادة الشريف عبد المعين إلى غابات الشوبك.. في أرض كساها الجليد واشتد فيها الصقيع ومع هذا فسكان هذه الجبال الأشداء كانوا يواصلون.. ورآهم الأتراك يقتربون في بطء فلم يتجاسروا على الوقوف في طريقهم بل ولوا مدبرين"[٧١].

ومن الهيشة تحرك الشريف عبد المعين على رأس قواته وأخذ في تخريب الخط الحديدي الفرعي الواصل بين الهيشة وعنيزة حتى وصل إلى عين نجل على بعد ٧ كلم من الهيشة، وفي اليوم التالي (١٤ كانون الثاني) تمكن الشريف عبد المعين وبعد قتال استمر لمدة ١٢ ساعة من الاستيلاء على قلعة الشوبك[٧٢][٧٣]. وفي يوم ١٧ كانون الثاني وصل الأمير زيد إلى الشوبك (نجل) وهو في طريقه إلى الطفيلة، فاطمأن على أحوالها، ثم تابع سيره إلى الطفيلة، ومن الطفيلة كتب يوم ٢٢ كانون الثاني إلى أخيه الأمير فيصل يطلعه على استقرار الأوضاع في الشوبك، وأن الأتراك أصبحوا في هذه الأثناء مهتمين بتخريب سكة الحديد من عنيزة إلى الشوبك لا تعميرها[٧٤]، مما يدل على انقطاع أملهم في العودة ثانية إلى الشوبك. وهكذا تمكنت القوات العربية في منتصف كانون الثاني ١٩١٨م، من تحرير الشوبك، وأوكلت مهمة إداراتها إلى الشريف عبد المعين الذي اتخذ من قلعة الشوبك مركزًا له ولحاميته، لتغدو الشوبك منذ نهاية كانون ثاني ١٩١٨م، مركزًا لانطلاق العمليات العسكرية تجاه الطفيلة وعنيزه ومعان.

## ثانيًا: معارك المحطات

تزامنًا مع الحملات التي قادها الأمير فيصل تجاه وادي موسى والشوبك والطفيلة، ألف الجيش الشمالي بعض السرايا والمفارز للإغارة على محطات سكة الحديد الواقعة إلى الجنوب والشمال من معان، وكان الهدف من هذه الغارات هو احتلال هذه المحطات أو تخريبها بصورة فنية كي تعزل معان وتجبر حاميتها على الخروج من تحصيناتها، وقد بدأت معارك المحطات على الساحة الأردنية يوم ٦ تشرين الأول ١٩١٧م، بتدمير جسر ونسف قطار عند الكيلو متر ٥٠٠ من سكة الحديد الواقعة جنوب معان، ثم تلت هذه العملية العديد من العمليات العسكرية ضد المحطات وسكة الحديد كانت على النحو الآتي:

### ١/٢- معركة محطة المدورة

تقع محطة المدورة إلى الجنوب من معان على مسافة ١٢٠ كلم تقريبًا[٧٥]، وكان الأتراك قد اعتنوا بتحصينها، فخصصوا لحمايتها فوج مشاة يتألف من ٣٠٠ جندي، وسرية رشاش، وهنا نستقي أحداث هذه المعركة من أوراق صبحي العمري الذي أورد أنه في الوقت الذي كانت تدور فيه معارك الطفيلة رحاها، قامت مفرزة من الجيش الشمالي مؤلفة من سرية مشاة نظامية وفصيل مدفعي وعدد من السيارات المصفحة البريطانية، مع بعض قوات البدو من عشيرة الحويطات، عملية ضد محطة المدورة بهدف الاستيلاء عليها. ويذكر العمري أن الهجوم على المحطة بدأ فجر يوم ٢٣ كانون الثاني ١٩١٨م، تحت غطاء من الطائرات البريطانية وقصف شديد من المدفعية، وتمكنت القوات العربية في اليوم الأول من الهجوم من الاستيلاء على دبابة وقتل خمسة أتراك وأسر خمسة آخرين، لكن في اليوم الثاني ظهر تخاذل وتكاسل من قبل الجنود المهاجمين مما أدى إلى فشل الحملة وانسحابها[٧٦].

وتشير مذكرات الأمير زيد إلى أن عملية المدورة تمت تحت إشراف الأمير فيصل شخصيًا، وأن الأمير فيصل كان يتوقع الاستيلاء على المحطة في غضون خمسة دقائق لكن التخاذل والتكاسل من قبل أفراد الحملة أدى إلى فشلها[٧٧]. ويمكن إرجاع أسباب تخاذل وتكاسل القوات المهاجمة، وهو ما تحدث عنه كل من الأمير فيصل وصبحي العمري، إلى ما يلي:

١. عدم توفر المياه.
٢. وصول نجدات قوية للأتراك في اليوم الثاني من المعركة.
٣. عزوف البدو عن المشاركة في الهجوم لقلة خبرتهم في مهاجمة مواضع دفاع محصنة بالخنادق والألغام والأسلاك الشائكة[٧٨].

### ٢/٢- حملة محطة فصوعة (عقبة الحجاز)

تقع محطة فصوعة على بعد ٦٠ كلم جنوب مدينة معان[٧٩]، وقد جاء تحريك حملة ضد هذه المحطة ضمن حلقة من سلسلة الهجمات التي اعتاد العرب على شنها ضد خط سكة الحديد، وقد أنتدب لقيادة هذه الحملة مولود مخلص – قائد الفرقة العربية الأولى آنذاك – لكن مولود رفض القيام بهذه المهمة بعد أن ترآى لعلمه أنباء الاتفاقيات السرية بين الحلفاء وخاصة صدور وعد بلفور القاضي بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، إذ أخذ مولود يشكك في نوايا الإنجليز وتصرفاتهم، وقال: " يجب علينا بعد الآن أن نولي وجهنا شطر الشمال لخدمة قضيتنا العربية"[٨٠]، وذلك اعتقادًا منه أن

الإنجليـز يتعمـدون توجيـه الجهـد العربـي توجيهًـا خاطئًـا فـي حملات لا يرجى أن تؤدي إلى نتائج حاسمة، ونتج عن تصرف مولود هذا أن صدر أمر الإنجليز بعزله عن منصبه وحجزه في مقر القيادة في أبو اللسن، وعين مكانه جعفر العسكري[٨١].

وقد زحفت الحملة في أوائل شهر نيسان ١٩١٨م بقيادة جعفر العسكري، من أبو اللسن في طقس غائم ماطر، غير أنها لم تكد تبتعد عن أبا اللسن حتى هبت عليها عاصفة شديدة تلتها أمطار غزيرة وبرد شديد، مما اضطرها للعودة إلى قاعدتها، بعدما هلك كثير من الجمال ومات عدد من الجنود، ولما اتصل الخبر للأمير فيصل، خرج بنفسه لاستقبال الجموع مصطحبًا معه الأطباء والرواحل[٨٢]. ويورد العجلوني – وكان أحد ضباط تلك الحملة – وصفًا دقيقًا للمعاناة التي لقيها رجال الحملة فيقول: "ولما أدركنا المساء ونحن في مسيرنا رأينا السماء تزمجر وأخذت الأمطار تهطل بغزارة.. ولم يكن مستطاعًا أن نعود إلى الوراء.. ولما أسفر الصباح رجعنا.. ومررنا بالجمال وهي باركة في الوحل وأكثرها متجمد.. وذهب ضحية هذا المقلب بضعة جنود وأصبنا جميعا بمرض الروماتيزم"[٨٣]. وهكذا فشلت هذه الحملة فشلاً ذريعًا، وكان من نتائج فشلها أن دب اليأس في قلوب أفراد الفرقة العربية الأولى وضباطها، الأمر الذي أدى إلى إعادة مولود إلى منصبه السابق لرفع معنويات الجند.

**٣/٢- معركة محطة عنيزة**

تقع محطة عنيزة إلى الشمال من معان على بعد ٣٦ كلم[٨٤]، في مكان متوسط بين محطتي جرف الدراويش من الشمال والجردونة من الجنوب، وعلى مقربة منها تقع قلعة عنيزة التي يعود تاريخ بنائها إلى سنة ٩٨٤هـ/١٥٧٦م، على بعد ٤٠٠م إلى الشرق منها، وتحتل المحطة أرض مستوية مكشوفة لا يتخللها عارض سوى جبل عنيزة الذي يرتفع عن مستوى سطح البحر ١٢٤٤م، مما جعله يشرف ويسيطر على جميع ما حوله[٨٥].

ونظرًا لأهمية موقع عنيزة – المحطة والقلعة والجبل – بالنسبة للأتراك، باعتبارها خط الدفاع الأول عن معان من جهة الشمال، فقد أحكم الأتراك دفاعاتهم عن هذا الموقع؛ فحفروا الخنادق حوله، ونظموا خطوطًا للمواصلات السرية بين المحطة والجبل، وعززوا الجبل بالأسلاك الشائكة، ووضعوا في أعلاه مدفع صحراوي طويل المدى، كما زرعوا حوله الألغام، وبذلك أصبح موقع دفاع يصعب الاستيلاء عليه أو حتى الاقتراب منه[٨٦]. ولعل هذا ما يفسر بقاء محطة عنيزة صامدة في وجه القوات العربية حتى سقوط معان.

من هنا لم تجر إلا محاولة واحدة للاستيلاء على محطة عنيزة انتهت بمفاجأة مضحكة، وذلك عندما تقدمت حملة عربية يقودها المقدم رشيد المدفعي في أوائل نيسان ١٩١٨م، قوامها سريتي مشاة وسرية رشاش وفصيل مدفعية، وكانت الخطة التي وضعت للحملة هي أن تسير القوات ليلاً وتحت جناح الظلام حتى تصل قريبًا من جبل عنيزة مع الفجر، ثم تنقسم القوات إلى سريتين الأولى تباغت قوات الأتراك المتحصنة على الجبل من جهة اليمين، والثانية تتقدم باتجاه المحطة من اليسار، هذا في الوقت الذي تقوم فيه قوات المشاة والمدفعية بمشاغلة العدو، وبلغت الحملة هدفها نحو الساعة الواحدة صباحًا، ولم يكد يتبقى عن وقت الهجوم سوى عشر دقائق حتى أخذ أحد الحمير الذي يحمل فناطس الماء بالنهيق وتبعه بقية الحمير، فانتبه الأتراك في الجبل للهجوم، وفي الحال أخذوا يطلقون نار مدفعيتهم على القوات العربية، مما اضطرها إلى الانسحاب وسط ضحكات الجنود، ويختتم صبحي العمري – الذي كان أحد ضباط الحملة - روايته لأحداثها بقوله: "وهكذا عدنا من قلعة عنيزة وقد أنقذها منا حمار"[٨٧].

## ثالثًا: معارك مدينة معان

منذ انطلاق رصاصة الثورة العربية الكبرى في حزيران ١٩١٦م، أولى الأتراك معان أهمية خاصة، نظرًا لما تتمتع به من مميزات دون سواها في شرقي الأردن، والتي من أهمها:

١. موقعها في أراضٍ تحيط بها الهضاب والتلال من جميع أطرافها.
٢. توفر عيون المياه الغزيرة فيها.
٣. موقعها في مكان يتوسط المسافة بين دمشق والمدينة المنورة.

وهذا ما جعل من معان مركزًا حربيًا استراتيجيًا يفوق كل الأمكنة الأخرى أهمية على طول الخط الحديدي، وجعل الأتراك يتخذون منها مركزًا لقوات المحافظة على الخط الحديدي والتي كانت تحت قيادة محمد جمال باشا (جمال الثالث)[٨٨]. ومع اقتراب قوات الثورة من معان زاد اهتمام الأتراك بها حتى أن الجنرال الألماني فالكنهاين الذي أرسلته ألمانيا ليتولى قيادة العمليات العسكرية في الشرق، جاء بنفسه إلى معان ليشرف على خطط الدفاع فيها، فتعاون فالكنهاين مع جمال باشا في تحصين المدينة، حيث أنشأوا حولها تحصينات قوية، ثم جاءوا إليها ببعض الطائرات، وعززوا قواتها حتى بلغت مع نهاية أيلول ١٩١٧م، ستة آلاف من

المشاة وكتيبتين من الفرسان والخيالة وستة عشر مدفعًا[٨٩].

وحتى انتقال مقر قيادة الجيش العربي من القويرة إلى أبو اللسن في منتصف آذار ١٩١٨م، ظلت معظم هجمات الجيش العربي في محور معان مقتصرة على الأطراف وعلى محطات سكة الحديد جنوب وشمال معان، بينما لم تستهدف معان مباشرة. ويتحدث العجلوني عن الظروف التي أفضت أخيرًا إلى الهجوم على معان، ويجملها فيما يلي:

١. مماطلة الإنجليز في تزويد جيش الثورة بالأسلحة والعتاد.
٢. تذمر وسخط الضباط العرب حول ما أذيع من خبر الاتفاق السري بين الحلفاء (سايكس – بيكو) لاقتسام سوريا فيما بينهم.
٣. ورود الأخبار من القاهرة عن ميل الإنجليز إلى إبقاء الجيش العربي في مواقعه يحاصر معان ليحول دون اندفاع الأتراك شمالًا لتعزيز فرق الدفاع بوجه الإنجليز[٩٠].

أدت هذه المتغيرات إلى تنامي القلق والتذمر في نفوس الضباط والجنود العرب، حتى كادت الأمور أن تتطور إلى تمرد، فكتب الضباط العرب في الميدان إلى الأمير فيصل يشكون الإنجليز ويلحون بالزحف نحو الشمال والقيام بهجوم مباشر على معان، فلم يجد الأمير فيصل مناصًا من الاستجابة لطلبهم، فجرت مخابرات بين الأمير فيصل والجنرال اللنبي القائد العام للقوات البريطانية في مصر، حول رغبة الجيش العربي في الهجوم على معان، إلا أن اللنبي طلب من الأمير فيصل إرجاء الهجوم على معان حتى يتم الإنجليز استعداداتهم في ميدان فلسطين، لكن يبدو أن نجاح الترك في استعادة عمّان من الإنجليز يوم ٣١ آذار هو ما دفع اللنبي للتراجع عن رأيه، فاتصل بالأمير فيصل يطلب منه الاستيلاء على معان[٩١]. ويأتي في مذكرات الأمير زيد أن أخيه الأمير فيصل كتب إليه بتاريخ ٣ نيسان يطلب منه أن يوافيه إلى موقع أبو اللسن لكي يعاونه في الهجوم على معان[٩٢].

**١/٣- مؤتمر أبو اللسن**

في يوم ٨ نيسان ١٩١٨م عقد الأمير فيصل مؤتمرًا عسكريًا في أبو اللسن للبحث في أمر الهجوم على معان، حضره الأمير زيد وجعفر العسكري ونوري السعيد والكولونيل داوني العضو البريطاني في هيئة أركان الجيش العربي الشمالي، ويروي لورنس تفاصيل ذلك الاجتماع الذي تقرر فيه الهجوم فورًا على معان، إذ يقول أنه كان من رأيه وزملائه في البعثة الإنجليزية، أن يقوم الجيش العربي أولاً بمهاجمة المحطات الصغيرة الواقعة جنوب وشمال معان، وتخريبها حتى يضطر الأتراك للخروج لمواجهة تلك القوات، وعندئذ يتمكن العرب من الانتصار عليهم في الأرض المكشوفة، ويضيف أنه على الرغم من أن الأمير فيصل وجعفر العسكري وافقوا على هذه الخطة، إلا أن الضباط العرب أصروا على الهجوم المباشر على معان، مما جعل الجميع يستجيب لرغبتهم[٩٣].

وتقرر في المؤتمر أن يكون الهجوم على معان من ثلاث جهات وعلى النحو الآتي:

١. تقوم قوة من الفرقة الثانية بقيادة نوري السعيد بمهاجمة محطة غدير الحاج إلى الجنوب من معان.
٢. تقوم قوة من الفرقة الثانية بقيادة جعفر العسكري بمهاجمة محطة الجردونة إلى الشمال من معان.
٣. تقوم الفرقة الأولى بمهاجمة معان من الغرب لاحتلال تلول السمنات بقيادة مولود مخلص[٩٤].

**٢/٣- تشكيلات الجيش العربي التي شاركت في معارك معان**

أورد كل من صبحي العمري – الذي كان يقود سرية رشاش -ومحمد العجلوني – الذي كان يقود سرية مشاة – في معارك معان، تفصيلات حجم وتشكيل القوات العربية النظامية والمتطوعة التي شاركت في الهجوم على معان، وذلك على النحو الآتي :

١. فرقتي مشاة: الأولى يقودها مولود مخلص والثانية عبد المجيد حسون، وتتكون كل فرقة من لوائين، وكل لواء من ٢-٣ أفواج، وكل فوج من ٢-٣ سرايا، وكل سرية من نحو ١٠٠ جندي.
٢. اللواء الهاشمي: ويتشكل من سرية خيالة فيها من ٧٠-٨٠ خيالاً وبغالاً، وسرية رشاش.
٣. مدافع متنوعة عدد (١٥).
٤. قوات عشائرية قوامها (٣٠٠٠) مقاتل. هذا بالإضافة إلى بنادق ومسدسات متعددة الأنواع[٩٥].

**٣/٣- تنفيذ الهجوم على معان**

**(٣/٣) ١- معارك المرحلة الأولى ( التمهيد للهجوم من ١٠ – ١٣ نيسان ١٩١٨م):**

**أ- معارك محطتي غدير الحاج والجردونة:**

تنفيذًا لما جاء في مؤتمر أبو اللسن، وتمهيدًا للمعركة الرئيسية في معان، قاد نوري السعيد قوة تتألف من مشاة

اللواء الثاني من الفرقة الثانية، بالإضافة إلى قوة من البدو بقيادة عوده أبو تايه وحمد بن جازي، للهجوم على محطة غدير الحاج، قدر عددهم حسب رواية صبحي العمري بنحو ٢٠٠ مقاتل، أما العجلوني –الذي كان يقود إحدى سرايا المشاة في الحملة– فيجعل عددهم بضع مئات، في حين يروي نوري السعيد انه تقرر أن يستعين بقوة من البدو المتطوعين يبلغ عددها ١٠٠٠ مقاتل[٩٦].

وقد زحفت الحملة مساء يوم ١٠ نيسان، وبدأ الهجوم على المحطة فجر يوم ١١ نيسان ١٩١٨م، وكانت المدفعية قد مهدت للهجوم بدكها مبنى المحطة بالقنابل، ثم زحف رجال المشاة على استحكامات الأتراك ونشبت بين الطرفين معركة لم تدم طويلاً انتهت بتحطم مقاومة المحطة، واستيلاء القوات العربية عليها وأسر ٣٠٠ من رجالها بين ضابط وجندي[٩٧]، وجاء في رسالة الأمير فيصل إلى الملك الحسين بتاريخ ١٣ نيسان ١٩١٨م، أن عدد الأسرى ١٥٠ أسيرًا[٩٨]. وبعد سقوط المحطة عمد أفراد القوة العربية إلى تخريب سكة الحديد من جنوب معان لمسافة ١٠ كلم[٩٩]، وفي اليوم التالي عاد نوري السعيد بقواته إلى أوهيدة، التي اتخذت في هذه الأثناء مقرًا جديدًا للقيادة العربية بدلاً من أبو اللسن، وذلك تمهيدًا للالتحاق بالقوات العربية التي ستهاجم معان.

ومما يذكر من أحداث عملية غدير الحاج، أن القوات العربية عندما اقتربت منها أرسلت نقيبًا وجنديًا للاستطلاع، وحدث أن باغتهما الأتراك فقتلوا الجندي وقادوا النقيب إلى داخل المحطة، وعندما احتل الجيش العربي المحطة وجدوا النقيب مقطوع الرأس ومشوه الجسد، فكان لهذا المشهد ردت فعل شديدة لدى الضباط والجنود، ويروي أمين سعيد أن جميل المدفعي (قائد المدفعية) قام بقتل جنديين تركيين انتقامًا له، وكتب في الوقت ذاته إلى قائد الجيش التركي في معان ينذره بقتل أسرى الترك إذ عادوا إلى ذبح الأسرى العرب[١٠٠].

أما عن محطة الجردونة التي تقع في سهل منبسط شمال معان على بعد ١٥ كلم[١٠١]، فقد تقرر الهجوم عليها بالتزامن مع عملية غدير الحاج، وأوكلت مهمة الاستيلاء عليها إلى اللواء الأول في الفرقة الثانية الذي كان يتمركز في عين نجل (الشوبك)، وقد وصلت القوات إلى مشارف المحطة مساء يوم ١١ نيسان وتولى قيادتها جعفر العسكري، وتألفت هذه القوة من ٦٠٠ جنديًا نظاميًا[١٠٢]، وفي صباح يوم ١٢ نيسان بدأ الهجوم بقصف شديد من المدفعية ثم شرعت قوات المشاة بالتقدم حتى أحكمت سيطرتها على مواقع الجنود الأتراك في الخنادق من كل الجهات، ثم دارت بين الطرفين معركة خاطفة استخدمت فيها القنابل اليدوية والأسلحة البيضاء، انتهت باستسلام الحامية التركية وسقوط المحطة[١٠٣]. وبعد احتلال المحطة عمدت القوات العربية إلى نسف الجسر الذي يربط المحطة مع الخط الحديدي، كما نزعوا عددًا من القضبان الحديدية من الخط، ثم قفلوا عائدين إلى أوهيدة، بعد أن أتت النجدات التركية إلى المحطة من جهة معان وعنيزة[١٠٤].

**ب- معركة تلول السمنات:**

بعد أن حقق العرب النجاح في هجومهم على غدير الحاج والجردونة وفقًا للخطة التي وضعت للهجوم على معان، كانت الخطوة التالية مهاجمة تلول السمنات ذات التحصينات المنيعة، والتي لا تبعد عن معان أكثر من خمسة كيلو مترات من جهة الغرب، واختارت القيادة العربية لتنفيذ هذه المهمة، الفرقة الأولى بقيادة مولود مخلص، والحق بهاء لواء المدفعية بقيادة جميل المدفعي، وقوة من البدو تقدر بـ ٣٠٠٠ مقاتل بقيادة عوده أبو تايه[١٠٥].

وفي صباح يوم ١٣ نيسان شرعت القوات العربية بالهجوم على مواقع الترك الأمامية في تلول السمنات، وأصلت المدفعية العربية الترك نيرانًا حامية، مما أرغمهم على الانسحاب وإخلاء مواقعهم، ولما رأى مولود تقهقر الترك عز عليه انسحابهم سالمين، فنادى برجاله لمطاردة إحدى السرايا المنسحبة، وتمكن من أسر السرية المنسحبة عن بكرة أبيها، ثم أخذ يطارد سرية أخرى، وحدث في هذه الأثناء أن كمن بعض الجنود المنسحبين على الأرض وأخذوا بإطلاق النار مما أدى إلى إصابة مولود برصاصتين الأولى كسرت رجله اليسرى، والأخرى جرحت رجله اليمنى، فسقط عن حصانه وكاد أن يقع في الأسر[١٠٦].

وهكذا تم لمولود مخلص رغم إصابته الاستيلاء على تلول سمنة ذات التحصينات والموقع الاستراتيجي، وقد فجع القادة العرب والإنجليز في إصابته لكونه واحدًا من أفضل الضباط في الجيش، فقد علق رئيس الأركان البريطاني الكولونيل داوني على إصابة مولود بقوله: " مما يؤسف له أن مولود وهو أقدر الضباط العرب أصيب بجرح بليغ "[١٠٧]. وكان مولود قد نقل إلى مقر الجيش العربي، ومن هناك أرسل إلى القاهرة للمعالجة، وظلت قيادة الفرقة الأولى شاغرة حتى عين نوري السعيد خلفًا له. وفي مساء ١٣ نيسان اتصلت قوات نوري السعيد الزاحفة من الجنوب بقوات مولود في السمنات، وفي اليوم التالي تمكنت قوات جعفر العسكري

من الاتصال أيضًا بتحصينات معان من الشمال، وعندئذ أسندت القيادة العامة لعمليات الهجوم على معان إلى جعفر العسكري[١٠٨].

**(٣/٣) ٢- معارك المرحلة الثانية (الهجوم المباشر على معان من ١٦-١٨ نيسان ١٩١٨م):**

باحتلال مولود مخلص لتلول السمنات يوم ١٣ نيسان، تكون قد تحققت أهداف المرحلة الأولى من الهجوم، إذ أصبحت معان محاصرة من ثلاث جهات – الشمال والجنوب والغرب – ولم يعد للأتراك من منقذ إلا الصحراء من الشرق. وخلال يومي ١٤ و١٥ نيسان كثفت القوات العربية من استعداداتها للمعركة المقبلة، حيث تمركزت الفرقتان الأولى والثانية في مواضعهما في تلول السمنات، وفي هذه الأثناء وصلت شحنة من الذخائر والمؤن البريطانية إلى أوهيدة، كما نقل الأمير فيصل مقر قيادته من أوهيدة إلى تلول السمنات ليكون قريبًا من مجريات المعركة، أما الأتراك فكانوا في تلك الآونة يستحكمون في خنادقهم[١٠٩].

وفي صباح يوم ١٦ نيسان قاد جعفر العسكري الهجوم المباشر على معان ذاتها، وبدأت المعركة بقصف مدفعي شديد، ثم شرعت قوات المشاة بالتحرك من سمنة تجاه الخط الأول من استحكامات الترك تحت وابل من نيران الرشاشات، وبعد اعتراك مرير تمكنت القوات العربية من اقتحام خنادقهم والاستيلاء عليها، وفي المساء قام جنود اللواء الأول في الفرقة الأولى بالهجوم على خط الدفاع الثاني فاحتلوه بعد العشاء بعد استبسال ومقاومة مستميتة.

وفي اليوم التالي (١٧ نيسان) استؤنف الهجوم بشدة وحماسة، إذ لم يبق إلا الخط الثالث والأخير للأتراك، يقول العلجوني:" ومضينا في تقدمنا إلى الخط الثالث والأخير، والذي يقوم على ربوة جنوبي غربي المحطة ولا يبتعد عنها أكثر من ثلاثمائة متر"[١١٠]، واشتد القتال خلال هذا اليوم، وتمكنت قوة من البدو بقيادة عوده أبو تايه من الاستيلاء على مركزين للأتراك في الجهة الشرقية للمحطة، كما تمكنت القوات النظامية من الوصول إلى المحطة بعد قتال عنيف، ولم يأت المساء إلا وكانت القوات العربية قد استولت على جميع مواضع الخط الثالث، ولم يتبق بيد الأتراك إلا المواضع التي تحيط بالمحطة من الشرق والشمال والجنوب وهي أكثر المواقع تحصينًا.

وفي صباح يوم ١٨ نيسان استؤنف القتال من جديد، حيث تقدمت الفرقة الثانية للاستيلاء على المواضع التي يشغلها العدو في شرق وجنوب المحطة، وكانت الخطة أن تسير هذه القوات تحت حماية المدفعية الفرنسية، غير أنها ما أن وصلت في منتصف المسافة وفي أخطر نقطة حتى توقفت بطارية المدفعية الفرنسية فجأة عن القصف بحجة نفاذ الذخيرة، الأمر الذي جعل القوات المهاجمة بلا حماية، فكر عليهم الترك برشاشاتهم وأرغموهم على التراجع بعد أن أوقعوا فيهم خسائر فادحة[١١١]. وقد أظهر نوري السعيد بعد توقف المعركة امتعاضه الشديد من توقف البطارية الفرنسية وعدم تصديقه لرواية آمر البطارية الفرنسية بنفاذ العتاد، فيقول: "فاستغربت جدًا عمل آمر المدفعية الفرنسية لأني لم أزل أتذكر جيدًا أن هذه البطارية لم تقم بواجبها وأنها لم تطلق أكثر من بضع قذائف لتقدير المدى والاتجاهات وهذا لم يكلفها أكثر من عشرين قذيفة".[١١٢]

ونظرًا لفداحة الخسائر التي حلت بالجيش العربي في هذا اليوم أمر الأمير فيصل بعد أن حلّ الظلام، بالتراجع إلى ما وراء خط سمنة لإعادة تنظيم القوات والحصول مقادير جديدة من الأسلحة، ويذكر العلجوني أن التقارير التي نشرتها أركان حرب الفرقة التركية في معان بعد المعركة، أشارت إلى أن حامية معان كانت على وشك الاستسلام ذلك اليوم وأن مقاومتها تحطمت، ولولا توقف المدفعية عن القصف في الساعة الحرجة من المعركة لاستولى العرب على الاستحكامات في الخط الثالث[١١٣].

وبالنظر إلى الخسائر التي لحقت بالقوات العربية منذ بدء هجوم المرحلة الثانية وحتى مساء ١٨ نيسان، فقد كانت نحو ٩٠ قتيلاً و٢٠٠ جريح، أما خسائر الأتراك فلقد كانت ٢٥٠ بين قتيل وجريح، و٤٠٠ أسير[١١٤]. وهنا يمكن إرجاع أسباب فشل الهجوم على معان لما يلي:

١. الفراغ المادي والمعنوي الذي تركه خروج القائد مولود مخلص من المعركة في مراحلها الأولى، وعدم توفر بديل مناسب يسد ذلك الفراغ.
٢. عدم اشتراك القوات البدوية بصورة جدية في اليوم الثالث من الهجوم، لأن رجالها يأنفون قتال المراكز المحصنة[١١٥].
٣. توقف المدفعية الفرنسية عن إسناد القوات المهاجمة في الوقت الحرج، بحجة نفاذ العتاد، على الرغم أنهم لم يرموا سوى عشرين طلقة، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على عدم رغبة الحلفاء بسقوط معان، إذ أن موافقة بريطانيا وفرنسا على الهجوم جاءت على مضض.
٤. انضمام أهالي معان للأتراك في مقاومة الهجوم العربي، إذ عندما شاع بين أهالي معان أن الأتراك عقدوا اجتماعًا

في ليلة ١٨ نيسان وقرروا فيه الاستسلام، توجه أهالي معان لمقر الحامية التركية ومنعوهم من التسليم على أن يشتركوا معهم في المقاومة، وفعلاً تطوع منهم ٩٠٠ مقاتل وهذا ما قوى عزيمة الأتراك ومنعهم من التسليم.[١١٦]

## رابعًا: معارك المحطات الثانية

لم يوفق الجيش العربي في الاستيلاء على معان يوم ١٨ نيسان، لكن مع ذلك برهن الجنود العرب على المستوى الرفيع الذي وصلوا إليه من المهارة والقتال، يقول لورنس "وهكذا أثبتت معركة معان أن العرب يمكنهم أن يقاتلوا بشجاعة ويحاربوا بضراوة وحنكة دون مساندة الإنجليز"[١١٧]، وبعد إخفاق الهجوم على معان تقرر إبقاء بعض القوات في أوهيدة والسمنات للضغط على معان، مع توجيه حملات في الوقت ذاته لمهاجمة محطات السكة إلى الجنوب والشمال من معان.

### ١/٤- معركة محطة تل الشحم

تقع محطة تل الشحم إلى الشمال من المدورة بمسافة ٢٦ كلم[١١٨]، وكان الجيش العربي بعد أن أعاد تنظيم صفوفه بعد معركة معان، قرر أن يستأنف الهجوم على مواضع الأتراك، وكانت محطة تل الشحم أول أهدافه، إذ بتاريخ ١٩ نيسان قامت قوة من العرب بمساعدة البعثة البريطانية بشن هجوم على خط سكة الحديد قريبًا من محطة تل الشحم، فاستولوا على عدة مراكز حولها، ثم شنوا هجومًا مركزًا تؤازرهم بعض قوات البدو، فاستولوا عليها وأسروا ٥٤ جنديًا، ثم مضت القوات بمهاجمة وتخريب سكة الحديد حتى وصلت محطة المدورة، وكان الأمير فيصل قد أرسل قوة أخرى بهذه الأثناء للإغارة على المحطات جنوب معان، وما هي إلا بضعة أيام حتى تمكنت قوات الجيش العربي من تخريب السكة بصورة تامة بين معان والمدورة.[١١٩]

### ٢/٤- معارك محطة الجردونة الثانية

جاءت عمليات محطة الجردونة الثانية وفق خطة وضعها الأمير زيد للاستيلاء على عدة محطات إلى الشمال من معان، كما حدث لمحطات الجنوب منها، بقصد إرغام حاميتها على الاستسلام. من هنا قاد الأمير زيد بنفسه قوة مؤلفة من لوائين من المشاة ولواء من الفرسان، وشن هجومًا على محطة الجردونة فجر يوم ١١ أيار، وبعد مضي بضع ساعات على القتال اضطرت حامية الجردونة للاستسلام، وبعد أن أجرت القوة العربية التخريبات في المحطة عادت مثقلة بالغنائم والأسرى إلى معسكرها في أوهيدة[١٢٠]. وكانت القوات التركية بعد انسحاب القوات العربية من الجردونة قد عادت إليها يوم ١٤ أيار، وأخذوا في إصلاحها وتحصينها استعدادًا لأي هجوم جديد، كما عززوا قواتهم في محطة عنيزة. ويتحدث نوري السعيد عن تحكيمات الأتراك الجديدة حول محطة الجردونة، فيقول أنهم حفروا خنادق جديدة بشكل بيضوي وبطول ٨٠٠ أو ٩٠٠ متر، ثم غطوا سقوف الخنادق بالقضبان الحديدية، وحفروا خنادق احتياطية وزرعوا حقلاً من الألغام أمام مواضعهم.[١٢١]

وحينما وصلت أنباء وصول النجدات التركية الجديدة للمحطة، قررت القيادة العربية القيام بهجوم جديد عليها، وبنفس القوات التي شاركت في الهجوم السابق، مضافًا إليها لواء من المشاة بقيادة تحسين علي، وثلاث طائرات بريطانية، وقوة من العشائر[١٢٢]. وفي فجر يوم ١٧ أيار بدأت القوات العربية بقيادة نوري السعيد الهجوم على المحطة، وكان من المقرر أن تهجم الألوية الثلاث في آن واحد؛ الأول بقيادة سيّد طاهر من اليسار، والثاني بقيادة رشيد علي من اليمين، بينما لواء تحسين علي من الوسط، لكن يبدو أنه حدث خطأ ما جعل لواء رشيد علي يبدأ بالتقدم نحو المحطة قبل الوقت المعين، مما جعل الأتراك يوجهون كامل قواهم نحو هذا اللواء الذي تمكن رغم ذلك من الوصول إلى خط الدفاع الخارجي حول المحطة، وعندما عجز الأتراك عن رد هجوم هذا اللواء لجأوا إلى الحيلة، إذ رفع جنود الخنادق الأمامية أيديهم علامة على استسلامهم، وعندما تقدم عدد من الجنود العرب لأخذهم أسرى، بادر الجنود الأتراك في الخنادق الخلفية إلى رميهم بالقنابل اليدوية والرصاص، فقتلوا الكثير منهم بينهم قائد اللواء نفسه رشيد علي، مما اضطر الباقين للرجوع.[١٢٣]

أما لواء سيد طاهر ولواء تحسين علي، فقد اندفعا بكل ما لديهم من قوة فور سماعهم لأزيز الرصاص من جهة لواء رشيد علي، حتى أصبحا على بعد ٣٠٠ متر من خنادق الأتراك، وهنا حمي وطيس المعركة لكن حقول الألغام واستحكامات العدو، واستشهاد سيّد طاهر قائد اللواء الأول، وإصابة تحسين علي قائد لواء المشاة، أجبر القائد نوري السعيد على أن يتخذ قرار التراجع، لتسفر المعركة عن فشل ذريع لقوات الثورة، إذ قدر نوري السعيد خسائر الجيش العربي في المعركة بأنها تزيد على نصف قوات لواء رشيد علي، وربع قوات لواء سيد طاهر[١٢٤]. ويقدم صبحي العمري إحصائية أكثر وضوحًا بالخسائر، إذ يقول أن المعركة أسفرت عن مقتل

٦ ضباط و٢٣ جنديًا و١٠٠ جريح[١٢٥]. لكن هذا الفشل الذي لقيته القوات العربية في الجردونة لم يثن من عزيمتهم، فقد نشطت مفارزهم وسراياهم بعد هذه الهزيمة في تكثيف هجماتها على سكة الحديد بين معان وعنيزة، فقامت يوم ٢٦ أيار قوة نظامية بمهاجمة الخط وتدمير جسرين بين معان والجردونة، وفي يوم ٣٠ أيار تمكنت القوات العربية من تخريب مسافة ٢ كلم من السكة بين عنيزة والجردونة، ثم في يوم ٢٠ حزيران هاجمت قوة عشائرية قافلة مؤن وذخيرة بين محطتي عنيزة والجردونة واستولت عليها[١٢٦]. وقد أثارت هذه العمليات حفيظة الأتراك، فارسلوا تعزيزات من الجيش التركي السابع في نابلس إلى شرقي الأردن، الأمر الذي اعتبره العرب آنذاك استعدادًا تركيًا للهجوم على القوات العربية في أوهيدة وأبو اللسن، ولمواجهة ذلك سارعت القوات العربية في مهاجمة الجردونة مرة أخرى في ٢١ تموز ١٩١٨م، وقد أشرف على الهجوم الأميران فيصل وزيد، وتولى قيادة العمليات العسكرية في الميدان نوري السعيد[١٢٧].

وكانت الخطة تقضي بالهجوم من جميع الجهات، بحيث يتولى الجنود النظاميين الهجوم من الجهات الجنوبية والغربية والشمالية، والبدو من الجهة الشرقية، ومع بزوغ فجر يوم ٢١ تموز بدأ الهجوم بقصف من المدفعية والطائرات، ثم أعقبه زحف للقوات النظامية، لكن يبدو أن خطأ توقيت بدء الهجوم الذي حدث في معركة الجردونة السابقة قد تكرر هنا، إذ أن أحد الألوية المهاجمة سبق الموعد المعين للزحف بساعة كاملة، وبذلك سلط عليه الأتراك جميع نيرانه وأوقع في أفراده خسائر فادحة، ومع أن بعض القوات النظامية استطاعت اختراق الدفاعات الأمامية للحامية التركية، إلا أنها عندما وصلت إلى الخنادق وجدت نفسها عاجزة عن فعل شيء أمام قوة استحكامات العدو ونيران رشاشاته الدقيقة والمميتة، وبعد قتال عنيف استمر لعدة ساعات قدم قطار من عنيزة يحمل النجدات للحامية، وهنا ونظرًا لما أحدثه وصول القطار من تأثير معنوي على جنود الحامية، وبسبب ما لحق العرب من خسائر فادحة في المعركة، أمر الأمير فيصل بوقف الهجوم والتراجع إلى أوهيدة[١٢٨]. وهكذا لم يكن مصير هذه الهجمة بأفضل من مصير الهجمات السابقة، على الرغم مما أبداه العرب من تصميم وبسالة، وكانت نسبة الخسائر في هذه المعركة أكثر من جميع المعارك السابقة، إذ بلغ عدد القتلى ٢٤ ضابطًا، و٢٠٠ جندي ما عدا الجرحى[١٢٩].

## خامسًا: معركة الدوشك (الدوسق) آخر معارك معان

الدوشك هو حصن عثماني يقع إلى الغرب من عنيزة على مسافة ١٧ كلم، ويتألف من بنائين منفصلين المسافة بينهما حوالي ١٢ متر، ويبدو من خلال الموقع الذي يشغله الحصن على مفترق طرق، تؤدي إلى الطفيلة شمالاً، وأذرح[١٣٠] جنوبًا، وعنيزة شرقًا، وقلعة الشوبك وعين نجل غربًا، أنه بني لاعتبارات عسكرية بحتة، فهو خط دفاع خلفي ثاني لقلعة عنيزة، ومحطة إنذار أولى لقلعة الشوبك، ومركز سيطرة وحماية لخط سكة الحديد الفرعي بين عنيزة والشوبك، ومركز تحكم لخطوط المواصلات بين المراكز الأربعة السابقة.

ولما كان يقيم في هذا الموقع مفرزة من الجيش الشمالي بقيادة الشريف مستور الفعر والشريف علي بن عريد[١٣١]، عمدت القوات التركية – تزامنًا مع هجومها على الطفيلة – للقيام بعملية خاطفة ضد الدوشك، بهدف إشغال العرب وإحباط خططهم بالتحرك نحو الشمال، من هنا شنت قوة تركية مكونة من أربعة طوابير مشاة وطابور خيالة وستة مدافع و٢٤ رشاش، هجومًا شاملاً على حصن الدوشك يوم ١٨ أيلول ١٩١٨م، وخاضت مع القوات العربية معركة دامت لساعات، شاركت فيها بعض قوات العشائر من أبناء الشوبك والبدو، ونظرًا لما لقيته القوات التركية من استبسال المقاومة اضطرت إلى التراجع بعد أن خسرت ٤٢ قتيلاً بينهم قائد القوة محمد عصري، و١٥ أسيرًا.[١٣٢]

وهكذا كانت معركة الدوشك خاتمة معارك الثورة العربية الكبرى ضمن محور معان، انتهت بفشل القوات التركية لينتهي معها بعد ذلك أي أمل لاستعادة مجد الأتراك في المنطقة، ولتكون هذه الهزيمة بداية النهاية لانسحاب الأتراك من جميع أراضي معان وبلاد الشام. حيث بعد أن أيقن الأتراك أن الهزيمة حلت بهم في ميدان فلسطين، وأنه لا مجال لهم لبناء خطوط دفاع جديدة إلى الجنوب من دمشق، صدرت الأوامر للقوات التركية بمعان يوم ٢٢ أيلول ١٩١٨م، بالانسحاب من معان على وجه السرعة، فانسحبوا منها يوم ٢٤ أيلول، وفي اليوم التالي دخلها الأمير زيد وغنم ما تركه الأتراك من أسلحة، وجاء في وصف الأمير زيد للاستحكامات التركية في معان قوله: "وقد وجدنا استحكامات معان مبنية على آخر طراز من الفن".[١٣٣]

## خَاتِمَةٌ

بعد استعراضنا لسائر العمليات العسكرية التي نفذتها جيوش الثورة العربية الكبرى في مسرح معان وجوارها، يمكن أن نخلص هنا إلى مجموعة من الحقائق أهمها:

١. أن المعارك التي شهدتها معان وجوارها شكلت الحلقة الأطول والأهم في مجريات الثورة العربية الكبرى على الأرض الأردنية، نظرًا لاتساع رقعة العمليات العسكرية فيها، وإصرار الأتراك على التمسك بمعان لما تشكله من حلقة وصل لقواتهم المنتشرة ما بين دمشق والمدينة المنورة.

٢. في الوقت الذي انحازت فيه معظم قبائل وعشائر جوار بلدة معان للثورة منذ فترة مبكرة، الأمر الذي سهل دخول جيوش الثورة لبلداتهم وقراهم، فإن أهالي معان القصبة، وقفوا على طرف نقيض من ذلك، إذ انحازوا إلى الأتراك، وقد جاء هذا الموقف من أهل معان لإخلاصهم للحكومة التي تتولى أمرهم، ولخوفهم من نهب البدو لمدينتهم لما بينهم من عداوة وخصام.

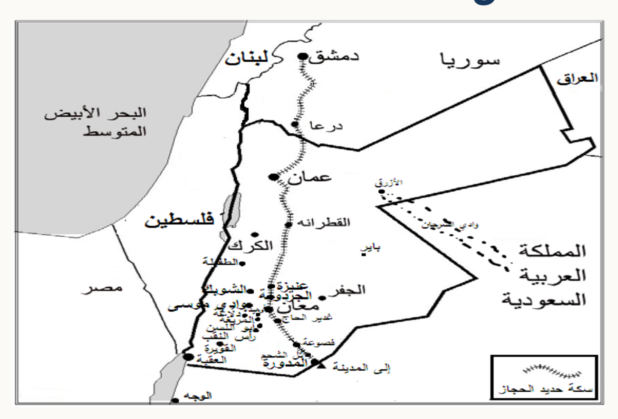
٣. لم يكن للقوات العشائرية التي شاركت مع جيوش الثورة عظيم شأن في معارك الاستيلاء على بلدة معان ومحطة الجردونة، لأن رجالها لم يألفوا الهجوم على المراكز المحصنة، في حين كان لهم بالغ الأثر في المعارك التي دارت رحاها في الأراضي المكشوفة مثل أبو اللسن والمريغة وأوهيدة ووادي موسى.

٤. على الرغم من إخفاق قوات الجيش العربي في معارك الهجوم على معان في نيسان ١٩١٨م، إلا أن تلك المعارك برهنت على شجاعة العرب وقدرتهم على القتال دون مساندة أجنبية.

٥. ظلت بلدة معان "القصبة" ومحطتي الجردونة وعنيزة، عصية على قوات الثورة حتى انسحاب الأتراك منها يوم ٢٤ أيلول ١٩١٨م، نظرًا للاستحكامات القوية التي اتخذها الأتراك حولها، وعدم جدية بريطانيا وفرنسا في دعم قوات الثورة للاستيلاء عليها.

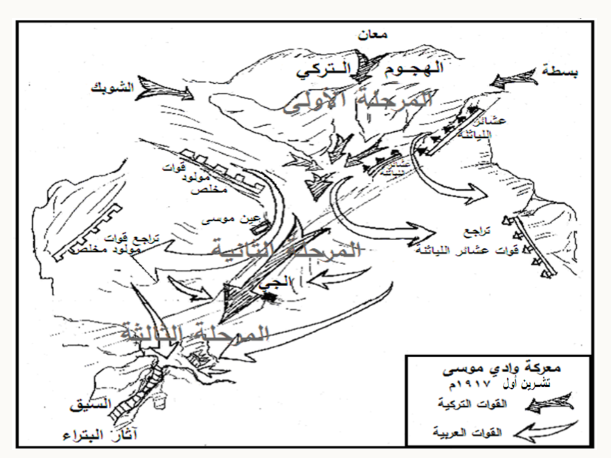
٦. يعتبر القائد العراقي مولود مخلص بحق أبرز قادة جيوش الثورة ضمن محور معان، لما كان له من دور كبير في الاستيلاء على دلاغة ووادي موسى والمريغة وأوهيدة وتلول السمنات.

## الملاحق



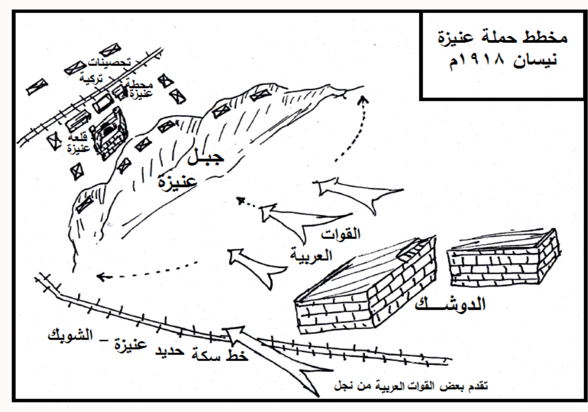

الشكل رقم (١)

خارطة تبين مواقع معارك معان في الثورة العربية الكبرى




الشكل رقم (٢)

مخطط معركة وادي موسى تشرين أول ١٩١٧م




الشكل رقم (٣)

مخطط حملة عنيزة نيسان ١٩١٨م

## الهَوامِشُ:

(١) الموسى، سليمان: **الحسين بن علي باعث النهضة العربية الحديثة**، وزارة الثقافة، عمان ١٩٨٩م، ص١٨. سيشار إليه لاحقًا: الموسى، الحسين بن علي.

(٢) الملك عبدالله بن الحسين: **الآثار الكاملة**، ط٢، الدار المتحدة للنشر، بيروت ١٩٧٩م، ص١١٦. سيشار إليه لاحقًا: الآثار الكاملة للملك عبد الله.

(٣) **الآثار الكاملة للملك عبدالله**، ص١٤١-١٤٢؛ الأسد، ناصر الدين: **النهضة العربية الكبرى (دراسات وأبحاث)**، دون مكان وتاريخ نشر، ص١٠٨ سيشار إليه لاحقًا: الأسد، النهضة العربية الكبرى.

(٤) محافظة، علي: **تاريخ الأردن المعاصر (عهد الإمارة ١٩٢١-١٩٤٦م)**، ط٢، مركز الكتب الحديث، عمان ١٩٨٩م، ص٨-٩. سيشار إليه لاحقًا: محافظة، تاريخ الأردن المعاصر.

(٥) **عنيزة**: قرية صغيرة تقع على الطريق الصحراوي على بعد حوالي ٣٦ كيلو متر شمال معان، تضم محطة سكة حديد وقلعة عثمانية. انظر: الخريطة الشكل رقم (١).

(٦) **الهيشة**: غابة بمنطقة الشوبك، قطع الأتراك معظم أشجارها خلال الحرب العالمية الأولى لتكون وقودًا للقطارات. انظر: الماضي، منيب؛ الموسى، سليمان: **تاريخ الأردن في القرن العشرين**، ط١، عمان ١٩٥٩م، ص٣٠. سيشار إليه لاحقًا: الماضي، تاريخ الأردن.

(٧) الماضي، **تاريخ الأردن**، ص٣٠.

(٨) **دلاغة**: قرية صغيرة تقع على بعد ٢٥ كيلو متر جنوب غرب وادي موسى وتتبع له إداريًا. انظر: الخريطة الشكل رقم (١).

(٩) تسمى قبيلة الحويطات بهذا الاسم نسبة إلى مؤسسها حويط بن جماز الحسيني، وتقع منازلها في القسم الجنوبي من الأردن، ومن أشهر عشائرها التوايهة والجازي والنجادات. انظر: بيك، فردريك .ج: **تاريخ شرقي الأردن وقبائلها**، تعريب: بهاء الدين طوقان، مكتبة النهضة، بغداد ١٩٣٥، ص٢٢٨-٢٣٣. سيشار إليه لاحقًا: بيك، تاريخ شرقي الأردن.

(١٠) **النعيمات**: عشيرة تقيم في منطقة الشراة، وتتوزع على عدة قرى أهمها إيل والفرذخ وبسطة، استشهد من رجالها في الثورة سليمان أبو شتال، وهويمل بن عوض، وسالم سودي النعيمات. انظر: الموسى، سليمان: **الثورة العربية الكبرى – الحرب في الأردن ١٩١٧-١٩١٨م – مذكرات الأمير زيد**، عمان ١٩٧٥م، ص٢٠٨. سيشار إليه لاحقًا: مذكرات الأمير زيد.

(١١) اللياثنة: هو الاسم الذي يعرف به أهالي وادي موسى، وهم ينقسمون إلى أربعة عشائر هي: الشرور وبني عطا والعلايا والعبيدية، وقد انحاز اللياثنة مبكرًا للثورة العربية وكان لهم دور كبير في تحرير وادي موسى والشوبك من الأتراك.

(١٢) يُقصد بهم هنا عشائر الشوبك، وهي تتكون من الملاحيم والغنميين والشقيرات والطورة واللواما والهباهبة والرفايعة.

(١٣): **غدير الحاج**: هي أول محطة لسكة الحديد إلى الجنوب من معان على بعد ١٧ كلم منها. انظر: المجالي، بكر خازر: المسارات العسكرية للثورة العربية الكبرى في الأرض الأردنية، جامعة الحين بن طلال، معان ٢٠٠٣م، ص١٤٩. سيشار إليه لاحقًا: المجالي، المسارات العسكرية.

(١٤): **أبو اللسن**: قرية صغيرة تقع إلى الجنوب من معان على مسافة ٢٨ كيلو متر، وتتبع إداريًا إلى قضاء المريغة. وصفها "علي جودت" أحد قادة الثورة العربية بقوله: "أبا اللسن رابية جميلة .. في موقع جبلي منيع يبعد عن معان سبع ساعات .. وهي اسم زاهر في تاريخ ثورة العرب بفضل ما ارتوت به جنباتها من دم البطولة والشرف". انظر: جودت، علي: **ذكريات**، ط١، مطابع الوفاء، بيروت ١٩٦٧م، ص٥٠. سيشار إليه لاحقًا: جودت، ذكريات.

(١٥) **الرولة**: هي من أكبر قبائل عنزة وأشهرها على الإطلاق، هاجرت من نجد واصطدمت مع بعض قبائل الشمال مثل بني صخر واستطاعت التغلب عليها وتوغلت حتى الأراضي السورية وامتدت حدودها من تيماء والجوف جنوبًا حتى أطراف دمشق شمالًا، أما بنو صخر فقد هاجروا من الحجاز واستقروا في منطقة البلقاء. انظر: بيك، **تاريخ شرقي الأردن**، ص١٦٨، ٢١٩، ٢٣٥.

(١٦) **عوده بن حرب أبو تايه الحويطي**، ولد حوالي عام ١٨٧٠م، وقد اشتهر بالشجاعة والفروسية والرجولة منذ مطلع شبابه، وعندما زحف جيش الثورة العربية الكبرى تجاه العقبة ومعان انضم إليهم وقاتل معهم فلمع اسمه، وقيل تزوج ٢٨ مرة، وكانت وفاته عام ١٩٢٤م ودفن في عمان. انظر: الزركلي، خير الدين: **الأعلام** "قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين"، ٨ أجزاء، ط١٥، دار العلم للملايين، بيروت ٢٠٠٢م، جـ٥، ص٩٣-٩٤. سيشار إليه لاحقًا: الزركلي، الأعلام؛ الموسى، سليمان: **صور من البطولة**، ط٢، وزارة الثقافة، عمان ١٩٨٨م، ص٧٥-٩٤. سيشار إليه لاحقًا: الموسى، صور من البطولة.

(١٧) **توماس إدوارد لورنس**، ولد عام ١٨٨٨م، وتخرج من جامعة أكسفورد، واشتغل مدة في سوريا باحثًا عن الآثار، ثم عمل موظفًا في الاستخبارات البريطانية أثناء الحرب العالمية الأولى، ورافق جيوش الثورة العربية الزاحفة من الحجاز إلى الشمال لقتال العثمانيين، وتوفي في لندن عام ١٩٣٥م. انظر: الزركلي، **الأعلام**، جـ٥، ص٩٣.

(١٨): لورنس، ت.أ: **أعمدة الحكمة السبعة**، ط٤، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨٠م، ص١٥١. سيشار إليه لاحقًا: لورنس، **أعمدة الحكمة السبعة**.

(١٩) **الشريف ناصر بن علي بن الحسين** بن فهد بن راضي، من الأشراف الحسينيين الذين يطلق عليهم لقب "السادة"، ولد في المدينة المنورة عام ١٨٩٠م ونشأ فيها، وفي عام ١٩١٦م التحق بجيوش الثورة وكان موفقًا في معظم حملاته، توفي في بغداد عام ١٩٣٤م. انظر: الموسى، صور من البطولة، ص٤١-٥٨.

(٢٠) الموسى، سليمان: **الحركة العربية (سيرة المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة ١٩٠٨-١٩٢٤)**، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٧٠م، ص٣٠١. سيشار إليه لاحقًا: الموسى، الحركة العربية.

(٢١) الموسى، سليمان: **المراسلات التاريخية ١٩١٤-١٩١٨م (الثورة العربية الكبرى)**، مجلدان، ط١، عمان ١٩٧٣م، مج١، ص١٠٣-١٠٤. سيشار إليه لاحقًا: المراسلات التاريخية ١٩١٤-١٩١٨م.

(٢٢) لورنس، **أعمدة الحكمة السبعة**، ص١٥٧.

(٢٣) الموسى، **صور من البطولة**، ص٨٢.

(٢٤) **رضا الركابي (١٨٦٦-١٩٤٢م)**: ولد وتوفي بدمشق، وقد تولى مناصب عسكرية عديدة في الجيش التركي، ولما دخل الجيش العربي دمشق عام ١٩١٨م، عين حاكمًا عسكريًا ثم رئيسًا للوزراء، وكان أكرم رضا الركابي قد كذب في مقابلة خاصة ادعاء لورنس بأنه قابل والده في دمشق في حزيران ١٩١٧م، بينما يؤكد انطونيوس اللقاء، ويقول أن لورنس سلم الركابي رسالة يحملها له من الأمير فيصل يوم ١٣ حزيران. انظر: قاسمية، خيريه، **الحكومة العربية في دمشق ١٩١٨-١٩٢٠**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دون مكان وتاريخ نشر، ص٣٢. سيشار إليه لاحقًا: قاسمية، **الحكومة العربية**؛ انطونيوس، جورج: **يقظة العرب**، ط٦، ترجمة: ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٠م، ص٣٢٢. سيشار إليه لاحقًا: انطونيوس، يقظة العرب.

(٢٥) **الجفر**: تقع إلى الشرق من معان على بعد ٦٠ كلم، وفيها تقيم عشيرة التوايهة التي ينتسب لها عوده أبو تايه.

(٢٦) **الدمانية**: إحدى عشائر الحويطات، وهم من أبناء جعيل بن علون بن حويط، والدمانية من الدمنة، والتي تعني المكان الذي يسكب فيه القهوة، مما يدل على جود وكرم هذه العشيرة، وهناك من يقول إن عشيرة الدمانية تتبع الحويطات لكنها في الأصل فرع من عشيرة بني عطية. انظر: الدماني، **قصة وقصيدة**، جريدة الدستور، العدد ١٥٧٣٩، السبت ٧ أيار ٢٠١١م؛ بيك، **تاريخ شرقي الأردن**، ص٢٣٣.

(٢٧) الدنجتون، ريتشارد: **لورانس في البلاد العربية**، ترجمة: محمود عزت موسى، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٦م، ص١٨٨. سيشار إليه لاحقًا: الدنجتون، **لورانس في البلاد العربية**؛ الماضي، تاريخ الأردن، ص٣٧.

(٢٨): لورنس، **أعمدة الحكمة السبعة**، ص١٩٧.

(٢٩) لورنس، **أعمدة الحكمة السبعة**، ص١٩٨-١٩٩؛ الموسى، **صور من البطولة**، ص٨٣.

(٣٠) طلاس، مصطفى: **الثورة العربية الكبرى**، منشورات مجلة الفكر العسكري، دمشق ١٩٧٨م، ص٣٧٦. سيشار إليه لاحقًا: طلاس، الثورة العربية الكبرى؛ الموسى، **الحركة العربية**، ص٣٠٢؛ الدنجتون، **لورانس في البلاد العربية**، ص١٨٨-١٨٩، انطونيوس، **يقظة العرب**، ص٣٢٣.

(٣١) لورنس، ت.أ: **الثورة العربية**، ط٢، تعريب: شعبان بركات، الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٩٠م، ص٧١. سيشار إليه لاحقًا: لورنس، الثورة العربية.

(٣٢) **المريغة**: تقع إلى الجنوب من معان على بعد حوالي ٢٥ كيلو متر. انظر: الخريطة الشكل رقم(١).

(٣٣) **أوهيدة**: قرية صغيرة تقع إلى الجنوب الغربي من معان على بعد ١٧ كلم، ويوجد بها نبع ماء غزير. انظر: الخريطة الشكل رقم (١).

(٣٤) الماضي، **تاريخ الأردن**، ص٣٩.

(٣٥) تولى الإشراف على البعثة الفرنسية القائد بيزاني، في حين خضعت البعثة الإنجليزية لقيادة الرائد جويس الذي كان يمثل الجنرال اللنبي. انظر: الروسان، ممدوح عارف، **مسيرة الثورة العربية على الساحة الأردنية** (تموز ١٩١٧-أيلول ١٩١٨م)، منشورات لجنة تاريخ الأردن، عمان ١٩٩٤م، ص١٣-١٤. سيشار إليه لاحقًا: الروسان، **مسيرة الثورة العربية**.

(٣٦) نخص مولود مخلص بالتعريف به هنا من بين جميع القادة العسكريين النظاميين العرب، نظرًا للبطولات التي أظهرها في معارك معان، فهو مولود بن أحمد بن رجب بن شهاب التكريتي، أما اسم (مخلص) فهو لقب منحه إياه الشريف الحسين بن علي لشجاعته في معظم معارك الثورة، وقد ولد عام ١٨٨٥م في مدينة الموصل، وبعد تخرجه من الكلية الحربية في استانبول عام ١٩١٠م، عين ضابطًا في الجيش التركي السادس المرابط في العراق، ولما قامت الثورة العربية التحق بالجيش الشمالي وظل يقاتل حتى إصابته في معارك معان، وقد تقلد بعد ذلك عدة مناصب سياسية وعسكرية في العراق، وتوفي عام ١٩٥١م ودفن في تكريت. انظر: الزبيدي، محمد حسين: **مولود مخلص باشا ودوره في الثورة العربية الكبرى وفي تاريخ العراق المعاصر ١٨٨٥-١٩٥١م**، ط٢، دار الشؤون الثقافية العامة. آفاق عربية، بغداد ١٩٨٦م، ص١١-٢٤. سيشار إليه لاحقًا: الزبيدي، مولود مخلص باشا؛ الموسى، **صور من البطولة**، ص١٢٥-١٤٢.

(٣٧) العمري، صبحي: **أوراق الثورة العربية الكبرى(١)**، المعارك الأولى-الطريق إلى دمشق، ط١، رياض الريس للكتب والنشر، لندن ١٩٩١، ص١٣٥-١٣٦. سيشار إليه لاحقًا: العمري، المعارك الأولى؛ الزبيدي، **مولود مخلص باشا**، ص٩١-٩٢.

(٣٨) لورنس، **أعمدة الحكمة السبعة**، ص٢٣٣.

(٣٩) التكريتي، سليم طه: **مولود مخلص بطل معركة وادي موسى في الثورة العربية الكبرى**، دون مكان نشر، ١٩٩٠م، ص٢٩. سيشار إليه لاحقًا: التكريتي، مولود مخلص؛ لورنس، **الثورة العربية**، ص٩٦.

(٤٠) لورنس، **الثورة العربية**، ص٩٦.

(٤١) **بسطة**: هي إحدى قرى النعيمات، تقع إلى الشرق من معان على بعد حوالي ٢٠ كيلو متر. انظر: الخريطة الشكل رقم(١).

(٤٢) طلاس، **الثورة العربية الكبرى**، ص٣٨٢.

(٤٣) **الشريف عبد المعين:** هو أحد الأشراف الذين تولوا قيادة المتطوعين من القرويين والبدو في الجيش الشمالي، وخاصةً في منطقتي وادي موسى والشوبك.

(٤٤) الموسى، سليمان: **لورنس والعرب وجهة نظر عربية**، ط٣، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، عمان ٢٠١٠م، ص١٨٢. سيشار إليه لاحقًا: الموسى، لورنس والعرب؛ طلاس، الثورة العربية الكبرى، ص٣٨٢-٣٨٣.

(٤٥) الماضي، **تاريخ الأردن**، ص٤٥.

(٤٦) هو ميرزا باشا وصفي، هاجر من بلاد القفقاس للدولة العثمانية عام ١٨٦٤م والتحق بالخدمة العسكرية عام ١٨٧٦م، وفي عام ١٩١٣م عين قائدًا عامًا لقوة الفرسان المتطوعين في الأردن لحفظ النظام، ثم مع قيام الحرب العالمية الثانية عين قائدًا للمتطوعين الشراكسة في الأردن للقتال إلى جانب القوات العثمانية. انظر: مغندوقة، محمد خير: **ميرزا باشا وصفي (كتاب وثائقي)**، الجمعية العلمية الملكية، عمان ١٩٨٦م، ص١٥-١٦، ٣١-٣٤، ٩٤. سيشار إليه لاحقًا: مغندوقة، ميرزا باشا.

(٤٧) الزبيدي، **مولود مخلص باشا**، ص٩٢.

(٤٨) تقع بلدة الطيبة إلى الجنوب من وادي موسى على بعد ١٠ كلم، وتقطنها عشيرة الشرور أحد فروع عشيرة اللياثنة، أما الراجف فتقع إلى الجنوب من بلدة الطيبة على بعد حوالي ٨ كلم، وتقطنها عشيرة الرواجفة.

(٤٩) الدنجتون، **لورانس في البلاد العربية**، ص٢٠٣.

(٥٠) المجالي، **المسارات العسكرية**، ص١٤٩؛ أبو ديه، سعد: معان "**دراسة في الموقع**"، ط١، ١٩٨١م، ص١٤٨. سيشار إليه لاحقًا: أبو ديه، معان.

(٥١) أبو داهود، يوسف جميل: **الثورة والنفي (قراءة في فكر الشريف حسين بن علي)**، ط١، وزارة الثقافة، عمان ١٩٩٢م، ص١٤٨. سيشار إليه لاحقًا: أبو داهود، الثورة والنفي؛ طلاس، **الثورة العربية الكبرى**، ص٣٨٣؛ الموسى، لورنس والعرب، ص١٨٤.

(٥٢) التكريتي، **مولود مخلص**، ص٣١؛ الدنجتون، **لورانس في البلاد العربية**، ص٢٠٣.

(٥٣) الماضي، **تاريخ الأردن**، ص٤٥.

(٥٤) الزبيدي، **مولود مخلص باشا**، ص٩٣.

(٥٥) السعيد، نوري: **مذكرات نوري السعيد عن الحركات العسكرية للجيش العربي في الحجاز وسوريا ١٩١٦-١٩١٨م**، ط٢، الدار العربية للموسوعات، بيروت ١٩٨٧م، ص٦٣. سيشار إليه لاحقًا: السعيد، **مذكرات نوري السعيد**.

(٥٦) العجلوني، محمد علي، **ذكرياتي عن الثورة العربية الكبرى**، منشورات مكتبة الحرية، عمان ١٩٥٦م، ص٣٤-٣٥. سيشار إليه لاحقًا: العجلوني، ذكرياتي عن الثورة.

(٥٧) الموسى، **الحركة العربية**، ص٣٠٥-٣٠٦؛ الزبيدي، **مولود مخلص باشا**، ص٩٣؛ السعيد، **مذكرات نوري السعيد**، ص٦٣.

(٥٨) عليمات، محمد عليان، **مسائل في الثورة العربية الكبرى**، المطابع العسكرية، عمان ١٩٩٦م، ص٧٨-٧٩. سيشار إليه لاحقًا: عليمات، مسائل في الثورة.

(٥٩) الموسى، **لورنس والعرب**، ص١٨٤.

(٦٠) السعيد، **مذكرات نوري السعيد**، ص٦٣؛ عليمات، **مسائل في الثورة**، ص٧٩.

(٦١) التكريتي، **مولود مخلص**، ص٣٠.

(٦٢) الموسى، **صور من البطولة**، ص١٣٤؛ التكريتي، **مولود مخلص**، ص٣١؛ الروسان، **مسيرة الثورة العربية**، ص١٥-١٦.

(٦٣) السعيد، **مذكرات نوري السعيد**، ص٦٣.

(٦٤) الدنجتون، **لورانس في البلاد العربية**، ص٢٠٣.

(٦٥) العسكري، جعفر بن آية الله: **مذكرات جعفر العسكري**، تحقيق وتقديم: نجدة فتحي صفوة، دار اللام للنشر، لندن ١٩٨٨م، ص١٢٠-١٢١. سيشار إليه لاحقًا: العسكري، مذكرات.

(٦٦) التكريتي، **مولود مخلص**، ص٣٣-٣٤.

(٦٧) الموسى، لورنس والعرب، ص١٨٥-١٨٦؛ الزبيدي، **مولود مخلص باشا**، ص٩٨-٩٩.

(٦٨) لورنس، **أعمدة الحكمة السبعة**، ص٣٠٩.

(٦٩) **مذكرات الأمير زيد**، ص١٩.

(٧٠) **المراسلات التاريخية ١٩١٤-١٩١٨م**، ص١٦٢.

(٧١) لورنس، **الثورة العربية**، ص135.

(٧٢) **قلعة الشوبك:** وهي قلعة حصينة تقع في مكان متوسط بين عمان والعقبة والبحر الأحمر، بناها الملك الصليبي بلدوين الأول عام ٥٠٩هـ/١١١٥م. انظر: ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله البغدادي (٦٢٦هـ/١٢٢٨م): **معجم البلدان**، ٥ أجزاء، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٧٩م، جـ٣، ص٣٧٠. سيشار إليه فيما بعد: ياقوت الحموي، معجم البلدان. وكان الأتراك قد أعادوا ترميمها واتخذوا منها حصنًا وسجنًا ومركزًا لحاميتهم في الشوبك.

(٧٣) العمري، المعارك الأولى، ص١٥٦؛ الروسان، **مسيرة الثورة العربية**، ص١٨.

(٧٤) **مذكرات الأمير زيد**، ص٥٥.

(٧٥) انظر: الخريطة الشكل رقم (١).

(٧٦) العمري، **المعارك الأولى**، ص١٨٣-١٨٥.

(٧٧) **المراسلات التاريخية ١٩١٤-١٩١٨م**، ص169-170.

(٧٨) **المراسلات التاريخية ١٩١٤-١٩١٨م**، ص170؛ الموسى، **لورنس والعرب**، ص٢٠٨.

(٧٩) الرشدان، وائل: **القلاع العثمانية في جنوب الأردن: دراسة معمارية وصفية**، مجلة أبحاث اليرموك "سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية"، العدد (١)، المجلد (٢٤)، السنة ٢٠٠٨م، ص١٤٨. سيشار إليه لاحقًا: الرشدان، القلاع العثمانية.

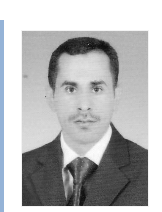
(٨٠) سعيد، أمين: **الثورة العربية الكبرى**، ٣ مجلدات، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٣٤م، مج١، ص٢٣٢. سيشار إليه لاحقًا: سعيد، الثورة العربية الكبرى.

(٨١) الزبيدي، **مولود مخلص باشا**، ص١١٣.
(٨٢) العمري، **المعارك الأولى**، ص205.
(٨٣) العجلوني، **ذكرياتي عن الثورة**، ص٥٧-٥٨.
(٨٤) انظر: الخريطة الشكل رقم (١).
(٨٥) الرشدان، **القلاع العثمانية**؛ ص١٣٩-١٤٠؛ الحصان، عبد القادر محمود: **القلاع والخانات التركية العثمانية على طريق الحاج الشامية في الديار الأردنية**، ط١، وزارة الثقافة، عمان ٢٠٠٦م، ص١٦١. سيشار إليه لاحقًا: الحصان، القلاع والخانات التركية.
(٨٦) العمري، **المعارك الأولى**، ص٢٠٠.
(٨٧) انظر تفاصيل هذه الحملة: العمري، **المعارك الأولى**، ص٢٠٠-٢٠٢؛ كركبرايد، اليك: النهضة العربية(١)، ترجمة سليمان الموسى، منشور ضمن كتاب الثورة العربية الكبرى – الحرب في الأردن ١٩١٧-١٩١٨م – **مذكرات الأمير زيد**، عمان ١٩٧٥م، ص١٤٤. سيشار إليه لاحقًا: كركبرايد، النهضة العربية.
(٨٨) العمري، **المعارك الأولى**، ص٢٠٨.
(٨٩) أبو داهود، **الثورة والنفي**، ص١٤٥؛ الماضي، **تاريخ الأردن**، ص٤٢.
(٩٠) العجلوني، **ذكرياتي عن الثورة**، ص٥٦-٥٧.
(٩١) السعيد، **مذكرات نوري السعيد**، ص٦٩.
(٩٢) **مذكرات الأمير زيد**، ص٨٨-٨٩.
(٩٣) لورنس، **أعمدة الحكمة السبعة**، ص٣١٦-٣٢١.
(٩٤) قباعة، رزق هارون: **معان المدينة والمحافظة ماضيها وحاضرها**، ط٢، ١٩٨٣م، ص٦٠. سيشار إليه لاحقًا: قباعة، معان؛ الماضي، **تاريخ الأردن**، ص٦١.
(٩٥) العمري، **المعارك الأولى**، ص٢٠٩-٢١٠؛ العجلوني، **ذكرياتي عن الثورة**، ص٥٩-٦٠؛ المجالي، **المسارات العسكرية**، ص١٩٨-١٩٩. ويروي أمين سعيد أن عدد القوات العشائرية كان يزيد على ٤٠٠٠ مقاتل. انظر: سعيد، **الثورة العربية الكبرى**، مج١، ص٢٢٦.
(٩٦) العمري، **المعارك الأولى**، ص٢١٠-٢١١؛ العجلوني، **ذكرياتي عن الثورة**، ص٥٩؛ السعيد، **مذكرات نوري السعيد**، ص٦٩.
(٩٧) العجلوني، **ذكرياتي عن الثورة**، ص٥٩؛ قباعة، معان، ص٦٠.
(٩٨) العمري، **المعارك الأولى**، ص٢١٢.
(٩٩) **المراسلات التاريخية ١٩١٤-١٩١٨م**، ص١٩٠.
(١٠٠) سعيد، **الثورة العربية الكبرى**، مج١، ص٢٢٥.
(١٠١) المجالي، **المسارات العسكرية**، ص٢٦٤.
(١٠٢) الزبيدي، **مولود مخلص باشا**، ص١١٦.
(١٠٣) العمري، **المعارك الأولى**، ص٢١٥؛ العجلوني، **ذكرياتي عن الثورة**، ص٦٠.
(١٠٤) لورنس، **أعمدة الحكمة السبعة**، ص٣٢٥؛ **المراسلات التاريخية ١٩١٤-١٩١٨م**، ص١٩٠.
(١٠٥) السعيد، **مذكرات نوري السعيد**، ص٦٩؛ الموسى، **صور من البطولة**، ص١٣٧.
(١٠٦) العسكري، مذكرات، ص١٣٠؛ السعيد، **مذكرات نوري السعيد**، ص٧٠-٧١؛ الزبيدي، **مولود مخلص باشا**، ص١١٩.
(١٠٧) **مذكرات الأمير زيد**، ص١٩٤.
(١٠٨) **مذكرات الأمير زيد**، ص١٩٤.
(١٠٩) **مذكرات الأمير زيد**، ص١٩٤.
(١١٠) العجلوني، **ذكرياتي عن الثورة**، ص٦١.
(١١١) لورنس، **أعمدة الحكمة السبعة**، ص٣٢٦؛ العمري، **المعارك الأولى**، ص٢٢٠-٢٢١.
(١١٢) السعيد، **مذكرات نوري السعيد**، ص٧٢.
(١١٣) العجلوني، **ذكرياتي عن الثورة**، ص٦٢.
(١١٤) **مذكرات الأمير زيد**، ص١٩٥.
(١١٥) **المراسلات التاريخية ١٩١٤-١٩١٨م**، ص٢٠٤.
(١١٦) العمري، **المعارك الأولى**، ص٢٢٩.
(١١٧) لورنس، **أعمدة الحكمة السبعة**، ص٣٢٧.
(١١٨) المجالي، **المسارات العسكرية**، ص٢٤٣.
(١١٩) لورنس، **أعمدة الحكمة السبعة**، ص٢٣٠؛ انطونيوس، يقظة العرب، ص٣٣٤؛ الموسى، **لورنس والعرب**، ص٢٣٣-٢٣٤.
(١٢٠) السعيد، **مذكرات نوري السعيد**، ص٧٤؛ العجلوني، ذكرياتي عن الثورة، ص٦٣؛ **مذكرات الأمير زيد**، ص٩٥.
(١٢١) السعيد، **مذكرات نوري السعيد**، ص٧٦.
(١٢٢) العمري، **المعارك الأولى**، ص٢٤١-٢٤٢.
(١٢٣) **مذكرات الأمير زيد**، ص٩٦-٩٧؛ **لورنس والعرب**، ص٢٤٠.
(١٢٤) السعيد، **مذكرات نوري السعيد**، ص٧٨.
(١٢٥) العمري، **المعارك الأولى**، ص٢٤٥.
(١٢٦) **مذكرات الأمير زيد**، ص١٢٠-١٢٢.
(١٢٧) سعيد، **الثورة العربية الكبرى**، ص٢٢٩؛ العمري، **المعارك الأولى**، ص٢٦٠.
(١٢٨) كركبرايد، **النهضة العربية**، ص١٥٣-١٥٤؛ يونغ، هيوبرت: **العربي المستقل**(١)، ترجمة: سليمان الموسى، منشور ضمن كتاب الثورة العربية الكبرى – الحرب في الأردن ١٩١٧-١٩١٨م – **مذكرات الأمير زيد**، عمان ١٩٧٥م، ص١٨٢-١٨٣. سيشار إليه لاحقًا: يونغ، **العربي المستقل**؛ جودت، **ذكريات**، ص٤٨-٤٩.
(١٢٩) سعيد، الثورة **العربية الكبرى**، مج١، ص٢٢٩.
(١٣٠) **أذرح**: تقع إلى الغرب من معان على بعد ٢٢ كلم، وإلى الجنوب الشرقي من الشوبك على بعد ٢٨ كلم، وبينها وبين الجرباء ميل واحد، وفيها جرت أحدث التحكيم بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان. أنظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، جـ١، ص١٢٩-١٣٠.
(١٣١) الشريف مستور والشريف علي بن عريد: من الأشراف الذين تحملوا مسؤوليات قيادة قوات المتطوعين في الجيش الشمالي، وكانوا يأتون بعد الأمير فيصل والأمير زيد في قيادة الحملات. انظر: **مذكرات الأمير زيد**، ص٢٠٧.
(١٣٢) **مذكرات الأمير زيد**، ص١٠٧، ١٢٨.
(١٣٣) **مذكرات الأمير زيد**، ص١٢٨.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

دراسات

# الأوضاع السياسية في مدينة سوق الشيوخ
# كما وصفها الرحالة والمسؤولين الأجانب ١٧٦١ – ١٩٢٠م



**أ. د. عماد جاسم حسن الموسوي**
رئيس قسم التاريخ
كلية التربية للعلوم الإنسانية
جامعة ذي قار – جمهورية العراق

## مُلَخّصْ

*مما لاشك فيه أن مصادر كتابة التاريخ لم تعتمد نوعًا واحدًا أو مظهرًا معينًا وإنما امتازت تلك المصادر بتعددها وتنوعها من أجل الوصول إلى الحقائق التاريخية، وبذلك فإن كتب الرحلات ومذكرات المسؤولين الأجانب تُعَدّ مصدرًا مهمًا لكتابة تاريخ المدن والبلدان في وقت ازدهرت فيه حركة التنقل والترحال والتي وصلت منها الكثير إلى مناطقنا العربية والتي تدفعها أسباب متعددة لسنا بصددها، ونتيجة لذلك حاول بحثنا تقصي ومتابعة كتابات أولئك الرحالة والمسؤولين الأجانب الذين زاروا مدينة سوق الشيوخ التي تُعَدّ من أقدم الحواضر العراقية في جنوب البلاد، إذ ركز البحث على الأوضاع السياسية في تلك المدينة منذ نشأتها في عام ١٧٦١ وما دار فيها من أحداث وتطورات ومشاركتها الفاعلة في أحداث العراق بصفة عامة، كما تابع البحث كتابات أولئك الرحالة وأيضًا المسؤولين الأجانب الذين كانت لديهم تقارير عن ما يحصل في تلك المدينة من تطورات سياسية، ولأهمية موقع تلك المدينة لم يغفل الرحالة في الكتابة عن موقعها المهم الذي تم إيضاحه في بداية البحث، كذلك تطرقنا إلى الصراعات الداخلية التي كانت تحصل في تلك المدينة من أجل النفوذ والسيطرة على إمارة المنتفك باعتبار أن مدينة سوق الشيوخ كانت مركزًا لتلك الإمارة، فضلاً عن ذلك فقد تناول البحث مساهمة تلك المدينة في الإخطار الخارجية التي كانت تهدد العراق ومساهمتها في التصدي للغزوات التي كانت تحصل. أما بالنسبة إلى المنهج الذي تم اعتماده في كتابة البحث فهو المنهج الوصفي والتحليلي مع الالتزام بالتسلسل التاريخي للأحداث. وكان من أبرز النتائج التي خلص إليها الباحث هي أن كتابات الرحالة والمسؤولين الأجانب كانت ذات فائدة كبيرة في تدوين تاريخ تلك المدينة، وعلى الرغم من ذلك لكن هذا لا يعني وجود أخطاء وهفوات وقع فيها أولئك الرحالة بحكم عدم معرفتهم بالمنطقة جيدًا أو لمرورهم السريع، ومن ثَمَّ فإن كتاباتهم ربما يشوبها بعض الشك، ولكن الباحث استطاع التغلب على ذلك من خلال تصحيح الأخطاء التي وردت في تلك الكتابات.*

**بيانات الدراسة:**
تاريخ استلام البحث: ٣١ يوليو ٢٠١٧
تاريخ قبـول النشـر: ٠٩ ديسمبر ٢٠١٧

**كلمات مفتاحية:**
تاريخ العراق الحديث، كتابات الرحالة، سوق الشيوخ، السيطرة العثمانية، الاحتلال البريطاني

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0054802

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**
عماد جاسم حسن الموسوي. "الأوضاع السياسية في مدينة سوق الشيوخ كما وصفها الرحالة والمسؤولين الأجانب ١٧٦١ – ١٩٢٠".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الثاني والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٨. ص ١٠٦ – ١١٧.

## مُقَدِّمَةُ

يُعَدّ أدب الأسفار والرحلات من أمتع فصول الأدب وأكثر مؤلفاته رواجًا وأحسنها قبولاً لدى القراء لما لها من أثر في نفس القارئ تجعله يتصور أنه يعيش تلك الحياة ويستمتع كثيرًا بقراءتها. وعلى الرغم من اهمية هذا النوع من الكتابة، إلا أن هناك غايات وأغراض كان السياح والرحالة يبتغونها في رحلاتهم للبلاد التي يقصدونها فهي إما للتبشير أو للتنقيبات الأثرية أو للسياحة والمغامرة وحب الاستطلاع، أو للأغراض التجارية والتمثيل الدبلوماسي أو لأغراض فنية أو عسكرية أو طبية أو علمية، ولذا فإن لونكرك ذكر أنه ما بين المدة (١٥٥٣ – ١٩١٤) مر بالعراق ما يقارب ثمانية وتسعين رحالة نتج عنها تقارير ومقالات مفصلة ومسهبة كلها تصف العراق وأوجه الحياة فيه بطريقة أو بأخرى ويتعدد أصول

وأجناس أولئك الرحالة فمنهم البرتغالي والألماني والفرنسي والإيطالي والهندي وغيرهم.

وبما أن العراق له حضارة عريقة يمتد عمرها إلى آلاف السنين فإن العديد من مدنه لها امتداد تاريخي، وبذلك فإن أغلب المدن العراقية قد زارها الرحالة والمسؤولين الأجانب وإن الكثير من تلك المدن قد ظهرت عنها دراسات متخصصة تتحدث عن أوصاف وكتابات الرحالة الذين زاروا تلك المدن لا سيما بغداد والبصرة والموصل والحلة، إلا أن مدينة سوق الشيوخ التي تُعَدّ من أقدم وأعرق المدن في جنوب العراق لم تحظ بدراسة متخصصة في مثل هذا المجال على الرغم من الكتابات العديدة التي تناولت تاريخ مدينة سوق الشيوخ، لذا فإن هدف الدراسة هو بيان المعلومات التاريخية التي كتبها الرحالة والمسؤولين الأجانب عن هذه المدينة منذ تأسيسها وحتى عام ١٩٢٠ الذي يتوقف عنده البحث وأحداث ثورة العشرين التي شاركت فيها هذه المدينة.

يلقي البحث الضوء على تصورات وكتابات الرحالة والمسؤولين الأجانب الذي زاروا مدينة سوق الشيوخ في مراحل تاريخية مختلفة ولأسباب ودوافع مختلفة أيضًا بعظهم مر بها كطريق يصل من خلاله إلى المكان الذي يقصده وذلك لأنها تتميز بموقع استراتيجي وجغرافي مهم يمر من خلاله الطريق النهري وحتى الطريق البري مما يسمح للقوافل التجارية والمسافرين في التوقف عنده للتزود بالماء والطعام وكذلك للاستراحة فيه ثم يكمل مشوار سفره إلى حيث يقصد، إذ هي محطة استراحة وفي أحيان أخرى يأتي أولئك الرحالة وهم يهدفون إلى جمع المعلومات الدقيقة والتفصيلية عن أحوال تلك المدينة وتدوين ما يرونه ويشاهدونه، إذ يجمعون معلومات عن المناطق الشرقية التي كان الأوربيون يطمحون للوصول إليها والسيطرة عليها طمعا في ثرواتها، ولذا فإن هذا النشاط قد ازداد في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر والبعض الأخر يأتي بمهمة حكومية لتنفيذ مخططات تخدم مصالح تلك الدول.

يتضمن البحث عدة محاور يأتي في مقدمتها موقع المدينة الجغرافي وأهميتها والعوامل التي ساهمت في جعلها مركزًا لإمارة المنتفك ومن ثَمَّ محطة للقوافل التجارية ثم يتطرق البحث إلى الأوضاع السياسية التي دونها وذكرها الرحالة والمسؤولين الأجانب عند زيارتهم لسوق الشيوخ، فضلاً عن بيان المعارك التي حصلت أو خاضها أبناء هذه المدينة عند مواجهتهم للأخطار الخارجية، وكذلك دور هذه المدينة في الأحداث التاريخية التي مر بها العراق خلال السيطرة العثمانية أو الاحتلال البريطاني وصولاً إلى ثورة العشرين.

## أولاً: موقع سوق الشيوخ الجغرافي وأهميتها في كتابات الرحالة الأجانب

تقع مدينة سوق الشيوخ على جانبي نهر الفرات تحت المدينة تقريبًا التي أخذ اسمه منها، ويحده من الشمال شطرة العمارة والقرنة من الشرق ومن الجنوب صحراء الشامية والناصرية[١] من الغرب وهي أحد أقسام سنجق المنتفك التابع لولاية البصرة من العراق التركي[٢] وذكر اداموف[٣] عن موقع المدينة وامتدادها بالقول (أنها تقع على الضفة اليمنى، أي الغربية من نهر الفرات في منتصف الطريق تقريبًا بين القرنة ومصب شط الحي في الفرات على بعد ٤٠ كم[٤] إلى اسفل الناصرية بناها أحد شيوخ المنتفك[٥] قبل مائتي سنة، ثم أخذت المدينة بالنمو بسرعة فامتدت وأصبح محيطها خمسة أميال وعدد سكانها يزيد على عشرة آلاف نسمة).[٦]

وقد أشار الرحالة جيمس فريزر[٧] إلى ذلك الامتداد والسعة الكبيرة التي صارت عليها مدينة سوق الشيوخ وأصبحت معها مركزًا لعشائر المنتفك، إذ يقول (من السماوة إلى البحر – يقصد بذلك الخليج العربي – تعود البلاد كلها من دون منازع إلى عشيرة المنتفك العظيمة)[٨] وأؤكد نيبور[٩] ما ذكره فريزر بخصوص اتساع وامتداد مدينة سوق الشيوخ إذ يقول (تعود إلى قبيلة المنتفك تقريبًا كافة القرى والمدن الصغيرة الواقعة على الساحل الغربي للفرات وشط العرب من البصرة إلى العرجة،[١٠] ولها مثل هذه الممتلكات في القسم الكائن على الساحل الشرقي للنهر والممتد من القرنة إلى نفس المسافة باتجاه الشمال)[١١] ويقصد بذلك مدينة سوق الشيوخ لأنها تقع شمال القرنة. وفي السياق ذاته، فإن المس بيل[١٢] جاءت بنفس الأوصاف السابقة القاضية بسيطرة قبائل المنتفك على مناطق واسعة ضوعها لسيطرتها، حيث تذكر (يشمل الاتحاد العشائري المسمى المنتفك الأراضي الواقعة على نهر الفرات والممتدة من الجزائر التي كانت تدعى سابقًا الجبايش إلى الدراجي ومن شط العرب الغراف حتى كوت الحي شمالاً)[١٣]. ويبدو أن مدينة سوق الشيوخ كانت في تطور مستمر بعد تأسيسها[١٤] ويدل على ذلك ما ذكره الرحالة الإنكليزي جاكسون[١٥] الذي زارها عام ١٧٩٧ أثناء رحلته من بغداد إلى البصرة فقد وصفها بالمدينة الكبيرة وذلك بالقول (وعند حلول مساء يوم الأربعاء ٢٨ حزيران

١٧٩٧ بلغنا مدينة كبيرة جدًا على الضفة اليمنى من نهر الفرات تدعى سوق الشيوخ).[١٦]

أما عن المسافة بينها وبين بغداد، فإن أبي طالب خان الذي زار العراق عام ١٧٩٩ يعطي وصفًا تقريبيًا لتلك المسافة بالقول (بعد أن غادرنا بغداد بالمساء أخذ الملاحون يجذفون ليل نهار فبلغنا سوق الشيوخ وهي على مسافة مائة وخمسين ميلاً بالتقريب وهي في منتصف الطريق إلى البصرة، وهذه المدينة هي المقام الدائم لقبيلة المنتفك التي تسكن الصحراء بين مدينتي سوق الشيوخ والبصرة).[١٧] أما عن طبيعة المناخ في مدينة سوق الشيوخ فيكفي أن يلخصه الحاكم البريطاني فيها برترام توماس[١٨] (Bertram.s. Thomas ) في وصفه للمناخ بكونه قد عاش في المدينة لمدة عام وبالتالي فإن انطباعاته عن المناخ تكاد تكون صائبة فيذكر (أنها منطقة غرينية سهلية ذات شمس محرقة، لقد كانت الطبيعة في واحدة من أكثر أمزجتها صرامة وتجهما، والسهول هذه هي هضبة الرافدين، الأشهر الخمسة من مايو (أيار) إلى أيلول درجة حرارة الظل قلما تتحسن أو تصبح أقل من ١١٥ درجة فهرنهايت، أما في الليل فتكون درجات الحرارة ٣٠ – ٤٠ ° وهي درجات حرارة تُعَدّ أقل حرارة أو تشعر الإنسان ببعض الانتعاش).[١٩] ويبدو أن برترام توماس قد وصف مناخها في فصل الصيف، لكن تايلر[٢٠] وصف مناخها في فصل الشتاء بالقول (عندما كنا نسير كان الجو باردًا جدًا وعند الصباح رأينا آثار الانجماد على الأديم - الأرض)[٢١] ويتضح من ذلك أن الطقس في سوق الشيوخ كان باردًا في الشتاء.

ومما لا شك فيه أن موقع مدينة سوق الشيوخ كان مميزًا مما جعلها منطقة مهمة دفعت القبائل إلى الاستقرار فيها والمتاجرة معها، وبالنظر لتلك الميزة التي انفردت بها سوق الشيوخ عن غيرها من المناطق والمدن القريبة منها، يلاحظ أن الكثير من الرحالة والمسؤولين الأجانب قد تحدثوا عن تلك الأهمية، ويتحدث عنها الكسندر اداموف بالقول (كانت سوق الشيوخ مدينة مهمة وركز للقبائل للتزود بما تحتاجه، إذ كان البدوي يستطيع أن يجد فيها كل ما هو ضروري ابتداءً من السلاح الأبيض والأسلحة النارية والبارود والسروج وانتهاءً بالأرز والشعير والدخن والمصنوعات الأوربية والبن ومختلف الأواني البسيطة وما شابه ذلك من البضائع)[٢٢] ويبدو من ذلك أن مدينة سوق الشيوخ كانت مدينة عامرة بمختلف السلع والبضائع التي يحتاج الناس اليها وأنها منطقة مهمة للمتاجرة والتبضع ويؤكد تايلر تلك الأهمية بالقول (أن سوق الشيوخ احدى المحطات التي تتوقف عندها القوافل التجارية للاستراحة والمبيت وشراء الطعام وخزن بضاعتهم وتبديل ابلهم المريضة وشراء علف لحيواناتهم).[٢٣]

الواقع أن مركز المدينة المهم، دفع أغلب السفن المارة بنهر الفرات والتي لا تعمل بالتجارة فقط بل التي تحمل الأشخاص ولمختلف الأغراض إلى التوقف في سوق الشيوخ وهذا ما يشير اليهم برترام توماس في مذكراته وعندما كان فيها ويقف على ضفة نهر الفرات ويلاحظ السفن المارة بالنهر (هناك المهيلة وهي مركب نهري ضخم تنزلق تحت شراع واحد من الجنفاص وراية الشيعة الخضراء ترفرف على ساريتها وشحنتها المختلفة من العرب والفرس والزوار يتجهون شمالاً إلى الأماكن المقدسة في كربلاء والنجف ويتجمعون على ظهرها، فضلاً عن صناديقها المحملة بالجثث (التوابيت) في طريقها إلى الجنة).[٢٤] ومما تجدر الإشارة إليه أن توماس يخطأ هنا إذ أن الموتى يتم نقلهم ليس إلى الجنة وإنما إلى مدينة النجف ليتم دفنهم هناك قريبًا من مرقد الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام).

وفي السياق ذاته، يلاحظ أن بعض السفن التي تحمل السواح والبضائع تتوقف في سوق الشيوخ وتتجمع ومن ثم تبدء رحلتها منه مجتمعة إلى المناطق التي تقصدها، وهذا ما نقله جاكسون بالقول (لقد اِنهمك دليلنا الأن في اصطحاب زورق أخر معه إلى بغداد ويضم هذا الزورق عدد من بالات الأقمشة المستوردة من البنغال كما يضم امرأة أمريكية ومعها ولدها البالغ من العمر ستة عشر عامًا وابنتاها أحداهما في الرابعة عشر والثانية في الثانية عشر من العمر).[٢٥] بالإضافة إلى ذلك، فإن تلك الأهمية البالغة لمدينة سوق الشيوخ يؤكدها لوريمر[٢٦] في بداية القرن العشرين عندما يقول (إن مدينة سوق الشيوخ مدينة وبلدية هامة في العراق التركي، ويقع أغلبها على الضفة اليمنى لنهر الفرات).[٢٧] ويتضح مما سبق أن الظروف الطبيعية والجغرافية التي تميزت بها مدينة سوق الشيوخ من انبساط تربتها ووقوعها على نهر الفرات وقربها من البادية جعلها من المدن المهمة في ذلك الوقت الأمر الذي ساهم في أن تكون مركز استقطاب القبائل والعشائر لغرض الاستقرار فيها.

## ثانيًا: الأوضاع السياسية كما وصفها الرحالة والمسؤولين الأجانب

مما لا شك فيه أن كتابات الرحالة والمسؤولين الأجانب عن مدينة سوق الشيوخ لم تسجل جميع الحقائق والوقائع

والأحداث ولا سيما في الجانب السياسي وبالتالي فإنها لم تكن متكاملة، ولذا فإن الحديث هنا سيقتصر على ما ذكره الرحالة والمسؤولين فقط دون الإشارة إلى الأحداث التاريخية التي ذكرتها مؤلفات الباحثين الذين تحدثوا عن تاريخ المنطقة أو مدينة سوق الشيوخ تحديدًا، انسجامًا مع سياق البحث وتطابق موضوعه الذي يهدف إلى كشف كتابات الرحالة والمسؤولين الأجانب فحسب.

الواقع أن اغلب المؤرخين والباحثين يؤكدون أن تأسيس مدينة سوق الشيوخ يعود إلى عام ١٧٦١ والذي لم يتطرق إليه الرحالة الذين زاروا المنطقة إلا أن نيبور الذي بدأ رحلته من البصرة عام ١٧٦٥ ومر بمدية سوق الشيوخ قد أعطى وصفًا ربما يكون دليلاً على الوضع السياسي السائد في تلك المدينة آنذاك والتي كانت تشكل ثقلاً كبيرًا في المنطقة لكونها مقرًا ومركزًا لأمراء المنتفك الذين حكموا تلك المناطق لمدة طويلة، وأن قوة إمارة المنتفك في سوق الشيوخ دفعت السلطة العثمانية إلى أن تطلب المساعدة منها في مواجهة التحديات الخارجية عليها وفي ذلك ذكر نيبور (عندما عجزت حكومة بغداد عن مواجهة التحديات التي أخذت تشنها إمارة بني كعب على البصرة، أرسل والي بغداد عمر باشا إلى سوق الشيوخ طالبًا المساعدة منهم لأهل البصرة في صد هجمات بني كعب، فوافق الأمير عبد الله المانع على مساعدتهم وأرسل إليهم حملة عسكرية في عام ١٧٦٥ وتمكن من إنزال هزيمة في قوات بني كعب وقطع رؤوس قادتهم التي أخذت سوق الشيوخ تطوف برؤوسهم في مدينة البصرة وبعد أن زال خطر إمارة بني كعب من البصرة رجعت الحملة العسكرية إلى مقرها في سوق الشيوخ)[٢٨] إلا أن ذلك لم يمنع السلطات العثمانية من أن تعاقب إمارة المنتفك وتستخدم معها الشدة والقسوة ويتحدث نيبور أيضًا عن ذلك القمع بالقول (ولا يذكر أن قمعت هذه القبيلة في أي وقت من الأوقات كما قمعت في عهد سليمان كهيا[٢٩] الذي أصبح بعدئذ باشا لبغداد، وقد أسر أحمد باشا ذات مرة شيخ سعدون وهو أحد إخوان الشيخ عبد الله الذي يحكم الأن – أي عام ١٧٦٥ – لكنه أعاده ثانية مظهر كرم نفسه، بعد أن نبهه بوجوب حفظ نظام القبيلة في المستقبل على شكل أفضل وعلى أن يؤدي الرسوم بصورة منتظمة، ولكن بعد مدة ثار الشيخ من جديد، فأرسل أحمد باشا على أثر ذلك صهره سليمان كهيا (أبو ليلة) لمقابلته وقد توفق إلى إخضاعه في مدة قصيرة بعدد قليل من الجند فاسر الشيخ مرة أخرى).[٣٠]

وفي السياق ذاته، يضيف نيبور عن تلك الأحداث (إن سليمان كهيا تلقى أمرًا بإعادة سعدون أسيرًا إلى بغداد وكان الغالب يريد من المغلوب إبداء بعض الاحترامات، لكن الذي وُلِدَ حرًا لم يشأ أن يتفهم هذا الأمر، فبعد أن عدَدَ أسماء كثيرة من أجداده سأل سعدون الكهيا الذي يجهل حتى والده – كان الكهيا كرجيا بالأصل، بيع أسيرًا في شبابه – كيف يسوغ له طلب مثل هذا الذل من عربي أصيل وقد اغضب هذا الأمر سليمان إلى حد جعله يأمر بقطع رأسه على الفور حيث أرسله إلى الباشا إشارة لانتصاره).[٣١] ويتبين من ذلك مدى الإصرار والعزيمة التي تمسك بها الشيخ سعدون وعدم خضوعه وإذلاله لأوامر سليمان الكهيا الذي عده بأنه لا أصل له ما أدى أن يدفع بحياته بسبب ذلك الموقف كذلك يتضح مدى قسوة وبطش الولاة العثمانيين لأبناء العشائر الذي يقفون بوجه السلطة ولا ينفذون أوامرها، الأمر الذي تميزت به مدينة سوق الشيوخ خلال تلك المرحلة التاريخية.

وتابع نيبور تلك الأحداث فيقول (بعد تلك الحادثة رأى بقية الشيوخ أن من الأرجح الآن الانقياد له، وقد جاءت إليه في يوم واحد فقط بين خمسة عشر وثمانية عشر شخصًا من أشراف هذه القبيلة وأبدوا رغبتهم في التفاهم مع الباشا، إلا أن سليمان عاد ففكر أنه ليس في استطاعة أن يجمع بسهولة مثل هذا العدد من الشيوخ معًا تارة أخرى، فأمر بقطع رؤوس هؤلاء عن أخرهم وبذلك ضعفت عشيرة المنتفك، بحيث إنها لم يتجرأ حتى الآن على الثورة).[٣٢] يبدو أن وصف الرحالة نيبور لم يكن دقيقًا، وإلا كيف يقوم مجموعة من الشيوخ بالذهاب للتفاوض مع شخص عدو لهم بل إنه اقدم على قتل زعيمهم، ألا أن المرجح عكس ما ذهب إليه نيبور في أنهم يريدون الانقياد له بل يمكن أنهم قد وقفوا موقفًا حازمًا ورافضًا لسياسته وتصرفاته وقتله لزعيمهم وإلا كيف تفسر ما يقوله نيبور أنهم أرادوا الانقياد له، وهنا إن صدق نيبور في هذا الرأي فكيف يقدم على إعدام هؤلاء الشيوخ، إذا هنالك ارتباكًا واضحًا في رأي نيبور ولذا نستطيع القول أن أهداف السلطة كانت أضعاف إمارة المنتفك التي كانت في بداية نشأتها بعد أن جعلت من سوق الشيوخ مركزًا لها، فأخذت السلطة العثمانية تتخوف من تلك الإمارة وأخذت تخطط لإجهاضها وإضعافها، الأمر الذي يؤكده الرحالة في نهاية حديثه الذي يستدل منه أيضًا أنها كانت رافضة للحكم العثماني وتتحين الفرصة للثورة عليه.

الواقع أن تلك الأحداث التي تعرضت لها إمارة المنتفك لم تثنها عن مواجهة الأخطار الخارجية التي تعرض لها العراق، وبعد أن دخلت القوات الفارسية البصرة عام ١٧٧٧ خططت لمهاجمة سوق الشيوخ، إذ ارسل صادق خان وفدًا إلى الأمير ثامر السعدون وطلب منه أن ينزل إلى طاعته ويذعن للأوامر ويلبي طلباته لكن الأخير رفض ذلك وامتنع عن الخضوع للحكم الفارسي، الأمر الذي دفع صادق خان إلى تجهيز حملة عسكرية بقيادة محمد علي خان أحد قادة الحملة الفارسية على البصرة وإرساله إلى سوق الشيوخ [٣٣] وفي ذلك يقول الرحالة أبي طالب خان (إزاء هذه الأخطار قرر الأمير ثامر السعدون التصدي لهذه القوات الغازية بكل ما لديه من قوة، واستحسن منطقة الفضلية[٣٤] غرب نهر الفرات ساحة لميدان المعركة واتخذ خطة تعتمد على إغراق مساحات واسعة من اليابسة بالماء ومن ثَمَّ بزلها وتحويلها إلى أراضي طينية.[٣٥] وقد نجحت تلك الخطة في تحقيق انتصار على القوات الفارسية التي لم يرضها ذلك الأمر لذا قرر محمد علي خان الهجوم على سوق الشيوخ مرة أخرى وكان ذلك عام ١٧٨٨ ألا أن قواته انكسرت وأبيدت وحسب ما ذكره أبي طالب خان لم ينجو من الجيش الفارسي سوى ثلاثة أنفار فروا راجعين إلى البصرة نقلوا خبر اندحار القوات الفارسية في المعركة، وقتل في هذه المعركة أيضًا قائدهم محمد علي خان وأخوه مهدي علي خان).[٣٦]

ولذلك فان إمارة المنتفك قد عانت من أمرين أولهما القمع والقسوة التي استخدمها العثمانيين معهم والثانية هي الأخطار والتحديات الخارجية، وبالتالي فإن الوضع السياسي لتلك الإمارة كان مرتبكًا ليس بسبب تلك الأحداث بل للأوضاع السياسية التي كانت تعيشها إمارة المنتفك ولا سيما النزاعات والصراعات مع القبائل الأخرى، وفي ذلك يذكر بيكنغهام (كان عرب المنتفك في حالة نزاع مع قبيلة الخزاعل، وأرسل والي بغداد عام ١٧٨٣ إلى أسفل دجلة بعض السفن ضد الشيخ شعب ونتيجة لذلك حدث تصادم دام ثلاث ساعات) ويضيف أيضًا (أرسل شيخ عرب المنتفك خبرًا إلى شيخ الخزاعل في الحلة وجوب مرور السفن التجارية في الفرات بحرية كاملة لتصل إلى بغداد ولكن عندما رفض هذا الطلب، اتجهت خيالة المنتفك المؤلفة من ثلاثين ألف فارس إلى الحلة، ولكن الشيخ لقى حتفه في هذه السفرة).[٣٧] ومما تجدر الإشارة إليه أن بيكنغهام قد أخطأ في ذكر اسم شيخ المنتفك واسماه بالشيخ شعب والأصح أن هذه المدة التاريخية كانت المنتفك تحت زعامة الشيخ ثويني بن عبد الله بن محمد بن شبيب بن مانع الشبيب الذي حكم للمدة (١٧٦٠ – ١٧٨٥).[٣٨]

## ثالثًا: سوق الشيوخ وأحداث العراق في كتابات الرحالة والمسؤولين الأجانب

مما لا شك فيه أن إمارة بحجم إمارة المنتفك التي امتلكت من القوة والسلطة والنفوذ وامتداد على أراضي واسعة لا يمكن لها أن تغيب عن الأحداث السياسية التي مرت بها البلاد وألقت بظلالها على جميع المدن العراقية ومنها سوق الشيوخ وفي ضوء ذلك يذكر لونكريك أنه عندما حكم سليمان باشا ولاية بغداد كانت البلاد تعج بالحروب الأهلية، فضلاً عن الطاعون الذي أصابها، وفي عام ١٧٨٥ كان لدى سليمان باشا اثنين من مقربيه، فعين أحدهما وهو أحمد أغا (خادم سليمان الخاص) بوظيفة المهردار (حامل الأختام) وهو مملوكي فأصبح الشخصية الثانية بعد الباشا، ثم عينه برتبة ميرمران (أقل من درجة وزير) فأخذ أحمد أغا يحبك الدسائس ضد سليمان الشاوي (رفيق سليمان باشا الثاني) والذي أصدر سليمان باشا أوامره بمصادرة أملاكه وطرده خارج بغداد ففر إلى قبيلة التي أعلنت الثورة في الحال وظل الشاوي يعيش ما بين الخابور وضواحي بغداد فسادا، فأرسل الباشا قوة للقضاء على خصمه، غير أنه باء بالفشل، وإن حملة قوية ضد الشاوي أدت إلى تفريق أتباعه ومن ثَمَّ فر هاربًا إلى الشيخ ثويني في سوق الشيوخ) حتى أن لونكريك يصف الشيخ ثويني (كان شيخ المنتفك العظيم هذا قد تمكن من إبقاء عشيرته موالية هادئة مدة أعوام ستة كما أنه ساعد متسلم البصرة مساعدة جمة في الحركات التي دبرتها الحكومة على بني كعب عام ١٧٨٤).[٣٩]

ويفهم من ذلك، أن مدينة سوق الشيوخ لم تكن بعيدة أو منعزلة عن أحداث العراق، بل أنها كانت مركزًا مهمًا لاستقطاب العديد من الشخصيات والعناصر غير الموالية للسلطة العثمانية والغاضبة عليها، وبذلك يمكن وصفها بأنها مركزًا للتخطيط للثورة ضد سلطة المماليك الذين تسلطوا على حكم العراق في ذلك الوقت. فضلاً عن ذلك فإن سوق الشيوخ لم تكن مركز استقطاب المعارضين للسلطة العثمانية بل أنها كانت مركزًا للاجئين من خارج العراق ولا سيما المناطق المجاورة على أثر الخلافات التي تحصل في ديارهم ومنها ما ذكره الرحالة فريزر (قيام دويحس بن عريعر وعبد المحسن بن سرداح، عندما أعلنوا عصيانهم على زعيم إمارة بني خالد سعدون بن عريعر، أرسلا إلى سوق الشيوخ

طالبين العون من الأمير ثويني العبد الله والذي وافق على طلبهما وسار بحملة عسكرية تبلغ حمولتها من الذخائر ٧٠٠ جمل في تشرين الأول ١٧٨٦، تمكنت تلك الحملة من تحقيق العديد من الانتصارات ضد الوهابيين[٤٠] وبوصوله إلى بريدة (من قرى نجد) عاد إلى مركزه في سوق الشيوخ مكتفيًا بما حققه من انتصار على الوهابيين.[٤١] وبذلك فقد دخلت سوق الشيوخ في صراع جديد تمثل بالحركة الوهابية التي أشغلت إمارة المنتفك وقتًا كبيرًا في الصراع معها من خلال الإغارة على حدودها وحصول بعض المعارك بين الطرفين التي يتم الإشارة إليها لاحقًا.

وبسبب الأحداث التي مر بها العراق واستفحال امر المماليك وسيطرتهم على السلطة وكره العراقيين لهم، الأمر الذي أدى إلى حصول حركات معارضة ضد حكمهم وكان لمدينة سوق الشيوخ أن تأخذ على عاتقها في عام ١٧٨٧ للقيام بذلك الدور عندما اتفق الزعماء الثلاثة الأمير ثويني العبد الله (أمير المنتفك) وسليمان بك الشاوي (مستشار الوالي سليمان باشا الكبير) وأحد أمراء عشيرة العبيد الذي كان يسكن بغداد والشيخ حمد آل حمود (أمير الخزاعل) على الثورة التي تعود أسبابها إلى فداحة الضرائب الثقيلة التي تفرضها الحكومة على العشائر العراقية من جهة، وبسبب تعسف وغطرسة الموظفين الأتراك واستئثارهم بالسلطة دون أبناء البلاد من جهة أخرى.[٤٢]

فضلاً عن ذلك، فإن الزعماء الثلاثة اتفقوا بعد نجاح الثورة تأسيس حكومة عربية في العراق كله تتبع السلطان العثماني، ولأجل إضفاء صفة شرعية على الحكومة العربية فقد جمعوا وجوه البصرة وأشرافها ورؤساء القبائل ونظموا مذكرة طالبوا فيها تعيين الأمير ثويني العبد الله واليًا على العراق،[٤٣] إلا أن السلطان العثماني رفض بشدة ما حوته تلك المذكرة، بل أنه طلب من الوالي سليمان باشا الكبير أن يرسل إليه رأس ثويني العبد الله، وبعد تقدم جيش الوالي حدثت معركة عنيفة أدت إلى هزيمة الأمير ثويني العبد الله وانسحابه إلى الجهراء شمالي الكويت عام ١٧٨٧، وعلى أثر ذلك قام الوالي بتعيين حمود بن ثامر (١٧٨٧ – ١٧٨٨) أميرًا على إمارة المنتفك الذي أبقى سوق الشيوخ مركزًا لها[٤٤] لكن حكم حمود لم يستمر طويلاً، إذ سرعان ما عاد الأمير ثويني إلى إمارة المنتفك الأمر الذي دفع سليمان باشا أن يتوجه في عام ١٧٨٨ بحملة كبيرة نحو البصرة، وعندما وصل إلى سوق الشيوخ اصطدمت قواته بقوات الأمير ثويني الذي لم يستطع الصمود أمام قوات سليمان باشا وفر إلى البادية إلى منطقة الصمان الواقعة على الحدود العراقية السعودية وبذلك تم تعيين حمود بن ثامر مجددًا أميرًا على المنتفك واستمر حتى عام ١٧٩٦.[٤٥]

الواقع أن الأحداث التي شهدها العراق وتأثرت بها إمارة المنتفك قد تزامنت مع اتساع نفوذ الحركة الوهابية وامتدادها وسعي أمراءها لنشر نفوذهم خارج الجزيرة العربية وبذلك أخذ الوهابيون يخططون للقضاء على إمارة المنتفك لا سيما بعد الانتصارات التي حققها المنتفكيون على الوهابيون عام ١٧٨٦ وأصبحت سوق الشيوخ في عداء مع الحركة الوهابية، ولذا أدرك الأمير عبد العزيز بن محمد ضرورة القيام بعمل جاد ضد مدينة سوق الشيوخ وتوجيه عمليات تهديدية ضدها وإتباع أسلوب الهجوم المستمر عليها وتحطيم قوتها وإشعال نار الرعب في قلوب أهلها فجهز حملة عسكرية بقيادة ابنه سعود بن عبد العزيز عام ١٧٩٤ ضد عشائرها التي كانت تبحث عن الكلأ والعشب في جنوب العراق وواصلت الحملة هجومها حتى وصلت ضواحي سوق الشيوخ.[٤٦] ونتيجة لتلك المخاطر التي أصبحت تهدد ليس مدينة سوق الشيوخ لوحدها أو الأجزاء الجنوبية من العراق فحسب بل إنها تهدد الوجود العثماني في العراق ولذلك يذكر جاكسون بان السلطات العثمانية اضطرت إلى اطلاق سراح الأمير ثويني بعد مطالبات ومناشدات من قبل العديد من الأطراف ويضيف جاكسون بالقول (بعد أن اطلق سراح ثويني العبد الله عام ١٧٩٦ وعودته إلى سوق الشيوخ ليكون أميرًا على المنتفك، فانه اخذ زمام المبادرة لمواجهة الوهابيين لذا فإنه توجه إلى الجهراء، حيث انضمت إليه بعض من قبائل الظفير وأهل الزبير وقدرت قواته بثلاثين ألف مقاتل.[٤٧]

وتابع فيلبي تلك الأحداث بالقول (بعد وصول تلك الأخبار إلى الأمير عبد العزيز بن محمد جهز حملة عسكرية من أهالي الخرج والفدع والافلاج والوشم والسدير والقصيم وأنيطت قيادتها إلى محمد بن معيقل أحد قيادات الوهابية)،[٤٨] وفي تلك الأثناء قتل الأمير ثويني وفشلت حملته.[٤٩] إن مقتل الأمير ثويني وفشل حملته على الوهابيين حسب ما يقول فليبي، أعطت للأخرين دفعًا معنويًا كبيرًا، فجهز الأمير عبد العزيز بن محمد حملة عسكرية على سوق الشيوخ في تشرين الثاني ١٧٩٧، أسندت قيادتها إلى ابنه سعود الذي هاجم قرية أم العباس وقتل الكثير من أهلها ونهب أموالهم وأحرق ديارهم وقد أحدثت هذه الواقعة صدمة قوية على أهالي سوق الشيوخ لا سيما أميرهم حمود بن ثامر الذي تولى زعامة المنتفك (١٧٩٧- ١٨٢٦)،[٥٠] الذي تحدث عنه أبي

طالب خان بالقول (ورئيس المنتفك يسمى الشيخ حمود بن ثامر وهو عظيم السلطة يستطيع أن يجمع جيشًا عدته بين ٥٠ الف و٤٠ الف، وقد أزعج الحكومة بالبصرة مدة طويلة ولكنه بعد اليوم أصبح المدافع عنها)،[٥١] ويفهم من ذلك أنه لم يكن يدافع عن مدينة سوق الشيوخ فحسب بل عن الأجزاء الجنوبية من العراق والوقوف بوجه التهديدات الوهابية. ولذا فإنه عمل على تأمين مدينة سوق الشيوخ إذ يذكر أبي طالب خان حول ذلك (سوق الشيوخ أدير حوله سور من الرهط (أي الجند)[٥٢] ونتيجة لتلك الاستعدادات التي قام بها أمير المنتفك استطاع التصدي للقوات الوهابية التي جاءت بحملة كبيرة عام ١٨٠١ ومهاجمة سوق الشيوخ إلا أن أهالي سوق الشيوخ تمكنوا من تحقيق الانتصار وإرغام القوات الغازية على الرجوع إلى الدرعية.[٥٣] ويتضح مما سبق، أن مدينة سوق الشيوخ وعشائرها كان لها دورًا كبيرًا في التصدي للهجمات الوهابية التي أحدثت المذابح المروعة وقيامها بأعمال السلب والنهب، ليست مع مدينة سوق الشيوخ فحسب بل مع أغلب المدن العراقية الأمر الذي يدل على قوة العداء والحقد الذي تكنه تلك الحركة لأبناء هذه المناطق.

ومن الأحداث الأخرى التي مرت بها مدينة سوق الشيوخ وذكرها الرحالة والمسؤولين الأجانب منها في أيام السلطان محمود الذي كان غير راض عن تصرفات والي بغداد سليمان باشا الصغير، لذا طلب من مندوبه حالت محمد سعيد أن يستعين بالجليلين والبابانين وبعض المماليك المغضوب عليهم في زمن سليمان باشا الصغير ليعملوا على خلع الوالي، وفعلاً تقدمت تلك القوات ودخلت بغداد وخلعته فاضطر إلى الهرب عابرًا نهر ديالى وهناك قتلته قبائل شمر، وكان السلطان محمود قد زود مندوبه حالت محمد سعيد بفرمان خاليًا من الاسم وخوله تسمية من يشاء للولاية فعين المدعو (عبد الله اغا التوتونجي) واليًا للولايات الثلاث بغداد والموصل والبصرة، وعبد الله هذا أحد مماليك سليمان باشا الكبير، أما سعيد بن سليمان باشا الصغير (الوالي السابق) الذي كان له أنصار يؤيدونه ضد عبد الله أغا التوتونجي في جنوب العراق فقد وصل إلى المنتفك فاستقبله رئيسهم الشيخ حمود الثامر استقبالاً حقًا وعندما علم بذلك الوالي عبد الله أغا قام بمحاولة فاشلة لعزل الشيخ حمود الثامر، ولما لم ينجح بمحاولته فقد عمد إلى الدبلوماسية، فأرسل عددًا من الدبلوماسيين إلى سوق الشيوخ للتفاوض مع الشيخ حمود الثامر وإغرائه بالتخلي عن إسناد سعيد باشا لكن شيخهم أفهم المفاوضين (بأنه لا يقصد أي سوء وليس له غايات شخصية والذي يريده هو إيواء ابن افندينا القديم، سعيد باشا بن سليمان باشا الصغير) ورجع الدبلوماسيين إلى بغداد دون نتيجة.[٥٤]

وفي كانون الثاني ١٨١٣ تقدمت قوات والي بغداد إلى بلاد المنتفك لإخضاعها لكن الشيخ حمود الثامر استعد لملاقاتها بجيش عظيم من قبائل المنتفك ومن اتباع سعيد باشا ومعهم جمهرة من المتمردين على الدولة في الأهوار. وحشد هذا الجيش على بعد عدة أميال من البصرة وهناك انظم إليهم عددًا أخر من جنود السلطة فتوسعت قوة المنتفكين واصطدمت هذه القوة بقوات والي بغداد وجرت معارك ضارية على مشارف البصرة وكان يقود القوات المنتفكية الشيخ حمود وابنه برغش الذي جرح في المعركة جرحًا بليغًا وكانت نتيجة المعركة انتصار قوات المنتفك وتمزيق قوات بغداد واستسلام الباقي منها ومن ضمنهم عبد الله اغا التوتونجي الذي سلم نفسه واتباعه إلى الشيخ حمود وقد اخذوا أسرى إلى مركز إمارة المنتفك مدينة سوق الشيوخ مكتوفين وأعلن الشيخ أن حياة الأسرى معلقة بحياة ابنه الجريح برغش ولما مات الأخير نفذ الشيخ وعده وأعدم عبد الله أغا وجماعته ودفنوا هناك وانتهى أمرهم. وعندما وصل الخبر إلى بغداد أعلن قاضيها تنصيب سعيد باشا لباشوية بغداد وطلب من إسطنبول المصادقة عليه وهكذا دخل سعيد باشا بغداد دخولاً رسميًا بصحبة صديقه أمير المنتفك الشيخ حمود الثامر يوم ١٦ أيار ١٨١٣.[٥٥] الواقع أن ذلك الانتصار الذي حققه منتفكيون يعبر عن تخطيطهم وحنكتهم العسكرية في مواجهة الدولة العثمانية وفي ذلك يقول الرحالة نيبور (لو أرسل باشا بغداد قوة للتصدي لهم فقد كانوا يعمدون إلى الانسحاب إلى اقصى أواسط البادية وحال بلوغهم الخبر، حيث لا يستطيع الأتراك اقتفائهم).[٥٦]

ويتضح مما سبق أن سوق الشيوخ كان لها دورًا كبيرًا في تلك الأحداث التي مر بها العراق وأن دورها المؤثر لم يقتصر على المنطقة الجنوبية بل على مستوى البلاد والتنسيق مع بقية الأطراف المعارضة للظلم والاضطهاد والتعسف الذي استخدمه الولاة المماليك تجاه العشائر العراقية، كذلك استطاعت سوق الشيوخ أن تجبر السلطة العثمانية بتعيين وال لبغداد حسب رغبتها وهذا ما يدل على أن سوق الشيوخ كانت من القوة التي جعلتها تتصرف بهذا الشكل وامتلاكها لقوات كبيرة وتماسك عشائرها مع زعيمهم حمود الثامر.

ويبدو أن الحس الوطني والشعور بمسؤولية الحفاظ والدفاع عن ثروات البلاد كان حاضرًا في تفكير أبناء المنتفك ولذا نلاحظ مقاومتهم للمشاريع البريطانية الرامية إلى الاستئثار بخيرات البلاد ومن الأحداث المهمة التي ذكرها الرحالة الأجانب عن سوق الشيوخ حادثة بعثة جيسني البريطانية الاستكشافية التي كانت تهدف إلى التعرف على أيهما أنسب وأفضل للملاحة دجلة أم الفرات، ويذكر لونكريك عن تلك الحادثة (في عام ١٨٢٩ وبعد وصول الباخرة فرات إلى مدينة سوق الشيوخ، تم مهاجمتها من قبل أهالي سوق الشيوخ وتعرضت السفينة إلى إصابات عندما وضع الأهالي الحواجز المتخذة من جذوع النخيل في نهر الفرات).[٥٧] وعلى أثر تلك الحادثة تأزمت العلاقة بين إمارة المنتفك ووالي بغداد وهذا ما أشار إليه لونكريك أيضًا بالقول (أدت مهاجمة سوق الشيوخ إلى بعثة جسني إلى تأزم العلاقة بينها وبين والي بغداد علي رضا باشا الذي لجأ إلى الطريقة التي اتبعها المماليك في سياستها مع العشائر العراقية وهي سياسة فرق تسد).[٥٨]

ويفهم من ذلك أن أهالي سوق الشيوخ كانوا متفهمين وعلى يقظة لما يجري حولهم من نوايا استعمارية تخطط وتهدف إلى استخدام الموارد العراقية في خدمة المصالح الأجنبية ولا سيما البريطانية الأمر الذي دفعهم إلى اعتراض تلك المخططات ومحاولتهم أفشال تلك المشروعات، فضلاً عن ذلك رفضهم للسياسة الوالي المملوكي. علاوة على ذلك، فإن سوق الشيوخ لم تعاني من تسلط الحكام المماليك وسياستهم التعسفية إزاءها، بل إن العثمانيين بعد عودتهم للسلطة ثانية استخدموا السياسة ذاتها وهذا ما أشار إليه البريطاني ديكسون[٥٩] عندما يقول (حافظ اتحاد المنتفك على استقلاله من الأتراك حتى عام ١٨٦٣ عندما حاول والي بغداد أن يحطم قوة القبائل بأن اقتطع أراضي معينة من إمارة المنتفك وعين كبير آل سعدون قائمقام ذا صلاحيات محدودة لم تتعد سوق الشيوخ).[٦٠] وأضاف ديكسون قائلاً (بسبب ذلك ثار الشيخ الأعلى في ذلك الوقت وهو منصور بك السعدون ضد هذه الإجراءات وحاول أن يثير انتفاضة عربية عامة ضد الأتراك مما اضطر بالوالي العثماني أن يتخلى عن سياسته الجديدة).[٦١] وهنا يلاحظ أيضًا مدى قدرة سوق الشيوخ في الوقوف بوجه تلك السياسة والضغط على الإدارة العثمانية وتثنيها في التفرد باتخاذ قرارات لا تأتي بفائدة ولا تخدم أبناء المنطقة.

الواقع أنه بعد عام ١٨٦٩، أصبحت مدينة الناصرية مركزًا لإمارة المنتفك وهذا ما أدى إلى قلة الكتابات التاريخية عن مدينة سوق الشيوخ، إذ أصبحت كتابات الرحالة والمسؤولين الأجانب تركز على الناصرية بعد أن كانت تتحدث عن مدينة سوق الشيوخ، ولذا فإن الأحداث السياسية التي مرت بها المدينة أواخر العهد العثماني وإلى ما قبل الاحتلال البريطاني لم تطالها أقلام الرحالة والمسؤولين الأجانب. وخلال الاحتلال البريطاني للعراق خضعت مدينة سوق الشيوخ بالكامل لتلك السيطرة وقبل ذلك يتحدث ديكسون (أن الأمور كانت صعبة في سوق الشيوخ بسبب عدم وجود شبانه (أي شرطة) ولا سواري (أي شرطة خيالة) ولا جنود بريطانيون أو جنود هنود).[٦٢] ولمعالجة ذلك الأمر أراد ديكسون إنشاء قوة عسكرية من أبناء المدينة لحمايتها وتنظيم أمورها إذ يقول (أردت أن أقوم بإنشاء قوة شرطة برية ونهرية وإيجاد شرطة للمدينة وإقامة إدارة مما يعني أولاً وقبل كل شيء جباية بعض الضرائب من القبائل التي لم تدفع فلسًا واحدًا للأتراك طوال السنوات العشرين التي سبقت قدومي).[٦٣] وبعد أن استتب الأمر للإدارة البريطانية فإنها عملت على إحكام قبضتها في السيطرة على مدينة سوق الشيوخ من خلال السياسة التي اتبعتها والتي أعلنت عنها المس بيل بالقول (عملت الإدارة البريطانية على تعزيز سلطة المشيخة وإغراء الشيوخ بالتعيين لإدارة مقاطعاتهم حتى تأمن حياتهم).[٦٤]

ووفقًا لتلك السياسة تذكر المس بيل (جرى تعيين كل من فرهود آل مغشغش مديرًا لناحية الحمار والعكيكة والشيخ حمود آل بشارة مديرًا لناحية آل حسن وسيد يوسف البعاج مديرًا لبني سعيد والشيخ حمد آل خميس مديرًا لناحية الخميسية والشيخ سليمان النصر الله مديرًا لناحية البو صالح).[٦٥] فضلاً عن ذلك، فقد اهتمت الإدارة البريطانية بتنظيم المدينة ولا سيما في الجانب الأمني، إذ يذكر ديكسون (عندما سيطرت على المدينة وظبطتها اتجهت نحو القبائل المحيطة بها، فبدأت بإنشاء قوة شبانه قوامها ٢٠٠ رجل نصفهم من بني خيقان والنصف الأخر من المجرة وأعطيت هؤلاء الشرطة بنادق تركية وألبستهم زيًا واحدًا أنيقًا وأسست لهم مركزًا يبعد الواحد عن الأخر ثمانية أميال على طول النهر إلى بحيرة الحمار شرقًا وغربًا إلى مضيف الشيخ جويد).[٦٦] ومن الأمور الأخرى التي اهتم بها البريطانيون جباية الضرائب من أجل توفير موارد مالية لخدمة مجهودهم الحربي، ولذا يذكر ديكسون عن ذلك بالقول (بعد أن عَينت مديرين على كرمة بني سعيد والخميسية وعكيكة

وشمال بحيرة الحمار وأصبحت إدارتي جاهزة لجباية الضرائب، فبدأت بفرض ضريبة على أشجار النخيل "روبية على كل شجرة").[٦٧]

ومن الأحداث السياسية الأخرى التي تحدث عنها المسؤولين الأجانب ثورة العشرين إذ ينقل برترام توماس عن تلك الثورة ومشاركة أهالي سوق الشيوخ فيها فيقول (كانت سوق الشيوخ تتحفز للثورة منذ زمن غير قصير، فقد وصل إليها عبد الكريم السبتي وهو من وجهاء الناصرية المشتغلين في القضية الوطنية، فاتصل بالحاج علي الدبوس الذي كان من رؤساء السوق المتنفذين واخذ يحثه على المساهمة في الثورة، ثم وصل إلى السوق بعدئذ عالم الناصرية الشيخ عبد الحسين مطر وهو يحمل رسالة شيخ الشريعة الموجهة إلى رؤساء العشائر يحثهم فيها على الجهاد فنزل في ضيافة الشيخ محمد حسن حيدر وصار الرجلان يتعاونان في حث الناس على إعلان الثورة وفي ٢٧ آب ١٩٢٠ زار سوق الشيوخ حاكم الناصرية السياسي الميجر ديتجرن وكانت له معرفة سابقة رؤسائها محاولاً إقناعهم بعدم انضمامهم إلى الثورة وعندما عاد إلى الناصرية كتب إلى ويلسون في بغداد مذكرة بشان الوضع في السوق بوجه خاص وفي منطقة المنتفك بوجه عام، إذ يقول (بناءً على طلب صلح من معاون الحاكم السياسي في سوق الشيوخ قمت بزارة البلدة بالأمس، وعقدت مجلسًا حضره كل الشيوخ الكبار وظهر لي أن كل واحد منهم مواليًا لنا في نياته ومقاصده، ولكن هناك عشائر قليلة تضم عناصر معادية للقانون وطموحها الوحيد أن تعود إلى الفوضى فتعزل شيوخها وتتحكم هي بقانونها الخاص، إن الموقف ليس خطرًا وهو ليس سوى نتيجة للاضطرابات القائمة في المناطق الأخرى).[٦٨]

ويبدو أن توماس لم يكن ملتفت جيدًا إلى حركة الجهاد وأن العشائر لا تلتزم بأوامر شيوخها فيما اذا وجدت أنها غير مساندة ومؤيدة لمراجعهم الدينيين وهذا ما حصل بالفعل وبعد أن اعتقد توماس أن رياح الثورة لا يمكن أن تصل إلى مدينة سوق الشيوخ فإن تصوره كان خاطئًا، الأمر الذي فرض واقع الثورة وهو ما سجله في مذكراته بالقول (إن الوضع في السوق أخذ يسوء تدريجيًا، وانتشرت فيه حركة الجهاد وبدأت العشائر تفكر بأن تضع يد الله ضد البريطانيين وصار أفراد شرطة يفرون ففي أيلول لم يبقى منهم سوى رجل واحد هو الذي يحرس السجناء) فضلاً عن ذلك فإن حركة الثورة التي اجتاحت مدينة سوق الشيوخ كانت من القوة واضطرت البريطانين إلى مغادرة المدينة وهذا ما أكده توماس أيضًا بالقول (أدرك معاون الحاكم السياسي الكابتن بلاتس أن محاولة السيطرة على الوضع أصبحت مستحيلة وفي ظهر ذلك اليوم في الوقت الذي يتناول فيه العرب عداءهم ركب بلاتس ومن معه من البريطانيين باخرة حربية كانت راسية هناك منذ أيام قليلة عندما ظهرت بوادر الاضطراب[٦٩] وسارت الباخرة بهم نحو الناصرية فوصلوها بسلام).[٧٠]

وينقل عبد الجليل الطاهر عن تقرير لمساعد الحاكم السياسي في الناصرية كنك حول ثورة العشرين بالقول (بعد وصول الفتوى بالجهاد إلى الغراف تحركت سوق الشيوخ واضطر معاون الحاكم السياسي إلى إخلاء مواقعهم ولكن لم يتعرض أي موظف بريطاني أو هندي أو محلي إلى أذى.[٧١] الواقع أن وصول ثورة العشرين إلى مدينة سوق الشيوخ لم يكن اضطرابًا أو قلاقلاً كما وصفها المسؤولين البريطانيين بل إنها كانت استكمالاً للثورة التي انطلقت من الرميثة واتجهت إلى أغلب المدن العراقية، فضلاً عن ذلك التنظيم الذي حظيت به تلك الثورة وما يدل على ذلك ما قاله توماس (لم يحصل في سوق الشيوخ ما حصل من غيرها من نهب دور الحكومة أو تخريبها فقد تمكن الشيخ محمد حسن حيدر من المحافظة على أموال الحكومة وسجلاتها).[٧٢] وفي الشأن ذاته يذكر معاون الحاكم السياسي في الناصرية في أحد تقاريره (لقد حافظ سكان مدينة سوق الشيوخ على دائرة البرق والبريد والمدرسة والأسواق والمخازن من هجوم العشائر عليها وكانت البواخر المسلحة في وقت أخلاء دائرة معاون الحاكم السياسي في سوق الشيوخ راسية بالقرب من المزلق).[٧٣] وبذلك يتبين أن ما حصل في سوق الشيوخ لم يكن حركة فوضوية هدفها التخريب والسلب والنهب، بل إنها ثورة منظمة ومرتبطة ببقية المدن والمناطق العراقية تهدف إلى طرد الإنكليز عن أراضيها.

## خَاتِمَةٌ

اتضح من خلال الدراسة أن اغلب الرحالة الذين زاروا العراق وعلى الأقل الذين وصلوا إلى البصرة خلال مدة البحث فإنهم توقفوا عند مدينة سوق السيوخ وتجولوا فيها واستقروا بها لبعض الوقت مما يدل على أنها كانت أحد المحطات الرئيسة للتوقف أثناء السفر بين المناطق التي كانت تقع عليها سوق الشيوخ سواء الرحلات التي تمر عن طريق نهر الفرات أو الرحلات البرية التي مرت بالخميسية ومنطقة البادية فإنها جميعًا تمر بمدينة سوق الشيوخ للتزود بما تحتاج إليه

لقد حملت المعلومات التي كتبها الرحالة والمسؤولين الأجانب الذين زاروا أو عملوا فيها على معلومات تفصيلية بمختلف الجوانب والمجالات السياسية والاقتصادية والجغرافية والاجتماعية وفي الجانب السياسي يلاحظ الدور الذي لعبته مدينة سوق الشيوخ على مستوى البلاد، إذ أن لها دورًا مؤثرًا وفعالاً في تلك الأحداث، ولأهمية مركزها فإنها دخلت في عداء كبير مع جهات خارجية اضطرت على أثرها إلى تجهيز أكثر من حملة عسكرية للوقوف بوجه أعداءها. ومن ناحية أخرى، مثَّلت تلك المعلومات مصدرًا مهما لدراسة تاريخ المدن العراقية في وقت غاب فيه التدوين التاريخي من قبل سكان المنطقة، ولذا فإن تلك الكتابات على الرغم من بعض الأخطاء التي وردت فيها، إلا أنها يمكن عدها مصدرًا مهمًا لمعرفة تاريخ مدينة سوق الشيوخ خلال تلك المرحلة

## الهَوامِشُ

(١) **الناصرية**: وهي المدينة التي بناها الشيخ ناصر باشا السعدون عام ١٨٦٩ بأمر من الوالي مدحت باشا وسميت بالناصرية نسبة إلى الشيخ ناصر: علي الوردي، **لمحات اجتماعية من تاريخ العراق**، ج٢، بغداد، ١٩٧١، ص٢٥١ – ٢٥٢.

(٢) ج. ج. لوريمر، **دليل الخليج**، القسم الجغرافي، ج٣، ترجمة مكتب أمير دولة قطر، ص٣٠٤٨

(٣) **الكسندر اداموف**: هو أحد دبلوماسي روسيا القيصرية، عمل في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين قنصلاً لبلاده في البصرة، أَلَفَ كتابًا بعنوان (ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها) الذي صدر في سانت بطرسبورغ عام ١٩١٢، ولكتابه أهمية خاصة نتيجة لملاحظاته المباشرة ومعايشته للأحداث التي جرت في ولاية البصرة بشكل خاص والعراق بشكل عام والدولة العثمانية بشكل أعم وكذلك الاطلاع المؤلف على عدد واسع من المصادر والمراجع الروسية والفرنسية والألمانية القيمة التي تتعلق بالمواضيع المختلفة التي يعالجها هذا الكتاب ومما يزيد من أهمية الكتاب أن مؤلفه رغم تركيزه على ولاية البصرة لكنه كثيرًا ما يتحدث عن القسم الجنوبي من العراق، فضلاً عن ذلك فإن الكتاب لم يتحدث عن ناحية واحدة أو مجال واحد بل تحدث عن النواحي الجغرافية والإدارية والاقتصادية والسكانية والتاريخية والسياسية وغير ذلك من الموضوعات ولهذا فهو أشبه بالموسوعة. الكسندر اداموف، **ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها**، ترجمة هاشم صالح التكريتي، دار الوراق للنشر، بيروت ٢٠٠٩، ص١٥.

(٤) أخطأ الكاتب في تقدير المسافة بين الناصرية وسوق الشيوخ، إذ أنها ٣٠ كيلو متر وليس ٤٠ كيلو متر، الباحث

(٥) **المنتفك أو المنتفق**، وقد اختلفت الآراء في تسميتها فذكر بعضهم إلى أنها سميت بذلك نسبة إلى جدهم المنتفق بن عامر بن صعصة وكانت تتجول في جنوب العراق منذ أيام الفتح الإسلامي، ويرى البعض الأخر أنها جاءت من الاتفاق بين القبائل الأجود وبني مالك وبني سعيد، حرفت بمرور الزمن إلى منتفق للتفاصيل أكثر يُنظر: عباس العزاوي، **عشائر العراق**، ج٤، بغداد، ١٩٥٦، ص١٦، كذلك يُنظر سليمان الدخيل، **المنتفق**، مجلة لغة العرب ج٢، سنة ١٩١١، ص٤١.

(٦) ألكسندر اداموف، المصدر السابق، ص٥٥.

(٧) **جيمس بيلي فريزر**: هو أحد الرحالة الإنكليز والمولود في إسكتلندا عام ١٧٨٣ ومهمته الكتابة، وعرف عنه أنه كان سائحًا ومؤلفًا وقد ذهب إلى الهند في أول حياته، وفي عام ١٨١٥، ارتاد جبال الهملايا ثم سافر عام ١٨٣٤ إلى إسطنبول وإيران بمهمة دبلوماسية، وقطع المسافة على ظهور الخيل والجمال ثم تجول فيها حتى وصل إلى تبريز وبعدها جاء إلى العراق، وكانت كتاباته بعنوان (رحلات بين النهرين وكردستان) الذي طبع في لندن عام ١٨٤٠ وجاء الكتاب على شكل رسائل كان المؤلف يكتبها إلى زوجته ومنها ما تعلق بإيران والبعض الأخر عن العراق وتم إحصاء الرسائل التي كتبها عن العراق في كتاب بعنوان (رحلة فريزر إلى بغداد عام ١٨٣٤) وأهمية هذه الرحلة بالنسبة للبحث لأن فريزر قد زار سوق الشيوخ وكتب عنها: جيمس بيلي فريزر، **رحلة فريزر إلى بغداد ١٨٣٤**، ترجمة جعفر الطيار، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٤، ص٣.

(٨) المصدر نفسه، ص٢٠٣.

(٩) **كارستن نيبور**، وهو ألماني الأصل دنماركي المولد والنشأة وحينما قرر فريدرك الخامس ملك الدنمارك إيفاد بعثة فنية للبحوث العلمية في الشرق الأدنى وجنوبي جزيرة العرب بصفة خاصة، دخل نيبور في خدمة الملك والتحق بهيئة البعثة، وعندما وزعت أعمال البعثة القيت على عاتقه متابعة الأبحاث الجغرافية، وبعد أن تحركت البعثة مكونة من أربعة أشخاص من ضمنهم نيبور عام ١٧٦٣ من الإسكندرية، توفي رفاقه ولم يتبقى أحد سواه، فأكمل رحلته ووصل إلى البصرة عام ١٧٦٥ وفيها بدأ رحلته التي وصل فيها إلى بغداد ومر بأغلب المدن والمناطق الواقعة على نهري دجلة والفرات. كارستن نيبور، **مشاهدات نيبور في رحلته من البصرة إلى الحلة سنة ١٧٦٥**، ترجمة سعاد هادي العمري، مطبعة دار المعرفة، بغداد، ١٩٥٥، ص٥٤.

(١٠) تقع على الجانب الغربي من نهر الفرات وتبعد عن الناصرية باتجاه السماوة بنحو ٤ كم: يعقوب سركيس، **مباحث عراقية في الجغرافية والتاريخ والآثار وخطط بغداد**، القسم الثاني وتقديم رفائيل بطي ومير بصري، بغداد، ١٩٥٥، ص٣٧٤.

(١١) كارستن نيبور والمصدر السابق، ص٥٩.

(١٢) **المس بيل**: وهي غروترود لوثيان بيل المولودة عام ١٨٦٨ بإنكلترا وتنتمي إلى أسرة غنية ومثقفة، كانت لها العديد من الهوايات في بداية حياتها كالقراءة المستمرة وركوب الخيل وصيد الأسماك، وبعد دخولها الكلية أظهرت تفوقًا في دراستها لا سيما بمادة التاريخ فدخلت إلى جامعة أكسفورد عام ١٨٨٦ وبعد إنهاء دراستها الجامعية شرعت بالقيام برحلات في القارة الأوربية إلى ألمانيا ورومانيا وفرنسا وإيطاليا ثم زارت الجزائر

عام ١٨٩٣ وبعدها تركيا واليونان والصين واليابان وبلاد فارس وبلاد الشام وفي عام ١٩٠٩ زارت العراق وكتبت عن الكثير من المدن والمواقع الأثرية فيه فضلاً عن اهتمامها بالعشائر والحياة الاقتصادية ثم عادت مرة أخرى إلى العراق عام ١٩١١ وهذه المرة زارت النجف وبابل وبعد اندلاع الحرب العالمية الأولى أرسلت إلى البصرة للعمل بصفة ضابط ارتباط لإرسال تقارير إلى حكومة الهند وبيان ما يجري من أحداث في المشرق العربي، ومن البصرة انطلقت في رحلة إلى الناصرية وسوق الشيوخ للتعرف على معلومات عن عشائرها ومعرفة أوضاع الناس ومحاولة توطيد العلاقة مع أعيان المدن والشيوخ. وبعد احتلال البريطانيين بغداد وصلت بيل إليها وكانت تحمل لقب معاون حاكم سياسي، ثم أخذت تقوم بجولات إلى المدن العراقية المختلفة للتعرف على أحوالها وكتابة تقارير مفصلة عنها وأصبحت بعد ذلك السكرتيرة الشرقية للمندوب السامي البريطاني في العراق أولاً مع بيرسي كوكس ثم مع هنري دوبس، وبقيت في عملها حتى وفاتها في بغداد عام ١٩٢٦: محمد يوسف إبراهيم، **المس بيل وأثرها في السياسة العراقية**، مكتبة اليقظة العربية، بغداد، ٢٠٠٣، ص٧.

(١٣) نقلاً عن عبد الجليل الطاهر، **العشائر العراقية، عشائر الناصرية والعمارة والبصرة**، دار لبنان، بيروت، ١٩٧٢، ص٤٤-٤٥.

(١٤) تأسست مدينة سوق الشيوخ عام ١٧٦١ عندما قرر عبد الله المانع (١٧٥٧- ١٧٦٩) في تشييد مركز ثابت لإمارة المنتفق يجتمعون فيه لغرض التشاور ومناقشة أمورهم العشائرية ويكون مخزن لذخيرتهم ومؤنهم، وتم اختيار هذا المكان لأنه يشكل موقعًا مركزيًا في إقليم زراعي واسع إلى جانب موقعه التجاري على نهر الفرات: أحمد حاشوش، **سوق الشيوخ مركز إمارة المنتفق ١٧٦١ – ١٨٦٩ دراسة في أوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية**، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة ذي قار، ٢٠١٠، وهي غير منشورة، ص٢٧.

(١٥) **جاكسون:** أحد موظفي شركة الهند الشرقية الإنكليزية دون مشاهداته في رحلته وكان مصدرًا وصفيًا رائعًا أعطى فيه صورة واضحة عن أوضاع العراق في عهد سليمان باشا الكبير (١٧٨٠ – ١٨٠٢) ودور النشاط البريطاني فيه كما أنه ذكر ثورة الخزاعل وحملة الشيخ ثويني العبد الله (١٧٩٦-١٧٩٧) على الوهابيين وكانت رحلته التي ترجمت بعنوان (مشاهدات بريطاني في العراق عام١٧٩٧) مؤيد أحمد خلف الفهد، **السياسة العثمانية تجاه العشائر العراقية (١٧٥٠ – ١٨٦٩)** رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب جامعة البصرة، ٢٠٠٢، وهي غير منشورة، ص٧.

(١٦) جاكسون، **مشاهدات بريطاني في العراق سنة ١٧٩٧**، ترجمة خالد فاروق عمر، الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٠، ص٥٧.

(١٧) أبي طالب خان، **رحلة أبي طالب خان إلى العراق وأوربا سنة (١٢١٣هـ/ ١٧٩٩م)**، ترجمة مصطفى جواد، المجمع العلمي، بغداد، د. ت، ص٤٠٥.

(١٨) **برترام توماس:** أحد الضباط الإنكليز الشباب الذين عينتهم الإدارة البريطانية في العراق خلال الاحتلال البريطاني وشغل منصب مساعد الضابط السياسي البريطاني في سوق الشيوخ من ٦ أذار ١٩١٨ وبقي فيها لمدة عام، وقد كتب مذكراته بعنوان مخاطر ورحلات في الجزيرة العربية والتي هي مصدر مهم من مصادر تاريخ العراق الحديث إذ أنه سرد الحوادث والمواقف التي عاشها بنفسه ضمن منطقة وحسب منظوره الشخصي، وعلى الرغم من عدم الإنصاف في بعض المعلومات التي ذكرها إلا أن مؤلفاته أعطت معلومات قيمة مهمة عن أوضاع العراق ومدنه خلال تلك المدة التي ندرت فيها الكتابات المحلية عن تاريخ العراق: برترام توماس، **مذكرات برترام توماس الحاكم السياسي البريطاني في منطقة الناصرية – العراق ١٩١٨ – ١٩٢٠، حقائق ووثائق ومذكرات من تاريخ العراق السياسي لم تنشر من قبل**، ترجمة عبد الهادي فنجان، مؤسسة المعارف للمطبوعات، بيروت، ط٢، ٢٠٠٢، ص٦.

(١٩) المصدر نفسه، ٣٩

(٢٠) **تايلر (Taylor):** هو الوكيل السياسي البريطاني في بغداد تولى هذه المهمة عام ١٨٢٢ وتبدل لقبه إلى قنصل عام ١٨٤١ واستمر في عمله حتى عام ١٨٤٣ قام بزيارة العديد من المدن العراقية للتعرف على أحوالها، كما أنه مر بمدينة سوق الشيوخ وأعطى معلومات دقيقة عن أوضاعه وتطرق لقطعات الجيش فيه وأصنافهم وأسلحتهم وزيهم وتطرق أيضًا إلى عادات وتقاليد المجتمع في سوق الشيوخ إضافة إلى ثروتهم الحيوانية ومناخها وأهميتها التجارية: أحمد حاشوش، المصدر السابق. رنا عبد الجبار حسين الزهيري، **إيالة بغداد في عهد الوالي علي رضا اللاظ ١٨٣١ – ١٨٤٢** رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد ٢٠٠٥، ص١٠٠.

(٢١) تايلر، **رحلة تايلر إلى العراق**، بحث منشور في كتاب **رحالة أوربيون في العراق**، وتعريب بطرس حداد، بيروت ٢٠٠٧، ص٩٤.

(٢٢) الكسندر اداموف، المصدر السابق، ص٥٥.

(٢٣) تايلر، المصدر السابق، ص٩٤.

(٢٤) برترام توماس، المصدر السابق، ص٤١.

(٢٥) جاكسون، المصدر السابق وص٥٤ – ٥٥.

(٢٦) **لوريمر:** أحد موظفي حكومة الهند البريطانية، أرسلته الحكومة البريطانية عام ١٩٠٤ إلى منطقة الخليج العربي للتحري عن معلومات مفصلة عنها، فزار أغلب مدن المنطقة وكتب عنها، كما أنه كتب عن المدن العراقية وجاءت كتاباته بشكل مسهب في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وبذلك فإنه يُعَدّ أبرز مصدر وثائقي عن الخليج العربي اعتمد فيه كاتبه على سجلات حكومة الهند وعلى المعلومات السرية التي وضعتها بكاملها تحت تصرفه. وقد طبع قسم منه عام ١٩٠٨، أما القسم الأخر في عام ١٩١٥ وبقي وثيقة سرية لا يجوز الاطلاع عليها حتى عام ١٩٦٠ حيث وافقت الحكومة البريطانية بنشره، ويتكون من قسمين القسم التاريخي والقسم الجغرافي،

وعُرِبَ الكتاب إلى أربعة عشر جزءًا؛ سبعة منها للقسم التاريخي طُبعت في الدوحة عام ١٩٦٧ ومثلها للقسم الجغرافي طبعت في بيروت عام ١٩٧٠. أحمد حاشوش، المصدر، ص٩.

(٢٧) ج.ج لوريمر، **دليل الخليج**، القسم الجغرافي، ج٣، المصدر السابق، ص ٣٤١٠.

(٢٨) نيبور، المصدر السابق، ص٤٤.

(٢٩) **كهيا**: كلمة تركية تحريف لكلمة كتخدا الفارسية وتعني بوجه عام الأمين أو الموظف الكبير، ثم أصبحت تعني الوزير الأول في حكومة الولاية التي يحكم فيها باشا من الباشوات: ستيفن هيمسلي لونكريك، **أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث**، ترجمة جعفر الخياط، ط٤، المكتبة الحيدرية، قم، ٢٠٠٤.

(٣٠) نيبور، المصدر السابق، ص٦١.

(٣١) المصدر نفسه، ص٦١.

(٣٢) المصدر نفسه، ص٦٢.

(٣٣) طارق نافع الحمداني، **العدوان الفارسي على البصرة وصمودها في العصر الحديث**، بغداد، ١٩٨٩، ص ٦٠.

(٣٤) **الفضلية**: ناحية تقع في قضاء سوق الشيوخ وتبعد ما يقارب ١٨ كم. مؤيد أحمد خلف، المصدر السابق، ص٧٧.

(٣٥) أبي طالب خان، المصدر السابق، ص٤٠٥.

(٣٦) المصدر نفسه، ص٤٠٦.

(٣٧) نقلاً عن سعاد هادي العمري، **بغداد كما وصفها السواح الأجانب في القرون الخمسة الأخيرة**، مطبعة دار المعرفة، بغداد، ١٩٥٤، ص٣٠.

(٣٨) عبد الله الجوراني، **دراسة وثائقية في تاريخ المنتفك الوطني، أحواله الاقتصادية والاجتماعية والسياسية أواخر العهد العثماني ١٩٥٨**، بغداد، ٢٠٠٨، ص١٩.

(٣٩) ستيفن هيمسلي لونكريك، المصدر السابق، ص٢٤٤.

(٤٠) **الوهابية**: وهي الحركة التي ظهرت في نجد أواسط القرن الثامن عشر على يد محمد بن عبد الوهاب عام ١٧٤٥ واتخذت من الدرعية عاصمة لها، وكان مؤسس هذه الحركة شديد التعصب وكثير الاعتراض على العلماء وكان يجوز قتال من يخالفه بالراي، بل ويكفره ويسمي قتال المسلمين المخالفين له جهادًا في سبيل الله ويجعل أموالهم مثل غنائم الكفار ويمنع مَنْ يقصد زيارة النبي محمد (ﷺ) والاستغاثة والاستشفاء به وسائر الأنبياء والأولياء الصالحين.

Bombay government selection from the records of Bombay government, noxxiv: "historical sketch of the utto be of arab", Bahrain 1716 – 1823, Bombay, 1856, P.428- 460

كذلك يُنظر إبراهيم فصيح بن السيد صفة الله الحيدري البغدادي، **عنوان المجد في أحوال بغداد والبصرة ونجد**، دار الحكمة ١٩٩٨، ص٢٣٧.

(41) H.S.John philpy, Saudi Arabi, London, 1955, P.75.

(٤٢) محمد حسن علي، "**انتفاضة سنة ١٧٨٧ العربية الثلاثية ضد حكم المماليك الأتراك في العراق**"، مجلة أفاق عربية، العدد ١١ والسنة الرابعة ١٩٧٩، ص٩.

(43) Johan philby, op,cit, p.76.

(44) Ibid, P.78

(٤٥) اليسكندر اداموف، المصدر السابق، ص٣٢٧.

(46) John philpy op, cit. p.78.

(٤٧) جاكسون، المصدر السابق، ص٥٣.

(48) John philpy op, cit. P.78.

(٤٩) للتفصيل اكثر يُنظر: أحمد حاشوش، المصدر السابق، ص٦٢.

(50) John philpy op, cit. P.78.

(٥١) أبي طالب خان، المصدر السابق، ص٤٠٤.

(٥٢) المصدر نفسه، ص٤٠٥.

(٥٣) جون سنت فيلبي، **تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب**، تعريب عمر الديراوي، بيروت، د.ت، ص٩٩.

(٥٤) لونكريك، المصدر السابق، ص٢٤٤.

(٥٥) المصدر نفسه، ص٢٧٥.

(٥٦) نيبور، المصدر السابق، ص ٦٠.

(٥٧) ستيفين هيمسلي لونكريك، المصدر السابق، ص٣٥٢.

(٥٨) المصدر نفسه، ص٣٤٨.

(٥٩) **هارولد ديكسون** المولود في بيروت عام ١٨٨١، وكان والده قنصلاً لبريطانيا، وبعد أن أنهى ديكسون تعليمه الأولي سافر إلى أكسفورد ملتحقًا بالكلية العسكرية، وعند تخرجه منها التحق بالقوات العسكرية البريطانية التي كانت تسيطر على الهند واستقر هناك خمس سنوات ثم جاء إلى العراق بعد الاحتلال البريطاني وأصبح ضابط استخبارات في مدينة سوق الشيوخ عام ١٩١٥، ثم أصبح مساعد ضابط سياسي لإدارة سوق الشيوخ، ألف كتابًا مهمًا بعنوان الكويت وجاراتها تطرق فيه إلى أحوال مدينة سوق الشيوخ خلال الاحتلال البريطاني. هارولد ديكسون، **الكويت وجاراتها**، ج١، صحارى للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٩٠، ص٣.

(٦٠) المصدر نفسه، ص١٥٩.

(٦١) المصدر نفسه، ص١٦٧.

(٦٢) المصدر نفسه، ص١٥٩.

(٦٣) المصدر نفسه، ص١٦٥.

(٦٤) نقلاً عن: عبد الجليل الطاهر، المصدر السابق، ص٤٤.

(٦٥) ديكسون والمصدر السابق، ص٢٤٥.

(٦٦) المصدر نفسه، ص١٦٧.

(٦٧) المصدر نفسه، ص١٦٨.

(٦٨) برترام توماس، المصدر السابق، ص١٤.

(٦٩) من الجدير بالذكر أن ما حدث ليس اضطراب بل هي ثورة لكن البريطانيين يعدون الثورة ضدهم ولذا فإنهم عمدوا إلى القول بأنها قلاقل واضطرابات. (الباحث)

(٧٠) برترام توماس، المصدر السابق، ص١٥.

(٧١) نقلاً عن: عبد الجليل الطاهر، المصدر السابق، ص٢٤٦.

(٧٢) برترام توماس، المصدر السابق، ص١٥.

(٧٣) **المزلق**: هي قناة تمر بها السفن تقع بين كرمة بني سعيد والطار. عبد الجليل الطاهر، المصدر السابق، ص٢٤٧.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].



# المجازر الاستعمارية خلال فترة الثورة التحريرية
## منطقة جيجل أنموذجًا ١٩٥٦ – ١٩٦٢



**بورمضان عبد القادر**
أستاذ مساعد "أ" قسم العلوم الإنسانية
جامعة ٢٠ أوت ١٩٥٥
سكيكدة – الجمهورية الجزائرية

**مُلَخّص**

*تعرضت شعوب إفريقيا وأسيا لهجمة استعمارية غاشمة خلال القرن التاسع عشر الميلادي وقبله، وإذا كان الاستعمار هو عملة واحدة رغم تعدد أشكاله، فإن الاستعمار الفرنسي كان الأشد وطأة وقسوة وبطشًا بالنسبة للشعوب التي ابتليت به ومنها الشعب الجزائري. يتناول المقال ظاهرة المجازر الاستعمارية التي ارتكبتها فرنسا في الجزائر خلال فترة الثورة في منطقة جيجل شرق الجزائر وهذه المجازر كانت قد ارتكبت إما لإخفاء الهزائم العسكرية للجيش الفرنسي أمام جيش التحرير الوطني مثل مجزرة بني مسلم أواخر ١٩٥٦ أوفي إطار تطبيق سياسة المناطق المحرمة التي كانت منطقة جيجل معنية بها، ومع مجيئ شارل ديغول ١٩٥٨ ازدادت وتيرة المجازر خاصةً على أثر العمليات العسكرية الكبرى مثل عملية الضباب خريف ١٩٥٩، أو بسب الالتفاف الشعبي حول الثورة خاصةً خلال الفترة (١٩٦٠ – ١٩٦٢) حاولت فرنسا قمع المظاهرات الشعبية في منطقة جيجل التي دفعت قوافل من الشهداء وشهدت أعمال ترويع بشعة ارتكبها الجيش الفرنسي.*

**بيانات المقال:**

تاريخ استلام المقال: ٢٥ أغسطس ٢٠١٦
تاريخ قبـول النشـر: ١٨ يناير ٢٠١٧

**كلمات مفتاحية:**
تاريخ الجزائر الحديث، الثورة التحريرية، الاستعمار الفرنسي، الجيش الفرنسي، المجازر الاستعمارية، منطقة جيجل

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0054803

**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**
بورمضان عبد القادر. "المجازر الاستعمارية خلال فترة الثورة التحريرية: منطقة جيجل أنموذجا ١٩٥٦ – ١٩٦٢".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الثاني والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٨. ص١١٨ – ١٢٦.

## مُقَدِّمَةُ

لقد تعرضت شعوب إفريقيا وأسيا لهجمة استعمارية غاشمة خلال القرن التاسع عشر الميلادي وقبله، وإذا كان الاستعمار هو عملة واحدة رغم تعدد أشكاله، فإن الاستعمار الفرنسي كان الأشد وطأة وقسوة وبطشًا بالنسبة للشعوب التي ابتليت به ومنها الشعب الجزائري الذي تحمل الضغط الاستعماري لمدة قرن وثلث القرن، داق خلالها كل أنواع القهر والاستعباد وتعرض لمجازر يندى لها جبين الإنسانية، وكانت منطقة جيجل، التي كانت مهيكلة ضمن المنطقة الأولى وجزء من المنطقة الثانية (الميلية) الولاية الثانية قد عرفت خلال فترة الثورة التحريرية وتحديدا بين ١٩٥٦ إإلى ١٩٦٢ مجازر استعمارية بشعة دهب ضحيتها عشرات المواطنين من أفراد الشعب ذنبهم أنهم ما كانوا متعاطفين مع الثورة وهذا طبيعي، أو كانوا ضمن نطاق المعارك والكمائن، ولم تفرق الآلة الاستعمارية في هذه المجازر بين النساء والأطفال والرجال والشيوخ رغم تركيزها على الفئة الصلبة المجتمع وهم الشباب والرجال ومن هنا نتساءل: ما هي حيثيات هده المجازر؟ ما الظروف التي وقعت فيها؟ هل كان لمجيئ شارل ديغول أثرًا في زيادتها؟

## أولاً: المجازر لإخفاء الهزائم العسكرية أمام الثورة

في أواخر شهر أكتوبر وأوائل نوفمبر ١٩٥٥ استطاع مجموعة من الثوار بدوار بني مسلم تحضير كمين والقيام

بتمويه على القوات الفرنسية ودخلوا معها في اشتباك عند الوادي الكبير والحقوا بالعدو خسائر بشرية كثيرة وغنموا بعض العتاد الحربي وبعدها قامت القوات الفرنسية بتكثيف عملياتها في المنطقة وتوزيع مناشير إلى السكان تعلن التمرد وأعتقد بيجار أن الجيش التحرير انتهى، غير أنه في نهاية شهر سبتمبر ١٩٥٦ م نصب المجاهدون كمينا لقافلة عسكرية فرنسية قادمة من العنصر إلى محتشد أيذم وألحقوا بها خسائر فادحة في الأرواح والعتاد فلجأ العدو للانتقام من السكان بالقتل الجماعي والحرق والقنبلة للمشاتي المجاورة للكمين وهذا الجدول يوضح ضحايا مجزرة دوار بني مسلم.

| الرقم | الاسم واللقب | الرقم | الاسم واللقب | الرقم | الاسم واللقب |
|---|---|---|---|---|---|
| ١ | كلوا أحمد بن زيدان | ٢١ | شعور أحسن بن بوزيد | ٤١ | عواجة بوخميس بن علي |
| ٢ | شلاطة محمد بن بوخميس | ٢٢ | شعور محمود بن محمد | ٤٢ | بوطف صالح بن علي |
| ٣ | رمرام محمد بن أعمر | ٢٣ | زويتر الزهرة بنت عمار | ٤٣ | حلبوط الحسين بن علي |
| ٤ | كلكول مسعود بن بلقاسم | ٢٤ | عدرف عياش بن أحمد | ٤٤ | موسى رابح بن بلقاسم |
| ٥ | رمالي مخلوف بن أحمد | ٢٥ | فوتيح مبارك بن صالح | ٤٥ | رفاس العربي بن إسماعيل |
| ٦ | بوالدار الحسين بن أحمد | ٢٦ | درويش محمد بن أحمد | ٤٦ | القيقط مسعود بن الحسين |
| ٧ | السخون الحسين بن أحمد | ٢٧ | شعير راع بن بلقاسم | ٤٧ | تومي أحسن بن أحمد |
| ٨ | مليط أعمر بن صالح | ٢٨ | شطيبة محمد بن صالح | ٤٨ | رحيم يقوتة بنت البشير |
| ٩ | عواجة الصادق بن الطيب | ٢٩ | ظريف صافية بن مبارك | ٤٩ | لزعر شريفة بنت علي |
| ١٠ | مسلم صالح بن حسين | ٣٠ | طنيبر فاطمة بنت محمد | ٥٠ | مروش مصطفى بن الحسين |
| ١١ | مروش إسماعيل بن علي | ٣١ | شعور محمد بن بوخميس | ٥١ | هروم محمد بن بولعيد |
| ١٢ | بويلومسعود بن صالح | ٣٢ | اهروم الخلفة بن مبارك | ٥٢ | مليط مسعود بن أحمد |
| ١٣ | مروش أحمد بن مبارك | ٣٣ | اهروم صالح بن الخلفة | ٥٣ | طبيخ مخلوف |
| ١٤ | تومي إسماعيل بن بوخميس | ٣٤ | مليط بوجمعة بن رابح | ٥٤ | شعور سعيد بن أحمد |
| ١٥ | خاين محمد بن الطيب | ٣٥ | شطبية محمد بن صالح | ٥٥ | بنان مبارك بن مسعود |
| ١٦ | خاين محمد بن المولود | ٣٦ | أرحيم مسعودة بنت محمد | ٥٦ | طنيبر فاطمة بنت المختار |
| ١٧ | خاين عبد الحميد بن محمد | ٣٧ | شطيبة أحمد بن محمد | ٥٧ | طنيبر حسان بن المختار |
| ١٨ | توير الحسين بن بلقاسم | ٣٨ | شحطة السعيد بن زيدان | ٥٨ | طنيبر محمد بن المختار |
| ١٩ | كبيش محمد بن مسعود | ٣٩ | بوطف أعمر بن مسعود | ٥٩ | طنيبر ... بنت إسماعيل |
| ٢٠ | شعور محمد بن بوزيد | ٤٠ | بوطف حسين بن الطاهر | ٦٠ | طنيبر ... بنت إسماعيل[١] |

بقي غديري المختار (بوقليع) ونصب كمين من طرف المجاهدين لقوات فرنسية بين الشقة والطاهير بوادي بوقرعة يوم ٢٩ جانفي ١٩٥٧ والذي تحول إلى إشتباك عنيف وتدخل العدو بالذبابات والطائرات وقد توجه المواطنون وأعضاء من النظام السياسي إلى غابة بوفولة وهناك لاحقتهم فرقة من العدو ورافقها المعمر بيري الذي كان يتحدث العربية وراح ينادي على المواطنين بأسمائهم للخروج وقال لهم أن القوات الفرنسية قد غادرت، فخدع المواطنين ولما خرجوا شرع العدوفي إطلاق النار عليه من كل جانب فقتل العديد ومنهم:

صابري يوسف، بوكريش بلقاسم، بيراك يوسف، بيوض علي، حمادي، بن صابرة عياش، درياج صالح، بن صابرة عمار، شرافة الشريف، بولفول حسين، رماش شعبان، رماش الشريف، عثمانة الوبي المدعو(فرحات).[٢]

وفي منتصف عام ١٩٥٧ نفذ الفدائيان مشيري حسين (دردر) وديابي عمار عملية فدائية ضد المعمر "جان هوجي" ببازول فقتلاه وبعد الإنتقام من سكان المنطقة ألتحق

أخوالمعمر من قسطينة ليثأر له وقتل عشر من مواطين المشتى وهم: حيروس محمد، بوجعطيط يوسف، عبد الليوة صالح، عبد الليوة محمد، منصور محمد بن علي، ضبيب محمد المدعوزيغود، منصور محمد بن بلقاسم، عقبي عمار المدعو (بن دياب)، محدور محمود، بوعكيشة السبتي.[٣]

## ثانيًا: المناطق المحرمة استراتيجية مقنعة للمجازر الاستعمارية

بعد فشل فرنسا في القضاء على الثورة في مهدها الأوراس عبر ما أسمته زورا بعمليات التهدئة* (Les opérations de pacifications) بين ١٩٥٥ – ١٩٥٦ لجأت إلى أسلوب جديد وهو التجميعات وخاصة بالولاية الثانية وذلك عبر طريقتين:

١/ إعلان المناطق المحرمة التي تشمل ثلثي مساحة الشمال القسنطيني.

٢/ تنظيم عمليات كبرى تمشيط أوراتيساج (Ratissage) بنقل المدنيين وإجلاءهم بالقوة عن مساكنهم.[٤] وهذه الاستراتيجية هي إفراغ المناطق التي تسميها فرنسا بالمتعفنة من سكانها لمراقبتهم، وأقترح هذه الخطة بوربيس مونوري في جوان ١٩٥٧، وكانت المناطق المعنية هي جيجل والميلية والقل وقادها الجنرال سوفيناك الذي أتخذ من الميلية مقرا لقيادته، وبدأ التمشيط يوم ٣ جوان ١٩٥٧ بالقل والميلية، ويوم ١٧ جوان ١٩٥٧ بالطاهير، وجيجل وفي ١٧ جويلية حذرت السلطات الفرنسية سكان هذه المناطق بأن العقاب الإلهي سيحل بهم إذا لم يغادروا قراهم واستخدمت طائرات B26 وB46 وقنبلت هذه المناطق ثلاث مرات يوميًا، في سبتمبر ١٩٥٧ استخدمت ٢٠٦ طائرة وقنبلت بني فرقان والجزية بالميلية وزيايرة بمدينة القل، فهذه المناطق المحرمة (Zone interdite) طبقت عليها سياسة الأرض المحروقة، فقد جاءت في أمرية للجيش الفرنسي مؤرخة في ٢٠ أوت ١٩٥٦.

المناطق المحرمة هي فضاءات لا يسمح للعيش فيها ويستعمل فيها السلاح باستمرار بمتلف أنواعه ضد تجمعات السكان. هذه المناطق مخصصة للأعمال العرضية للتشكيلات العسكرية الجوية. وكان التدخل بهذه المناطق يكون في جميع الأوقات حتى على الأهداف المسالمة سواء بأوامر من القيادة الجوية أو بمبادرة من الأفراد (تخفيف حمولة من القنابل).[٥]

## ثالثًا: مجيء شارل ديغول وتزايد حجم المجازر الاستعمارية

أصبحت ممارسات الجيش الفرنسي أكثر وحشية بعد مجيء ديغول للسلطة منتصف عام ١٩٥٨م، مدعيا أن كل شيء سيتغير في الجزائر لكن الأعمال الإجرامية التي وقعت تنفد هذه الادعاءات، فيوم ٢٧ سبتمبر ١٩٥٨م أصدرت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية أول بيان وزاري لها، واحتفلت به منطقة جيجل كبقية المناطق، فصنعت النساء الحلويات وتبادل الناس التهاني، وفي البداية اعتبرت فرنسا ذلك تعبيرا لتولي ديغول الحكم، ولما تبين الأمر راحت تزرع الإرهاب الموت على يد الكولونيل "أوسان" قائد المنطقة جيجل، وأشتد القمع شهر أكتوبر فقد ألقى القبض على ٥٢ شخص بين ١٠ و١٢ أكتوبر ١٩٥٨ وبالقرب من جيجل بعدها عثر على جثتي محمد بن يونس ٥٢ سنة، وإسماعيل بن يونس ٢٦ سنة، وفي الطريق بين جيجل وبجاية عثر على جثث الخمسين شخصا الباقين وعرف منهم : شريط عبد الكريم ٣٨ سنة، وستة أطفال، موساوي الناصر ٢٨ سنة، شقرين رشيد ٢٥ سنة، مولود عوار ٢٤ سنة، بوريون عبد العزيز ٢٣ سنة، بوراوي مصطفى ٢٤ سنة، بوراوي الطاهر ٤٥ سنة، بوربيك الطاهر ٥٥ سنة، غوان بغداجي ٤٨ سنة، شيوخ أحسن ١٨ سنة، شيوخ محمد ١٧ سنة، مزغيش أحسن ٢٣ سنة، مقيدش عمر ٥٢ سنة، مقيدش محمود ٤٥ سنة*، كما أصبح الجنود الفرنسيون يرهبون سكان جيجل بدخول البيوت من السقوف لترويج السكان ليلا.[٦]

وفي منتصف عام ١٩٥٨ وبعد نصب كمين للمعمر "لوي طرشون" بأولاد صالح قرب الطاهير نجا منه وأستنجد بقوات عسكرية داهمت المكان وألقت القبض على ستة أفراد من عائلة طالبي وأطلقت النار عليهم أمام مرأى ومسمع أهلهم وهم: طالبي صالح، طالبي عمار، طالبي علي، مقدم. وفي نهاية عام ١٩٥٨ نفذ المجاهدون عملية ضد المعمر "طرشون" وغنموا منه ٢٠ رأسًا من الأبقار وقطيع من البغال، وتبادل إطلاق النار بين المجاهدين والمعمر الذي سارع كعادته واستنجد بقوات العدوالتي ارتكبت جرائم قتل في حق المواطنين وهم : مقدم مسعود، مقدم المكي، مقدم بلقاسم، بورحلي علي، بورحلي الطيب، بورحلي محمد، كما أقتيد غيبش الطيب ومقدم محمد إلى مكان مجهول وبقيا مفقودين منذ ذلك اليوم.[٧]

وفي خريف ١٩٥٩ هاجمت كتيبة الجيش التحرير بالقسم ٣ الناحية ٢ للمنطقة الأولى بقيادة بونعاس مسعود "مسعود النية" مزرعة المعمر "ديبا" بـازول وغنموا ٦٠ رأس بقر، كما أوعز المجاهدون إلى أحد طباخي المعمر بدس السم له لكنه تفطن وقتل أربعة عمال كانوا يعملون لديه وهم: بوبيدي محمد (بالزيت)، قريفي فرحات، حيمر محمود، قريفي عمر.[٨]

وفي أوائل سنة ١٩٦٠ قام بعض الحركى بمداهمة منزل مسؤول مشتى الثلاثاء نواحي الطاهير وهوبوحريص عبد المجيد فلم يجدوه فانتقموا من أفراد عائلته (إخوته) وأطلقوا النار على الآخرين بوحريص عبد القادر وبوحريص أحمد وحاولت الأخت بوحريص الشريفة حمايتها فأصيبت وسقطت شهيدة وأصيبا أحد أخويها وشل أخر.[٩]

وبعد مقتل العقيد "ماري" بالميلية يوم ٢٩ مارس ١٩٥٩* إثر كمين محكم، عين الجنرال شال مكانه العقيد روجي ترانكيي، وفور استلام مهامه بدأ مخططه بشن حملة ترهيب وسط السكان، وحاصر مدينة الميلية بالأسلاك الشائكة عالية التكهرب ٥٠٠ فولط، وأسمى خطته بـ المفاجأة المنقولة جوًا (La surprise aéroporté) أرفقها بحملات إرهاب وإعدام للمساجين دون محاكمة، كما جمع ٥٠٠ امرأة ونزع لباسهن وعرضهن للتحرشات، وأرتكب مجازر بشعة في بني فرقان فأباد حوالي ٢٩٣ مدنيا، كما قتل ٤٥ شخصًا أوائل جانفي (يناير) ١٩٦٠ بعدما جاؤوا حفاة للمدينة للحصول على حاجيتهم الغذائية** وذلك بالمكان المسمى العنقة نواحي الميلية.[١٠]

## رابعًا: المجازر الاستعمارية المرافقة للعمليات الكبرى (عملية الضباب أنموذجًا)

قامت القوات الفرنسية بمحاولة لخنق الثورة بمنطقة القبائل الصغرى من خلال شن عملية الضباب أكتوبر ١٩٥٩م بقيادة الجنرال "قولر" التي انطلقت من جيجل نحو بجاية فقامت الطائرات بقصف مناطق عديدة بالطاهير وتاكسنة وجبال سلمى وبطاشة وتعرض السكان لإبادة جماعية كما وقعت عمليات قمع بين لجناح ووادي يرجانة شرق جيجل، وحرقت القوات الفرنسية ١٨٣ كوخ ونهبت ممتلكات السكان وحطمت الجراري وسكب الزيت على الأرض، وفي ١٩ نوفمبر ١٩٥٨ قنبلت ناحية جيدل وأعتقل ٢٠٠ شخص بين نساء وأطفال ووجهوا لمعتقلات الموت.[١١]

## خامسًا: المجازر لقمع المظاهرات الشعبية المؤيدة للثورة

وفي مدينة جيجل قامت مظاهرة شعبية يوم ٩ مايو ١٩٦١ هتفت باستقلال الجزائر ورفعت الجماهير العلم الجزائري وهتفت بحياة الحكومة المؤقتة وقتلت فيها سويعد مسعودة تحت عجلات الدبابة، كما قتلت القوات الفرنسية بالرصاص عباس زليخة وعريبي منوبة وبدرون الشريفة وذلك في المظاهرة بمدينة الطاهير صبيحة ١٩٦٠/١٢/١١. وكتبت جريدة المجاهد يوم ٢١ جوان ١٩٦١ "نظم الوطنيون الجزائريون مظاهرات صاخبة بجيجل والطاهير فتدخلت القوات الاستعمارية وأطلقت نيران أسلحتها على المتظاهرين فقتل ١٤ من بين الوطنيين الجزائريين، وفي قرية ستراسبورغ قامت الجماهير بتنظيم مظاهرة فتدخلت القوات الفرنسية واستعملت رشاشاتها وقتلت ثلاثة أشخاص، وعندئذ نظم الوطنيون بكامل منطقة جيجل مظاهرات وإضرابات احتجاجية دامت ثلاثة أيام وقد قتل في هذه الحوادث ٢٠ وطنيًا وجرح ٧٠ آخرون كما اعترفت البلاغات الفرنسية". وفي ٥ جويلية ١٩٦١ شنت مظاهرات وإضرابات في جيجل وساد توتر كبير بسبب حوادث ومظاهرات جوان ١٩٦١، ولم تتردد القوات الاستعمارية في قتل ١٤ متظاهرًا وطنيًا وجرح أكثر من خمسين فرد.[١٢]

## سادسًا: جدول للعمليات التي قام بها الجيش الفرنسي- " حصار، تفتيش، تمشيط " بين ١٩٦٢/١٩٥٩ بالمنطقتين الأولى والثانية للولاية الثانية ولاية جيجل حاليًا والمجازر المرفقة لها.

| التاريخ | العملية | الناحية | المنطقة | المجازر المرتكبة |
|---|---|---|---|---|
| ١٩٥٩/٠١/١٥ | حملة تفتيش مشتة محبرة | ١ | ١ | قتل الحيوانات، إحراق المنازل، قتل أربعة أطفال |
| مارس ١٩٥٩ | هجوم على دوار كراس | ٣ | ١ | قتل بن خليفة أحمد وعامر محمود |
| أفريل ١٩٥٩ | حصار دوار لجناح سيدي عبد العزيز | ٢ | ١ | قتل ثلاثة مواطنين |
| ١٩٥٩/٠٦/٠٢ | هجوم جوي على أولاد يحني | ٢ | ٢ | قتل ١٧ مدنيًا وجرح ٦ آخرين |
| جوان ١٩٥٩ | هجوم على منطقة تاكنسة | ٢ | ١ | قتل ٢٤ مدنيًا وعدة جرحى |
| جويلية ١٩٥٩ | حملة تمشيط لدوار زالازة | ٣ | ١ | إحراق المنازل، قتل الحيوانات، جعل المنطقة محرمة |
| ٢٤ أوت ١٩٥٩ | غارة جوية على مشتة عميرة – القنار | ٢ | ١ | قتل ثلاثة مواطنين: بوزارابي حورية، بوزرابي زليخة، بن سلامة عمر |
| ١٩٥٩/١٢/٠٢ | حملة تفتيش لمشتة دار الحاج – وجانو | ٢ | ١ | قتل مواطنين اثنين وحرق المنازل |
| ١٩٥٩/١٢/١١ | حصار لمشتة ايدالن الشحنة | ٢ | ١ | قتل بومالة الطاهر، عثمانة الطاهر، عثمانة رابح |
| ١٥ مارس ١٩٦٠ | هجوم ب ١٥ طائرة على مشتة بومسعود | ١ | ٢ | قتل أربعة مواطنين |
| أوت ١٩٦٠ | حملات تفتيش على مشاتي بوخلاد، الروسية دار وشنان | ٣ | ١ | تعذيب المواطنين وقتل الكثير منهم |
| ١٩٦٠/١٠/٢١ | حصار أولاد خالد (أولاد عسكر) | ٢ | ١ | قتل ٥ مواطنين من عائلة واحدة: بوعليش العربي محمد، الحواس، السعيد، صلاح. |
| ١٩٦٠/١١/٠١ | حصار لجبل الدرامة تيراوسطارة | ٢ | ٢ | قتل أربعة مواطنين |
| ١٩٦٠/١٢/٢٥ | حصار أولاد رابح الميلية | ١ | ٢ | قتل ٣٢ مواطن |
| جانفي ١٩٦١ | حصار مشتة أولاد مسعودة (العنصر) | ١ | ١ | قتل خمسة مواطنين |
| ١٩٦١/٠٩/٢٢ | هجوم على محتشد تسالة | ٣ | ١ | قتل خمسة مواطنين بعد تعذيبهم تعذيب شديد |
| نوفمبر، ديسمبر ١٩٦١ | هجوم على مشتة بومليح | ٢ | ١ | قتل ٢٠ مدنيًا |
| فيفري ١٩٦٢ | حملة تفتيش على رأس فدجيوة | ٣ | ١ | ذبح أطفال وأسر المواطنين[١٣] |

## سابعًا: شهداء ولاية جيجل خلال الثورة التحريرية ١٩٥٤ – ١٩٦٢

| البلديات | عدد الشهداء | جيش/ ت | جهة/ ت |
|---|---|---|---|
| جيجل | ٣٥٩ | ١٦٢ | ١٩٧ |
| تاكسة | ٣٩٥ | ١٨٦ | ٢٠٩ |
| قاوس | ٢١٥ | ١٠٠ | ١١٥ |
| جيملة | ١٣٤ | ١٤٠ | ٩٤ |
| بن ياجيس | ٠٩٧ | ٥٥ | ٤٢ |
| العوانة | ٣٠٣ | ١٦٨ | ١٣٥ |
| سلمى | ١٧٥ | ١٠٤ | ٧١ |
| زيامة منصورية | ٣٥٣ | ١١٧ | ٢٣٦ |
| إيراقن | ١٧٤ | ٩٤ | ٨٠ |
| الطاهير | ١٩١ | ١٠٠ | ٩١ |
| وجانة | ١٥٦ | ٨٩ | ٦٧ |
| الأمير عبد القادر | ٠٩٤ | ٣٥ | ٥٩ |
| الشحنة | ١٥٤ | ٧٠ | ٨٤ |
| الشقفة | ٣١٥ | ٢١٣ | ٩٨ |
| برج الطهر | ٢٠٤ | ١٥٤ | ٥٠ |
| القنار نشفي | ١٣٤ | ١٠٢ | ٣٢ |
| سيدي عبد العزيز | ٠٧٨ | ٤٨ | ٣٠ |
| الميلية | ٩٤١ | ٦٥١ | ٢٩٠ |
| أولاد يحي | ٠٧٧ | ٥٦ | ٢١ |
| السطارة | ٢٣١ | ١٩١ | ٤٠ |
| غبالة | ٢٥٠ | ١٨٨ | ٦٢ |
| سيدي معروف | ٢٠٥ | ١٣٣ | ٧٢ |
| أولاد رابح | ٠٨١ | ٤٢ | ٣٩ |
| العنصر | ٣٤١ | ٢٣١ | ١٠٩ |
| واد عجول | ٠٩١ | ٦١ | ٣٠ |
| جمعة بني حيثي | ١٦٤ | ٧٩ | ٨٥ |
| لوراوي بلهادف | ١١٣ | ٨٤ | ٢٩ |
| يوسيف أولاد عسكر | ١٢٠ | ٦٧ | ٥٣ |
| | ٦١٣٤ | ٣٦٧٥ | ٢٤٥٩[١٤] |

ومن خلال الجدول الأول بلغ ما قتله الجيش الفرنسي من جراء مختلف عمليات المسح والتمشيط والحصار أكثر من ١٣٤ مواطنًا دون احتساب عدد الشهداء الذي سقطوا من جيش التحرير الوطني الذي بلغ الشهداء ٦١٣٤ شهيدًا حسب الجدول الثاني وقد أسفرت عمليات الجيش الفرنسي بين ١٩٥٩ ومطلع ١٩٦٢ بالناحيتين الأولى والثالثة للمنطقة الأولى بعد ١٧٠٢ عملية مسح وتمشيط وحصار عن قتل ٢٠٢٧ مجاهدًا ومواطنًا وسجن العشرات وإحراق المنازل وإتلاف أرزاق الناس.[١٥] وبالمنطقة الأولى والثانية الولاية الثانية (جيجل والميلية) وخلال فترة ١٩٥٩ إلى مطلع ١٩٦٢ نفذت القوات الفرنسية ٤٩ عملية تمشيط وهجوم حصار أسفرت عن مقتل ٢٥١ مجاهد أو مواطنًا وأسر وجرح العشرات.[١٦] وبلغت الخسائر البشرية التي نجمت عن عمليات التمشيط والمسح والتفتيش لمنطقة جيجل والميلية وشمال شرق سطيف مقتل ٤٧٨ مجاهدًا ومواطنًا وعشرات الموقفين والمجروحين وذلك بعد تنفيذ ٢٢١ عملية من طرف الجيش الفرنسي.

## ثامنًا: شهادة حية لجندي فرنسي على مجازر ضد سكان منطقة جيجل بونواري (Benoît Rey) مشاهد من عمل مجموعة مغاوير المطاردة (١٩٥٩-١٩٦١) الذباحون

"الليلة الأولى بتاكسنة، أيقظونا على الثانية صباحًا، وعلى الثالثة الانطلاق. الليلة مقمرة، والهواء بلا حراك، حيث رائحة الزعتر والأوراق الجافة تملأ الأجواء. الأحجار تتدحرج تحت أقدامنا. كلاب تنبح بعيدًا. وخلال سيرنا، كنا غالبًا ما نجتاز مشات هادئة في الظاهر لكننا نسمع تنفس الناس، وصرخات الأطفال المخنوقة، والأنفاس المبحوحة للحيوانات وضربات حوافرها على الجدران المبنية بالطوب الطيني. خطواتنا صارت آلية. حبال كيس الأمتعة تنشر كتفي. اجتزنا مقبرة: حجارة بيضاء ترسم حدود القبور، بانتظام. يبدو أن هناك من زار المزار المهجور، تشهد على ذلك أثار نار. الفجر يصبغ التلال المكسوة بأشجار البلوط والفلين بلون وردي حيث هناك تحت ظلال الزيتون غرست أحواض من الخضر. أحيانًا يظهر وجه في الباب المشتى، وسرعان ما يختلط بالظل. لا حركة، عدا خرير جدول تنساب مياهه بين الحجارة.

تنقسم مجموعة المغاوير إلى مجموعتين: تنزل فصيلتان صوب واد. ها هو النهار يطلع والتمشيط يبدأ. هذه الناحية منطقة محرمة، أي أن الناس لا حق لهم في سكنها أو العمل بها. وهي وسيلة لدى الجيش للمراقبة. كل ساكن نجده هناك يشتبه في انتمائه لجبهة التحرير الوطني، لكن الناس شديدي التعلق بدارهم، ببهائمهم، وبقطعة أرضهم وبموتاهم وبالمشهد الذي يحيط بهم، لكي لا يلتحقوا بمراكز التجمع الفرنسية. لقد أمرنا أن نحرق كل شيء. كنا نشاهد الفصيلتين بالمنظار وهما تصعدان نحونا بعد أن أضرمت النار في أسقف الهشيم. وسرعان ما صار كل الوادي يلتهب. النساء يصرخن ويسحبن أو يحملن الأطفال، هاربات متجهات نحو الطريق الذي نحن فيه. شيخ كبير بقي بباب داره. قام جندي بذبحه. وأخر عُلق حبل بالعارضة الرئيسية للسقف. بعد ذلك بلحظات يتهاوى كل شيء. اقترب رفيق مني وقال: "ما يعجب المغاوير هو رغبتهم في أن تتفرج على المشهد".

وعندما أصبحت القرية كلها عبارة عن لهيب، تم تجميع النساء وشرح لهم حركي أن من مصلحتهن مغادرة الناحية والمجيء للاستقرار بالقرب من مركزنا. كانت النساء يبكين وتخدشن وجوههن، والأطفال يصرخون. ولإسكاتهم، أطلق بعض الجنود النار على مجموعة من البغال. طلقات النار، إنها مثيرة دائمًا. وقفلنا راجعين. أحد الرقباء شوهد على الجانب الأخر من سفح الوادي. وبينما تقدمت إحدى الكتائب، بقيت الأخرى لتأمين الحماية. اقتربنا من قرية أخرى. حينها سمعت المرشح بريفو يصرخ نحو فصيلته: "يمكنكم مجامعة النساء، لكن افعلوا ذلك خفية". وحدث كما حدث سابقًا: أحرقت البيوت، البغال لا تؤكل ولهذا تقتل: ليس بالوسع أخذ جرار الطين المزركشة برسوم خرقاء، يتم تحطيمها. لاحظ المرشح بريفوار تباكي فصاح نحوي: "هذه هي التهدئة (Pacification). وعلى كل حال العرب لا يصلحون إلا للقتل" وفي المساء، ونحن عائدين علمت أن فتاة مسلمة عمرها خمس عشرة سنة جامعها سبعة جنود، وأخرى عمرها ست عشر سنة جامعها ثلاثة رجال آخرين.

في ذلك المساء، ذرفت دموعي الأولى كرجل. في المعسكر، مع آخرين، فرانسوا وأنا، بذلنا جهدنا لإسعاف سجناء عملية التمشيط. كانوا يقومون بأعمال شاقة، مثل التعبيد وتصفيف الحجارة وأنواع من الأشغال المنفرة، وهذا غالبًا ما يتم بعد أن يتعرضوا للتعذيب بالكهرباء (Gégène) أو بالضرب المبرح. طعامهم الوحيد: فضلات وجباتنا، بعد أن يصنع منها حساء مقيت. أحد الطباخين، وكان جنديًا مثلنا، افتخر بأنه وضع في الحساء خراءه. كنا نعطيهم خفية معلبات، خبزا، سجائر. كان ذلك يمحو شيئا من العار الذي كنا نحس به تجاه هؤلاء الرجال، سواء أجرموا أم لا. وما هي الجريمة التي ارتكبوها؟ جواز مرور غير صالح، شكوك، وشاية مجانية. كثيرًا ما سمحت لي الفرصة فيما بعد، للذهاب إلى مقرات الحجز لمعالجة الجرحى أو لجلب الحمالين. كان الرجال مكدسين في غرفة من ثلاثة أمتار على خمسة. إنهم خمسون. البعض يفضلون العمل على البقاء محبوسين. قالوا لي، «فهمت، أننا ننام في وضعية القرفصاء أو جالسين".

للغرفة نافذة وحيدة مشبكه بالحديد لا يرى إلا مربع من السماء. بعض الأحلاس هي كل الأثاث. غار يستخدم بمثابة مرحاض تنبعث من هناك رائحة البراز والديدان والعرق. وعندما تتعود عيوننا على الرؤية في العتمة نلمح أوجهها، بعضها حاقدة، وبعضها ساخرة، ونظرات ميتة أيضًا، تنتظر اللا شيء. بعض هؤلاء كانوا مصابين بالحمى ويرتجفون رغم الحرارة المرتفعة. كلما فتح الباب المدجج بالأقفال يستبد الخوف بالرجال. كم منهم نودي به في أحد الأصباح أو المدجج بالأقفال يستبد الخوف بالرجال. كم منهم نودي به في أحد الأصباح أو الليالي ولم يعد أبدًا، بعد أن تذبح رقابهم أو تخرق أجسادهم بالرصاص يتركون للثعالب تنهشهم، على جنبات الطرق أو في الغابات.

وراء ذلك المبنى، هناك فناء وفي نهايته أربع غرف: مكتب ضابط الاستعلامات، زنزانة المحكوم عليهم بالإعدام، في أجل قصير أو طويل، زنزانة النساء وأخيرًا قاعة التعذيب، التي تشبه غيرها من القاعات. هناك جرارة، حبال، "مولد كهربائي للتعذيب" (Gégéne)، بعض الهراوات وأسورة حديدية ملتصقة بالجدار. عندما وصلنا إلى تاكسنة، كان هناك رجل مقيد إلى النافذة، ويصرخ إلى حد أن الجنود كانوا يخرجون أو ينظرون من النوافذ. هددهم أحد الضباط باللجوء إلى غلق نوافذ المرقد نهائيًا إذا تجدد هذا الفضول. فيما بعد، تحسنت المنظومة، وجدوا محلاً مختفيًا لا تخرج منه الصرخات من وراء الجدران السميكة. في تلك الفترة، كان ضابط الاستعلامات، برتبة ملازم، من الأقدام السوداء، جزائري. أشتهر بفضاضته وقسوته. أتصور أن اسمه لن يمحى من بعض الذاكرات. لا يختار ضابط الاستعلامات بالصدفة. يتجنب اختيار "مثقفين" (طلبة أو من المهن الحرة) بل من بين أشخاص بدون تكوين

فكري كبير، بحيث يمكن تسييرهم. بالنسبة إليهم لا يطرح أي مشكل أخلاقي حول التعذيب.

يعتقدون أنه عمل مجحف لكنه ضروري. والحجة دائمًا: "إنهم يفعلون ما نفعل في الجانب الأخر" لبعث الحماس وكبت ما يعترضهم من تأنيب. التعذيب عامل أساسي في هذه الحرب "القذرة"، حسب كلام الرسميين. كل الأساليب جيدة، كل الضربات مسموح بها. لن أنسى أبدا ذلك السجين ابن الخمسة عشر سنة، الذي جن من كثرة ما عذابات إخوانه. عالجناه خلال نوبة عصبية، كان لباسنا العسكري يفزعه. كان لا يتوقف عن ترديد: " وعلاش، وعلاش، وعلاش (لماذا)".

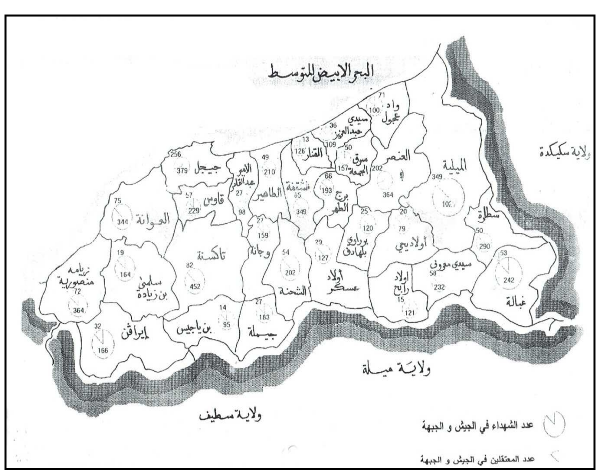
أكتوبر. – البارحة، تم إعدام ثلاثة مساجين. كانوا قد شاركوا في كمين دموي بالنسبة إلينا: قتل منا خمسة عشر. تم انتزاع الاعترافات حسب الطقوس المعتادة: تسليط نبضات الكهرباء على المناطق مختلفة من الجسم. الضرب المبرح. ثم علق دركي ثقلا يزن خمسة عشر كيلو بالخصيتين. هنا تجيء الاعترافات بسهولة. الإعدامات قام بها رفاق قتلانا في الصباح الباكر. في الليل خرجنا. وداهمنا الصباح ونحن على تلة مطلة على المشات. كان هناك سجين معنا، يداه مغلولتان وراء ظهره. ابتعد به المرشح بريفوست وقتله برشة في الظهر. استدار إلينا المرشح وصاح فينا بابتسامة عريضة: "إنه محظوظ، هذا، لقد وجهت رأسه نحو مكة". تركت الجثة ونحن ننزل نحو المشاتي. ونظرا إلى أن احترام الموتى مقدس ههنا، فإننا قلما نجد الجثث على حالها. هناك أياد نقية تحفر القبور. نعرفها من خلال الحجارة البيضاء المنصوبة في التراب. وما أكثر هذه الحجارة البيضاء في الجبل.(١٧)

## خَاتِمَةٌ

يتضح من خلال هده النماذج عن المجازر الاستعمارية الفرنسية بمنطقة جيجل ما يلي:

- كانت المجازر الاستعمارية ترتكب تحت ذرائع واهية ومغلوطة حقيقتها عجز الجيش الفرنسي عن مجابهة تكتيكات جيش التحرير الوطني، وصدق أحد الضباط الفرنسيين وصفه هذه الوضعية بقوله (كنا نقاتل عدوا غير واضح).
- مدى فظاعة الاستعمار الفرنسي الذي كان في الحقيقة يخوض حربًا قدرة ضد الشعب الجزائري، فقفز فيها عن كل القيم الإنسانية والأخلاقية التي تراعي في الحروب، وقد كان من نتائج هذه المجازر البشعة أن دفعت المنطقة قافلة كبيرة من الشهداء بلغت ٦١٣٤ شهيدًا.
- إن المتتبع لهذه المجازر يستخلص أنها كانت مجازر مخطط لها وتهدف لزرع الرعب وسط السكان، كما استهدفت بنسبة كبيرة فئة الشباب والرجال لضرب منابع الثورة وتشتيت العائلات وفصل الشعب عن الثورة وإظهارها بأن الثورة قد تسببت في إلحاق الأذى بالشعب وهو ما يفسر عمليات الانتقام بعد كل معركة ولكن الشعب إزداد التفافًا بالثورة لأنه كان مؤمنا بها فكان النصر حليفه رغم المآسي.
- إن المجازر الاستعمارية الفرنسية في منطقة جيجل خلال الفترة (١٩٥٦ – ١٩٦٢م) تفسر ذهنية الجيش الفرنسي التي تميل إلى القسوة والإرهاب كاستراتيجية مدروسة تلقاها الضباط والجنود الفرنسيون لكسر انتصارات الثورة التحريرية بمنطقة جيجل التي كانت بالفعل تمثل إحدى معاقل جيش التحرير الوطني بالشمال القسنطيني.
- إن هده المجازر لم تثني من عزيمة سكان منطقة جيجل في التمسك والالتفاف بالثورة التحريرية وكانت المظاهرات الشعبية التي شهدتها مدن جيجل والطاهير والميلية خير دليل على إيمان الشعب بهده الثورة.
- إن الاستعمار الفرنسي مهما حاول إخفاء مجازره البشعة فقد فشل في هذه المهمة، واعترف ضباطه وجنوده بهذه الجرائم بعد فترات من نهاية الثورة التحريرية ولعل شهادة الجندي بونواري (Benoît Rey) تكشف جانب ولو ضئيل جدًا من هده المجازر.

## الملاحق




خريطة رقم (١)

التوزيع الجغرافي لشهداء ومعتقلي ولاية جيجل



خريطة رقم (٢)

الخريطة التاريخية لولاية جيجل


خريطة رقم (٣)

التقسيم الإداري والسياسي والعسكري للمنطقة الأولى وجزء من المنطقة الثانية بعد مؤتمر الصومام

## الهَوامِشُ

(١) حسين بن أحمد شعور، **"دوار بني مسلم والثورة التحريرية"**، مجلة أول نوفمبر، العدد ١٧٢، ديسمبر ٢٠٠٨ ص ٥١، ٥٢، ٥٣.

(٢) يجي سويعد، بن حبليس علي، سرحان عبد الحميد، **جمعية ٢٠ أوت لتحليل مآثر الثورة التحريرية والتعريف بها لولاية جيجل**، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠١١، ص١٨٧ – ١٨٨.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٩٠-١٩١.

(٤) الجمعية الثقافية ٢٠ أوت التخليد وحماية الثورة، **جهاد المرأة الجزائرية في ولاية ميلة ١٩٥٤/١٩٦٢**، دار الهدى، عين ميلية، ص٦١.

(٥) علي خلاصي، **جيجل تاريخ وحضارة**، الطبعة الأولى، الجزائر، ٢٠١١، ص٣٧٢-٣٧٣. * الملاحظ أن المفقودين ينتمون إلى نفس العائلات وأغلبهم شباب وكهول كما تبين هذه العملية أنها مع سبق الإصرار والترصد فقد تمت الجريمة بشكل سري ودون محاكمة ولو صورية.

(٦) **المجاهد العربية**، جزء الأول، العدد ٣٣، ص٩.

(٧) يجي سوعد، بن حبيلس علي، سرحان عبد الحميد، **جمعية ٢٠ أوت**، المرجع السابق، ص ١٩٣ – ١٩٤.

(٨) المرجع نفسه، ص١٩٩.

(٩) المرجع نفسه، ص٢٠٣.

(١٠) شيخ عمر، مملكة الفلاقة، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، ٢٠١١ ص١٢٨ -١٤٠.

(١١) علي خلاصي، المرجع السابق، ص٣٨١-٣٨٢.

* وهو نفسه اليوم الذي أستشهد فيه البطلين العقيدين عميروش ولطفي بمنطقة جبل أحمر في المسيلة.

** هذه المد لجة شاهدها المجاهدين ملجملاوي، إبراهيم عبد الوهاب، شيخ عمر.

(١٢) بورمضان عبد القادر، **الثورة التحريرية بمنطقة جيجل ١٩٥٤-١٩٦٢**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة قالمة ٢٠١٣/٢٠١٤، ص٧٣ – ٧٤.

(١٣) **الملتقى الجهوي لتسجيل أحداث الثورة التحررية**، جيجل، أفريل ١٩٨٧م، الولاية الثانية، الفترة ١٩٥٩-١٩٦٢، ص٣٩٢ – ٣٩٣.

(١٤) وزارة المجاهدين، ولاية جيجل، **السجل الذهبي للشهيد**، الطبعة الأولى ١٩٩٨، ص٥ – ٢١٣.

(١٥) جبهة التحرير الوطني والمنظمة الوطنية للمجاهدين، **الندوة الوطنية للتسجيل أحداث الثورة ٣٠ أوت ١٩٨٦م**، ص١٣٦، ١٣٩، ١٤١، ١٤٧، ١٥٠.

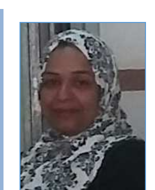
(١٦) جبهة التحرير الوطني والمنظمة الوطنية للمجاهدين، **الملتقى الجهوي لتسجيل أحداث الثورة**، المرجع السابق، ص٣٩٢،٣٩٣.

(١٧) عن جرائم الجيش الفرنسي، **ملف جمعه بيار فيدال تاكي**، ماسبيرو، ١٩٧٥، أعادت طبعه لاديكوفارت، ٢٠٠١، ص ١٧-٢٤. عاشور شرفي، **قاموس الثورة الجزائرية ١٩٥٤/١٩٦٢**، ترجمة عالم مختار، دار القصبة للنشر، الجزائر، ٢٠٠٧ ص ٥٢٧-٥٢٨.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].



# السياسة الأمريكية الخارجية
## تجاه حرب يونيو ١٩٦٧



**زينب التومي**
أستاذ مساعد المركز الجامعي تمنراست
باحثة دكتوراه في التاريخ المعاصر
جامعة الجزائر - الجمهورية الجزائرية

### مُلَخّصْ
*هذه الورقة البحثية عبارة عن دراسة للموقف الأمريكي السياسي والعسكري من عدوان حزيران ١٩٦٧م، الحرب العربية الإسرائيلية الثالثة والتي تعتبر فترة مهمة من فترات الصراع العربي الإسرائيلي، تتبعت الدراسة التغيرات التي طرأت على السياسة الخارجية الأمريكية والموقف الأمريكي من القضية الفلسطينية في إدارتي كيندي وجونسون، والمشاركة الفعلية للولايات المتحدة الأمريكية في الحرب وذلك أثناء الحرب وقبلها من خلال الإعداد والتخطيط لها وكيف كان الانحياز التام للصهيونية وما من شك في أن عدوان حزيران ١٩٦٧م، قد وضع القواعد الجديدة للصراع العربي الإسرائيلي، تبقى هذه الدراسة محاولة متواضعة، لاستقراء التاريخ، لاستكشاف الآفاق المستقبلية، والإجابة على السؤال لماذا هذا الموقف الأمريكي، وما هي حقيقته، وأهم مكوناته؟ وقد قسمت الباحثة الدراسة إلى محورين المبحث الأول الدور السياسي، والمبحث الثاني الدور العسكري، واتبعت المنهج التاريخي التحليلي الوصفي. وتكمن أهمية الدراسة في دراسة الموقف السياسي والعسكري للولايات المتحدة الأمريكية قبل وأثناء وبعد حرب١٩٦٧م، ومعرفة مدى التحالف والاستراتيجية الأمريكية–الإسرائيلية في عدوان حزيران١٩٦٧م، ودراسة الدور الأمريكي في هذه الحرب وتداعياته على القضية الفلسطينية والمنطقة العربية.*

**بيانات الدراسة:**
تاريخ استلام البحث: ٠٦ أبريل ٢٠١٧
تاريخ قبـول النشـر: ٣٠ أغسطس ٢٠١٧

**كلمات مفتاحية:**
الولايات المتحدة الأمريكية، عدوان حزيران ١٩٦٧، السياسة الأمريكية، مشروع جونسون، مجلس الأمن الدولي، إسرائيل

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0054804

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**
زينب التومي. "السياسة الأمريكية الخارجية تجاه حرب يونيو ١٩٦٧".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الثاني والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٨. ص ١٢٧ – ١٤٠.

## مُقَدِّمَةُ

يُعرف عدوان الخامس من حزيران ١٩٦٧م في المصادر الغربية بحرب الأيام الستة، وكما ترتب الحرب العربية الإسرائيلية الثالثة وعرفت بالنكسة، كانت كارثة ثانية على فلسطين والأمة العربية بعد النكبة ١٩٤٨، هي حرب خاطفة قامت بها قوات العدو الإسرائيلي بالهجوم على القوات العربية المصرية والسورية والأردنية. إن كل حرب من الحروب ترتبط بالحرب التي سبقتها، لا في مجال السياسة الاستراتيجية أو في مجال القوى المشتركة في الحروب فحسب، وإنما أيضا في مقدمات الحروب ونتائجها.(١)

تكمن أهمية الدراسة في دراسة الموقف السياسي والعسكري للولايات المتحدة الأمريكية قبل وأثناء وبعد حرب١٩٦٧م، ومعرفة مدى التحالف والاستراتيجية الأمريكية-الإسرائيلية في عدوان حزيران١٩٦٧م، ودراسة الدور الأمريكي في هذه الحرب وتداعياته على القضية الفلسطينية والمنطقة العربية. أما الأدبيات السابقة فهي كالتالي:

- دراسة هالة أبو بكر سعودي: السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي الإسرائيلي (١٩٦٧ - ١٩٧٣)، مركز دراسات الوحدة العربية، ط ٢، بيروت، ١٩٨٦: وهذا كتاب

في أصله رسالة دكتوراه، ويدرس الكتاب مختلف جوانب السياسة الأمريكية نحو القضية الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي في تلك الفترة.

- ستيفن غرين في كتابه الانحياز: علاقات أمريكا السرية بإسرائيل تتتبع هذه الدراسة تاريخ وتطور العلاقات الأمريكية الإسرائيلية منذ تأسيس دولة إسرائيل في ١٩٤٨ حتى حرب ١٩٦٧ تركز الدراسة على ما قدمته الولايات المتحدة من عون إلى إسرائيل سواء في مرحلة التأسيس أوفي حروبها العدوانية ضد العرب. ويقدم حقائق في دعم إسرائيل عسكريًا، وعلاقات التحالف بينهما.

## ١-أسباب حرب يونيو ١٩٦٧

### ١/١- الأسباب الحقيقية:

المتتبع لتطور الأحداث التي سبقت الحرب يتبين أن الجذور التي أدت إلى نشوب الحرب تكمن في أطماع إسرائيل التوسعية وأن ما اعتبرته حرب دفاعية خطة مدروسة، لقد صدرت تصريحات كثيرة لمسؤولين إسرائيليين أثبتت أن شن العدوان كان تنفيذ لخطة مدروسة تم إعدادها قبل العدوان بوقت طويل، وبالتحديد في أعقاب العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦م،من هذه التصريحات، بعد قيام حكومة ليفي أشكول بتعديل وزاري بتاريخ١/٦/١٩٦٧م، عين فيه موشي ديان وزيرًا للدفاع، وقد فهم فيه المراقبون أن إسرائيل تتجه نحو عملية عسكرية، صرح يغئال ألون وزير العمل حينذاك، في تل أبيب بتاريخ ٧/٦/١٩٦٧م: "…. كانت الخطط جاهزة قبل دخول الوزراء الجدد، ولم يضف ضمهم إلا وزنا معنويًا….".[٢]

بدأ الشعب الفلسطيني حلقة جديدة في نضاله عام ١٩٦٥م ،تنامي المد القومي كما تنامت قدرات القوات المصرية والسورية، لقد أثارت هذه التطورات قلق الولايات المتحدة وإسرائيل،[٣] رأت القوى الإمبريالية في الأنظمة التقدمية في مصر وسوريا مصدر خطر بالنسبة للمنطقة كلها ،فحاولت هذه القوى لجمها "بالأحلاف"، وحاولت تقويضها بانقلابات الثورة المضادة كما حدث في سوريا١٩٦٦م، ولما فشلت كان لا بد لها من التدخل العسكري الخارجي وكانت إسرائيل أفضل أداة لذلك، فقبل وقوع الحرب بثمانية أشهر أكدت مجلة إسرائيلية معلومات أن خطة الحرب لم تكن إسرائيلية بل أمريكية أيضًا، ففي ٢٩ سبتمبر١٩٦٦م، صدرت مجلة "هعوم لام هزة" الأسبوعية وعلى غلافها: "خطر الحرب الأمريكيون يطالبون بمهاجمة سوريا"، وداخل المجلة تقرير تحت عنوان: "إنذار ! الحرب غير الصحيحة_ في الخطة غير الصحيحة" ومما جاء في التقرير"… في سوريا فشلت محاولة الانقلاب، كانت تلك المحاولة الأخيرة للمخابرات المركزية الأمريكية، لإنقاذ هذه الدولة، مما بدا لها أنه بداية تحويلها إلى جمهورية شعبية في الكتلة السوفيتية… جونسون يتخوف الآن من فشل سافر في سوريا بالإضافة إلى فشله في فتنام سيؤدي إلى خراب حزبه في الانتخابات القادمة.."، وورد في المجلة أيضًا: الأمريكيون يستعدون للمرحلة الحاسمة في حربهم على المنطقة والنفط.[٤]

بالإضافة إلى الحد من النفوذ السوفيتي في المنطقة، فقد سعت الدول الإمبريالية بوسائل مختلفة لمنع الدول المستقلة حديثًا من الوقوع تحت سيطرة العالم الشيوعي ومن هذه الوسائل التدخل العسكري المباشر.[٥]

### ٢/١- الأسباب الذرائعية

قيام جمال عبد الناصر بحشد قواته في سيناء وإغلاق مضائق تيران، روجت لها وسائل الإعلام الإسرائيلية في مختلف أنحاء العالم لإقناع الرأي العام العالمي[٦]. استغلت إسرائيل التصريحات العربية المتعلقة بوجود الكيان الصهيوني كله كانت الدعاية السياسية الموجهة إلى العالم مبنية على النقاط التالية أن وجود دولة إسرائيل مهدد بخطر عربي ساحق، إن إغلاق المضائق عمل يتنافى مع قوانين الملاحة الدولية، إن إغلاق ميناء إيلات يخنق إسرائيل اقتصاديًا[٧]. وعلى الرغم من الضجة الإسرائيلية حول عدوانية إغلاق المضائق واعتباره بمثابة إعلان حرب من جانب الجمهورية العربية المتحدة فإن من المؤكد أن هذا العمل لم يكن السبب الوحيد الكامن وراء حرب ١٩٦٧م، فلقد خطط الإسرائيليون منذ أمد بعيد بناء على دوافع اقتصادية وديمغرافية توسعية ومائية وحددوا أهدافها الاستراتيجية (التوسعية والأمنية) وأعدوا القوى اللازمة لتحقيق هذه الأهداف، وانتظروا الوضع الملائم على الصعيدين العربي والدولي بغية تحديد ساعة الصفر الأفضل لشن حرب ظافرة. لم يكن إغلاق خليج العقبة أمام الملاحة -كما يقول الجنرال متتيا هوبيلد- سوى ذريعة للحرب وإن كانت هذه الذريعة أهم من الذرائع الأخرى (حشد القوات في سيناء،توقيع الدفاع المشترك[٨] تزايد نشاط الفدائيين في شمال البلاد….الخ) في كسب المناورة السياسية الخارجية على الصعيد العالمي.[٩]

دراسات

## ٢-الدور الأمريكي السياسي

**١/٢- قبل الحرب:**

في إدارة كينيدي[١٠]، طرأت بعض التغيرات على السياسة الأمريكية في المشرق العربي، وتتلخص أهم ملامح السياسة الأمريكية في هذه الفترة:

- عدم التمسك بسياسة الأحلاف، والحد من النفوذ السوفيتي في المنطقة العربية وذلك بتطوير العلاقات مع العرب.
- الاستمرار في التمسك بسياسة توازن القوى بين العرب وإسرائيل لمنع انفجار المواجهة بينهما.

وكان لكنيدي تصريح في مؤتمر له بتاريخ ٦ جوان١٩٦٣م، أعلن على نقاط كينيدي الستة منها تأييد الولايات المتحدة لأمن وسلامة إسرائيل وجاراتها، وأنها تسعى للحد من سباق التسلح في الشرق الأوسط، وفي حالة العدوان تؤيد اتخاذ الإجراءات المناسبة من جانب الأمم المتحدة.[١١] ويمكن القول إن السياسة الأمريكية تحت حكم كينيدي قد نهضت على محورين محددين أولهما: اعتماد أسلوب المعونات الخارجية لخلق رأي عام عربي مؤيد للسياسة الأمريكية. ثانيهما: إعادة تشكيل وتوجيه النشاط السياسي لدول العالم العربي بما يرجح كفة الصداقة الأمريكية على نظيرتها السوفيتية.[١٢]

غير أن النفوذ اليهودي في إدارة الرئيس كنيدي بحكم الارتباط التقليدي بين الحزب الديمقراطي واليهود الأمريكيين ،وكان من مظاهره زيادة اليهود العاملين في الإدارة الجديدة، تولى ليندون جونسون منصب نائب الرئيس وهو معروف باتجاهاته المؤيدة لإسرائيل منذ أن كان عضوًا في مجلس الشيوخ .سلكت الخارجية الأمريكية اتجاها معتدلًا تجاه الصراع العربي الإسرائيلي تحت رئاسة كينيدي رغم ضغوطات الكونجرس ،إلا أن اغتيال كينيدي وتولى نائبه جونسون كرسي الرئاسة مكانه ،ثم انتخابه رئيسًا للولايات المتحدة في الفترة(١٩٦٤-١٩٦٨) فكان جونسون منحازًا إلى إسرائيل بشكل واضح ومنه صدر أول تصريح أمريكي رسمي بالوقوف إلى جانب إسرائيل في حالة تعرضها لأي هجوم.[١٣] وتُعَدّ فترة رئاسة جونسون تكريسًا حقيقيًا لمبدأ الالتزام (المحافظة).[١٤] استأثرت الحرب الفيتنامية بمركز الصدارة في الترتيب لدى الزعامة الأمريكية الجديدة، أوقف مبيعات القمح إلى مصر تطبيقًا لنص قرار(٤٨٠) الذي يخول الحكومة حق استخدام معوناتها الخارجية ،في الدول العربية حسب مواقفه من المصالح الأمريكية.[١٥]

مارست الولايات المتحدة الأمريكية أسلوب المناورة والخداع الدبلوماسي من خلال تظاهر أمريكا بالحياد. قبل الحرب أرسل جونسون رسالة للرئيس عبد الناصر بتاريخ ٢٣ مايو ١٩٦٧م، ضمنها تأكيدًا أمريكيًا معارضًا بحزم لأي عدوان يحصل في المنطقة وقد ألحق بهذه الرسالة مذكرة يطالب فيها العمل داخل الأمم المتحدة لتخفيف حدة التوتر وذلك لأن أعمال إرهابية تجري عبر الأراضي السورية وبموافقتها وهو أمر يتنافى مع اتفاقيات الهدنة.[١٦] إشارة إلى تصاعد الأعمال الفدائية. وجاء في الرسالة إن الولايات المتحدة تؤكد التزامها المستمر لمبدأ حرية المرور إلى خليج العقبة لسفن جميع الدول، ويُعَدّ المرور في هذه المياه جزءًا من مصلحة حيوية للمجتمع الدولي والتدخل في هذه الحقوق الدولية قد تكون له عواقب خطيرة.[١٧]

وفي الخطاب الذي ألقاه الرئيس عبد الناصر بتاريخ (٩ جوان/ يونيو) وأعلن فيه استقالته، ذكر صراحةً أنه جاء في مضمون رسالة جونسون تهديدًا "ألا تبدأ مصر القتال وإلا تتحمل نتائج خطيرة"[١٨]، والنتائج الخطيرة تتمثل في التدخل العسكري المباشر الذي يتم باسم وقف إطلاق النار وإنهاء القتال ومؤشر ذلك وقوف الأسطول الأمريكي السادس قرب الشواطئ وهو في حالة الاستعداد الكامل، والهدف من التدخل هو التأكيد على أن إسرائيل لا يمكن أن تترك لوحدها.[١٩] توجه إيبان يوم الجمعة ٢٦ مايو إلى البنتاغون حيث اجتمع بوزير الدفاع روبيرت مكنمار ومدير المخابرات المركزية، وهناك تم اطلاعه أن لا دليل على أن مصر تخطط لهجوم، وقيل لإيبان بأن كلًّ من المخابرات المركزية والبنتاغون بأن إسرائيل تستطيع الفوز بسهولة فيما إذا بدأت الحرب، أيًا كان صاحب الضربة الأولى، وأن القتال لن يستغرق أسبوعًا.[٢٠]

وما كان يجري مع الجانب الإسرائيلي مخالف تمامًا حيث وصل إيبان وزير خارجية إسرائيل إلى البيت الأبيض وأستقبله جونسون ووزير الدفاع مكنمار، ومستشار الأمن القومي والت رستو، ووكيل الخارجية يوجين روستو ومساعد وزير الخارجية جوزيف سيسكو، ووالسكرتير الصحفي جورج كرستيان. وردًا على مناشدة من إيبان أن تفي الولايات المتحدة بالتزاماتها وصف جونسون أن الحصار غير مشروع، وأنه يعكف على خطة لإعادة فتح المضيق وضرورة الظفر بتأييد من الشعب والكونجرس وكرر عبارة راسك: "إن إسرائيل لن تترك وحدها.[٢١] وقدمت مذكرة إلى إيبان مذكرة

جاء فيها "ولابد أن أؤكد ضرورة ألا تجعل إسرائيل مسؤولة عن بدء الحرب.[٢٢]

**٢/٢- أثناء الحرب:**

حرصت الإدارة الأمريكية من خلال معالجتها للأزمة على ضمان عدم تدخل السوفيت حيث أكدت للاتحاد السوفيتي أنها لم ولن تتدخل في الصراع بصورة مباشرة وعملت على إبقاء قنوات الاتصال مفتوحة مع الاتحاد السوفيتي بهدف توضيح واستيضاح المواقف تجنبًا لسوء الفهم، وتجنب مواجهة مباشرة مع السوفيت، وإبقاء التهديد الإسرائيلي للدول العربية في الإطار المقبول.

ويتضح ذلك من خلال المذكرة التي بعثت بها الولايات المتحدة إلى إسرائيل في السابع جوان مفادها أن الولايات المتحدة تعارض أي تقدم إسرائيلي يتخطى نهر الأردن، وكان الإسرائيليون لم يصلوا بعد إلى نهر الأردن فقرؤا في ذلك عدم معارضة استمرار تقدم إسرائيلي حتى نهر الأردن ،لكن لم تحدث أزمة بين القوتين إلا يوم التاسع جوان عند تقدم القوات الإسرائيلية نحو دمشق ،هدد الاتحاد السوفيتي بالتدخل العسكري، قامت الولايات المتحدة بتحريك بعض قطع الأسطول السادس الأمريكي في اتجاه السواحل السورية، كرد على تحريك بعض قطع الاتحاد السوفيتي تجاه البحر الأبيض المتوسط.[٢٣] حين تقدم المندوب الهندي في الأمم المتحدة يوم الخامس من جوان باقتراح يدعو إلى وقف إطلاق النار فوري والعودة إلى المواقع التي كانت قائمة قبل اندلاع القتال، أيدته روسيا فقط، أما الولايات المتحدة التي كانت على الحياد وقد أصبحت الآن متأكدة من توغل إسرائيل في الأراضي العربية، فقد دعت بشكل باهت إلى "نداء بسيط لوقف إطلاق النار".[٢٤] كان ضغط سوفيتي على الولايات المتحدة لإجبار إسرائيل على وقف العدوان ففي العاشر من شهر جوان أرسل كوسيغين رسالة لرئيس جونسون أخبره فيها بكل صراحة كما ذكر هو في رسالته أن قرارات مجلس الأمن لم تعد صالحة وبدون فاعلية لتجاهل إسرائيل لها وأقترح عليه مطالبة إسرائيل بوقف العمليات العسكرية وتحذير إسرائيل بأن الاتحاد السوفيتي سيتخذ التدابير اللازمة في حالة عدم امتثالها لذلك،[٢٥] كما قدم الاتحاد السوفيتي مشروعًا ينادي بوقف إطلاق النار وانسحاب القوات الإسرائيلية إلى خطوط الهدنة، قدمت الولايات المتحدة مشروعًا ينص على وقف إطلاق النار بغير انسحاب واعتراف بإسرائيل، فالمشروع السوفيتي لم ينل أكثرية الثلثين بذلك فشل، وسحبت الولايات المتحدة مشروعها. رفضت أمريكا مشروع قرار دول عدم الانحياز الذي يدين العدوان الإسرائيلي.[٢٦] والمشروع الأمريكي لا يختلف في بنوده عن أهداف السياسة الخارجية التي كانت تسعى لتحقيقها.

**٣/٢- بعد الحرب:**

مع انتهاء الصراع العسكري بدأت كافة الأطراف الإقليمية والدولية في إعادة تقييم موقفها على ضوء الأوضاع والمستجدات التي أسفرت عنها حرب يونيو، تركز موقف الولايات المتحدة بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧م، في محاولة الإبقاء على وضع التفوق العسكري الإسرائيلي ومحاولة تعظيم المكاسب السياسية التي يمكن أن تحققها من وراء انتصارها العسكري على العرب.[٢٧]

تغير الموقف الأمريكي من الصراع، ومن طريقة حل الصراع أو من التسوية، ففي اللقاء الذي جرى بين وزير الخارجية المصري محمود رياض، والمندوب الأمريكي في الأمم المتحدة آرثر جولد بيرغ أثناء انعقاد الدورة الاستثنائية للجمعية العامة، أوضح للوزير المصري أن ما كانت تقبل به أمريكا في جويلية لم تعدّ تقبل به في أكتوبر، فقد أصبحت تشترط واشنطن الآن تحديدات أكثر دقة من جانب الدول العربية المعنية مباشرة بالنزاع حول تصورها للتسوية، أي تفسيرها لمعنى التخلي عن حالة الحرب وعن الضمانات التي على استعداد لان تقدمها كي لا يعود الوضع للخامس جوان مرة ثانية، وقد بررت أمريكا هذا التصلب، بالقرارات التي نجمت عن مؤتمر القمة العربي الذي كان انعقد في أوت في الخرطوم (في مؤتمر القمة العربية المنعقد في الخرطوم تمسك العرب بالقرار رفض الدول العربية الاعتراف أو الصلح أو المفاوضات)، اعتبرته قرار متصلب لا يعبر عن رغبة حقيقية بالسلام.[٢٨]

ويقول محمود رياض في مذكراته أن السياسة الأمريكية كانت تركز على:

١. حل المسألة الفلسطينية على أساس أنها مشكلة لاجئين يمكن توزيعهم على بلدان مختلفة، وقد قال الرئيس جونسون لكوسيجن في محادثات غلاسبور: يجب أن تشترك كل الدول في حل المسألة الفلسطينية. وأنهم موافقون على قبول عدد من اللاجئين الفلسطينيين في الولايات المتحدة، وعدد آخر تقبله كندا وتتحمل أمريكا كل النفقات.[٢٩]
٢. إنجاز حلول منفردة، مع كل الدول العربية على حدة مع تركيز خاص على مصر. وقد أبلغ ذلك دين راسك وزير

الخارجية الأمريكية، لمحمود رياض وزير خارجية مصر، بعد حرب ١٩٦٧م: على كل دولة عربية أن تستقل بنفسها في مناقشة موقفها، فيكون هناك حل مصري-إسرائيلي، وسوري-إسرائيلي، وأردني–إسرائيلي،[٣٠] وتركزت الحلول على إنجاز حل منفرد مع مصر.

٣. التركيز على الوجود السوفيتي في المنطقة، فقد أبلغ روجرز رياض في القاهرة في جوان١٩٧١: "…. لو لم يكن هناك وجود سوفيتي في مصر، لكان بإمكاننا أن نتصرف بطريقة أفضل".[٣١]

## ٣- مشروع جونسون (مبادئ جونسون الخمسة)

اتضح الموقف السياسي الأمريكي تجاه الأزمة رسميا ولأول مرة على شكل نقاط في الخطاب الذي أعلنه الرئيس جونسون عبر الراديو و التلفزيون وذلك عشية انعقاد الدورة الطارئة للجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٩ جوان تناول فيه السياسة الخارجية وحدد خمسة مبادئ كبرى للسلام في الشرق الأوسط.[٣٢] وضع بكل وضوح التبعية الرئيسية في الحرب على مصر، واصفًا إغلاق مضيق تيران بأنه "عمل أحمق "ثم قال إن الولايات المتحدة لن تضغط على إسرائيل لكي تنسحب دون أن يتحقق السلام،[٣٣] وحدد خمسة مبادئ جوهرية لتحقيق السلام عُرفت بمبادئ جونسون هي:[٣٤]

١- حق كل دولة في المنطقة في أن تعيش دون تهديد بالهجوم أو القضاء عليها.

٢- إيجاد حل لمشكلة اللاجئين.

٣- حقوق الملاحة والمرور البري عبر الممرات المائية الدولية لجميع الشعوب.

٤- تحديد نسب التسلح في المنطقة.

٥- احترام الاستقلال السياسي والسلامة الإقليمية لكل دول المنطقة.

دعم جونسون في تفسيره لمفهوم الولايات المتحدة للاستقلال السياسي وسلامة الكيانات الإقليمية لدول الشرق الأوسط، مطالبة إسرائيل بمفاوضات مباشرة مع العرب وادعاءها بتحطم خطوط الهدنة بنتيجة عدوانها على هذه الخطوط، ولا يستبعد أن يكون لتوضيح جونسون موقف أمريكا في هذا الوقت علاقة بتبلور الأوضاع في الدول العربية، وظهور تصلب عربي تجاه ضغوط إسرائيل الرامية لحمل العرب على الجلوس إلى طاولة المفاوضات.[٣٥] ومن الجدير بالذكر أن النقطة الثانية من برنامج السلام الأمريكي والمتعلقة بمشكلة اللاجئين قد جاءت عامة وبدون تحديد ذلك أن الحكومة الإسرائيلية أصبحت ترى بأن مشكلة اللاجئين لا تتعلق بالفلسطينيين منهم فحسب وإنما يجب أن تطال اليهود الذين يقطنون في بعض البلدان العربية والذين يجب أن يعطوا كامل الحق في العودة إلى إسرائيل، ويتضح أن الدبلوماسية الأمريكية قد تجاهلت تعريف من هم اللاجئون الذين تريد إيجاد حل عاجل لهم وذلك لكي تتمكن الحكومة الإسرائيلية من إثارة قضية يهود الدول العربية وافتعال مشكلة حولهم.[٣٦]

## ٤-النهج الأمريكي في التسوية ٢٠ جوان ١٩٦٧م

إزاء المواجهة الدبلوماسية السوفيتية الأمريكية، نظرت الجمعية العامة في سبعة مشروعات منها أربع قرارات تعبر عن الاتجاهات السياسية العامة في الجمعية العامة فيما يتعلق بتسوية الأزمة وهي: القرار السوفيتي الذي يقابله القرار الأمريكي، وقرار دول عدم الانحياز الذي يقابله إلى حد ما قرار دول أمريكا اللاتينية والقرارات الثلاث الأخرى لم تتصدى إلا لبعض نواحي المشكلة.[٣٧]

وقد ابتدأت الدورة الطارئة للجمعية العامة في التاسع من جوان وأشترك في مناقشتها تسعة وستون وفدًا، ومن خلال مشروعات القرارات هذه وكيفية التصويت عليها يتبين للمرء الاتجاهات التي سادت مناقشات الجمعية العامة، وكان الاتجاه الأمريكي ومثله آرثر جولد برج مندوب الولايات المتحدة، فقال إن الموقف الأساسي للولايات المتحدة أوضحه الرئيس جونسون.[٣٨] فأكد على موقف الولايات المتحدة من التسوية وهو الربط بين الانسحاب الإسرائيلي من أرض عربية مع تسوية للصراع العربي - الإسرائيلي وتوقيع اتفاقية سلام دائمة في المشرق العربي وهذا البيان جاء تأكيدًا من الولايات المتحدة على تمسكها بمبادئ جونسون الخمسة كأساس لأي مشروع تسوية، وكانت أمريكا قد عارضت قرارًا سوفيتيًا بعقد دورة غير عادية للجمعية العامة على أساس أن موضوع أزمة الشرق الأوسط معروض على مجلس الأمن، إلا أن هذا الاعتراض الأمريكي لم يجد تجاوب لدى أغلبية الدول الأعضاء في الأمم المتحدة فتقرر دعوة الجمعية العامة إلى الانعقاد في ١٧ جوان ١٩٦٧م، وافتتح ألكسي كوسيغين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي مناقشة الجمعية العامة لهذا الموضوع بإلقاء خطاب هام وتقدم بمشروع قرار يتضمن:

١) إدانة إسرائيل
٢) مطالبتها بالانسحاب
٣) مطالبتها بدفع تعويضات، ومناشدة الأمم المتحدة أن تتخذ الإجراءات لإزالة آثار العدوان.[٣٩]

رفض مندوب الولايات المتحدة باسم بلاده مشروع القرار السوفيتي وقال على الجمعية العامة أن تدعو الدول العربية وإسرائيل إلى العمل معا لإيجاد سلام مستقر ودائم في المشرق العربي وأستند في مشروع القرار الأمريكي إلى المبادئ الخمسة كان قد أعلنها جونسون.[٤٠] رفض جولد بيرغ مشروعًا يوغسلافيًا يدعو إلى انسحاب إسرائيل إلى حدود الهدنة وعدم الاعتراف بعدوان ١٩٦٧م.

## ٥-قمة غلاسبورو٢٣-جوان ١٩٦٧م

اجتماع القمة الهام بين جونسون رئيس الولايات المتحدة وكوسيغين رئيس الاتحاد السوفيتي من أهم محاور لقاء "الشرق الأوسط"، في مدينة غلاسبورو الصغيرة الواقعة في ولاية نيوجيرسي الأمريكية ، قام كوسيغين بالدفاع عن الحقوق العربية،[٤١] وحاول الزعيم السوفيتي الحصول على مساعدة جونسون لإرغام إسرائيل على الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة لكن بدون جدوى وقد عرض جونسون النقاط التالية أمام كوسيغين كأساس لإعلان السلام في المشرق العربي وهي كالتالي:[٤٢]

١- انسحاب كافة القوات وإنهاء حالة الحرب.
٢- الاتفاق بين كافة الأطراف على الإعلان عن احترام حقوق كل طرف بالمحافظة على دولته القومية المستقلة بذاتها.
٣- ضمان السلامة الإقليمية والاستقلال السياسي لكافة الدول في الشرق الأوسط.
٤- ضمان المصالح الحيوية بجميع الدول في المنطقة وحمايتها.
٥- التخلي عن العنف في العلاقات بين دول الشرق الأوسط.
٦- ضمان حقوق جميع الدول في المرور الحر البريّ وفي جميع الممرات المائية والدولية.
٧- تسوية عادلة ودائمة لمشكلة اللاجئين.
٨- اتفاق على أن تعطي الأولوية لتحسين الوطني ومستوى المعيشة قبل سباق التسلح.
٩- حماية الأماكن المقدسة مع ضمانات دولية لحرية الوصول إليها من قبل الجميع.
١٠- نظام دولي تساهم فيه هيئة الأمم لمساعدة الدول المعنية على تحقيق الأهداف المعلنة أعلاه.

طرح مبادئ عامة بدون تحديد أساليب عملية لتنفيذها هو كسب الوقت لتمكين إسرائيل من توطيد مواقعها في المناطق المحتلة، وخلق وضع وواقع جديد أمام العرب والعالم لا مفر منه، ومن خلال مبادئ جونسون الخمسة ومبادئ القمة الأمريكية السوفيتية في غلاسبور السياسة الأمريكية لم تتغير قيد أنملة. وفي العاشر من أوت (أغسطس) ١٩٦٧م، أكد الجنرال إيبان "إننا لن نعود إلى حدود ١٩٤٨م، فهذه فرصة تاريخية لكي نغير خريطة إسرائيل ويمكن الاستنتاج أن هناك تطابق بين وجهتي نظر إسرائيل إدارة جونسون المسألتان هما: (أ) الحاجة إلى مفاوضات مباشرة مع العرب وإسرائيل. (ب) والحاجة إلى حدود آمنة ومعترف بها (لإسرائيل) تكون بديلة لخطوط الهدنة ١٩٤٩م.[٤٣] ذهب المراقبون السياسيين إلى القول بأن اجتماع غلاسبور علامة فارقة في اتجاه إرساء دعائم الوفاق الدولي ،ولاسيما في انعكاساتها على سياسة الدولتين العظميين تجاه الصراع العربي الإسرائيلي، ورجحان الكفة الأمريكية في المنطقة بوجه عام الأمر الذي انعكس في قرار ٢٤٢ في الأمم المتحدة.[٤٤]

## ٦- قرار مجلس الأمن الدولي رقم (٢٤٢)

فشلت الجمعية العامة للأمم المتحدة في تقديم تسوية ترضي جميع الأطراف وتمحو آثار العدوان انتقلت إلى مجلس الأمن، وبعد مناقشة عدة مشروعات، تم إقرار الاقتراح البريطاني بالإجماع وأصبح معروف بالقرار(٢٤٢)، وقد حمل القرار في مضمونه المبادئ الخمسة التي وردت في خطاب جونسون١٩ جوان١٩٦٧م، وظل القرار محور المفاوضات والحلول المقترحة لحل الصراع في الشرق الأوسط.[٤٥] أما الموقف الأمريكي من القرار (٢٤٢)، فإن فشل الجمعية العامة شكل نجاحًا معتبرًا للدبلوماسية الأمريكية - الإسرائيلية حيث منعت الولايات المتحدة أي قرار في غير صالح إسرائيل،[٤٦] صرح جمال عبد الناصر "السلام الذي تريد فرضه إسرائيل هو استسلام مخزي والحل السياسي الذي نسعى إليه يتحقق بعد إجلاء القوات الإسرائيلية من جميع الأراضي المصادرة،[٤٧] فقد كان الاحتلال الإسرائيلي فلسطينية وعربية جديدة نقطة مساومة جديدة تستغلها الولايات المتحدة التي أصبحت هي الطرف الذي ينادي بتسوية شاملة وسلام دائم لإسرائيل مقابل تعديل حدود

١٩٦٧م،[٤٨] وذلك من خلال تطبيق القرار(٢٤٢) والذي كان طرح أمريكي في أساسه وتم إقراره بدعم أمريكي، وصيغ بأسلوب بريطاني.[٤٩]

## ٧-المساعدات الأمريكية لإسرائيل

### ١/٧- قبل الحرب:

من الثابت أن المساعدات الأمريكية لإسرائيل في عهد جونسون قد سارت في خطين متوازيين الأول كفالة التفوق العسكري الإسرائيلي على سائر الجيوش العربية الثاني تقديم ضمانة أكيدة إلى إسرائيل بمؤازرتها عسكريًا حتى تنتزع النصر في أية حرب تخوضها ضد الدول العربية.[٥٠] وصدر منه أول تصريح أمريكي رسمي بالوقوف إلى جانب إسرائيل في حالة تعرضها لأي هجوم.[٥١] اعتمدت إسرائيل على المعونات الألمانية خلال الخمسينيات والستينيات، وهي المساعدات التي قامت بموجبها بتمويل شراء إسرائيل لأسلحة أمريكية (مثال: في عام ١٩٦٣ قامت ألمانيا بموجبها بتقديم ٦٠ مليون دولار لتمويل شراء صفقة دبابات أمريكية الصنع لإسرائيل).[٥٢] وفي سنة ١٩٦٥ تنازلت ألمانيا عن دور الوسيط[٥٣]. كما رفض كينيدي أن يستجيب لطلبات إسرائيل من السلاح حتى كان عام ١٩٦٢ حيث حصلت مصر على طائرات حديثة من الاتحاد السوفيتي وقد وافق الرئيس كينيدي على تزويد إسرائيل بصواريخ هوك المضادة للطائرات لمواجهة التعديل الذي حدث في موازين القوة و كانت الموافقة على إتمام الصفقة مشروطة ومؤقتة حتى أرسل مندوبا للرئيس جمال عبد الناصر ليخبره أن الولايات المتحدة مستعدة لوقف استكمال الصفقة إذا وافقت مصر على الحد من سباق التسلح وهو الأمر الذي رفضه الرئيس عبد الناصر، فكان أن وافق الرئيس كينيدي على إتمام الصفقة برغم عدم حماسة وزارة الخارجية، فقيمة الصفقة كانت ٢٣ مليون دولار مدفوعة الثمن من خلال قرض يسدد على عشر سنوات بفائدة قدرها (٣,٥) بالمائة.[٥٤] اتخذت إسرائيل حملة للضغط على واشنطن ولتبرير دوافعها في نفس الوقت الطابع التقليدي، فبدأت بإبراز القلق الأمريكي من شحنات الأسلحة السوفيتية إلى الدول العربية، ثم انتقلت إلى التلويح بخطر قلب ميزان التسلح في المنطقة بسبب هذه الشحنات، ثم تعميم القضية بإظهار ضرورة تسليح بعض الدول العربية في الشرق، واستخلاص ضرورة تسليح إسرائيل ضمن هذا الإطار الشامل من رفع الحظر عن شحنات الأسلحة الأمريكية للشرق الأوسط.[٥٥]

إن اتصالات متعددة الجوانب قد بدأت منذ مطلع عام ١٩٦٠م، لتزويد إسرائيل مباشرة بالسلاح، إذ زار السفير الأمريكي أفريل هرمان إسرائيل وطمأنها حول الضجة العربية التي حدثت جراء تزويد ألمانيا لإسرائيل بالسلاح، وضرورة ملء الفراغ بانسحاب ألمانيا كمورد للسلاح. وعقد السفير الأمريكي في واشنطن اجتماعات موسعة مع كافة المسؤولين الإسرائيليين وكان وراء ذلك اقتناع الولايات المتحدة بضرورة إعادة تقيم علاقاتها مع دول الشرق الأوسط، وضرورة تزويد إسرائيل بالسلاح، وترأس السفير الإسرائيلي وفد بلاده في واشنطن الذي كلف بمتابعة المفاوضات التي بدأها هريمان في فيفري١٩٦٥م.[٥٦] وكانت نتيجة المفاوضات في ماي١٩٦٦م، إذ صرح ماكلوسكي الناطق الأمريكي الرسمي أن الحكومة الأمريكية قررت بيع قاذفات هجومية لإسرائيل، بررت الولايات المتحدة ذلك بدافع الحفاظ على التوازن في الشرق الأوسط. وتحدثت نيويورك تايمز عن الصفقة "إنها المرة الأولى التي توافق أمريكا علنًا على تزويد إسرائيل بأسلحة ذات طابع هجومي بطائرات السكاي هوك 4-A تحمل قنابل ذرية.[٥٧]

وتعتبر الصفقة مؤشرًا هامًا وتعبر عن تحول واضح في سياسة أمريكا الخارجية في الشرق الأوسط، حيث أصبحت الولايات المتحدة المورد الأساسي للسلاح لإسرائيل، وظروف ذلك:

١. أسلوب جديد في سياسة الاحتواء كبداية لسياسة شاملة (مبدأ نكسون) اتضحت بعد ذلك في خطابات رئاسية بدءًا من خطاب "جوام" في نوفمبر ١٩٦٩م،الذي أبان أن أمريكا لا تستطيع تحمل الثمن الاجتماعي والاقتصادي للتدخل، ولذلك "فإن الآخرين يمتلكون الآن المقدرة والمسؤولية للتعامل مع النزعات المحلية التي كانت تقضي تدخلًا من قبل "ولقد شرحت نيويورك تايمز في يوم ٢٤ديسمبر ١٩٦٩م، تعهد نيكسون في حملته الانتخابية بأن يضمن لإسرائيل "هامشًا من التفوق التقني والعسكري" على الدول العربية، بأن في وسع "قوة إسرائيل بأن تحول دون الهجوم، وأن تمنع الداعي لتدخل عسكري أمريكي مباشر".[٥٨]
٢. وتفهمت إسرائيل قبل إعلان مبدأ نكسون بفترة طويلة الاتجاه الجديد للسياسة الأمريكية. فلقد صرح ناطق بلسان الخارجية الإسرائيلية في ١١جوان ١٩٦٦م، بأن: "الولايات المتحدة توصلت إلى الاستنتاج أنه ليس في وسعها بعد الآن الاستجابة لكل حادثة في أنحاء العالم،

وأن عليها تبعًا لذلك الاعتماد على قوة محلية كخط أول، وذلك لتجنب التورط الأمريكي المباشر. وأن إسرائيل تشعر بأنها ملائمة لهذا التعريف".[٥٩]

٣. إلحاح إسرائيل على بناء قوة عسكرية خاصة بها حيث صرح أشكول لجريدة أمريكية (News world Rport U.S) "أن إسرائيل تنتظر مساعدة من أمريكا وإنجلترا وفي حال تعرضها لهجوم أحد جيرانها، أن إسرائيل ستعتمد في الدرجة الأولى على جيشها"، وعلق على الضمانات والتطمينات الأمريكية بوجود الأسطول السادس بأنه يعتقد أن الأسطول السادس قد لا يكون حاضرًا بالسرعة المطلوبة وعلى إسرائيل أن تعتمد على قوتها الذاتية.[٦٠] وذلك لكسب هامش من المناورة السياسية والعسكرية والابتعاد عن التبعية الأمريكية ومخاطر خضوعها لتوازنات عالمية.

٤. أوقفت ألمانيا توريد السلاح لإسرائيل، فقد شن الرئيس جمال عبد الناصر حملة مكثفة ضد سياسة ألمانيا الغربية، ودعا الدول العربية لقطع علاقاتها معها كحد أدنى لإجراء جماعي واتخذت مصر إجراء إضافيًا تمثل في الاعتراف بألمانيا الشرقية.[٦١]

وقد بدأت حملة إسرائيلية واسعة تتحدث عن التهديد العربي لإسرائيل، وبدأ التوتر المحلي يتصاعد وكان من شأن ذلك قيام مسؤولين أمريكيين بزيارة إسرائيل لاستطلاع الموقف عن كثب ومنهم نائب وزارة الدفاع ومستشار البيت الأبيض لشؤون الشرق الأدنى هارولد ساندروز، وقد انتهت تلك الزيارات باقتناع أمريكي بضرورة تزويد إسرائيل بسلاح سريع ومباشر[٦٢]. وأعلن رابين بعد أسبوعين من زيارة ساندروز: "لم تعد هناك عقبات في وجه تزويد أمريكا لنا بالسلاح، العقبات قد ذللت"، وكشف أشكول النقاب عن قرب حصول إسرائيل على صفقة أمريكية طائرات قاذفات سكا يهوك والمتعاقد عليها خلال سنة.[٦٣]

### ٢/٧- في الحرب:

أكدت الوقائع التاريخية أن الولايات المتحدة قد شاركت فعليًا في الحرب ،فالمخابرات الأمريكية غذت نظيرتها الإسرائيلية بكل ما تحتاجه من معلومات عن تحركات الجيش المصري قبيل وقوع الحرب، وجندت آلاف المتطوعين من جنوب أفريقيا وردوسيا ليحاربوا في صفوف الجيش الإسرائيلي وذلك لموازنة التفوق العددي للجيوش المصرية والسورية والأردنية، وعضد الأسطول الجوي الأمريكي الجهد الحربي الإسرائيلي بفيض من العتاد الحربي،[٦٤] وجود الأسطول السادس الأمريكي وسفينة التجسس "لبيرتي" قبيل نشوب الحرب على مقربة من الشواطئ المصرية، وقد اتضح الدور الذي أدياه أثناء القتال لصالح إسرائيل، وأرسلت الولايات المتحدة منذ اندلاع الحرب أسلحة وطائرات وطيارين وذلك عن طريق قاعدتيها العسكريتين من ليبيا آنذاك، ديفيد، وكذلك ويلز بالإضافة لإرسالها عددًا من المتطوعين.[٦٥] إن خطة الحرب ١٩٦٧م، كلها قد وضعت في وزارة الدفاع الأمريكية وأن العسكريين والخبراء الأمريكان قد باركوها فقد نشبت نتيجة استجابة العسكريين الإسرائيليين التامة للمخططات الأمريكية.[٦٦]

كانت الصحافة الأمريكية قد نشرت قبل أيام من اندلاع القتال سلسلة من الأخبار والمعلومات الموثوقة والتي تدل على أن مخطط العدوان الإسرائيلي كان مدار مناقشات كبيرة على أعلى المستويات الحاكمة في الولايات المتحدة، وفقًا للصحيفة الأمريكية «Life» كانت إسرائيل أحاطت الرئيس جونسون علمًا بنيتها الهجوم وأن الرئيس الأمريكي قد وافق على ذلك بسبب قناعته بالتفوق العسكري الإسرائيلي وورد في الصحيفة نفسها بأن جونسون كان قد طلب رأي هيئة الأركان الأمريكية ومدير المخابرات المركزية حول هذا الموضوع وقد وافقوا بدورهم على قيام إسرائيل بالهجوم وحصلت الحكومة الإسرائيلية على ضمانات أمريكية بأنه إذا دخلت الجيوش العربية أراضي فلسطين المحتلة فإن الأسطول السادس سيتدخل لمواجهتها.[٦٧]

وذكرت مجلة نيوزويك الأمريكية في عددها الصادر يوم ١٢ جوان ١٩٦٧م، "إن خطة الحرب دخلت البيت الأبيض في اجتماعات رأسها جونسون، وأشترك فيها قائد القوات المسلحة ورئيس هيئة الأركان، والخطة كما أوضحها رئيس هيئة الأركان للرئيس قبل أسبوعين أن تبدأ إسرائيل بالعمليات العسكرية الجوية، وأن القوى التي وضعت لمساندة إسرائيل كفيلة بإنهاء المعركة بعد أربعة أيام.[٦٨] أرسلت المخابرات الأمريكية (٢٠٠) طائرة إضافية لإسرائيل و١٠٠٠ متطوع من الملاحين العسكريين والطيارين وكانت غالبية المتطوعين من القوات الجوية الأمريكية من قواتها في أوروبا وأن إسرائيل أعلنت عن وصولهم وقالت أنهم جاؤوا ليعملوا في المزارع والمصانع.[٦٩]

وتم اتفاق أمريكي إسرائيلي يقضي بأن تتكفل حاملات الطائرات الأمريكية بحماية الأجواء الإسرائيلية وتتفرغ كل القوى للهجوم.[٧٠] وتمثل مدى الضلوع الأمريكي في صميم

العمليات العسكرية حسب تقارير الاستطلاع البحري سجلت واقعة وهي اقتراب اثنين من حاملات الطائرات الأمريكية من شواطئ إسرائيل أعطت انطباع بأنهما شاركتا في العمليات الجوية على الجبهة الأردنية.[٧١] فكانت خطة العمليات الإسرائيلية التي استقر عليها الرأي بعد أن تم الاتفاق في البيت الأبيض في البيت الأبيض على أن تبدأ إسرائيل ثم يلحق بها جونسون، كان الخوف أن يتسرب شيء (عن طريق السوفيت أو غيرهم) إلى مصر حول موعد الضربة الجوية الأولى، لأن ذلك يتيح لمصر إمكانية الرد ومهاجمة المطارات الإسرائيلية وكانت حاملتا الطائرات الإسرائيلية "سار توجا" وكانت تقف مقابل ميناء أسدود و"أمريكا" تقف بالقرب من ميناء حيفا شمالًا، ثم قامت أسرابها بنشر حماية جاهزة ليس فقط لتامين القواعد الإسرائيلية التي ذهبت طائراتها إلى الضربة الأولى ضد مصر وإنما أيضا بتأمين أي أهداف داخلية في إسرائيل قد تغير عليها في تلك الساعة بالتحديد أي طائرات عربية.[٧٢]

**(٢/٧) ١- عملية صيد الديك الرومي:**

أطلق واضعو خطة الحرب الأمريكان والإسرائيليون على حرب ٥ يونيو عملية صيد الديك الرومي ،حين فرغت الطائرات الإسرائيلية من توجيه ضربتها يوم الاثنين ٥ جوان مساءً، أرسل والت رستو مستشار الأمن القومي لجونسون تقريرًا وأرفقه خريطة عن حصيلة اليوم الأول "صيد الديك الرومي" وكان تعبير ظهر لأول مرة في الوثائق الأمريكية المكتوبة، ولم يكن جونسون بحاجة لشرح أو ترجمة المصطلح.[٧٣] وأتضح للولايات المتحدة أنها تستطيع تحقيق معظم أهدافها إذا تركت إسرائيل توجه ضربتها وقد تمثلت هذه الأهداف في ما يلي: إحراج الاتحاد السوفيتي وإظهار تفوق السلاح الأمريكي والغربي ولإظهار عبد الناصر بمظهر العاجز، وإسقاط نظامه إن أمكن وتمكين إسرائيل من الاستيلاء على أراضي عربية واسعة تصلح كرهينة تفاوض بها على سلام شامل تقتلع به حالة الحرب القائمة منذ أكثر من ربع قرن من جذورها.[٧٤]

اشتركت أربع طائرات تجسس أمريكية من طراز (RF-4C'S5) مزودة بأحدث الأجهزة الإلكترونية ويقودها طيارون أمريكيون ومعهم مجموعة كاملة من خبراء التصوير والفنيين الأمريكيين في الحرب إلى جانب إسرائيل. وقد بقيت هذه الطائرات ،التي أقلعت من ميناء مورون moron الإسبانية بعد طلائها بالألوان الإسرائيلية مساء ٤ جوان وقد قامت هذه الطائرات بطلعات يومية بلغ معدلها من ٨ إلى ١٠ طلعات، وكانت تصور كل طلعة ما يقرب ٥٠٠ قدم من الأفلام الخام[٧٥]، وكانت مهمة هذه الطائرات في المرحلة الأولى التركيز على تصوير المطارات العربية لإحكام عملية تدمير كامل لها وما إن انتهت هذه المهمة بنجاح حتى باشرت عمليات التصوير الليلي لمواقع تجمعات القوات العربية، والتي كانت تقوم ليلًا بمحاولة إعادة تنظيم صفوفها بعيدًا عن قصف الطيران الإسرائيلي، وذلك لتسهيل تدميرها مع خيوط الصباح الأولى في اليوم التالي.[٧٦]

**(٢/٧) ٢- نشاط السفينة لبيرتي:**

كانت "ليبرتي" واحدة من عدة سفن شحن أمريكية بنيت في أواخر الأربعينيات، ونظرًا لسرعتها القصوى التي تبلغ ١٨ عقدة بحرية في الساعة فقد قامت البحرية الأمريكية بتحويلها إلى سفينة تجسس، وزودتها بالهوائيات اللازمة وبجهاز تنصت إلكتروني من طراز (Big EAR) «بيغ اير»، وكانت هذه السفينة تابعة للأسطول الأمريكي السادس.[٧٧] وفي صباح الخامس من جوان١٩٦٧م، كانت ليبرتي تقف في المياه الدولية مقابل ساحل سيناء وتباشر أعمالها التالية:

- مراقبة تحركات الأسطول السوفيتي وإنذار الأسطول السادس الأمريكي في حالة تدخله لصالح مصر، ويستبعد الكاتب محمد حسنين هيكل هذا الاحتمال وذلك لوجود حقيقة تضاف إلى هذا ما أظهره تقرير لجنة الكونجرس وهي أن "ليبرتي" لم تلتقط أي رسالة عن تحركات الأسطول السوفيتي في البحر الأبيض المتوسط، فقد كانت هذه المهمة قائمة من قبل وكان هناك من هو مكلف بها طول الوقت في قيادة الأسطول السادس. وهكذا فإن القرائن تشير إلى إسرائيل باعتبارها الطرف الآخر وتقضي متابعة تصرفات إسرائيل لكي لا تخرج عن السيناريو المقرر للحوادث، لأن تقرير لجنة الكونجرس يقول إن معظم البرقيات التي التقطتها "ليبيرتي" كانت تتعلق بتحركات القوات الإسرائيلية على الجبهة الأردنية بالتحديد.[٧٨]
- التشويش على الاتصالات اللاسلكية للقوات المصرية العاملة في سيناء[٧٩]، وحسب تقرير لجان الكونجرس يتضح من مواصفات "ليبرتي" التي نوقشت في لجان التحقيق لم تكن تحمل أي أجهزة للتشويش الراداري أو غيره فليست تلك مهمتها وإنما مهمتها التي جهزت لها الحصول على المعلومات عن طريق سرقة الشفرات وتحليلها ومتابعة تطورات القتال وإرسالها إلى قاعدة "فورت ميد" مباشرة للولايات المتحدة دون المرور بقيادة

الأسطول السادس[٨٠]، وأكد "الكومندار ماجو نجيل قائد "ليبرتي" أن التعليمات التي تطلب منه أن يراقب بعيون مفتوحة تحرك وتقدم القوات الإسرائيلية على الجبهة الأردنية تنص على عدم فتح جبهات أخرى غير جبهة سيناء وعدم تسديد أية ضربة إلى القوات الأردنية حرصًا على صداقة الملك حسين لكن إسرائيل أرادات استغلال الوضع وتسديد ضربة إلى سوريا والأردن، تؤمن لها تطبيق سياستها التوسعية.[٨١]

أما المهمة المعلنة للسفينة، فقد جاء في الوصف الرسمي الصادر عن البنتاغون أنها مكلفة القيام بعمليات أبحاث تقنية تساند مشاريع الأبحاث الإلكترونية في البحرية الأمريكية التي تتضمن دراسات عن انتشار المغناطيسية الكهربائية وأنظمة اتصالات متطورة الاتصالات عبر الأقمار الصناعية[٨٢] قد اكتشفت حقيقة غريبة مؤداها أن إسرائيل تتدخل لـ "طبخ" الرسائل الشفرية المتبادلة بين القاهرة وعمان. تعترض البرقيات وتحول معانيها في لحظات وتعيد إرسالها على نفس الترددات المتفق عليها بين مصر والأردن بما يعطيها معنى مختلفًا اختلافًا كليًا عما قصد إليها مرسلوها. وبما يضلل المرسل إليهم بحيث يتصرفون بالضبط كما تريد إسرائيل.[٨٣] تلتقط الرسائل اللاسلكية المتبادلة بين الزعماء العرب وتعيد بثها بعد تحويرها ففي اليوم الأول للحرب ٥ جوان أرسلت القاهرة رسالة لاسلكية إلى عمان ودمشق تتحدث فيها عن خطورة الوضع على الجبهة المصرية فاعترضت محطة الخداع اللاسلكي الإسرائيلية هذه الرسالة وأعادت بثها بعد أن صاغتها بكلمات أخرى تفيد بأن الوضع في سيناء جيد للغاية وأن ضربة الطيران الإسرائيلي ضد مصر فشلت وخسرت فيها إسرائيل ثلاثة أرباع قوتها الجوية وهناك ثلاثمائة طائرة بإمكانها إمداد مساعدة جوية للجبهة الأردني، وكان لهذا الطبخ قصد مقصود مطلوب منه إغراء الأردن على التورط في توسيع القتال على جبهتين ما يعطي لإسرائيل عذرًا في التقدم أسرع و أجرأ في الضفة الغربية.[٨٤]

وقد تأكدت لبيرتي من المعلومات وتحليلها عن طريق متابعة برقيات وإشارات متعددة، وبعثت إلى "فورت ميد" وزارة الدفاع بما توصلت إليه. كلف رئيس هيئة الاتصال العسكري الأمريكي في تل أبيب بمقابلة وزير الدفاع موشي ديان وأن يقابل مدير الموساد "مائير آمنت" وأن ينقل إليهما شكوك واشنطن دون إطلاع أي منهما على المصدر.[٨٥] و بعد أربع ساعات من هذه المقابلة، صدرت الأوامر إلى الطيران الإسرائيلي بوجود سفينة تجسس أمريكية تعمل في المياه الدولية مقابل سيناء وضرورة مراقبتها.[٨٦]

ولقد وجد الإسرائيليون أن تدمير "ليبرتي" أمر ضروري وحيوي جدًا لأن استمرار وجودها في مياه البحر الأبيض المتوسط سوف يفسد عليهم مخططهم، ويكشف مدى تجاوزهم لأغراض الحرب المحدودة والمتفق عليها سلفًا فأعطت القيادة الإسرائيلية الأوامر بتدمير السفينة بشكل يدفع الأمريكيين إلى اتهام المصريين والسوفيت وأن يجعل الموقف الأمريكي الإسرائيلي أشد تماسكًا وأن معلومات وصلت من الملحق العسكري الأمريكي في تل أبيب ٧ جوان تشير إلى عزم إسرائيل مهاجمة السفينة لبيرتي ما لم تتحرك بعيدًا عن منطقة القتال.[٨٧]

وفي الساعة الثانية وعشر دقائق من يوم الثامن جوان قامت ثلاث طائرات ميراج إسرائيلية بمهاجمة السفينة لبيرتي أصيب بعض ضباطها وبحارتها وقررت المؤسسة العسكرية الإسرائيلية والمخابرات إغراق السفينة لبيرتي لإخفاء هوية المهاجمين[٨٨]. وصلت برقية من الأمن البحري السري للسفينة لبيرتي إلى قائد البحرية ماكدونالد تتحدث عن عجز السفينة لبيرتي عن القيام بمهمتها وترصد الأضرار التي لحقت بها حيث تعرض طابقها العلوي والسفلي إلى التدمير وتقدر عدد القتلى بـ ١٠ والمصابون بجروح خطيرة بـ١٥ وبلغ عدد الجرحى ٧٥ ولم يعرف عدد المفقودين.[٨٩]

الطريقة التي عولجت بها مأساة لبيرتي أبرزت مدى التواطؤ الأمريكي الإسرائيلي، وكان أول بيان صدر عن مساعد وزير الدفاع للشؤون العامة فيليب جولدنج وجاء فيه: "إن القوات الإسرائيلية أبلغت الولايات المتحدة أن قواتها هاجمت عن طريق الخطأ قطعة بحرية أمريكية صغيرة شرق البحر المتوسط وقدمت أسفها العميق واعتذارها لشعب الولايات المتحدة وأبدت استعدادها لتحمل التعويضات عن الباخرة وعن إصابات تكون قد لحقت بطاقمها[٩٠]. ومن جهة ثانية يرى جون بلالوك أحد الضباط الناجين أن الولايات المتحدة أخفت الحقيقة عن الشعب الأمريكي حتى تتجنب الإحراج أمام الرأي العام وتمنع إثارة جماعات الضغط الصهيوني اللوبي الإسرائيلي والمنظمات الصهيونية.[٩١]

**٣/٧- بعد الحرب:**

بعد حرب حزيران، واستنادًا إلى ما قاله نيكولاس كانزنباغ نائب وزير الخارجية في خطاب له في ستانفورد كاليفورنيا، كانت الولايات المتحدة مضطرة لاستئناف شحن المعدات

العسكرية إلى الشرق الأوسط (إلى إسرائيل بشكل أساسي) وذلك بسبب قيام الاتحاد السوفيتي بإرسال السلاح إلى الجمهورية العربية المتحدة ودول أخرى في المشرق العربي.[٩٢] وفي ١٩٦٨م وافقت الحكومة الأمريكية على تزويد إسرائيل بطائرات سكاي هوك، وفي ديسمبر ١٩٦٨م، أعلنت الإدارة قرارها بتزويد إسرائيل بخمسين طائرة فانتوم، على أن تسلم ١٦ طائرة في سبتمبر ١٩٦٩م، وبعد ذلك يتم تسليم أربع طائرات كل شهر وأيد الكونجرس هذا القرار.[٩٣] وفي الرابع من جانفي ١٩٦٨م، قام ليفي أشكول بزيارة الولايات المتحدة، وفي ١٢ من جانفي صدر بيان رسمي أعلن أن حكومة الولايات المتحدة وافقت على تزويد إسرائيل بأعداد إضافية من طائرات سكاي هوك (١-٤) القاذفة، وفي الوقت ذاته ذكرت الفاينشال تايمز اللندنية في نبأ لها أن إسرائيل تمارس ضغطًا شديدًا على الولايات المتحدة لكي تضاعف مدها بالطائرات والسلاح، وكان يبدو هذا ضروريًا في ضوء الحظر الفرنسي الذي فرضه ديجول ومضاعفة الجهود الروسية لإعادة بناء القوات المسلحة في الجمهورية العربية المتحدة وبعض الدول العربية الأخرى.[٩٤]

في ١٢ ديسمبر صدر بيان رسمي أعلن فيه أن حكومة الولايات المتحدة قد وافقت على تزويد إسرائيل بالأسلحة وبدأت إسرائيل حملة واسعة من أجل الحصول على أسلحة جديدة، وقد اتخذت الحملة طابع تضخيم واسع وفي ٢٣ أكتوبر وعلى إثر إغراق البحرية المصرية للمدمرة إيلات، بحث وزير خارجية إسرائيل، مع دين راسك فيما وصفه الوضع الجديد الناجم عن إغراق المدمرة الإسرائيلية، وشدد إيبان على أن الصاروخ روسي الصنع، وأن تزويد الاتحاد السوفيتي للدول العربية بالأسلحة هو أحد أسباب التوتر في الشرق الأوسط، وأعلن أنه سيبحث قضية تزويد إسرائيل بأسلحة جديدة ضمن سياسة أمريكية رامية إلى تجنب أي إخلال بتوازن الأسلحة في الشرق الأوسط.[٩٥]

وفي مطلع نوفمبر وافقت لجنة الاعتمادات (Appropriations) في مجلس النواب الأمريكي على حظر مبيع السلاح الأمريكي بسبب قروض أو مساعدات السلاح لجميع الدول النامية، ما خلا إسرائيل، إيران، تايوان (الصين الوطنية)، كوريا الجنوبية والفلبين أي الدول المرتبطة بالولايات المتحدة بمعاهدات رسمية والتزامات سياسية ووافقت اللجنة، رغم معارضة الحكومة الأمريكية.[٩٦]

## خَاتِمَةٌ

شاركت الولايات المتحدة مشاركة فعلية في حرب ١٩٦٧ سواء في التخطيط والتنفيذ، وكانت نتائج هذه الحرب كارثية على القضية الفلسطينية والعربية وأدى عدوان حزيران الإسرائيلي إلى تفاقم المشكلات السياسية والإنسانية التي كانت قائمة قبل الحرب. فقبل يونيو ١٩٦٧م، كان الصراع العربي الإسرائيلي يدور أساسًا حول شرعية دولة إسرائيل التي أقامتها أقلية غربية وطرد الفلسطينيين من ديارهم ورفض السماح لهم بالعودة إلى وطنهم، ولكن بعد جوان١٩٦٧م، لم يقتصر الصراع على المشكلات الأساسية لقضية فلسطين، تم احتلال أراضي عربية جديدة. فبالإضافة إلى استيلاء القوات الإسرائيلية على القدس والضفة الغربية بكاملها، تمكنت من احتلال شبه جزيرة سيناء وثبتت دفاعاتها على حافة قناة السويس، بذلك فقدت مصر السيطرة على الملاحة في قناة السويس، وخسارة سوريا لمرتفعات الجولان الاستراتيجية بذلك فقدت سوريا أيضًا السيطرة على منابع نهر الأردن عند بنياس.

قامت الولايات المتحدة الأمريكية بدور سياسي هائل في استصدار قرار مجلس الأمن الدولي رقم (٢٤٢) ١٩٦٧، الذي تضمن مبادئ جونسون التي أعلن عنها يوم ١٩جوان ١٩٦٧، وتنص تلك المبادئ على توطين اللاجئين في الدول التي لجأوا إليها تلاعبت إسرائيل بنص القرار وفسرت الانسحاب من الأراضي العربية بالانسحاب من أراضي عربية محتلة، كم نص القرار على الاعتراف بإسرائيل ضمن حدود ثابتة معترف بها، فالمبادئ تنكر حق العودة للشعب الفلسطيني وتقرير مصيره.

## الهَوامِشُ

(١) **الموسوعة الفلسطينية**، القسم العام، ط١، دمشق، هيئة الموسوعة الفلسطينية، ١٩٨٤، مج٢، ص١٧٠. يُنظر أيضًا: عبد الوهاب الكيالي: **موسوعة السياسة**، ط١، بيروت، دار الهدى، ب.ت، ج٢، ص٢٠٧.

(٢) مآرتس ١٩٦٧/٦/٩م، نقلاً عن: يوسف حمدان، **"حرب حزيران ١٩٦٧م: حرب دفاعية ..أم غزوة إمبريالية توسعية فاشلة؟**، مجلة شؤون فلسطينية، العدد: ٤٦، حزيران ١٩٧٥م، ص٦٥.

(٣) عبد الوهاب الكيالي، **موسوعة السياسة**، مرجع سابق، ج٢، مرجع سابق، ص٢٠٧.

(٤) يوسف حمدان، **حرب حزيران**، مرجع سابق، ص٦٧.

(٥) يوسف حمدان، المرجع نفسه، ص٦٨.

(٦) صادق الشرع، **حروبنا مع إسرائيل، معارك خاسرة وانتصارات ضائعة**، ط١، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٧، ص٤٥١.

(٧) المقدم هيثم الأيوبي، **"إغلاق مضائق تيران: السبب والذريعة"**، مجلة شؤون فلسطينية، العدد ٢٢ حزيران/ يونيو١٩٧٣. ص٣٨.

(٨) حيث يذكر موشي ديان في مذكراته مع انضمام الملك حسين لاتفاقية الدفاع المشترك ووضع الجيش الأردني تحت القياد المصرية لم يعد في وسع إسرائيل البقاء بدون عمل إيجابي وتترك نفسها عرضة لهجوم من الشمال والجنوب والشرق ولم يعد السؤال في إسرائيل موضوع إغلاق مضائق تيران أو إذا كانت حرب أم لا هل ننتظر الهجوم العربي أو نبدأ نحن بالضربة الأولى؟ يُنظر: **ديان يعترف**، إعداد شوقي إبراهيم، ومراجعة: عزيز عزمي، القاهرة، دار التعاون، ص١٨٦.

(٩) المقدم هيثم، **إغلاق مضائق تيران: السبب والذريعة**، ص٣٧.

(١٠) **كيندي**: جون (١٩١٧-١٩٦٣) الرئيس الخامس والثلاثون للولايات المتحدة الأمريكية ابن جوزيف كينيدي سفير أمريكا، أتخذ موقفًا إيجابيًا معتدلاً بالنسبة لقضية الجزائر في أواخر الخمسينيات وفي عهده بدأ التورط الأمريكي في فيتنام. يُنظر: عبد الوهاب الكيالي، **موسوعة السياسة**، ج٥، ص٣٥٨.

(١١) **ملف وثائق فلسطين**، وزارة الإرشاد القومي الهيئة العامة للاستعلامات، الجزء الثاني (١٩٥٠-١٩٦٩) الجمهورية العربية المتحدة، ج٢، الوثيقة رقم ٣١١، ص١٢٦١.

(١٢) درية شفيق بسيوني، **"الدبلوماسية الأمريكية تجاه أزمة الشرق الأوسط"**، "السياسة الدولية، العدد ٨٠، أبريل ١٩٨٥، ص٣٠.

(١٣) جمال عبد الجواد، «**البيروقراطية وصنع القرار**"، مجلة السياسة الدولية، العدد ٧٨، أكتوبر ١٩٨٤، ص١٢٢.

(١٤) عمر الخطيب، **الولايات المتحدة وأزمة الشرق الأوسط**، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية، العدد (٢٠)، كانون الثاني، ١٩٧٧، ص٣٧.

(١٥) درية شفيق بسيوني، **الدبلوماسية الأمريكية تجاه أزمة الشرق الأوسط**، مرجع سابق، ص٣١.

(١٦) **ملف وثائق فلسطين**، مصدر سابق، ج٢، الوثيقة رقم ٣٦٩، ص:١٥٥٣، ١٥٥٥.

(١٧) **ملف وثائق فلسطين**، مصدر سابق، ج٢، الوثيقة رقم ٣٦٩، ص: ١٥٥٥.

(١٨) طالب يونس، **"سياسة أمريكا الخارجية والمواجهة العربية الإسرائيلية في عهد جونسون"**، مجلة شؤون فلسطينية، العدد، ٢٦، تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣، ص٥١.

(١٩) طالب يونس، **"سياسة أمريكا الخارجية والمواجهة العربية الإسرائيلية في عهد جونسون"**، مرجع سابق، ص٥١.

(٢٠) وليام. كوانت، **عملية السلام الدبلوماسية الأمريكية والنزاع العربي الإسرائيلي منذ ١٩٦٧**، ط١، القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر،١٩٩٤م، ص٤٨.

(٢١) وليام. كوانت، نفسه، ص٥١.

(٢٢) وليام. كوانت، نفسه، ص٥١.

(٢٣) ممدوح محمود مصطفى منصور، تصدير محمد طه بدوي. **الصراع الأمريكي السوفيتي في الشرق الأوسط**، القاهرة مكتبة مدبولي، ص٣٥١.

(٢٤) طالب يونس، **"سياسة أمريكا الخارجية والمواجهة العربية الإسرائيلية في عهد جونسون"**، مرجع سابق، ص٥٢.

(25) Document,N° 243 Message From Premier Kosygin to President Johnson, FOREIGN RELATIONS OF THE UNITED STATES, 1964–196vVOLUME XIX, ARAB-ISRAELI DISPUTE , 1967 243.,P409.

(٢٦) **الموسوعة الفلسطينية**، مرجع سابق، ج٢، ص١٨١. يُنظر أيضًا: **الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٧**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ص١٠٢٤-١٠٣٢.

(٢٧) ممدوح محمود مصطفى منصور، **الصراع الأمريكي السوفيتي في الشرق الأوسط**، مرجع سابق، ص٣٥٦.

(٢٨) هناك عامل آخر يفسر التصلب الأمريكي فقد كان الرئيس جونسون مدينا أكثر لأصوات الناخبين اليهود ولاسيما في ولاية نيويورك، فدعا بعد توليه الرئاسة بعض الشخصيات الصهيونية في مناصب هامة من أمثال والت رست وكان مستشار لجونسون، وأخيه أوجين روستو في وزارة الخارجية وبعد حرب حزيران عين آرثر جولد بيرغ مندوبا دائما لأمريكا في مجلس الأمن معروفًا باتجاهاته الصهيونية. يُنظر: د.عمر الخطيب، **"الولايات المتحدة الأمريكية وأزمة الشرق الأوسط"**، مرجع سابق، ص ٤٠-٣٩.

(٢٩) مذكرات محمود رياض، **البحث عن السلام والصراع في الشرق الأوسط،١٩٤٨-١٩٧٨**، ط٢، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٥، ج١، ص١٠٩.

(٣٠) **مذكرات محمود رياض**، نفسه، ج١، ص١٨١.

(٣١) **مذكرات محمود رياض**، نفسه، ج١، ص٣٥٠-٣٥١.

(٣٢) د.عمر الخطيب، **"الولايات المتحدة الأمريكية وأزمة الشرق الأوسط"**، مرجع سابق، ص٤١.

(٣٣) وليام كوانت، **الدبلوماسية الأمريكية والنزاع العربي الإسرائيلي**، مرجع سابق، ص ٦٤.

(٣٤) **ملف وثائق فلسطين**، مصدر سابق، ج٢، ص١٥٦١.

(٣٥) **الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٧م**، مرجع سابق، ص٧٣٠.

(٣٦) د.عمر الخطيب، **"الولايات المتحدة الأمريكية وأزمة الشرق الأوسط"**، مرجع سابق، ص٤١.

(٣٧) د.بطرس بطرس غالي، **"القضايا العشر في تسوية أزمة الشرق الأوسط"**، مجلة السياسة الدولية، العدد ٢٤، أفريل ١٩٧١، ص٦.

(٣٨) محمد نصر مهنا، **مشكلة فلسطين أمام الرأي العام ١٩٤٥-١٩٦٧**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٩، ص٦٧٢.

(٣٩) د.بطرس بطرس غالي، **"القضايا العشر في تسوية أزمة الشرق الأوسط"**، مرجع سابق، ص٦.

(٤٠) محمد نصر مهنا، **مشكلة فلسطين أمام الرأي العام**، مرجع سابق، ص٦٧٥.

(٤١) ممدوح محمود مصطفى منصور، **الصراع الأمريكي السوفيتي في الشرق الأوسط**، مرجع سابق، ص٣٥٤.

(٤٢) ليلى سليم القاضي، **"تقرير حول مشاريع التسويات السلمية للنزاع العربي الإسرائيلي"**، مجلة الشؤون الفلسطينية العدد (٢٢)، أيار ١٩٧٥، ص١٠٢.

(٤٣) د.عمر الخطيب، **"سياسة أمريكا الخارجية والمواجهة العربية الإسرائيلية في عهد جونسون"**، مرجع سابق، ص٥٦.

(٤٤) عبد الوهاب الكيالي، **موسوعة السياسة**، مرجع سابق، ج٤، ص٣٥٦.

(٤٥) **الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٧م** ص٧٣٠. يُنظر أيضًا: **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين: فلسطين ١٩٤٧-١٩٧٤**، المجلد الأول ١٩٤٧-١٩٧٤، ط٣، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ١٩٩٣، مج١، ص١٩٧-١٩٨.

(46) Erik Roulean, l'affrontement soufièto-American au moyen –orient explique la prise de position Gulliste, le mond diplomatique, aout 1967.

(47) Ibid, p1 .

(٤٨) زها بسطامي: **فلسطين والسياسة الأمريكية من ويلسون إلى كلينتون**، سليمان مخائيل وآخرون، فلسطين والسياسة الأمريكية من ويلسون إلى كلنتون، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٦، ص١٨١-١٨٢.

(٤٩) فايز صايغ: **"السياسة الأمريكية والصراع العربي الإسرائيلي في عهد كارتر"**، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية، بغداد، العدد (٣٠)، أيلول/ تشرين الأول ١٩٧٨. ص٣٩.

(٥٠) درية شفيق بسيوني، **"الدبلوماسية الأمريكية تجاه أزمة الشرق الأوسط"**، مرجع سابق، ص٣١.

(٥١) د. جمال عبد الجواد: **"البيروقراطية وصنع القرار"**، مرجع سابق، ص١٢٢.

(٥٢) عبد الوهاب المسيري، **الجماعات الوظيفية اليهودية نموذج تفسيري جديد**، ط٢ القاهرة، دار الشروق، ٢٠٠٢، ص٥٠٩.

(٥٣) **الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٧**، مرجع سابق، ص٧٣٨.

(٥٤) د.جمال عبد الجواد: **"البيروقراطية وصنع القرار"**، مرجع سابق، ص١٢٢.

(٥٥) **الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٧**، مرجع سابق، ص٧٣٨.

(٥٦) **الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٥**، مرجع سابق، ص٥٠٠-٤٩٧.

(٥٧) **الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٦**، مرجع سابق، ص٤٠١-٤٠٠.

(٥٨) نصير عاروري، **"اتفاقية سيناء كشكل من أشكال سياسة الاحتواء الأمريكية"**، مجلة شؤون فلسطينية، أفريل/ نيسان، ١٩٧٦م، العدد:٥٦. ص٣٣.

(٥٩) نصير عاروري، **"اتفاقية سيناء كشكل من أشكال سياسة الاحتواء الأمريكية"**، مرجع سابق، ص٣٣-٣٤.

(٦٠) **الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٧**، مرجع سابق، ص٧٠٢.

(٦١) توفيق أبو بكر، **الولايات المتحدة والصراع العربي الصهيوني**، المرجع سابق، ص١٢٨-١٢٩.

(٦٢) توفيق أبو بكر، نفسه، ص١٣١.

(٦٣) **الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٧**، مرجع سابق، ص-٧٠١-٧٠٢.

(٦٤) د.درية شفيق بسيوني، **"الدبلوماسية الأمريكية تجاه أزمة الشرق الأوسط"**، مرجع سابق، ص٣١.

(٦٥) د.عمر الخطيب، **"الولايات المتحدة وأزمة الشرق الأوسط"**، مرجع سابق، ص٣٨.

(٦٦) عبد الرحيم مصطفى، **الولايات المتحدة والمشرق العربي**، الكويت سلسلة عالم المعرفة، ١٩٧٨، ص١٦٩.

(٦٧) د.عمر الخطيب، **"الولايات المتحدة وأزمة الشرق الأوسط"**، مرجع سابق، ص٣٨.

(68) News weeks, 12/6/1967.

(٦٩) محمد حسنين هيكل، **نحن وأمريكا**، القاهرة، دار العصر الحديث، ١٩٦٨، ص١٦٢-١٦٣.

(٧٠) محمد حسنين هيكل، **نحن وأمريكا**، مرجع سابق، ص١٦٢.

(٧١) محمد حسنين هيكل، **الانفجار، ١٩٦٧م**، القاهرة دار الشروق، ٢٠٠٤، ٧١٨.

(٧٢) محمد حسنين هيكل، **الانفجار، ١٩٦٧م**، القاهرة دار الشروق، ٢٠٠٤، ص٧١٨.

(٧٣) محمد حسنين هيكل، **الانفجار، ١٩٦٧م**، مرجع سابق، ص٧٢٠-٧٢١.

(74) Stephen Green Grenn, Taking sides: American 'secret relation with isreal1948 /1967. New York: William Morrow and Co., 1984, P:203.

(75) Op,cit. P.20٥ .

(76) Ibid. p,20٦.

(٧٧) يوسف خضير، "**سفينة التجسس لبيرتي مثال التواطؤ الأمريكي الإسرائيلي**"، مجلة شؤون فلسطينية، العدد (٦١)، كانون الأول/ ديسمبر١٩٧٦، ص٢١٠.

(٧٨) محمد حسنين هيكل، **الانفجار**، مرجع سابق، ص٧٣٩.

(٧٩) يوسف خضير، "**سفينة التجسس لبيرتي مثال التواطؤ الأمريكي الإسرائيلي**"، مرجع سابق، ص٢١٠.

(٨٠) محمد حسنين هيكل، **الانفجار**، مرجع سابق، ص٧٣٨.

(٨١) محمد حسنين هيكل، **الانفجار**، مرجع سابق، ص٧٣٨.

(٨٢) يوسف خضير، "**سفينة التجسس لبيرتي مثال التواطؤ الأمريكي الإسرائيلي**"، مرجع سابق، ص٢١٠.

(٨٣) محمد حسنين هيكل، **الانفجار**، مرجع سابق، ص٧٤٠.

(٨٤) محمد حسنين هيكل، نفسه، ص٧٤٠.

(٨٥) محمد حسنين هيكل، **الانفجار**، مرجع سابق، ص٧٤١.

(٨٦) يوسف خضر، "**سفينة التجسس لبيرتي**"، مرجع سابق، ص١١١.

(87) Stephen Green, Op,Cit, P. 215.

(88) Document, N° 218. Telegram From the U.S.S. Liberty to the Chief of Naval Operations (McDonald) FOREIGN RELATIONS OF THE UNITED STATES, 1964–1968 VOLUME XIX, ARAB-ISRAELI CRISIS AND WAR, 1967.

(89) Document, N° 218. Telegram from the U.S.S. Liberty, Op, Cit .Pp.374-375.

(90) Stephen Green، op، cit, Pp. 214-217.

أيضًا يُنظر: **الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٧م**، ص٧٥٥.

(٩١) عبد الوهاب الكيالي وآخرون، **موسوعة السياسة**، ج٥، ص٥٤٥.

(٩٢) طالب يونس، **سياسة أمريكا الخارجية والمواجهة العربية في عهد جونسون**، مرجع سابق، ص٥٦.

(٩٣) في أوت طلبت إسرائيل ما يزيد قيمته ١٥٠ دولار من الطائرات خاصةً من طراز فانتوم لم تستلمها بسبب الحظر وبموجب اتفاقية السلاح ١٩٦٦ والتي وسعت ١٩٦٨م، تم الموافقة على تزويد إسرائيل بالأسلحة، يذكر أن جولدا مائير زارت الولايات المتحدة كمسعى لرفع الحظر. يُنظر: جانس تيري، "**مواقف النواب الأمريكيين من مسألة تقديم المساعدات للفلسطينيين والأسلحة لإسرائيل**"، مجلة شؤون فلسطينية، العدد:٧، مارس/آذار، ١٩٧٢، ص١١٠.

(٩٤) طالب يونس، "**سياسة أمريكا الخارجية والمواجهة العربية في عهد جونسون**"، مرجع سابق، ص٥٦.

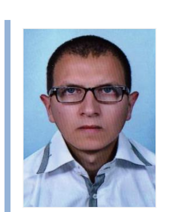
(٩٥) **الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٧م**، ص٧٤٤.

(٩٦) **الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٧م**، ٧٤٦.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].



# النخبة المخزنيّة وشبكات النفوذ في المغارب
## خلال القرن التاسع عشر



**محمد البشير رازقي**
باحث دكتوراه اختصاص علوم التراث
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
الجمهورية التونسية

### مُلَخّصْ

نحاول من خلال مقالنا "النخبة المخزنيّة وشبكات النفوذ في المغارب في القرن التاسع عشر" تبيّن وتتبّع رهانات الفاعل الاجتماعي وهواجسه حول تقنيات تشكيل شبكات العلاقات وبناء المكانة الاجتماعي في المغارب مع التركيز على نموج البلاد التونسيّة والمغرب الأقصى. فمن خلال مفهوم شبكة العلاقات حاولنا فهم سيرورة تكوين هذه الشبكات وعلاقة ذلك بالنخب المخزنيّة وأعوان الدّولة في المغارب. وسنتتبّع سيرورة بعض العائلات والشخصيّات لمحاولة فهم آليّات بناء هذه الشبكة وطرق تركيزها والمحافظة عليها وتوسيعها. وقد اعتمدنا كمدوّنة مصدريّة في هذا البحث على أعمال أكاديميّة تأسيسيّة في الأسطوغرافيا التونسيّة والمغربيّة خاصّة التي اهتمّت بدراسة النخب المخزنيّة وأعوان الدولة خلال القرن التاسع عشر، مثل عمل سلوى هويدي الذي كان بعنوان "أعوان الدولة بالإيالة التونسية: الأفراد، المجموعات، شبكات العلاقات، ١٧٣٥-١٨١٤" وعملي مهدي جراد الأوّل بعنوان "عائلات المخزن بالإيالة التونسية خلال العهد الحسيني ١٧٠٥-١٨٨١"، والثاني بعنوان "تجّار البلاط بإيالة تونس (أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر)". أمّا بالنسبة للمغرب الأقصى فقد اشتغلنا على أطروحة دانييل شروتر التي ترجمها خالد بن الصغير بعنوان "تجار الصويرة -المجتمع الحضري والامبريالية في جنوب غرب المغرب ١٨٤٤ – ١٨٦٦"، وأطروحة مصطفى الشابي "النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر"، وأطروحة أحمد التوفيق "المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر. اينولتان ١٨٥٠-١٩١٢)". وقد قسّمنا البحث إلى ثلاثة أقسام أساسيّة تتخلّلها عناصر فرعيّة، إلى جانب مقدّمة وخاتمة. وقد اهتمّ العنصر الأوّل بدراسة الأسس السياسيّة لبناء شبكات العلاقات، والقسم الثاني اهتمّ بالأسس الاقتصاديّة، واعتنى القسم الثالث بدراسة الأسس الاجتماعيّة. والإشكاليّة الرئيسيّة للعمل هي محاولة فهم الأسس السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة لتكوين شبكة النفوذ والعلاقات في بلاد المغارب خلال القرن التاسع عشر.

**بيانات الدراسة:**

تاريخ استلام البحث: ٠٦ أغسطس ٢٠١٧
تاريخ قبـول النشـر: ١٠ يناير ٢٠١٨

**كلمات مفتاحية:**

تاريخ تونس الحديث، بلاد المغارب، الاستعمار الفرنسي، السلطة الحسينية، الإيالة التونسية

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0054805

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

محمد البشير رازقي. "النخبة المخزنية وشبكات النفوذ في المغارب خلال القرن التاسع عشر".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الثاني والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٨. ص١٤١ – ١٥٢ .

## مُقَدِّمَةُ

يرتكز مفهوم شبكة العلاقات على مجموعة من الأسس منها "الثقة"[١] والتمدّد الجغرافي والتاريخي والتبادل بأنواعه (تجارة، معلومات، مصاهرة...) والمكانة الاجتماعية ومجمل أشكال النفوذ[٢]. ومن خلال مفهوم شبكة العلاقات سوف نحاول أن ندرس آليات تكوين هذه الشبكة وعلاقة ذلك بالنخبة المخزنيّة في المغارب من خلال نموذج البلاد المغربية والتونسية خلال القرن التاسع عشر. وسنتتبّع سيرورة بعض العائلات والشخصيّات لمحاولة فهم آليّات بناء هذه الشبكة وطرق تركيزها والمحافظة عليها وتوسيعها.

ترتكز هذه الورقة البحثيّة على مجموعة من الأعمال الأكاديميّة. فقد اعتمدنا لفهم شبكات النفوذ في البلاد التونسية خلال الفترة المدروسة على عمل سلوى هويدي

بعنوان "أعوان الدولة بالإيالة التونسية: الأفراد، المجموعات، شبكات العلاقات، ١٧٣٥-١٨١٤" وعملي مهدي جراد الأوّل بعنوان "عائلات المخزن بالإيالة التونسية خلال العهد الحسيني ١٧٠٥-١٨٨١" والثاني بعنوان "تجّار البلاط بإيالة تونس (أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر)"، وأطروحة رضا بن رجب بعنوان "يهود البلاط ويهود المال في تونس العثمانيّة". أمّا بالنسبة للمغرب الأقصى فقد اشتغلنا على أطروحة دانييل شروتر التي ترجمها خالد بن الصغير بعنوان " تجار الصويرة -المجتمع الحضري والإمبريالية في جنوب غرب المغرب ١٨٤٤ – ١٨٦٦"، وأطروحة مصطفى الشابي "النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر"، وأطروحة أحمد التوفيق "المجتمع المغربي في القرن التاسع عش، اينولتان ١٨٥٠- ١٩١٢)". فماهي الأسس السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة لتكوين شبكة النفوذ في بلاد المغارب خلال القرن التاسع عشر؟

## أولاً: الأسس السياسيّة

**١/١- البلاط:**

يعتبر بلاط السلطة الحسينية هو لبّ الرحى في إنتاج شبكات النفوذ[٣]، حيث أنّ سلطة الدولة في الفترة الحديثة كانت تحتاج لمجموعة من الآليات لترسيخ تواجدها بسبب عجزها على تحييز كامل مجالها بنفسها. برز من هنا الدور المهم للقبائل المخزنية وللطرق الصوفية والزوايا التي ساهت بفعالية في تهدئة الأجواء وتقليل حجم التوترات بين مكونات المجتمع. في هذا الإطار يأتي دور العائلات المخزنية وهي مكون أساسي للسلطة الحاكمة في تلك الفترة حيث انخرطت بقوة "في مشروع بناء الدولة الحديثة"، وخاصة مساهمتها في "تكثيف حضور المركز في إطار المجموعات المحلية التي كانت تنتمي إليها" و"مراقبة المجال"[٤]. عجز الدولة عن تحييزها لمجالها بمفردها ساعد العائلات المدينية أو المحلية الريفية على الدخول إلى المنظومة الحاكمة للمخزن.

في المغرب خلال الفترة المدروسة نجد شبكة العلاقات تتكوّن من عدّة تفرّعات وركائز، فلا يمكن لنا تمثل جيد لهذه الشبكة بدون الأخذ في الاعتبار "الأجهزة المخزنية المركزية" أو وجود ممثلين للمخزن على "المستوى المحلي" (قائد، شيوخ، أعوان)[٥]. لكن يبقى المخزن هو مركز الثقل الأساسي، والقائد هو همزة الوصل بين المجتمع المحلي والسلطان[٦]، والأعيان من ناحيتهم يتنافسون على آليات "الترقية الاجتماعية" كالنفوذ الديني والعلمي أو من خلال تقديم خدمات للقبيلة[٧]. والوظيفة المخزنية هي في حد ذاتها جزء مهم من شبكة العلاقات، كما تسمح للموظف بتوسيع شبكته الخاصة، "فعلاقة الممثل المخزني بالسكان الذين يحكمهم يمكن تتبّعها في ثلاثة اتجاهات أساسيّة:

- خدمة الدولة (خاصة المراقبة وجمع الجباية)
- إجراء الأحكام
- تنمية ثروته الخاصّة(ثروة مالية أو عقارية)"[٨].

البلاط له دور اقتصادي محوري أيضًا، فقد أسّس السلطان الصويرة من أجل التبادل التجاري بالأساس، دون إغفال إنشاء الوحدات العسكرية فيها[٩]. والهدف الأساسي من هذه المدينة تجاري بامتياز. وقد ساهم المخزن بفعاليّة في اجتذاب التجار لها، وأمّن لهم الإقامة ببنائه المنازل و"منح القروض وخفض الرسوم الجمركيّة"[١٠]. وتجّار السلطان" يعتمدون على البلاط من خلال "ظهائر" التزكية أو من خلال السلفات الماليّة، هذا بعد أن يؤدي التاجر طقوس الطاعة للسلطان[١١]. هذه العلاقة مع توغّلنا في القرن التاسع عشر بدأت تتغيّر لصالح التجّار المحليّين والأجانب، خاصّة مع الإرادة التي أظهرتها الدول الأوروبية في توسيع نفوذها الاقتصادي والسياسي[١٢]. هنا عوّض التجّار أموال السلف السلطانيّة بـ "جذب رأس المال الأجنبي" والاعتماد على الحماية القنصلية الأوروبية[١٣]. كما أنّ السلطان شجّع عددا من التجار المحليين مثل المختار ابن عزّوز للدخول لحلبة المنافسة، مع وجود تجّار محليين آخرين اعتمدوا على السلفات السلطانية و"القروض الخارجيّة في الآن نفسه" مثل عائلة أولاد النفتالي[١٤]. ونؤكّد هنا أنّ اكتساب الثروة السريع لا ينفي الدور المحوري للسلطان في هذه العمليّة حيث يمكن له مصادرة ثروات الأشخاص أو العائلات[١٥]، حيث أنّ منظومة "المصادرة" هي آلية عريقة في الدولة العثمانية[١٦].

**٢/١-الإدارة:**

اعتمد، من الناحية الإدارية، النظام الاقتصادي للإيالة التونسية خلال الفترة المدروسة على الضرائب، وترسّخت بذلك أهمية مؤسسات الجهاز المالي مثل "بيت المال" و"مؤسسة بيت خزندار" و"الغرفة" و"دار السكة"[١٧]. وإلى جانب المؤسسات المالية والعسكرية نجد "الهياكل الشرعية" كالقضاء والفتوى والتدريس والإمامة، والهياكل الإدارية كخطة "صاحب الطابع" و"الكتّاب"[١٨]. استفادت هذه الفئة من رواتبها ومن المنح والهدايا التي تعطى لها من قبل السلطة في الأعياد والمناسبات، بالإضافة إلى تمتعهم

بأسبقية المشاركة في "أنشطة اللزم والتجارة الخارجية". هذا على مستوى الحواضر، أما على مستوى الأرياف فنجد مجموعة من المناصب التي تساعد في تكوين أو ترسيخ شبكة علاقات متينة مثل مؤسسة "الشيخ"، وكذلك "الأعيان المحليين" من رجال الدين، وخاصة القيّاد وهم "العمود الفقري للإدارة المحلية"[١٩]. وفي المغرب نجد تمييز بين صنفين من "خدّام المخزن": "صنف خدّام القصر المرتبطين مباشرة بالسلطان، وصنف خدّام الدولة المكوّنين للجهاز الحكومي بمعناه الخاص"، دون أن نغفل الدور المهمّ للوزير الأعظم ووزير الماليّة[٢٠]. كما أنّ "دواليب القصر" لها شبكة علاقاتها المتشعّبة مثل الحاجب و"قائد المشور" وعدد كبير من الخدم والعبيد[٢١].

تساعد إذا الوظائف الإداريّة المحليّة السلطة على بثّ عيونها في الأطراف وتيسّر لها مراقبة مجالها والسيطرة عليه. بالمقابل يستفيد الأعيان المحليّون من الإعفاءات الجبائيّة ومن ميزة جمع الجباية (جباية فلاحية، خطايا، دوايا...) لصالح السلطة، ويمكّنهم ذلك من أخذ نسبة مهمّة من هذه الجباية، ومن النفاذ إلى الأراضي الفلاحيّة الخصبة. فالقيّاد خلال الفترة المدروسة اعتبروا من أهم المستثمرين المحليين خاصة في مجال الحبوب "من أجل استغلاله في التجارة الخارجية"[٢٢]. واستخدمت السلطة شبكات النفوذ المحلية الريفية المنغرسة في بيئتها والمتحالفة معها لمراقبة المجال والمساهمة في تحييزه، إلى جانب مساهمتهم في المجهود العسكري للسلطة. إذا في حضور علاقات جيدة بين السلطة و"أعيان القبائل ومشائخها" تصبح لدى الدولة عيون ويد رادعة في مجالها الريفي، ويصبح دورها تحكيميًا بين مكونات هذا المجال[٢٣].

**٣/١-المجال والنفوذ:**

شبكة العلاقات يمكن أن تُقسَّم حسب المجال، حيث "أن ما تبرزه الوثائق والنصوص من كون معظم رجال المخزن في مستوى الوزراء وخدّام القصر من أصل المدن الشماليّة كفاس ومكناس وتطوان...هؤلاء الخدّام من أسر ذات حيثيّات وعلائق فيما بينها"[٢٤]. وهذا من ناحية الأشخاص، أمّا المدن فقد نتج عن موقع الصويرة الاستراتيجي مثلاً سهولة اتصالها بأوروبا وبرأسماليّتها. لكن تطوّر المدن الساحليّة قابله تراجع المدن الداخليّة، مع بداية نشأة برجوازيّة محليّة خاصة من المزارعين وملاّكي الأراضي[٢٥].

إذا مرسى الصويرة ربط علاقات مهمّة مع "شبكات التجّار اليهود الأوروبيين" خاصّة على مستوى التصدير والتوريد. من دون إغفال الدور المهم الذي يقوم به يهود الصويرة في تنشيط الطرقات التجارية الداخلية ولعبهم دور همزة الوصل بين منتجات الداخل والطلب عليها في الضفة الشمالية من المتوسط[٢٦]. وقد حاول السلطان تقليل نفوذ الأوروبيين في المنطقة في مجال التجارة لكنّه "ما لبث أن فقد سيطرته على مراقبة التجارة تدريجيّا"[٢٧]. وتكمن أيضا أهميّة الصويرة في كونها حلقة وصل بين الداخل وأوروبا[٢٨] مثلها مثل الساحل التونسي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. أمّا "تجّار السلطان" من اليهود فقد كانوا بمثابة لبّ الرحى في العناصر التي ذكرناها سابقا، فهم يمثّلون واسطة بين الشركات الأجنبيّة والسلطان والتجّار المحليين وبضائع دواخل البلاد المراد تصديرها، حيث أنّ "معظم تجارة المغرب الخارجيّة في قبضتهم"، أي التاجر أصبح همزة وصل جغرافيّة[٢٩]. كما نلاحظ من خلال سيرورة نسج شبكات النفوذ أنّ المناطق الجغرافيّة المصدّرة للعائلات الاقتصادية هي نفسها تقريبا مصدّرة للنخبة المخزنيّة الإدارية[٣٠].

وأهمّية المنطقة الجغرافيّة تدعّم كذلك أهمّية أعوانها، كما في الساحل التونسي من خلال محاصيل الزيتون وفي الشمال من خلال الحبوب والجنوب بإنتاجه التمور. هذا المثلّث الاقتصادي للبلاد التونسية يساهم في إضفاء أهمّية على كل مَنْ ينتمي إليه وخاصّة أعوان الدولة. وتتوزّع أيضًا شبكات النفوذ جغرافيّا، فنجد "السلطات الحضريّة" تتكوّن من "الباشا" ويطلق عليه أيضا اسم القائد أو العامل الذي يستفيد الباشا من سلطته على المدينة سياسيا واجتماعيّا واقتصاديا، ونجد أيضًا "المحتسب" ثم "أمين المستفاد"[٣١]. أمّا "سلطات البوادي": تتكوّن من: "القائد"، و "الشيخ" وهو العون المباشر للقائد الذي يعينه في أغلب الأحوال لإعانته في الحكم، ومن أهمّ أدواره جمع الجبايات المؤدّاة للمخزن. ومن ثمّ يأتي "القاضي": حيث "لا تختلف مهام قاضي البادية عن مهام مثيله في المدينة، ولكن قاضي البادية وإن كان غير محاط بنفس الهالة التي تحيط بزميله الحضري، ينظر في شؤون خطيرة كشؤون الأرض والمعاملة فيها"[٣٢].

أمّا الإيالة التونسية في القرن التاسع عشر فكانت تنتظم حسب طبقات مهيكلة ومتمايزة استنادًا إلى "امتيازات جماعية لطبقة الأعيان" أو على "بنى الطوائف الحرفية". فالمدينة مثلا كان يديرها "شؤون الطوائف والحرف الحضريين وأعيان التجار والملاّك" و"شيخ المدينة"، وكل هذه العناصر كانت تتمحور حول "أعيان البلدية" الذين يستندون في العادة إلى رضاء وتزكية الباي. في مقابل هذه

الدائرة تنسج في فضاء "الحاضرة" التونسية دائرة نفوذ يتزعمها قناصل الدول الأوروبية بدأ نفوذهم يتمدد منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر[٣٣]، ونضع ظاهرة الحماية القنصليّة ضمن هذه الدائرة. من هنا نسجّل أنّ التأثيرات الخارجية وإرادة الإصلاح الداخلية يمكن أن تساهم في إعادة توزيع جغرافية النفوذ في الفضاء الحضري للبلاد. فتأسيس المجالس البلدية قلّص من صلاحيات بعض الشخصيات النافذة ومأسسة تحركاتهم، فرئيس المجلس البلدي حدّ من مهام بعض شخصيات التي كانت تهتم بالشأن الديني أو الإداري أو العدلي للسكان، وهذا ما حصل في تونس وفي دمشق مثلاً[٣٤]. لذا شبكات النفوذ ليست بل متحركة ومتأثرة بالظرف الداخلي والخارجي.

## ثانيًا: الأسس الاقتصاديّة

### ١/٢-التجارة:

يعتبر التجّار من أهم العناصر الفاعلة في المغارب في الفترة العثمانية. ينسج التاجر المتنفّذ خلال الفترة المدروسة شبكة علاقات ذات عدة محاور: أولاً مع البلاط، ثم مع الدول الأوروبية من خلال "المركانتية" أو القناصل وأيضًا مع زملاءه التجّار، والهدف توفير الحماية الجماعية وتبادل المعلومات، وأخيرًا مع أهل البلاد. ويلعب التاجر المحلي دور المصدّر أو دور الوسيط بين التاجر الأوروبي والمنتوج المحلي (قمح، زيت...)، أو الوسيط بين الباي وفلاحي الدواخل. وفي هذه الحالة إما يقوم بالإشراف على عملية التصدير أو يبيع المنتوج للأوروبيين. والتاجر من خلال الفترة المدروسة لم يكن مجرد فاعل تجاري وإنما كان يرتكز على "شبكات علائقية" ذات بعد اجتماعي وثقافي إلى جانب الاقتصادي طبعًا[٣٥].

شريحة التجار في الإيالة التونسية متنوعة ولكن نجد البارزة منها "المرتبطين مباشرة بقصر باردو واللذين يمكن أن نسميهم ب"تجار البلاط"[٣٦]. حيث نجد من هو مرتبط مباشرة بالباي أو مع كبار معاوني الباي مثل الوزير الأكبر أو صاحب الطابع.

الملاحظة الأبرز في مجال آليات تكون شبكات النفوذ أن كل الأطراف المكونة لهذه الشبكة كانت لهم مساهمات تجارية مهمة مع الخارج. فظرفيّة البحر المتوسّط أواخر القرن الثامن عشر (الحروب النابوليونيّة) والقرن التاسع عشر (تطوّر صناعة مادّة الصابون خاصة في مرسيليا)، جعلت الإيالة التونسية قِبلَة الدول الأوروبية لاقتناء الحبوب وزيت الزيتون. ارتكزت شبكات الأفراد أو المجموعات أساسا على هذه المسألة، إذ نجد من العائلات الكبيرة من تتاجر مباشرة مع أوروبا (عائلة الجلّولي مثلا)، وهناك من يكتفي بدور الوساطة بين التجّار الأوروبيين "المركانتيّة" والمنتجين المحليين.

استندت النخبة الريفية من ناحيتها على نفوذها المحلي لكي تتغلغل في المناصب العليا في الإدارة وتوسع تجارتها مع الخارج خاصة مع الشرق، إلى جانب محاولة اكتساب نفوذ مديني في الحاضرة التونسية من خلال اقتناء العقارات والاستثمار التجاري. عائلة "بن عيّاد" مثلا ابتدأ نفوذها محليًا في جزيرة جربة مرتكزًا على ممارسة التجارة، وتدعم هذا النفوذ بانتماء بعض أفراد العائلة إلى الجهاز المخزني وأصبحوا "تجّار الباي"، فمكّنهم هذا الامتياز من تنمية ثرواتهم التجارية ومن التجذّر في الفضاء المديني في الحاضرة التونسيّة[٣٧]. ومن أبرز العائلات المحلية التي ارتبط نجاحها بارتباطها مع البلاط هي عائلة ابن عيّاد. ومن العوامل التي ترسخ شبكة علاقات التاجر إضافة لارتباطه بالمخزن أن يكون من "تجّار المكانة" أي يكون متنفّذا اجتماعيًا في محيطه المحلي مثل عائلة بن عياد في جزيرة جربة وعائلة اللوز بصفاقس[٣٨].

يعتبر تملّك الثروة العقّاريّة الريفيّة (خاصّة الأراضي الصالحة للزراعة) من أهمّ أشكال بناء المكانة الاجتماعيّة وإرساء شبكة نفوذ متينة. من هذه الناحية نجد أنّ اقتصاد البلاد التونسيّة، "مطمورة روما"، اعتمد أساسا قبل القرن التاسع عشر على الحبوب سواء كاستهلاك محلّي أو في شكل تصدير، ومن هنا برزت عائلات مخزنيّة قويّة ونافذة في شمال البلاد التونسيّة وهي المنطقة الحبوبيّة بامتياز. لكن مع انتهاء الحروب النابوليونيّة وإمضاء اتفاقيّة فيينا (١٨١٤-١٨١٥) ساد السلم في أوروبا وأصبح قمح أكرانيا يفي تقريبا بحاجة أوروبا من هذه المادّة، وتباعا انتقلت الإيالة إلى التعويل على الزيتون لتصديره إلى أوروبا خاصّة مرسيليا (لصناعة الصابون). من خلال هذه الظرفيّة تنامى نفوذ بعض عائلات الساحل التونسي (أكبر منطقة منتجة للزيتون) وتمّ إرساء شبكة علاقات جديدة تجمع بين السلطة وعلى رأسها الباي وبين اللزّامة والتجّار الأوروبيين من ناحية، وبين المنتجين المحليين من ناحية أخرى[٣٩]. فالباي مثلا يتحصل على جزء مهمّ من الإنتاج عن طريق "المحلة" أو الضرائب، أو يمكن للدولة أن تكلّف "لزّامة"، و"اللزمة" هي "نظام تجميعي" يرتكز على "وساطة الدولة بين دواخل البلاد والسوق المركنتي"[٤٠].

من ناحية أخرى ومن خلال عمل رضا بن رجب، نجد أن التموقع المهم ليهود البلاد التونسية وخاصة "القرانة" سببه تكلفهم بدور الوساطة بين تجارة الإيالة والفضاء

المتوسطي، سواء من خلال علاقتهم بالباي أو بالمركانتية أو بالتجار المحليين[٤١]. أيضا من آليات ترسيخ شبكة علاقات يهود البلاد التونسية هي علاقاتهم التي نسجوها مع الشبكات التجارية التي يشرف عليها يهود في الدول الأوروبية المطلّة على المتوسّط[٤٢]. وما دعم وجودهم أيضا في النظام الاقتصادي للإيالة هو أن البايليك لا يأخذ بعين الاعتبار "تمييز ديني أو عرقي" في الصفقات التي يبرمها، وهذا ما سمح لليهود من الاستفادة كثيرا من نظام "الالتزام" (لزمة دار الجلد، لزمة خيط الفضة والصاغه، لزمة سمسرية الحرير، لزمة الشريحة...)[٤٣]. وقد تمتّع اليهود بالحماية القنصلية وخاصة الحماية الفرنسية ممّا مكّنهم من توسيع تجارتهم[٤٤].

يمكن تقسيم تجّار البلاط في أول القرن التاسع عشر لثلاثة أصناف: نجد شبكة مرتبطة بصاحب الطابع، والصنف الثاني وهم التجار الذين يمولون البلاط بالبضائع المستوردة مثل عائلة عتّا اليهودية، والصنف الثالث هم الذين يمولون البلاط برؤوس الأموال والقروض، "عائلات البنوك"، وهم أوروبيون بالأساس[٤٥]. كما إنّ نمو شبكة علاقات التجار كان خاضعًا لظرفيات داخلية (السلم الداخلي، تشجيع السلطة للتجارة، تعبيد الطرقات وتهيئة الموانئ، تقليص الضرائب...) والظرفيات الخارجية (القرصنة مثلاً)[٤٦]، و"سيرورة الإثراء" خاضعة لهذه الظرفيّات، فالأزمات التي عرفها المغرب في القرن لتاسع عشر مثل المجاعات والأوبئة وندرة المحاصيل، استغلّه بعض رجال المخزن خاصّة عن طريق الإقراض وشراء ممتلكات "المضطرّين"، وبيع بعض السلع مثل الحبوب بثمن مرتفع[٤٧]. أمّا الضرفيّات الخارجيّة فقد "أدّت الوقائع السياسيّة والاقتصادية الوثيقة مع دول أوروبية إلى تغيّر جغرافي في مركز الثقل السياسي ولا سيما بتزايد نشاط المراسي. وكان من نتائج هذا التغيّر توسّع في مجال اختيار الخدّام المخزنيين حيث صارت جهات أخرى أكثر تمثيلاً في صفوف النخبة الحاكمة". أيضًا تغلل النفوذ الأوروبي في المغرب في النصف الثاني من القرن التاسع خاصة البعثات القنصلية غيّر نوعًا ما من خارطة النفوذ في المغرب[٤٨].

ومن خلال مفهوم "الشبكة العلائقية للتجار" نسجّل أنّ التاجر خلال الفترة المدروسة يمكن أن يرتكز على العائلة لتنمية الثروة، لكن مع تقدّمنا في القرن التاسع عشر تقلصت ظاهرة الشركات التجارية العائلية لصالح الشركات التجارية بين تجار مختلفين، سواء بين أهل الايالة أنفسهم أو بين أهل الايالة والأوروبيين. وهنا تموقع الإيالة في قلب المتوسط جعلها منفتحة على التجار الأوروبيين واليهود خاصة القرانه (عائلة بوقو أو نيسان مثلاً) والمشارقة (عائلة السلامي في صفاقس مثلاً). وعادة تعقد التحالفات بين التجار استنادا لانتماءات عرقية أو دينية أو لغوية، وتعقد أيضًا التحالفات استنادًا إلى حجم الربح والمصالح المتبادلة فقط[٤٩]. دون أن نغفل دور فئة "الوكلاء" وهي الفئة الأبرز بحكم "انتصابهم كوسطاء بين سيدهم (أي الباي) وبين أعيان المخزن والتجار"[٥٠].

وشبكة العلاقات التجارية لم تكن عمودية فقط بين القمة والقاعدة (من الباي وصولا إلى المشيخة)، بل نجد علاقات تحالف "وروابط أفقية بين أعيان رجال المخزن تقوم بوظيفة المحافظة على المصالح"، ويبرز ذلك من خلال تشارك عائلتي الجلّولي وبن عيّاد في الأعمال[٥١]. ومن عوامل بناء شبكة العلاقات التجارية هي رهانات الدول الأجنبية من أجل تمديد نفوذها في الدولة. ومن هنا نفهم الدور المهم الذي لعبه القناصل والتجار الأوروبيين وخاصة منظومة الحماية القنصلية وفي ظلّها يلعب المحمي دور المترجم أو الوكيل أو الوسيط "سمسار" أو المفاوض. والتاجر يحتاج كذلك لمصدر تمويل أو إقراض لترسيخ نجاحه، ولذلك يلجئ لشركاء تجنّبا للخسارة.[٥٢]

نجد عدّة أشكال لبناء شبكة العلاقات سواء عموديا أو أفقيا، فيمكن للعامل أو الحرفي أن ينتمي لشبكة علاقات الطوائف المهنية كشبكة أفقية[٥٣]. ومن تمظهرات العلاقات الأفقية هي علاقة الفرد بأبناء حرفته أو مهنته، فالتاجر مثلا يحتاج إلى بقية التجار لتنمية وتصريف سلعه، هذا دون أن نغفل أن مكانته أيضا تحددها "المصادفات، المولد، أو الميراث، الحسب والنسب"[٥٤]. والتاجر الناجح لتصريف بضاعته يحتاج لـ "شبكة تجارية تضم عددا من الأفراد والوكلاء" متوزعين في مناطق جغرافية منتقاة"، ونجد أن هؤلاء كثيرا ما يتضامنون فيما بينهم، وهذا "التضامن بين التجار هو إلى حد ما تضامن طبقي". وتميز شبكات التجار استنادًا إلى عامل لغوي أو جغرافي أو اثني، وشبكة العلاقات التجارية يمكن لها مثلما تحالفت أن تتصادم خاصة في ظل حضور التنافس، فـ"الشبكات التجارية تتكامل وتتعاون ولكنها قد تتصادم...فقد ضل التجار الأوروبيون المسيحيون وتجار سوريا ومصر يواجه بعضهم بعضا طوال قرون"[٥٥]. ويمكن لشبكة العلاقات أن تُعَدَلَ أو تتغير استنادًا لظرفيات خارجيّة، مثل ظرفية القرن السادس عشر وما تبعها من تغير في الطرق التجارية وتغير توازنات التجارة العالمية، وظرفيات

داخلية مثل النمو الديمغرافي والمناخ الملائم والمحاصيل الوفيرة[٥٦].

**٢/٢-التملّك العقاري (الفلاحيّ/ المديني):**

يزداد تطوّر شبكة العائلات المخزنية اقتصاديا بعد اندماجها بالمخزن خاصة من ناحية المشاركة في "أرباح الدورة الاقتصادية"،[٥٧] سواء من خلال المشاركة في تجهيز سفن القرصنة في القرن الثامن عشر أو في المشاريع الفلاحية والعقارية في القرن التاسع عشر، وخاصة عند الحصول على منصب "قايد" أو احتكار عدد من "اللزم". وكنموذج تفسيري لهذا الكلام نجد أن عائلة "المرابط" بمدينة القيروان التونسية تتكون ثروتها من عقارات سكنية وأخرى تجارية (حمام، طاحونة، فندق...) وأراضٍ فلاحية إلى جانب "المواشي والذهب والأثاث"[٥٨]. إذا فمن أهمّ أليات بناء المكانة هي الثروة وخاصة الملكية الفلاحية (أراضي، أشجار، حيوانات...) والعقّارية[٥٩].

كما أشار أحمد التوفيق، ترجع "أسباب الترقية الاجتماعية" في "المجتمع المغربي بصفة عامة" إلى الثروة الاقتصادية (فلاحة أو تجارة أو صناعة)، إلى جانب "النفوذ السياسي أو الديني أو العلمي"، أي "الجاه"، وشرح الكاتب نظرية ابن خلدون حول علاقة الجاه بتنمية الثروة المالية[٦٠]. ومن ناحيته بيّن شروتر أنّ السلطان هو لبّ الرحى في هذه العمليّة، ولكن للمدينة مثل مدينة الصويره لديها بنيتها لشبكة النفوذ الخاصّة بها مثل وجود القناصل والتجّار الكبار و"يهود السلطان". من هنا يتم بناء الشبكة استنادًا إلى احتكار أكبر عدد ممكن من هذه العناصر، فيمكن لأصحاب الزوايا أن "يكونوا في قمة هرم التفاوتات على أساس الثرة والجاه" إلى جانب تعزيز نفوذهم بـ "ظهائر" من السلطة، وامتيازات أخرى كالإعفاءات الجبائية التي تشمل أسرهم الكبيرة والأسر المجاورة لهم[٦١]. إذا فمن آليّات تدعيم شبكة العلاقات في مدينة الصويرة مثلا أن أكبر تجّارها مالكين لثروة عقّاريّة مهمّة. وتجّار السلطان لديهم الأفضليّة في الكراء والانتفاع بممتلكات المخزن من العقارات[٦٢]. ففي البادية من آليّات الترقي الاجتماعي تملّك الأرض الفلاحيّة، أمّا في المدن فنجد تملّك العقارات (الدور، القصور، الأثاث المنزلي...)[٦٣].

## ثالثًا: الأسس الاجتماعيّة

يتمّ اختيار فئة "خدّام المخزن" عادة من "العائلات المعروفة بعلمها أو تجارتها أو نسبها الشريف أو قدم رجالها من المهارات العسكريّة". بالمقابل "كانت الخدمة المخزنية بابا من أبواب الثروة"، أمّا "المتولّون لمناصب في دوائر المخزن" عادة ما يصطنعون "زبناء" يصرّفون لهم شؤونهم. و"قد يكون هؤلاء المصطنعون من أوساط العلماء أو من أعيان الشرفاء أو المرابطين ومقدّمي الزوايا أو غيرهم...يشكّلون بطريقة ما دعائم أقطاب السلطة"[٦٤]. وفي هذا الإطار والى جانب العلاقات العمّوديّة هناك علاقات أفقيّة، حيث نجد "من فرص توثيق الصلات بين أعيان النخبة المخزنيّة وبين أعيان المجتمع ما يوفّره انخراط كثير من الوزراء والكتّاب والمحتسبين...في الطرق الصوفيّة"[٦٥]. ومن آليّات بناء شبكة النفوذ هي مراهنة الحضور الأوروبي في المغرب على بعض الشخصيّات أو العائلات كحلفاء، مثل عائلة "بركاش" منحازة إلى إنجلترا، وآل الزبدي يميلون إلى الألمان[٦٦]. من هنا يمكن أن نفهم ظاهرة الحماية القنصليّة. كما أنّ شبكة العلاقات لها امتداداتها الأفقيّة والعمّوديّة. فالعائلة من أهم ركائز العلاقات الأفقية، يصبح عامل المصاهرة والقرابة الدمويّة والقربى محدّد وحافز للرقيّ الاجتماعي. العائلة تعتمد على أفرادها لتتوسّع ديمغرافيّا وفي نفس الوقت تورّث مناصبها لأبنائها خاصّة المناصب المخزنيّة، وبذلك تصبح العائلة أداة احتكار للمعلومات والخبرات. ويصبح الهدف الأسمى "المحافظة على مكاسب العائلة المادية منها والعائلية"[٦٧]. ومن العلاقات العمودية نجد أشكال التحالف الذي تربط بين فاعلين اجتماعيين من نفس الدرجة، مثل تحالف القياد فيما بينهم، أو تحالف أصحاب "اللزم" فيما بينهم[٦٨]. والى جانب العلاقات الأفقية نُسجت علاقات عمّودية في مرحلة بناء شبكة العلاقات، حيث تربّع الباي على قمة هرم هذه الشبكة وأوكل لأتباعه المقرّبين أمر تسييرها من إداريين(تونسيين يهود ومسلمين/ مماليك/ أوروبيين) وعسكريين، هذه الفئة كانت تلعب دور الواسطة بين الفاعلين الإجتماعيين المحليين(الشيوخ، المرابين، رجل الدين والمشرفين على الزوايا...) والباي[٦٩]. وتضاريس العلاقة العمّودية هي متحرّكة خاضعة للظرفيّة الداخلية والخارجيّة، فيمكن مثلا لقناصل الدول الأجانب الذين يحتلّون الدرجة الثالثة في هذا الهرم بعد الباي والأعوان المقرّبون أن يصبح نفوذهم أقوى من الباي نفسه. وهذا ما شهدته الإيالة التونسية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر حيث رزحت البلاد تحت ديون الدول الأوروبية خاصّة بعد تركيز الكومسيون المالي.

**١/٣-المصاهرة:**

تعتبر المصاهرة خلال الفترة المدروسة من أهم آليات بناء شبكة النفوذ وهي "من العوامل الرئيسية المحددة لمكانة العائلات الكبرى إلى جانب الثروة ومدة الخدمة والحجم الديمغرافي"(٧٠)، وهي "الوجه المخفي للرقيّ الاجتماعي"(٧١). ونسجّل مجموعة من الاستراتيجيات ترسم وفقها المصاهرات. فالعائلات المخزنية يمكن أن تلتجئ للزواج الداخلي لحماية الثروة والمحافظة عليها داخل العائلة. يمكن أيضا الزواج "من المهد الأصلي" أي من بنات الجهة، منطقة جربة مثلا بالنسبة لعائلة آل بن عياد، "الذين عادة ما تربطهم بهم تحالفات اجتماعية واقتصادية". تصبح عملية المصاهرة عملية "عقلانية" بامتياز(٧٢). هذا دون أن نغفل ميل العائلات المتنفذة إلى مصاهرة عائلات تضاهيها من حيث الثروة والوجاهة الاجتماعية وشبكة العلاقات (علماء مع علماء/ تجار مع تجار/قياد مع قياد...). وتلتجئ العائلة في سبيل توسيع شبكة علاقاتها واحتكار النفوذ إلى المصاهرة، ويتبلور نتيجة ذلك مزيد من الرقي الاجتماعي. أمّا بروز ظاهرة "اللزمة" وإرادة احتكارها لما تدره من أرباح اقتصادية حثّ العائلات على توسيع دائرة مصاهراتها جغرافيا وصولاً إلى العائلات المحلية الريفية حيث تتمركز أهم "اللزم" الفلاحية. هذه المصاهرات الريفية تسهل أيضا على العائلات المتحالفة مع "البايليك" أن تجمع الضرائب وتفرض الأمن بسهولة، تصبح بذلك المصاهرة ركيزة من ركائز وجود الدولة الاقتصادية والأمنية.

شبكة العلاقات التي يبنيها الفرد أو العائلة أو الجماعة تعتمد كثيرا على وفرة عدد الأفراد والأتباع، فالفرد يمكن أن يُستَثمَرَ في العمل الفلاحي أو التجاري أو "تمويل البايليك بالرأسمال البشري" سواء كإداريين (كاتب، قايد...) أو عسكريين. ويصبح الأب "المخازني" يحرص على توريث أبنائه هذا الامتياز، وتصبح العائلة تسعى "لتكوين أجيال تضمن بها تواصل النفوذ "(٧٣). كما أنّ تشعّب العائلة وتمددها يساهم في بناء المكانة، فالباحثة سلوى هويدي بيّنت أن (٥٤%) من القياد لهم قرابة بطريقة أو بأخرى مع المخزن(٧٤). وأشار الباحث مهدي جراد إلى أهمية العوامل الأسرية والجغرافية والمؤهلات الشخصية والمصاهرات والولاءات في بلورة وتكوين رصيد من "الثقة المتبادلة" في إرساء شبكة العلاقات. فالعامل الاقتصادي ليس العامل الوحيد الذي يساعدنا على فهم نشأة شبكة علاقات التاجر الناجح والمتنفّذ(٧٥). أمّا في "المجتمع القروي" فنجد علاقات "تضامن" تساعد في بناء شبكة العلاقات، حيث نجد التضامن "القرابي" أي العائلة والأنساب، و"التضامن التكافلي" بين أفراد القبيلة في حدّ ذاتهم، و"التضامن الاقتصادي" والتضامن الجبائي و"التضامن لأسباب دينية، و"لم تكن روابط النسب والقرابة وحدها عوامل التضامن، بل كانت روبط الجوار والانتماء إلى رقعة ترابية تحمل اسما داخل التقسيم المورفولوجي للقبيلة"(٧٦).

يمكن التأكيد على أهمية المصاهرات في تمتين أو ترسيخ شبكة العلاقات. والمصاهرة عادة ما تكون أفقية، ولكن هذه الأفقية متشابكة ومتداخلة، حيث نجد علاقة مصاهرة بين عائلتين أندلسيتين متنفذتين، ومن ناحية أخرى نسجّل مصاهرة بين عائلة أندلسية وأخرى "بلديّة". ويمكن أن تكون مصاهرة بين عائلة من جربة وأخرى من صفاقس، أو بين مماليك ومحليين. أي تختلف الانتماءات الجغرافية والإثنية والثقافية ولكن هذه الاختلافات ترسخ العلائق الاقتصادية للطرفين.(٧٧)

**٢/٣-"الحسب والنسب":**

من أهم ركائز الرأسمال الرمزي المدعّم لشبكة العلاقات هو شجرة النسب، فعلى مستوى البنية الذهنية والسياسية للمجتمع العربي ثم الإسلامي يمثّل النسب "العمود الفقري للتنظيم الاجتماعي لدى العرب"(٧٨). فشجرة النسب في هذا الإطار تقوم بدور شرعنة وجود النفوذ الاقتصادي والسياسي والاجتماعي لعائلة معينة في الحاضر، والتأكيد على تاريخية هذه التفاضلية ماضيا، وحماية من الإزالة والمساس بهذا الموروث مستقبلاً. أيضًا نسجّل دور مهمّ لـ "العنصر الحضري" في شبكة العلاقات خاصّة من خلال ظاهرة "البيوتات" التي ترتكز أساسا على "الخبرة" المتراكمة من التجارة والوظائف العلميّة والإداريّة(٧٩).

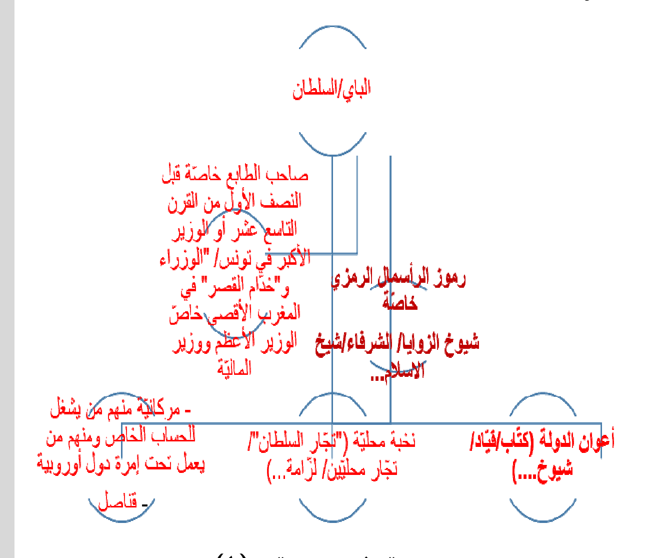
من أهم ركائز العائلات البلدية "من عاش أجداده لفترة طويلة بالمدن على مدى أربعة أجيال أو أكثر، واكتسبوا تدريجيا فئة التقادم العائلي بخلاف فئة "البرانية". إذن هو سليل عائلة عريقة في التمدن ويفترض ذلك امتلاكه لدار داخل المدينة وبعض الزياتين ولتربة بأحد المقابر"(٨٠). كما أن الظرفيات الداخلية والخارجية خدمت لصالح مفهوم "العائلة" المخزنية في الإيالة التونسية بداية من القرن الثامن عشر، فالدولة أصبحت تنتدب القياد من "من دواخل البلاد من ضمن العائلات الكبرى المحلية...البايليك كان يرغب في تشريكهم في استغلال دواخل البلاد وربط مصالحهم معه"(٨١). والعائلات المخزنية تتوزع مهامها بين "نخب المخزن ونخب

الدين ونخب المال"، أو نخبة القلم" و"نخبة السيف". وهذه الشبكة المخزنية تتكون أيضا من القياد والزامة والقيادات العسكرية ورجال البلاط. ومن آليات بناء شبكة العلاقات هي الأسرة الكبيرة العدد والمتحدة الكلمة والثروة الممتدّة.[٨٢] أيضًا من ركائز بناء شبكة العلاقات هي "الأحلاف العائليّة" سواء انطلاقا من القرابة العائلية أو المصاهرة أو حلف عائلي لأسباب مصالح مشتركة، حيث أنّ "العلاقات العائلية والأنساب والألقاب العائليّة تتدخّل بشكل لا يستهان به في الترقية الاجتماعية. والى جانب التحالف العائلي نجد "الأحلاف السياسيّة والاقتصاديّة"[٨٣].

**٣/٣-رأسمال الرمزي: العلم الشرعي/ الولاية:**

يمثّل اكتساب العلم خاصة الشرعي والتمكّن منه من أهمّ أسس بناء شبكة العلاقات. ويتجلّى ذلك من خلال "الشبكة الولائيّة الصوفية" و"الشبكة الشريفيّة" و"الشبكة العالمة"[٨٤]. هذه الشبكات تتعمّق بتقلّد الأفراد "الخطط الدينية والعلمية" مثل منصب الإفتاء، القضاء وإمامة الجوامع المعروفة مثل جامع الزيتونة وخاصة حمل لقب "شيخ الإسلام". "العلماء" في هذا الإطار يستثمرون رأسمالهم الرمزي لتوسيع شبكات نفوذهم، ويشرعنون أيضًا وجود السلطة وتجذّرها باعتبارهم "يحتلون أعلى الهرم الاجتماعي نظرا لامتلاكهم لرأسمال رمزي ولتأثيرهم القوي في الوعي الاجتماعي"[٨٥]. ففي الإيالة التونسية مثلا عائلة "آل الرصاع" تقلّب عدد من أفرادها ولمدّة طويلة عدد كبير من المناصب العلميّة، ويمثلون نموذجا للعائلات العلمية التي تمكنت من إرساء "علاقات ولاء مع الأوساط الحاكمة بتونس" وقد أفادت واستفادت من هذه العلاقة[٨٦].

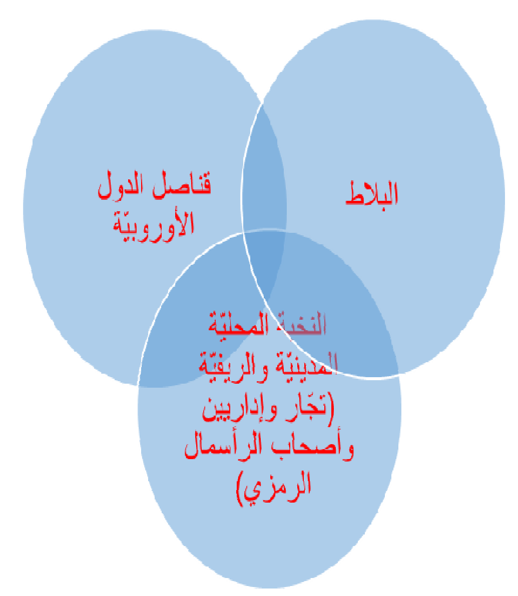
من الأسس الأخرى للرأسمال الرمزي في المغارب في الفترة الحديثة هو "التسنّن الطرقي"، فقد احتل الجانب الولائي مكانة متميزة حين بناء المكانة الاجتماعية. فإلى جانب استفادة الوليّ من الهيبة التي تُضفَى عليه من خلال المقدس، يستفيد ماديًا من خلال المدخول المادي الذي يجنيه من خلال زيارات التي تقام للمقام أو للزاوية، أيضا من خلال الأحباس التي تسجّل باسم الزاوية، هذا إلى جانب الإعفاءات الجبائيّة التي يتمتّع بها الوليّ أو أتباعه ومريديه. أمّا السلطة فهي تستثمر علاقة التحالف مع المؤسّسة الولائيّة أو الصوفيّة لغايات دعائيّة، أو من أجل استثمار الدور الذي تقوم به الزاوية لمحكّم بين القبائل، أو لتحييز المجال إن كان بعيدا عن مركز السلطة. نقول هنا أن الدور المهمّ الذي اكتسبته المؤسّسة الولائية يرجع أساسًا إلى عدم تمكّن الدولة خلال العهد الحديث من السيطرة الكاملة على كامل مجالها والتجاءها لعقد تحالفات مع قوى اجتماعيّة أهمها الزوايا والطرق الصوفيّة[٨٧]. من هنا يصبح التعليم الديني أو الحديث وسيلة فعّالة للنفاذ إلى قلب النخبة المخزنيّة، فجامع القرويين بفاس مثلا أنتج عددا كبيرا من النخب الإداريّة[٨٨]. ومجال تلقّي العلوم الشرعيّة يبرز عاملا مهمّا في بناء شبكة العلاقات المخزنيّة ألا وهو "الاستحقاق الشخصي" أي عامل الكفاءة الشخصيّة حيث يمكن أن نجد "أناس من أصول مغمورة أو بسيطة" تصل إلى مكانة مجتمعيّة مرموقة رغم أنّ "الترقّي الاجتماعي في مغرب القرن التاسع عشر يستند إلى عوامل النسب العائلي والثروة المجموعة والى التعليم في درجة أقلّ أهمّية" بسبب مواهبهم وكفاءتهم الشخصيّة، فالموهبة العسكريّة من خلال القائد أمنو السوسي أو القائد عبد الحميد ابن فاطمي الرحماني مثلا، أو "جودة الخطّ" أو ملكة الحفظ يمكن أن ترسّخ قدم الشخص في أحد شبكات النفوذ[٨٩].




**رسم توضيحي رقم (١)**

**يمثّل علاقة النخبة المخزنيّة بشبكات النفوذ قبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر[٩٠]**

يمكن التأكيد في الأخير على تشعّب شبكات النفوذ وتداخلها. ففي المغارب في القرن التاسع عشر لاحظنا أنّ البلاط يحتلّ لبّ رحى هذه الشبكة، فإلى جانب البلاط والأعيان المحليين (قياد، شيوخ...) والرموز الدينيّة (المفتين/ شيخ الإسلام...) نجد التجار الأوروبيين واليهود والبعثات الدبلوماسية خاصة قنصل فرنسا وإنجلترا. لكن تشعّب هذه الشبكة يرسّخ تواجد عناصر تُنافس لتأخذ مكانها ضمن ثنايا هذه الشبكة مثل "الوليّ" و"الشريف" وابن "العائلة". (انظر رسم توضيحي رقم ١).




**رسم توضيحي رقم (٢)**

**يمثّل علاقة النخبة المخزنيّة بشبكات النفوذ بعد النصف الثاني من القرن التاسع عشر**

فقد وظّف الفاعل الاجتماعي واللباس ومكان السكن[٩١]، والوجاهة الدينيّة والولائيّة والشرف[٩٢]، والعلاقة السياسية الجيّدة مع السلطة ولعب دور الوسيط المحلّي[٩٣] والثروة[٩٤] من أجل بناء هذه المكانة الاجتماعيّة وتشكيل شبكة العلاقات. وقد ظلّ البلاط إلى حدود النصف الأول من القرن التاسع عشر هو لبّ رحى هذه الشبكة ورأسها، لكن مع تأزّم وضعية بلدان المغارب الاقتصادية خاصة مع تراكم الديون الأوروبية جعل القناصل يوسعون نفوذهم على حساب نفوذ القصر مع حرصهم على تكريس آليّة الحماية القنصلية حيث اشتملت على حماية عدة تجار وأعيان محليين ورجال دين كانوا في السابق تحت نفوذ البايليك وأصبحت شبكة النفوذ شبكيّة متمدّدة أفقيًا أكثر منها عمّوديّة ومتداخلة أفقيًا أيضا فيما بينها، ولم يبق الباي/ السلطان هو رأس هذه الشبكة فقد أصبح القنصل ينافسه على هذه المكانة. بالمقابل تمدّد أيضًا النفوذ المحلّي (القيّاد أو اللزّامة مثلًا) وجعلوا ينافسون السلطة المركزيّة في حدّ ذاتها، وفي الطرف الآخر متّنت هذه الفئة علاقاتها بالحضور الأجنبي (الرسم التوضيحي رقم ٢).

بيّن الأستاذ عبد الحميد هنيّة علاقة تغيّر الظرفيّات خاصة السياسيّة والاجتماعيّة بتغيّر مكانة الفاعل الاجتماعي من الأخ إلى الرعيّة إلى المواطن. فمع انتصاب العثمانيين في البلاد التونسية تحول الفاعل المديني من "أخ" إلى "رعيّة" خاصّة مع بداية بروز مفهوم الدولة الترابيّة، والهاجس الذي صاحب وجود العثمانيين في تونس من خلال تحييز الإنسان والمجال خاصّة من خلال تقنية الجباية، مع بقاء أهل البادية ضمن مفهوم الأخ. والمرحلة الثانية مع منتصف القرن التاسع عشر وصلت الدولة الترابيّة في تونس إلى مرحلة متقدّمة ومع اشتداد هاجس الدولة الجبائي أصبحت مكانة الفاعل الاجتماعي سواء في المدينة أو البادية هي مكانة الرعيّة. والمرحلة الثالثة بدأت خلال الفترة الاستعماريّة حيث أصبح الفرد يعرف كرعيّة للوجود الاستعماري وبداية بروز مفهوم المواطنة، أو مواطن تحت السيطرة، أي ما بين أهلي مُستَعْمَر ومواطن وطني. والمرحلة الرابعة بدأت مع دولة الاستقلال حيث برز نخبة سياسية مرتبطة بتقنيات الحكم السياسي. والمرحلة الخامسة والأخيرة برزت مع الثورة التونسية برزت مكانة "الفرد المواطن"[٩٥]. ومن هنا نلاحظ أنّ "بروز وضعيّة الفرد محفوف بجملة من الصعوبات...انطلاقا من تركيز الدولة واستفادتها من تعاون سكّان المدن الذين وجدوا في الدولة ضالّتهم لتحديث البلاد وتطوير الاقتصاد. ذلك أنّه ثمّة تلاقي بين في مستوى المنافع والمصالح بين الدولة وسكّان المدن.."[٩٦].

نستنتج إذا أنّه في نهاية القرن التاسع عشر ومع بداية الفترة الاستعمارية برز تمثّل جديد للمكانة الاجتماعية للفاعل مع بداية بروز مفهوم "المواطن"، وهذه المكانة سوف تترسّخ مع دولة الاستقلال وسوف تؤثّر في نشأة الطبقة الوسطى في تونس. هذه التحوّلات المجتمعيّة أنتجت متغيّرات مهمّة عبر الزّمن على مستوى التراث الثقافي في مدينة تونس[٩٧]. فنشأة مكانة "الفرد" تاريخيًا أنتجت تمثّلات وممارسات جديدة أو مُسترجعة ومُستعادة بالمقارنة مع الإنسان المرتبط تعريفه بـ "سلالة أو شعب أو جماعة أو عائلة"[٩٨]. ومن هنا برز مفهوم "النخبة" بطريقة مغايرة للماضي خاصّة مع تطوّر التعليم[٩٩]، والمركزيّة التي أصبحت تحتلّها الوظيفة العموميّة أو رجل السياسة والقيادي الحزبي والنقابي[١٠٠]. والفكرة هنا أنّه كلّما تغيّرت تقنيات وآليّات بناء المكانة إلّا وتغيّرت معها ممارسات الفاعلين الاجتماعيّين على مستوى التراث الثقافي. فمثلا أصبحت البدلة الرسميّة وربطة العنق متوافقة مع المكانة الجديدة للنخبة وهي نخبة إداريّة، ولم تعد الجبّة والشاشيّة يُعتنى بها إلّا في المناسبات. إذا لكلّ مكانة اجتماعيّة تراثها الثقافي، فالتراث الثقافي دائما ما يُوظّف لتأسيس المكانة (سواء مكانة الفرد أو المؤسسة أو الدولة) وتأسيس شبكة العلاقات.

## خَاتِمَةُ

إن لحظة الاستعمار ساهمت في إعادة توزيع شبكة النفوذ والمؤثّرين والفاعلين فيها، ونشأة الطبقة الإداريّة الجديدة التي بدأت تبرز خلال الفترة الاستعماريّة وتعمّقت أكثر مع دولة الاستقلال، فهذه الطبقة الإدارية ساهمت في تأسيس مجموعة من الممارسات والعادات التي تتوافق مع مكانتها الجديدة. ويمكن القول إذا أن نشأة الطبقات الجديدة يُنتج عادات ثقافية وممارسات وشبكة علاقات وولاءات جديدة. والطبقة التي انتصرت في البلاد التونسية على الأقلّ على مستوى التأثير بُعيد القرن التاسع عشر هي الطبقة الوسطى. ونقول في الأخير أنّ شبكة العلاقات وما تنتجه من نفوذ رجعت ثانيًا إلى تمركزها في مكان واحد مع بداية المرحلة الاستعمارية في تونس والمغرب الأقصى، وأصبحت فرنسا رأس هذه الشبكة وهي المتحكّم فيها.

## الهَوامِشُ

(1) Ferrand Alexis. « La confidence : des relations au réseau ». In: *Sociétés contemporaines* N°5, Mars 1991. Réseaux sociaux. pp. 7- 20; doi: 10.3406/socco.1991.983 http://www.persee.fr/doc/socco_1150-1944_1991_num_5_1_983

(٢) المهدي جراد، **تجّار البلاط بإيالة تونس (أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن التاسع عشر)**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة/ دار الاتحاد للنشر والتوزيع، ٢٠١٧، ص ٦٤ وما بعدها.

(٣) سلوى هويدي، **أعوان الدولة بالإيالة التونسية: الأفراد، المجموعات، شبكات العلاقات، ١٧٣٥-١٨١٤**، كليّة العلوم الإنسانية والاجتماعيّة بتونس، ٢٠١٤، ص١٥.

(٤) مهدي جراد، **عائلات المخزن بالإيالة التونسية خلال العهد الحسيني (١٧٠٥- ١٨٨١)** ، كليّة العلوم الإنسانية والاجتماعيّة بتونس، ٢٠١١، ص١٣.

(٥) أحمد التوفيق، **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر.** *اينولتان* ١٨٥٠- ١٩١٢، منشورات كليّة الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الطبعة الثالثة، ٢٠١١، ص ٤٧٢- ٤٧٣.

(٦) نفس المرجع، ص ٣٦٠.

(٧) نفس المرجع، ص ٣٦١.

(٨) نفس المرجع، ص ٤٩٢.

(٩) دانييل شروتر، **تجّار** *الصويرة*- **المجتمع الحضري والإمبريالية في جنوب غرب المغرب ١٨٤٤ – ١٨٦٦**، منشورات كليّة الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ترجمة: خالد بن الصغير، ١٩٩٧، ص٣٧.

(١٠) نفس المرجع، ص٤٥.

(١١) نفس المرجع، ص ٥٤ + ٥٥ – ٥٩.

(١٢) نفس المرجع، ص٥٩.

(١٣) نفس المرجع، ص٦٠.

(١٤) نفس المرجع، ص ٦٢+ ٦٣.

(١٥) مصطفى الشابي، *النخبة المخزنية* **في مغرب القرن ١٩**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط،١٩٩٥، ص ١٥١-١٥٢.

(16) Fréderic HITZEL, « Dépréciation monétaire et précarité des fortunes des agents de l'État », in, *Réseaux d'échanges au Maghreb et en Méditerranée*, Université de Mohammed 5, A. Benhada- A.EL. Moudden- M. Lazhar Gaharbi(Coordination), 2008, Pp.7- 15

(١٧) سلوى هويدي، مرجع مذكور، ص ٤٨ وما بعدها.

(١٨) سلوى هويدي، ص٨٣ وما بعدها.

(١٩) سلوى هويدي، ص ١٢١ وما بعدها.

(٢٠) مصطفى الشابي، ص ٢٧ – ٣١.

(٢١) مصطفى الشابي، ص ٣٩ وما بعدها.

(٢٢) سلوى هويدي، ص ١٤٢ وما بعدها.

(٢٣) مهدي جراد، **عائلات المخزن**، مرجع مذكور، ص ٨٩ وما بعدها.

(٢٤) مصطفى الشابي، ***مرجع مذكور***، ص ٢٢- ٢٤.

(٢٥) دانييل شروتر، **تجار***الصويرة*، مرجع مذكور، ص ١٨.

(٢٦) نفس المرجع، ص ٤٧ + ٤٨.

(٢٧) نفس المرجع، ص ٢١.

(٢٨) نفس المرجع، ص ٢٤.

(٢٩) نفس المرجع، ص ٥٠.

(٣٠) مصطفى الشابي، ص ٢٧.

(٣١) نفس المرجع، ص ٤٥- ٦٠.

(٣٢) مصطفى الشابي، ص ٦١- ٧٦.

(٣٣) نورا لافي، "السلطات الحضرية في تونس أواخر العصر العثماني. استمرار النظام القديم"، ضمن: **المجالس البلدية في حوض البحر الأبيض المتوسط**، ترجمة: عثمان مصطفى عثمان، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦، ص٣١١- ٣٤٠.

(٣٤) ستيفان فيبر، "التنظيم الحضري بين اللوائح العثمانية والمصالح الخاصة والمشاركة السياسية: بلدية دمشق في أواخر العصر العثماني (١٨٦٤- ١٩١٨)"، ضمن: **المجالس البلدية في حوض البحر الأبيض المتوسط**، ترجمة: عثمان مصطفى عثمان، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦، ص ٢٤٥- ٣١٠.

(٣٥) المهدي جراد، **تجار البلاط بإيالة تونس. أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر**، كلية الآداب والعلوم الانسانيّة بسوسة/ دار الاتحاد للنشر والتوزيع، ٢٠١٧، ص١٩.

(٣٦) المهدي جراد، **تجار البلاط**، مرجع مذكور، ص٣١.

(٣٧) المهدي جراد، **عائلات المخزن**، مرجع مذكور، ص٩٧.

(٣٨) المهدي جراد، **تجار البلاط**، مرجع مذكور، ص ٤٥.

(٣٩) محمد الفريني، **زيت الزيتون في الإيالة التونسية: تاريخ مادة غذائية أساسية في العهد الحديث**، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، ٢٠١٦، ص ٣١٤ وما بعدها.

(٤٠) محمد الفريني، ص ٢٥٧- ٢٥٩.

(٤١) رضا بن رجب، **يهود البلاط ويهود المال في تونس العثمانيّة**، دار المدار الإسلامي، ٢٠١٠، ص ١٣.

(٤٢) نفس المرجع، ص ١٠٦ وما بعدها.

(٤٣) نفس المرجع، ص ١٦٠ وما بعدها.

(٤٤) نفس المرجع، ص ٤٢٨.

(٤٥) المهدي جراد، **تجار البلاط**، مرجع مذكور، ص ٤١- ٤٢.

(٤٦) المهدي جراد، **تجار البلاط**، ص ٤٧ وما بعدها.

(٤٧) مصطفى الشابي، ص ١٤٩- ١٥١.

(٤٨) مصطفى الشابي، ص ١٧٥- ١٧٦.

(٤٩) المهدي جراد، **تجار البلاط**، ص ٦٤+ ٦٥ وما بعدها.

(٥٠) المهدي جراد، **تجار البلاط**، ص١٣٠.

(٥١) المهدي جراد، **تجار البلاط**، ص١١١.

(٥٢) نللي حنّا، تجّار **القاهرة في العصر العثماني. سيرة أبو طاقيّة شاهبندر التجّار**، ترجمة: رؤوف عبّاس، الدار المصرية اللبنانيّة، ص ٨٦ وما بعدها.

(٥٣) نللي حنا، **مصر العثمانية والتحولات العالمية (١٥٠٠- ١٨٠٠)**، ترجمة: مجدي جرجس، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦، ص ١٠٧ وما بعدها.

(٥٤) فرنان بروديل، **الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية. من القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر، الجزء الثاني: التبادل التجاري وعملياته**، ترجمة: مصطفى ماهر، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٣، ص١٧٩.

(٥٥) فرنان برودل، ص ١٧٩- ١٩٧.

(٥٦) نللي حنا، **حرفيون مستثمرون. بواكير تطور الرأسمالية في مصر**، ترجمة: كمال السيد، المركز القومي للترجمة، ٢٠١١، ص ٧٧ وما بعدها.

(٥٧) مهدي جراد، **عائلات المخزن**، ص ٧٦.

(٥٨) مهدي جراد، **عائلات المخزن**، ص ٣٤٩ وما بعدها.

(٥٩) أحمد التوفيق، ص ٣٤٨ وما بعدها.

(٦٠) أحمد التوفيق، ص ٣٧١- ٣٧٢.

(٦١) أحمد التوفيق، ص ٣٧٣- ٣٧٤.

(٦٢) دانييل شروتر، تجّار الصويره، ص ٦٤ وما بعدها.

(٦٣) مصطفى الشابي، ص ١٣١- ١٣٧.

(٦٤) مصطفى الشابي، ص ٨١.

(٦٥) مصطفى الشابي، ص ٨٣.

(٦٦) مصطفى الشابي، ص ٨٤ وما بعدها.

(٦٧) سلوى هويدي، ص ٢٠٩.

(٦٨) سلوى هويدي، ص ٢٢١.

(٦٩) سلوى هويدي، ص ٢٢٣ وما بعدها.

(٧٠) مهدي جراد، **عائلات المخزن**، ص ٢٠٣.

(٧١) مهدي جراد، **عائلات المخزن**، ص ٣٧٠. سلوى هويدي، ص ٢٦٦ وما بعدها.

(٧٢) مهدي جراد، **عائلات المخزن**، ص ٢٠٦.

(٧٣) مهدي جراد، **عائلات المخزن**، ص ٣٢٧.

(٧٤) سلوى هويدي، ص١٦١.

(٧٥) المهدي جراد، **تجار البلاط**، ص ٢٢ + ٢٣.

(٧٦) أحمد التوفيق، ص ٣٨٢- ٣٨٩.

(٧٧) مهدي جراد، **عائلات المخزن**، ص ٧٣- ٧٤.

(٧٨) مهدي جراد، **عائلات المخزن**، ص١٧٧.

(٧٩) مصطفى الشابي، ص ١١٢- ١١٦.

(٨٠) مهدي جراد، **عائلات المخزن**، ص ٣٢.

(٨١) مهدي جراد، **عائلات المخزن**، ص ٤٩.

(٨٢) أحمد التوفيق، ص ١١٣ وما بعدها.

(٨٣) مصطفى الشابي، ص ١١٩- ١٣٠.

(٨٤) حسين بوجرة، "مكانة الفرد وتعدد المجال في تشكّل وإعادة تشكل الشبكات"، ضمن: **شبكات التواصل في المغارب والعالم المتوسطي** (تنسيق. عبد الرحيم بنحادة- عبد الرحمان المودن- محمد لزهر الغربي)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ٢٠٠٨، ص ١٧٥-١٩٩، ص ١٩١.

(٨٥) مهدي جراد، **عائلات المخزن**، ص ٢٨٠.

(٨٦) مهدي جراد، **عائلات المخزن**، ص ٢٨٢.

(٨٧) **تجّار الصويره**، ص ٧٢.

(٨٨) مصطفى الشابي، ص ٩٥ وما بعدها.

(٨٩) مصطفى الشابي، ص ١٠٩ وما بعدها.

(٩٠) الرسمين التوضيحيين من عمل صاحب الدراسة.

(٩١) عبد الواحد المكني، **النخب الاجتماعية التونسية زمن الاستعمار الفرنسي (١٨٨١- ١٩٥٦): الأشراف والبلدية مثالا**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، ٢٠٠٤، ص٣١-٩٨. لمياء عبيدي، **آل بن عاشور: رحلة في فكر العالم التونسي**، دار آفاق: برسبكتيف للنشر بتونس، ٢٠١٥.

(92) Houssein Boujarra, «Ulama et awliya dans l'Algérie et la Tunisie de 16(e) 17(e) siècle», In, *Etre notable au Maghreb: Dynamique des configurations notabiliaires*, I.R.M.C, Maisonneuve et Larose, Paris, 2006, pp.89- 107.

(93) Abdelhamid Hénia, «Les notables dans la Tunisie de l'intérieur (18(e)-19(e) siècle)», In, *Etre notable au Maghreb: Op. Cit*, pp.141- 151. Mohamed Lazhar Gharbi, « l'historiographie tunisienne de la période moderne et contemporaine et le problème de la périodisation », In, *Itinéraire d'un historien et dune historiographie, Mélanges de DIRASET offerts à Mohamed-Hédi Cherif*, Sous la direction de : Abdelhamid Hénia, C.P.U, Laboratoire de recherche DIRASET-Université de Tunis, 2008, pp.177-186

(٩٤) محمد الأزهر الغربي، "الأرضية الاقتصادية لفئة العلماء بالبلاد التونسية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر"، ضمن: **النخبة والسلطة في العالم العربي خلال العصر الحديث والمعاصر**، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، سلسلة التاريخ عدد ٥، تونس، ١٩٩٢، ص٣٦٩-٣٨٢.

(95) Abdelhamid Hénia, *Le frère, le Sujet et le citoyen : Dynamique du statut politique de l'individu en Tunisie*, L'Or du temps. Collection : Mémoire historique de la Tunisie, Tunis, 2015, p.178- 179.

(٩٦) محمد الطاهر المنصوري، "**مراجعة كتاب الأخ، الرعيّة، والمواطن: ديناميّة الوضع السياسي للفرد في البلاد التونسيّة**"، مجلة أسطور، الدوحة، العدد ٤، ٢٠١٦، صص١٨٢-١٨٥، ص١٨٣

(٩٧) بيّن الأستاذ عبد الوهاب بوحديبة أن بناء الدولة الوطنيّة تشابك مع محاولة استرجاعها لممارسات تراثيّة عديدة تمّ تغييبها أو نسيانها خلال الفترة الاستعماريّة حيث أنّ "تونس الحديثة هي مستهلك كبير للتقاليد" (La Tunisie moderne est grosse consommatrice de traditions). وبعض من هذه الممارسات الثقافية حافظ على أصالته والبعض الآخر وُظّف بطريقة جديدة (Un nouvel usage à un objet ancient) انظر:

Abdelwahab Bouhdiba, «L'artisanat tunisien contemporain», *Culture et société*, Faculté des lettres et sciences humaines de Tunis, Tunis, 1978, pp.١٠٩-127, p.119.

(٩٨) إدوارد كار، **ما هو التّاريخ؟**، ترجمة: ريهام عبد المعبود، عالم الأدب للترجمة والنشر، مصر، ٢٠١٨، ص٣٢-٣٣.

(٩٩) نور الدين الدقي/ ليلى عدّة/ الهادي جلّاب، **المجتمع التونسي والاستغلال الاستعماري**، المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية: سلسلة وثائق ونصوص من تاريخ تونس المعاصر عدد ١، تونس، ١٩٩٧، ص٨٦-٨٧.

(100) Abdelbaki Hermassi, « Elite et société en Tunisie : Intégration et mobilisation », *R. T. S*, C.E.R.E.S, Tunis, N16, Mars 1969, pp.11-19.

عادل بن يوسف، "كتابة المذكّرات والسير الذاتيّة: رصد وقراءة لإصدارات السياسيّين والنقابيّين التونسيّين منذ سنة ١٩٥٦"، ضمن: **دراسات حول الدولة والثقافة والمجتمع في المجال العربي-الإسلامي: أعمال مهداة إلى الأستاذ المتميز عبد الجليل التميمي**، جمع النصوص وقدّم لها: إبراهيم محمد السعداوي، الجمعيّة التونسية المتوسطيّة للدراسات التاريخية والاجتماعية والاقتصادية/ مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، سلسلة الدراسات التاريخية عدد ٢٢، تونس، ٢٠١٣، الجزء الأوّل، ص٤٣٩-٤٧٨.

# الشخصية الحضارية لبربر تونس خلال القرن التاسع عشر الميلادي
## جبالية السند نموذجًا



**د. عبد القادر سوداني**
دكتوراه في التاريخ الحديث
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس
جامعة صفاقس – الجمهورية التونسية

**مُلَخّص**

*عملنا على الإحاطة بتاريخ البربر في تونس، ويسمون كذلك بالجبالية (وخاصةً في منطقة قفصة، غرب البلاد)، هذا التاريخ الذي زخر بزخم وافر من الميزات الحضارية التي كان من المأمول أن تثري الهوية التونسية، غير أن عوامل اجتماعية وسياسية ساهمت في انكفاء جبالية السند على ذاتهم، سنعمل في هذا البحث على تبيان علائق البربر بالحزام البشري لمدينة السند. ترك بربر السند تراثًا ماديًا وآخر لا مادي، سنعمل في هذا البحث على تبيان أهم ملامح هذا التراث، من ذلك اللباس الذي يتميز به البربري عن غيره من السكان والذي يعكس تاريخ هذه الفئة الاجتماعية، كما سنعرّج على ظاهرة الوشم لدى النساء والرجال سواء بسواء، هذه الرموز التي كانت أحد تجليات بقايا الثقافة البربرية. ارتأينا العودة إلى الفترة الحديثة وخاصةً خلال القرن التاسع عشر الميلادي الذي عرف زخمًا من التحولات لدى البربر في منطقة السند سواء في التكوينية الداخلية للجبالية أو في علاقاتهم بالسلطة والمجاميع المجاورة.*

**بيانات المقال:**
تاريخ استلام المقال: ٢١ ديسمبر ٢٠١٧
تاريخ قبـول النشـر: ٠٧ أبريل ٢٠١٨

**كلمات مفتاحية:**
البربر, السند, السلطة, الفن, العادات, المعتقدات

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0054806

**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**
عبد القادر سوداني. "الشخصية الحضارية لبربر تونس خلال القرن التاسع عشر الميلادي: جبالية السند نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الثاني والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٨. ص١٥٣ – ١٥٩.

## مُقَدِّمَةٌ

فـي سـياق نظـام العولمـة كـان التمشـي هـو تفتيـت الهويـات الثقافية المحلية ونمذجة الفكـر الإنسـاني وسـلوك المجتمعات، غيـر أن الاهتمام بالتـاريخ المحلـي بـات مبحثًا لا مندوحة عنه من أجل رفع بعض الآراء الالتباسية، خاصةً تلك الآراء القائلـة بعتاقـة المجتمـع التونسـي وانقسـاميته، وإبـراز الهوية المحلية باعتبارها هوية متحركة وخلاّقة. إن المتأمل في بعض الدراسات التي تناولت تاريخ البربـر يـرى أنهـم أسـقطوا من الفعل التاريخي في جلّ العصور حتى هيئ لأغلب الباحثين أنهـم عـابرون دون أثـر ثقـافي، ومـن تجليـات ارتبـاط البربـر بالعشـوائية فـي الفعـل التـاريخي هـو قبـولهم بكـل الموجـات الحضارية التي وفدت للبلاد التونسية، ومن دلالات ذلك تركز غالبيتهـم فـي تـونس المنسـية، لا سـيما فـي شـعف الجبال، كما انتأوا الأبعاد القصية في الصحاري والهوامش المجالية. مـع هـذا التـذويب حـافظ البربـر علـى ملامـح مـن الشخصـية الحضـارية مثل اللغة واللبـاس ونمـط العـيش، هـذه العوامل سـاهمت فـي تشـكيل ذهنيـة جمعيـة خاصـة بجبالية السـند سنعمل في هذا البحث على التعريج على أهم خاصياتها.

من الخاصيات الحضارية ذات المسحة الفنية لجبالية السند يمكن ذكر الوشم الذي يجمع بين تاريخ الفكر وتـاريخ الجسـد، فمـن خـلال هـذه التعبيـرات أصبـح الجسـد بمثابـة مـتن وأداة تحكي تاريخ المجموعات، فبات الجسد فضاء يكشـف الأبعاد السوسـيو-سياسـية للـبلاد التونسـية، فانفلـت الجسـد مـن

البعد الفيزيائي إلى الجسد الحضاري الذي يجسّد جانبا من تاريخ السكان، هذا التاريخ الذي زخر بزخم وافر من العلامات الفنية. فالفن هو من آليات المقاومة الحضارية والمثاقفة الدفاعية التي إنتهجها البربر، فالمجال البربري وقع احتلاله من قبل الفنيقيين والرومان والفرنسيين، هذا المد الاستعماري المتنوع أضعف الهويات الأولية للمجموعات المنهزمة، وما اختلاف الأنوماستيكية البربرية (ليبيون، بربر، أمازيغ،...) إلا كناية عن عدم توازن التفاعل مع الآخر وقوة الحضور الأجنبي في المجالات البربرية ، فبقي العنصر البربري من الأقليات الأقوامية[1] التي عجزت عن فرض نمطها الحضاري وبقي مفعولاً به تاريخيًا. غير أن مزيد البحث في تاريخ هذه المجموعات يكشف عن مخزون تاريخي للبربر بقي طي التغييب والتجاهل من قبل النخبة واللفيف الحاكم.

ما يمكن تسجيله خلال القرن التاسع عشر الميلادي في تونس هي إستراتيجية تمتين القيود من قبل المخزن على المجموعات الطرفية، لأن البايليك كان يدرك أن الحدود السياسية قد جزّأت البنى الإثنية للبربر والذين قد يتطلعون إلى لم شظاياهم في المغارب. لذلك بالغ المخزن في استهداف الجبالية في مختلف أرجاء الإيالة بالحملات الزجرية وبالاعتصار الضريبي مرّ بعدها الجبالية إلى طور الإمتثالية السياسية والصمت الحضاري، هذا الصمت الذي دفعنا إلى محاولة إبراز بعض من السمات الحضارية لجبالية السند.

## أولاً: الجبل والمخزن
## (ديالكتيك الرفض والفرض)

### ١/١- الجبالية: جزيرة قروية في محيط بدوي

تقع قرية السند شرق مدينة قفصة في سفح جبال عرباطة، تحيط بها من الشرق والشمال مجموعات أولاد عزيز، استوطنت أغلب المجموعات الكهوف في الجبل قبل أن يجبرها الاستعمار الفرنسي على النزول من الجبل وتعمير السهوب المحاذية للجبل، ويُعَدّ جبالية السند أبرز المجموعات البربرية إلى جانب بربر ماجورة وكذلك العيايشة، تميّز الجبالية كغيرهم من البربر بالطابع الفني الذي حدد جانب من الشخصية الحضارية لبربر السند.

ارتبط الجبل بالرفض ومقاومة عسف المخزن والجور الكولينيالي،[2] ففي العهد التركي تعرض البربر إلى التنكيل من قبل الحملات الزجرية، فتم إخلاء أغلب الجبال (الحامة، عمدون، وسلات ، ..) من ساكنيها، فدانت الجبالية بطاعة هذا الحي من المجتمع (الأتراك) رغم ذلك لبث تنفذ المركز في الجبال القصيّة مبعثرا ومتعثرا، فبقي الجبل منطقة رفض للحكم المركزي لذلك وقع استهدافه في مرات عديدة من العهد المرادي حتى إخلاء وسلات في العهد الحسيني ليمر بعهدها أغلب الجبالية (باستثناء جبالية الشمال الغربي) إلى طور الخضوع والاستكانة.

إلى جانب ذلك فقد حافظ جبالية السند على طابعهم الولائي للمركز لذلك لم نشهد أية صدامات بين الجبالية وبين المخزن الحسيني، فقد كان البايليك يعوّل على دعم الجبالية لمراقبة عروش الهمامة العاصية. في المقابل كان الجبالية يدركون أنهم دون سند قبلي فكانوا بحاجة إلى الدعم المركزي. مع هذه المخزنة المركّبة لبث الجبل منطقة ظلال، وبقي البربر من الجماعات الإضافية (قبيلة روادف) التي لم تتضح طبيعة علاقاتها بالبايليك وبالمجاميع المتاخمة، فكان على جبالية السند التعاطي مع الخاصيات السوسيو-سياسية لمنطقة الهمامة. نجح جبالية السند في التكيف مع مختلف التقلبات السياسية والاجتماعية، كما استفادوا من الصراعات القبلية المحيطة بهم، من ذلك الصراع الداخلي لعرش أولاد عزيز، بين أولاد علي بن زايد (أولاد عبدالكريم، الردادية، البدور) وبين أولاد محمد بن عزيز (أولاد بلهادي، أولاد محمد، أولاد مبارك)، ثم شقّت الصراعات الداخلية عرش أولاد علي بن زايد مما جعل الجبالية يعددون من شبكة تحالفاتهم،[3] ويبعدون الجبل عن مخاطر الصفوفية القبلية.

في تخوم الجبل يرابط أولاد عزيز وخاصة الردادية وأولاد عبد الكريم الذين كانوا في تماس مباشر مع الجبالية. ولئن مكّنت النزاعات بين الجانبين (أولاد عبدالكريم والردادية) بوجود هامش من المناورة بالنسبة للجبالية فقد أدت الغربة الإثنية إلى الإنغلاق على الذات نتيجة وجود حقل قوى داخلي جاذب للأفراد،[4] وهو الجبل الذي عصمهم من الصراعات الدائرة حولهم. هذا الحياد الذي جعل أولاد عبد الكريم يستأمنونهم على حبوبهم بعد نهبهم لمحلة البايليك واستهزائهم بالباي "البي من بياه"، وتوقعهم ردة فعل من قبل المخزن. فاستفاد الجبالية في مرحلة أولى من طابع الإغارة لدى أولاد عبد الكريم من خلال تقديم العون لهم لذلك لم نشهد عمليات غزوة أو "خنبة " بين الجانبين عكس استهداف أولاد عبدالكريم للعيايشة[5] ولأولاد يعقوب.[6] أدرك الجبالية أن السلطة المركزية كانت تشجّع عمليات الإغارة بين العروش لأنها كانت تعمد إلى تسليط الخطايا

على الغوّارة وعدم إرجاع المنهوب إلى أصحابه، لذلك ربطوا عقد "صحبة وشركة" مع أولاد عبدالكريم لتؤمن من جهة إغاراتهم ولتستفيد من جهة أخرى من النشاط الرعوي لديهم. تواصلت لدى جبالية السند تلك الذهنية الليبرالية القادرة على التكيّف مع كل المتغيّرات، من طاعة البلاط الحسيني إلى مهادنة القوات الفرنسية بعد ١٨٨١، فالتعامل مع الاستعمار ساعد على مزيد التحضّر والاستفادة التجارية والاقتصادية مثل تعاملهم مع المعمّر "تريشي"، دونك في ذلك أن البرج وقع استغلاله من قبل الاستعمار لإحكام سيطرته على الأحراش والفحوص المجاورة.

داخل الجبل يطالعنا القصر في الأعلى، والغالب أنه بيت الميعاد والرجالة الكبار، ومنه يتم تصريف حكم الجبل، في هذا السياق يمكن أن ننوّه أن التنظيم السياسي تميّز بهيمنة سفوقراطية القبيلة البربرية وسيطرة حكم البيوتات التي تحرص على احترام العرف والانسجام العشائري، هذا التنظيم السياسي سمح بالمحافظة على أصالة الهوية البربرية لدى جبالية السند. وقع توزيع الدشر حسب الجد، وهذا ما يؤكده كثرة قباب الزوايا في السفح، كما يشي بحالة التشظي الذي عرفته المجموعات الجبلية، دونك في ذلك أن جبالية السند قبلوا إيواء بعض الطرابلسية والجريدية داخل مجالهم مما يعني انفتاح البنية البربرية على غيرها من التكوينات الاجتماعية. فحسب المراقب المدني بقفصة سنة ١٩٠٠ وقع تقسيم الجبالية إلى مشيختين:

- مشيخة بلدة السند: الناصرية (أولاد سيدي راشد، السكارفة، أولاد جراد، أولاد جابلة) والسندية (أولاد سليمان، أولاد بوساكن، الحمايزية، الحراثية) والمشاشة (أولاد زاوية المش، القمارصة، الهذالة).
- مشيخة أولاد بوسعد: أولاد بوسعد (التمامة، الغيول، أولاد كشاش، أولاد علي بن سالم، أولاد خنداق، البياضة، أولاد منصور، التوابيس، أولاد عبد الرحمان، أولاد القواري).

إلى جانب تمسك بربر السند بالجبل تميزوا كذلك بالقدرة على تأثيث المجال من خلال التحكم في التساقطات والعيون المائية، خاصة في مواسم الجفاف، فشاع حفر المواجل في نهايات المجاري وعلى الحواشي،(٧) كما كانوا يزرعون التين والزيتون في مصاطب الجبال. إن من أسباب تواصل اللحمة الداخلية للبربر قدرتهم على حماية الهوية والثقافة الأصيلة واستجابتهم للعرف المنظّم لتعايشهم. فقد سيطر العرف في المناطق التي تناءت عن الحواضر ولم يكن يعتدّ برأي سدنة الفقه أمام قوة العرف، فامتاز الجبالية بشدة حميتهم في شأن الشرف،(٨) وهو ما يعني أن العرف كان الإطار المنظّم لعادات وتقاليد الجبالية.

**٢/١-العادات والتقاليد لدى جبالية السند**

تميزت التركيبة السكانية للمجتمع التونسي بالتنوع العرقي والاثني، إذ استوطن بتونس كل من الرومان والعرب والأندلسيون والترك واليهود والمماليك والغرابة وغيرهم من الأجناس والاثنيات. وكان الجبالية هم العنصر البشري الأصيل لهذا القطر،(٩) لذلك نرى أن قيمة التناصر كانت من الهويات التي تجمع مختلف المجاميع البربرية، من ذلك أن جبالية وسلات وبعد تعرض جبلهم للإخلاء اختاروا الاستقرار لدى المجموعات الجبلية في الغرب،(١٠) مما يعني تماثل العادات والتقاليد لدى مختلف المجاميع البربرية. تعوّد البربر على التوجّس من البدو لذلك كان المسلك الذي يستعمل لصعود الجبل عادة ما يكون شديد الضيق وبه التواءات حتى تسهل مراقبته لذلك سمي ب " الخنقة "، وعند ظهور خطر الخنّابة أو الجيّاشة يتم قرع الطبول أو إشعال النيران من أعلى قمة الجبل كعلامة تحذير. وغني عن البيان أن الطبل يحتلّ أهمية كبرى في عادات البربر،(١١) فهو وسيلة تواصل وإخبار ويؤثث كل مناسبات البربر.

من العادات الاستهلاكية للبربر هو إقبالهم على أكل الكسكسي والزميطة الممزوجة بالتمر والعسل، وقد تميّز البربر بادخار مأكولاتهم في بيت المونة والتي شيّدت بطريقة هندسية تلائم الحرّ والقرّ، فداخل كل كهف في جبل السند نجد مكانًا مرتفعًا وبمنأى عن الشمس والرطوبة يستعمل عادة لتخزين مؤونة العائلة. وفي أعلى الجبل خصص كهف بأكمله لخزن الحبوب والتمر و" الكباب" و" الشريحة".(١٢) نجح البربر في استثمار كل إمكانات الجبل من الغراسات في السفح والزراعات في "البحيرة والقرعة"، كما استعمل حجارة " الصوان" في عصر الزيت، وهي نوع من الحجارة الذي لا يمتص الزيت، زيادة على أن الجبل يحتوي على بعض الأشجار التي تستعمل كدواء مثل الإكليل والزعتر، وبذلك فقد وفّر الجبل كل احتياجات البربري، وكانت هذه الكفاية نتيجة لتاريخ طويل من التعامل مع المحيط وتراث من الثقافة المعيشية.

علاوة على التمكن من عالم التطبب فقد تميّز تاريخ الجبالية بشدة ارتباطهم بعالم الحدثان والميتاتاريخ، ففي معبد مدينة عين الأصنام يجتمع الرجال والنساء في وقت معلوم من السنة ويقدم الأطفال الصغار كقرابين للآلهة،(١٣) كما أن تقديس البربر للمغارات والكهوف وقمم الجبال لأنها تتيح لهم الاتصال بالآلهة الأرضية. أما قمم الجبال فتتيح لهم الاتصال بآلهة السماء،(١٤) لذلك يؤمن جبالية السند أن مطر أوسّو مطر مبارك وأن على الشخص أن يبتّل به لذلك يخرج الجبالية عند هطول المطر إلى قمة الجبل راجين أن تتطهرهم من الأرواح الشريرة. تواصلت هذه العقيدة بشكل آخر إذ بنيت الزوايا ودار الجماعة في قمم الجبال مما يشي بأن العادات البربرية بقيت صامدة في الوعي الجمعي والفردي.

## ثانيًا: البربر بين الهوية المحلية والهوية الجامعة

### ١/٢-السمات الحضارية لجبالية السند

أثبتت بعض الدراسات الجينية الأخيرة أن المجتمع التونسي هو مجتمع متعدد الأصول مع بعض الجزر المتشابهة(١٥) غير أن عمليات المثاقفة والانصهار الحضاري ساهم في تقارب مختلف الاثنيات في تونس وتبديد الفروقات الجلّية بينهم. تؤكد أغلب الدراسات أن البربر وجدوا منذ القدم، وهم مجموعة إثنية مستقلة بذاتهم،(١٦) وقد ارتبط وجودهم في تونس بالحضارة القبصية، لذلك تميز البربر بخاصيات فيزيونومية (الامتلاء والبياض) والتي تختلف مثلا عن ملامح المرفولوجيا العربية (السمرة والنحافة) التي يتميز بها قطاع واسع من السكان، مما يعني أنهم من العنصر الأصيل للمجتمع التونسي. ومن أبرز المميزات الحضارية للساكنة البربرية هي اللغة الأمازيغية "الشلحة"، حتى أن تقلص هذه اللغة لم يمنع تواصلها حتى وقتنا الراهن وتمكنت من الإفلات من الإبادة الحضارية التي تعرض لها البربر، خاصةً زمن المد العثماني إذ تعرّض البربر إلى شتى أصناف التنكيل المادي والرمزي. ما من بد أن بعض مفردات المنطوق الشعبي المحلي بقيت تحتفظ ببعض مفردات اللغة البربرية من ذلك: القطوس: القط، الزياط: الصياح، صريدي: برد، غنجاية: ملعقة، كشطة: عمامة، للا: سيدة، توّا: الآن.....، كما أن الاستقرار في الكهوف والمغاور الجبلية سمح للتراث المحلي (المادي واللامادي) بالانتقال من جيل لآخر بكل يسر ومنع ذوبان الهوية والعادات البربرية في موجة الحضارات الوافدة.

لجأ البربر إلى سياسة التوقي والترقي (من الرقية) في تعاملهم مع مختلف الأعراق الحاكمة في تونس، إذ أجبروا تحت واقع الضعف على إتقان إستراتيجية التواري والمداهنة، لذلك نرى أنهم أقبلوا على الرومنة زمن الوجود الروماني ثم اعتنقوا الإسلام دينا في حقبة لاحقة، ثم اضطروا إلى عقد الصحبة مع الأعراب المحيطين بجبل السند في فترة الأزمات الطويلة La Phase des Grandes Crises والتي سادت فيها الفوضى والإغارة. وعندما وفد الأتراك نراهم قد مالوا إلى التهادن مع المخزن، فلم نشهد أية حملة زجرية تجاه جبالية السند، عكس بقية البربر الذين تعرضوا للإخلاء والتنكيل، مما يعني استقامة طاعتهم للمركز. هذه التحولات طبعت السيكولوجيا الفردية والجمعية بطابع ليبيرالي قادر على التفاعل مع الضغوط الخارجية، عكس أعراب الهمامة المحيطين بهم والذين اتسموا بالغلظة والشدة. هذه الشخصية الليبرالية لبربر السند كانت كذلك عصارة لفكر منفتح وفني.

تميزت المرأة الجبالية بالاهتمام بجمالها، إذ تجمعها علاقة مودّة مع الشباحة (المرآة) وتميّزت كذلك بمعرفتها بطرق استخراج الخضاب والمساحيق من التربة والأشجار الجبلية، فتستعمل الجبس والرماد لإزالة الشعر، كما تستعمل الكحل والحرقوس والسواك والطين والجدرة (خليط من الخزامى والقرنفل) لزيادة جمال الشعر ونظارة الوجه. وقبل استعمال الحرقوس يتم مزجه بالماء بواسطة المرود ثم يقع تمريره على الوجه وتستخدم قذاة الحلفاء للقيام ببعض الرسوم فوق الرموش. والحرقوس هو وقف على النساء المتزوجات، وخاصة خلال الفترة الواقعة بين الزواج والولادة الأولى، وتتكفّل الحنانة بتجميل النساء وتكون عادة من عجائز العامة، وإلى جانب الزينة فقد تميزّ جبالية السند بتراث من المنطوق الذي كشف عن تواصل بقايا من الحضارة البربرية. كما أدت خصوصية المكان الجبلي (ضيق الفضاء) إلى غياب بعض الأنشطة الترفيهية المتوفرة في الفحوص مثل الحبارية، كرة الزلاط والفروسية مما أوجد بعض الأنواع الأخرى من التسلية، فشاع في السند الجبل الألعاب العقلية مثل الأحاجي والحروز.

### ٢/٢- الفن الصامت لدى جبالية السند خلال القرن التاسع عشر

رغم أن الكثير من العلامات السيميائية للمجموعات الحضارية لم يقع دراستها دراسة مستفيضة، تنسجم مع أهمية الفن في النبش في الذاكرة الجماعية[١٧] نتيجة الإبادة الحضارية التي تعرّض لها بربر شمال إفريقيا، إلا أن دراسة المجاميع السكانية وفق رؤية أنتروبولوجية بات أمرا أكيدا. فالوشم يعبّر عن التقاء التاريخ بالأنتروبولوجيا والإثنوغرافيا، والوشم يسمح بالحفر في ذاكرة المجاميع السكانية فهو من الفنون العابرة للزمن. وقد يكون البربر المستقرون أوّل من تعاطى الوشم، إذ كانوا لا يزوّجون بناتهم إلا وهنّ موشمات، وينجز الوشم بعد سلسلة من الغرزات والحزّات الجلدية التي تمكن من نشر قليل من السخام (رماد القدر) بين الأدمة والبشرة وقطعة من الصوف، وتنطلق العملية بوخز الجلد ثم وضع السخام على الخدش، ثم يدعك الجرح بزيت الزيتون وأوراق العنب.

سادت لدى نساء البربر عادة وخز جلود أبنائهن وبناتهن منذ طفولتهم، إنه وشم الحماية المسمى عيّاشة، ومن المهم الإشارة هنا إلى ربط سيلان الدم بالبركة وزوال الشرّ "سال الدم، فات الهم"،[١٨] فالوشم كان من الطقوس السحرية ونوعا من التمائم الدائمة ودواء لعلاج ألم كان بالإمكان طرده بطريقة مغايرة وهو زخرف جمالي للجسد. كما يكتسي الوشم طابعًا طبيًا إذ من شأنه التخفيف من الألم وطرد الأرواح الشريرة وخاصة تلك التي تحوم حول المولود الصغير حسب المعتقد الشعبي. شاع لدى جبالية السند رسم النخيل (الجريدة) والسمك (الحوتة) والصليب على الجسم (ذبّانة)، وتخيّر المرأة الوشم في الأماكن المكشوفة من الجسد وخاصةً في اليد والكاحل والوجه، وغني عن البيان أن المرأة الجبالية تنحو إلى الرسم التناظري في الوجه من خلال الوشم بخط عمودي وآخر أفقي تبدأ من الجبهة إلى الذقن مرورا بالأنف، ثم نجد خطًا آخر من وجنة الوجه إلى ما تحت العينيين.

أما الرجل فيميل لوشم الحيوانات (خاصةً الثعبان والأسد) والنساء ورسومات ذات أثر طوطمي وأخرى تميل إلى التعبير عن السيكولوجيا الفردية مثل وشم السيوف التي تعبّر عن تحبيذ منهج القوة والسطوة، ويختار الرجل الوشم في الساعد والصدر والمعصم. في المقابل تخيّر المرأة التورية في الوشم أي تخليد بعض الأحداث أو الشخصيات في حياة المرأة لكن باتباع الرموز مثل النقطة، ولا غرو أن المجتمع الباتريمونيالي (الذكوري) في منطقة السند يدفع النساء إلى إخفاء رغباتها وعدم البوح بها حتى في الوشم.

كما أن النسيج هو من الفنون البربرية الشائعة وهو أقدم أنواع الفن لدى البربر، إذ وجد منذ ما قبل التاريخ في الحوض المتوسطي.[١٩] فالنسيج انتشر لدى بعض المجموعات البربرية (البرانس) التي تعتمد على تربية الماشية من أغنام وإبل، هذه الماشية التي توفّر المادة الأساسية لصناعة البخنوق والبرنس المخروطي الشكل والفليج اللازم لتشييد الخيام زمن الترحال. كما تكشف هذه الأنشطة الحرفية عن دور المرأة في المجال الفني، فالرسوم النسيجية حملت الرؤية الفنية للمرأة، هذه المرأة التي احتفلت بالجمال "جيب بنتك زينة أما الحذاقة تتعلمها من بنات النسا" أي أن المهم أن تكون ابنتك جميلة أما تدبير شؤون المنزل فستتعلمها من عند الأخريات. فنفس الأشكال من الرسوم نجدها في النسيج وكذلك في الوشم،[٢٠] مما يعني أن المرأة البربرية كانت تتمتع بشيء من الاطلاع والمعرفة بالجانب الإستيتيقي. ولا مندوحة أن سطوة المرأة الجبالية عكسها المأثور الشعبي مثل: النسا غلاّبات كل غالب،[٢١] وتحاول كل النساء أن تبرز في مجال النسيج وتحاول جلب الأنظار لهن ولمنتوجهن.

كما كان اللباس من الأمارات البيّنة للفن البربري فالمرأة الجبالية تلبس النقرة (الفضّة) أما الرجل فيلبس الخنجر والعمامة والبرنس والوزرة والتخليلة، ونرى أن اللون البني قد هيمن على غيره من الألوان في منطقة السند الجبل، وتتكفل المرأة الجبلية بالنسج لبيتها ولبيت "صاحب" زوجها من العربان، وكان كل عرش من الجبالية يحاول التفوّق عن غيره وأن يتميز بنوعية خاصة من المنسوج. ويمر النسيج بعدة مراحل تبدأ عندما يأتي العربي بـ "جزة الصوف" في "علاقة الشركة" لتنهمك المرأة الجبالية في تنظيف الصوف وغزله ودباغته ثم نسجه. إلى جانب النسيج والحياكة التي كشفت عن تراث بربري بقي طي الصمت والتجاهل، فقد احتفل جبالية السند بالموت، وكانت كل عائلة تحاول الإعلاء من شأن فقيدها من خلال الاحتفاء بقبره لذلك تنوّعت النقوش في الأضرحة وتعددت اللقى الأثرية الخاصة بالمقابر، فالبربر قد صمدوا لتقلبات التاريخ وغزو الغزاة ومحاولات الاحتواء والتذويب والطمس، فكأنهم المجرى الثابت الذي

ظّل موصولاً بعد انقضاء الحضارات والدول والإمبراطوريات التي تعاقبت على منطقة شمال إفريقيا.[٢٢]

إن أهمية دراسة البنى الفوقية والهويات الأولية للبربر من شأنها أن تساهم في إدماجهم في الهوية الوطنية وتحسم مع جدلية الانتماء/ الإقصاء لكيان واحد جامع، فارتخاء الروابط بين التكوينيات الاجتماعية قد يكون عامل تفكك لأن الملاحظ أن البلدان التي لم تستطع التعامل مع الأقليات بقيت مكانًا للتوتر الدائم،[٢٣] زد على ذلك أن بعض الإيديولوجيات ساهمت – بوعي أو بدونه- في نزع الغطاء الديني الجامع لمختلف الأعراق الاجتماعية، فكان الركون إلى الهوية العرقية ثم الهوية المناطقية والتي قد تهدد البناء السياسي والاجتماعي لتونس.

## خَاتِمَةُ

ما يمكن التنويه إليه في الختام أن هذا البحث المجهري (Le Micro-Histoire ) هو محاولة لفتح أفق جديد في البحث حول تاريخ البربر في تونس بصفة عامة وجبالية السند بصفة خاصة، فأغلب الدراسات التي تناولت التاريخ البربري بقيت تراوح في إطار المبحث التراثي الجامد والراكد، ولم يتم تشكيل تاريخ شمولي (Le Macro-Histoire) لجبالية السند يشمل السياقات السياسية والاجتماعية والثقافية المحيطة والمتداخلة مع التاريخ المحلي.

اغتنمت المدرسة الكولينيالية الفراغ الرهيب حول الهوية البربرية لمحاولة تفكيك وتركيب التاريخ الثقافي والاجتماعي التونسي، لذلك ما فتئ المستشرقون والانقساميون يتلاعبون بالذاكرة البربرية، فكرّست جهودها لتأكيد الخصوصيات المحلية مركّزة اهتمامها على اللهجات والمعتقدات الشعبية. ولم يشذّ جبالية السند عن هذا السياق الانقسامي الذي يحضّ على إبراز الفوارق في التكوينة السكانية المحلية، ثم واصلت "الدولة الوطنية" نفس الإستراتيجيات السياسية من خلال منع تشكّل ذهنية سياسية واجتماعية جامعة لذلك نشرت شبكة من التحالفات مع الفئات الاجتماعية الهشّة (العروش الرقاق) والأقليات العرقية ومنهم جبالية السند من أجل ضرب عشائر الهمامة هذه القبيلة العاصية لحكم المخزن والمستعمر، وقد نجحت هذه الاستراتيجية السياسية في منع تشكّل وعي بالمطالبة بكيانية سياسية مستقلة وفق العرق والاثنيات.

عكست الكثير من الكتابات التاريخية هذا الصراع والتباين بين المركز والأطراف، لذلك تمزقت الكتابات التاريخية في تونس بين التاريخ الشمولي السلطاني، وهو التاريخ الرسمي السكولاستيكي، الذي ينزع لإعلاء فضل المركزي على المحلي، وبين التاريخ المحلي الذي يريد إبراز أهمية الجزئي في البناء الكلي.

## الهَوامِشُ

(١) غليون (برهان)، **نظام الطائفية من الدولة إلى القبيلة**، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى بيروت ١٩٩٠، ص١٦.

(٢) جبال برقو والسرج – وهي من الجبال البربرية-كان أبرز مكان للفلاقة، فتركز في جبل برقو زهاء ٤٠٠ من المجاهدين. انظر: Frémont ( Armand), Dans la région de djebel serdj (dorsale tunisienne) ; Notes de Géographie humaine, in *Méditerranée* , 10 eme année, 1969, p 19.

(٣) تفيد الرواية الشفوية أن أصل كلمة "السند" تعود إلى أن الجبالية كانوا يسندون جميع العروش المتنازعة حولهم حتى لا يحسبوا على طرف دون آخر وهي الإستراتيجية التي سمحت لهم بالنأي بأنفسهم من تبعات التصاف القبلي.

(٤) يُطلق التماسك الاجتماعي على حقل القوى الجاذب للأفراد، المؤثر في تفاعلهم ويقاس بتقنية المقايسة الاجتماعية. خليل (أحمد خليل)، **معجم مفاهيم علم الاجتماع**، معهد الإنماء العربي، الطبعة الأولى بيروت ١٩٩٦، ص ٣٤.

(٥) **الأرشيف الوطني التونسي**، الدفاتر الجبائية، دفتر عدد (٢٣٥)، صفحة ٩٦، تاريخ ١٧٨٨: خطية على أولاد عبد الكريم والبدور وأولاد يحيى بـ ٧٠ من الإبل وعلى أولاد عبد الكريم ٢٥٠٠ نعجة لغزوهم العيايشة.

(٦) المصدر نفسه، دج، دفتر عدد (٤٥)، ص١٢٧، ت ١٧٥٠: خطية على أولاد عبد الكريم بـ ٥٠ ناقة المنهوبة من أولاد يعقوب.

(7) Baduel (P& A), Le pouvoir de l'eau dans le sud Tunisien, revue de l'occident Musulman et de la méditerranée , N 30, 1980, p 107.

(٨) أغار جبالية خمير على جندوبة وفعلوا الفاحشة بأحدهم شماتة، لأن أهل جندوبة أسروا سابقًا نساء لأهل خمير. برهومي (صلاح الدين)، محاولة في عرف الجبل في النصف الثاني من القرن التاسع

عشر"، **المجلة التاريخية المغربية**، عدد٧١، ٧٢ السنة ٢٠، ماي ١٩٩٣، ص١٦. راجع أيضًا: أ و ت، نفس المصدر، س ت، ص ٢١١، م ٢٢٥، و ١١: مراسلة وكيل الدولة التونسية بعناية.

(٩) الخامس (محمد بيرم)، **القطر التونسي في صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**، تحقيق علي الشنوفي وعبد الحفيظ منصور و رياض المرزوقي، بيت الحكمة قرطاج، الطبعة الأولى تونس ١٩٨٩، ص ٥٣.

(10) Déspois ( Jean), Le Djebel ousselat , Les ousseltya et les kooubs ,*cahiers de Tunisie* ,N 28, 1958, p. 420 .

(١١) تخبرنا الرواية الشفوية أن طبال الجبل يقع إختياره من شجعان القرية ويكون ذا تمكن في التعامل مع الطبل، فيختلف الضرب حسب كل حالة فالضرب على الطبل في حالات الخطر يختلف مثلاً عن تلك التي تدعو الجماعة إلى الإلتحاق بدار الرجالة الكبار، وكل من في الجبل يفهم المغزى من كل أنواع الضرب على الطبل.

(١٢) الكبّاب من الأكلات الشائعة عند البربر وهي خلط التين بزيت الزيتون ثم تجفيفه تحت أشعة الشمس ثم القيام بخزنه. أما الشريحة فهي قشور التين الشوكي ويتم تخزينها وحفظها بنفس الطريقة.

(١٣) الزياتي (ابن الوزان)، **وصف إفريقيا**، ترجمة عبد الرحمان حميدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر دت، ج١، ص ٣٦٤.

(١٤) كامبس (غابريال)، **البربر: ذاكرة وهوية**، ترجمة عبد الرحيم حزل، دار إفريقيا للشرق، الدار البيضاء ٢٠١٠، ص٢٤٢.

(15) Gherib (GR & (Nicoli (RM & (Ranque (J & Battaglini (PF), Recherche sur les populations Tunisiennes : étude séro-anthropologiques, in *bulletin et mémoire de la société d'anthropologie de Paris* ,11 eme série Tome 7, fascicule 2, 1965, pp 165-170.

(16) Camps (Gabriel ,(Encyclopédie berbère. ,édition Edisud, Paris 1984, P.7. Febvre (Lucien), Combat pour l'histoire , édition Armand Colin, Paris 1992, p 313.

(١٧) يجب خوض معركة قوية من أجل كتابة تاريخ للفن يكون العنوان الأبرز لدراسة التاريخ.

(١٨) لويس (أندريه)، **بدو الأمس بدو اليوم في الجنوب التونسي**، ترجمة فتحي ليسير، مراجعة أحمد الجوّة، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس ٢٠١٥، ص٢٢٣.

(19) Vandenbrock (P), L'art des femmes berbères, Edition Flamarion, P.80.

(20) Thabet (Rahma), Survivance de l'art berbère ; le tatouage : des origines jusqu'à nos jours, p-u-sfax, flshs, Unité de recherche : acculturation de la Tunisie méditerranée et centre cercina pour les recherches sur les iles méditerranéennes, Préface Abdelhamid Fehri, Sfax 2014, p. 83.

(٢١) المطوي (محمد العروسي)، الحناشي (محمد الخموسي)، **الأمثال الشعبية التونسية والحياة الاجتماعية**، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى بيروت ٢٠٠٤، ص٣١.

(٢٢) كامبس (غابريال)، **البربر**.... ، المرجع نفسه، ص١٠.

(٢٣) عند قياس عدد الحروب الأهلية ذات الطابع الإثني في العالم يبيّن أن الفترة بين عامي ١٩٤٦ و٢٠١١ شهدنا ٥٧ حربا أهلية إثنية. عبد الحي (وليد)، **نموذج قياس النزعة الإنفصالية للأقليات في الوطن العربي**، من مؤلف جماعي، **جدليات الاندماج الاجتماعي وبناء الدولة والأمة في الوطن العربي**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى بيروت ٢٠١٤، ص ١١٤.

مقالات

# الأندية الأدبية والصحافة في سلا
## من إثراء الفعل الثقافي إلى مجابهة المد الاستعماري



**د. عزيز بويغف**
أستاذ باحث
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين
ورزازات – المملكة المغربية

## مُلَخّصْ

*كانت حاضرة "سَلَا" المغربية حاضرة فكر وثقافة وعرفان، عُرِفَت المدينة بتاريخها المجيد التليد، وإرثها الثقافي والحضاري الضارب في القدم، لذلك اشتغلت عليها كثير من الدراسات، فنوّهت بأعلامها واحتفت بتاريخها الزاخر الثري. لقد كانت وما تزال مركزًا ثقافيًا عريقًا، فكان لها قصب السبق في مواجهة كل الأخطار المحدقة بالوطن، إن قديمًا أو حديثًا. وفي ظل التغلغل الاستعماري الذي شهده المغرب مطلع القرن العشرين خاصة بعد توقيع معاهدة الحماية سنة ١٩١٢م، وقفت "سَلَا" لتُجابه المد الاستعماري، ولترد خطر الاستلاب والإغراب الذي اتخذه الاستعمار وسيلة لاختراق الثقافة المغربية الأصيلة، وضربها من الداخل. في هذا الإطار ظهرت الأندية الأدبية في سلا كفضاءات للسجال الفكري والتلاقح الثقافي، وكحراك رَامَ الاحتفاء بالثقافة المغربية الأصيلة، والتعريف بأعلامها وروادها الذين بذلوا النفيس، وقدموا للأمة تضحيات كانت سببًا في استمرار هويتها وحضارتها شامخة عظيمة. وإلى جانب الأندية الأدبية، ظهرت الصحافة كمؤسسة حديثة، كانت الوعاء وصلة الوصل بين هذا الحراك الثقافي والفكري والتلقي المغربي الذي كان متعطشًا لاكتشاف تاريخه، والاطلاع على مفاخره ومنجزاته. لقد كانت الصحافة دليلاً على توتر معرفي وفكري شهده المغرب إبان هذه المرحلة العصيبة من تاريخه، كانت وثيقة على سريان الوعي في أوصال الأمة خاصةً رعيلها الأول. وقد عمدنا، لإماطة اللثام عن الموضوع، إلى الاشتغال على مجموعة من الوثائق التي حصلنا عليها من أرشيف الملكة المغربية بالرباط، كما أسعفتنا دراسات جادة في الموضوع في تبين إسهامات الأندية الأدبية والصحافة في تحريك الراكد إبان الحماية، وإرساء ركائز سجال ثقافي ابتغى نفض الغبار عن حضارتنا الأصيلة، أبرزها مُؤَلَّف الأستاذ الدكتور مصطفى الشليح "المعرفة/ المؤسسة/ السلطة في الثقافة المغربية بسَلَا، ومؤلف الأستاذ الدكتور "العربي واحي" المجتمع السلاوي في ظل الحماية، وغيرها من المصادر التي مكنتنا من الإحاطة بالموضوع، وإبراز أهمية هذه المؤسسات في تحصين الذات المغربية من الاختراق الاستعماري.*

**بيانات المقال:**

| | | | |
|---|---|---|---|
| تاريخ استلام المقال: | ١٨ | نوفمبر | ٢٠١٨ |
| تاريخ قبـول النشـر: | ٢٩ | نوفمبر | ٢٠١٨ |

**كلمات مفتاحية:**
المجالس الأدبية، تبادل الأفكار، سلا، جريدة المغرب، جريدة التقدم

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0054807

**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**
عزيز بويغف. "الأندية الأدبية والصحافة في سلا: من إثراء الفعل الثقافي إلى مجابهة المد الاستعماري".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الثاني والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٨. ص ١٦٠ – ١٦٦.

## مُقَدِّمَةُ

لا غرو أن للحياة الأدبية أُسسًا تَقوم عليها، ومعينا تنهل منه مقوماتها، وركائز تستنجد بها لتشكيل واجهة ثقافية وفكرية رحبة، تنم عن عُلُو كعب وطولِ باع، واجهة ما تفتأ أن تغوص في ثنايا المجتمع لتعكس شخصية يكون ميسمها الإبداع والثراء المعرفي. والشخصية هنا شخصية مغربية المحتد، سلاوية الهوى، نهلت من شتى ضروب العلم النافع، فتأثرت وأثرت، تم لها ذلك، وهي تتأمل وتتفاعل، وتحاول

اقتحام حصون الآخر الذي كان همه نخر الثقافة المغربية من الداخل، وطمس معالمها الحضارية.

لقد كان المسجد الحلقة الأولى للتأمل والتقرب من الله، وهو المؤسسة العريقة التي قامت عليها الثقافة الإسلامية، ثم برزت الزاوية كرمز للانفتاح والتعبد والتآزر الاجتماعي، ولعلها الداعم الأساس للمسجد في أداء رسالته النبيلة، والكُتَّاب الذي يُعد مهد التعليم ومحطته الأولى، ثم المدرسة التي هي الامتداد الطبيعي لهذه المؤسسات الأولى، والكنف الذي أطَّرَ فعلها الثقافي والحضاري. وحتى يمتد الفعل الثقافي السلاوي ويُوجِدَ عُمقه، وحتى يجد المثقف السلاوي أشكالا ثقافية أخرى، تحتضن عطاءه الفكري، وتعكس تجربته في مختلف تجلياتها، كان لابد من ظهور أشكال ثقافية أخرى تكون مصب الفعل الثقافي الذي أرساه المسجد والكُتَّاب والزاوية والمدرسة العتيقة، هكذا ظهرت الأندية الأدبية كصالونات للسجال الفكري والثقافي وتبادل الأفكار، كما ظهرت الصحافة كشكل ثقافي راقٍ، كان وعاء التجربة وضامن انتشارها في شتى ربوع الوطن، ما شكل بؤرة تجدد أدبي وفكري ومعرفي.

فكيف استطاعت هذه المؤسسات خلق توتر ثقافي وفكري حَرَّكَ الراكد، وفتح عيون المثقف المغربي على تجارب أدبية وثقافية رائدة. وكيف استطاعت إفشال بعض مخططات الاستعمار، والتي كانت تهدف إلى ضرب الثقافة المغربية من الداخل، في أفق بلوغ غاية الاستلاب والإغراب.

## أولاً: الأندية والمجالس الأدبية (فضاء للحوار والسجال وتبادل الأفكار)

لقد ساهم التراكم الثقافي والفكري الذي تحقق للمغرب على مر العصور، في ظهور أشكال ثقافية راقية، كان أبرزها المجالس الأدبية التي برزت مع العهد المرابطي واستمرت إلى العصر العلوي، وانتشرت في كل الربوع، فامتد صيتها إلى المدن والقرى البعيدة، إن هاته المجالس "لم تظل حبيسة مراكز ثقافية معينة، فهي لامركزية، وهي منبثة في الصحراء، مبثوثة في القرى والمداشر، موزعة في البوادي والسهول، منشورة في المدن والحواضر. وتاريخ تلك المجالس دونته أمهات الكتب التاريخية من العهد المرابطي إلى العصر العلوي" [1] وإذا كان هذا حال كل ربوع المغرب، فما بالك بمدينة سلا التي تعد مركزا ثقافيا وحضاريا نشيطا، شكل حلقة الوصل بين العلماء والأدباء وبين الشيوخ والمريدين، حلقة كان لها الشأن في بث الروح في المجالس الأدبية التي عرفتها المدينة.

لقد كان للمجالس الأدبية السلاوية أثر عميق ومحوري في الحركة الثقافية والفكرية التي عرفتها سلا، وهي مجالس "لا يخرج جلها عن المذاكرات العلمية، وحل ما أشكل وبيان ما انغلق"[2]. لقد كانت متنفس الأدباء والعلماء فيها يتحاورون ويتساجلون ويتبادلون الأفكار، ينشدون الاستزادة العلمية، ويحاولون تجاوز ما أشكل حتى يصلوا إلى تحقيق مبدأ "الكمال" المعرفي، ولعل أشهر نادٍ أدبي عرفته سلا "النادي الأدبي الإسلامي لمدرسة أبناء الأعيان" والذي كان الهدف من تأسيسه "بث روح العلم والتعليم بنشر أفكار علمية وإلقاء مسامرات أدبية"[3]، تأسس هذا النادي سنة ١٩٢٧م وكان هاجس الرقي بالثقافة والعلم في سلا أبرز مراميه وأهدافه، فالقصد من تأسيسه" تمتين العلائق الودية بين التلاميذ وإحياء العلوم خصوصًا لغة القرآن الشريف اقتداء ببعض المدن المغربية، وهذا مبدأ شريف يتمنى نجاحه كل ذي فكر ولب، محب لدينه ودنياه"[4].

كان النادي الأدبي السلاوي يروم الاحتفاء بالمعرفة والثقافة والفكر، خاصة الفكر الإسلامي، كان يبحث عن تحقيق الانسجام والتفاعل والتلاقح الفكري بين رواده، وتحفيزهم على مزيد من الاطلاع والبحث والنبش في مختلف مناحي الثقافة، ومطالعة الكتب باللغتين العربية والفرنسية، فهو ليس مجلس تزمت وتعصب وانغلاق، بل على العكس من ذلك، فقد "جعل من أولوية الأولويات لديه الحفاظ على اللغة العربية، فهي لغة الإسلام ولغة التراث وبذلك يكون النادي قد جعل نفسه في واجهة من واجهات النضال الوطني ضد الاستعمار ألا وهي الواجهة الثقافية، ودونما السقوط في نظرة شوفينية أوْلَى النادي عناية خاصة للغة الفرنسية، فهي أولا لغة المستعمر والظرف التاريخي يستوجب إتقانها، والوصول إلى أسرارها للرد على المستعمر بلغته.."[5] كان همه الدعوة لقراءة حرة، واطلاع متعدد ممتد، يعكس ثراء فضاءات العلم وغنى مجالاته، إنها قراءة تحمل دلالات الانفتاح، ولعله انفتاح على عوالم فكرية وثقافية جديدة، انفتاح يصبو إلى إعادة الروح للمجتمع، وإنقاذه من براثن الأمية والجهل والضياع. إن القراءة التي أسس النادي الأدبي السلاوي قواعدها، قراءة هادفة، قراءة تحاول أن تنهل من شتى مناحي العلم والفكر والثقافة ما تستطيع به

النهوض والاستمرار، فتكون قراءة رصينة دقيقة تروم التحليل والنقد، قراءة أدبية، علمية، إسلامية، القصد منها معاونة الذات والغير على التعلم والمطالعة الرصينة.

لقد اهتم النادي الأدبي السلاوي بالمحاضرات الأدبية، ورأى فيها السبيل إلى إحراز قيم جديدة، هي قيم الوعي بالذات والآخر، قيم إدراك أسمى مراتب العلم، وتحقيق مبادئ الوعي والفهم والتمحيص "كان تكسير الطوق مهمة ندبت الأندية الأدبية نفسها لانجازها في عتمة أمية مستبدة، وجهل طاغ، وسلوكات مجتمعية منحرفة "[٦]. تكسير طوق الجهل والأمية لم يكن بالمهمة الهينة، خاصة في ظل الظروف التي تأسس فيها النادي الأدبي السلاوي، لقد كان صرخة في وجه التخلف الفكري، وطفرة نوعية تروم إحداث خلخلة إيجابية في ميزان التثقيف والتحصيل العلمي، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على تحول عميق في ذهنية المثقف المغربي، الذي أبى أن يستكين وأن يستسلم لبراثن أمية وجهل حاولا أن يحاصراه من كل جانب، "آمن بذلك بضرورة الانخراط في كل عمل يحلحل الجمود ويزري بالاستكانة والخلود إلى الالتذاذ بترجيع الماضي"[٧]. انخراط كان من نتائجه إرساء أسس سجال وحوار فكري ثر بين علماء ومثقفين من سلا ومن غيرها أثثوا المشهد الثقافي المغربي عبر محاضراتهم القيمة[٨] ومناقشاتهم الغنية التي عكست ثقافة واسعة، منقطعة النظير، ومن هؤلاء المثقف النهضوي سعيد حجي الذي حاضر في موضوع النهضة الأدبية العربية[٩] وفي موضوع المغرب كما يراه الشرق العربي[١٠]، والعالم الشاعر المرحوم عبد الرحمن حجي في موضوع الغزل في الشعر الجاهلي والأموي[١١]، والعلامة عبد الله القباج في موضوع الأدب العربي والشعر[١٢]، وأبو بكر زنيبر في موضوع الجمعيات والأندية وتاريخها قديمًا وحديثًا[١٣]. لم تقتصر هذه المحاضرات على موضوع الأدب فقط بل تعدته إلى العلم والتاريخ، فحاضر أحمد الصبيحي في موضوع العلم قديمًا وحديثًا[١٤]، والمهدي بن عبود في وحدة الحياة[١٥] وعبد الرحمن زنيبر في موضوع السرطان[١٦]وقاسم الزهيري في حديثه عن مراكش[١٧] وعبد الرحمن الفاسي في محاضرة عنوانها شخصية أبي القاسم الزياني[١٨].

لقد حملت الأندية الأدبية في سلا لواء العلم والثقافة، فتحملت بذلك عبء تنشيط الحركة الثقافية في سلا والمغرب التي كان قد أصابها الجمود، فحققت مبدأ التواصل بين مثقفي العصر، وضخت دماء جديدة متجددة في أوصال الحراك الثقافي الذي استطاعت إخراجه من نسق الجمود والانحطاط الذي عاشه دهرًا طويلاً.

خلاصة القول؛ إن المجالس والأندية أثَّرَتْ بشكل جلي في مسار الحركة الأدبية السلاوية، فأسست مناخا جديدا هو مناخ الحوار والتلاقح والتفاعل والقدرة على إبداء الرأي في شتى المواضيع المطروقة، إنها دعوة إلى تجميع الطاقات، وتوحيد الجهود في سبيل إرساء أسس وجه حضاري يؤمن بالاختلاف، ويصر على تحصين الذات من خطر الإغراب وضياع الهوية، ولعلها مهمة اضطلعت بها الصحافة أيضًا.

## ثانيًا: الصحافة في سلا
## (فضاء لنشر الوعي وتثقيف المجتمع)

لاغرو أن أي مركز ثقافي نشيط، وأن أي حركة أدبية فكرية، تحتاج إلى جسر يكفل لها الانتشار ويكون كنفا لصداها الممتد، ويحتضنها في المهد حتى تبرز وتتشكل فيها مظاهر العنفوان ومياسم الحضور والتأثير، والحركة الأدبية السلاوية كما رأينا غنية ثرة، متجددة، لا يستكين لها جانب، ولا تؤول جهدا حتى تحرز قصب السبق، وفضيلة التميز والفرادة. إن لصيرورة الحركة الأدبية السلاوية صدى، كان المسجد والكُتَّابُ والزاوية والمدرسة فضاءه الأول، ثم كانت المجالس الأدبية الفضاء الأساس الثاني الذي وسم المركزية الثقافية السلاوية بفرادة معينة، فجاءت الصحافة لتكون لسان حال المركز الثقافي تضمن له الانتشار وتزيح عنه أستار النسيان، احتضنت عطاءه وأخرجته من حيز المجلس إلى فضاء أكثر رحابة هو فضاء القُرَّاء على تعدد مشاربهم، ولعل خصوصية الصحافة والمجالس الأدبية أنهما عكسا رغبة صادقة في التحرر والانعتاق من قيود كبلت مسيرة التفكير والتحليل وممارسة النقد، فإذا كان المجلس الأدبي دعوة إلى قراءة عميقة، قراءة تقوم على حُسْنِ تمثل الأشياء ووعي بالواقع الثقافي والإكراهات التي تحاصر هذا الواقع، وعي بالرسالة الحضارية التي يحملها المثقف على عاتقه، رسالة يتحمل مسؤولية ضخ الروح فيها باستمرار، وإمدادها بدماء جديدة تكون الحافز على مزيد من التحصيل والتمحيص وإعمال الفكر، فإن الصحافة احتفاء بالحرية في أزهى صورها، وإذا كانت احتفاء بالحرية، فكيف يمكن أن تقوم صحافة رصينة وطنية دون أن تتوفر لها الشروط الموضوعية لتبرز وتكبر وتحمل مشعل التفكير والتوجيه. إن الحرية شرط كينونة

مقالات

الصحافة وماهية وجودها، إذ "لا صحافة بدون حرية، ولا نهضة فكرية بدون صحافة، لقد تجذرت هاته المسلمة في ضمير المثقف المغربي فانْشَدَّ إليها، واعتبرها وسيلة حتمية للرقي".[١٩]

كانت الصحافة وما تزال مظهرًا عميقًا من مظاهر النهضة، كانت دليلا على بروز حراك ثقافي وفكري، وإشارة إلى يقظة ووعي فكري يروم الانعتاق من نير الجهل ومتاهات الأمية، إن رسالة الصحافة أن تبث نسائم التجديد في المجتمع، وأن تجعل رياح التغيير تهب عليه من كل الجوانب، رسالتها رسالة التنوير والتثقيف، والتوفيق في إيصال رسالة النهضة إلى أكبر شريحة في المجتمع، في أفق إرساء وعي جمعي جماهيري، وعي تكون الوطنية ورسالة المغرب الحضارية الرسالة الأسمى التي يبتغي نشرها. إن الصحافة "هي الوسيلة الوحيدة لربط علاقات الفرد بالمجتمع وإيضاح الصلة بين الأمة والسلطة، لأنها تساعد على إيجاد جو، تفهم منه الجماعات اتجاه الحكومة، وتدرك الحكومة أماني الشعب"[٢٠]. لقد دافع المغاربة عن حقهم في إرساء دعائم صحافة قوية وهادفة، صحافة ناطقة بلغة الضاد، ذلك أنها استجابة لمراميهم ومطامحهم النبيلة، وتلبية لرغباتهم الدفينة في طي صفحة الماضي الراكد، والتوق إلى مستقبل مشرق، مستقبل صحافة تستطيع المزاوجة بين التنوير والتحصين، وإرساء دعائم خطاب ينزع إلى إذكاء مبادئ التلاقح والتثاقف، وفي نفس الآن الدفاع عن المقومات الحضارية. يقول الأستاذ المرحوم علال الفاسي في هذا الصدد: "وإن الأمة التي لا تملك من الصحافة ما يسد حاجتها، ولا من حرية القول ما يكفل الدفاع عن نفسها، والنضال في شؤونها وبث الروح العلمية والثقافية فيها، لأمة عديمة لكل وسائل الرقي والتقدم، فاقدة لجميع الدوافع والمالأمة التي لا صحافة لها إذن، هي أمة فاقدة لأسس النهضة والتقدم، لمقومات التحضر والتمدن، وهذا ما وعاه الوطنيون السلاويون في فترة كان فيها الاستعمار يحاول أن يحكم قبضته على كل مقدرات الشعب المغربي، فكان رفضه لكل مبادرة لا تستجيب لمراميه في الهيمنة واضحا، يبرز ذلك من خلال رفضه لكل مبادرة تروم تأسيس صحافة مستقلة كانت مطلبًا من مطالب الوطنيين، ومنهم المرحوم سعيد حجي وإبراهيم الكتاني ومحمد اليزيدي "فمنذ دخل المغرب في طوره الجديد، وأبناؤه في كل فرصة ومناسبة يطالبون بصحافة عربية، تساعدهم على فهم المرحلة التي ينتقلون إليها، وتعبر عن الرأي العام إزاء ما يجري من حوادث، ويتوالى من ظروف، فبالرغم من الطلبات العديدة التي قدمت طبقا لقانون الصحافة، لم تسمح السلطة بإنشاء صحافة عربية مغربية، بل رفضت كل طلب بتأسيس جريدة كيفما كان اتجاهها، سواء سياسيًا أو إخباريًا أو أدبيًا أو ثقافيًا، وهكذا ظلت جميع النواحي المغربية بطيئة التطور، لا تساير الحضارة في أي مظهر من مظاهرها، وظل الشعب المغربي لا يستفيد من أنظمة تطوره الجديد إلا عرضًا وبمقدار يسير.."[٢٢] مرامي سلطات الحماية من منع الصحافة الوطنية عن أداء دورها التاريخي، واضح من خلال النص السابق، الذي يبين مدى أهمية الصحافة ومدى الخطر الذي كانت تمثله على الاستعمار وأذنابه.

لقد كانت غاية الحماية وأد كل محاولة للنهوض من المهد، وإقبار كل الجهود الرامية إلى استنهاض الهمم وتحقيق أسس رؤية جديدة، رؤية يكون فيها للتأمل والتفكير والنقد البناء نصيب، رؤية تكون بمثابة (رؤيا/ حلم)، يستطيع عبرها المثقف السلاوي تفجير طاقاته والبوح بما يخالجه من أحاسيس ومواقف تجاه قضيته الوطنية بكل حرية، "إن الحماية ما ابتغت نهضة، ولا رامت انبعاثا، ولا سعت في تحديث المؤسسة الثقافية. فقصاراها أمران: الإبقاء على الطابع المتخلف للمحافظة والإتباع، والإيعاز بالانفتاح على الغرب تيسيرا لاغتراب وتدبيرًا لاحتواء واستلاب"[٢٣] هذا التوجه يكشفه الخط التحريري لجرائد كانت ترعاها الحماية، ومنها مثلا جريدة السعادة التي كانت تصدر بطنجة ابتداء من سنة ١٩٠٤م، واستمرت في الصدور حتى تاريخ ٢٧ دجنبر ١٩٥٦م، لم يكن الخط التحريري للجريدة يتناسب وتطلعات المثقفين السلاويين والمغاربة عامة، فكان الموقف منها موقف رفض واحتراز، كان هذا الموقف مدعاة لمحاولة تأسيس صحافة وطنية حرة يكون همها نقل هموم الشعب المغربي، والنهوض به فكريًا وثقافيًا وحضاريًا، وفي هذا الصدد لابد أن نشير إلى جهود المرحوم سعيد حجي الذي تحمل عبء تهيئ الظروف لبزوغ صحافة حرة في سلا، تأتي لتستكمل بناء الصرح الأدبي السلاوي، ولتفحم كل من ساورت له نفسه مسخ الهوية المغربية وتشويه ملامحها، ومن الجرائد الوطنية التي أسست في سلا نذكر:

**١/٢- جريدة المغرب:**

صدرت بتاريخ ١٦ أبريل ١٩٣٧م، وكان همها أن تحيا الأمة المغربية في مستوى تطلعات أبنائها واهتماماتهم، وأن تحقق هاته الأمة الرقي والتقدم الذي حققته الأمم الأخرى، وأن تحارب الجمود الثقافي والفكري "لتحيا الأمة في مستوى لائق بها وبتاريخها واستعدادات أبنائها، وتتقدم كما تقدمت كل الأرض في ميدان المدنية والرقي الصحيح"[٢٤]. لا غرو أن الخط التحريري للجريدة جاء لينسجم مع تطلعات المغاربة وطموحاتهم، وهي طموحات تدل على بزوغ وعي جمعي لدى المغاربة قوامه ضرورة تكسير القيود والانفتاح على المعرفة بشتى صنوفها حتى تكتمل شروط بناء نهضوي يحمل مشعل التحديث والتجديد، ويعد الأجيال بنقل مشاغلهم وهمومهم وأحلامهم في إمكانية تحقيق غد مشرق، والغد المشرق لا يتحقق إلا" بسلوك سبيل التقدم والارتقاء، والصحافة باب من أبوابه، وبموجب ذلك يتعين تسخيرها لتحقيق ذلك المأرب في مضمار المدنية والتطور"[٢٥]. إن رؤية المرحوم حجي للصحافة، رؤية متقدمة تنم عن ثقافة واسعة ووعي عميق صادق بمتطلبات المرحلة، فالصحافة عنده ليست تقديم خبر وكفى، وإنما هي تحفيز للقارئ على مزيد تحليل وتفكيك ونقد "إنها تشييد لأفق مغاير لمجتمع جديد، خلق لقارئ يطلع ويقارن ويصل إلى خلاصات واستناجات.."[٢٦].

تبرز جليًا هذه الرؤية من خلال الافتتاحية التي خص بها العدد الأول من جريدة "المغرب"، حيث بين فيها خطة العمل وحدد فيها مرتكزات أساسية لن تقوم الصحافة بحسبه بدونها، وهي مرتكزات انسحبت فيما بعد على جل التجارب الصحفية المغربية، لقد كانت رؤيته للعمل رؤية استشرافية للمستقبل، رؤية فيها الكثير من الإبداع والتميز، رؤية "تعكس وعيًا صحفيًا متميزًا، ليس لأنها التفتت إلى المجالات برمتها، واعتبرتها حيوية في العمل الوطني، بل لأنها تمثلت آليات العمل الصحفي.."[٢٧]. لقد سخرت جريدة المغرب جهودها لدحر الجهل والتخلف الفكري، ومحاربة الجمود، ورأت في ذلك السبيل إلى التقدم والارتقاء، كانت تكشف عن معاناة الشعب المغربي وحاجته إلى الانعتاق من نير الظلم، كانت تنظر إلى الفكر باعتباره عصب الحياة الذي من شأنه إعادة الروح للمجتمع، اهتمت بالثقافة وساهمت في نشر المقالات العلمية، وكان همها ربط الماضي بالحاضر ودعوة المجتمع إلى النهوض من سبات عميق أثر في المجتمع وفي عاداته وتقاليده التي أعتراها النسيان، كانت رسالة الجريدة تقويم المنآد واستنهاض الهمم، وتوجيه المجتمع التوجيه السديد حتى يتحمل مسؤوليته التاريخية في المحافظة على الهوية المغربية ويعزز روابط التواؤم والانسجام بين مختلف مكوناته.

**٢/٢- جريدة التقدم:**

من الجرائد التي تأسست في سلا أيضًا، جريدة التقدم التي أسسها العلامة أحمد بن حساين النجار، كانت رسالتها لا تختلف كثيرا عن رسالة جريدة المغرب، حيث انبرت إلى خدمة الثقافة والأدب في سلا خصوصا والمغرب بشكل عام. إن الغاية من إنشائها "خدمة الأدب في مغربنا الذي مازال إلى حد الآن لم يكون حركة أدبية منظمة تسير في اتزان وتطور، فتؤدي مهماتها في حياتنا كما تؤدي حركات باقي الأقطار العربية"،[٢٨] لقد رامت الجريدة تحقيق طفرة أدبية وثقافية، فكان همها محاولة تنشيط الحركة الثقافية في حاضرة سلا، كان رهانها إذكاء روح الثقافة والمعرفة، وشحذ همم الشباب وإنقاذهم من غياهب الجهل والأمية التي كانت مستشرية في أوصال المجتمع، لقد كانت غايتها "بعث نهضة للأدب والثقافة المتنوعة يرفع بها الشعب من حضيض الجهل والركود إلى يقظة وحيوية ونهوض عام، وغايتها تلقيح العقلية المغربية بمواد ضرورية لنهضتنا، مادمنا نرمي إلى تكوين حضارة متينة الأسس، مدعمة الأركان"[٢٩].

لقد حققت الصحافة الوطنية رسالتها، إذ كانت جسرًا ممتدًا بين من يبتغي نهضة وطنية رائدة، وبين من يصبو إلى إرساء أسس إصلاحية تنويرية ترج الراكد وتخلخله من الداخل، كانت فضاء استثمره الخريجون المتعلمون لإغناء التجربة، وإثرائها بغية التنقيح والتقويم ومعالجة الإشكالات التي كانت تعترض المجتمع المغربي، فتكبله وتمنعه من النهوض، كان هَمُّ الصحافة الالتفات إلى ما يشغل بال المغربي، ودفعه إلى تجاوز براثن الجهل والأمية، وفتح الباب أمام الشباب ليعبر عما يشغل وجدانه ويهز تفكيره، كانت دعوة إلى التجريب والمغامرة، دعوة إلى النقد والتحليل والتفكيك ورفض الأفكار الجاهزة الهدامة، كانت تحديًا خاضه المثقف المغربي فانتصر فيه وأثبت أنه حقًا مبدع وناقد وشاعر وكاتب، استطاع أن يطرق باب القصيدة فيطوع أبياتها وأن يركب صهوة المقالة الأدبية والنقدية، استطاع أن يساجل ويناقش ويحاور وأن يتمرد على الراكد، فأكسب الحياة الأدبية رونقها السامي، وأخذ بيدها وساعدها على مسايرة ركب النهضة، كان هم الصحافة تعرية الواقع الثقافي وكشف

مكامن الخلل فيه، حتى تصل الثقافة والمثقف إلى لحظة مراجعة الذات وتمحيص التجارب وتشخيص بؤرة الداء ثم البحث عن الدواء الناجع.

إننا إذن إزاء فعل ثقافي سلاوي قائم على أسس وركائز متينة، آخذ بمقومات الاستمرار والرقي من خلال انفتاحه على مؤسسات مختلفة أَثْرَتْ الحراك الأدبي، وخصبت التجربة النهضوية السلاوية التي أتت لتبني صرحًا ثقافيًا وحضاريًا مغربيًا، قوامه حتمية التواصل الخصب بين تجربة المؤسسة الثقافية السلاوية، وتجربة غيرها من المؤسسات التي كانت تشتغل عبر ربوع المغرب، يكفي أن نشير هنا إلى الحراك الثقافي الذي شهدته مؤسسات مراكش الحمراء وفاس العتيقة حتى نفهم أن التجربة السلاوية لم تكن الوحيدة التي أطرت الفعل الثقافي المغربي وحاولت أن تنهض به. إن النهضة نتيجة تلاقح واحتكاك وتفاعل حواضر مختلفة. إن مهمة المؤسسة الثقافية التوجيه والتفقيه وإغناء الإرث الثقافي، مهمتها المزاوجة في هذا الفعل بين التأصيل والتجريب، ومد الجسور بين ماض متجاوز يحتاج إلى إعادة تشذيب، وحاضر يحتاج إلى مَنْ يأخذ به حتى تستمر فيه الروح، لقد مارست المؤسسة دورها التقليدي فأطرت وكونت المتعلمين وحرصت على مدهم بجذور المعرفة، كان لابد لها من تطوير المناهج والبرامج عبر إرساء تعليم ينسجم والمتغيرات التي شهدها العصر، فكان النادي الأدبي الذي شكل حلقة وصل بين مثقفي العصر يتدارسون فيه أمور المعرفة يتحاورون ويتساجلون، ثم كانت الصحافة الوطنية التي كان دورها فاعلاً في نشر المعرفة ونقل هموم المثقف المغربي الذي انحاز إلى صفوف الجماهير، وحاول إيجاد الحلقة المفقودة في علاقته بها، وذاك ما تحقق له وهو يؤسس صحافة وطنية مناضلة.

## خَاتِمَةٌ

لقد أبرزت الأندية الأدبية والصحافة أن الفعل الثقافي لا يمكن أن يكون مجرد تلقين للمعارف وكفى، ولكن رسالته أعمق من ذلك، فمتى كان التعليم الناجح تلقينًا وتشديدًا على الحفظ والاستظهار. بل متى كان العالم دائما باثا والمتلقي مجرد (مستمع/ مستقبل)، لا يتفاعل ولا يساجل، ولا يناقش الأفكار التي تعرض عليه؟ إن التحصيل الايجابي والهادف، تحصيل يذكي روح السجال والمناقشة لدى المتعلمين، بل لدى العلماء أنفسهم الذين يتخذون هذا التحصيل مناسبة للنقاش والتلاقح وتبادل الأفكار.

إن مهمة المؤسسات الثقافية فتح باب الحوار على مصراعيه، وإرساء أسس حركة ثقافية سمتها الحيوية والنشاط، يكون فيها فضاء التعلم فضاء لعرض القضايا الأدبية والنقدية التي تكون مثار جدال ونقاش بين العلماء أنفسهم وبينهم وبين تلامذتهم. إن مؤسسات سلا الثقافية[٣٠] وغيرها في شتى ربوع المغرب "لم تخل من مُريد يسأل، ومن طالب يستوضح، ومن شيخ يرد ويجيب... ولم تخل من عالمين يتقارعان الحجة بالحجة، ويختلفان فيعود كل منهما إلى الأمهات يسألها، وما اختلاف العلماء إلا رحمة للعلم ورحابة للفكر والأدب".[٣١]

لقد كان هَمُّ الحياة الأدبية في سلا تشذيب الثقافة والمعرفة، وتقليم أغصانها من كل الشوائب التي يمكن أن تعتورها، وأن تعيق مسار تطورها، وأن تعتني بها قدر الإمكان، فهي حراك فكري يعكس شخصية مغربية أرادت أن تحتفل بعنفوانها الثقافي، وأن تحافظ على هذا العنفوان سامقًا شامخًا، حراك هو العمق الذي أكسب الشخصية المغربية أصالتها وفرادتها، ومقوماتها الحضارية التي كان محتما عليها صيانتها على الدوام. فصون الشخصية الثقافية لا يكون إلا بتحصين الذات والحفاظ على ملامحها، وسماتها، ونبذ التطرف والانغلاق والتقوقع ورفض الآخر.

## الهَوامِشُ

(١) **المعرفة/ المؤسسة/ السلطة في الثقافة المغربية بسلا**، د. مصطفى الشليح، مطبعة الأمنية الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م. ص: ١٠١.

(٢) مجلة الإيمان، مقال لعبد الملك البلغيتي تحت عنوان: "**حلقات مجهولة من تاريخ المغرب**"، عدد ٧، يونيو ١٩٦٥م، ص: ٦٠.

(٣) **جريدة السعادة**، عدد ٣١٥٣، أكتوبر ١٩٢٧.

(٤) **جريدة السعادة**، عدد ٣١٤٥، شتنبر ١٩٢٧.

(٥) **المجتمع السلاوي في ظل الحماية (رسالة جامعية)**. إعداد د.العربي واحي، إشراف الدكتور عبد الله العروي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك. ١٩٨٨م. ص:١٩٥.

(٦) **في بلاغة القصيدة المغربية**، د. مصطفى الشليح، مطبعة المعارف الجديدة الرباط، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، ص: ٣٥.

(٧) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٨) قام الأستاذ الدكتور مصطفى الشليح بجرد لجانب مهم من هذه المحاضرات في مؤلفه:- **المعرفة/ المؤسسة/ السلطة في الثقافة المغربية بسلا**، مرجع سابق، ص: ١١٤/١١١، كما جرد عددًا هامًا منها أيضًا الأستاذ العربي واحي في رسالته الجامعية: - **المجتمع السلوي في ظل الحماية**، مرجع سابق، ص: ٢٠١/٢٠٠.

(٩) **مجلة السلام**، عدد٢، نونبر ١٩٣٣، ص:٣٩.

(١٠) **مجلة المغرب**، أكتوبر١٩٣٤، ص٤-٨.

(١١) **جريدة السعادة**، عدد ٤٥٥٣، ٣١مارس ١٩٣٨.

(١٢) **جريدة السعادة**، عدد ٥٣٠٧، ٣١ يوليوز ١٩٤١.

(١٣) **جريدة السعادة**، عدد ٥٣٢٦، ٢٣ غشت ١٩٤١.

(١٤) **جريدة السعادة**، عدد ٥٣٣٠، ٢٨ غشت ١٩٤١.

(١٥) **جريدة المغرب**، عدد ١٠٠٧، ٢١ يوليوز ١٩٤٢.

(١٦) **جريدة التقدم**، عدد ١١٧، ١ يوليوز١٩٤٣.

(١٧) **جريدة المغرب**، عدد ٩٨٣، ٢٢ يونيو ١٩٤٢.

(١٨) **جريدة السعادة**، عدد ٥٦١٧، ٢٢ غشت ١٩٤٢.

(١٩) **المعرفة/ المؤسسة/ السلطة في الثقافة المغربية بسلا**، مصطفى الشليح، مرجع سابق، ص: ١٣٠.

(٢٠) مقتطف من منشور لجنة المطالبة بالصحافة العربية في المغرب: **سعيد حجي (١٩١٢- ١٩٤١): دراسة عن حياته ونشاطه الثقافي والسياسي وبعض إنتاجه**، د. أبو بكر القادري، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٧٩م، ج١، ص: ٣٠.

(٢١) **مجلة السلام**، مقال للأستاذ المرحوم علال الفاسي تحت عنوان: "**حاجتنا إلى الصحافة**"، عدد ١ مارس ١٩٣٣م، ص: ١٦.

(٢٢) مقتطف من منشور لجنة المطالبة بالصحافة العربية في المغرب: **سعيد حجي (١٩١٢- ١٩٤١): دراسة عن حياته ونشاطه الثقافي والسياسي وبعض إنتاجه**، أبو بكر القادري، مرجع سابق ، ج١، ص: ٣٠.

(٢٣) **المعرفة/ المؤسسة/ السلطة في الثقافة المغربية بسلا**، مصطفى الشليح، مرجع سابق، ص: ١٣٢.

(٢٤) انظر: افتتاحية العدد الأول من الجريدة، ١٦ أبريل ١٩٣٧م.

(٢٥) **المعرفة/ المؤسسة/ السلطة في الثقافة المغربية بسلا**، مصطفى الشليح، مرجع سابق، ص١٢٦.

(٢٦) المرجع نفسه، ص: ١٢٨.

(٢٧) **المعرفة/ المؤسسة/ السلطة في الثقافة المغربية بسلا**، مصطفى الشليح، مرجع سابق، ص: ١٢٨.

(٢٨) انظر: كلمة الافتتاح في العدد الأول من جريدة التقدم، ٢٩ يوليوز ١٩٣٨.

(٢٩) كلمة الافتتاح، العدد نفسه.

(٣٠) أماط أستاذنا الدكتور عباس الجراري اللثام عن مظاهر التجديد الفكري والأدبي الذي ساهمت فيه هذه المؤسسات في مقال تحت عنوان: "**بوادر التجديد الفكري والأدبي في العدوتين إبان عصر النهضة**"، الندوة العلمية حول الرباط وسلا، مرجع سابق، ج١/ص: ٥٩ إلى ٧٣.

(٣١) **المعرفة/ المؤسسة/ السلطة في الثقافة المغربية بسلا**، د. مصطفى الشليح، مرجع سابق، ص:١٠٠.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].



# بين الحدث التاريخي والسرد الروائي
# أي تقاطعات وأي علاقة؟؟



**أ.د. شعيب مقنونيف**
أستاذ التعليم العالي والبحث العلمي
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة تلمسان - الجمهورية الجزائرية

## مُلَخّصْ

*إن الرواية التاريخية بعملها على إحياء الحضارات والإشادة بالعظماء والرموز والشخصيات والقواد تترك للروائي حرية التعبير، حتى يستطيع بخياله أن ينقلنا إلى الجو الحضاري الذي تدور حوله الرواية. غير أنه من الصعوبة بمكان الإحاطة بمختلف القضايا والإشكالات التي يطرحها "تصور الرواية التاريخية" في أدبنا العربي الحديث والمعاصر، بل إن الإحاطة بمختلف الأسئلة المتصلة بالرواية العربية عمومًا، تتنوع وتتعدد بحسب المقتضيات النظرية والتعبيرية التي تخصص سؤال الكتابة وإنجازاته التخيلية. وهذا ما يجعل، دومًا، أسئلة الرواية متجددة باستمرار، ليبقى النثر الروائي، بكل تأكيد، إسهامًا معرفيًا وثقافيًا مخصبًا للرغائب والأحلام والذوات. ذلك أننا أصبحنا نعيش مرحلة مخاض فني، وذلك بعد أن تغيرت التجارب الاجتماعية على نحو مذهل، فانبرى الأدباء يتأملون الواقع الجديد بكل تعقيداته وتشابكاته وظواهره الظاهرة والخفية، مستبطنين أثناء ذلك حياتهم الإبداعية في تجاذب مع ما تحبل به الساحة الثقافية العالمية، وتراكمات التراث الأدبي العربي بهدف ارتياد آفاق غير مسبوقة، وتأصيل الفن الروائي العربي، وقد كان للواقع النقدي دور في ذلك تحفيزًا أو تمردًا. من هنا نستطيع القول إن رواية "الأمير" للروائي واسيني الأعرج تشكل مرحلة جديدة في كتابته الروائية، لأنها حاولت أن تقتحم سردًا روائيًا معقدًا، يتماهى مع التاريخ والواقع أحيانًا بشكل أكثر وضوحًا مما هو في رواياته السابقة. فهو يكاد يستمد مادته من التاريخ الجزائري الحديث في القرن التاسع عشر. ومما تقدّم، تسعى هذه الدراسة الموسومة بـ: "الحدث التاريخي والسرد الروائي أي تقاطعات؟" لتظهير الحضور القوي للمادة التاريخية، المتمثلة في الوثائق والكتابات والمراسلات والمصادر المشهود لها في كتابات تاريخ الجزائر في تلك الفترة، وبالخصوص في تاريخ الأمير عبد القادر، فضلاً على التأكيد على أنها واحدة من الروايات التاريخية التي يلتقي فيها السرد الروائي بالسرد التاريخي، إذ يبدو فيها التاريخ الواقعي شفافًا خلف لعبة السرد.*

**بيانات الدراسة:**
تاريخ استلام البحث: ٢٨ مايو ٢٠١٧
تاريخ قبـول النشـر: ١٢ سبتمبر ٢٠١٧

**كلمات مفتاحية:**
الحدث التاريخي، السرد الروائي، التقاطعات

**معرّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0054808

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**
شعيب مقنونيف. "بين الحدث التاريخي والسرد الروائي أي تقاطعات وأي علاقة".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الثاني والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٨. ص١٦٧ – ١٧٩.

## مُقَدِّمَةُ (مدخل عن الرواية التاريخية)

من الصعب الإحاطة بمختلف القضايا والإشكالات التي يطرحها "تصور الرواية التاريخية" في أدبنا العربي الحديث والمعاصر، بل إن الإحاطة بمختلف الأسئلة المتصلة بالرواية العربية عموما، تتنوع وتتعدد بحسب المقتضيات النظرية والتعبيرية التي تخصص سؤال الكتابة وإنجازاته التخييلية.

وهذا ما يجعل، دومًا، أسئلة الرواية متجددة باستمرار، ليبقى النثر الروائي، بكل تأكيد، إسهامًا معرفيًا وثقافيًا مخصبًا للرغائب والأحلام والذوات.

والظاهر، تبعًا لهذا المعنى، أن الحديث عن "خصوصية الرواية العربية" يظل شديد الارتباط بالمنحى العام للإسهام المعرفي والفكري لما نسميه بسؤال الكتابة التخييلية. من هذه الزاوية أفهم خصوصية الرواية، ولعل أي تقدير لتحديد

تلك الخصوصية سيظل عبارة عن تصورات مجردة وعامة ما لم يقارب الإنجازات الروائية العربية وتحققاتها النصية. يقودني هذا التحديد إلى القول: من الممكن فهم "خصوصية" الرواية العربية انطلاقًا من "خاصيتها" النصية. لذا فإن الذهن البشري دائم التساؤل عن القيمة، وذلك بحكم كونه طاقة معيارية لا تقارب الشيء إلا وهو مدعم بقيمته؛ التي هي وظيفته في الوقت نفسه، بل الأمن حيث هو تجسيد لقيمة لا تحضر إلا بحضوره.

وهنا تتبدى قيمة النقد الأدبي، أو هويته حصرًا، وذلك بوصفه سؤال القيمة أولاً وقبل كل شيء. فما قيمة هذا النص الأدبي أو ذاك؟ وما قيمة كل جنس أدبي مأخوذًا على حدة؟ وما قيمة الرواية بعامة؟ وما قيمة الرواية التاريخية بخاصة، أو قل: متى يملك هذا الصنف من أصناف الروايات أن تكون له قيمة ذات شأن؟ وقبل الإجابة عن هذا السؤال الأخير، أود أن أنوه بفكرة مفادها أن الروايات التي توصف عادة بأنها تاريخية من شأنها أن تنقسم إلى فصيلتين مختلفتين: أولاهما وهي الوثيقة الصلة بالسياسة والحرب والصراع من أجل السلطة والنفوذ، أو الهيمنة على الحكم والمال، والتي يصح أن تسمى كذلك الرواية التاريخية دون أي شعور بالحرج، ومثالها الممتاز هو رواية "الحرب والسلم" لتولستوي، وكذلك إلى وجدان ذاتي يتجلى داخل شكل فني.

وأما ثانيهما، فهي تلك التي تدور أحداثها في الماضي، و لكنها عديمة الصلة بالسياسة والحرب، ومن أبرز نماذجها العالمية رواية "ماريسالا بقوري" لولتر بيتر، فهي مسرد يأتي من الماضي وليس من التاريخ.[١] واستنادًا إلى هذا المعيار، يمكن القول إن معظم الروايات التاريخية التي كتبت في العالم كله لا تحقق الشأن المرجو. فروايات جرجي زيدان التاريخية٢ هي إنجازات من أجل التسلية بالدرجة الأولى، ورواية "وزير غرناطة" لعبد الهادي بوطالب٣، وبين الروايات التاريخية ذات الصلة بالحرب والسياسية لا تصمد أمام أي معيار نقدي صارم سوى رواية "الحرب والسلم "لتولستوي".[٤]

يقول فيصل دراج: "إن كانت نظرية الرواية، في شكلها الأوروبي، تذهب إلى ماركس وفرويد ولوكاتش وهيدجر، فإن "نظرية الرواية العربية"، وهي افتراض نسبي، تكتفي بنصوص الروائيين لا أكثر. وهذه النصوص متنوعة تنوع التجارب الروائية، الموزعة على تصورات متعددة، فهيكل يرى في الرواية كتابة حداثية وحيزا لنشر الأفكار الحداثية، وإميل حبيبي يزاوج بين الحكاية والسيرة الفردية-الجماعية، وصنع الله إبراهيم يشتق التاريخي من اليومي، وإدوار الخراط يناجي الروح، ويتوق إلى عالم يوازي الواقع ولا يلتقي به، وجمال الغيطاني يضع المعيش والماضي في حاضر فني مطلق، يحتضن كل الأزمنة...وعلى هذا، فإن البحث عن نظرية في الرواية العربية، وهو افتراض نظري، لا يستوي إلا بقراءة النصوص الروائية المتتابعة. أي: بقراءة الرواية العربية، منذ أن نقض المويلحي المقامة دون أن يدري، إلى النصوص المعاصرة، التي تنوس بين تأمل التاريخ والهروب منه. وأمر كهذا يستدعي قراءة نصية متأنية، على مبعدة من النظريات الجاهزة، التي تحظى بشغف موسمي، أكثر مما تتلقى باستقبال رصين قلق الأسئلة".[٥]

ولكن فيصل دراج لا يدري أن ثمة مجموعة من الروايات والأعمال السردية والقصصية العربية منذ بداية عصر النهضة الحديثة إلى يومنا هذا، قد أرفقت نصوصها بمقدمات ودراسات وملاحق، تبين تصورات هؤلاء المبدعين تجاه الرواية، والبحث عن نشأتها وتاريخها وتكونها عربيا وغربيا، والدليل على ذلك كتاب: "نظرية الرواية".[٦] فعلى الرغم من المحاولات الجادة لتقعيد الرواية، وتحديد خصائصها البنيوية والوظيفية وتجنيسها، فإن الباحثين "لم يتوصلوا إلى تحديد أي سمة ثابتة ومستقرة للرواية، دون إبداء تحفظات تقضي على هذه السمة بالإعدام".[٧]

إذن فالرواية جنس أدبي مفتوح، وهي، من ثَمَّ، "النوع الأدبي الوحيد الذي لا يزال في طور التكوين، والنوع الوحيد الذي لم يكتمل بعد..".[٨] وهكذا، نصل إلى أن الرواية جنس أدبي منفتح وغير مكتمل، تتخلله عدة أجناس أدبية كبرى وصغرى. وتتسم كذلك بالطابع الدينامي، والتشعب الأجناسي، والتوسيع الخيالي، والتعدد اللغوي والصوتي والأسلوبي، بالإضافة إلى كونها مرآة لتشخيص الذات والواقع وطرائق كتابتها وصياغتها. كما أن الرواية صراع جدلي بين الذات والموضوع، وتعبير عن اغتراب الإنسان في مجتمع منحط، يفتقد إلى القيم الأصيلة والمبادئ الكيفية.[٩]

## أولاً: شفافية السرد بين التاريخ والرواية

### ١/١- الرواية والتاريخ، أم الرواية التاريخية؟ أي تقاطعات؟

لا شك أن الاعتماد على التعاريف المخصصة لكل إسناد نظري يبحث في علاقة الرواية بالتاريخ، من شأنه أن يقود نحو إعادة التفكير في إشكالية كبرى تخصص علاقة الأدب بالتاريخ: هل الرواية التاريخية هي التي تعتمد الحدث التاريخي كمرجعية للحدث الروائي؟ فيكون لدينا في هذه الحالة مرجعيتان: مرجعية حقيقية متصلة بالحدث التاريخي، ومرجعية تخييلية مقترنة بالحدث الروائي. هذه مسلمة أولى تقود إلى

سؤال آخر: كيف يشتغل الحدث التاريخي ضمن الحدث الروائي؟ أي كيف يشتغل الحقيقي ضمن التخييلي؟ هذه مسلمة ثانية تنتقل بنا من "تسمية المرجع" إلى البحث في طرائق اشتغاله مهما اتفقنا أو اختلفنا حول التقديرات الموازية التي بالإمكان منحها لمفاهيم الحقيقي أو التخييلي. فهل ثمة، وعلى امتداد تاريخ الرواية العربية، مؤشرات دالة ومرجحة لبحث سؤال علاقة الرواية بالتاريخ؟ وهل توفر بعض الروايات على "أحداث تاريخية" يكفي للقول بأنها "روايات تاريخية"؟ ثم، أليست كل الروايات، بمعنى من المعاني، روايات تاريخية لمجرد أنها تحكي عن حيوات وذوات في أزمنة وأمكنة مفترضة، "مؤرخة" لمصائرها وإدراكها للقيم والعلاقات؟ لعل ما يمنح لهذا الفهم راهنيته تمييز وظيفي نقيمه بين: التاريخ والتاريخي، يكاد التاريخ يكون منظومة من الأحداث والتمثلات لواقع قائم متجه نحو الماضي، في حين يكاد التاريخي يكون أيضًا منظومة من الأحداث والتمثلات لواقع ممكن متجه نحو المستقبل. وهذا ما يجعل المسافة بين الواقع القائم والواقع الممكن تماثل المسافة التي يختزنها سؤال الكتابة بين الحقيقة والاحتمال، مما قد يدعو إلى تقديم فرضية تقود إلى القول، إنه ليست هناك أحداث، ولكن فقط خطابات حول الأحداث. وعليه، ليست هناك حقيقة للعالم، ولكن فقط، تأويلات للعالم.[١٠]

**٢/١- بين التاريخ والرواية**

لكي يتسنى لنا اختبار ما سلف إدراجه ضمن إشكالية نقدية عامة تخص سؤال الكتابة الروائية العربية، نورد هذا الاقتراح والتصور لتدقيق بعض السياقات المتعلقة بإمكانات اشتغال الرواية التاريخية وطبيعة أشكالها التخييلية. مما يعني أن التاريخ يبقى مكونًا روائيًا قادرًا على التشخيص والاستنطاق خارج الافتراضات المسبقة التي قد تستدعيها إمكانات الكتابة والقراءة على حد سواء. من هذه الزاوية، يبقى التساؤل: ما هي الرواية التي بالإمكان وصفها بالتاريخية؟ قائمًا ومبررًا، لذلك أفترض أن هذا التساؤل يتيح للباحث تأمل موضوعه من زاوية محددة تخص حضور الخاصية التاريخية كمكون روائي، إنها خاصية متصلة "ببناء الشكل" وخاصية "أجناسية"، ولئن تحديد المفهوم المتعلق بالرواية التاريخية يبقى ملتبسا، فإن إيجاد المعايير للانتقال من التاريخ إلى الرواية لا يمكن أن يتم إلا عبر وساطة التشخيص. وهذا ما يجعل الرواية التاريخية ممتلكة لخطاب يعتمد تجربة التخييل، ويقيم، في الآن ذاته، علاقة حقيقية بالتاريخ، فيغدو موضوع التخييل هو التاريخ، أي التاريخ الممتلك لموضوع، لمرجع، ولواقع محدد.[١١]

بهذا الأفق، تقتضي كل رواية تاريخية وجود واقع تاريخي كامن وراء إنتاج تخيلية هذه الرواية وتاريخيتها أيضًا، فما راهنت عليه نظرية الرواية التاريخية هو أولا وقبل كل شيء، بحث وتعريف لاستطيقا الماضي.[١٢] ويبقى، مع ذلك، تقدير المصدر وقصده ومعياره أساسيًا لضبط سجل النص وتمثل مجال تحققاته، إن القول بأن النص الأدبي يحيل على واقع ما، وأن هذا الواقع يمثل مرجعه، يعني أننا نقيم علاقة الصدق بينهما، ها هنا يظهر تقابل بين المناطقة، بما هم مختصون في طرح الصدق، وبين المنظرين الأوائل للرواية. فقد ألف هؤلاء مقابلة علم التاريخ بالرواية وبمختلف الأجناس الأدبية للقول، إذا كان على الأول أن يكون حقيقيًا، فإن الثانية بإمكانها أن تكون مزيفة، هكذا كتب "بيير دانيال هويت" في بحثه حول أصل الروايات، أن الروايات بإمكانها أن تكون مزيفة كلية. من هنا لم يبق إلا خطوة واحدة لإدراك التشابه بين الروايات والأكاذيب والكلام المختلف، و"هويت" نفسه، نسب أصل الرواية إلى العرب الذين اعتبرهم جنسًا موهوبًا في الكذب.[١٣] لذلك، لا ترتبط الرواية بالتاريخ لتعيد التعبير عما قاله التاريخ "بلغة أخرى"، بل قد ترتبط الرواية بالتاريخ للتعبير عما لا يقوله التاريخ.

لذا إذا ما تأملنا بعض الأشكال التعبيرية العربية الكلاسيكية، سنلاحظ الحضور الجلي للتاريخ في الكتابة وتوليد الأشكال: كتب التراجم والطبقات، كتب الأخبار والأنساب، السير الشعبية، الرحلات. كان التاريخ في هذه الأشكال، وغيرها، يعني تصور الكائن في الوجود، والانتساب إلى عالم متحقق بالفعل، أي أن مادة التأليف لا تقصي المرجع وإحالاته التعيينية. بهذا الاختيار، فإن الاقتراب من معالجة التاريخ وصلته بالرواية يفتح أفقا للاشتغال حول كيفية تفكير الروائي في الماضي كمشكل تاريخي، وتفكيره في الحاضر كمشكل تاريخي أيضًا. إن المسافة هنا بين "الماضي" و"الحاضر" هي، من دون شك، "مسافة زمنية"، بيد أنها أيضًا "مسافة جمالية"، وإذا كان السرد التخييلي يحقق استعمالات مرجعية خاصة ومبتكرة، فإن عمل المؤرخ عادة ما يستدعي مرجعية تندرج ضمن الأمبريقا، وضمن حدود تستهدف حوادث وقعت بالفعل.[١٤] من المسافة الزمنية إلى المسافة الجمالية، ومن الخاصية السردية إلى الخاصية المرجعية، يكتسب مفهوم السرد دلالاته حين يطابق أفقا زمنيا متوقعا، والنتيجة، أن التخييل يستعير من التاريخ،

والتاريخ يستعير من التخييل. ثمة إذن، مرجعية متقاطعة،[١٥] بين التخييل والتاريخ، عبرها تكسب الخاصية السردية الفعل الإنساني زمنيته كمبدأ منظم لتجارب الواقع وعوالم السرد. بناءً عليه، يمكن الزعم أن ما تصفه النظرية الأدبية بالرواية التاريخية بعيد عن أن يطابق مفهوما واحدا يحيل على الأساس نفسه عند تصور سؤال الكتابة.

الرواية والتاريخ مصطلحان تاريخيان لغويان، رضعا من ثدي واحد هو الخبر. هما مرهونان ببعد تاريخي متغير. وقد تأثرت كل من الكتابة التاريخية والرواية التاريخية ببعضهما البعض في القرن التاسع عشر. ثم تطورت الرواية التاريخية في اتجاه أشكال روائية أخرى، واتخذ التاريخ أشكاله المتنوعة بدوره. ولكن هذه العلاقة الزمنية واللغوية والسردية مازالت تسكنهما بدرجة أو بأخرى. وليس غرضنا هنا أن نفصل القول في علاقة هذين السردين التاريخي والروائي، ولكن أن نتبين في نص كتاب الأمير بالخصوص، هذه العلاقة التي أشرنا إلى تأليفها الذي يفرض علينا توضيح تلك العلاقة.

ولما كان الكاتب واسيني الأعرج قد اعتمد على مجموعة من الوثائق والرسائل والنصوص التاريخية؛ وهي نصوص ووثائق لها مظانها وأصحابها، ويمكن التحقق منها في أصولها المحفوظة، مثل رسالة ديبوش إلى لويس نابليون، وحياة أنطوان-أدولف ديبوش، وتحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، وحياة الأمير عبد القادر لشارل هنري تشرشل، وغيرها من المصادر الكثيرة؛ الفرنسية والعربية، التي تحيل عليها مجموعة من النصوص التاريخية التي وظفت في الرواية، فإن السرد التاريخي كان حاضرًا في الرواية بهذه الصفة، الوثيقة أو الرسالة أو النص التاريخي المتنوع. ولعل احتفاظ الرواية بعض النصوص والوثائق باللغة الفرنسية يدل بدوره على التأكيد على توثيقية السرد.

غير أن هذه المادة التاريخية الموثقة لما استعملها الكاتب في الرواية قد انتقلت من مستوى الوثيقة بالمعنى التاريخي إلى مستوى النص-السرد الروائي الذي يساعد التخييل على خلق تصورات جمالية يقترب بها القارئ من الزمان والمكان، بل يجد لتخييله وجودًا وكيانًا واقعيًا. ثم الذهاب بعيدًا وراء الأحداث السياسية والاجتماعية وغيرها، لمحاولة فهم وتمثل الواقع المعقد في تمظهراته الحميمية والعميقة جدًا. فالسرد الروائي عندما يصوغ حكاية تاريخية بطريقة ناجحة، لا يختزل التاريخ، ولكنه يكشف مهملاته ومنسياته، وأحيانًا يبدد بعض شكوكه. وأحيانًا يسقط في المحظور التاريخي، ويخرج التخييل عن معقوليته التي تحرف الوقائع والأحداث التاريخية.

## ثانيًا: بين السرد الروائي والسرد التاريخي في رواية كتاب الأمير لواسيني الأعرج

### ١/٢- في تأليف الرواية

المقصود بتأليف الرواية هنا كل ما يتعلق ببنائها وتركيبها وصوغها صياغة حكائية وسردية. ذلك أن الوصول إلى تلك الصياغة الروائية تَطَلَّب تأليف مجموعة من العناصر المختلفة والمتنوعة؛ معظمها مستمد من الوقائع التاريخية التي وقعت، ومن حياة أشخاص تاريخيين واقعيين. وقوام ذلك التأليف هو مجموعة من المصادر والوثائق المختلفة التي يمكن التأكد منها في عالم الكتابة التاريخية والوثائقية. ناهيك عن المشاكل التي تثيرها مثل هذه الوثائق في تنوعها واختلاف مصادرها الجزائرية والعربية والفرنسية والإنجليزية، إذا ما اقتصرنا على المرجعية الوثائقية التي ألف منها الكاتب روايته، المعتمدة على التاريخ الحديث للجزائر في مرحلة صراع الأمير عبد القادر مع الفرنسيين الغزاة خلال سنوات (١٨٣٢ - ١٨٤٧).

وقد فرضت هذه المادة التاريخية المختلفة والمتنوعة على الكاتب أن يبحث عن شكل صوغي تخييلي، يجمع كل تلك المواد والوثائق في سرد روائي يعطي لذلك الزمن التاريخي بعدًا فنيًا يبعده عن التاريخ الحدثي، ويرتبط به في نفس الوقت بمسافة فنية يخلقها ذلك الصوغ الحكائي والسردي الذي قد يقول، أو يحيل على ما يحيل عليه الحدث التاريخي. ولكن قد يتجاوزه ويغنيه ويسائله في الوقت نفسه. فكيف ألف الروائي الباحث واسيني الأعرج رواية كتاب الأمير؟

رواية كتاب الأمير: مسالك أبواب الحديد، هي من الروايات الأخيرة لحد الآن في مسار الكتابة الروائية للباحث والروائي الجزائري واسيني الأعرج.[١٦] وهي من الروايات القلائل عن الأمير عبد القادر الجزائري. ذلك أن الأمير عبد القادر لم يحظ في السرد الروائي بمثل ما حظي به في السرد التاريخي. بخلاف بعض القادة التاريخيين في العالم العربي أو الأوروبي. ونلقي هنا بهذه الملاحظة للتأمل فيها الآن فقط.

وقد نبادر إلى القول بأن رواية واسيني الأعرج تشكل مرحلة جديدة في كتابته الروائية، لأنها حاولت أن تقتحم سردًا روائيًا معقدًا، يتماهى مع التاريخ والواقع أحيانًا بشكل أكثر وضوحًا مما هو في رواياته السابقة. فهو يكاد يستمد مادته من التاريخ الجزائري الحديث في القرن التاسع عشر.[١٧] ويركز بالخصوص على مسار شخصية تاريخية هامّة، في تلك المرحلة، وهي شخصية الأمير عبد القادر بن محيي الدين

الجزائري (٢٦ سبتمبر ١٨٠٧- ٢٤ مايو١٨٨٣)،[١٨] في فترة صراعه مع الفرنسيين الغزاة؛ ما بين ١٨٣٢ و١٨٤٧. ثم فترة أسره وحبسه، ثم نفيه، إلى فرنسا؛ ما بين ١٨٤٧ و١٨٥٣. كما يركز المؤلف كذلك على شخصية دينية مسيحية فرنسية، هي شخصية الأسقف أنطوان أدولف ديبوش (Antoine-Adolphe Dupuch) (1856-1800)، الأول في الجزائر،[١٩] ما بين ١٨٣٨ و ١٨٤٦.

ليست هذه أول مرة يعتمد فيها واسيني الأعرج على تاريخ الجزائر، بل جل رواياته تدور حول الجزائر الحديثة والمعاصرة وتستمد نسغها وإطارها وواقعها من ذلك أيضًا.[٢٠] ولكن الذي يميز هذا العمل الروائي هو الحضور القوي للمادة التاريخية، المتمثلة في الوثائق والكتابات والمراسلات والمصادر المشهود لها في كتابات تاريخ الجزائر في تلك الفترة، وبالخصوص في تاريخ الأمير عبد القادر، وتاريخ الأسقف الفرنسي ديبوش، مع بعض الإشارات الدالة إلى تاريخ فرنسا في ذلك الوقت؛ وبالخصوص ما يتعلق منه بالصراع بين الأمير عبد القادر والفرنسيين. وتتمثل كذلك في قوة لغته السردية التي كانت تخرج من صلب الوقائع التاريخية وترائب السرد التاريخي. أي من الحقائق التاريخية الموثقة، ومن عملية الكتابة التي تحاول رفع تلك الوثائق إلى مستوى التخييل السردي، حتى يكاد يصبح السرد التاريخي شفافًا تُرى من ثقوبه الوقائع التاريخية، ويشرئب منه السرد التاريخي. بالإضافة إلى تعقد موضوعها وتعقد العلاقة القائمة بين موضوعاتها التي تؤلف في النهاية صوغها الحكائي والروائي.

الرواية بهذه الصفة المذكورة عمل روائي تطلب من الكاتب جهدًا كبيرًا لتأثيثها بالوثائق والمستندات والرسائل والمصادر. كما تطلب منه بحثًا طويلاً ودقيقًا، وانتقاء مقصودًا؛ فعالاً ودالاً يخدم القصد الروائي الفني، بعد القصد التاريخي والاجتماعي والديني والإنساني.[٢١] ولهذا قد يبدو من الصعب تتبع خيوط هذه الرواية ومقاصدها ما لم يتوفر القارئ على قدر معين من المعرفة بالمصادر المعتمدة عليها، لأنها" ''رواية –عمل'' بحث روائي". وقد سماها كتاب الأمير، لأن الكتاب هنا يفيد السجل أو الشهادة التي تنصف الأمير. وهي مثل الروايات الكبرى التي تعتمد على التاريخ بهذه الصورة التي وُظِّف فيها في هذه الرواية. فهي تدعو القارئ إلى القراءة، والمساهمة في تشييد الرواية ودلالاتها. وتلك ميزة مثل هذه الأعمال الروائية. ولنا في بعض الأعمال الروائية التاريخية الإنسانية ما يدل على ذلك؛ مثل أعمال تولستوي، وبلزاك، وهمنغواي. وفي أعمال بعض المعاصرين؛ مثل الأعمال الروائية لأمبرتو إيكو، وأعمال أمين معلوف، وغيرهم.

ولكي يتمكن الكاتب من تأليف ذلك الكل التاريخي بمختلف مستوياته وعلاقاته المعقدة، لجأ إلى تبني تقنية الكتابة بالمسارات المتوازية. وهي تقنية تقوم على مستويات مختلفة من التوازيات التي تسير جنبًا إلى جنب خلال مسار السرد. ولكنها توازيات تنفتح على العلاقات المعقدة التي يفرضها الصوغ الحكائي، وتفرضها الوقائع التاريخية أيضًا. كما سيفرض هذا التأليف الروائي نوعًا من التناوب في السرد على الطريقة النهرية أحيانًا. وقد أسعفت المؤلف هذه التقنية على تتبع مسار الأمير ومسار ديبوش ومختلف العلاقات المختلفة التي ولدها المساران في جزائر الثلاثينيات والأربعينيات وأوائل الخمسينيات من القرن التاسع عشر. لقد قسم الكاتب روايته إلى ثلاثة أبواب كبرى، هي: باب المحن الأولى، وباب أقواس الحكمة، وباب المسالك والمهالك. ويتوزع كل باب على لحظات يتم فيه توزيع السرد وتوجيهه، وينفتح على الذاكرة بشكل خاص. وعدد هذه الوقفات هو اثنتا عشرة وقفة. كما اتخذ من مكان تاريخي هام، هو الأميرالية، وهي بناية قديمة على قدم البحر في ميناء الجزائر العاصمة، اتخذ منها منطلقًا لتوزيع السرد على أميراليات أربع؛ منها ينطلق وإليها يعود ليتوزع من جديد حتى الأميرالية الرابعة الأخيرة. ويلاحظ على هذا التأليف "للكتاب-الرواية" نوع من التدرج في السرد، ونوع من التقسيم المحكم الذي كان يراعي التتابع التاريخي وتطور الأحداث، والتي يكاد يظهر منها التقسيم الثلاثي للحكاية: بداية، وسط نهاية. والتقسيم الأكاديمي في البحث التاريخي كذلك. ألم يُسَمِّ روايته بكتاب الأمير؟ الرواية تجمع بين روح الإبداع الروائي وروح البحث العلمي.

وخلال هذا التوازي السردي تنفتح الرواية على توازيات أخرى موضوعاتية ومكانية وعقائدية واجتماعية. وقد أدى هذا الوضع الحكائي، الذي يتوخى التأليف بين تلك الأوضاع والمستويات المختلفة والمتنوعة المستمدة من المادة التاريخية، إلى القيام بتسريد الوقائع التاريخية، وذلك بشحنها بالمتخيل الكامن في اللغة السردية ولعبتها من جهة، وبفك بعض المفاصل التاريخية من جهة أخرى، بتنسيلها وجعل السرد يتجزأ ويتشظى ليطول أوضاعًا وأماكن وأشخاصًا ولغات دقيقة تنفذ إلى أعماق المشاعر الإنسانية

وأحاسيسها، وتنبش في جيوب مهملة في الذاكرة والتاريخ والأشخاص والمواقف...!

**٢/٢-مبدأ لعبة التوازي في الرواية**

نقصد هنا بالتوازي أن الرواية قد تحكم في نسجها السردي وجود مسارات متوازية مختلفة. إذ هناك مساران كبيران متوازيان بارزان يَتَّبِعُهما السرد من بداية الرواية إلى نهايتها. ويقوم هذا التوازي الأكبر على سرد حياة الأمير عبد القادر الجزائري في فترة معينة من حياته؛ فترة مقاومته للمستعمر الفرنسي للجزائر منذ ١٨٣٢، إلى لحظة استسلامه لفرنسا بشروطه الخاصة، ونفيه أو سجنه في فرنسا، ما بين ١٨٤٧ و١٨٥٣. والتوازي الآخر هو سرد حياة الأسقف الفرنسي المسيحي "أنطوان أدولف ديبوش". ونجد بمحاذاة هذا المستوى من التوازي بين الحياتين مستويات أخرى من التوازي. منها توازٍ ثانٍ، يتمثل في حياة شخص مجاهد عربي مسلم، وهو الأمير عبد القادر بن محيي الدين الحسني، الذي يصل نسبه إلى أهل البيت حسب بعض الروايات. وحياة شخص فرنسي أسقف مسيحي، قضى جزءً من حياته في الجزائر قائمًا فيها على الكنيسة، وعلى الأعمال الخيرية، وقضى الجزء الآخر منها في فرنسا.

والمستوى الثالث من هذا التوازي هو تجربة المنفى. التي عرفها الأمير في فرنسا ثم في تركيا وسورية. ولم تتطرق الرواية إلا إلى منفاه في فرنسا بشكل خاص. مع الإشارة إلى سفره إلى تركيا التي ذهب منها إلى دمشق بسورية. كما عرف الأسقف ديبوش بدوره المنفى كذلك، عندما أعفي من مهامه في الجزائر رغمًا عنه، فاضطر إلى الذهاب إلى إيطاليا، ففرنسا، ليضطر مرة أخرى إلى مغادرة فرنسا إلى إسبانيا ثم يعود إلى فرنسا في الأخير. والمستوى الرابع هو وجود وضع استعماري فرنسي متدرج في شراسته، ووجود وضع جزائري متدرج في مقاومته بكل صعوباته وتعقداته الداخلية والخارجية. والمستوى الخامس هو الموقف الفرنسي من نفي الأمير إلى فرنسا؛ في طولون Toulon، ثم "بو Pau"، ثم في قصر "أمبواز " في بوردو. وموقف الأمير الذي طالب بتنفيذ فرنسا لوعدها. والمستوى السادس هو علاقة الأمير المعقدة ببعض القبائل الجزائرية؛ بأوضاعها الاجتماعية والحربية الموروثة، وعلاقته التي تعقدت في مراحلها الأخيرة مع سلطان المغرب، مولاي عبد الرحمان وأمرائه وولاته. ثم العلاقة المعقدة أكثر أيضًا مع فرنسا، ووضعها المتقلب خلال فترة صراع الأمير مع الفرنسيين.[٢٢]

والمستوى السابع هو التوازي بين بناء الرواية انطلاقًا من رغبة ديبوش في كتابة رسالة إلى لويس نابليون، يدافع فيها عن الأمير، واحترام فرنسا لكلمتها وشرفها بإطلاق سراح الأمير. وبين سرد الحوادث أو انفتاح الرسالة على الحوادث التي يريد ديبوش التدقيق فيها، وإقناع الفرنسيين بما فعل الأمير، وبراءته مما حصل، أحيانًا، أثناء حروبه مع فرنسا. وعندما يكون ديبوش قد استوفى كل دقائق الحوادث الدالة على لسان الأمير، وهي التي يريد عرضها على لسان لويس نابليون، تكون الرواية قد وصلت إلى نهايتها أيضًا. هناك علاقة بين الرسالة وتصور بناء الرواية. وكأن الرواية "رسالة"، أو "مرافعة"، للدفاع عن الأمير أمام لويس نابليون.

وواضح هنا أن الرواية قد اعتمدت على هذه "الوثيقة/ الرسالة" التي صدرت في كتيب بعنوان: "عبد القادر في قصر أمبواز، مهدى إلى السيد لويس نابليون بونابرت، رئيس الجمهورية الفرنسية. بقلم مونسينيور أنطوان-أدولف ديبوش أسقف الجزائر السابق".[٢٣] ولهذه "الوثيقة/ الرسالة" عدة طبعات بالفرنسية في شكل كتيب صغير، مؤلف من١٢٥ صفحة.[٢٤]

وهناك مستوى آخر يصاحب الرواية ويسير مع الرسالة الرواية، وهو المستوى الذي يحُثُّ فيه الأسقف ديبوش الأميرَ على الاعتراف. وذلك من خلال سرد الرواية للوقائع التي عرفها الأمير مع الفرنسيين في الجزائر من خلال الأسئلة التي يلقيها على الأمير، ويطلب منه أن يجيبه عنها بصراحة. لا شك أن هذا السلوك نابع من صميم التصور المسيحي الذي يتقنه الأسقف ديبوش. وكذلك روح الصراحة التي يظن أنها قد تُطَهِّرُ الأمير مما افتُرِيَ عليه من طرف الفرنسيين. وكأن الرواية، بحكم تحكم الأسقف في السرد، قد وجه الرواية بهذه الروح المسيحية التطهيرية، التي يقوم بها مع الأمير لتُغفَرَ ذنوبه. وكأن الأمير هنا في مقام الاعتراف بالذنب وطلب صكوك الغفران... !

يبدو أن هذه الأوضاع المتوازية والمتداخلة، هي التي فرضت على الروائي أن يقرأ كثيرًا عن مختلف هذه المستويات، ويحاول تركيبها في صوغ سردي وروائي محكم. وقد فرض عليه هذا الوضع التاريخي أن يلتزم التتبع التاريخي (الكرونولوجي) الدقيق أحيانًا، بحيث يكون ذلك الخيط التتابعي للحوادث منسجمًا مع ما يمليه الواقع التاريخي لمسار تاريخ الأمير عبد القادر. ويكون ذلك التتابع التاريخي هو الممسك بتوزيع السرد في الرواية. ولهذا غالبًا ما نجد التأكيد في بداية كل مرحلة سردية في الرواية على تواريخ معينة

دقيقة وغير وهمية. لاحظوا أننا هنا أمام صنعة التاريخ في يد صانع روائي. ولم ينقص هذه الرواية إلا الهوامش التي تشير إلى توثيق المصادر والمراجع والوثائق.

غير أن الروائي لكي يؤلف روايته من كل هذه التوازيات والعلاقات المعقدة، نجده يدخل في محاولة تجريب كتابة جديدة، قد تكون هي القادرة وحدها على استيعاب ذلك البناء، وذلك الصوغ الروائي. فقد وجد الكاتب نفسه أمام اختيارات فنية سردية صعبة؛ إما أن يكتب رواية تاريخية كلاسيكية؛ تركز على البطل والحوادث الكبرى، ممجدة للبطولات الأميرية. وممجدة للروح الإنسانية للأسقف ديبوش، ولكنها منفرة ومحطّمة من سلوك القبائل والعامة، وسلوك العناصر الخارجية، أو يطور أدواته وتصوراته للكتابة السردية التي تتعامل مع التاريخ.

الواقع، إن كل متمعن في الصوغ الحكائي لهذه الرواية سيلاحظ أن الكاتب لم يسلك ذلك الاختيار الكلاسيكي التقليدي، وإنما حاول تمثل بعض منجزات "رواية ما بعد الحداثة"، كما نَظّر لها النقد التاريخي الأمريكي والأوروبي؛ أمثال هايدن وايت، ولاكابرا، وهاتشيون، وبول فين، وبول ريكور، وغيرهم، في تعاملهم الجديد مع التاريخ، والسرد التاريخي والسرد الروائي في النهاية. وميزة هذا التصور الحداثي هو التقريب بين السرد التاريخي والسرد الروائي. مما يجعلنا نسجل جملة ملاحظات نصوغها كالتالي:

أولاً: البحث في المراحل التأسيسية الأولى عن محاولة افتراض وجود كتابة تاريخية "عبر النموذج"، وإمكانية مقابلة الرواية التاريخية العربية وظهورها في الآداب الأوروبية. هذا ما نلاحظه مع تجربة جرجي زيدان[٢٥] التي سعت تثبيت معادل عربي في كتابة الرواية التاريخية استنادًا إلى محطات معلومة من "تاريخ الإسلام".

ثانيًا: البحث عن كتابة متمحورة حول البعد الحضاري، بحيث يغدو التاريخ كلية تلقي بالذوات في دائرة صراع مفتوح متحرر من الوثيقة ومستند إلى تجارب تنتصر للتاريخ الممكن. ونعتقد أن تجربة نجيب محفوظ تعبر عن هذه اللحظة بما كتبه من روايات تاريخية احتكمت إلى تنويع في الشكل والموضوع وتصور الحقيقة الاجتماعية والتاريخية والحضارية.

ثالثًا: استعارة الواقعة التاريخية في تخيل الحكاية الروائية، وإعادة تشخيص الوقائع عبر تمثل انعكاساتها على الإنسان والمجتمع، تسمح بإعادة تأويل أجواء منظومة فكرية تمكن الخطاب السردي من تشغيل خطاب إيديولوجي تستدعيه مرجعية الحكاية ومحاورتها للتواريخ الحديثة والقديمة.

رابعًا: تبئير الحكاية في الرواية التاريخية على السيرة، والانتقال من نص التاريخ إلى نص الذات، بحيث يغدو تتبع سيرة الشخص ملاحقة لبطولة مفتقدة. ويمكن القول إجمالاً إن النتاجات المهمة للرواية التاريخية تظهر ميلا جليا نحو البيوغرافيا،[٢٦] تصبح السيرة، إذن، بؤرة كتابة التخييل التاريخي. إن السيرة، في الرواية التاريخية، تضاعف الكينونة حين تلقي بها في دائرة التخييل. وهذا ما يجعل خطاب السيرة وعيا بسؤال الهوية في بحثها الدائم عن علاقة بالواقع الذي تعيش فيه.

هذه، إذن، أربع ملاحظات تبدو لي أساسية لإنجاز توصيف ممكن وأولي عن علاقة الرواية العربية بالتاريخ الذي يظل، في اللحظات الآنفة، قابلا للتجدد، لأنه ليس "معطى جاهزا"، بل أفقا للتجريب. والظاهر، أن الرواية التاريخية العربية الراصدة "لافتراض النموذج"، أو المتمحورة حول "البعد الحضاري"، أو "المبأرة حول السيرة"، لا تعتمد إعادة سرد الحدث التاريخي، لأن ما يهمها يتمثل في تشخيص العلاقة الإنسانية ومنحها قدرة فهم الواقع التاريخي الماضي والحاضر.

لقد حاول واسيني الأعرج هنا أن يقدم سردًا جديدًا، ورواية تاريخية مختلفة عن الرواية التاريخية الكلاسيكية التي أشرنا إلى بعض خصائصها. مع الإشارة إلى الصعوبات التي ستعتري الكاتب في الصوغ الحكائي لمختلف المواد التاريخية، وبالخصوص الوثائق التاريخية والوقائع التاريخية؛ من حيث دمج التناص السردي مع التناص التاريخي. ونقصد بهذا النوع من التناص علاقة "النص/ الوثيقة" التاريخية بالنص التاريخي السردي داخل الرواية. ولكنه سرد يقلص المسافة بين التاريخ والرواية كما سنرى فيما بعد. وكذلك بعض المشاكل التي يثيرها انتقاء الوقائع والحوادث، وعدم مراعاة تعقد بعض الحوادث في مستواها التاريخي، ثم اختلاق بعض الأوصاف غير التاريخية.

### ٣/٢- آلية اشتغال الوثيقة التاريخية في السرد الروائي؟

ما هي الوثيقة التاريخية؟ قد يكون بندتو كروتشيه (Benedetto Croce) أحد من جمع أهم المفاهيم المختلفة التي عرفها مفهوم الوثيقة. وقد تبنى المؤرخ عبد الله العروي ذلك المفهوم ونقله عنه في الفقرة التالية: "يعنى المؤرخون

بالوثائق عادة المعاهدات والعقود العدلية والقرارات الإدارية والرسائل الديبلوماسية، إلخ. ولا شك أن هذه تمثل من جهة بقايا من إنجازات الماضي، ولكنها من جهة ثانية تمثل شهادات عن واقع، ومن هذا المنظور يجب أن تضاف إلى أقوال الشهود. كما أن الأخبار المروية تكتسي وجهين اثنين. مهما استخففنا بها كروايات، فإنها تحتفظ، بمجرد كونها رواية، بقيمتها كشهادة".[٢٧]

لو حاولنا تقصي الوثائق التي استعملها الكاتب في الرواية، والتي اكتسبت في الرواية صبغة نصية بحكم تسريدها، لوجدناها ماثلة في مختلف مراحل الرواية وفي مختلف الوقفات التي اعتمدتها الرواية في مَرْحَلَتِها، تقطيع السرد إلى مراحل، للسرد، وبخاصة تلك التي تنفتح على الذاكرة وتستعرض مختلف المواقف والمعارك والمحن واللقاءات والأسفار وغيرها. لنأخذ مثلاً، خطب الأمير وبيعته، ورسائله إلى القبائل، ورسائله إلى الفرنسيين، أو إلى خلفائه، أو إلى السلطان المغربي، أو إلى العلماء، أو أجوبته عن أسئلة الأوروبيين في بعض القضايا الدينية، أو مراسلاته مع الأسقف أنطوان أدولف ديبوش، بل ووصية ديبوش نفسها، وكلمة نابليون بتحرير الأمير أو كلمة الأمير في حق نابليون، أو كلمة تعهده له بعدم الإضرار بالمصالح الفرنسية، وعدم حمل السلاح ضدها... إنها كلها كتابات موثقة. لها مصدرها التاريخي الموثق، سواء في كتب الأمير، مثل، التحفة أو المخطوط الكبير، أو في أشعاره، أو في كتابات الذين اهتموا بحياته؛ سواء في حياته أو بعدها، أمثال، بيلمار، وشارل هنري تشرشل. وبول أزان، وبرونو إتيين. والمؤرخين الجزائريين، مثل، أبي القاسم سعد الله، ويحيى بوعزيز. ومحمد السيد محمد الوزير، وبديعة الحسني الجزائري، وغيرهم. أو الكتب والأبحاث العلمية التي اهتمت بتاريخ وثقافة الجزائر الحديثة.

هل يمكن تحديد المصادر التاريخية التي اعتمد عليها الكاتب في كتابته لرواية الأمير؟ من الصعب الجزم في هذا الموضوع، لأن مثل هذا التحديد قد يقتل الكتابة والقراءة فيالوقت نفسه، بل ويقتل متعة التخييل الفني. ولكن الذي يمكن أن نشير إليه في هذه المسالة، هو أن الكاتب قد اعتمد على منظومتين مرجعيتين أساسيتين: إحداهما خاصة بالأمير عبد القادر، وثانيتهما خاصة بالأسقف مونسينيور ديبوش. علمًا بأن الرواية تقدم لنا الأمير من خلال الأسقف الفرنسي المسيحي. وربما هذا هو الجانب الطريف والجديد في التعامل مع الأمير تاريخيًا وروائيًا.

عندما نمعن النظر في المادة التاريخية للرواية، وللمستويات السردية التي تألفت منها، وبصوغها الحكائي، نجدها قد انطلقت مع وصول رفات الأسقف ديبوش إلى الجزائر العاصمة من فرنسا في ٢٨ يوليوز من سنة ١٨٦٤، بعد ثماني سنوات من وفاته، سنة ١٨٥٦، ليدفن في الجزائر. وبذلك يتم تنفيذ وصيته من قبل صديقه جون موبي. وقد ترددت هذه الوصية في الرواية، والكتب التي تحدثت عن حياة ديبوش تؤكد ذلك. ولنأخذ هذه "الوصية/ الوثيقة" كما جاءت في الرواية كمثال على السرد التاريخي وكيف يتحول إلى سرد روائي. تقول الوصية:[٢٨] "لقد أعدت ذراع القديس أوغسطين إلى هيبونة، آه! لو يكتب لي بعد موتي أن تعاد عظامي نحو تلك الأرض (الجزائر) الطيبة مع الناس الذين اختارهم لي الله. لو أستطيع أن أنطق سأقول لمن يغمض عيني للمرة الأخيرة Reddeossa mea meis (أي افعلوا مثلي) لو فقط...".[٢٩]

لننظر الآن إلى هذه الوثيقة التاريخية، مثلاً، كيف سُرِّدت في الرواية، أي: كيف انتقلت من وثيقة تاريخية/ شهادة، لها مفهومها وأعرافها القانونية أحيانًا، ولها أثرها التاريخي والاجتماعي والديني، إلى نسق سردي جمالي نتج عنها كتابة روائية. فهي في عرف علم السرد حافز على إنتاج السرد والدفع به لينتج خطابًا. وهي المتحكمة في لا وعي الكاتب وفي السارد الذي جعلها منطلقًا للسرد، وللعمل الروائي كله. وبذلك كانت حافزاً إلى استدعاء حياة الأمير عبد القادر، واستدعاء ذاكرته ليحكي لنا ما حصل له مع الفرنسيين أثناء مقاومته لهم. وربما كشفت هذه الوصية/ الوثيقة عن خلفيات أخرى غير واضحة عندما نتعامل معها كوثيقة تاريخية بحتة، معزولة عن السياق السردي الذي نسجه الكاتب. الوثيقة هنا لها مؤلفها التاريخي، هو مونسنيور ديبوش، ولها مؤلفها الروائي هو السارد في الرواية، هو السارد ديبوش. وهنا نلاحظ الفرق بين ديبوش المنتج للنص التاريخي، وبين ديبوش المنتج للسرد في الرواية. لقد استطاع الكاتب عبر السارد، الذي كان هو جون موبي في الأصل، ولكن ترك ديبوش يقوم بتوزيع السرد في اتجاهات كان يرغب فيها ليصل السرد إلى مبتغاه، أن ينشئ لنا "كتابًا/نصًا روائيًا" يحقق فيه رغبته الإنسانية.

إن هذه الوصية لما عزلها الكاتب عن صاحبها الأصلي ديبوش مؤلفها، وسلمها في يد السارد ديبوش تكون قد انتقلت من مجال الوثيقة التاريخية إلى مجال الخطاب السردي، لأن دلالتها ستنفتح آنذاك على احتمالات ومقاصد أخرى يفرضها النسق السردي. وهي وجهة السرد داخل الرواية.

ووجهة السرد هاته لا تكتفي بالقيام بتنفيذ الوصية ونقل رفات ديبوش إلى الجزائر، مثلما نقل هو ذراع القديس أوغسطين من إيطاليا إلى هيبونة، عنابة، في الجزائر. وبالتالي يكون صديقه جون موبي والقائمون بالكنيسة في بوردو وفي فرنسا قد أرضوا ضمائرهم واستراحوا، كما يقتضي ذلك روح الوصية/ الوثيقة التاريخية في عرفها الديني والإنساني. وإنما تفتح عوالم الرواية وعالم الأمير، الخفية منها بالخصوص.

وحتى لو كانت هذه الوصية قد احتفظت هنا بكل تلك الدلالات التاريخية، فإنها قد تجاوزتها إلى كونها قد حركت في الكاتب أبعادًا جمالية حكائية وتخييلية. ثم جعلته يقدم لنا لوحات فنية متخيلة في البحر والطبيعة وداخل النفوس في صراعاتها التي تولدت عنها مشاعر الإحساس بالقوة الفرنسية وغطرستها، ومشاعر الحمية الوطنية والدينية عند الأمير وسكان الجزائر. وكذلك الإحساس بالذنب واحترام شرف الكلمة عند ديبوش الذي يدافع عن ذلك حفاظًا على شرف دولته.

وهكذا نرى أن السرد قد انفتح على عوالم صغرى داخل النفس الإنسانية عند المسيحي وعند المسلم على السواء. ومن ثم تم تناسل العلاقة الإنسانية بين مختلف الديانات. وتلك كانت رغبة الأسقف ديبوش الدينية العميقة في محاولة إقناع الأمير بدينه. ولكن الأمير قام بالتجربة الروحية استجابة لديبوش، ولكنه اقتنع بسلامة عقيدته الدينية الإسلامية العميقة. وكثيرًا ما تعرض السرد في الرواية إلى التشابهات الإنسانية بين العالم المسيحي والعالم الإسلامي، سواء في الحرب أو في السلم.

لقد كشفت هذه الوثيقة عند تسريدها في الرواية عن الدور الذي كان يقوم به الأسقف ديبوش من أجل دينه المسيحي ومن أجل الفقراء والمحتاجين في الجزائر. وله كتابات عن الديانة المسيحية في إفريقيا، بل كثيرًا ما كان السارد ديبوش يُنطق الأسقف المسيحي ديبوش، إذ كان يتمنى في قرارة نفسه أن يصبح الأمير مسيحيًا، فيقوم بحلم يقظة يرى فيه الأمير أمام البابا يعمده في الفاتكان...! يقول السارد: "في تلك اللحظة رأى مونسينيور ديبوش الأمير وهو يركب بصحبته القطار المتجه إلى روما ليلقى التعميد من يدي البابا الأكبر. فكل النقاشات التي دارت بينهما كانت معطرة بآمال كبيرة وبعطر شرقي تصعب مقاومته".[٣٠]

ومثل هذا الكشف لا تقوله الوثيقة التاريخية الوصية في حد ذاتها، وإنما جرها السرد في الرواية لتفصح عن ذلك. ولكن حتى هذا الحلم نجد له ما يبرره في الكتابات التاريخية عن ديبوش. ولكن المؤرخ لا يعتد بأحلام اليقظة، ولكن السرد الروائي يوظفها. وعندما تعبر لنا الرواية عن هذه النوازع الإنسانية، يمكن القول بأن الكاتب استطاع أن يُشغل النص/ الوثيقة الوصية تشغيلاً فنيًا، كشف به عن عمق النفس البشرية، ومقاصدها العميقة التي قد لا تفضح عنها الوثيقة في سياقها التاريخي. وعندما نتعرف جيدًا على حياة ديبوش في بعض المصادر نجده مخلصًا لعقيدته المسيحية، بل كان يرى بأن احتلال الجزائر دينيًا قد ينجح أكثر من احتلالها عسكريًا، أو أنه يجب التركيز على الجانب الديني أيضًا وليس الجانب العسكري فقط؛ أي يجب أن يصاحب الإنجيل والصليب كلاً من السياسة والسيف،[٣١] وبخاصة في المراحل الأولى لاستعمار الجزائر. ولكن قد تفصح هذه الوثيقة عن كل ذلك عند المؤرخ أيضًا، ولكن من المؤكد أنه سيكون بوقع أو طعم آخر ومختلف. وذلك الوقع والطعم والمعنى، هو ما يميز الرواية عن التاريخ.

الواقع إن الرواية مشحونة بالوثائق والشهادات التاريخية الهامة. وقد تعرض بنوع من التتابع التاريخي المنتقى بمنتهى الدقة، فعلاً. فقد تعرضت الرواية إلى أهم المعارك التي خاضها الأمير، ولكن ليس كلها، لأن الأمير خاض حوالي ثلاثًا وثلاثين معركة مع الفرنسيين، وحوالي أربع وثلاثين معركة مع القبائل. ولهذا حاولت الرواية أن تنتقي بعضًا من هذه أو تلك. لا شك أن من أهم الحوادث التي عُرف بها تاريخ الأمير هو بناؤه لمدينة "تاكدامت"، لتكون عاصمة إمارته، بعد قضاء الفرنسيين على عاصمته الأولى مدينة معسكر. ثم اهتداؤه بعد ذلك إلى تبني مفهوم الزمالة. وهي في الأصل قبيلة في غرب الجزائر. والزمالة هي القبيلة المتنقلة أو العاصمة المتنقلة. تجمع بين القبائل ومفهوم الترحال ومفهوم الهجرة في الوقت نفسه.

لقد حاولت الرواية أن ترسم لنا صورًا دالة عن تلك الحوادث، التي تعرض لها المؤرخون، بل هي مشهورة في تاريخ الأمير عبد القادر. غير أن الرواية بحكم السرد والوصف والتخييل أخرجتها من عالم الحوادث والشهادات التاريخية إلى عالم التخييل الذي تترك للقارئ حرية تخييلها وتصورها. وربما كان الكاتب ينظر هنا إلى الكتابة السينمائية البصرية والحركية. ولذلك نجد مثل هذه الحوادث في الرواية، وهي غنية بها، صالحة لأن تكون مصدرًا جيدًا للكتابة السينمائية.

الرواية بهذه الصفة المذكورة قابلة لتكون عملاً سينمائيًا هامًا. وقد استعان الكاتب في نقل صورة عن بعض هذه الحوادث ببعض الوثائق التي قلّما يستغلها المؤرخون، وهي اللوحة الفنية. فقد حفظت ريشة الفنان هوراس فيرني الرسام العسكري الذي احتفظ لنا بصورة عن الهجوم على الزمالة من طرف الفرنسيين، وكذلك رسم لوحة عن معركة وادي إيسلي سنة ١٨٤٤، وقد شاهدها الأمير في قصر فرساي لما زار باريس، مباشرة بعد إطلاق سراحه. وعلق عليها قائلاً، بأنهم "يرسمون انتصاراتهم فقط، ولا يرسمون هزائمهم".[٣٢] إن الروائي المؤرخ لا يكفيه تقرير الحقيقة التاريخية الموجودة، وإنما يوضحها و يزيدها رونقًا من آداب العصر وأخلاق أهله وعاداتهم حتى يخيل للقراء أنه عاصر أبطال الرواية و عاشرهم وشهد مجالسهم ومواكبها واحتفالاتهم ، شأن المصور المتفنن في تصوير حادثة يشغل ذكرها في التاريخ سطرًا أو سطرين فيشغل هو في تصويرها إما عامًا أو عامين.

ولما كان الكاتب قد اعتمد على انتقاء الحوادث في روايته، وهذا أمر طبيعي في العملية الإبداعية. إلا أنه قد يتجاوز مهمته الفنية في ذلك الانتقاء، عندما تتعارض كتابته السردية مع الواقع التاريخي الموثق. من ذلك مثلاً طريقة معالجة الرواية لعلاقة الأمير مع السلطان المغربي، وبالخصوص في المراحل الأخيرة من الرواية، التي تصادف المراحل الأخيرة أيضًا من حياة الأمير الحربية، لما دخلت الرواية إلى الأراضي المغربية في الشمال الشرقي، في نواحي ملوية وبني يزناسن. لقد عرفت العلاقة بين السلطان مولاي عبد الرحمان وأمرائه وولاته، في هذه المرحلة فتورًا، بل توترًا، لأسباب معقدة جدًا، حسب المؤرخين أنفسهم. ولكن المعالجة السردية لم تستطع إبراز ذلك التعقد الذي نجحت فيه عندما تعلق الأمر بتعقد علاقة الأمير مع الفرنسيين. مع التذكير بأن الرواية قد أشارت إلى المساعدات المغربية للأمير في مقاومته للفرنسيين ولبعض المنشقين عنه.

والملاحظ أن الرواية في بعض لحظاتها من مراحلها الأخيرة، قد جعلت السرد يتجه نحو تكوين صورة مختزلة عن أوضاع معقدة جدًا. بل تجاوزت ذلك إلى اختلاق صفات لم نجدها عند أهم الذين تحدثوا عن العلاقة بين السلطان المغربي والأمير. وهي وصف الأمير محمد بن السلطان عبد الرحمن بـ "العَكُّون"،[٣٣] وهي صفة تفيد الإنسان الأبله الذي لا يفهم في الأمور شيئًا. علمًا بأن المصادر التاريخية المعروفة عن الأمير لم تشر إلى ذلك، وقد تكون من اختلاق الكاتب. كما أن أخلاق الأمير عبد القادر، وسلوكه وحسن منطقه وثقافته وتعففه، لا تسمح له بمثل ذلك التوصيف. ولكن معظم الذين يعتبرون عمدة في تاريخ الأمير، أو في تاريخ السلطان مولاي عبد الرحمان، أو محمد بن عبد الرحمن نفسه، لا يذكرون ذلك.

## خَاتِمَةٌ

وختامًا حاولنا في هذه الدراسة أن نوضح أهمية السرد التاريخي، كما عبرت عنه رواية كتاب الأمير، الذي يحاول أن يقرب المسافة بين الكتابة التاريخية والكتابة الروائية. ورأينا كيف تتحول الوثيقة التاريخية إلى نص سردي روائي يخدم مسار السرد فيها. كما كشفنا عن شفافية السرد الروائي الذي يحاول الاحتفاظ بكل مقومات الوثيقة ولا يحورها إلا بالقدر الذي يخدم السرد. فرأينا بأن الكاتب قد عمل جهدًا كبيرًا في جمع الوثائق التي أثث بها السرد الروائي، حتى إننا وصفنا هذا العمل بأنه يدخل في الكتابات الروائية التاريخية الحداثية، هدفها هو دفع الوقائع والحوادث والوثائق التاريخية لتكشف أكثر عن المناطق المجهولة في الوثائق وفي الحوادث التاريخية. كل ذلك وفق صوغ حكائي يسمح بالتخييل لينفتح أكثر على العوالم الإنسانية الدفينة في العلاقة بين الأشخاص والديانات والثقافات. وذلك ما عبّرت عنه الرواية في مختلف مراحلها وفي لغاتها المتألقة ووثائقها الغنيّة والمتعدّدة والمتنوّعة. والرواية في النهاية جديرة بالقراءة، لأنها حرّكت وكشفت عمّا يختزنه تاريخنا العربي والإسلامي من مخزون غنّي بالحوادث والأبطال والظواهر الإنسانية التي يمكن للسرد العربي أن يوظفها لإغناء وإثراء كتابتنا السردية غنى وثراء تاريخنا وحضارتنا.

ومن الجلي أن الرواية التاريخية العربية لفتت النظر إلى إمكانية التفكير في سردية منفتحة على لغات وخطابات مركبة، وهي بذلك تتطلع نحو الانتماء إلى سؤال الثقافة والفكر حين تعيد تأمل "الواقع التاريخي" وتقصد استنطاق أزمنته وفضاءاته وشخوصه لتكشف عن "واقع روائي" حافل بقيم وعلاقات قادرة على ابتداع سرود نابضة بالحياة. من هذا المنظور، تمدنا لحظات الرواية التاريخية العربية بجملة من الخلاصات نحصرها فيما يلي:

- تنويع قضايا الشكل الروائي وافتراض "تخيل تاريخي" يبلور مفهوما خاصًا للكتابة. لدينا، بهذا التنويع، منظور آخر لعلاقة الرواية بالتاريخ، وهي علاقة إن كان من الممكن تعيينها بتخصيص الزمن الماضي، فإنها، ومع ذلك، لا تنفي الراهن الذي يدخل في تأليفها.
- بالإمكان عدّ التخييل التاريخي سردًا منفتحًا يتجاوز التقرير والتسجيل، وينجذب أكثر نحو الحقيقة المنفلتة للحياة والكائن.
- اعتماد الرواية التاريخية العربية في تحديدها للإحالات الحديثة على "فضاء تاريخي" ليس من الأساسي الانشغال بمدى مطابقته للواقع، لأنه، حتما، يأخذ أبعادًا جديدة يمنحها له التخييل عبر اللوحات والمشاهد الروائية.
- إن الرواية التاريخية يتوجب عليها أن تقترب من التاريخ بوصفه قوة تغريب، أو تعذيب لروح الإنسان وامتهان لكرامته وحرمانه من قيمته، وهذا يعني، بإيجاز، أن التاريخ هو السلب، بل احتشاد السلب كله.

إن الرواية التاريخية لا تنبش التاريخ أو تحفره، كما يفع لعلماء الأركيولوجيا (الحفريات الأثرية)، بل هي متخصصة بكيفية انعكاسه على الذات، أو بعلاقة الروح بتاريخها، الذي هو جحيمها الجاحم نفسه، والذي ينبغي تقديمه بوصفه مرتعًا للشرور، وليس من حيث هو مجال لانتصار الإنسان على الشر، كما رآهُ تولستوي في "الحرب والسلم". فيبدو لنا أن الراوية التاريخية، بل الآداب كلها، مختّصة بفقه البشر، قبل سواه، أو قل إن الكاتب الأدبي المتميّز، سواء أكان شاعرًا أم ناثرًا، هو المنافح الأول والأكبر عن الأخلاق الحميدة، أو عن القيم الإنسانية الجليلة. ولعل مما هو جائز أن يقال بأن الشر أو السلب هو الاسم الآخر للامعقول. وقد يجوز التنويه بأن التاريخ لا يكون إلا حينما يتأزم اللامعقول ويتوتر ويتداد، وبداهة، إن المقصود هو التاريخ بالمعنى الدقيق للكلمة، أي بوصفه سياسة وحربًا.

## الهَوامِشُ:

(١) يُنظر: يوسف سامي اليوسف، **"الرواية والتاريخ"**، مجلة الموقف الأدبي (السورية)، اتحاد الكتاب العرب: دمشق، العددان ٤٢٠، نيسان ٢٠٠٦، ص٨١.

(٢) ألف جرجي زيدان (١٨٦١-١٩١٤م) اثنين وعشرين (٢٢) رواية تاريخية ذات أبعاد اجتماعية وإنسانية وعاطفية ضمن سلسلة تاريخ الإسلام من فترة ما قبل الإسلام مرورًا بمرحلة صدر الإسلام والدولتين: الأموية والعباسية وانتهاء بالعصر الحديث. وهذه الروايات بالترتيب هي: "فتاة غسان"، و "أرمانوسة المصرية"، و"عذراء قريش"، و"١٧رمضان"، و"غادة كربلاء"، و"الحجاج بن يوسف"، و"فتح الأندلس"، و"شارل"، و"عبد الرحمن"، و"أبو مسلم الخراساني"، و"العباسة أخت الرشيد"، و"الأمين"، و"المأمون"، و"عروس فرغانة"، و"أحمد بن طولون"، و"عبد الرحمن الناصر"، و"فتاة القيروان"، و"صلاح الدين الأيوبي"، و"شجرة الدر"، و"الانقلاب العثماني"، و"أسير المهدي"، و"المملوك الشارد"، و"استبداد المماليك"، و"جهاد المحبّين". (يُنظر: محمد عبد الواحد الوادي، **بدايات الإبداع الروائي عند العرب**، مطبعة الزمان: بغداد، ط ٠١، ١٩٧٣، ص ٥٦-٥٧).

إن الهدف من ذكر المصادر التاريخية هو خدمة التاريخ في حدّ ذاته وتطويعه جماليًا عن طريق التوسل بالفن. إذ القصة هنا في خدمة التسلسل التاريخي وحلقات تاريخ الإسلام، على خلاف كتّاب أوروبا الذين يجعلون التاريخ في خدمة الفن والسرد القصصي. ومن ثَمَّ، فالتعليم هو الهدف الأول والفن وسيلة ليس إلا. ويقول جرجي زيدان في هذا الصدد "قد رأينا بالاختبار أن نشر التاريخ على أسلوب الرواية أفضل وسيلة لترغيب الناس في مطالعته والاستفادة منه، وخصوصًا وأننا نتوخى جهدنا في أن يكون التاريخ حاكمًا على الرواية، لا هي عليه، كما فعل بعض كتبة الإفرنج ومنهم مَنْ جعل غرضه الأول تأليف الرواية وإنما جاء بالحقائق التاريخية لإلباس الرواية ثوب الحقيقة فيجره ذلك إلى التساهل في سرد الحوادث بما يضل القراء". (محمد كامل الخطيب: **نظرية الرواية**، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سورية، ط ٠١، ١٩٩٠، ص٣٥).

(٣) نشر الكاتب المغربي عبد الهادي بو طالب (١٩٢٣م- ؟) روايته التاريخية "وزير غرناطة" سنة ١٩٦٠م عن دار الكتاب بالدار البيضاء. وقد ذكر الدكتور أحمد اليابوري في محاضرته "وضعية الدراسة الأدبية بالمغرب" التي ألقاها ضمن نشاط فرع اتحاد كتاب المغرب بالقنيطرة أن الطبعة الأولى صدرت في بداية الخمسينيات، والتي تُعَدّ نموذجًا لرواية التوثيق التاريخي. وعليه، فعبد الهادي بو طالب يركز في روايته "وزير غرناطة" على تاريخ الأندلس أثناء أفول نجم مملكة بني الأحمر بغرناطة في العصر الوسيط ولا سيما في عهد الدولة المرينية إبّان القرن الثامن الهجري. (يُنظر: د. أحمد اليابوري: **دينامية النص الروائي**، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٣، ص٨٧).

(٤) يُنظر: الرواية والتاريخ..، ص٩٠.

(٥) فيصل دراج: **نظرية الرواية والرواية العربية**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٩، ص٩٦، ٩٧.

(٦) من إعداد وتقديم محمد كامل الخطيب، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سورية، ط ٠١، ١٩٩٠. و- **دينامية النص الروائي**..، ص ٢٦.

(٧) د. فيصل دراج: **دلالات العلاقة الروائية**، مؤسسة عيبال للدراسات والنشر، قبرص، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٢، ص١٥.

(٨) **نظرية الرواية والرواية**..، ص٣١٧.

(٩) يُنظر: عبد الكريم الواسطي، **نظرية الأجناس الأدبية وتفريعاتها الإبداعية**، منشورات التل، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط ٠١، ١٩٨٨، ص٣٤.- ميخائيل باختين: **الخطاب الروائي**، ترجمة: محمد برادة، دار الأمان: الرباط، ط ٠٢، ١٩٨٧، ص١١. - فاروق خورشيد: **في الرواية العربية**، دار العودة، بيوت، لبنان، ط ٠٢، ١٩٧٩، ص٩. -جورج لوكاش: **نظرية الرواية**، ترجمة: الحسين سحبان. منشورات التل، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط ٠١، ١٩٨٨، ص ٤٨.

(10) TodorovT: Les morales de l'histoire ,Grasset, 1991, p.130.

(11) MichelMaillard: (L'antinomie du référent), in : Fabula ,2Oct. 1983, p.65.

(12) Ibid, p. 68.

(13) Todorov T: Qu'est-ce que le structuralisme ?2 , Seuil 1968, p.35.

(14) Ricœur P: Temps et récit ,Tome 1, Seuil 1983, p.123.

(15) Ibid, p. 124.

(١٦) **واسني الأعرج**، روائي وأستاذ باحث في كل من جامعة الجزائر العاصمة، وجامعة السوربون بباريس (سابقًا). بدأ مسيرته الروائية منذ الثمانينيات من القرن الماضي. وأصدر حوالي ثلاث عشرة رواية قبل رواية كتاب الأمير: مسالك أبواب الحديد، موضوع بحثنا، وهي: "البوابة الزرقاء (وقائع من أوجاع رجل)"، دمشق-الجزائر، ١٩٨٠، و"وقائع الأحذية الخشنة"، بيروت، ١٩٨١،و "ما تبقى من سيرة لخضر حمروش"، دمشق، ١٩٨٢، و"نوار اللوز"، بيروت، ١٩٨٣، و"مصرع أحلام مريم الوديعة"، بيروت، ١٩٨٤، و"ضمير الغائب"، دمشق، ١٩٩٠، و"الليلة السابعة بعد الألف: رمل الماية"، دمشق-الجزائر، ١٩٩٣، و"الليلة السابعة بعد الألف: المخطوطة الشرقية"، دمشق، ٢٠٠٢، و"سيدة المقام"، ألمانيا/ الجزائر دار الجمل، ١٩٩٥، و"حارسة الظلال"، الطبعة الفرنسية، ١٩٩٦- الطبعة العربية ١٩٩٩، و"ذاكرة الماء" ، ألمانيا، دار الجمل، ١٩٩٧، و"مرايا الضرير"، باريس، ١٩٩٨، و"شرفات بحر الشمال"، بيروت، دار الآداب،٢٠٠١. (يُنظر: ليلى بن عراض، **السرد التاريخي في الرواية المغاربية**، دار إفريقيا الشرق: بيروت، الدار البيضاء، ط٠١، ٢٠٠٩، ص ١١٣ – ١١٥).

(١٧) وهو بذلك ينحو منحى جرجي زيدان الذي كان غالبًا ما يتشدد في نقل المعلومات التاريخية، وكان لا ينتقي سوى المعلومات القائمة على الصحة واليقين، ذاكرًا المصادر حتى لو كانت شعبية أو غربية استشراقية مثلما هو الحال في رواية "شجرة الدر"، حيث اعتمد على "حسن المحاضرة "لجلال الدين السيوطي، و"سيرة الملوك" و، "تاريخ ابن إياس"، و"تاريخ الفخري"، و"معجم البلدان "لياقوت الحموي، و"تاريخ ابن جبير"، و"تاريخ مصر الحديث" لكاتب الرواية نفسه. وفي رواية "صلاح الدين الأيوبي"، نجد تاريخ ابن الأثير" الكامل في التاريخ"، و"تاريخ التمدن الإسلامي" للمؤلف نفسه، و"تاريخ المقريزي"، و"كتاب الروضتين"، و"تاريخ الدولة السلجوقية"، و "طبقات الأطباء " لابن لأبي أصيبعة، وبور كهاردت (Burckhardt)، و"تاريخ ابن خلدون"، و"تاريخ المقدسي" في رواية "فتاة القيروان". وهكذا تتنوع الإحالات التاريخية بين ما هو رسمي وشعبي واستشراقي وغربي. (يُنظر: مأمون عبد الحي، **التاريخ في الرواية العربية التاريخية**، مؤسسة توبقال للنشر والتوزيع: الرباط، بيروت، د.ت، د.ط، ص ٤٥، ٤٦).

وما يلاحظ على روايات جورجي زيدان التاريخية أنها تكرس الفن لخدمة التاريخ، لذلك يصبح الحدث القصصي أداة للتسلية والترفيه ويبعد عن القصة جانب الإفادة أو الثقافة ليربط ذلك بالتاريخ على حساب الفن. بينما الرواية هي فن المعارف تحوي كل الخطابات والأجناس واللغات وتخاطب العقل والوجدان معًا. (يُنظر: **السرد التاريخي في الرواية المغاربية**..، ص١٣٥).

إن النصوص السردية التي كتبها جرجي زيدان تمثل خير تمثيل رواية التشويق الفني للتاريخ؛ لأنها تستقرئ تاريخ الماضي أو الحاضر بلغة سهلة معاصرة من خلال الارتكاز على العقدتين: التاريخية والفنية. ولكن يبقى جرجي زيدان مخلصًا ووفيًا للحدث التاريخي مع التصرف الفني في الجانب القصصي والروائي لتحقيق المتعة الفنية والفائدة التاريخية لدى القارئ. (يُنظر: **التاريخ في الرواية العربية التاريخية**..، ص٨٩).

(١٨) هناك مصادر ومراجع كثيرة عن حياة الأمير عبد القادر الجزائري. نذكر منها على وجه الخصوص: -"تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر"، وضعه الأمير محمد بن عبد القادر ظهرت الطبعة الأولى منه سنة ١٩٠٣، بالإسكندرية. والطبعة الثانية، جزءان، قام بشرحها والتعليق عليها الدكتور ممدوح حقي، بيروت، دار اليقظة العربية للتأليف والنشر، ١٩٦٦. -"مذكرات الأمير عبد القادر"، سيرة ذاتية كتبها في السجن سنة ١٨٤٩ م، تحقيق محمد الصغير بناني، محفوظ سماتي، محمد الصالح الجون، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع: الجزائر، ٢٠٠٨.- "سيرة الأمير عبد القادر وجهاده" للحاج مصطفى بن التهامي، تحقيق وتقديم وتعليق الدكتور يحيى بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، ط ٠٢، ٢٠٠٥.

- "كتاب حياة الأمير عبد القادر، لشارل هنري تشرشل، ترجمه وعلق عليه أبو القاسم سعد الله، ظهرت منه ثلاث طبعات: ١٩٧٤، ١٩٨٢، ٢٠٠٤، عن كل من الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ومؤسسة الكتاب، وديوان المطبوعات الجامعية: الجزائر، ٢٠٠٤. - "الأمير عبدالقادر" ليوهان كارل بيرنت، ترجمة: د. أبو العيد دودو، دار هومة: الجزائر، ١٩٩٧.- "الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري"، ليحي بوعزيز، الدار العربية للكتاب: تونس ١٩٨٣. -"الأمير عبد القادر الجزائري: ثقافته وأثرها في أدبه"، لمحمد السيد محمد علي الوزير، المؤسسة الوطنية للكتاب: الجزائر ١٩٨٦.

ومؤلفات الأميرة بديعة الحسني الجزائري ومنها: - "وما بدلوا تبديلا: تفاصيل دقيقة عن جهاد الأمير عبد القادر الجزائري ودولته وهجرته "، ط١، توزيع دار الفكر: دمشق، ٢٠٠٢. - " فكر الأمير عبد القادر الجزائري: حقائق ووثائق"، ط١، دار الفكر: دمشق.- " الأمير عبد القادر حقائق ووثائق: بين الحقيقة والتحريف"، دار المعرفة: الجزائر، د.ت، د.ط.

- " التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري ١٨٠٨-١٨٤٧"، لأديب حرب، ج ٢، ط ٣، دار الرائد للكتاب: الجزائر، ٢٠٠٠. - "الدين والدولة في الجزائر، من الأمير عبد القادر ... إلى عبد القادر"، لجورج الراعي دار القصبة للنشر: الجزائر، ٢٠٠٨. -"الرواية المعرفية والتدبير السياسي، قراءة في الإرهاصات الجيوسياسية للفكر الأميري"، لطيبي محمد، ضمن كتاب تبر الخواطر في فكر الأمير عبد القادر، تأليف جماعي، ط١، دار القدس العربي: الجزائر، ٢٠٠٠.- "مع الأمير عبد القادر: رحلة وفد فرنسي لمقابلة الأمير في البويرة ١٨٣٧ – ١٨٣٨"، لأدريان بير بروجير، ترجمة وتعليق الدكتور أبو القاسم سعد الله، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤: الجزائر، ٢٠١٠. وكذا سلسلة الأمير عبد القادر للدكتور سليمان عشراتي وهي تتكون من المؤلفات التالية:

-" الأمير عبد القادر في بلاد المشرق "، دار القدس للنشر والتوزيع: وهران، ط ٠١، ٢٠١١. – " الأمير عبد القادر العرفاني: رصد لتجربة الإسراء في أقاليم الروح، دار القدس للنشر والتوزيع: وهران، ط ٠١، ٢٠١١.- "الأمير عبد القادر المفكر، دار القدس للنشر والتوزيع: وهران، ط ٠١، ٢٠١١.- " الأمير عبد القادر السياسي: قراءة في فرادة الرمز والريادة، دار القدس للنشر والتوزيع: وهران، ط ٠١، ٢٠١١.- " الأمير عبد القادر الشاعر: مدخل إلى تحليل الخطاب الشعري في محطة الما بعد، دار القدس للنشر والتوزيع: وهران، ط ٠١، ٢٠١١. - "الرباط والمرابطة: تغيرات دلالية ومقاربة صوفية فروسية لمسار الأمير عبد القادر الحسني الجزائري"، للدكتور فهد سالم خليل الراشد، دار الجائزة للنشر والطباعة والتوزيع: الجزائر، ط ٠١، ٢٠١١.- "زيارة الأمير رحلة في دروب القوافي عبر مسيرة الأمير عبد القادر ١٨٠٨- ١٨٨٣"، لمحمد بوزيان، دار الجاحظية: الجزائر، ٢٠١٢.

فضلاً عن المقالات الهامة مثل: مقال- " نظام الحكم في إمارة الأمير عبد القادر"، لرابح بونار، مجلة الأصالة، العدد ٢٣، جانفي، فيفري، ١٩٧٥.- "وثائق جديدة عن موقف الأمير عبد القادر والدولة العثمانية من الثوار المقرانيين عام ١٨٧١"، ليحي بوعزيز، مجلة الثقافة، عدد ٣٩- جوان-جويلية ١٩٧٧.- "معالم شخصية الأمير عبد القادر من خلال شعره: معالم فكره السياسي"، لمحمد الصغير بناني، مجلة الثقافة (الجزائرية)، العدد ٩٦ ، نوفمبر ديسمبر ١٩٨٦، وما إلى ذلك، هذا فضلاً عما كتب عنه في اللغات الأجنبية مثل الفرنسية والإنجليزية.

(١٩) يُنظر أول كتاب أُلف عنه:

Vie de Mgr. DUPUCH, PremierEvéque d'Alger, par M. l'Abée E. Pioneau, Bordeaux, 1866.

(٢٠) يُنظر: عاطف المصمودي، **رواد السرديات العربية المعاصرة،** دار العودة: بيروت، د.ط، د.ت، ص ١٢٥، وما بعدها.

(٢١) لأن الوظيفة الماهوية للرواية التاريخية "هي استحضار روح التاريخ، وليس التاريخ نفسه. فلا قيمة البتة لأية رواية تجيء لتكون بمثابة مسرد لأحداث تاريخية محددة". (**الرواية والتاريخ**.،، ص ٨٩).

(٢٢) يُنظر: إبراهيم ياسين، **موقف المغرب من الاحتلال الفرنسي للجزائر: ١٨٣٠-١٨٧٤**، (مخطوط) رسالة جامعية مرقونة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بالرباط -أكدال، ١٩٨٧. تحت رقم ر.ج. ٠٢، ٩٦٤، ص ٦٧.

(٢٣) الطبع والليتوغرافيال، ج.فاي. شارع سان كاترين، ١٣٩. أفريل ١٨٤٩. (يُنظر: واسيني الأعرج، **كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد**، دار الآداب: بيروت، ٢٠٠٦، ص ٢٠).

(24) Dupuch A.A (Monseigneur), Abd el Qader au château d'Amboise ,Bordeaux, Imprimerie Faye 1849, p125.

(٢٥) تطفح روايات جرجي زيدان التاريخية بعقدتين أساسيتين؛ عقدة تاريخية وعقدة غرامية، أو عقدة اجتماعية إنسانية في إطار صراع تاريخي سياسي وديني مذهبي إلى جانب صراع رومانسي أو اجتماعي. ويعني هذا أن روايات جرجي زيدان يتقاطع فيها جانبان: الجانب التاريخي والجانب القصصي، فالأول هو الأساس والهدف، والثاني هو عبارة عن وسيلة فنية ليس إلا. ويراد بهذه الروايات تشويق القراء وحثهم على قراءة تاريخ الإسلام عبر فتراته المختلفة لمعرفة الماضي في علاقته بالحاضر. والغرض من هذا الجمع بين التاريخي والسردي أو المزج بين الحقيقة والخيال أو بين التاريخ و الفن هو الإفادة والمتعة أو الجمع بين الوظيفة القصصية (وظيفة الترفيه والتسلية والإمتاع)؛ لذلك أدرج الدكتور عبد المحسن طه بدر روايات جرجي زيدان ضمن الرواية التعليمية ورواية التسلية والترفيه (يُنظر: **دلالات العلاقة الروائية**.،، ص ١١٣).

(26) Lukacs G :.Le roman historique ,PBP, 1965, p.187.

(٢٧) عبد الله العروي، **مفهوم التاريخ**، ج٠١، الألفاظ والمذاهب، المركز الثقافي العربي: بيروت-البيضاء، ط ٠١، ١٩٩٢، ص٨١. وينظر: جورج لوكاش: **نظرية الرواية**،... ص:١٤١، ١٤٢.

(٢٨) وقد جاءت فيه بالصيغة التالية التي ترجمها الكاتب في الرواية بالصيغة المذكورة، وهي:

«J'ai apporté, écrit-il, les ossements d'Augustin à Hippone… Ah ! si après que je me serai endormi à mon tour, je pouvais espérer que les miensretourneront vers cette terre si tendrement aimée, vers ceux que le Seigneurm'avait donnés ! Si j'osais, je dirais ici d'avance à celui qui me doit fermermes yeux : Reddeossa mea meis».

(٢٩) **كتاب الأمير مسالك** .،، ص٢٣٣.

(٣٠) المرجع نفسه، ص٥١.

(31) Voir: Vie de Mgr. DUPUCH, PremierEvéque d'Alger,p. x.

(٣٢) **كتاب الأمير مسالك**.،، ص٥٨٣.

(٣٣) المرجع نفسه، ص٣٨٥.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

ترجمات

# شهداء نجران ونهاية حِميَر

## عن التاريخ السياسي لجنوب الجزيرة العربية في أوائل القرن السادس الميلادي

**أ.د. عبد العزيز رمضان**
أستاذ التاريخ الوسيط
جامعة الملك خالد
أبها – المملكة العربية السعودية



### الدِّرَاسَةُ

نشر نوربيرت نيبيس هذه الدراسة بالألمانية في العدد (١١) من مجلة Athiopica عام ٢٠٠٨م (ص٧-٤٠)، تحت عنوان Die Märtyrer von Nagrān und das Ende der Himyar. Zur politischen Geschichte Südarabiens im frühen sechsten Jahrhudert. ثم أعاد نشرها بالإنجليزية ضمن كتاب The Qur'an in Context. Historical and Literary Investigations into the Qur'anic Milieu, ed. A. Neuwirth, N. Sinai and Marx. المنشور في ليدن عام ٢٠١٠م (ص٢٧-٥٩). وعنوانها The Martyrs of Najrān and the End of the Ḥimyar: On the Political History of South Arabia in the Early Sixth Century

**بيانات الدراسة:**
تاريخ استلام البحث: ٢٩ سبتمبر ٢٠١٧
تاريخ قبـول النشـر: ٠٨ يناير ٢٠١٨

**كلمات مفتاحية:**
العصر الحميري، نجران، بيزنطة، المسيحيين، الجزيرة العربية

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0054809

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**
نوربيرت نيبيس، "شهداء نجران ونهاية حِمير: عن التاريخ السياسي لجنوب الجزيرة العربية في أوائل القرن السادس الميلادي"/ **ترجمة:** عبد العزيز رمضان.- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الثاني والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٨. ص ١٨٠ – ١٩٧.

### مُقَدِّمَةُ[١]

في ربيع عام ٥١٩م، أو ربما حتى قبل ذلك أثناء الخريف السابق عليه،[٢] ارتحل تاجر التوابل السكندري يُدعى كوزماس[٣] Cosmas إلى تابروباني Taprobane (المعروفة اليوم بسريلانكا) ووصل إلى الميناء القديم لمدينة أدوليس Adulis على الجانب الأفريقي من البحر الأحمر، حيثما أمضى فترة قصيرة.[٤] وفي زمن كوزماس كانت أدوليس تتحكم في باب المندب وتحتفظ بصلات وثيقة مع المراكز التجارية عبر ساحل جنوب الجزيرة العربية؛ حيث جذبت تجار من الإسكندرية وإيلات، ومنهم كان كوزماس يأمل في الحصول على معلومات قيمة لمتابعة رحلته إلى الهند. لكن كوزماس حتى هذه النقطة من روايته للرحلة لم يذكر شيئًا عن التوابل أو أيًا من السلع الأخرى، بل كان اهتمامه مُنصبًا على أمور فقه اللغة الكلاسيكية.

وبناءً على طلب من حاكم أدوليس، قام كوزماس بنسخ اثنتين من النقوش اليونانية التي أصبحت منذئذ تُعرف باسم Monumentum Adulitanum. وقد تم العثور على النقشين على عرش رخامي ملاصق لـ "لوحة"[٥] عند المدخل الغربي للمدينة على طريق القوافل المؤدي إلى الهضبة الإثيوبية وأكسوم. أول هذه النقوش موجود على اللوحة،[٦] وهو عبارة عن تقرير يتعلق بحملة لبطليموس الثالث يورجيتيس (٢٤٦-٢٢٢ق.م) Ptolemaios III Euergetes، ويلقي الضوء على مشروعات البطالمة البحرية على الجانب

الأفريقي من البحر الأحمر خلال النصف الثاني من القرن الثالث قبل الميلاد.[٧] أما النقش الآخر، أيضًا باللغة اليونانية، فموجود على العرش الرخامي نفسه، ويعود تاريخه إلى فترة ما بعد المسيحية.[٨] ويحوي رواية عن أعمال حاكم أكسومي لم يُكشف عن اسمه، ويظل هذا النقش إلى الآن هو الدليل المدون الوحيد الذي نمتلكه عن صعود أكسوم وطموحاتها الإقليمية قبل زمن إزانا Ezana، أي قبل منتصف القرن الرابع.[٩]

إن النسختين اللتين أعدهما كوزماس لحاكم أدوليس كانتا موجهتين إلى إيلاتزباس Ellatzbáas (Ἐλλατζβάας) الذي يقع مقره في موضع قريب من أكسوم والذي، كما قيل لنا بشكل عابر، كان يستعد للحرب مع الحميريين.[١٠] وهذا يلفت انتباهنا إلى الجانب الآخر من باب المندب، إلى جنوب الجزيرة العربية. فرغم أن كوزماس لا يذكرهما إلا بشكل هامشي، فإن استعدادات إيلاتزباس للحرب تضع بداية سلسلة أحداث من شأنها أن تغير المشهد السياسي لجنوب غرب الجزيرة العربية بشكل جوهري وفي وقت قصير جدا. أحداث من شأنها أن تشهد خضوع اليمن لكالب إيلا أصبحه Kaleb Ella Aṣbeḥ،[١١] وهزيمة ومقتل خصمه الملك العربي الجنوبي يوسف. وهكذا تأسس حكم أكسوم على أجزاء كبيرة من جنوب غرب شبه الجزيرة العربية. وهكذا أيضا، زالت قوة الحميريين أخيرا، حمير النقوش العربية الجنوبية القديمة، التي حكمت اليمن وسيطرت على أجزاء كبيرة من وسط شبه الجزيرة العربية لمدة قرنين ونصف. صحيح أنه في شخص أبرهة، سيظهر ملك إثيوبي في اليمن يحافظ على الألقاب الملكية الحميرية التقليدية، ويحاكي الأنماط السياسية في سبأ، وينأى بنفسه تمامًا عن النجاشي في أكسوم،[١٢] إلا أن أيام استقلال جنوب الجزيرة العربية كانت قد ولت إلى الأبد. إذ لم تعدّ النُخب القبلية المحلية قادرة على التخلص من حكم أبرهة. وخلال الأعوام الخمسين التالية، كان على اليمن أن يظل خاضعًا للحكم المسيحي، وفي العقود التالية لسيطرة بلاد فارس الساسانية. وأخيرًا، في عام ٦٣٢م، وضعت قوات الخليفة الأول أبو بكر نهاية لمحاولات القبائل اليمنية لإحياء الاستقلال.[١٣] وأصبحت اليمن جزءًا من العالم الإسلامي وانضمت إلى حملات الفتح التي أطلقها المجتمع الإسلامي الشاب من المدينة المنورة.

## مسح للمصادر المتاحة

ليس هناك فترة أخرى في تاريخ شبه الجزيرة العربية نمتلك عنها مثل هذا النطاق الواسع والمتنوع من نصوص المصادر الأدبية والنقوش المدونة عقب الأحداث مباشرة مثلما نمتلك عن عشرينيات القرن السادس، عندما بلغ الصراع بين حمير وأكسوم [الحبشة] ذروته.[١٤] فبالإضافة إلى المعلومات التي يزودنا بها بروكوبيوس Procopius،[١٥] ونص قصير عند Cosmas Indicopleustes، تتمثل مصادرنا الأساسية في نصوص متنوعة بالسريانية والسبئية والحبشية القديمة. وقبل ذلك كله يجدر ذكر رواية "شهداء نجران" التي سجلتها ثلاثة مصادر سريانية، تحديدا الخطابين الأول والثاني لشمعون الأرشمي و"كتاب الحميريين"، وأولهما كان مصدرًا للنص الهجيوجرافي اليوناني "استشهاد القديس أريثاس [الحارث] ورفاقه في مدينة نجران" *Martyrium Sancti Arethae et sociorum in Civitate Negran*.[١٦] فموقعها في جنوب غرب المملكة العربية السعودية الحديثة، عند تقاطع طرق تجارة اللبان القديمة إلى شمال غرب وشرق المملكة العربية السعودية، كانت نجران موطنًا لأكبر مجتمع مسيحي حميري. كما كانت نجران جسر الأحباش للوصول إلى شمال اليمن[١٧]—مثلما كانت قبلا زمن التدخل الأكسومي [الحبشي] الأول في جنوب الجزيرة العربية-[١٨] ، وضد نجران أيضًا وجه الملك الحميري يوسف وحلفاؤه من الزعماء القبليين اليزنيين Yaz'anid ضربتهم الأكثر حسمًا.

ومع ذلك، فإن الصراعات في نجران لا تنعكس فقط في النصوص من نوعية أعمال الشهداء. حيث يمكن دعم صحة الرواية الهجيوجرافية من خلال النقوش، وبشكل أكثر تحديدا عدد من النقوش الصخرية السبئية التي أوجدها ضباط الملك البارزين خلال حصار نجران من قبل القوات الحميرية.[١٩] وإن كان على المرء أن يأخذ بعين الاعتبار أهم هذه المصادر فقط، فإن الرسائل التي تنقلها غير متجانسة تمامًا - فهي تتحدث عن أطراف مختلفة، وتشير إلى مجموعة متنوعة من المصالح وتشير إلى سيناريوهات مختلفة -، لكنها تعكس البعد الجديد في أساس الصراع الذي دار في جنوب غرب الجزيرة العربية خلال الثلث الأول من القرن السادس. ففي الوقت الذي كانت صراعات الممالك المتحاربة في القرنين الثاني والثالث تحدث على المستوى الإقليمي -بين سبأ وحمير وحضرموت كأبطال رئيسيين، حتى وإن حدث أحيانًا أن تم إشراك الأحباش الذين سيطروا على الأراضي الغربية المنخفضة والحواف الغربية

لمرتفعات وسط اليمن- فإن الوضع السياسي بعد قرنين من الزمان صار أكثر اختلافًا بكثير، حيث اتسم بالمواجهة بين اثنين من الخصوم الرئيسيين، الأحباش في أكسوم وحمير في ظفار. كذلك بينما كانت الحروب الإقليمية في الفترة السبئية الوسطى تبدو وكأنها تعكس المصالح الإقليمية البحتة،[٢٠] كان الصراع بين حمير وأكسوم ذا بُعد عالمي جديد؛ إذ اتسم بالانخراط المباشر لمصالح القوى العظمى في ذلك الوقت، وأعني هنا بلاد فارس والإمبراطورية البيزنطية. إذ من المعروف تماما العلاقات الوثيقة بين أكسوم والإمبراطورية الرومانية الشرقية؛ فأول اتصالات مسجلة ترجع إلى زمن دقلديانوس، وإن كان هناك افتراض بأن العلاقات بدأت قبل ذلك بفترة طويلة،[٢١] ثم جاء تحول "عِزانا Ezana" إلى المسيحية في النصف الثاني من عام ٣٤٠م لينقل العلاقة إلى أساس جديد.[٢٢]

وتُظهر العديد من سمات عملة أكسوم بوضوح أن التأثير الروماني كان موجودًا بالفعل قبل عدة عقود من الزمان.[٢٣] ومن المعروف أيضًا أن الإمبراطور البيزنطي جوستين الأول (٥١٨-٥٢٧) قدم أكثر من مجرد مساعدة إيديولوجية لخطط الغزو التي تبناها ملك أكسوم إيلا أصبحه Ella Asbeha.[٢٤] ويُفترض أنه بعد الحصول على إذن من جوستين، حصل الأحباش على السفن التجارية البيزنطية الراسية في موانئ البحر الأحمر،[٢٥] والتي استخدمتها القوة الحبشية للغزو الثاني في عام ٥٢٥، ثم تحت القيادة الشخصية لإيلا أصبحه، لنقلها إلى أراضي جنوب الجزيرة العربية.

أما عن الصورة التي لدينا عن التأثير الساساني في البلاط اليمني في ظفار فتتسم بالبساطة. نحن نعلم أن العلاقات الدبلوماسية بين الساسانيين وحمير بدأت في وقت مبكر نسبيًا، بعد فترة وجيزة من قيام الحميريين بتوسيع وتعزيز حكمهم في جميع أنحاء جنوب شبه الجزيرة العربية. ومن تكريس في معبد العوام Awam الكبير في واحة مأرب (Sh 31)، نعلم أنه في بداية القرن الرابع، عاد وفد حميري من مهمة ناجحة في المدن الملكية [الساسانية] على نهر دجلة، وسلوقية، وطيسفون Ctesiphon.[٢٦] ويبدو أن التأثير الساساني في ظفار امتد ليشمل مجال الفن أيضًا.[٢٧] ولا ندري إلى أي مدى كان الاتصال السياسي مكثف وطويل الأمد؛ خصوصًا خلال الفترة التي نتناولها في هذا البحث؛ إذ تظل المصادر صامتة. لكن لا شك في حقيقة أن الساسانيين كان لديهم اهتمام كبير بالساحل العربي ومدخل البحر الأحمر. وقد تأكد هذا من خلال مجريات الأحداث الفعلية، عندما سيطروا في الربع الأخير من القرن السادس على اليمن من أبناء أبرهة.[٢٨]

## ارتقاء حمير التفوق

قبل تحويل انتباهنا إلى ما تقوله المصادر فيما يتعلق بأهم مراحل الصراع، دعونا نفحص تاريخ الأحداث التي سبقتها. ففي حوالي عام ٢٧٥م، بدأت قبائل حمير في المرتفعات الجنوبية، التي كانت تتمحور حول عاصمتها ظفار Ẓafār، في تأكيد قوتها ضد قبائل المرتفعات الشمالية، التي من بينها خلفاء ملوك سبأ منذ القرن الثاني الميلادي.[٢٩] وعلى نحو هادئ، بعد ذلك بعشرين عامًا، كان الحميريون قد سيطروا أيضًا على وادي حضرموت العظيم وساحل جنوب الجزيرة العربية.[٣٠] ومع بداية القرن الرابع، كان شمر يهرعش Shammar Yuharʽish الحاكم الوحيد لليمن، وهو ما عبر عنه في الألقاب التي استخدمها. ولم يعد ملوك حمير ينعتون أنفسهم بمجرد ملوك سبأ وريدان (بمعنى أن قصرهم الملكي في ظفار)، بل ضمنوا ألقابهم أيضًا الأراضي المفتوحة حديثًا.[٣١] فقد انتهت فترة الممالك المتحاربة، وتم إعادة توحيد جنوب الجزيرة العربية.[٣٢]

وما تزال بدايات حمير غامضة وتعود إلى القرن الثاني قبل الميلاد. في ذلك الوقت، كانت الهضاب الخصبة في جنوب المرتفعات اليمنية الوسطى وصولاً إلى الساحل عند باب المندب جزءًا من المنطقة التي يسيطر عليها الملوك القطبان Qatabanian Kings، الذين يحكمون من عاصمتهم تيماء Timmaʽ في وادي بيحان؛ وهذا ما أكده أيضًا إراتوسثينيس Eratosthenes، أمين مكتبة الإسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد.[٣٣]

قرب نهاية القرن الثاني قبل الميلاد، بدأت قبائل المرتفعات الجنوبية في التخلص من سيطرة الوطن الأم القبطاني، وتجمعوا معًا لتشكيل الكونفدرالية الحميرية التي كانت، منذ منتصف القرن الأول الميلادي، عاملاً مهما في الصراع المستمر على السلطة في جنوب الجزيرة العربية. والدليل الوحيد المدون لدينا هو نقوش حجرية، ليست باللهجة القطبانية كما قد يتوقع المرء، وإنما في بالسبئية المحرفة تحريفًا بسيطًا.[٣٤] وتكشف هذه النقوش عن مستجد مهم، وهو ذو فائدة كبيرة لإعادة بناء التسلسل الزمني للفترة التالية. فعلى عكس تلك النقوش المكتوبة بلهجات عربية جنوبية أخرى، وفي صدارتها السبئية، فإن السنوات التي ذكرتها النقوش الحميرية مدونة دائمًا بمصطلحات عامة. ولذا تلعب الروايات السريانية عن شهداء نجران (التي سنعود إليها

لاحقًا) دورًا مهمًا في تأريخ هذه السنوات وفقًا للتقويم المسيحي.

وتظهر العاصمة ظفار للمرة الأولى في التاريخ الطبيعي[٣٥] *Natural History* لبليني Pliny، وذكرها أيضًا المؤلف المجهول لكتيب بحري من منتصف القرن الأول الميلادي، هو "الطواف حول البحر الإريتري" *Periplus maris Erythraei*، وذلك باعتبارها عاصمة تقع على مسافة تسعة أيام من مدينة الصوَّع Sawā' في معافر Ma'āfir (الحجرية al-Ḥujarīya حاليًا).[٣٦] ومن الطريق الرئيسي المؤدي اليوم جنوبًا نحو عدن، وبالاتجاه شرقًا بعد يريم Yarīm، يتم بلوغ هضبة ظفار الخصبة، وبعد بضعة كيلومترات فقط توجد المدينة نفسها، مشيدة على ثلاثة من النتوءات البركانية، وعلى ارتفاع ٢٨٣٠ م. وعلى الرغم من حقيقة أنه في ظفار، سجل الرحالة الأوروبيون لأول مرة مشاهداتهم لنقوش عربية جنوبية قديمة،[٣٧] فإن البحث الأثري لم يبدأ هناك إلا مؤخرًا فقط. ومنذ عام ١٩٩٨م، ركزت تسعة مواسم من الحفريات التي أجراها عالم الآثار بول يولي Paul Yule حتى الآن على إنشاء طبوغرافيا المنطقة الحضرية التي تبلغ مساحتها ١١٠ هكتار[٣٨] وعلى كشف مبنى حجري ضخم.[٣٩]

ومع ذلك، حتى من شواهد الاكتشافات الظاهرة، يمكن للمرء القول بأن ظفار لم تظهر سوى نقوشًا أقل بكثير من مأرب، ومن المرجح أن الحفائر المستقبلية ستؤكد ذلك. وبالفحص الدقيق، يسمح لنا هذا الظرف باستخلاص بعض الاستنتاجات المهمة. فأكثر النقوش المعروفة في ظفار هي نقوش مباني مؤرخة بفترة ما بعد المسيحية. وتصف بناء الحصون والمنازل وكذلك تشييد المباني الملكية. وبالإضافة إلى قصر ريدان، الذي تم ذكره لأول مرة في تكريس من ياسروم يوهانعيم Yāsirum Yuhan'im وابنه شمر يهرعش Shammar Yuhar'ish،[٤٠] نعرف عن ثلاثة نقوش مماثلة من قصور تحمل اسم شوحتان Shawḥatān وكلانوم Kallānum وهرجب Hargab ، تم بنائها جميعا في عامي ٣٨٣م و ٤٦٢م على يد الملوك الحميريين مالكارب يوهأمن وأبنائه[٤١] ، والملك شرحبيل يعفر Shuraḥbi'il Ya'fur.[٤٢]

وما له دلالة من هذه النتائج هو الغياب التام في ظفار لأي نقوش تكريسية من ذلك النوع الموجود بوفرة في أماكن أخرى من جنوب الجزيرة العربية. نحن نعلم أنه حتى بعد توحيد شمر يهرعش للمملكة، واصل الملوك الحميريون تسجيل صورهم الشخصية السياسية ليس فقط في نقوش المباني، بل أيضًا في شكل تكريسات. ومع ذلك، في ظفا، يبدو أنهم فعلوا ذلك فقط لتكريم الآلهة المعبودة محليًا، مثل وجل Wagal وسيميدع Simyada' وغيرهم. وفي مأرب، من ناحية أخرى، واصلوا ممارسة وضع تكريساتهم في الضريح المركزي للإله السبئي الرئيسي المقه Almaqah، الذي إليه وجهوا هذه التكريسات أيضًا. وتفسير هذا ببساطة أن مأرب لم تكن قد فقدت أهميتها كمركز سياسي يرمز إلى قرون من حكم السبئيين. ومن خلال وضع تكريساتهم في معبد العوام في مأرب، كان الملوك الحميريون يسعون إلى وضع أنفسهم ضمن هذا التقليد وبالتالي منح حكمهم الشرعية اللازمة.

## الوحدانية الحميرية

يحتوي معبد العوام على تكريسات حميرية تنتمي إلى عدة عقود. بعد ذلك، في ثمانينيات القرن الرابع، يبدو أن شكل العبادة قد خضع لتغيير جذري، يمكن ملاحظته ليس فقط في مأرب وظفار، بل أيضًا في جميع أنحاء جنوب شبه الجزيرة العربية. فخلال فترة زمنية قصيرة نسبياً، اختفى بانثيون آلهة جنوب الجزيرة العربية الثري؛ ويبدو أن التكريسات لآلهته توقفت، وهُجرت مزاراتها، بما في ذلك معبد العوام الكبير. ولم تعد النقوش موجهة إلى الآلهة النجمية القديمة مثل المقه Almaqah، وأثتار Athtar، أو شمس Shams، بل إلى إله واحد، عُرف بـ "رب السماء" أو "رب السماء والأرض"، المسمى أيضًا "رحمن" Raḥmānān.[٤٣]

ويتواصل الجدل بين الباحثين حول ما إذا كانت هذه التوحيدية الحميرية، على الأقل في العقود الأولى، قد تأثرت أكثر بالمسيحية أو اليهودية، أو ما إذا كانت هناك "رحمانية" حميرية تأسست على أسس سياسية أو حتى لاهوتية مستقلة.[٤٤] صحيح أن ثمة خلفية مسيحية مقترحة -على الأقل في السنوات الأولى بعد تحول ملوك حمير إلى التوحيد- تستند إلى حد كبير على رواية كتاب "تاريخ الكنيسة" لفيلوستورجيوس، ووفقا لها أرسل قنسطنطيوس الثاني (٣٣٧-٣٦١م) ثيوفيلوس الهندي[٤٥] إلى البلاط الحميري في ظفار، حيث قضى بعض الوقت في بداية أربعينيات القرن الرابع، ليس فقط من أجل تنصير الملك، بل أيضًا للحصول على إذن لبناء كنائس في ثلاثة مواقع منفصلة في اليمن.[٤٦] ومع ذلك، لا تحدد هذه الرواية هوية الملك الحميري، كما أنه ليس لدينا أية نقوش توحيدية من هذه الفترة المبكرة يمكن أن توفر شكلاً من الأدلة على تحول الملك إلى المسيحية.[٤٧]

ترجمات

على النقيض من ذلك، توجد مجموعة من العوامل التي تدعم الرأي القائل بأن التوحيد الحميري كان متأثرا باليهودية منذ البداية. ويمكن العثور على أول دليل في لفظ "رحمن" Raḥmānān نفسه. فعلى الرغم من أنه يعني "الرحمن" في اللغتين السريانية-الآرامية (المسيحية) واليهودية-الآرامية، إلا أنه في الأخيرة أُستخدم بشكل كامل كمرادف للفظ "الله"،[٤٨] ولذا من المعقول افتراض كون حمير اعتنقت عبادة "رحمن" والخلفية النظرية المفاهيمية المرتبطة به من الآرامية اليهودية وليس من المسيحية السريانية.[٤٩] صحيح أن لفظ "رحمن" تم استخدامه من أهل جنوب الجزيرة العربية للإشارة إلى "الله" في المسيحية، وجميع الأدلة تقطع بهذا، إلا أن هذه الأدلة تأتي من حقبة ما بعد الغزو الإثيوبي وهزيمة الملك الحميري يوسف، وبالتالي نجد نقوش الملك الإثيوبي في اليمن، أبرهة، تبدأ بالصيغة "بمساعدة رحمن ومسيحه"، وأحيانًا ما تمتد لتشمل الثالوث: "بمساعدة من رحمن ومسيحه والروح القدس".[٥٠] وحقيقة أن اسم "رحمن" كان يستخدم للإشارة إلى "الله" في المسيحية وقت أبرهة، تجعل من المحتمل أن الاسم كان مألوفا لمسيحيي جنوب العرب قبل الغزو الحبشي بالفعل.[٥١]

الآن، وبعد فحص منهجي للعقيدة التوحيدية الموجودة في نقوش القرنين الرابع والخامس، يمكن التمييز بين مجموعتين رئيسيتين من النصوص؛ تتضمن الأولى كافة النقوش التي لا يمكن تحديد صلتها بأيٍّ من الديانتين الكبيرتين، ولا تحتوي على دلالات يهودية أو مسيحية على وجه التحديد بخلاف اسم "رحمن" و(أو) تعبيرات مثل "سيد السماء والأرض". وتجدر الإشارة إلى أن جميع النقوش التي أصدرها ملوك حمير، والتي نشأت عن الفترة قيد المناقشة، تندرج ضمن هذا الصنف.[٥٢] أما المجموعة الثانية، وهي أقل بكثير، فتشمل تلك النقوش التي خلفها عرب الجنوب المعتنقون للعقيدة اليهودية. وهكذا يصف نقش من ظفار، يعود تاريخه إلى الربع الأخير من القرن الرابع، بناء "مواطن" يدعى يهودا ياكاف Yehūdā Yakkaf لمنزله بمساعدة رب السماء والأرض. وهنا لم يكن اسم الشخص فقط هو الذي دلنا على يهوديته، بوصف الاسم يمكن أن يشير إلى "الله" في اليهودية، بل أيضًا حقيقة أن النقش يشير إلى شعب إسرائيل.[٥٣]

وكما يوضح المثال أعلاه، يمكن إثبات أن النصوص السبئية ذات الخلفية اليهودية التي لا لبس فيها موجودة منذ وقت مبكر نسبيًا، في حين نفتقر أدلة على النصوص التي تُظهر بوضوح خلفية مسيحية. وهكذا، في نهاية القرن الرابع، أصبحت جنوب الجزيرة العربية موطنا للجماعات اليهودية[٥٤] والعشائر العربية الجنوبية التي تعترف باليهودية.[٥٥] وإذا أخذنا بشهادة تاريخ الكنيسة لفيلوستورجيوس، فإن اليهودية قد ترسخت حتى في وقت مبكر.[٥٦] على أساس هذه النتائج، إذن، يبدو من المحتمل جدًا (وهذه هي وجهة النظر السائدة حاليًا) أن التوحيد الحميري كما يُستدل من نقوش الحكام؛ كانت منذ البداية متأثرا باليهودية وليس المسيحية.[٥٧]

ويدعم هذا الافتراض عدد من العوامل السياسية التي يمكن أن نجدها على الجانب الآخر من باب المندب في أفريقيا. حيث اعتنق ملك أكسوم "إزانا Ezana'" -الذي تحمل ألقابه دليلا على زعمه السيادة على إقليم سبأ وحمير في جنوب الجزيرة العربية- المسيحية في أواخر اربعينيات القرن الرابع. لقد فعل ذلك بصراحة تامة، كما يمكن رؤيته من صوره الشخصية على النقوش والعملات. إذ يصفه أحد نقوشه بعد التنصر بأنه "خادم المسيح"،[٥٨] وتظهر عملاته المعدنية رموزًا مسيحية.[٥٩] ومن هنا من المفهوم تمامًا لماذا انضمت حمير إلى الشكل الآخر من التوحيد بعد وقت قصير؛ إذا كان هذا إجراء أيديولوجي مضاد للخصم التقليدي، الأكسوميون، ولوقف التأثير المتزايد للإمبراطورية البيزنطية في المنطقة.

لدينا معلومات غير مباشرة عن حدث آخر ينتمي إلى هذا السياق، من مصدر مدون بالحبشية القديمة يظهر إلماما عميقا بالوضع في جنوب شبه الجزيرة العربية، الأمر الذي يلمح إلى أن هذا المصدر مستمد من رواية محلية لجنوب الجزيرة العربية.[٦٠] يذكر هذا المصدر أنه في عهد الملك الحميري شرحبيل يانكف Shurhbilil Yakkaf (المذكور في نقش على مبنى بظفار مؤرخ بعام ٤٧٢ م)[٦١] حاول قس مسيحي يدعى أزقير Azqir التبشير في نجران، حيث تم اعتقاله من قبل نبلاء الحميريين المحليين وتم إرساله إلى القصر لمعاقبته. وفي ظفار، يُقال أنه شارك في نقاش مع علماء يهود وكذلك مع الملك، الذي أعاده لاحقًا إلى نجران لإعدامه.

وفي الوقت الذي لا يمكن اعتبار تصرفات الملك الحميري تحمل أي نوع من التعاطف تجاه المسيحيين، فمن الخطأ أن نتحدث، مع ذلك، عن اضطهاد واسع النطاق للمسيحيين في ذلك الوقت. من دون شك، كان الاضطهاد اللاحق بعد عشرين عامًا، في عشرينيات القرن السادس، مختلفًا تمامًا؛ ذلك عندما قام يوسف بشكل ممنهج بقمع المسيحيين ومؤيديهم الأحباش في كل من ظفار ونجران ومأرب وتهامة

والأراضي الغربية المنخفضة وحضرموت. ومع ذلك، لا يمكن تفسير الصراع فقط بمصطلحات التنافس بين يهود ومسيحيي جنوب العرب، بل يجب على المرء أن يضع في اعتباره أيضًا أن الوضع السياسي الداخلي في بداية القرن السادس كان قد تغير بشكل جذري مقارنة بعهد شرحبيل يانكف.

## اتجاه معدي كرب Ma'dikarib البيزنطي

على الرغم من أن المعلومات المتاحة في المصادر غير مفصّلة، إلا أن فحواها، -بالنظر إليها في سياق التطورات اللاحقة- واضح نسبيًا وتشير إلى التقارب بين حمير ظفار من جانب، وأكسوم وحماتهم البيزنطيين على الجانب الآخر، وهو التطور الذي حدث بالضرورة في بداية القرن السادس. كانت سياسات "معد كرب يعفر" Ma'dikarib Ya'fur، سلف يوسف المباشر على العرش الحميري،[٦٢] على وجه الخصوص، مؤيدة للبيزنطيين بشكل ملحوظ. وثمة دليل حقيقي على ذلك نصادفه في نقش صخري وُجد على بعد أكثر من ألف كيلومتر إلى الشمال من ظفار في وسط الجزيرة العربية، وينص على أن معدي كرب يعفر خاض حملة ضد القبائل البدوية المتمردة.[٦٣] هذه المعلومات في حد ذاتها ليست مفاجئة بالنظر إلى أن هذه الحملات كانت جزءًا من السياسة الحميرية منذ بداية القرن الخامس.[٦٤] ما يهمنا في هذا السياق بشكل خاص هو حقيقة أن الملك الحميري قاتل ضد حاكم اللخميين، المنذر الثالث، الحليف الفارسي، وكان مدعومًا من قوات البدو الذين كانوا عادةً ما يتواجدون في صف الإمبراطورية البيزنطية.

وهناك نص سرياني قصير من نوع أعمال الشهداء ذا صلة بهذه النقطة. وهو الخطاب الثاني لشمعون الأرشمي، الذي يصف اضطهاد مسيحيي نجران واستشهادهم بعد بضع سنوات. إذ يشير إلى امرأة مسيحية تنحدر من إحدى أهم العائلات في نجران تدعى روم Ruhm. ويزعم أنها أقرضت معدي كرب يعفر، سلف يوسف، مبلغ اثنى عشر ألف دينار عندما كان يواجه صعوبات، وأسقطت الدّين عنه عندما لم يستطع سداده لاحقًا.[٦٥]

مثل هذا الموقف المؤيد للبيزنطيين بوضوح من جانب أخر ملك حميري قبل يوسف لا يمكن أن يكون صدفة.[٦٦] ولا توفر لنا المصادر معلومات مباشرة عن درجة اهتمام بيزنطة وأتباعهم الأكسوميين والوسائل التي استخدموها. ومن المفترض أن اهتمام البيزنطيين بمنطقة حمير كان في ذلك الوقت أقل تركيزًا على موانئ جنوب الجزيرة العربية منه على قبائل وسط الجزيرة العربية الواقعة تحت حمايتهم، والتي سعت الإمبراطورية البيزنطية إلى كسبها لمواجهة قبائل وسط وشمال شرق الجزيرة التي تقاتل مع الجانب الفارسي. ومع ذلك، لا تساعدنا المصادر المتاحة حاليا في تحديد ما إذا كان النفوذ البيزنطي بلغ حد تثبيت الملك السابق على يوسف، وأعني معدي كرب يعفر، على العرش في وقت الغزو الحبشي الأول -الذي حدث على الأرجح في حوالي عام ٥١٩.[٦٧]

ومع ذلك، يمكننا القول بثقة كاملة أن هذا الوقت شهد أول تدخل حبشي في جنوب الجزيرة،[٦٨] وأن هذا التدخل هو الذي قاد معدي كرب يعفر إلى انتهاج مسار سياسي مؤيد للبيزنطيين. ونعلم أيضًا أن هذه السياسة المؤيدة للبيزنطيين من جانب بلاط حمير في ظفار أثرت تأثيرا كبيرا على عدد من الاتحادات القبلية القوية في جنوب الجزيرة العربية، وأثارت بالفعل رد فعل مضاد من جانبهم. وهنا من المهم ملاحظة أن هذه الحركة المضادة لم تدعمها الأحزاب في البلاط الحميري في ظفار ولا قبائل مرتفعات وسط اليمن، بل جاء الدعم بالأحرى من قبل اليزنيين Yaz'anids، وهي قبيلة تقع في أقصى الجنوب الشرقي من قلب حمير،[٦٩] وامتدت سيطرتها الإقليمية من المرتفعات الوسطى في الغرب إلى الحواف الغربية لهضبة حضرموت والساحل، بما في ذلك مدينة قنا **Qana'** الساحلية القديمة. وقد حظي اليزنيين بدعم من Banū Gadanim من مآرب و Ghayrnān من المنطقة الواقعة شرق صنعاء، بمعنى آخر، بدعم من القبائل السبئية القوية سابقًا والاتحادات القبلية التي توقفت منذ فترة طويلة عن لعب دور مهم في ظل الحكم الحميري.[٧٠]

## يوسف ذو نواس واضطهاد المسيحيين

كانت الشخصية الرئيسة في هذا الصراع، الذي كان من المفترض أن يقود حركة اليزنيين المضادة هو الملك يوسف، المعروف في الروايات العربية باسم ذو نواس.[٧١] ولا تخبرنا المصادر الأدبية بكثير من المعلومات ذات القيمة التاريخية عن شخصية يوسف. ومنطقي أن تقدمه أعمال الشهداء السريانية واليونانية في صورة بالغة السلبية.[٧٢] وفي وقت لاحق، يصور الكتّاب العرب يوسف بشكل أكثر إيجابية. وحيث أنه هو الذي نظم المقاومة المحلية ضد المحتلين الأحباش، فإن شخصيته وفرت عنصراً قومياً جعلته مقبولاً للروايات العربية.[٧٣] ويمكن العثور على معلومات حقيقية عن يوسف

كشخصية تاريخية في النقوش الصخرية الثلاثة الكبيرة[٧٤] التي قام بها أحد قادته أثناء الحصار المفروض على نجران.

يعبر اسم وألقاب يوسف بالفعل عن أجندة سياسية: "الملك يوسف أسأر يثأر Yūsuf As'ar Yath'ar، ملك جميع القبائل".[٧٥] إن اسمه معطى بدون تحديد منطقة بعينها، وهو أمر غير معتاد، ومع ذلك فقد أُضفيت إليه كلمتان في السبئية: "المنتقم" و"الباقي". ويشير كلا المصطلحين بوضوح إلى الأحداث السابقة، على الأرجح إلى الصراعات التي حدثت بين يوسف وأتباعه والأحباش خلال غزوهم الأول.[٧٦] ولاسم يوسف ذاته دلالات واضحة بالمثل؛ إذ كان اسما غير مألوفا في جنوب شبه الجزيرة العربية القديم ، ولابد أنه أُستعير من اللغة العبرية؛[٧٧] ومن ثم فهو يحمل دلالة سياسية تشي بدعم النمط اليهودي من التوحيد،[٧٨] كما أن الألقاب الملكية التي تشير بها النقوش إلى يوسف اختلفت عن اللقب الطويل الذي استخدمه ملوك حمير منذ أيام أبو كرب أسعد Abūkarib As'ad، وهو: "ملك سبأ وذو ريدان حضرموت ويامنات وعرب المرتفعات والأراضي المنخفضة"، أما يوسف فقد لُقب ببساطة كـ "ملك كل القبائل".[٧٩] وبناءً على ذلك، اقترح، ربما ليس بدون بعض المبررات، أنه بلغ العرش على نحو غير شرعي. ونظرا لشح المادة المصرية المتوفرة،[٨٠] من الصعب الحكم بثقة على مدى صحة الرواية العربية فيما يتعلق بكونه أُستخدم لإزاحة سلفه، معدي كرب.[٨١]

كانت حملات يوسف الأولى موجهة ضد الأحباش في ظفار، حيث أحرق الكنيسة، وقتل القساوسة، ويفترض أيضا الجيش الذي يحرسهم. ثم تحول إلى الأراضي الساحلية الغربية لتهامة ضد الوحدات الحبشية المتمركزة هناك والقبائل المسيحية المتحالفة معها. حيث أحرق كنيسة البلدة الساحلية المعروفة بالمخا 'al-Mukhā (في السبئية *mḫwn*)، وواصل تحركه على طول الساحل حتى مادبان Maddabān (في السبئية *mdbn*)، وهو الحصن الذي يُطلق اسمه على المضيق المعروف اليوم بباب المندب. وهناك قام بسد مدخل الميناء بالسلاسل لإحباط النزول الوشيك للأحباش. بينما أقام هو نفسه بمادبان في انتظار أسطول الأحباش بقيادة كالب إيلا أصبحه Kaleb Ella Asbeha، الذي أرسل أحد قادته، هو شرحئيل يقبل Sharaḥ'il Yaqbul، إلى نجران لمحاصرة طريق القوافل إلى الشمال الشرقي من البلدة المؤدية إلى قرية الفاو Qaryat al-Faw وشرق الجزيرة العربية، وذلك لممارسة الضغط الاقتصادي على المدينة.

وقد وقعت هذه الأعمال العدائية بين عامي ٥٢٢-٥٢٣م واستمرت نحو ثلاثة عشر شهراً. ونعرف كل هذه المعلومات من خلال النقوش الثلاثة المؤرخة التي كرسها شرحئيل يقبل في مكان بارز على طريق القوافل إلى الشرق من الجزيرة العربية، على بعد يتراوح ما بين ٩٠كم إلى ١٣٠ كم شمال شرق نجران.[٨٢]

## الأحداث في نجران

تلك هي آخر المصادر النقشية الحميرية التي نمتلكها منذ عدة سنوات، لذلك نحن مضطرون إلى الاعتماد على المصادر المسيحية للحصول على معلومات بشأن الأحداث التالية التي وقعت لاحقا في نجران. وبالإضافة النسخة اليونانية من "استشهاد القديس الحارث" *Martyrium Sancti Arethae* والشذرات المتبقية من كتاب الحميريين السرياني،[٨٣] فإن أهم هذه المصادر هما الرسالتان السريانيتان لشمعون الأرشمي، وهو أسقف مونوفزيتي من الجزيرة الفراتية.[٨٤] وهذان الخطابان لهما أهمية قصوى، لأسباب أهمها أن الروايات التي تحتويها سُجلت بوضوح في وقت قريب من أحداث نجران.[٨٥] وعلاوة على ذلك، فإن الخطابين مؤرخين، مما يسمح لنا بتحديد التواريخ وبالتالي تحديد التسلسل الزمني للأحداث في نجران وكذلك السابقة عليها.[٨٦] لقد حدث اضطهاد وقتل المسيحيين في نجران في خريف عام ٥٢٣، وكما نعلم من التواريخ الواردة في النقوش الصخرية، بدأ الحصار على طرق القوافل إلى الشمال الشرقي قبل ذلك ببضعة أشهر، في يونيو ويوليو.[٨٧] وفيما يتعلق بالأحداث التي جرت في نجران، نعلم من الرسالة الثانية أن الملك [يوسف ذو نواس] نفسه أتى بعد حصار مطول وتعهد بعدم التعرض للمسيحيين إذا استسلموا له؛ ومن التفاصيل المهمة بشكل خاص في هذا الوصف أن الملك أقسم على هذا التعهد في حضور حاخامات من طبرية وأقسم على التوراة. ورغم استسلام مواطني نجران، لم ينفذ يوسف عهده. وبعد أن قتل أكثر من ثلاثمائة من كبار المسيحيين، أمر بإخراج عظام الأساقفة المدفونين في نجران من الكنيسة، حيث أحرقهم مع أخرين من العلمانيين ورجال الدين.[٨٨] ويمضي الخطاب لوصف عدد من حالات الاستشهاد الفردي والجماعي للمسيحيين البارزين من جميع الطبقات ومن جميع الأعمار، من بينهم نجد نسبة عالية وملحوظة من النساء. ورغم أننا هنا أمام نمط أدبي، إلا إن فحصه بشكل نقدي لبيان دقته التاريخية يظهر درجة مذهلة

من التعرّف على الوضع والطوبوغرافيا والجغرافيا في جنوب شبه الجزيرة العربية،[٨٩] بدرجة لا يمكن معها استبعاد أصالته.

إن وصف اقتياد أريثاس المسن، أو الحارث بن كعب باللغة العربية، للمثول بين يدي يوسف والتباهي بوقوفه ثابتا كرجل وقتله أحد أقارب يوسف في مبارزة فردية، لا يكاد يتناسب مع تقليد المسيحي المتدين الذي ينتظر الشهادة بفارغ الصبر ويدعو الله أن يغفر لمضطهديه. كما أن ثورة غضب الحارث نفسه وقوله أنه كان يفضل مواجهة ملك حمير مع أتباعه والسيف في يده، وإقدامه على تنفيذ ذلك لولا أن اتباعه المسيحيين اغلقوا البوابات ولم يدعوه يخرج؛ هي صورة تعكس موقفا أكثر اتساقًا مع شيخ عشائري عربي قديم كان نموذج الشرف بالنسبة له في مثل هذه المواقف هو الموت في أرض المعركة.

إن كلمات الحارث، التي أوجزناها من الرواية الواردة في الرسالة السريانية الثانية لشمعون،[٩٠] تتيح لنا اختبار بعض الاستنتاجات الحذرة فيما يتعلق بالسياسة الداخلية لنجران ووضع المسيحيين هناك. ويبدو أن نجران لم تكن مسيحية تمامًا أو حتى بشكل غالب، بل كان موطنًا لمجتمع مسيحي كبير. هذا نستنتجه من عدد الشهداء، الذي يقدره شمعون بألفين،[٩١] وحتى إذا كان رقم شمعون مبالغ فيه، فإنه لا يمثل سوى جزء من السكان المحتملين في المدينة والواحة في ذلك الوقت. وهناك اعتبار إضافي يتمثل في حقيقة أن حصار طرق القوافل المؤدية إلى شرق الجزيرة العربية، على مسافة حوالي تسعين كيلومترًا أو أكثر، لن يكون له أي معنى إذا كانت النية بالفعل هي توجيه ضربة قاصمة للواحة. التفسير الأكثر ترجيحًا هو أن الهدف من ذلك كان إظهار الأمر للمواطنين البارزين، مسيحيين وغير مسيحيين، على أنهم قد يتعرضون لضربة قوية سريعة الأثر من الناحية الاقتصادية، وذلك ببساطة عن طريق قطع طرق التجارة. ربما كان الأساس المنطقي وراء الحصار هو محاولة إثارة سكان نجران غير المسيحيين ضد المسيحيين.

في الختام، إذا تحولنا إلى الوضع الذي أقامته المسيحية في نجران، نجد أنه كان لها تاريخ أقصر بكثير مما كان متوقعًا في المكان الخاص الذي كانت تتمتع فيه نجران دائمًا بين مدن الواحات العربية الجنوبية. حيث يخبرنا خطاب شمعون أنه كان لنجران أسقفان فقط؛ الأول هو مار بولس، الذي فقد حياته في موجة سابقة من الاضطهاد في ظفار ودُفن في نجران؛ والأسقف الثاني يحمل نفس الاسم، وكان قد مات بالفعل عندما استسلمت نجران.[٩٢] وكشف شمعون أيضًا عن تفاصيل هامشية؛ وهي أن كلا الأسقفين قد كرسهما فيلوكسينوس Philoxenos أسقف مابوغ Mabbūg، الزعيم البارز في الكنيسة الأرثوذكسية السورية،[٩٣] مما يشي بأن المسيحية في نجران كانت بشكل ملحوظ مغايرة للخلقيدونية.[٩٤] أثار اضطهاد واستشهاد مسيحيي جنوب الجزيرة العربية مشاعر قوية في جميع أنحاء عالم المسيحية الشرقية- وليس في نجران فقط، بل نجد صدىً لأحداث هذه الفترة في القرآن الكريم، حيث تشير سورة ٨٥: ٤ إلى أهل الإخدود، ويرى مفسرو القرآن أن هذه إشارة إلى شهداء نجران المسيحيين الذين أُحرقوا وهم أحياء على يد ذو نواس.[٩٥]

## غزو أكسوم الثاني

ثمة تأثير لا يقل أهمية لاضطهاد مسيحيي جنوب الجزيرة العربية، حيث زود ملك أكسوم كالب إيلا أصبحه بالمبرر الذي كان يحتاج إليه لشن هجوم واسع النطاق، بدعم لوجستي من قبل الإمبراطورية البيزنطية. بدأ هذا الهجوم في عام ٥٢٥ وانتهى (كما تتفق جميع المصادر) بإزاحة وقتل يوسف والاحتلال اللاحق لجزء كبير من اليمن على أيدي القوات الإثيوبية، ووفقًا لسيرة جريجنتيوس *Life of Gregentius*،[٩٦] الذي تم إرساله كأسقف إلى ظفار بعد الفتح الإثيوبي مباشرة، شرع الملك الإثيوبي في إعادة تنظيم كل من الشؤون السياسية والكنسية، بادئا بترميم الكنائس التالفة وتشييد أخرى؛ حيث أقام ثلاث كنائس جديدة في نجران وظفار وحدها.[٩٧] يمكن أيضا استكمال معلومات مصادر جنوب العربية بالمعلومات المقدمة من بروكوبيوس Procopios. وفقًا لتقاليد حكام أكسوم، قام إيلا أصبحه بتنصيب ملك محلي للعميل، يدعى إيسيميفايوس Esimiphaios (Εσιμιφαιος).[٩٨] وهو الذي عُرف باسم سميفع أشوع Simyafa‘ Ashwa‘ في شذرات نقش يحوي أيضا كل من الصيغة المسيحية للثالوث واسم الملك إيلا أصبحه.[٩٩] لقد تم تكريس هذا النقش في مآرب بالكتابة الإثيوبية القديمة، ولم يتبق منه سوى ثلاث شذرات، وقد يكون مدشنه هو إيلا أصبحه نفسه؛[١٠٠] من هذا، علمنا أنه قد أحرق قصر مأرب الملكي القديم المعروف باسم سلحين Salḥīn.[١٠١]

قرب نهاية هذا العقد المضطرب، نجد نصًا لم يضعه الجانب المسيحي المنتصر بل الجانب الخاسر في هذا الصراع. إنه نقش معروف منذ بدايات الدراسات السبئية يقع على صخرة حصن الغراب Husn al-Ghurāb، على بعد مئات الكيلومترات من ظفار على شواطئ المحيط الهندي.[١٠٢]

ترجمات

وتقع هذه القلعة الصخرية على ساحل مدينة قنا Qana القديمة، التي لعبت ذات يوم دورًا محوريًا في التجارة مع الهند وفي تجارة البخور في جنوب الجزيرة العربية.(١٠٣) يرجع تاريخ النقش نفسه إلى عام ٥٣٠م، أي بعد خمس سنوات من الغزو الإثيوبي الكبير. ويصف استعادة القلعة، مع تفصيل إعادة بناء الجدار والبوابة والصهاريج وطريق الاقتراب. إلا أن أهم ما يكشف عنه النقش هو سياق تكريسه؛ إذ يذكر أن ثمة تحصينات جرت بعد عودة الأشخاص الذين دشنوا النقش -كما أفهم النص- من تهامة عقب احتلال الأحباش للبلاد وقتلهم ملك حمير والزعماء القبليين.(١٠٤)

وهناك الكثير من التكهنات حول سبب وجود هذا النقش في المكان، وقبل كل شيء، لماذا تم تكريسه. ورغم أنه من المتفق عليه عمومًا اليوم أن سميفع أشوع الوارد اسمه كأحد مكرسي النقش، شخص مختلف عن سميه عميل الملك الذي نصبه الإثيوبيون، فإن النص لا يزال يثير عددًا من القضايا، أهمها أنه لا يشير إلى وظيفة أي من أسماء أولئك الأشخاص ولا يحتوي على أي شكل من أشكال الصيغة التوحيدية، سواء كانت مسيحية أو يهودية. في اعتقادي، يمكن بلوغ إجابة عن هذه التساؤلات إذا فحص المرء بشكل أكثر قربًا أسماء العشائر المشاركة في استعادة القلعة، والتي تشمل بالإضافة إلى قبيلة اليزنيين المحلية قبائل أخرى كـ Gadanum من مأرب، وقبائل مختلفة من المرتفعات الجنوبية حول ظفار ومن تهامة، وكذلك العديد من العائلات من أجزاء مختلفة من حضرموت. باختصار، يحتوي النقش على أسماء ثلاثة وثلاثين من القبائل والعشائر معظمها يعطي انطباعًا عن ماهية القبائل والعشائر التي احتشدت حول يوسف في محاولته للإطاحة بالإثيوبيين وحلفائهم المسيحيين المحليين. تلقي هذه الملاحظة بعض الضوء على السياق التاريخي الذي يجب وضع النص فيه.

بعد انتصار الملك الإثيوبي، انسحب أنصار يوسف المهزومون على الأقل من الجزء الغربي من البلاد ولجأوا إلى منطقة اليزنيين الرئيسية، المناطق النائية المحيطة بقنا Qana،(١٠٥) وأقاموا هذه التحصينات لأن اليزنيين وبقية توقعوا بالضرورة قيام الإثيوبيين في مرحلة ما بشن هجوم من البحر، مما يجعل الأر الذي يحتم تأمين حصن دفاعي يعمل بكامل طاقته ويحمي المرفأ. وكما نعلم من المصادر، لم يحدث مثل هذا الهجوم. على العكس من ذلك، بعد مضي ثلاثة عشر عامًا، كان على اليزنيين وعشائر مؤثرة أخرى من مأرب العودة إلى المسرح السياسي، عندما انضموا إلى كنده Kindaür بقيادة يزيد بن كبشة Yazīd b. Kabshat، في تمردهم ضد المحتلين الأحباش.(١٠٦) ومع ذلك، فإن هذه الأحداث لاحقة على عصر الحميريين وتعود إلى زمن أبرهة، الذي شهد اليمن في ظله خمسين عامًا من السيطرة المسيحية.

## البيبليوجرافيا


- Ahroni, R., *Yemenite Jewry: Origins, Culture, and Literature*, Bloomington, 1986.
- Antonini, S. “Un manufatto ḥimyarita di stile portico-sassanide”, *Arabia* 2 (2004): 15-19.
- Bausi, A., “Review of Life and works of Saint Gregentios, Archbishop of Taphar. Introduction, Critical Edition and Translation. With a contribution by G. Fiaccadori, A. Berger”, *Aethiopica* 11 (2008): 262-266.
- Bausi, A., and A. Gori, *Tradizioni Orientali del “Martirio di Areta”. La Prima recensione araba e la versione etiopica. Edizione critica e traduzione*, Dipartemento die Linguistica Università degli studi di Firenze 2006.
- Beaucamp, J., F. Briquel-Chatonnet, and C.-J. Robin, “La persecution des chrétiens de Nagrān et la chronologie Ḥimyarite”, *ARAM* 11-12 (1999-2000): 15-83.
- Beeston, A.F.L., *Warfare in Ancient South Arabia (2(nd)-3(rd) centuries A.D.)*, London, 1976.
- Beeston, A.F.L., “Ḥabashat and Aḥābīsh”, *Proceedings of Seminar for Arabian Studies* 17 (1987): 5-12.
- Berger, A. (ed.), *Life and Works of Saint Gregentios, Archbishop of Taphar. Introduction, Critical Edition and Translation. With a contribution by G. Fiaccadori*, Berlin and New York, 2006.
- Brakmann, H., “Religionsgeschichte Aksums in der Spätantike”, In *Äthiopien gestern und heute: Akten der I. Tagung der Orbis Aethiopicus Gesellschaft zur Erhaltung und Förderung der äthiopischen Kulture*, ed. P.O. Scholz, Warsaw, 1999, 401-430.
- Brakmann, H., “Axomis (Aksum”, In *Reallexukon für Antike und Christentum*, suppl. Vol. I, Stuttgart, 2001, 718-810.
- Brockelmann, C., Lexicon Syriacum, Halle, 1928.
- Bruns, P., “Philoxenus von Mabug”, In Döpp and Greelings (eds.). *Lexikon*, 577-578.
- Bruns, P., “Simeon von Bet Arscham”, In Döpp and Greelings (eds.). *Lexikon*, 641-642.
- Caskel, W., *Gamharat an-nasab: Das genealogische Werk des Hišām ibn Muḥammad al-Kalbī*, 2 vols. Leiden, 1966.
- Conti Rossini, C., “Un documento sul chridtianesimo nello lemen ai tempi del re Šarāḥbīl Yakkuf”, Rendiconti della Reale Accademia dei Lincei 5, no.19 (1910): 705-750.
- Cosmas Indicopleustes, Topographie Chrétienne, ed. W. Wolska-Conus, vol.I, Paris, 1968.

- Müller, W.W., "Review of *The Martyrs of Najrän: New Documents* by I. Shahid", *Oriens Christianus* 58 (1974): 179-190.
- Müller, W.W., "Abessinier und ihre Namen und Titel in vorislamischen südarabischen Texten", *Neue Ephemeris für Semitische Epigraphik* 3 (1978): 159-168.
- Müller, W.W., "Himyar", In *Reallexikon für Antike und Christentum*, vol. 15, Stuttgart, 1991, 303-331.
- Müller, W.W., "Die Stele des Abraha, des äthiopischen Königs im Jemen", In *Im Land der Königin von Saba: Kvnstschätze aus dem antiken Jemen*, published by the Museum for Ethnology Munich, Munich, 1999, 268-270.
- Müller, W.W., "Theophilos der Inder", In *Lexikon für Theologie und Krrche*, vol.9, Freiburg, 2000, 1473.
- Müller, W.W., "Religion und Kult im antiken Südarabien", In *Polytheismus und Monotheismus in den Religionen des Vorderen Orients*, ed. M. Krebernik and J. v. Oorschot, Münster, 2002, 175-194.
- Müller, W.W., "Ḥabašāt", In *Encyclopaedia Aethiopica*, ed. S. Uhlig, vol. 2, Wiesbaden, 2005, 948-949.
- Munro-Hay, S., *Aksum: An African Civilization of Late Antiquity*, Edinburgh, 1991.
- Nashwān b. Saʻīd al-Ḥimyarī, Kitāb šams al-ʻulūm, ed. H.B.A.al-ʻAmrī, M.B.A. al-Iryānī and Y.M. b. ʻAbdallah, 12 vols, Damascus, 1999.
- Nebe, G.W., AND S. Sima, "Die aramäisch/hebräisch-sabäische Granbinschrift der Lea", *Arabian Archaeology and Epigraphy* 15 (2004): 76-83.
- Nebes, N., "Ulrich Jasper Seetzen im Jemen", In *Ulrich Jasper Seetzen (1767-1811): Leben und Werk: Die arabischen Länder und die Nahostforschung im napoleonischen Zeitalter; Vorträge des Kolloquiums vom 23. Und 24. September 1994 in der Forschungs- und Landesbibliothek Gotha, Schlob Friedenstein*, Gotha, 1995, 39-52.
- Nebes, N., "Ein Kriegszug ins Wadi Ḥaḍramawt aus der Zeit des Damarʻalī Yuhabirr und Taʻrän Yuhanʻim", Le Muséon 109 (1996): 279-297.
- Nebes, N., "Der grobe Tatenbericht des Karib'il Watar in Ṣirwāḥ", In *Im Land der Königin von Saba: Kunstschätze aus dem antiken Jemen*, published by the Museum for Ethnology Munich, Munich, 1999, 66-69.
- Nebes, N., "A New Abraha Inscription from the Great Dam of Mārib", *Proceedings of the Seminar for Arabian Studies* 34 (2004): 221-230.
- Nebes, N., "Ein Feldzugsbericht des Šāʻirum 'Awtar in einer neuen Widmungsinschrift aus dem Bar'ān-Tempel", In *Scripta Yemenica. Issledovanija pu Juznoj Aravii. Sbornik naučnych statej v čest 60-letija M.B. Piotrovskogo*, ed. A.V. Sedov, Moskva, 2004, 273-288.
- Nebes, N., "Herrscherinschriften und andere Dokumente zur politischen Geschichte Südarabiens", In *Texte aus der Umwelt des Alten Testaments*, ed. B. Janowski and G. Wilhelm, new series, vol.2, *Staatsverträge, Herrscherinschriften und andere Dokumente zur politischen Geschichte*, Gütersloh, 2005.
- De Blois, F., "The date of the 'martyrs of Nagrān", *Arabian Archaeology and Epigraphy* 1 (1990): 110-128.
- Döpp, S., and W. Geerlings, eds. Lexikon der antiken christlichen Literatur, 3rd ed, Freiburg, 2002.
- Fiaccadori, G., "Gregentios in the Land of the Homerites", In A. Berger (ed.), *Life and Works of Saint Gregentios,* Berlin and New York, 2006, 48-82.
- Fiaccadori, G., "Monumentum Adulitanum", In *Encyclopaedia Aethiopica*, ed. S. Uhlig, vol. 3, Wiesbaden, 2007, 1010-1012.
- Fattovich, R.S., and S. Munro-Hay, "Adulis", In *Encylopaedia Aethiopica*, ed. S. Uhilg, vol. 1, Wiesbaden, 2003, 104-105.
- Gajda, I., "Les débuts du monothéisme en Arabie du Sud", *Journal Asiatique* 290 (2002): 611-630.
- Gajda, I., "The Earliest Monotheistic South Arabian Inscription", *Archäologische Berichte aus dem Yemen* 19 (2005): 21-29.
- Geiger, J., "Jüdische Bergriffe und Worte innerhalb der syrischen Literatur", *Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft* 21 (1867): 487-492.
- Guidi, I., "La lettera di Simeone vescovo di Bêth Aršām sopra I martiri omeriti", In *Atti della Reale Accademia dei Lincei, 3(rd) series, Memorie della Classe di Scienze morali, storiche e filologiche*, vol. 7, Rome, 1881, 471-515. Reprinted in *Raccolta di scritti*, vol.1, *Oriente Cristiano* 1, ed. I. Guidi, Rome, 1945, 1-60.
- Hahn, W., *Münzen, Naturalgeld und Banknoten in Äthiopien von der Antike bis zur Gegenwart*, Vienna, 1996.
- Hahn, W., "Symbols of Pagan and Christian Worship on Aksumite Coins: Remarks to the History of religions in Ethiopia as documented by its coinage", In Äthiopien gestern und heute: Akten der 1. Tagung der Orbis Aethiopicus Gesellschaft zur Erhaltung und Förderung der äthiopischen Kultur, ed. P.O. Scholz, Warsaw, 1999, 431-454.
- Hahn, W., "Ezana", In *Encyclopaedia Aethiopica*", ed. S. Uhlig, vol.2, Wiesbaden, 2005, 478-480.
- Hölbl, G., *Geschichte des Ptolemäerreiches*, Darmstadt, 2004.
- Kiraz, G.A., *A Computer-Generated Concordance to the Syriac New Testament*, 6 vols., Leiden, 1993.
- Levy, J., *Chaldäisches Wörterbuch über die Targumim und einen grossen Teil des* rabbinischen *Schriftthums*, 2 vols, Leipzig, 1866-1867.
- Levy, J., *Neuhebräisches und chaldäisches Wörterbuch über die Talmudim und Midraschim*, 4 vols., Leipzig, 1876-1889.
- Martyrium *Sancti Arethae et sociorum in civitate Negran*, ed. E. Carpentier, *Acta Sanctorum, Octobris Tomus X*, Brussels, 1861, 661-762.
- Al-Mad'aj, A., *The Yemen in Early Islam, 9-233/630-847: A Political History*, London, 1988.
- Moberg, A., *The Book of the Himyarites: Fragments of a hitherto unknown Syriac work*, Lund, 1924.
- Müller, W.W., "Zwei weitere Bruchstücke der äthiopischen Inschrift aus Mārib", *Neue Ephemeris für Semitische Epigraphik* 1 (1972): 59-74.
- Müller, W.W., "Eine sabäische Gesandtschaft in Ktesiphon und Seleukeia", *Neue Ephemeris für Semitische Epigraphik* 2 (1974): 155-165.

séances *de l'année 2004 (published 2006), avril-juin*, 831-906.
- Ryckmans, J., " A Confrontation of the Main Hagiographic Accounts of the Najrān Persecution", In *Arabian Studies in Honour of Mahmoud Ghul: Symposium at Yarmouk University, December 8-11, 1984*, ed. M.M. Ibrahim, Wiesbaden, 1989, 113-133.
- Scher, A., ed. "Histoire Nestorienne (Chronique de Séert)", *Patrologia Orientalis* 7 (1911): 93-203.
- Schneider, H. "Cosmas der Indienfahrer", In Döpp and Geerlings (ed.), *Lexikon*, 165-166.
- Schröter, R., "Trostschreiben Jacob's von Sarug an die himjaritischen Christen", *Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschraft* 31 (1877): 360-405.
- Sedov, A.V., "New archaeological and epigraphical material from Qana (South Arabia)", *Arabian Archaeology and Epigraphy* 3 (1992):110-137.
- Shahid, I., *The Martyrs of Najrān: New Documents*, Brussels, 1971.
- Shahid, I., "Byzantium in South Arabia", *Dumbarton Oaks Papers* 33 (1979): 23-94.
- Sima, A., "Abraha", In *Encylopaedia Aethiopica*, ed. S. Uhilg, vol. 1, Wiesbaden, 2003, 42-43.
- Sima, A., "Cosmas Indikopleustes", In *Encylopaedia Aethiopica*, ed. S. Uhilg, vol. 1, Wiesbaden, 2003, 806-807.
- Sokoloff, M., *A Dictionary of Jewish Palestinian Aramaic of the Byzantine Period*, Jerusalem, 1990.
- Sokoloff, M., *A Dictionary of Jewish Babylonian Aramaic of* the *Talmudic and Geonic Periods*, Jerusalem, 2002.
- Stein, P., *Untersuchungen zur Phonologie und Morphologie des Sabäischen*, Rahden, 2003.
- Strabo, *The Geography*, ed. & trans. H. Jones, 8 vols., Cambridge (MA), 1917.
- aṭ-Ṭabarī, *Tārīkh ar-rusul wa-l-mulūk, ed. M.J. de Goeje et al.*, 3 series, Leiden, 1879-1898.
- Wissmann, H., von., *Zur Geschichte und Landeskunde von Alt-Südarabien*, Vienna, 1964.
- Yule, P., "Mapping Ḥimyarite Ẓafār", In *Leaving No Stones Unturned: Essays on the Ancient Near East and Egypt in Honor of Donald P. Hansen*, ed. E. Ehrenberg, Indiana, 2002, 313-323.
- Yule, P., and K. Franke, C. Meyer, G.W. Nebe, C. Robin, C. Witzel, "Ẓafār. Capital of Ḥimyar, Ibb Province, Yemen", *Archäologische Berichte aus dem Jemen* 11(2007), 477-548.

**المؤلف:**

وُلد نوربيرت نيبيس في مدينة ميونيخ الألمانية يوم السادس من فبراير ١٩٥٥م. حصل على الدكتوراه من جامعة ميونيخ عام ١٩٨٢م، ثم التحق بعدد من الجامعات الألمانية كماربورج وهيزنبرج. وفي عام ١٩٩٤م انضم إلى جامعة يينا Jena كأستاذ لفقه اللغات السامية والدراسات الإسلامية. وعمل في العديد من الحفائر الأثرية في اليمن خلال الفترة (١٩٩٠-٢٠١٤م). يهتم نيبيس في دراساته بالنقوش القديمة في جنوب الجزيرة العربية وفقه اللغة العربية والعلاقات الحضارية القديمة بين الحبشة وجنوب الجزيرة العربية، فضلاً عن تاريخ شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام.

- Nebes, N., "Ita'amar der Sabäer", *Arabian archaeology and epigraphy* 18 (2007): 25-33.
- Nebes, N., "Die Märtyrer von Nagrān und das Ende der Himyar. Zur politischen Geschichte Südarabiens im frühen sechsten Jahrhudert", *Athiopica* 11 (2008): 7-40.
- Newby, G.D., *A History of the Jews of Arabia: From Ancient Times to their Eclipse Under Islam*, South Carolina, 1988.
- Nöldeke, T., *Geschichte der Perser und Araber zur Zeit der Sasaniden aus der arabischen Chronik des Tabari*, Leiden, 1879.
- Paret, R., "Aṣḥāb al-ukhdūd", In *The Encyclopaedia of Islam*, new edition, vol.1, Leiden, 1960, 692.
- Payne Smith, R., *Thesaurus Syriacus*, 2 vols., Oxford, 1879-1901. Reprint, Hildesheim, 1981.
- Periplus *maris Erythraei*, ed. & trans. Lionell Casson, Princeton, 1989.
- Phillipson, D.W., *The Monuments of Aksum: an illustrated account, ed. D.W. Phillipson, based on the work in A.D. 1906 of the Deutsche Aksum-Expedition by E. Littmann, D. Krencker, and T. von Lüpke (Berlin 1913), translated by R. Bedlow, and including previously unpublished photographs from the Staatsbibliothek zu Berlin*, Addis Ababa, 1997.
- Philostorogios, *Philostorgius Kirchengeschichte: mit dem Leben des Lucian von Antiochien und den Fragmenten eines arianischen Historiographen*, ed. J. Bides, Leipzig, 1913.
- Pliny the Elder, *Natural History*, ed. & trans. H. Rackham et al., 10 vols., Cambridge (MA), 1942 ff.
- Pollmann, K., "Gregentius", In Döpp and Geerlings (ed.), *Lexikon*, 289.
- Potts, D.T., "The Sasanian relationship with South Arabia. Literary, epigraphic and oral historical perspectives", *Studia Iranica* 37 (2008): 197-213.

Procopios, *Procopii Caesariensis opera omina*, ed. J. Haury and G. Wirth, vol.1, Leipzig, 1962.
- RIE: Bernard, E., A.J. Drewes, and R. Schneider, *Recueil des Inscriptions de l'Éthiopie des périodes pré-axoumite et axoumite*, vol.1, *Les documents*, Paris, 1991. Vol.2, *Les planches*, Paris, 1991. Vol.3, *Traductions et commentaires* A. *Les inscriptions grecques par E. Bernard*, Paris, 2000.
- Robin, C.-J., "La première intervention abyssine en Arabie méridionale", In *Proceedings of the English International Conference of Ethiopian Studies*, ed. T. Beyene, vol.2, Addis Ababa, 1989, 147-162.
- Robin, C.-J., "Sheba dans les inscriptions d'Arabie du Sud", In *Supplément au dictionaire de la Bible*, vol.12, Paris, 1996, 1047-1254.
- Robin, C.-J., "Le royaume ḥujride, dit 'royaume de Kinda': entre Himyar et Byzance", In *Académie des Inscriptions et Belles-Lettres: Comptes Rendus* (April-June 1996), 665-714.
- Robin, C.-J., "Le judaïsme de Ḥimyar", *Arabia* 1 (2003): 97-172.
- Robin, C.-J., "Ḥimyar au IVe siècle de l'ère chrétienne. Analyse des données chronologiques et essai de mise en ordre", *Archäologische Berichte aus dem Jemen* 10 (2005): 133-152.
- Robin, C.-J., "Ḥimyar et Israël", *Académie des Inscriptions et Belles-Lettres: Comptes Rendus des*

## الهَوامِشُ:

(١) الهدف من هذا البحث هو تقديم عرض للتاريخ السياسي للأحداث التي وقعت في الفترة قيد المناقشة، دون الزعم بأنه يمثل مراجعة كاملة للمصادر المتاحة أو أنه الوحيدة الذي ناقش الموضوع الراهن. فمن الدراسات التي أوجزت لهذا الموضوع، انظر الإسهام الحديث لبيكامب (Beaucamp et al., “Persécution”) الذي يؤكد على التسلسل الزمني للأحداث، والذي سأتبعه في تحديد بداية العصر الحميري بعام ١١٠ قبل الميلاد. هذا وتزودنا دراسة مولر أيضًا (Müller, “Himyar”) بتقييم شامل للمادة المصدرية المتاحة، وتظل من الدراسات الجوهرية للموضوع. وقد التزمت في البحث الراهن بالنقوش المذكورة في دراسة شتاين، (Stein, *Untersuchungen*, 274-290). وهناك مسودة أولى من هذه الورقة (Nebes, “Märtyrer”) تقدم تعليقات توضيحية أكثر تفصيلًا وتشير أيضًا إلى نصوص غير مستخدمة في دراسة (Stein, *Untersuchungen*). إلا أن الطبعة الجديدة لـ "استشهاد القديس أريثاس" Martyrium Sancti Arethae التي حققها إم. ديتوراكيس M. Detorakis (باريس ٢٠٠٧) -والتي سجلتها دراسة باوزي (Bausi “Review”, 265-266) ضمن الدراسات الحديثة جدًا- لم تكن متاحة للمؤلف.

(٢) عن هذا التاريخ انظر Beaucamp et al., “Persécution”, 71. عادة ما تُؤرخ إقامة كوزماس في أدوليس بعام ٥٢٥م (أنظر مثلًا: Müller, “Himyar,” 316)؛ وانظر حاشية ٩.

(٣) عن أحدث دراسة انظر Sima, "Cosmas"؛ وعن حياة كوزماس ومؤلفه انظر Schneider, "Cosmas"، وانظر أيضا الحواشي التالية.

(٤) كانت أدوليس، التي تقع على بعد ٤٠كم جنوب مصوع وحوالي ٤كم من الساحل، ميناء أكسوم الرئيس الذي انطلقت منه التجارة البيزنطية –والرومانية قبل ذلك- مع الهند؛ انظر Fattovich, "Adulis".

(٥) Cosmas, *Christian Topography* 2. 54-55؛ ويترجم ولسكا-كونوس Wolska-Conus كلمة εἰκών إلى "لوحة"، ومن الواضح أن هذه اللوحة كانت جزءا من العرش، انظر: Phillipson, *Monuments of Aksum*,123-154. وعن أهمية هذه العروش للحاكم الأكسومي انظر: Munro-Hay, *Aksum*, 110 وBrakmann, “Axomis”, 748.

(6) RIE I, no. 276 (with bibliographic notes) and RIE 1II.A 26-32 (translation).

(٧) انظر بوجه عام: Hölbl, *Geschichte*, 56-57

(٨) RIE I, no. 277 (المتضمن إشارات ببليوغرافية ثرية)؛ وله ترجمة في: Munro-Hay, Aksum, 222-223 و RIE III. A 32-45؛ وعن عرض حديث جدا انظر: Fiaccadori, “Monumentum Adulitanum”, 1010-1012

(٩) انظر مناقشة Barkmann, “Axomis”, 726-727. وحيث أن الـ Adulitana secunda تذكر السبئيين وليس حمير، فإن روبن (Robin, “Première intervention”, 155) يخمن أن المؤلف قد يكون الملك الحبشي جادورات Gadūrat المذكور حوالي ٣٠٨م (أو أي من خلفاءه المباشرين)، والذي معه عقد الملك السبئي علهان ناهفان ‘Alhān Nahfān تحالفا حوالي عام ٢٩٠م. وحديثا تم اقتراح ملك أخر في دراسة ( Fiaccadori, “Monumentum Adulitanum”, 1012).

(١٠) Cosmas, Christian Topography, 2,56. ورد فيها: "لأنه عزم على شن حملة ضد الجيران الحميريين" μέλλων ἐξιέναι εἰς πόλεμον πρὸς τοὺς ῾Ομηρίτας τοὺς πέραν. ولو أننا اتبعنا الرسالتين السريانيتين لمعون الأرشمي وافترضنا عام ٥٢٣م لأحداث نجران وموت أريثاس (انظر لاحقا)، الذي تبعه الهجوم الأثيوبي المضاد الكبير لعام ٥٢٥م، بينما يزعم كوزماس أنه شهد وجود الملك الأثيوبي في أدوليس في "بداية حكم الإمبراطور جستين Justin"، الذي اعتلى العرش عام ٥١٨م، فمعنى ذلك أن الأرشمي لم يتوفر له شاهد عيان على الغزو الكبير (الثاني) بل فقط الغزو الأول. أما الغزو الثاني فقد ذُكر في كتاب الحميريين the *Book of the Himyarites* (انظر لاحقا) الذي عهد إيلا أصبحه Ella Aṣbeḥa بقيادته إلى قائد لم تُحدد وظيفته يُدعى حيان Ḥayyān. انظر: ( RIE I, no.191/34-35)، وهو عكس رأي ( de Blois, “Date”, 126, n.55) ومؤداه أن التدخل الأول حدث زمن سلف إيلا أصبحه.

(١١) وفقًا للمصادر الأكسومية تلك هي قراءة الاسم الكامل لإلتزباس: *klb/ ʾl/ ṣbḥ* . (RIE I, no.191/7f)

(١٢) عن الشخصية التاريخية انظر: (Sima, “Abraha”, 42). تم اكتشاف نقش أخر لأبرهة عند الجانب الشمالي من سد مأرب، انظر: (Nebes, "New Abraha Inscription").

(13) Al-Mad’aj, *Yemen*, 53-55.

(١٤) عن رؤية عامة للمصادر السريانية واليونانية والأثيوبية، انظر، Beaucamp et al., “persecution”, 19-41.

(15) Procopius, *Wars*, I, 20.

(١٦) بعد قرون لاحقة تمت ترجمة "استشهاد القديس أريثاس" *Martyrium Sancii Arethae* إلى العربية التي كانت بعد ذلك أساسا لترجمة جعزية. وكلا النصين تم تحقيقهما بواسطة Bausi & Gori, *Tradizioni Orientali*

(١٧) في وقت مبكر من الربع الأول من القرن الثالث الميلادي، كانت نجران والقوات الحبشية المتمركزة هناك هدفًا لحملة قام بها ملك سبأ شاعرم أوتَر Shā'irum Awtar. انظر J635/23f

(١٨) يجب التمييز بين التدخل الحبشي الأول في جنوب الجزيرة العربية وذلك الذي حدث خلال الفترة التي نتناولها هنا؛ وهو التدخل الذي استمر لأكثر من قرن، ويُعتقد أنه حدث بين عامي ١٩٠ و ٢٨٠م. عن التفاصيل انظر،(Robin, “Première intervention”)

(١٩) عن نقوش بئر حما Bi'r Ḥimā وكوكب Kawkab انظر ما يلي.

(٢٠) "إن ثلاث أو أكثر من روايات حملة ملوك سبأ وضباطهم التي عثر عليها في معبد العوام الكبير في مآرب، تعطي انطباعًا جيدًا عن الوضع العسكري في ذلك العصر؛ وقد تم تجميعها وترجمتها في Beeston, *Warfare*. ولترجمات منتخبة انظر Nebes, "Herrscherinschriften".

(21) *See*: unro-Hay, *Aksum*, 56

(٢٢) Hahn, "Symbols," 437; Brakmann, "Religionsgeschichte Aksums," 412. يقول هاهن أن "كل الدلائل تشير إلى أن إزانا تعمد على يد فرومنتيوس، ربما في حوالي منتصف القرن الرابع، بعد وقت قصير من رسامة فرومنتيوس في الإسكندرية ووصوله الثاني إلى أكسوم"؛ حول مشكلة التاريخ أنظر: Hahn, "Axomis", 752، والدراسة الأحدث Hahn, "'Ezana", 479. وما يبدو راسخ بقدر من التأكيد أن الخطاب الذي أرسله قسطنطيوس الثاني لإزانا وأخيه لا يرجع تاريخه بعد عام ٣٥٨م، لأنه لابد وأنه سبق تحوله إلى المسيحية.

(٢٣) Hahn, *Münzen*, 4-5. عن عملات الملك الأكسومي منذ عام ٢٩٠م انظر أيضا Brhann, "Axomis," 724-725.

(٢٤) مثلًا في صيغة الرسالة التي طلب فيها جستين من الملك الأثيوبي التدخل لصالح المسيحيين المهددين في جنوب الجزيرة العربية، انظر *Martyrium Sancti Arethae*, Par. 27

(٢٥) تقدم Martyrium Sancti Arethae, Par. 29 عدد ستين سفينة أبحرت من موانئ عديدة، أكثرها في البحر الأحمر، كان الملك الأثيوبي قد حشدها في جاباز Gabaz/ أدوليس.

(٢٦) تعامل مولر (Müller, "Gesandtschaft")، مع هذا النقش بالتفصيل والتقارير التي تفيد بأن الوفد زار أيضًا أزد Azd في عُمان وتنوخ Tanukh في الفرات الأدنى، القبليتان اللتان كانتا في ذلك الوقت حليفتين للساسانيين. في مقال حديث، يعود بوتس، (Potts, "Sasanian relationship")، إلى مسألة الدافع وراء هذا الوفد. وقد اقترح أنه ربما كان متصلًا بمولد سابور الثاني Shapur II، وأنه قد حدث في حوالي ٣١٠-٣١١م، كونه "استجابة مباشرة لملك الجنوب العربي بعد أن تلقى خبر عن هذا الحدث المهم في التاريخ الساساني" (Idem, 203). ولا توجد مصادر إبيجرافية متوفرة حاليًا تتيح لنا تتبع العلاقات بين بلاد فارس وجنوب شبه الجزيرة العربية حتى عصر الأرسكيين Arsacids. على لوحة برونزية من معبد واد Wadd في قرية الفاو Qaryat al-Faw، تم تصويرها على ملصق من مطبعة جامعة الملك سعود من عام ١٤٠٧ هـ، أفاد التجار المينويون Minean من قارناو Qarnāw أنهم سافروا عبر نهر دجلة حتى بلغوا سلوقية (السطر الأخير *k-nhr/ 'd/slky*).

(٢٧) معلومة شفهية P. Yule؛ وانظر الآن Antonini, "Un manufatto himyarita" 27

(٢٨) إن غالبية المصادر التي تورد تقارير عن الاحتلال الساساني لليمن هي أعمال لمؤلفين عرب يمنيين ومؤرخين عرب من القرون الوسطى، وتظهر بعض التشوهات والعناصر الأسطورية. حيث تم تحديد بداية الحكم الساساني في اليمن بين عامي ٥٧٠-٥٨٥م؛ التفاصيل الواردة في Potts, "Sasanian relationship," 206-211.

(٢٩) يمكن الرجوع إلى معلومات عن المصادر ذات الصلة ومزيد من الدراسات الحديثة في الدراسة العرضية Robin, "Sheba", 1130-1140.

(٣٠) كانت مملكة حضرموت قد ضعفت بشكل كبير في عهد الملك السبئي شاعروم أوتر Shāʿirum Awtar، الذي سلب ودمر العاصمة شبوا Shabwa، حوالي عام ٢٣٠م، قبل أن تخضع في النهاية للسيطرة الحميرية في عهد شمر يهرعش. ومن ناحية أخرى، انخرط الحميريون في عدد من الحملات داخل وادي حضرموت حتى بعد توحيد كيانهم، وتحديدا خلال العهد المشترك للملك ذمرعلي يهبير Dhamarʿalī Yuhabirr وابنه ثاران يهنعم Tha'rān Yuhanʿim (انظر Nebes, "Kriegszug"، وحديثا Robin, "Ḥimyar au IVe siècle", 135-145. وعلى نحو مماثل، فإن النقش الصخري الكبير من وادي عبدان ʿAbadān – المؤرخ بعام ٣٦٠م ويتضمن رواية عن أعمال ثلاثة أجيال من زعماء قبيلة اليزنيين ويعترف صراحة بسيادة حمير ظفار- يذكر حضرموت أحرقت مدينتهم عبدان (ʿAbadān, 1/32). وهكذا يبدو أن مدنا فرادى من وادي حضرموت كانت قادرة على الاحتفاظ باستقلالها عن حمير ظفار على الأقل حتى النصف الأول من القرن الرابع.

(٣١) على سبيل المثال YMN 13/11-13: *šmr / yhrʿš / mlk / sb' / w-ḏ-rydn / w-ḥḍrmwt / w-ymnt* / "شمر يهرعش ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات"، حيث تشير يمنات على الأرجح إلى الزاوية الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة العربية والساحل الجنوبي بين عدن وحضرموت، انظر Robin, "Sheba", 1140.

(٣٢) الحالة الوحيدة الموثقة في المصادر المدونة، عبر ١٤٠٠ سنة من تاريخها قبل الإسلام، هي تلك الكائنة في بداية القرن السابع قبل الميلاد عندما نجح حاكم مأرب السبئي في إخضاع كل أجزاء اليمن، انظر Nebes, "Tatenbericht"، وأيضًا Nebes, "Ita'amar".

(٣٣) سجلها سترابون Strabo, *Geography*, 16.4.2؛ وهذه الرواية الأجنبية يمكن تأكيدها الآن بواسطة النقوش المكتشفة، انظر Nebes, "Felduzugsbericht", 282-283، وكذلك Nebes, "Märtyrer", 14 n.35.

(٣٤) لمزيد من التفاصيل انظر Nebes, :Märtyrer", 14 n.37.

(35) Pliny, *Natural History*, 6.104.

(36) *Periplus*, par.23.

(٣٧) زار أولريش جاسبر سيتزن Ulrich Jasper Seetzen ظفار لفترة قصيرة في يوليو ١٨١٠م ورسم شذرة من نقش مبنى حميري في قرية منكث Mankath عند سفح الجبل، وكذلك نقوش أخرى لملوك حميريين تم استخدام أحجارها في بناء مسجد محلي. للمزيد عن هذا انظر Nebes, "Ulrich Jasper Seetzen".

(٣٨) هذه الأبعاد مشابهة لأبعاد مدينة مأرب.

(٣٩) انظر تقارير الحفائر عند Yule, "Mapping"، وكذلك Yule et al., "Ẓafār".

(٤٠) (E 14, par.1) يروي أن الملكين انطلقا إلى مأرب ( / *hgrn* / *myrb*) من قصر ريدان (*bytn* / *rydn*) في ظفار.

(٤١) R 3383/3 (Shawḥaṭān) and Gar Bayt al-Ashwal 2/1f.؛ (Kall[ān]um) هذه الإضافة اقترحها أ. سيما A. Sima في مؤتمر الشرق المنعقد في مامبرج عام ٢٠٠٢.

(٤٢) Gar ŠYa/A3=ZM 1/3 (Hargab).

(٤٣) تتضمن نقوش أخرى "الرب، سيد السماء" وأيضا الرحمن مع النعوت المذكورة. انظر أيضا الجداول الموجودة في دراسة Gadja, "Débuts", 625-628 و Robin, "Judaïsme", 170-173. وأول نقوش ملكية تحتوي صيغ توحيدية هي نقشين على مبنى لملكارب يهأمن Malkikarib Yuha'min وابنائه مؤرخة بعام ٣٨٣م، انظر Müller, "Religion und Kult," 190-191. وأول النقوش التوحيدية (YM 1950) قدمها Gadja, "Débuts", 612، وترجمها وعلق عليها في دراسته Gadja, "Inscription". وهو نقش مؤرخ بعام ٣٦٣م أو ٣٧٣م ودشنه زعماء قبليون من Sum'ay ويشيرون فيه إلى ثأران يهنعم Tha'rān Yuhn'im وأولاده بوصفهم سادتهم. وحديثا أشار روبن ( Robin, "Ḥimyar at Israël", 837 n.35) إلى نقش مكتشف حديثا يتضمن صيغة توحيدية مؤرخ قبل عام ٣٥٥م، انظر Nebes, "Märtyrer, 17 n.45".

(٤٤) انظر على سبيل المثال Müller, "Religion und Kult", 191 و Gadja, "Débuts", 620-621. وعن خلاصة بتفسير مفصل للمصادر انظر Robin, "Judaïsme", 170-172.

(45) Müller, "'Theophilos", 1473

(46) Philostorgios, *Church History*, 3.4-5

(٤٧) إن مكتشفات معبد العوام Awam في مأرب تظهر أن ذمرعلي يهبر Dhamar'ali Yuhabirr وثأران يهنعم Tha'rān Yuhan'im، الملوك الذين حكموا في ذلك الوقت، ظلوا يقدمون تكريسات للمقح Almaqah هناك، وحتى عدة سنوات بعد زيارة ثيوفيلوس إلى البلاط الحميري استمر التكريس للمقح هناك، كما يظهر في النقوش (غير المنشورة) MQ Maḥram Bilqis 1، والتي يرجع تاريخها إلى ٣٥١م (٤٦١ من العصر الحميري). قد يكون من الملائم أن تنصر ملك حمير الذي وصفه فيلوستورجيوس ، ربما ثأران يهنعم Tha'rān Yuhan'im، قد حدث لفترة قصيرة، وإنه إذا كان قد امتد لآخرين، فقد تضمن فقط حاشية الملك المباشرة.

(٤٨) هذا ما أظهرته جاجدا (Gajda, "Débuts", 613, with n.7) مشيرة إلى Sokoloff, *Dictionary of Jewish Palestinian Aramaic*, 522. وأمثلة أخرى للآرامية البابلية اليهودية قد توجد في Levy, *Neuhebräisches und chaldäisches Wörterbuch*, vol. 4, 440. والأكثر حداثة في Sokoloff, *Dictionary of Jewish Babylonian Aramaic*, 1069-1070.

(٤٩) وفقًا لجيجير (Geiger, "Jüdische Begriffe", 488-489) لم تستخدم السريانية كلمة "رحمن" كمرادف للثالوث إلا في كتابات أفريم –وهي الملاحظة التي تم الالتفات إليها ليس فقط من خلال المفردات القليلة في قاموس ( Payne Smith, *Thesaurus Syriacus*, vol.2, 3883) وقاموس (Brockelmann, *Lexicon Syriacum*, 724a)، بل أيضًا في العهد الجديد السرياني، الذي لم تُستخدم فيه كلمة "رحمن" لمرة واحدة. وفي المقابل، تستخدم السريانية الكلمة كوصف للرب الرحيم، انظر Payne Smith, *Thesaurus Syriacus*, vol.2, 3884, and Rom 9:16 (*alāhā mraḥḥmānā*). ويمكن العثور على أمثلة أخرى في Kiraz, Concordance, vol.4, 2716 وفي الخطاب الثاني لشمعون الأرشمي، وفيه وُصفت نساء مسيحيات وهن ترد على طلب يوسف بالتجديف ضد المسيح والتحول إلى اليهودية: "المسيح هو الرب وابن الرحمن" *(da) mšīḥā alāhaw wa-brehū da-mraḥḥmānā* (Shahid, *Martyrs*, XVII, 20). وظهور كلمة *raḥmāna* في الإنجيل الآرامي (Ex 34:6, Ps 111:4 and Chr 30:9)، (انظر Levy, *Chaldäisches Wörterbuch über die Targumim*, vol. 2,417b)، حيثما استخدمت مكان الكلمة العبرية *raḥūm*، ينسجم مع استخدام *mraḥḥmānā* و*mraḥḥmān* و*raḥmtān* في البشيطتا Pshīttā.

(٥٠) انظر(Ry 506/1, DAI GDN 2002-20/2, or C 541/1-3)

(٥١) إن تاريخ ذلك لم يُثبت بنقوش الدوائر المسيحية في تهامة ونجران. إلا أن أحد الأدلة المحتملة موجود في نقش لوفد أثيوبي حل على ظفار زمن مرثديلان ينوف Marthad'ilān Yanūf (Gar AY 9d)، والذي تتوجه صيغته الافتتاحية بالدعاء للرحمن *Raḥmānān* رب السماء. ويفترض روبن أن *raḥmānā* المستخدمة في الخطاب الأول لشمعون الأرشمي ( Guidi, "Lettera di Simeone", 3) وفي كتاب الحميريين ( Moberg, *Book of the Himyarites*, 13a, 23) تشير أيضًا إلى الإله المسيحي (انظر Robin, "Judaïsme", 114-115 )، إلا أن هذا الافتراض لا يمكن تأييده لكون العبارات المذكورة في المصدرين تشير إلى كلمات يوسف ذو نواس المشيرة إلى أن المسيحيين يعتقدون أن المسيح هو "ابن الرحمن". وكما يظهر في عبارة بالخطاب الثاني لشمعون الأرشمي (المقتبس في

حاشية ٤٨)، تعبر المسيحية السريانية عن الله الرحمن بكلمة *mraḥḥmānā*.

(٥٢) انظر على سبيل المثال ( Gar Bayt al-Ashwal 2, R 3383, C 540). في هذا السياق يتحدث روبن ( Robin, "Judaïsme", 105 and 153-154) عن نوع من التوحيدية "بلا ولاء واضح" حتى تم التصريح بها كجزء من اليهودية في عهد يوسف ذو نواس.

(٥٣) Gar Bayt al-Ashwal 1/3: "وبصلوات قبيلته إسرائيل" (*w-b-ṣlt šʻbhw/ ysr'l*)؛ لمزيد من التفاصيل انظر أيضًا (Müller, "Religion und Kult", 190 و Robin, "Ḥimyar et Israël", 848). وهناك نقوش أخرى تتضمن صيغ يهودية أو ذات خلفية يهودية لا لبس فيها مذكورة عند ( Gajda, "Débuts," 619, nn. 18 and 19) و(Robin, "Ḥimyar et Israël", 843-844 and 882-890).

(٥٤) يزعم أهروني (Ahroni, *Yemenite Jewry*, 47-48) أن التأثير القوي الذي مارسته اليهودية على الحميريين يمثل شاهدًا على أن اليهود اليمنيين في ذلك الوقت لم يكونوا "عربا متهودين" بل أفراد من "تلك الجماعات اليهودية في اليمن التي أسسها المنفيون اليهود الأوائل".

(٥٥) في سياق نشر حديث لنقش جنائزي عبري/أرامي-سبئي من اسرائيل، يشدد سيما Sima أن اليهودية الحميرية لم تكن بأي حال ظاهرة منعزلة، بل شكلت جزءا أصيلا من العالم اليهودي؛ انظر "Nebe/Sima, "Grabinschrift، خصوصًا الإشارة إلى نقش جنائزي يوناني مشهور من بيت شيعريم Beth Sheʻarim (التفاصيل في الصفحات 80-81 في Ahroni, *Yemenite Jewry*, 40-41)، وإلى نقش جنائزي أرامي من زوار Zoar، إذ أن كلا النقشين يوثقان لدفن يهود حميريين في فلسطين، وهو ما ناقشه روبن بإسهاب ( Robin, "Ḥimyar et Israël", 836-842 and 890-892).

(٥٦) طبقًا لفيلوستورجيوس ( Philostorgius, *Church History* 3.4): "وبينهم -أولئك الذين عُرفوا في الأزمنة الماضية باسم السبئيين، لكنهم يُعرفون الآن بالحميريين- يوجد عدد غير قليل من اليهود". وللمعلومات عن الروايات الخاصة بهجرة الجماعات اليهودية إلى جنوب الجزيرة العربية قبل تدمير المعبد في ٥٨٧ق.م انظر Ahroni, *Yemenite Jewry*, 25-27

(٥٧) هذا يثير التساؤل عن سبب عدم إشارة التقليد اليهودي، خصوصًا المشنا والتلمود، إلى ملوك حمير الذين تهودوا، خصوصًا يوسف ذو نواس الذي أعلن إيمانه اليهودي بوضوح. وقد اقترح روبن ( Robin, "Judaïsme", 152-153, and Robin, "Ḥimyar et Israël", 855) إجابتين محتملتين. إذ نسب روبن للملوك الحميريين "مفهوم سياسي-ديني جديد نتج عن تحولهم لليهودية" (Robin, "Ḥimyar et Israël", 861). انظر تعليقات نيبيس (Nebes, "Märtyrer", 20 n. 60).

(٥٨) RIE I, no. 271/10؛ لمزيد من التفاصيل عن نقوش إزانا الوثنية والمسيحية، انظر (Brakmann, "Axomis", 747-751).

(٥٩) هكذا استبدل إزانا الهلال بالصليب المسيحي على عملته الذهبية، بينما بدا أكثر تحفظًا بشأن العملة الفضية المستخدمة محليًا. لمزيد من التفاصيل والإشارات المرجعية انظر (Brakmann, "Axomis", 750-751).

(٦٠) Müller, "Himyar", 311, and Müller, "Religion und Kult",191-192. نشر كونتي روزيني النص الأثيوبي (Conti Rossini, "Documento", 728-738). ولمزيد من الدراسات الحديثة انظر Fiaccadori, "Homerites," 58 n. 69

(61) C537+ R4719

(٦٢) حوالي ٥١٩-٥٢٢م؛ انظر ( Beaucamp et al., "Persécution", 75).

(٦٣) النقش محل التناول هو Ry 510 في معسال الجمع Ma'sal al-Jumḥ على بعد ٢٤٠كم غرب الرياض؛ انظر Beaucamp et al., "Persécution", 75

(٦٤) وهكذا يتحدث النقش الصخري –الذي دشنه أبوكرب أسعد Abūkarib As'ad في ذات المكان منذ مائة عام (Ry 509) عن أول الحملات الحميرية الكبرى في وسط الجزيرة العربية ضد معد Ma'add، والتي من خلالها أخضع حكام كنده؛ لمزيد من التفاصيل انظر (Robin, "Royaume ḥujride"). وتذكر الرواية الإسلامية أ، أبوكرب أسعد خلال حملاته حاصر يثرب أيضا وتهود على يد أحبار القبائل اليهودية المحلية؛ انظر ( Müller, "Himyar", 308, and Newby, *History*, 38).

(٦٥) Shahid, *Martyrs*, XXVII, 6-10. حرف النص السرياني اسم الملك الحميري إلى معدكرم m'dwkrm. والحدث موجود أيضا في كتاب الحميريين the *Book of the Himyarite*؛ وقد أشار مولر إلى ذلك (Müller, "Himyar", 312). وعن اسم روم انظر (Müller, Review, 184)

(٦٦) هناك إشارات لتقارب مبكر في زمن مرثدئيلان ينوف Marthad'ilān Yanūf الذي حكم فيما يبدو بين عامي ٥٠٠-٥١٨م؛ انظر (Beaucamp et al., "Persécution", 73-75). وإن سلمنا برأي روبن (Robin, "Royaume ḥujride", 696) بأن أريثاس Arethas الذي ذكره فوتيوس Photios هو نفسه الكندي الحارث بن عمرو بن حجر Kindite Hārith b. 'Amr b. Ḥujr، الذي عقدت معه الإمبراطورية البيزنطية معاهدة سلام عام ٥٠٢م، فإننا قد نفترض أن هذه الاتفاقية قد عُقدت بالفعل، حتى وإن لم يتم التصديق عليها رسميًا، بل على الأقل بإظهار القبول من جانب حمير وملكها، مرثدئيلان ينوف، الذي نعرف أن عهده شهد وجود أثيوبي في ظفار. وهناك نقش مؤرخ بعام ٥٠٩م (Gar AY 9d) دشنه وفد أثيوبي في بيت بظفار أشار إلى هذا الملك بوصفه "سيدهم".

(٦٧) هذا ما أشارت إليه بيكامب ( Beaucamp et al., "Persécution", 75-76). لم تزل تفاصيل الغزو الأول غير معلومة. وإذا كان هناك تقارب بين حمير وأثيوبيا والإمبراطورية البيزنطية خلال عهد مرثدئيلان ينوف (انظر الحاشية السابقة)، فمن الصعب توقع أن الأخير كان هدفا لغزو أثيوبي.

(٦٨) هذا بالفعل أظهره دي بلوي بوضوح في دراسته ( de Blois, "Date," 118) بإشارات مرجعية إلى كتاب الحميريين Moberg, *Book of the Himyarites*, 3b, 19 الذي تضمن عنوان "المجيء الأول لحيون Ḥaywānā والأثيوبيين".

(٦٩) تلخص النقوش الثلاثة الكبيرة أهداف يوسف العسكرية، فهذه النقوش (Ry 507 و Ry 508 و J 1028) تظهر أن يوسف كان مدعومًا من اتحاد قبائل اليزنيين وأن الزعماء القبليين اليزنيين انخرطوا بقوة في حملاته. كذلك يحدد كتاب الحميريين هوية أحد قادة يوسف (*ḥaḏ men rabbay ḥaylawwā̆teh*) بوصفه *dwyzn*، وهي إشارة واضحة إلى اسم عشيرة ذي يزن dhū Yaz'an. انظر Moberg, *Book of the Himyarites*, 25b, 28.

(٧٠) انتج اليزنيون سياسة تحالفات ناجحة خلال القرن السادس، ورسخوا الصلات مع عدد من العشائر ذات النفوذ القديم. ولا تزال النقوش اليزنية يتم اكتشافها على بعد مئات الكيلومترات شمال شرق صنعاء في الجانب الأعلى من الجوف ( MAFRAY Abū Thawr 4)

(٧١) ربما يكون الاسم لعشيرة (انظر لاحقا)، ونقلته التقاليد العربية الشعبية في وقت لاحق إلى المعنى "ذو الشعر المجعد". انظر (نشوان بن سعيد الحميري، شمس العلوم: Nashwān b. Sa'id al-Ḥimyarī, *Shams al-'ulūm*, vol. 10,6797). وطبقا لهشام بن محمد الكلبي كان الاسم (العربي الجنوبي) الحقيقي هو ذرعب بن حسان Zur'ab b. Ḥassān؛ انظر Caskel, *Ğamharat an-nasab*, vol. 2, 612. ويظهر اسم ذرعه Zur'a في شذرة نقش سبئي من الضافٍ Ḍāff (Ist 7608bis/12: zr't / ḏ-mrḥbm)، وهو النقش الذي تم تدشينه مباشرة بعد انتصار إيلا أصبحه، لأنه يشير بعد الافتتاحية إلى اسم الملك الأثيوبي والملك الموالي له الذي نصبه، وهو سميفع أشوع (انظر لاحقا)، فضلا عن احتوائه على صيغ مسيحية. ومع ذلك، لابد أن ذرعه شخص مختلف تماما.

(٧٢) كلا النسختان تجنبتا الاسم التوراتي يوسف. ففي (Martyrium Sancti Arethae, par. 1) أشير إليه باسم عشيرته ذو نواس Δουνααςٍ (أنظر لاحقًا)، بينما أشارت إليه رسالتا شمعون الأرشمي بالملك *malkā* وملك الحميريين *malkā ḏa-Ḥmīrāyē*؛ انظر على سبيل المثال ( Guidi, "Lettera di Simeone", 7,12). ويسميه كتاب الحميريين مسروق Masrūq ( Moberg, *Book of the Himyarites*, pl. 5, XIXr, 1.4, XIXr, -2). ومسروق أيضا هو الاسم المذكور في الفقرة الافتتاحية للترجمة السريانية لموعظة حنا بسالتيس Johannes Psaltes التي خصصها لمدح الشهداء الحميريين (Schröter, "Trostschreiben", 403,l. 3)، وكذلك في حولية القرن الحادي عشر المعروفة بحولية سعِرت ( Scher, "Histoire Nestorienne", 331. 4). والاسم بالتأكيد ليس من السريانية، ومن المرجح أنه تُرجم إلى العربية؛ عن تفسير محتمل انظر (Shahid, *Martyrs*, 263). وعن أسماء أخر ليوسف انظر (Müller, "Himyar", 313).

(73) Nöldeke, *Geschichte*, 175.

(٧٤) انظر حاشية ٦٨.

(٧٥) هكذا نقش J 1028/1 المتضمن "الملك يوسف أسأر يثأر ملك كل سبأ" *mlkn / ywsf/ 's'r/ yṯ'r / mlk / kl / 'S'bn*. انظر أيضا نقش Ry 507/1 الذي يتضمن الصيغة *ysf*، والنقش 508/2 الذي اختصر اللقب بحذف *yṯ'r / mlk / kl / 'S'bn*.

(٧٦) قد يكون هذا ما أُشير إليه في الخطاب الثاني لشمعون الأرشمي (Shahid, Martyrs, XXI, 3-6) من كلمات منسوبة إلى ماحية Maḥiya، إحدى جواري أريثاس/الحارث بن كعب، قبل إعدامها مباشرة. ووفقا لها اجتاح الأثيوبيون حمير وحلفائهم القبليين بينما سعى يوسف إلى تفادي الموت المحتوم من خلال مساعدة تاجر من الحيرة. انظر أيضا *Martyrium Sancti Arethae*, par. 2

(٧٧) بالنسبة لاسم ysf المستخدم في المباني، يقترح سيما (Nebes/Sima, "Grabinschrift", 83, n.52) اشتقاق سبئي للاسم من الجذر wsf. إلا أن التركيب اللغوي يعارض هذا الاقتراح. ويبدو أن اسم Yōsēf العبري إما أنه نُل إلى السبئية بصيغة Yōsif، أو أنه ظل بصيغته العبرية الأصلية. انظر ( de Blois, "Date", 123, n.2). والصيغ المستخدمة للاسم في هذا البحث مأخوذة من القراءة العربية التقليدية.

(٧٨) الإجماع العام حتى الآن هو أن يوسف ينتمي إلى عشيرة اليزنيين، انظر مثلًا ( Müller, "Himyar"313, and Fiaccadon, "Homerites", 61-62 n. 85)، إلا أنه لا يوجد شاهد واضح من النقوش على ذلك، أو حتى شاهد عربي أو يمني ينسب مثل هذا الانتماء إليه. وأشكر د. محمد علي السلامي (صنعاء) لكونه أول من نبهني إلى احتمالية أن الاسم ذو نواس قد يكون مشتقا من عشيرة سبئية تُعرف بذي نئسم *ḏ-n'sm*. وقد ذُكرت هذه العشيرة في الفترة السبئية الوسطى مقترنة بغيمان Ghaymān (انظر مثلًا: G 626/2, NNAG 17/5, C 68/1)، التي يبدو أنها عقدت تحالف معها، والتي تنتمي إلى منطقة غيمان الحالية، حوالي ١٥كم شرق صنعاء. وهذا التفسير قد يلقي الضوء على صيغة "المفعول" Δουνααν الموجودة في (e.g., *Martyrium Sancti Arethae* in par. 1)، وأنها بذلك ليست تحريفا للكلمة السريانية *dwzn* كما يقترح مولر (Müller, "Himyar," 313) بل هي عشيرة معروفة باسم مثل نأس Na's.

(٧٩) من نهاية السطر الأول للنقش Ist 7608bis يمكننا تأييد القول بأن سميفع أشوع، الملك التابع الذي نصبه إيلا أصبحه، أحيى استخدام الألقاب التقليدية.

(80) Beaucamp et al., “Persécution”, 76

(٨١) انظر الاقتباس من الطبري aṭ-Ṭabarī, Ta’rīkh ar-rusul, vol.1, 918-920 عند (Nöldeke, *Geschichte*, 174-176).

(٨٢) تم تلخيص محتوياتها في Beaucamp et al., “Persécution”, 34-36.

(٨٣) هذا اللقب قُدم لأول مرة بواسطة موبرج Moberg في كتاب الحميريين.

(٨٤) مات في القسطنطينية عام ٥٤٨م؛ انظر ( Bruns, “Simeon”, 641-642).

(٨٥) في وقت كتابة خطابه الأول، كان شمعون عضو في وفد بيزنطي أقام في معسكر الحاكم اللخمي المنذر في رملة بالقرب من الحيرة، ذلك عندما وصل رسول بخطاب من يوسف يصف اضطهاد المسيحيين في نجران ويحث المنذر على التعامل بالمثل مع المسيحيين التابعين له. أما الخطاب الثاني، المنسوب أيضا لشمعون، فقد كُتب في مقر الغساسنة على اليرموك. وقد دُون بعد بضعة شهور تالية (عن التاريخ انظر الحاشية التالية) وتضمن معلومات جديدة من نجران فضلا عن المعلومات المعروفة من الخطاب الأول. وكما أظهر تحليل ريكمانز، ينبغي اعتبار خطاب شمعون الأول الوثيقة الأكثر أهمية، فمنه لم يتم فقط اقتباس الأحداث الرئيسية المضمنة في خطابه الثاني، بل أيضا أُشتق منه الجزء الأول من النسخة اليونانية لاستشهاد القديس أريثاس *Martyrium Sancti Arethae*. (Ryckmans, “Confrontation”)

(٨٦) إن بداية الخطاب الأول (Guidi, “Lettera di Simeone”, 1-2) يروي أن شمعون ورفاقه غادروا الحيرة في ٢٠ يناير من السنة السلوقية ٨٣٥، أي يناير أوفبراير ٥٢٤م، وأنهم وصلوا إلى معسكر المنذر في رملة بعد عشرة أيام. وكان شمعون موجودا هناك عندما تمت قراءة خطاب يوسف الذي يصف أفعاله ضد مسيحيي نجران. وهذه المعلومات تتفق مع التاريخ الذي حددته النسخة اليونانية لإعدام أريثاس في نجران بعد أشهر عدة، وتحديدا في أكتوبر ٥٢٣م؛ ويتطابق أيضا مع معلومات خطاب شمعون الثاني؛ انظر (Shahid, *Martyrs*, XVIII, 10f.)، الذي يسجل استشهاد عدد من نساء نجران في نوفمبر ٥٢٣. عن تفاصيل هذه الفرضية انظر de Blois, “Date”, 111-114. إن التاريخ الوارد في خطاب شمعون الثاني، وهو السنة السلوقية ٨٣٠، يختلف عن هذه المعلومات (Shahid, *Martyrs*, XXXI, 24) ويؤجج الجدل حول ما إذا كان يجب تأريخ اضطهاد مسيحيات نجران بعام ٥٢٣م أم بعام ٥١٨م، وكذلك ما إذا كان يجب اعتبار الفترة الحميرية تبدأ في عام ١١٠ ق.م أم في عام ١١٥ ق.م. وكما أظهر دي بلوي على نحو مقنع (de Blois, “Date”, 114) أن الناسخ أخطأ في الرقم الأخير للسنة. (Shahid, *Martyrs*, ibid.)

(٨٧) النقش Ry 508 من كوكب مؤرخ بشهر ذ قيظن dhū Qiyāẓān (يونيو) ٦٣٣ من العصر الحميري؛ والنقش Ja 1028 من بئر حما مؤرخ بشهر ذ مذرأن dhū Madhra’ān (يوليو) ٦٣٣ من العصر الحميري.

(88) Shahid, *Martyrs*, V, 6ff./45-47

(٨٩) Müller, Review, 182-1 85 يقدم عددًا من الأمثلة.

(90) Shahid, *Martyrs*, XII, 11ff/50-51

(٩١) Shahid, *Martyrs*, VII, 11/47; XXXII, 15/64 ؛ وهناك أرقام أخرى في: Müller, “Himyar”, 314. and Fiaccadori, “Homerites”, 78

(92) Shahid, *Martyrs*, VI, 17ff./46

(93) Bruns, “Philoxenus”, 577-578

(٩٤) لمزيد من المعلومات عن المسيحية في نجران انظر، Müller, “Himyar”, 310-312

(٩٥) Paret, “Aṣḥāb al-ukhdūd”، وعلى سبيل المثال aṭ-Ṭabarī, Ta’rīkh ar-rusul, vol.1, 920,1

(96) Pollmann, “Gregentius”, 289; Fiaccadori, “Gregentius”, 889-891. انظر التحقيق والترجمة الجديدة Berger, *Saint Gregentios*, 187-410

(97) Shahid, “Byzantium”, 38, 43; Fiaccadori, “Homerites”, 51: Berger, *Saint Gregentios*, 394-395 = Bios 9.146-155

(98) Procopios, *Wars*, 1.20

(99) Ist 7608bis (انظر حاشية ٧٩)

(١٠٠) Müller, “Bruchstüdcke”. وكما أظهر مولر (Müller, “Himyar”, 316) لهذه الشذرات أهمية خاصة في التاريخ الأدبي، إذ تحتوي على عدد من الاقتباسات من المزامير تؤكد قدم الترجمة الأثيوبية للكتاب المقدس.

(101) DJA 1+2/18

(١٠٢) نقش C621 ونصه: "(١) سميفع أشوع وأولاده شرحبئيل يكمل ومعدي كرب يعفر، أبناء لحياعت Luḥayy‘att (٢) عشائر يرخم وكلعان ويزن وجدنوم [ هنا يعدد لأسماء أكثر من ثلاثين عشيرة وقبيلة] (٦) صنع هذا النقش (٧) على قلعة ماويات Māwiyat الجبلية، عندما استردوها، أسوارها وبوابتها والطريق المؤدي إليها (٨) عندما تحصنوا بها بعد عودتهم من أرض حبشات Ḥabashat وبعد أن التقوا بحشود من الأحباش (٩) في أرض حمير، بعد أن قتل [الأحباش] ملك حمير وزعمائه القبليين من حمير ورحبتان Raḥbatān (منطقة شمال صنعاء). (١٠) تاريخ كتابته [النقش] هو شهر ذ حلتان dhū Ḥillatān من عام ٦٤٠".

(١٠٣) لمعلومات عن آثار قنا انظر Sedov, “Qana” .

(١٠٤) من المسلم به أن أي فهم تاريخي لهذا النقش سيعتمد بشكل كبير على كيفية فهم تعبير *ʼrḍ/ḥbšt* . والرأي المقبول اليوم بعامة أن أرض حبشت *ʼrḍ/ ḥbšt* تشير إلى أثيوبيا، أنظر الدراسات الأكثر حداثة Beaucamp et al., "Persécution", 37 949 .Müller, "Habašāt", وقد اقترح بيستون (Beeston, "Ḥabashat", 6)، وقبله ويزمان ( V. Wissmann, Geschichte und Landeskunde, 66-67)، أن أرض حبشت لا تشير يالضرورة إلى الأراضي الأثيوبية الداخلية على الجانب الأخر من باب المندب بل ربما تشير بالمثل إلى الساحل الغربي من جنوب الجزيرة العربية (أو على الأقل أجزاء منه)، الذي احتله الأثيوبيون. (إلا أن الشواهد الذي استخدمها ويزمان لم تقوي فرضيته). وقد ذكر مولر الإشكالية ( Müller "Abessinier," 159) لكنه لم يتتبعها. إن نقش E 19/7 يشير بوضوح إلى أن "حبشت" لا تعني الأراضي الداخلية الأثيوبية بالمصطلح الجغرافي، بل لابد من فهمها ككيان إثني سياسي، بوصفها تشير إلى القوات الحبشية في تهامة. هذا النقش يحوي رواية عن حملة قادها إلشرح يحضب ʼIlsharaḥ Yaḥḍib حوالي منتصف القرن الثالث ضد الـ "حبشت"، "أكسوم وسكان الصحراء" *bʻly/ḥbšt/w-ʻ'km/w-ḏ-shrtm*

(١٠٥) الافتراض الواضح هنا أن هؤلاء كانوا أتباع يوسف وأنهم كانوا ينتظرون معه وصول الأثيوبيين عند باب المندب، وأنهم حصنوا أماكن أخرى في تهامة. وبالمصطلحات البروسوبوجرافية، فإن سميفع أشوع المذكور في نقش C621 يمكن أن يكون شخص أخر بنفس الاسم ونفس اللقب كان من بين مرافقي الملك إلى قلعة مدبان Maddabān في تهامة.

(١٠٦) C 541/14-17. انظر أيضًا الترجمة عند Müller, "Stele", 268; Nebes, "Herrscherinschriften", 362-367. من الواضح أن معدي كرب بن سميفع، الذي طبقا لنقش C541/17 أيد ثورة يزيد بن كبشة الكندي ضد أبرهة، هو نفس الشخص في النقش C 621/1.

# الحركة اليوسفية والثورة التحريرية الجزائرية



**د. موسم عبد الحفيظ**
دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر
أستاذ مؤقت (سابق)
جامعة تلمسان - الجمهورية الجزائرية

**بيانات الأطروحة**

أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه (ل.م.د)
تخصّص "تاريخ المغرب العربي الحديث والمعاصر"
قسم التاريخ - جامعة أبي بكر بلقايد (تلمسان)

الباحث: موسم عبد الحفيظ
إشراف: أ.د. الدكتور جبلي الطاهر
الجزائر ٢٠١٦

**كلمات مفتاحية:**
الحركة اليوسفية، الثورة الجزائرية، الديوان السيّاسي، الاستعمار الفرنسي، صالح بن يوسف، بورقيبة، الاستقلال الدّاخلي، الاستقلال التام، الكفاح المسلح

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0054810

## مُلَخّص

يعتبر موضوع "الحركة اليوسفية والثورة التحريرية الجزائرية"، من أهمّ المواضيع التي تعكس لنا جوانب مهمّة عن العلاقات الجزائرية التونسية خلال مرحلة الثورة الجزائرية. فالحركة اليوسفية التي ظهرت في تونس عقب التّوقيع على اتفاقيات الاستقلال الدّاخلي في ٠٣ جوان ١٩٥٥، أعلنت منذ بدايتها عن رفضها لمبدأ الحكم الذّاتي، حين رفعت شعار "الاستقلال التّام". والتقت بذلك في خندق واحد مع الثورة الجزائرية، التي كانت تسعى هي الأخرى إلى تحقيق الاستقلال التّام. وعلى هذا الأساس برز التّنسيق واضحًا بين أنصار اليوسفية وقادة الثورة الجزائرية لأجل توحيد الكفاح المسلّح بينهما، كما تجسّدت مظاهر التّنسيق بينهما ميدانيًا من خلال التحاق اليوسفيين بالثورة الجزائرية ومشاركتهم في نقل وتهريب الأسلحة إلى الجزائر. الأمر الذي دفع بورقيبة وجهاز الدولة التونسي إلى التّحالف مع فرنسا للقضاء على الحركة اليوسفية وعزلها عن الثورة الجزائرية.

## مُقَدِّمَة

تعرّضت الجزائر وتونس للاستعمار الأوروبي الحديث، حيث احتلّت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠، ثم فرضت حمايتها على تونس عام ١٨٨١، وأصبحتا بذلك خاضعتين لنظام استعماري قائم على أساس إلغاء الحقوق الوطنية لكلّ واحدة منهما، ففي الجزائر قضى الاستعمار الفرنسي على نظامها السيّاسي بشكل نهائي، حين أعلن بمقتضى المرسوم الملكي الصّادر في يوم ٢٢ جويلية ١٨٣٤، أنّ الجزائر جزء من الممتلكات الفرنسية في شمال إفريقيا. وفي تونس تمّ وضع النّظام السيّاسي بمقتضى مضمون معاهدة الحماية تحت تصرّف المقيم العام الفرنسي الذي جرّد بايات تونس من سيّادتهم على الدولة التونسيّة، ولم يترك لهم إلا سيّادة جزئية.

ولم يقف مشروع نظام الاستعمار الفرنسي في الجزائر وتونس عند حدود الاستلاب السيّاسي والاقتصادي فحسب، بل تعدّاه إلى استهداف الإنسان الجزائري والتونسي في هويّتهما ومقوّماتهما الشّخصيّة، حين مارس الاستعمار مختلف أشكال العنف والاضطهاد في حقّ أبناء هذين البلدين، معتمدًا في ذلك على سيّاسة الإبادة الجماعيّة القائمة على التّقتيل والتّشريد والنّفي، وسيّاسة التّشجيع على الاستيطان لأجل ضمان استمراره بالأراضي الجزائرية والتونسية.

وكردّ فعل على الاستعمار الفرنسي في هذين البلدين، قام الشعبان الجزائري والتونسي خلال المراحل الأولى للاحتلال، بالاعتماد على الكفاح المسلّح كوسيلة للدّفاع والمواجهة بعد أن دنّست أقدام الاستعمار الفرنسي أراضي الجزائر وتونس، ثم تغيّر أسلوب النّضال مع مطلع القرن العشرين بسبب عدم تكافؤ القوى والإمكانيّات العسكرية، ليتّخذ نهج الكفاح السيّاسي كأسلوب جديد للنّضال إلى غاية اندلاع الثورة المسلّحة في تونس سنة ١٩٥٢، وفي الجزائر سنة ١٩٥٤.

ونظرًا لعاملي الجوار الجغرافي وقدم العلاقات التّاريخية والبشرية بين البلدين، فقد حفل كفاحهما ضدّ الاستعمار الفرنسي بكثير من مظاهر التّضامن والتآزر، حيث برز التّنسيق النّضالي واضحا بينهما منذ الوهلة الأولى للاحتلال، ويتّضح ذلك من خلال سعيهما إلى الدّفاع المشترك عن حريّة وكرامة الإنسان الجزائري والتونسي. كما بلغ التّضامن التونسي الجزائري أوجّه خلال مرحلة الثورة التحريرية الجزائرية (١٩٥٤-١٩٦٢) التي استطاعت بفضل قوّتها وامتداد تأثيرها إلى داخل تونس، أن تجعل الشعب التونسي معني بأحداثها من يوم اندلاعها إلى غاية تحقيق الاستقلال. وبهدف الكشف عن بعض الجوانب المهمّة من التّضامن الحاصل بين أبناء البلدين خلال مرحلة الثورة الجزائرية، قمنا باختيّار موضوع البحث الموسوم بـــ "الحركة اليوسفية والثورة التحريرية الجزائرية"، لعلّنا نساهم من خلاله في إبراز مدى قدرة الثورة الجزائرية على ربط العلاقات الأخويّة مع دوّل الجوار، وتوظيفها لخدمة مشروع الكفاح التحرّري ضدّ الاستعمار.

## أهمية موضوع الدّراسة

يعتبر موضوع الحركة اليوسفية والثورة التحريرية الجزائرية، من أهمّ المواضيع التي تكشف لنا عن جوانب مهمّة من العلاقات الجزائرية التونسية خلال مرحلة حاسمة من التّاريخ الوطني المعاصر، ألا وهي مرحلة الثورة الجزائرية ١٩٥٤-١٩٦٢ التي حُظيت باهتمام واسع في الأوساط المغاربية بصفة عامّة، باعتبار أنّها قد تركت منذ الوهلة الأولى لاندلاعها وطوال السّنوات المتعاقبة، انعكاسات كثيرة على تطوّر الأوضاع في بلدان المغرب العربي، بفضل توجّهاتها المغاربيّة المعلنة من خلال مواثيقها.

فبحكم صلات التّقارب، ومبادئ الشعور بالوحدة القائمة بين الشعبين الجزائري والتونسي، تجسّد التّضامن واضحًا بينهما طيلة الفترة الاستعمارية، وتعمّقت مظاهره أكثر فأكثر خلال مرحلة الثورة التّحريرية الجزائرية. فخلال الأشهر الأولى لاندلاع الثورة الجزائرية، كانت هنالك مفاوضات جاريّة بين الحكومتين التونسية والفرنسيّة، وهي المفاوضات التي انتهت بالتّوقيع على اتّفاقيات الحكم الذّاتي في تونس بتاريخ ٠٣ جوان ١٩٥٥، مُحدثة بذلك انقسامًا كبيرًا في صفوف الدستوريين التونسيين، خاصّة بعدما أعلن الأمين العام للحزب الحر الدستوري التونسي الزّعيم "صالح بن يوسف" عن معارضته لمضمونها معتبرًا إيّاها "خطوة للوراء". وضمّ إليه بعد توضيحه لأهمّ التّجاوزات التي تضمّنتها تلك الاتّفاقيّات، عدّة تيّارات فكريّة وأحزاب سيّاسيّة ومنظّمات نقابيّة ذات ثقل سيّاسي كبير في تونس، فمنذ ذلك الحين ظهرت "الحركة اليوسفية" في تونس لتعبّر عن رفضها القاطع للاستقلال الذّاتي، مُعلنة استئنافها للكفاح المسلّح بجانب الثورة الجزائرية إلى غاية التخلّص التّام من السّيطرة الأجنبية في نطاق مغرب عربي محرّرة أجزاؤه الثلاثة تحريرًا كاملا يضمن دوامه باستمرار.

هكذا يكون موضوع "الحركة اليوسفية والثورة التحريرية الجزائرية" من المواضيع ذات الأهميّة الكبيرة بالنّسبة لتاريخ الشعبين الجزائري والتونسي، إذ أنّ البحث فيه يصوّر لنا جانبا مهمّا من الملحمة التونسيّة الجزائرية في مواجهة الاستعمار الفرنسي، كما يكشف لنا عن روح التّضامن والتّعاون بين التيّار الوطني الثوري الوحدوي في تونس والثوّار الجزائريين من خلال الإحاطة بأهمّ مظاهر الدّعم والمساندة التي قدّمها اليوسفيون للثورة الجزائرية، هذا فضلاً على أهميّته في توضيح الحقائق التّاريخية المتعلّقة بتطوّر الحركة اليوسفية ومصيرها.

## الإشكالية التي تعالجها الدّراسة

ترتبط إشكالية الدّراسة بالبحث أساسًا في العلاقة القائمة بين الحركة اليوسفية والثورة التحريرية الجزائرية أثناء مقاومة الاستعمار الفرنسي في الجزائر وتونس. وذلك بالإجابة على التّساؤلات التّالية:

- ما هي الجذور التّاريخية لظهور الحركة اليوسفية؟
- ما هي طبيعة وحقيقة الحركة اليوسفية؟
- لماذا ارتبط اسمها بصالح بن يوسف؟
- ما هو المجال الجغرافي للحركة اليوسفية؟
- كيف استطاع بن يوسف أن يكسب شرائح هامّة من المجتمع التونسي إلى صفّ اليوسفيين؟
- ما هي أهمّ التيّارات التي أعلنت ولاءها للحركة اليوسفية؟
- ما موقف الحركة اليوسفية من الثورة الجزائرية؟
- ما هي الاستراتيجية المعتمدة في تنسيق النّضال بين مقاومي اليوسفية والثوّار الجزائريين؟
- فيما تمثّلت مظاهر دعم اليوسفيين للثورة الجزائرية؟
- ما الذي كان يسعى إليه اليوسفيون من وراء تحالفهم مع الثورة الجزائرية؟
- كيف كان موقف النّظام البورقيبـي من التّنسيق القائم بين اليوسفيين وثوّار الجزائر؟
- كيف كان موقف السّلطات الاستعمارية الفرنسية من التّنسيق بين مقاومي اليوسفية والثوّار الجزائريين؟
- ألم يؤثر موقف اليوسفيين من الثورة الجزائرية على علاقة النّظام البورقيبـي بالسّلطات الاستعمارية؟

## فصول الدّراسة

تضمّن موضوع الدراسة مقدّمة وفصل تمهيدي وأربعة فصول، وخاتمة متبوعة بمجموعة من الملاحق التي تحتوي على بعض الوثائق الأرشيفية والنّصوص والخطابات التي سجّلناها من الصّحافة التونسية، هذا بالإضافة إلى ترجمة الأعلام المحورية

في موضوع البحث، وقائمة المصادر والمراجع وفهرس الموضوعات.

بالنّسبة **للمقدّمة**، فإنّها تتضمّن التّعريف بموضوع الدّراسة مع إبراز أهمّيته وأسباب اختيّاره، وتوضّح أيضا إشكاليّة البحث الرّئيسية والتّساؤلات الفرعيّة المرتبطة بها. كما تستعرض خطّة الموضوع بشكل عام، والمنهج المعتمد في الدّراسة، مع نقد أهمّ المصادر والمراجع المعتمدة في إنجاز هذه الأطروحة.

أما **الفصل التّمهيدي** فإنّه يتطرّق بنظرة عامّة إلى العلاقات السيّاسية بين الجزائر وتونس قبل الثورة التحريرية الجزائرية، مُستهلا الحديث في ذلك بذكر أهمّ المقوّمات الأساسيّة للتّواصل بينهما (الأرضية الجغرافية، العوامل الحضارية، المعالم التاريخية...)، ثم تناول العلاقات بين هذين القطرين خلال مرحلتي الاحتلال والمقاومة من خلال الإشارة إلى أبرز مظاهر التّضامن والتآزر المتبادلة بين تونس والجزائر أثناء فترة الاحتلال الفرنسي، وفيه أيضًا حديث عن العلاقات القائمة بينهما خلال مرحلة النّضال السيّاسي، من خلال التطرّق إلى تعاون وتضامن الشعبين الجزائري والتونسي في شتى المجالات السيّاسية والثقافية، واشتراكهم جنبا إلى جنب في النّضال الوطني عن طريق انتماءاتهم إلى الجمعيات السيّاسية والإصلاحية والأندية الثقافية التي أسّسوها خلال مرحلة الاستعمار، باعتبار أنهم كانوا يلتقون مع مطلع القرن العشرين على المستوى العلمي والفكري ليعبّرون عن طموحاتهم وآمالهم بقيّم حضارية عربية وإسلامية. وفي نهاية هذا الفصل خصّصنا عنصرا للحديث عن العلاقات التي تجسّدت بين الجزائر وتونس ضمن النّضال المغاربي المشترك، من خلال الإشارة إلى أهمّ المحطّات التّاريخية المهمّة لنضال المغاربة (الجزائر، تونس، المغرب) ضدّ الاستعمار الفرنسي.

وبحثنا عن الخلفيّات التّاريخية لظهور الحركة اليوسفية في **الفصل الأوّل** من هذه الدّراسة، من خلال التطرّق إلى أهمّ الخلافات التي نشبت بين قيّادة الدستوريين التونسيين داخل وخارج تونس، مع الإشارة إلى تطوّر الخلاف بينهم بسبب تباين مواقفهم حول استراتيجيّات العمل النّضالي، وانعكاساته على وحدة صفوفهم. كما تحدثنا في نهاية هذا الفصل عن الخلاف الذي حدث بين قيّادة الحزب الدستوري التونسي بعد التّوقيع على اتّفاقيات الاستقلال الدّاخلي لتونس في ٠٣ جوان ١٩٥٥، مع توضيح أثره المباشر في تفجّر الصّراع بين جناح الحبيب بورقيبة رئيس الحزب الحرّ الدستوري الجديد، الذي كان من أشدّ المدافعين عن التّسوية السيّاسيّة مع الاستعمار الفرنسي، وجناح صالح بن يوسف الأمين العام للحزب الذي كان من أشدّ المعارضين لهذه التّسوية، حيث بات الوضع ملائما حينذاك لميلاد الحركة اليوسفية كحركة معارضة للحكم الذّاتي بتونس.

وخصّصنا **الفصل الثاني** للحديث عن طبيعة الحركة اليوسفية وتطوّرها، محاولين بذلك تحديد مفهوم الحركة اليوسفية (اليوسفية: فتنة؟، أم ثورة ثانية؟ أم حركة معارضة؟)، وإبراز بعدها القومي العربي، مع تفسير ارتباط اسمها بشخصيّة بن يوسف. وفيه أيضا استعرضنا المجال الجغرافي للحركة اليوسفية في تونس، بتوضيح مختلف المناطق التونسية التي تواجدت بها الشُّعب اليوسفية. كما تطرّقنا في نهايته إلى الاستراتيجية التي اعتمدها بن يوسف في حشد الأنصار، مُوضّحين في ذلك أهمّ القوى والتيّارات التي أعلنت عن ولائها للحركة اليوسفية مثل (الحزب الدستوري القديم، بعض أفراد الأسرة الحسينية، الاتحاد العام للفلاحة التونسية، قدماء المقاومين التونسيين، مثقفي جامع الزيتونة...).

أمّا فيما يخصّ **الفصل الثالث** من هذه الأطروحة، والذي يمكن اعتباره جوهر موضوع الدّراسة، فإنّنا تطرّقنا فيه بنوع من التّفصيل إلى علاقة الحركة اليوسفية بالثورة الجزائرية، من خلال الإشارة إلى أسباب ودوافع اهتمام اليوسفيين بالخيار العسكري، وخلفيّة البعد الثوري الوحدوي للزّعيم صالح بن يوسف. كما وضّحنا فيه موقف الحركة اليوسفية من الثورة الجزائرية، وجهود بن يوسف في توحيد الكفاح مع الجزائريين. وفيه أيضا تحدثنا عن علاقة جيش التّحرير الوطني التونسي بالثورة الجزائرية، من خلال التّعرف على نشأة وأهداف جيش التّحرير الوطني التونسي، مع إبراز مظاهر التّنسيق القائمة بينه وبين جيش التّحرير الوطني الجزائري. وفي نهاية هذا الفصل تحدثنا عن مظاهر دعم اليوسفيين للثورة الجزائرية من خلال التطرّق إلى أهم المقاومين اليوسفيين الذين شاركوا فيها، مع الإشارة إلى دورهم الميداني في تهريب الأسلحة وإيصالها إلى الجزائر.

وفي **الفصل الرّابع** والأخير، تحدثنا عن استراتيجية التّحالف البورقيبــي الفرنسي في القضاء على الحركة اليوسفية وعزلها عن الثورة الجزائرية، من خلال التعرّف على أهمّ الأطراف المعادية للحركة اليوسفية (الحبيب بورقيبة زعيم الديوان السيّاسي، الحكومة التونسية، فرنسا)، وإبراز طبيعة وأهداف العلاقة القائمة فيما بينها (التحالف المصلحي). ثم تطرّقنا إلى الاستراتيجية المعتمدة من طرف هذه الأطراف في القضاء على اليوسفيين وإفشال تنسيقهم مع الثوّار الجزائريين. وفي نهاية هذا الفصل قدّمنا قراءة عامّة حول موضوع الحركة اليوسفية والثورة التحريرية الجزائرية، من خلال الوقوف على مجالات النجاح والفشل في نضال الحركة اليوسفية.

لقد أنهينا موضوع الأطروحة بخاتمة تتضمّن مجموعة من النّتائج التي توصّلنا إليها أثناء فترة البحث، محاولين الإجابة فيها عن التّساؤلات المطروحة في المقدّمة في شكل خلاصات واستنتاجات. وتدعيمًا لما ورد في هذه الأطروحة من معلومات، فإنّنا حرصنا على توثيقها بمجموعة من الملاحق ذات الاتصال

الوثيق بموضوع الدّراسة، وهي في مجملها عبارة عن نماذج لبعض الوثائق (وثائق أرشيفية، خطابات صحفية، مراسلات...) كشواهد وأدلة ماديّة على صحّة ما ورد في البحث. هذا بالإضافة إلى ترجمة الأعلام المحورية في موضوع البحث وفهرس الموضوعات.

## المنهج المعتمد في الدّراسة

بناءً على هذه الخطّة، ومن أجل الإلمام بكلّ الجوانب المختلفة لهذا الموضوع، وفي محاولة منّا للإجابة على التّساؤلات التي أثرناها، فإنّنا اعتمدنا في معالجة مضمون هذه الأطروحة على المنهج التّاريخي، بهدف رصد الأحداث التاريخية وتحليلها، ملتزمين بوحدة الموضوع في السّياق التاريخي العامّ، وفي إطار العمل على الاهتمام بكافّة الظروف والمعطيات الموضوعية التي تؤثّر في الحدث التّاريخي من أجل الوصول إلى الحقيقة التاريخية قدر المستطاع.

## المصادر والمراجع المعتمدة في الدّراسة

فيما يخصّ قائمة المصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها في البحث، فهي كثيرة ومتنوّعة ومتداخلة، ولا يسعنا المجال لإحصائها، لذلك سنركّز في هذا المقام على نقد الأهمّ منها:

**الوثائق الأرشيفية:**

باعتبار الأرشيف هو المصدر الأوّل والأساسي لأيّ دراسة من الدّراسات التّاريخية، فإنّا اعتمدنا في إنجاز هذه الأطروحة على مجموعة من الوثائق الأرشيفية (مراسلات، تقارير، خطابات، صحفية...)، التي أتيحت لنا فرصة الاطلاع عليها أثناء زيّارتنا لمركز الأرشيف الوطني التونسي، والمعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر. ومن أهمّ الوثائق التي استندنا إليها بدرجة كبيرة في توثيق البحث نذكر:

- التّقارير والملاحظات والقصاصات الصّحفية المتعلّقة بالخلاف السيّاسي بين الحبيب بورقيبة وصالح بن يوسف، وهي عبارة عن وثائق مصنّفة بمركز الأرشيف الوطني التونسي ضمن سلسلة الحركة الوطنية التونسية، في الصندوق رقم ٦١ (الملفّ رقم ٠٥)، التي كشفت في مضمونها عن تصريحات وخطابات قادة الحركة اليوسفية الدّاعية إلى رفض الحكم الذاتي بتونس ومواصلة الكفاح المسلّح بجانب الجزائريين إلى غاية تحقيق الاستقلال التّام.
- بعض التّقارير المتعلّقة بالنّشاط السّياسي في البلاد التونسية، التّابعة لوزارة الخارجية الفرنسية، والمصنّفة بمركز الأرشيف الوطني التونسي ضمن سلسلة المراسلات السّياسية والتّجارية، التي تلمّح في مضمونها إلى أهمّ الزيّارات التي كان يقوم بها الزّعيمان بورقيبة وبن يوسف إلى مختلف المناطق التونسية لتعبئة وحشد الجماهير التونسية.
- التّقارير التّابعة للمصلحة التّاريخية لجيش البرّ الفرنسي (*S.H.A.T*)، التي مكّنتنا في مجملها من رصد مظاهر التّنسيق القائمة بين جيش التّحرير الوطني التونسي وجيش التّحرير الوطني الجزائري، من خلال إشارتها إلى تحرّكات ونشاط الفرق العسكرية المشتركة بين هذين الجيشين.

**الشهادات الحيّة**

متنوّعة وعديدة، منها التّسجيلات الشفوية والشّهادات المكتوبة. مثل: شهادة المقاوم الطّاهر لسود، شهادة المناضل حسين التريكي، شهادة المقاوم محمد الصّالح كعفار (من تونس)، بشير القاضي، أحمد مهساس (من الجزائر). حيث أفادتنا كثيرا في الكشف على جوانب مهمّة من علاقات الثّوار الجزائريين بزعيم المعارضة التونسية "صالح بن يوسف". من خلال تطرّق أصحابها إلى علاقة الحركة اليوسفية بالثورة التحريرية الجزائرية، ملمّحين في شهادتهم إلى أهمّ الأسباب التي دفعت بأشهر قادة الكفاح المسلّح بتونس إلى التخلّي عن صالح بن يوسف بعد الاستقلال التونسي.

**المذكّرات الشخصية**

اعتمدنا في موضوع البحث على مجموعة من المذكّرات الشخصية (الجزائرية والتونسية)، التي كانت على قدر كبير من الأهمية في التعرّف على عدّة جوانب من موضوع البحث، من ذلك مثلا "مذكّرات الرّائد عثمان سعدي بن الحاج" التي أشاد في صفحاتها بالدّور المتميّز للوطنيين التونسيين من دعاة الكفاح المسلّح في حركة تحرير الجزائر وتونس. ومذكّرات على المعاوي "ذكريات وخواطر"، وعبد الله العبعاب "شهادة للتّاريخ" التي كشفت في فصولها عن أحداث الصّراع اليوسفي البورقيبي في تونس ملمّحة في ذلك إلى علاقات اليوسفيين بقادة الثورة الجزائرية.

**الكتب العربية**

كانت درجة الاستفادة من الكتب المعتمدة كمصادر ومراجع للبحث متفاوتة من كتاب إلى آخر، ومن أهمّ الكتب التي استفدنا منها بدرجة كبيرة نذكر: كتاب عبد الله الطّاهر المعنون بـ"الحركة الوطنية التونسية. رؤية شعبيّة قوميّة جديدة"، الذي احتوى في مضمونه على تفاصيل مهمّة عن المعارضة اليوسفية التي كان يتزعّمها صالح بن يوسف، من خلال الإشارة إلى أهدافها وعلاقاتها بالثورة التحريرية الجزائرية. وكذلك كتاب فتحي الديب الموسوم بـ"عبد النّاصر وثورة الجزائر"، الذي أشار فيه بنوع من التّفصيل إلى تلك اللّقاءات التي كانت تتمّ بين أنصار صالح بن يوسف وقادة الثورة الجزائرية بهدف تنسيق وتوحيد النّضال فيما بينهم.

**الرّسائل والأطروحات الجامعية**

اعتمدنا في إعداد هذا البحث على قائمة متنوّعة من الرّسائل والأطروحات الجامعية بما فيها الماجستير والدكتوراه والدّراسات المتعمّقة في البحث التي لها علاقة مباشرة بصلب موضوع الحركة اليوسفية والثورة التحريرية الجزائرية. والملاحظ حول هذه الدّراسات خصوصا التونسية منها، هو أنها قد تناولت في جوهرها معلومات ثرية عن الحركة اليوسفية مركّزة في ذلك على أحداث الصّراع اليوسفي البورقيبي بتونس، دون التطرّق باهتمام إلى علاقات اليوسفيين بدعاة الكفاح المسلّح على المستوى الخارجي. وأذكر منها على سبيل المثال: دراسة الباحث محسن الخميري الموسومة بـ" الحركة اليوسفية. مجالها وحدودها ١٩٥٥-١٩٦١" (دراسة التعمّق في البحث)، التي اكتفى فيها بتقديم بعض الحقائق المهمّة عن الحركة اليوسفية على المستوى التونسي (الدّاخلي) وفقط. ولعلّ من أهم الدّراسات التي أشارت في مضمونها إلى علاقة اليوسفيين بغيرهم من الوطنيين الثوريين المغاربة، نجد رسالة رضا ميموني حول "دور الوطنيين المغاربة في حركة تحرير تونس والجزائر من الحرب العالمية الثانية إلى غاية الاستقلال" (رسالة ماجستير) التي أفادتنا كثيرا في التعرّف على بعض الحقائق المتعلّقة بالبحث، باعتبار أنّها كانت بمثابة الدّليل الموجّه إلى البحث في بعض المصادر المهمّة بالنّظر إلى القائمة البيليوغرافية الثرية التي احتوت عليها.

**المؤلفات باللّغة الأجنبية**

في إطار البحث لجأنا إلى بعض الكتب المؤلّفة باللّغة الفرنسية، وهي عديدة ومتنوعة ومتفاوتة من حيث الأهمية، نذكر منها على سبيل المثال: كتاب الباهي الأدغم "مراسلات" *(correspondances)*، الذي مكنّنا من الاطّلاع على مضمون المراسلات التي كانت تتمّ بين الوطنيين التونسيين خلال الفترة الممتدة من ١٩٥٢ إلى غاية أواخر ١٩٥٥، بما في ذلك الرّسائل التي كان يبعث بها بن يوسف إلى بعض الدستوريين التونسيين. وكذلك بحث محمد الوالدي حول ( l'orage des indépendance Salah ben Youssouf et les youssefiste)، الذي يحتوي على بعض الحقائق التّاريخية التي ترتبط مباشرة بموضوع البحث.

## نتائج الدّراسة

قادتنا دراستنا لموضوع الحركة اليوسفية والثورة التحريرية الجزائرية، إلى التوصّل لمجموعة من الخلاصات والاستنتاجات التي نوردها في النّقاط التّالية:

- إنّ رفض الحكم الذّاتي في تونس، وتمسّك الحركة اليوسفية بمطلب الاستقلال التّام، هو الذي دفع قيّادتها إلى تنسيق جهود النّضال مع قادة الثورة الجزائرية لأجل توحيد الكفاح المسلّح ومواصلة مسيرة التحرّر من الاستعمار الفرنسي، وهو ما تجسّد ميدانيّا على الصّعيدين السيّاسي والعسكري.
- لقد تمّ التّنسيق سيّاسيّا بين قادة كل من الحركة اليوسفية والثورة التحريرية الجزائرية، من خلال مجموعة من اللّقاءات والاتّفاقيات التي كانت تتمّ بينهما بهدف التّعارف والتّعاون لإعادة إحياء جبهة الكفاح المسلّح بتونس لدعم الثورة الجزائرية، مثل اللّقاء الذي جمع بينهم خلال شهر أفريل ١٩٥٥ بالقاهرة، والذي انتهى إلى تكوين لجنة تنسيق تجمع بين صالح بن يوسف وأحمد بن بلّة لتنسيق الكفاح المسلّح طبقا للخطّة العامّة لتوحيد الكفاح في الأقطار الثلاثة. كما تمّ التّوقيع خلال شهر جانفي ١٩٥٦، على اتّفاق بين الأمانة العامّة للحزب الدستوري الحر الجديد وممثّلي جبهة التّحرير الوطني بهدف ضبط وتنظيم سبل وآليّات التّعاون بين اليوسفيين والثوّار الجزائريين.
- إنّ اللّقاءات والاتّفاقيات التي كانت تتمّ بين قيّادة كلّ من الحركة اليوسفية والثورة التّحريرية الجزائرية، هي التي أثمرت عن ذلك التّضامن الفعلي والميداني للمقاومين اليوسفيين مع الثورة الجزائرية على الصّعيد العسكري، وهو ما يتّضح لنا من خلال التحاقهم بصفوفها ومشاركتهم الميدانيّة في عمليّات نقل وتهريب السّلاح إلى الجزائر، هذا فضلا عن تشكيل عدّة فرق عسكرية مشتركة بين جيش التّحرير الوطني التونسي وجيش التّحرير الوطني الجزائري، وهي الفرق التي خاضت عدّة عمليّات عسكرية ناجحة ضدّ قوّات الاحتلال الفرنسي على المناطق الحدودية بين تونس والجزائر.
- كان للحركة اليوسفية فضل كبير في فتح النّضال السيّاسي بتونس على آفاق وتوجّهات جديدة، كوحدة المغرب العربي والقوميّة العربيّة، وفي السيّاق ذاته يمكننا القول أنّ الحركة اليوسفية قد ساهمت إلى جانب الثورة الجزائرية في إنماء الشّعور العفوي الموجود بين الجماهير الشّعبية بانتسابها إلى أمّة عربيّة إسلاميّة تتجاوز حدودها حدود البلاد التونسية، وتحويله إلى وعي سيّاسي بالقوميّة العربيّة بمضمونها الوحدوي من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي.
- يعتبر تحالف الحركة اليوسفية مع الثورة التحريرية الجزائرية وتنسيق النّضال بينهما سيّاسيا وعسكريا، عامل جوهري ورئيسي في إقناع فرنسا بضرورة منح الاستقلال التّام لتونس، وهذا راجع إلى معطيين أساسيين هما:

(١) تيقّن فرنسا بأنّ مصالحها ومصالح رعاياها من الفرنسيين بتونس، قد أصبحت مهدّدة بصفة حقيقية خاصّة مع انتشار حالة اللاأمن والفوضى والاعتداءات على المعمرين الفرنسيين، كما أنّ المقاومة اليوسفية قد وضعت في استراتيجيتها محاربة هؤلاء المعمرين واستهدافهم، فخاضت بذلك عدّة معارك تدخّل فيها الجيش الفرنسي بما لم يتدخّل به في السّابق.

(٢) رأت فرنسا في الحركة اليوسفية خطرًا حقيقيًا على وُجودها في الجزائر، باعتبار أنّ استراتيجية جيش التّحرير الوطني التونسي كانت تهدف بالدرجة الأولى إلى التّلاحم مع جيش التّحرير الوطني الجزائري ضدّ العدوّ المشترك، هذا فضلا على أنّ مقاومي اليوسفية كانوا يمثلون همزة وصل حيوية من الحدود مع ليبيا إلى الحدود مع الجزائر لإمداد الثورة الجزائرية بالسّلاح.

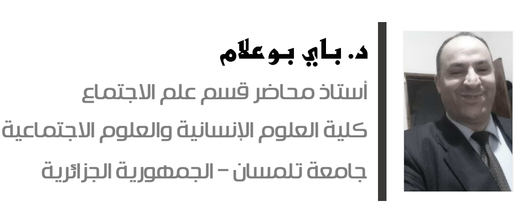
- إذا كانت المعارضة اليوسفية التي نشطت خلال الفترة الممتدّة من نهاية ١٩٥٥ إلى صائفة ١٩٥٦ بالتّنسيق مع الثوّار الجزائريين، قد ساهمت بالفعل في إخضاع فرنسا لمطالب الوطنيين التونسيين المتمثلة في إتمام الاعتراف بسيّادتهم على وطنهم وتحقيق الاستقلال التّام، فإنّها فقدت مقابل ذلك حقوقها للنّظر في مستقبل تونس السّياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، حين تعرّضت للتّصفية بشكل رهيب من طرف النّظام البورقيبي الذي منح صلاحيّات واسعة للأمن التونسي قصد تتبّع اليوسفيين وتصفيّتهم.
- كانت مبادئ الحركة اليوسفية المتمثلة في رفض الحكم الذاتي والتمسّك بالخيار العسكري كوسيلة لتحقيق الاستقلال التّام لتونس ضمن نطاقها المغاربي العربي، إحدى أهم العوامل التي دفعت الزّعيم بورقيبة إلى التّحالف مع فرنسا للقضاء عليها (اليوسفية)، موظّفا في ذلك جهاز الدولة التونسي (القضاء، قوّات الأمن التونسي...) لتتبّع اليوسفيين وتصفيتهم.
- إذا كان بورقيبة قد تمكّن بعد تحالفه مع فرنسا من هزيمة اليوسفيين، والتخلّص نهائيًا من خصومه بعد وقوف النّظام البورقيبي فعليًا وعمليًا مع الثورة الجزائرية، فإنّ فرنسا قد استطاعت هي الأخرى أن تتجاوز بفضل تحالفها مع بورقيبة كلّ المخاطر التي كانت تحدق بها من جرّاء تحالف اليوسفيين مع ثوّار الجزائر، لا سيما وأنها نجحت في دفع بورقيبة إلى معركة حقيقية للاقتتال بين التونسيين، خسر فيها الحزب نخبة من خيرة مناضليه في وقت كان من اللازم فيه على بورقيبة أن يوظّف قدراته وإمكاناته لأجل تحقيق وحدة الدستوريين التونسيين.
- لقد ساهمت المعارضة اليوسفية في دفع القيّادة البورقيبية - قناعة أو تحسّبا لسحب البساط من تحت أقدام خُصومها من اليوسفيين-إلى دعم الثورة الجزائرية ورفع شعارات التّضامن المغاربي، غير أنّ هذه الهبّة المسلّحة قد أتت متأخّرة نسبيًا، لأنّها تعارضت مع مصالح فئات جديدة كانت متعجّلة ومصرّة على تركيز سلطتها وإزاحة منافسيها حتى ولو تحالفت مع عدوّ الأمس، كما أنها كانت تهدّد بصورة حيوية استراتيجية الجيش الفرنسي في إطفاء نار الثورة التي تشتعل في الجزائر.

## خَاتِمَةُ

على كلّ، يمكننا القول في جملة واحدة، بأنّ تجربة الكفاح المشترك التي خاضها مقاومو اليوسفية وثوّار الجزائر جنبا إلى جنب، وإن كانت مدّتها الزّمنية قصيرة، إلا أنها أكّدت بعمق على حتمية التّرابط والمصير الواحد المشترك بين أبناء البلدين، حيث استفادت الثورة التحريرية الجزائرية من خدمات اليوسفيين بعدما تنكّر بورقيبة لمبادئ لجنة تحرير المغرب العربي وقبِل بالاستقلال الدّاخلي لتونس، ومن جهتها أيضًا استفادت الحركة اليوسفية من خلال تحالفها مع قادة الثورة الجزائرية في تعزيز مكانتها أمام السيّاسة البورقيبية التي كانت تسعى إلى إقناع التونسيين بالحكم الذّاتي. وأكثر من ذلك فإنّ تحالف اليوسفيين مع الثوّار الجزائريين قد ساهم بشكل كبير في دفع فرنسا إلى الاعتراف بالاستقلال التّام لتونس في ٢٠ مارس ١٩٥٦. لذلك لا بدّ أن نكون أوفياء لشهداء البلدين وللحقيقة التّاريخية، عندما نؤكّد أنّ التّفاعل الذي حصل بين الوطنيين الثوريين في تونس والجزائر خلال هذه المرحلة، كان لصالح الشعبين التونسي والجزائري معًا.

# فاعليّة الغرافيتيا الثّوريّة في إِستنهاض الوعي الاجتماعي

## غرافيتيا الثّورة الجزائريّة نموذجًا



**د. باي بوعلام**
أستاذ محاضر قسم علم الاجتماع
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
جامعة تلمسان – الجمهورية الجزائرية

**مُلَخّصْ**

*نُروم من خلال مقالنا الموالي توضيح العلاقة القائمة والممكنة بين ممارسة الغرافيتيا The Graffiti practice والثّورة التّحريريّة الجزائرية، بالنّبش في بعض مناطق الظّل والعَتَمَة للتّاريخ الاجتماعي والثّقافي والنّضالي لمجتمعنا. نجتهد في ذلك بالتّوقف العلمي التّأريخي عند محطّة من محطّاتها البارزة والمهمّة في ميلاد المجتمع الجديد (فترة الثّورة)، معتمدين على مقاربة سوسيوتاريخيّة لمستوى من مستويات المشهد الثّوري المحلي، وعلاقته بظاهرة اجتماعية أصيلة، أقلّ ما توصف به بالهامشيّة بل والمهمّشة على مستوى الانهجاس البحثي المحلّي، إذ لا نجد دراسات رصينة حولها. حيث تتموضع ممارسة الغرافيتيا خلال الهيمنة الاستعمارية كأسلوب ثوري متميّز، واستثنائي، يؤرّخ للحظات الحدث التّاريخي المكتوب/ الـمُغرَفت، ويُؤَرشِف "وقائع" يوميات وأساليب المقاومة الوطنية ضدّ المستعمِر، بايجابياتها وسلبيّاتها. بالموزاة مع ذلك ساهمت الغرافيتيا بكل فعاليّة في إستنهاض واستشعار، واستثارة –بل وتصحيح– "الوعي الاجتماعي "Social consciousness بكل أبعاده ودرجاته، خاصّة السّياسيّة والثّورية منها، لدى فصيل واسع من الجزائريين قُبيل وبُعيد إندلاع الثّورة، حيث تَكَثَّفَت الغرافيتيا بمختلف التّضاريس المجتمعيّة عبر فضاءات مغلقة ومفتوحة كالسّجون، المحتشدات، الشّوارع العامّة، الطّرقات، الأزقّة والممرّات الضّيقة (كالقصبة وباب الواد، سيدي الهواري،..). ممّا أثقل مختلف "الحاملات الغرافيتيّة Graffiti supports" كالجدران، الأبواب، النّوافذ، الأعمدة، الصّناديق، جذوع الأشجار،... بـ"رسائل غرافيتيّة Graffiti messages متعدّدة المضامين، رغم مجهولية الفاعلين ومعلوميّة الرّسائل الـمُرام توصيلها للغير (القريب والبعيد)، ما جعلها أيقونات واضحة تؤشّر عن درجات وعي ثوري متميّز. وضعية استثنائية جعلت "الغرافيتيا الثّورية" ترتقي لتتموضع كوسيلة نضاليّة فعّالة ضدّ سياسات المستعمر، تندرج ضمن إستراتيجية عامّة لإستنهاض واستكمال تشييد "الوعي الثّوري" الوطني، بإستحفاظ واستثبات عناصره، بكل أبعاده ودوائره ومضامينه (الجزائر، الإسلام، العربية، FLN، GPRA ... بالموازاة مع ذلك ساهمت الغرافيتيا في استثارة "مقاومة Resistance " أشكال "الوعي" الزّائف false consciousness" المستفحل والمنتشر نتيجة سياسات "التّجهيل والاستغباء المقصود" منذ ولوج المستعمر، قصد تشويه وتضليل وتكريس وشرعنة الواقع المأزوم للجزائريين، ذلك لأنّ غاية الوعي (الفردي والجماعي) هو تحقيق عملي لقيمة الحرية بانتزاعها من الـمُغتصب، وليس بالارتكان "لوَهم" التّسليم بقدرية الاستعمار والعبودية.*

**بيانات الدراسة:**

تاريخ استلام البحث: ١٧ مارس ٢٠١٨
تاريخ قبـول النشـر: ٢٢ يوليو ٢٠١٨

**كلمات مفتاحية:**

الوعي الاجتماعي، الوعي الزّائف، الكتابات الغرافيتيّة، الغرافيتيا الثّورية، الاتصال الغرافيتي، التاريخ المهمّش

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0054811

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

باي بوعلام. "فاعليّة الغرافيتيا الثّوريّة في إستنهاض الوعي الاجتماعي: غرافيتيا الثّورة الجزائريّة نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الثاني والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٨. ص ٢٠٤ – ٢١٤.

**"يمكن التّعامل مع كل 'غرافيتي Graffiti' بِاعتباره سيرة ذاتيّة شخصيّة وجماعيّة، يعكس من خلاله "المُغرَفِت Le graffeur" بُعدًا من أبعاد ذاته، ومن مجتمعه"**

Ernest L. Abel, Barbara E. Buckly(1)

## مُقَدِّمَةٌ

بادئ ذي بدء يجب الإقرار بمسلمة قاعدية مفادها أنّ الوعي الاجتماعي لأيّ مجتمع -باعتباره وعي عام وقاعدي- أساس "الوعي الثّوري"، وأنّه ليس وليد مؤسسة بعينها فقط، وإنّما هو نِتاج لسيرورة متعاضدة ومعقّدة، تساهم فيها مختلف وكالات التّنشئة الاجتماعيّة بمفهومها الواسع، بالسّهر على تهيئة "المناخ الثّوري" المناسب. ضف إلى ذلك، أنّها عملية اجتماعية تحتاج لتفاعل معادلة الوقت والمكان والوسائل والأفراد الواعين، والملتزمين بالقضيّة. حيث تتّفق أغلب الدّراسات على أنّ تشكيل أو استثارة الوعي الاجتماعي (الفردي أو الجماعاتي أو المجتمعي)، إنّما يتحقق من خلال تعاضد المصادر والوسائل، الرّسميّة وغير الرّسميّة، التّي تؤثّر في تشكيل وعي الأفراد والجماعات، خلال مسارهم المعيشي اليومي، بآماله وأحلامه، وآهاته ومعاناته من المهد إلى اللّحد.

ولعلّ ما حدث للنّموذج الجزائري خلال ثورة نوفمبر ١٩٥٤، لم يكن وليد سنوات معدودات، بل عصارة عمليات تنشئة اجتماعية -بمفهومها السوسيولوجي-إعلاميّة وتوعويّة، قصديّة وغير قصديّة، سرّيّة وعلانيّة، مباشرة وغير مباشرة، انطلقت منذ ولوج الاستعمار الفرنسي للجزائر. حيث ساهمت وتعاضدت فيها جُلّ مؤسّسات التّنشئة، والتّربية والتّعليم (الرّسميّة وغير الرّسميّة). ومن بينها وسائل الإعلام والدّعاية –آنذاك-على قلّتها، وعُسر تحقيقها وتوزيعها. فبزغت بعض الصّحف والجرائد والمجلات، والنّشرات والمطبوعات، والفِرق المسرحيّة، والرّياضيّة،... نشطت بشكل غير منتظم، نتيجة سياسات التّضييق والتّكميم المقصود للأفواه والأقلام من طرف المستعمر، ومن يدور في فلكه.

لكن، ما نطمح إستثارته في هكذا مناسبة والذّي غالبًا ما لم يُنتبه إليه، أو تمّ التّعامل معه بنوع من التّعالي، والتّعنيف الرّمزي للإشكالات البحثيّة، هو "الغرافيتيا الثّوريّة" -إن صحّ التّعبير-، ممارسة تموضعت على هامش الواقعة التّاريخيّة التي يروّج لها بشكل واسع. بل يمكن اعتبار ممارسة الغرافيتيا إرهاصات لعملية كتابة صفحات معاصرة حول "التّاريخ الهامشي/ المهمش" الوطني، أو ما يسميه البعض بـ "التّاريخ من الأسفل" الذي يركز على الدّهاليز لا السّطح[٢]. لا من حيث طبيعة الفاعليين العاديين والوسائل البسيطة، ولا الغايات والمرامي والأهداف المقصودة، حيث أضحى اهتمام التاريخ بعدما كان مقتصرًا على السوسيولوجيا. تمّ تجسيد ذلك من خلال "غرافيتيا إتّصالية" متحرّرة من سطوة السّياج الدُّوغمائي المغلَق، والمُسيِّج لصيرورة الاتصال الرّسمي.

إتّصال غرافيتيّ غالبًا ما يُعتَمَل في مناطق وأوقات الظّل والعتمَة المجتمعيّة. ولعلّ أبرز أشكاله "الإشاعة" و"الإشاعة المضادّة"، بكل مضامينها وأساليبها (المكتوبة غرافيتيًا والملفوظَة شفهيًا). مثل هكذا نمط إتّصالي غير مرغوب فيه رسميًا، مهما كانت الجهة التّي تحمل صفة الرّسمي، إذ غالبًا ما تصنّفه ضمن اللاّرسمي، اللاّشرعي، اللاّقانوني،.. ذلك لأنّ الاتّصال الرّسمي (العمليّة والوسيلة) حسب المقاربة الوظيفية وسيلة للتّحكم والسّيطرة والهيمنة على المجتمع. هذا ما يجعله يلتجئ لوسائل ومناطق هامشيّة، لتفلِت من "سلطان" أهل الحل والرّبط، ومندوبيهم، خلال لحظة ومحطّة تاريخية محدّدة.

إنّها فعالية "الغرافيتيا الثوريّة" وإسهاماتها في تعبئة وشحن الوعي الاجتماعي -والثّوري خاصة-، وتصحيح ومقامة الوعي الزّائف/ الخاطئ، ودوره في التّأسيس لمحطّات ميلاد "مجتمع جديد" (الجزائر المستقلّة)، قُبيل وبُعَيد الثّورة التّحريرية، والتي للأسف تبقى "مُغيَّبة" ومُهمَّشة" على مستوى الاِنهِجاس البحثي المحلي.

## بداية ما المقصود بالوعي الاجتماعي؟

تعتبر إشكاليّة "الوعي" بأنواعه ومستوياته وأشكاله –من بينها الوعي الثّوري- من أكثر الإشكالات سجالاً بين المفكرين والدّارسين، من مختلف المِلل والنِّحَل المعرفية، منذ مطارحة إشكالية العلاقة المعقدة بين الرّوح والمادة، فكانت البدايات مع "هيغل "Hegel"، "فيورباخ L. Feuerbach"، "كانط "E. Kant"، ثمّ "ماركس "K. Marx"، "انجلز F. Engels"، "ماكس فيبر "M .Weber"، "دوركايم Durkheim"، "ألتوسر "Althusser"، وغيرهم ممّن صبروا غور هكذا موضوع، حتّى من المتأخرين على نحو "فلادمير فارندسكي "Vladimir Vernadsky"، و"كاثرين هايلز "Katherine Hayles"، "سلافوز زيزاك " Slavoj Zizek "، خاصة أعمالهم حول الفضاء الرّقمي. رغم ذلك ما زال من بين المواضيع غموضًا وخِلافًا.

عمومًا، يعدّ مفهوم "الوعي" مفهومًا فلسفيًا ونفسيًا بالدّرجة الأولى، وسوسيولوجيا وأنثروبولوجيا في إسقاطاته بالدّرجة التّالية، حيث يعبّر عن حالة عقلية إدراكيّة، تمكّن الفرد من التّواصل المباشر المناسب مع محيطه الطّبيعي والاجتماعي، بتسخير ملكاته الحسيّة، فيعكسها من خلال ردود تصرّفاته وأفعاله، الفردية والجماعيّة والمجتمعيّة. ممّا يخلق تناسبًا وتناغمًا مع باقي الجماعة الاجتماعية التّي يَنتَسب ويَتَماهى مع مرجعيّاتها، باستثمار إستراتيجيات عديدة، أوّلها عامل "الإكراه" بالمفهوم الدّوركايمي.

لذا يعتبر الوعي الجماعاتي/الجماعي "الإسمنت" الذّي يَشدّ البنيان المرصوص لجماعة أو مجتمع ما، في تعامله مع "عواصف الحيّاة" -ولعل أخطرها الاستعمار بكل أشكاله-.
يعرّف "إ. دوركايم E. Durkheim" ("الوعي الجماعي La collective conscience) بأنّه " مجموعة من المعتقدات والعواطف المشتّركة بين الأعضاء العاديّين في مجتمع معيّن، التّي تُشكّل النّسق المحدَّد لحياتهم"[٣]. في حين يقدمه "أ.ك. أوليدوف A.K. Olledov " بإعتباره "جملة الأفكار والنّظريات، وسِواها من التّكوينات الفكرية، الخاصّة بعصرٍ ما، حيث يتمّ تشيِئَتها Chosification في اللّغة، والكتب، وغيرها من التَّجسيدات المادية للثّقافة. إنّه مجموع التّصورات والرُّؤى في مرحلة معيّنة من التّطور التّاريخي"[٤].
ويعتبر "كارل ماركس Karl Marx" من السبّاقين في تفكيك أواليّات تشكيل الوعي الاجتماعي، خاصّة "الوعي الطّبقي" منه، حيث اعتبر ظاهرة الثّورات قاطرة المجتمعات، ثورات لن تتحقّق إلاّ بتجسيد درجة عاليّة من الوعي. ويضيف الدّارسون -خاصة الماركسيين منهم- أنّه لإستنهاض أو تغيير الوعي الاجتماعي أو إعادة بنائه، لا بدّ من تغيير الواقع المُعاش المنتِج لهذا الوعي، وإلاّ أنتجنا "الوعي الزّائف false consciousness".
يتجلّى ويتمظهر الوعي الاجتماعي من خلال الأيديولوجيا، الدّين، الفن، العلم، الفلسفة، ومختلف البنيّات القانونيّة لمجتمع ما، وله أشكال ومظاهر مترابطة ومتداخلة بتداخل وتدخّل سلطة الحقول المجتمعيّة في حياة الأفراد والجماعات والمجتمعات، فيتجلّى الوعي التّعليمي التّربوي، الوعي الطّبقي، الوعي القومي، الوعي البيئي، الوعي الثّوري، السّياسي، الوعي الصّحي... أمّا فيما يخص أهم التّصورات التي قاربت ثِيمَة "الوعي الاجتماعي" يمكن تلخيصها في ثلاث:

- التّصور الأول ركّز على الطّابع "الجمعي" (الوعي الجمعي).
- التّصور الثّاني على الطّابع الاجتماعي، "الوعي الاجتماعي).
- أمّا الثّالث فركّز على "الجماعة Le groupe "، (الوعي الجماعاتي).

للإشارة أُستخدمت مفاهيم مجاورة لمقاربة ذات الاشكالية على نحو "الرّوح القوميّة"، "الرّوح الشّعبيّة"، "الرّأي العام"[٥]. في ذات السيّاق أشار رائد التّفاعلية الرّمزية "تشارلز كولي Charles Cooley" لعدم إمكانية فصل "الوعي الاجتماعي" -أو "الوعي بالمجتمع Awareness of society" كما يسميه- "الوعي الذّاتي"، لأنّنا بالكاد نستطيع التّفكير في ذواتنا دون الرّجوع للجماعة الاجتماعيّة، مهما كانت هذه الأخيرة، ولا في الجماعة دون الإشارة إلى ذواتنا، فالعمليّة جدّ متداخلة ومعقّدة.
أمّا "الوعي الثّوري" فيمكن تعريفه إجرائيًا، باعتباره ذلك الإدراك والتّصوّر "الصّحيح والسّليم" لمجريات الثّورة -الجزائرية-، ومتطلّباتها وتضحيّاتها، السّياسيّة، الاجتماعيّة واللّوجستيّة، وما يجري فيها من أحداث وعمليات "مُفتَعَلَة"، ومعرفة القّوى والأطراف الفاعلة فيها، والمخاطر المحدقة بها. وتجاوز "الفرضيّات المغلوطة" –كما يسمّيها "هربرت ماركيوز Herbert Marcuse"- التّي تهدف للمحافظة على الوضع كما هو عليه. ونبذ التَّخَندُق الضّيّق والتَّشَتّت السِّياسَوي المُأدلَج، والتَّأسيس الفعلي لوحدة الوطن "الكل" -أو على الأقل السّواد الأعظم- ضدّ "العدو الحقيقي" للمجتمع. وتحطيم صَنَم "قَدرية الاستعمار"، بإعتباره "قدرًا مقدورا". ممّا يضفي للإدراك الحقيقي لأهدافها، المعلنة والمضمرَة، وأوّلها وآخرها 'الاستقلال التّام' للجزائر، وبالتّالي تجسيدها عمليًا في نُصرة/إنتصار الثّورة، بشعار إحدى أيقونات الوعي المجتمعي آنذاك مقولة العربي بن مهيدي "ألقوا بالثّورة إلى الشّارع يلتقطها الشّعب".

## وماذا عن الـ "غرافيتي" Graffiti (s)؟

بداية، ننبّه أنّ هكذا عملية تَأثِيلِيَّة ستكشف لنا عن هَيمَنَة المَحامِل الغربيّة (الأمريكية والأوروبيّة) على المفهوم وتطوّراته، منذ لحظة التّأسيس، إذ تشير قواميس التَّجذِير وتعليل أصل الكلمات، أنّ مفردة "غرافيتي Graffiti" في تركيبتها ودلالتها المعاصرة، إيطاليّة المعنى والمبنى، رغم أصولها اللاّتينية واليونانيّة. فهي مشتقّة من الفعل "Graffiare"، بمعنى: (يَخدُش ويَكشُط). وَلَجَت سوق التّداول المُعجمي عام ١٨٥١ من خلال القواميس الإنجليزية. لِيَنفرَض المصطلح ضمن نظيرتها الفرنسيّة -تدريجيًا- حيث وردت مفردة "Graffito" سنة ١٨٨٦، وقبلها كلمة "Graffite" سنة ١٨٧٨[٦]. عرفت إنزِيَاحات متعددّة على مستوى الدّلالة والمعنى والإشتقاق[٧]، رغم إقتصارها -سابقًا- على "الكتابات التّاريخيّة Historical engravings "، التي نَقَشَها ورَقَشَها الإنسان منذ القدم على جَنَبات الكهوف، المغارات، الجدران والعلامات،... مستخدمًا لذلك أدوات مختلفة (كالقلم، الإزميل، المِثقَب، الفحم، الطباشير، الدّم...).

إتيمولوجيًا يُتَداول المفهوم في لغات العالم بصياغات ومَعاني متعدّدة، لكنّها تتقاطع في معنى مشترك. ففي اللّغة الإغريقية نجد كلمة "Graphein"، تعني "يَكتب، يَرسم ويُلَوِّن". أمّا في نظيرتها اللاّتينية يعود أصلها لمفردة "Graphium"، وتعني يُخَرْبِش، يَخْدُش، ويَكْشُطُ[٨]. في حين، نجدها في اللّغة الإيطالية مشتقّة من لفظة "Sgraffito"، وتعني "يَخدُش، ويُخربِش". تطور إشتقاقها لـ "Graffito"، مفرد كلمة "Graffiti"، ومعناه "كَتَبَ وخَدَشَ، أو خَمَشَ أو حَكَّ سَطحًا"[٩]. أمّا قاموس"Le Robert" فتدل "الغرافيتي" على: أيّة كتابةٍ أو رسمِ خَطًّ أو نَقشٍ أو حُفِرَ على الجدران، وعلى جَنَبات آثار التّجمعات العمرانيّة المختلفة.

بشكل عام تتقاطع التّعاريف في اللّغات الأوروبية، لتخلص بأنّ "غرافيتي (Graffiti(s" تعني: أيّة كتابة، أو رسم، أو نَقش، أو خَدْش، أُنْجِز باليَد على واجهات الجدران[١٠] -بطريقة غير رسميّة-. مع سبعينات القرن الماضي أضحت كلمة "غرافيتي Graffiti" تُستخدم لتدُل على أيّة كتابةٍ أو رسمٍ أو نَقشٍ أو رَقشٍ جَثَت على الجدران، وما شَاكَلَها، تُستخدم فيها مختلف أدوات الكتابة، التّقليديّة والمعاصرة، كالفحم، الطّباشير، الأصباغ، لتعبّر عن ثقافة فرعية متميّزة. في حين، لا نَلفي أثرًا لمفردة "غرافيتي Graffiti"، في مُتون المعاجم والقواميس العربية، لكن، ما نجده -مثلا في "لسان العرب"- يقترب من "المعنى" في لفظة "خَرْبَشَةٌ" و"خِرْباش"، أي إخْتِلاطٌ وصَخَبٌ. ومنه يُقال: وقَعَ القومُ في خَرْبَشٍ وخِرْباشٍ، أي اخْتِلاطٍ وصَخَبٍ. و"الخَربشة" بمعنى إفْساد العَمَل، والكِتاب ونَحوَه. ومنه يُقال: كَتَب كِتابًا مُخَرْبَشًا، أي مُفسَدٌ، والخَربَشَة والخَرْمَشَة: الإفْسَاد والتّشويش[١١].

"قصورٌ مفاهيميٌّ" إضطرّ بعض المهتمّين بالموضوع على نحو الباحث "خليل أحمد خليل" لتعريب بمفهوم "Graffiti" بـ"الكتابة على الجدران"[١٢]. بينما عرّبه الباحث المُتمرّس "أحمد شراك" بـ "الغرافيتيا"، وتُرجم أيضًا بـ"جرافيتي، وكرافيتي.

## أما جذور "الغرافيتي (Graffiti(s"

فيُجمع آل التّخصص على أنّ إرهاصات "الممارسة الغرافيتية"، -خاصة الغرافيتيا التّاريخية منها- ليست وليدة القرن الحالي، وإنّما ترجع طلاسم تبلورها للحظة إختراع الإنسان لفعل الكتابة. إنّها ممارسة إنسانية قديمة، قام بتسخيرها الفرد/الجماعة للتّعبير عن أحوال معيشه اليومي، وأُمنيّاته، ومكبوتاته، وأحلامه وآلامه... بُغية تمييز "علاقاته" بوجوده، المتعدّد الأبعاد والمستويات، حيث عكست بعض خصائص حياته الإجتماعية (الدّينيّة، الثّقافيّة، السيّاسيّة،...)، ممّا جعلها -أي الغرافيتيا- تتميّز عن عالم "الفن الكلاسيكي" الرّسمي، من حيث طبيعة الشّكل والمضمون، والفضاء والحامل Le support الذي انْبَلَجَت فيه أو عليه، ومنه حسب تاريخ القيم الثّقافيّة لمُمَارِسيها بالمفهوم الواسع للثّقافي.

بل يعتقد بعض الدّارسين بأنّها سبقت ممارسة الكتابة نفسها[١٣]. أين تزامن "الفعل الغرافيتي" مع الإنسان الأوّل الذي لم يتمكّن من "مقاومة" رغبة تخليد أثَرِه L'envie de laisser sa trace، وبالتّالي تخليد هويته الشّخصيّة والاجتماعيّة[١٤]، الفرديّة والجماعيّة. ومقاومة ألوان الخوف والإقصاء والتّهميش الذي يعيشه. على نحو "غرافيتيا" العصور الوسطى التي وُجدت بمراكز العبادة (الكنائس)، والتي مازالت شاهدةً على ألوان الاضطهاد، والقهر المُسلّط من طرف "محاكم التَّفتيش L'Inquisition ". ومؤخرًا خلال العهد الاستعماري مجموع "الكتابات" التي خلّدها الجزائريون بالسّجون الفرنسية، وغيرها من "الآثار الغرافيتيّة" التي ما زالت جاثية إلى يومنا بعديد الفضاءات التّاريخيّة.

علميًا، يذكر "دونيز بيراني Denise Pirani" أنّ أوّل إنهجاس علمي بـ"الغرافيتية التّاريخية Les graffitis historiques" كان من توقيع "أنطونيو بوزيو Antonio Bosio" خلال القرن XVII، حول غرافيتي "مدافن سَرادِيب الأموات الرّومانيّة Les catacombes romaine". ومن بعده الأب اليَسُوعي "رافايل غاروسي Raffaele Garruci"، خلال منتصف القرن التّاسع عشر (١٨٥٦)، بدراسته حول غرافيتي 'روما' و'مومباي'[١٥]، والتي اعتبرت من الدّراسات المؤسِّسَة لـ"الغرافيتولوجي Graffitologie".

يُعتبَر علماء الآثار والحفريّات السبّاقين في مقاربة الموضوع لأهميّته العلميّة والعمليّة، إذ يعتبرونها "مدوّنة رسمية وغير رسمية"، تعكس خصائص المعيش اليومي لتلك المجتمعات والقبائل، على نحو غرافيتيا بقايا حضارة "المايا Maya" بـ"تيكال Tikal، و"الأزتك Aztèque" و"الفَراعنة"، وكذا "غرافيتيا الطّاسيلي" بالجزائر، و'الأكاكوس' و'المَسَّاك' بليبيا، و'لاسْكُو Lasco'، و'مغارة شُوفِي Chauvet' بفرنسا، أو 'Altamera' بإسبانيا، و'الفيكينغ' بإرلندا، و'Serra da Capivara' بالبرازيل[١٦]. لكن، تجدر الإشارة إلى أنّ ما نتحدث عنه، نوع آخر، غير رسمي، أصطلح على تسميته بـ"الكتابات الغرافيتية Graffiti Writing" باعتبارها إرهاصات قاعدة الظاهرة. برزت -بشكل ملفت ومستفز- خلال خمسينات وستّينات القرن الماضي بعديد المجتمعات، خاصّة الولايات المتّحدة الأمريكية،

وأوروبا،... أشهرها غرافيتيا "ثورة ماي ٦٨"، بفرنسا، وما لحقها من تغيرات بأوروبا والعالم، وقبلها تجليات غرافيتيا الثّورة التّحريرية موضوع مقالنا.

## لكن، لماذا هكذا علاقة؟

أولاً، لعلّ من أهم رهانات الثّورة النّاجحة في أيّ مجتمع، هي مدى تحقيق درجات "الانخراط الجماهيري" الواسع فيها، وتشكيل "روح مجتمعيّة" موحدة لمواجهة مستجدّات المرحلة الاستثنائية. ولن يتسنّى ذلك إلاّ باستنهاض وزيادة حرارة الوعي الاجتماعي، خاصّة في بعده الثّوري. ولن يتيسّر ذلك إلاّ بتسخير كل الأساليب والوسائل التّوعوية والدّعائية الممكنة، ومن أهمّها "الكتابة" بكل أنواعها وأشكالها، لأنّها آليّة فعّالة من آليات الاتّصال والتّواصل المعاصر. و"الغرافيتيا" بإعتبارها من أقدم أشكال التّواصل الفعّال والمُعمّر un antique moyen de communication (منذ ٢٠٠٠ سنة)، بل من أعرق أساليب الإتّصال المكتوبة، وأنسبها لمثل هكذا وضعيّات استعمارية، حيث القمع والاضطهاد والتّضييق دَيدَن المستعمِر. وثانيًا لأنّ في بدء أيّة "صناعة إعلامية" (تقرير، مقال، كتاب، نشرة إخبارية،...)، هناك "إرهاصات غرافيتية" - حتّى وإن لم نقصدها- غالبًا ما "نُنَمِّقها" باسم "محاولة المسودّة" (خَربشة Gribouillage) أوليّة للمنتوج الاتّصالي. غير أنّ تركيزنا سيكون على تلك "الكتابات الغرافيتيّة Les écrits graffitiques " التي انتشرت –ونُشرت- بمختلف تضاريس الفضاءات المفتوحة والمغلقة، على عديد الوسائط الغرافيتيّة المُؤَثِّثَة للفضاء العمراني الجزائري آنذاك، التّي حَبِلَت برسائل غرافيتيّة متعدّدة المضامين، ومساهمة في تنشئة وتوعيّة إجتماعيّة ثوريّة بالدّرجة الأولى. ذلك لأنّ الغرافيتيا كما يعتقد "ألاوو بريتان Britain Olowu" إستراتيجية فعّالة للتّعبير عن رفض وكَسر قيود الأنظمة التَّسَلطِية[١٧]، ووسيلة للمعارضة السّياسية على مستوى الأفكار، ولإسماع صوتها للمجتمع، لأنّها وسيلة إتّصال جماهيري فعّالة وسهلة، كما يضيف "ليمان شافيي Lyman Chafee"[١٨].

## وماذا عن الغرافيتيا والثّورة؟

لكل حقل سوقه اللّغوية، ولكل سوق سلعته المفرداتيّة والمفاهميّة المتداوَلة بكثرة، ولعلّ مصطلح "الثّورة La révolution" (السّلميّة والمسلّحة) من أكثر المفاهيم تداولاً. إنّها ظاهرة اجتماعية أصيلة أفرزتها ظروف وعوامل متداخلة، للدّفاع عن مصالح ماديّة ومعنويّة ورمزيّة. إنّها "القطيعة المفاجِئَة" والجذرية مع وضعيّة أو حالة غير مناسبة وغير مرغوب فيها. تعرفها "موسوعة علم الاجتماع" بأنّها "التّغييرات الجذريّة في البُنى المؤسسيّة للمجتمع، تلك التّغييرات التّي تعمل على تبديل المجتمع ظاهريًا وجوهريًا، من نمط سائد إلى نمط جديد، يتوافق مع مبادئ وقيّم وإيديولوجيّة وأهداف الثّورة، وقد تكون الثّورة عنيفة دمويّة، كما قد تكون سلميّة، وتكون فجائيّة سريعة أو بطيئة تدريجيّة[١٩].تتّخذ عدّة أساليب وأشكال وإستراتيجيات، من أجل تحقيق أهدافها. ولعل من بين أساليبها المهمّشة وغير المفكّر فيها بشكل علمي رصين أسلوب "الغرافيتيا".

فكثيرًا ما رافقت "الكتابات الغرافيتيّة" الثّورات والأزمات المجتمعيّة، كما أشرنا سلفًا، حيث تخلّف -بطريقة تفاعليّة لَحظيّة- هذه الأخيرة "منتجات غرافيتيّة"، تفعّل وتؤرّخ في اللّحظة لصيرورتها الثّوريّة، مجسّدةً ذلك فيما يمكن الاصطلاح عليه بـــ"الغرافيتيا الثّورية Le(s) graffiti(s) révolutionnaire(s)". ونعني بها -إجرائيًّا- "تلك الأَمْشَاجُ (الأخلاط) من "الكتابات الغرافيتيّة" البارزة والنّافِرَة، المحرِّضَة والمُستثيرَة للسّيرورة الثّوريّة في لحظة معيّنة، والتي نُقِشَت أو/ وكُتِبَت أو دُهِنَت ورُشَّت Scratched and/or painted على مختلف "الدّعامات الغرافيتيّة"، من جدران، أبواب، أعمدة وجسور، سلالم،... والتّي لم تخصّص لذلك. رَام من خلالها "مُغَرفِتُوها Les graffiteurs" التّعبير عن درجات ثورتهم، وانتصارهم لأجل قضيّة معيّنة، سياسيّة، أيديولوجيّة، دينيّة،.. بعبارة مقتضبة التّعبير عن درجات حرارة وعيّهم، الكائنة أو الممكنة، مجسّدةً -غرافيتيًا- في أسلوب نضالي أصيل من أجل إنتزاع إستقلالهم (بكل أبعاد المفهوم)، وإثبات معالم "هويتهم" (الجماعيّة، المجتمعيّة)" أمام "الآخر" المستعمِر، كما يحدث العكس حينما تُستثمر الغرافيتيا لمحاولة سَرمَدَة نظام قائم.

تاريخيًا حضرت "غرافيتيا الثورة" خلال الثّورة التّحريرية بمراحلها، جسّدت وسَوّقت لمطالب وطنيّة، مُهندِسَة وممجِّدَة لرموز "الكيان الجزائري"، ومُدَنِّسَة لرموز "الآخر" المستعمِر. فغالبًا ما يُلتَجَئ للغرافيتيا كاستراتيجية "ثوريّة"، لتأليب المجتمع ضدّ "نظام" معيّن يوصف "بالظّالم المستبد"، والتّعبير غرافيتيًا عن مواقف رافضة له، وتوعيته -أي المجتمع- بمفاهيم وقيم ومعايير جديدة وعادلة، يعتقد أنّها أفضل من سابقتها. إنّها وسيلة وملاذًا "للبَوحِ والتَّمَوقُف"، تَروم ترجمة غرافيتيًا درجات الوعي الفردي والجماعي. كل ذلك بُغيَة المشاركة في إيقاد ما يسمّيه "فيليب أرتيار Philippe Artieres" و"باول روداك Pawel Rodak" بـ"المقاومة الغرافيتيّة La résistance graffitique". ذلك لأنّ من

مستويات الثّورية أيضًا، نجد الغرافيتيا، كما يعتقد "جون بودريار Jean Baudrillard" مثال عن "ثورة العلامات/الرّموز La révolution des signes"[٢٠]. كل ذلك رشّح الغرافيتيا لتتموقع كوسيلة عمليّة من وسائل التّوعية غير الرّسميّة، بين فاعلي الثّورة وباقي أطياف المجتمع. بل استراتيجية فعّالة لأجل التّعبئة والمقاومة المجتمعيّة، ضدّ فصول الإقصاء والتّهميش المقصود. فكثيرًا ما كانت الغرافيتيا من خلال الجدران -وما ناب عنها- فضاءً مناسبًا لتَمَظهُر درجات وخصائص وشعارات الوعي الثّوري للمجتمعات المناضِلة[٢١] من أجل إنتزاع "الاعتراف La reconnaissance" (الفردي والجماعي)، كما تعتقد الباحثة المتمرّسة "أريلا إبستان Ariela Epstein"[٢٢].

وللإشارة، علاقات الفعل الثّوري بالغرافيتيا ليس وليد الأمس القريب، بل تعود في ارهاصاتها، لثّورات بعيدة، على نحو، غرافيتيا انتفاضات اليونان القديمة، غرافيتيا الثّورة الفرنسيّة ١٧٨٩، الثّورة المكسيكيّة ١٩١٠، الثّورة البلشفية ١٩١٧، الحرب العالمية الأولى والثّانيّة، الثّورة الشّبابيّة/الطلابيّة ماي ١٩٦٨، وثورة السّود ضدّ أصناف التّمييز العنصري، سواء بالو.م.أ، جنوب إفريقيا، أرلندا، جدار برلين، إسبانيا في عهد "فرنكو Franco"، وفلسطين، والثّورة الإيرانيّة، والغزو الأمريكي للعراق، ومؤخرًا غرافيتيا -ما سُمي- بـ"ثورات الرّبيع العربي"، بتونس، مصر، اليمن، سوريا..[٢٣]. كلّها محطات استثنائية حضرت فيها الغرافيتيا الثّوريّة بقوّة، لتأريخ صفحة من صفحاتها، وبعدًا من أبعادها التّأريخيّة (السياسيّة، الاقتصاديّة، الثّقافيّة، الدّينيّة، والأمنيّة).

## تمثّلات الاستعمار "للممارسة الغرافيتيّة"

عمومًا، على المستوى العالمي كثيرًا ما تَباينت السِّجالات والمُناكَفات حولها، على حسب خصوصيّات الزّمكان المجتمعي الذي إنبلجت فيه، إذ يُرَقِّيها "البعض" لدرجة العمل الفنيّ الرّاقي، وتُعرَف بـ"الغرافيتي الفنّي Graffiti Art"، بينما يحتقرها ويُدنِّسها البعض الآخر، ويُنزِلها لدَرَكَة "الفعل التّخريبي/الصّبياني (Un acte de vandalisme) للممتلكات العامّة والخاصّة، وهم أغلبيّة، واعتبارها مؤشّرًا من مؤشّرات إنعدام الأمن Symbole d'insécurité، وتوصيفها بأنّها كل كتابة أو رسم أو نقش رَكيك على الجدران، الأبواب العامّة أو الخاصّة، وبأنها خَربَشات/ شَخبَطات سَاقطة وفاحِشة (Des gribouillages obscènes). ممّا جعل النّظرة التّحقيريّة والتّأثيمِيّة تلازمها، فمعظم التّوصيفات -خاصّة الرّسميّة منها- تتشارك في "وَصمِ Stigmatiser" الغرافيتيا باعتبارها "فعل تَخريب Un acte de vandalisme وإنحراف، وتعدّي على الممتلكات العامّة والخاصّة[٢٤]. سواءً من حيث التَّسييج المفاهيمي، أو بإفطة "الوَصم Stigmatisation" أُلحِقت بهوية "الفاعل/الممارِس" (المنحرِف، المهمَّش، الخارج عن القانون، بل و'المجرم'...). خاصّة من طرف مَندوبي المؤسّسات الرّسمية (السّلطات المحليّة، الشّرطة)، واعتبارها مؤشّرًا واضحًا للإنحراف والإجرام[٢٥]، يجب على حُرّاس التِّرسانة القانونيّة التّصدّي لها بحزم. وتأسيس ما أسماه "فيليب أرتيار Philippe Artieres" بـ"شرطة الكتابات police de l'écriture" لمحاربة "La délinquance graphique"[٢٦].

بمجتمعنا وخلال العهد الاستعماري، نتيجة لقوّتها وفاعليتها الاتّصاليّة/التّواصليّة، والتّغذية الرّاجعة Feedback التّي أحدثتها هذه الاستراتيجيّة، إضطرّت السّلطات الفرنسيّة لإعلان الحرب عليها، وتشكيل فِرَقًا أمنيّة خاصّة لمحاربتها، والتّصدّي بكل حزم لهذه "الكتابة الخَطِرَة L'écriture dangereuse"، كما يصفها "فيليب أرتيار Philippe Artieres". وذلك بملاحقة "الجُنَاة" (الشّباب الجزائري)، حيث رَصدت مُكافَئات ماليّة معتبرة لمن يَشي بـ"مُقْتَرِفي" هكذا "كتابات هدّامة Ecrits subversifs"، بعدما صُنِّفَ هذا 'الفعل' في خانة الجُنَح التي يُعَاقِبُ عليها القانون الفرنسي -بالجزائر- بصرامة، تصل لحدّ السِّجن، ليس لِكَونها تُشَوِّه المنظر العام للمدينة فقط، بل لأنّها أضحت "وسيلة" تُؤَلِّبُ الشّعب على "التَّمَرُد والثّورة"، والعصيان المدني La désobéissance civile، ضدّ النّظام العام، وتنشر الإشاعات الكاذِبة حسبها. في ذات التّصور صرّح رئيس بلدية العاصمة "شارل كوربان Charles Corbin" لجريدة "Le Journal d'Algérie" سنة ١٩٦٠ بأنّه خَصَّص ميزانيّة مُعتبرة لمحاربة "الأعمال التَّحريضِية" في الأماكن العموميّة التي يَقتَرِفُها مُناضِلو FLN وALN (الفَلاقَـة، الخارجون عن القانون، الإرهابيون،..)، بل وطلب من الشّرطة تخصيص فِرَق شُرَطِية لهكذا "مهمّة".

رغم ذلك إرتقت الغرافيتيا لممارسة توعوية وإخبارية غير رسميّة ذات تأثير بالغ ومهم في تعبئة وتوعيّة الجزائريين، أين تحوّلت لشبه "قناة إخبارية"-جدارية-غير رسميّة، تُساهم في نشر وتبسيط المستجدّات من مطالب (إشادة وترحُم، قَدح وجَرح، تهديد ووعيد، تحريض وتأليب،...). كما تُسجِل وتُأرشِف ولو مؤقّتًا، لحظات إنتصارات الثّورة على المستوى السّياسي والعسكري، وتسفير وترسيخ أبعاد الهوية

الوطنيّة، ومنه المساهمة في رفع درجات الوعي الفردي والجماعي للجزائريين.

## مؤشّرات حرارة الوعي الاجتماعي من خلال الغرافيتيا

تعود ارهاصات الممارسة الغرافيتيّة بالمجتمع الجزائري بمفهومها المعاصر للفترة الاستعماريّة الفرنسيّة[٢٧]. وبالضّبط لبدايات تبلور الوعي الاجتماعي (السّياسي والإصلاحي،...) للحركة الوطنيّة بكل أطيافها الرّافضة لوجوده. هذا ما تناقلته بعض الشّهادات (المكتوبة والمسجلة)، وبعض هوامش التّحقيقات التي قاربت ثِيمات تاريخيّة مُغايرَة.

غير أنّ أوّل "تَكَثُّف" لها بشكل جعلها تلفت الانتباه كان مع انتشار بعض الرّياضات، خاصّة (كرة القدم والملاكمة) وتأسيس النّوادي الرّياضيّة، الجهويّة والمحليّة، الجزائرية المُسلمة. حيث "اِلْتَفَّ" حولها "الأنصار" من مختلف الفئات الاجتماعيّة، فكانت البدايات الغرافيتيّة مع نوادي "مولودية الجزائر" و"مولودية وهران" و"قسنطينة"،... حيث اِنتشرت "لغة" الاعتزاز والافتخار، والتّشجيع والانتصار لها، رغم النّتائج المسجلة أمام الأندية الفرنسيّة "الكُفّار". فاِنتشرت أسماء الملاكمين والعدّائين الجزائريين الذين "قَهَرُوا" الأوروبيين، والنّوادي الجزائريّة على نحو "El mouloudia المولودية" على مختلف الواجهات والمساحات كالجدران، الأعمدة، الجسور إلخ. خاصّة بالأحياء الشّعبية كـ'القصبة' و'باب الواد' مثلاً بالعاصمة، وعديد المدن.

ويُفَسِّر بعض المؤرّخين هكذا "ممارسة" بأنّها "فعل وطني" يَرُوم من ورائه "الفاعلون" التّعبير عن تَميُّزهم وافتخارهم بدوائر انتماءاتهم لهويتهم الوطنيّة، أمام "الآخر" (المُستَدْمِر). فحين "يُغَرْفِتُ graffiter" الفاعل(ين) يَسْتَدْعي "المَكبوتَ المُتَراكِم"، إمّا ليُعْلِنَه للغير بنوع من التّقدير والتّبجيل، وإمّا ليَلْعَنَه ويُدنِسه أمام "الغير"، ومن ثَمَّ شَكَّلَت ثِيمَتَي الخصوصيّة والاختلاف التّي تطبع العلاقة بين الأنا/النّحن، والآخر الـ'هُو' /الـ'هُم' مِحورًا مركزيًا في المُتُون الغرافيتيّة Les contenus graffitiques. ومع تنامي وتنوّع الاستراتيجيات النّضاليّة للحركة الوطنيّة أضحت "الكتابات الغرافيتيّة" على "الجدران" -وما ناب عنها-وسيلة فعّالة "للتّعبِئَة" العامّة للمُناضلين، وقناة -غير رسميّة- لتبليغ مطالبها "للآخر المستعمِر" بكل دوائره. عكست من خلالها "رَسائل غرافيتيّة Des messages graffitiques" مُتضمنةً أهم مطالبها، السّياسيّة، الاجتماعيّة، الثّقافيّة والهويّاتيّة، ومعبرة عن رفضها واِحتجاجها ضدّ سياساته المتعسّفة، على نحو الصّورة التّالية، التي تطالب فيها الإفراج عن رمز من رموز الحركة الوطنيّة "ميصالي الحاج":



الصّورة رقم ١: "أطلقوا صراح ميصالي"[٢٨]

ومع تسارع الأحداث بعد الحرب العالميّة الثّانيّة واِتّضاح مدى "وفاء فرنسا" بِوُعُودِها للشّعب الجزائري، من خلال "غَدرها" "لِاحتفالات" الثّامن ماي ١٩٤٥، زادت درجات الوعي الثّوري للجزائريين، حيث اقتنعوا بحتميّة "ما أُخذ بالقوّة لا يسترجع إلاّ بالقوّة". فاِنتشرت "كتابات" تُؤَكِّد وتُذكّر بعَدم جَدوَى العمل السّياسي مع "المُسْتَدْرِب"، والمناداة بحتميّة تغيير هكذا أسلوب، بأسلوب "الكفاح المسلّح" والرَّدِ عليه بـ"اللّغة" التي يَفقَهُها. حيث تكثّفت "الغرافيتيا" خلال "الكَرنفالات الانتخابيّة" التّي حاول من خلالها المستعمِر، "شَرعَنَة" سياساته أمام الرّأي العام الدّولي. بدورها عَمِدت بعض الأحزاب الوطنيّة لِاستثمار "الغرافيتي" لإعلام وإستقطاب، وإقناع مختلف الشّرائح المجتمعيّة، وتعريفهم بـ"الاختيار الأمثل" للقوائم الجزائرية وأسماء مترشحيها، على نحو ما حدث في إنتخابات عام 1947.

كما تنامت "الممارسة الغرافيتيّة" بُعَيْدَ إنطلاق الثّورة التّحريرية إذ اِكتسح "المناضلون" الجدران-وما شاكلها- بـ"شعارات وطنيّة Des slogans nationalistes"، وأخبار الانتصارات المُحَقّقة ضدّ العدو، وكذا عبارات التَّرحِيب بالثّورة، والتّكبير (الله أكبر)، والتَّرحُم على الشّهداء (رحم الله شهداءنا) والتّشهير بخصالهم، أو التّجريح السّلبي بأسماء الحركى والعملاء والخونَة.

تمّ تفعيل ذلك وفق منطق "غرافيتيا الإشاعة" الكثيرة الاستثمار في مثل هكذا ظروف مجتمعيّة. فتحوّلت الغرافيتيا لوسيلة دعائيّة للمُقاومَة، ينتظرها "المناضلون" -والاستعمار-كلّ صباح، للاِطلاع على مستجدّات الفعل

الثّوري. مجسّدةً ما يسمّيه "فيليب أرتيار Philippe Artieres" و"باول روداك Pawel Rodak " بـ "المقاومة الغرافيتيّة La graphique résistance"(٢٩). فتموضعت "الغرافيتيا" كوسيلة إتّصاليّة/ إيصاليّة/ تواصليّة فعّالة، لإسماع صوتها "للآخر". إنّها "صوت من لا صوت له" أمام سياسة المنع الإعلامي المعتمد من طرف السّلطات الاستعماريّة.

يحدث ذلك وفق مبدأ تسويق عناصر وعي إجتماعي ثَوري، "وطني" متميّز، غير مرغوب فيه إستعماريًا، وتقديمها كأسلوب جديد للنّضال السّياسي والإجتماعي Le militantisme politique et social للجزائريين، حيث أمست أيقونات "جبهة التّحرير الوطني FLN" ، و"جيش التّحرير الوطني ALN" و"الحكومة المؤقّتة GPRA"،...جاثِمَةً على كل مساحة يمكنها "إستضافة" الحروف الثّلاثة والأربعة والأكثر، وتَمجِيدِها والإعتزاز بها، بِتَذيِيلِها بعبارات "VIVE FLN"، "VIVE GPRA"(٣٠) لإعطاء بلاغة أقوى للمعنى المُراد إيصاله للمرسَل إليه(هم)، كتابات بارزة وصارخة على نحو العيّنة التّي سنوردها للتّوضيح.




الصّورة رقم ٢:
"FLN تَحرس الجزائر"(٣١)




الصّورة رقم٣: " أبعاد الهوية الوطنيّة"(٣٢)

وتمجيد معالم وأيقونات الهويّة الجزائريّة آنذاك، على نحو "الجزائر مسلمة"، "الشّعب هو البطل"، "تحيا الجزائر"... وتذكير المستعمر بدعائم هوية الشّعب، الإسلام والعروبة...




الصّورة رقم ٤: "الجزائر مسلمة"




الصّورة رقم ٥: "الشّعب هو البطل"

من جهة أخرى عكست بعض "الوحدات الغرافيتيّة" ملامح "أزمة وعي" سيّاسي لدى طيف من السّياسيين، وأعراض "التّصدّع" و"التّأزم" التّي آلت إليها صيرورة النّضال الوطني عند بعض أطياف الحركة الوطنيّة بكل مِلَلها الأيديولوجية، على نحو أزمات "حزب الشّعب"، بعد أحداث ٨ ماي ٤٥، وقرار المشاركة في انتخابات ١٩٤٦ و١٩٥٣، حيث برزت مؤشّرات "صراع جِداري Un conflit mural" بين "الإصلاحيين" و"الوطنيين" و"الإدماجيين"... كل ذلك جعل الغرافيتيا ترتقي لتكون مَلْمحًا من ملامح ديناميكيّة العمل الثّوري-بمعناه الواسع-، بل إستراتيجيّة توعويّة فاعلة، للتّعبئة النّخبويّة أولاً، والمجتمعيّة ثانيًا، وكذا ترسيخ المعالم الكبرى للهويّة الوطنيّة بمختلف مستوياتها وعناصرها. والصّورة التّاليّة تلخص لحظة من لحظات ميلادها.




الصّورة رقم ٦: "أيقونة الهويّة الوطنيّة"

كما عَرفت ثقافة "الكتابات الغرافيتيّة" حضورًا ملفتًا مطلع صيف 1962، حيث إرتَقَت لِطَقسٍ من طُقوس التَّعبئَة والتَّوعيّة السّياسيّة الشّعبيّة، فكانت من أبرز الوسائل التي إستثمرتها الحركة الوطنيّة لتوعيّة الجزائريين بالاستفتاء (المصيري). ذلك أنّ السَّوَاد الأَعظَم منهم أُميّون Des illettrés، وكان لِزامًا عليهم "الاختيار الأمثل" بين كَلِمَتي "Oui" أو "Non"، فأُستخدمت "الجُدُر Les murs" وما ناب عنها لتقريب وترَسيم وتَرسِيخ كلمة "Oui"، بِتِكرار "غَرفتَتِها" آلاف المرّات، وكل النّداءات التي تحثّ وتوصي بـ "انتخبوا نعم votez oui"، لِعَدَم الوقوع في "الخطأ" في "اليوم المشهود". فإرتقى الجدار وما نَاب عنه ليكون المَلاذَ الفعّال لنقل مُجريات الواقع المُعَاش، فإكتسَب وظيفة إعلامية بإمتياز جعلت بعضهم يصفه بـ"جريدة الشّارع". فأضحت المنظمات المحليّة تستخدمه لتوصيل الرّسائل التّي لا تستطيع إيصالها عبر وسائل الإعلام المعهودة، فكانت إستراتيجيّة تِكرَار "الرّسائل الغرافيتية" فَعّالة لأنّها تُمثل إحدى علامات الوُجود والقوّة في منطقة معيّنة، على نحو الصّورة التالية:




الصّورة رقم ٧: غراقتيا سياسية
"انتخب من أجل الاستقلال"[٣٣]

## الغرافيتيا والوَعي الزّائف

بالموازاة مع الاستخدام المكثّف للغرافيتيا من طرف الجزائريين لجأ "المُعَمِّرون Les colons" لذات الوسيلة، للتّعبير عن مواقفهم المعارضة والرّافضة "للتّماهي L'identification" المُعلَن غرافيتيًا من جهة، ولسياسات الجنرال "ديغول" بالجزائر من جهة أخرى، خاصّة "تحدّي" المفاوضات مع FLN. ونشر "كتابات غرافيتيّة" مُعادية لها مطالبة بضرورة توقيفها "حالا"، وإلغاء الاستفتاء حول تقرير المصير. فإنتشرت عبارات "منظمة الجيش السِّري" (O.A.S) بمعتقداتها، على نحو " L'Algérie est française et le restera"، كردّ فعل لـ " vive le peuple algérien nous sommes l'avenir" . حيث إستَمَرّ أعضاء "O.A.S" في تَرهيب الشّعب، وتكثيف سياسة الوَعيد والتّهديد، بتنفيذ عمليات لم تشهدها "الجزائر الفرنسيّة" من قَبل، يوم الاقتراع، فمن أراد النّجاة فليمكث ببيته، وإلاّ لقيّ حتفه. بالإضافة لكتابات تمجّد "Salan" و"OAS"، وترهّب الشّعب وكل من تعاطف معه، على نحو الصّورتين التّاليتين لمنظمة "O.A .S".







الصّورتين رقم ٨: غرافيتي "O. A. S" بالعاصمة(٣٤)




الصّورة رقم ٩: "تمجيد "OAS و Salan"

على نحو مماثل انتشرت اقتراحات تُطَالِب بإقامة نظام شَبِيه بنظام جنوب إفريقيا، وتُحَذِّر الحكومة من الرّضوخ لإستفتاء تقرير المصير. فَرَدَّ عليها الشّعب الجزائري على هكذا "وعي زائف" -بالنّسبة إليه-بالمِثل، بنَشرِ عبارات تُمَجِّد "الجزائر جزائريّة"، و"لن تكون فرنسيّة أبدًا" (باللّغتين). والمئات من "النّداءات" المُماثلة، جمع بعضها "بيار بورديو P. Bourdieu" خلال تحقيقاته حول المجتمع الجزائري آنذاك (١٩٥٨-١٩٦٠) حوالي ١٥٠ صورة، ضاع أغلبها قبل عودته لفرنسا، على نحو العبارات التّاليّة: " Ralliez-vous à la France"، " respectez le couvre feu les tueurs vous guettent"، "Oui de Gaulle"... من مختلف جُدُر الشّوارع والأزقّة(٣٥).

نشير في الختام إلى أنّ استراتيجيّة "المقاومة الغرافيتيّة La résistance graffitique /graffique" لم تنحصر على الدّاخل الجزائري، بل عرفت إنتشارًا واسعًا بالخارج، خاصة بالأحياء الآهلة بالجزائريين بفرنسا (HLM). سواء من لدن مناضلي الثّورة، أو الفرنسيّن الرّافضين لها، خاصّة خلال "الأحداث المؤثّرة" التّي عرفتها بعض المدن الفرنسيّة على نحو الرّسالة المعبّرة عن مظاهرات ١٩٦١/١٠/١٧ التّي رَاح ضحيّتها مئات الجزائريين(٣٦).




الصّورة رقم ١٠: "ICI ON NOIE LES ALGERIENS" جسر Saint-Michel.

## خَاتِمَةُ

حاولنا في هذه المساهمة إستجلاء بعض ملامح الوعي الاجتماعي الجزائري خلال العهد الاستعماري الفرنسي، من خلال ما يمكن تسميته إجرائيًا بـ"الغرافيتيا الثّوريّة " ومساهمتها في تثويره وتشكيله ونشره. فتموضعت وظيفة "الكتابات الغرافيتيّة" ضِمنَ وَظيفة تَمثيليّة، كاشِفَة لطبيعة الواقع المُعاش المتأزّم، وإرتداداته "المَكتوبة"، من خلال مضامين مُتعدّدة الأبعاد والمعاني والدّلالات والبناءات، بألوان "صارِخَة" ومُعبّرة عن درجات الوعي الكائنة والممكنة. تَمّ ذلك وفق أسلوب اتصالي -غير رسمي-غير مُكْتَرِث بإكراهات قواعد وطُقُوس العمليّة الإعلاميّة الرّسميّة، فلا الدّعامات ولا المضامين ولا الرّسائل، ولا الفاعليين أطراف رسميّة معترف بها.

وعليه يمكننا القول أنّ "الغرافيتيا" كانت وما زالت وسيلة توعويّة وإتصاليّة، ونضاليّة فعّالة، للتّعبير عن الآراء والأيديولوجيات والتّماهيات Les identifications، وشَحذِ هِمَم وتعبئة الوعي الاجتماعي للمجتمعات بكل أبعاده وأشكاله، ووسيلة فعّالة تُضاف للوسائل المعتمدة من لَدُن "المستضعَف"، لمقاومة ألوان الظّلم والاستعمار والاستعباد. إنّها "صوت من لا صوت له"، بل "سلاح من لا سلاح له"، بالعديد من أصقاع العالم.

## الهَوامِشُ:

(1) Ernest L. Abel, Barbara Buckly, "**The handwriting on the wall, Westport**", (Conn), London, Greenwood Press, 1977, P.20.

(٢) خالد اليعقوبي، خالد طحطاح، **"تاريخ من أسفل: في تاريخ الهامش والمهمش'**، الزمن، سلسلة شرفات، رقم ٨١، الرباط، ١٩١ صفحة.

(٣) شارلت سيمور، سميث، **" موسوعة علم الإنسان، المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجيّة"**، ترجمة مجموعة من الأساتذة، ط٢، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٩، ص ٣٦٩.

(٤) أ.ك. أوليدوف، **"الوعي الاجتماعي"**، ترجمة ميشيل كيلو، دار ابن خلدون، بيروت، ١٩٨٢. ص ص.٣١،٣٢.

(٥) المرجع نفسه، ص ٨.

(6) Romain Sahut,"**Mémoire d'expression: Les graffiti et l'art urbain**", IUTBM, 2002-2003, p3.

(7) Ex: Les dérivés graffitique (adj.), graffitiste (adj.), graffiteur, se (subst.),…sont des néologismes récents appartenant à la langue spécialisée.

(8) Pierres Philosophales, **"Photograffi(ti)es d'Expressions Murales ",** Collectif des 12 Singes, vol 1, ٢٠١٠, 150p .URI:http://collectif12singes.over-blog.com/article-communique-de-presse-photograffi-ti-es-d-expressions-murales-pierres-philosophales-volume-1-585732 15.html. Consulté le :13/9/2011.

(9) Romain Sahut, op.cit.p.4.

10 **LAROUSSE**, Dictionnaire Encyclopédique Illustré, 1998, p.707.

(١١) ابن منظور المصري، " لسان العرب "، بيروت، دار صادر، المجلد 6، ص295.

(١٢) خليل أحمد خليل، "مبنى الأسطورة"، دار الحداثة، بيروت، ١٩٧٩، ص ٢٢٦.

(13) The Economist,**"Graffiti: The writing on the wall scribbles for thought",** London. In:http://www.economist.com/node/3445153.Consulted:22/06/2009.

(14) Gabriel Euan Canul & al**, "Graffiti at the initial series group structure 5c35"**, Chichentza, Yucata, Mexico URL:http://www.famsi.org/reports/03101/82euancanul/82euancanul.pdf.Consulted:٥/4/13.

(15) Denise Pirani, "**Transition démocratique et culture urbaine au Brésil: Le phénomène du graffiti'**, Cahiers du Brésil Contemporain, n°25-26, 1994, p.81-94.URI:http://www. revues.msh-paris.Fr/vernumpub/02-4-Pirani.pdf.

(16) Renata Plaza Teixeira& EmmaOtta & Siqueira José de Oliveira, "**Between the public and the private: Sex differences in restroom graffiti from latinand anglo-saxon courtiers",** Institute of psychology, University of São Paulo, Brazil, 2007, p4. URL: http://www.ead.fea. usp. br/WPapers /2003/03-007. pdf. Consulted:11/8/201٢.

(17) Nicholas Bryden & Eric Mehlberg, "**Bathroom walls speak out: A exploratory study of restroom graffiti**, Humboldt State University. April 24, 2000. In: http://users. Humboldt. edu/jverlinden/319 Web/examples/2003/BathroomWalls.pdf.Consulted: 20/05/2011.

(18) Bradley J. Bartolomeo,"**Cement or canvas: Aerosol art & the changing face of graffiti in the 21st century"**, Union College, Schenectady NY, USA-2001. In:http://www.graffiti.org/faq /graffiti-is-part -of-us.html. Consulted: 11/12/2010.

(١٩) شعبان الطاهر الأسود، **علم الاجتماع السياسي**: **قضايا العنف السياسي والثورة**. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية. ٢٠٠٣، ص ٤٧.

(20) Baudrillard, J. **«Kool Killer ou l'insurrection par les signes»**, 1976. p. 16. http://lpdme.org/projects/jeanbaudrillard/koolkiller.pdf. Consultable sur le site: http://lpdme.org. Consulté le:12/2/2014.

(٢١) غالبًا ما يميّز أهل الاختصاص بين "الحس الثّوري" و"الوعي الثّوري"، أمّا الأول فيرتكز على العاطفة رغم أهميتها في إستيقاد هِمَمَ الشّعوب المضطّهدة من أجل "الثورة"، غير أنّها تبقى غير منظمة وغير واضحة الاستراتيجيات والأهداف والمرامي. أمّا "الوعي الثّوري" فهو وعي عمليّ بضرورة تفعيل الانتقال من مرحلة تاريخية "مهزومة" إلى أخرى "متحرّرة"، أكثر تناغماً مع المفاهيم الاجتماعية المُراد تجسيدها، حيث يَنبَجِس هكذا وعي من حالة استيعاب وإستوعاء للمرحلة السّالفة التي تميّزت بصراع بين علاقات المجتمع القائمة على القمع والظلم من جهة، وفئات المجتمع التّي أضحت تَتوق للحرية والكرامة، للعدالة والاعتراف بالوجود، من جهة مقابلة.

(22) Ariela Epstein,"**Des tambours sur les murs" : la mise en image des Afro-descendants de Montevideo»**, Espaces et sociétés ,2013/3 ,n° 154, pp.17-32.

(٢٣) للاستزادة أكثر حول الموضوع يمكن الرجوع لأطروحتنا للدكتوراه الموسومة بـ: هوية الطالب الجامعي الجزائري من خلال الكتابات الغرافيتيّة، طلبة جامعة تلمسان نموذجًا"، حيث خصّصنا فصلا كاملاً لتطورها التّاريخي.

(24) Grant, C.M, "**Graffiti: Taking a closer look**", The FBI Law Enforcement Bulletin, 65,1996, pp.11-15. Sited in: Suniti Bandaranaike, "**Graffiti: A culture of aggression or assertion?**", School of Tropical Environment Studies and Geography James Cook University, Townsville, Australian institute of criminology,2001. URL: http://www.aic.gov.au/en/events/aic%20upcoming% 20events /2001/~/media/conferences/regional/bandar.ashx .Consulted:18/5/2012.

(25) Castelman, CRAIG, "**Getting up**", The Massachusetts Institute of Technology, Massachusetts, 1982.

(٢٦) رغم ذلك ظهرت بالمجتمعات الغربية بعض الأصوات من (ممارسين وباحثين وجمعيات) تطالب بضرورة إحترام الممارسة، والتّعامل معها كلون من ألوان "الفن المعاصر" (الما بعد حداثي).

(٢٧) وإن وجدت كما أسلفنا "غرافيتيا تاريخيّة " ببعض مناطق الوطن على نحو غرافيتيا الطاسيلي، أو "تيوت"،...

(28) Malika Rahal, "**Comment faire l'histoire de l'Algérie indépendante ?**", La Vie des idées, 13 mars 2012. ISSN: 2105-3030. URL: http://www.laviedesidees.fr/Comment-faire-l-histoire-de-l.html.

(29) Philippe Artieres & Pawel Rodak, « **Ecriture et soulèvement, résistances graphiques pendant l'état de guerre en Pologne** », (13 décembre 1981-13 décembre 1985), Genèses,( Sciences sociales et histoire) , no 70,ed: Belin, 2008, pp.120.139. URL:http://www.cairn.info/revue-geneses-2008-1-p-120.htm. Consulté le: 18/05/2009.

(٣٠) عُرضت إحدى لقطات الفيلم الصّامت **"Images d'Algérie** سنة ١٩٦٤، صُورة لِغْرَافِيتيا على جدار بشوارع القصبة "مكتوب" عليها: "GPRA (Gouvernement Provisoire de la République Algérienne" لِيَرُدَ علية آخر -لتباين الخَط- "GPRA NON ".

(٣١) الصورة من نفس الفيلم "**Images** d'Algérie" من: http://base.atelierdesarchives.com/index.php?urlaction=doc&iddoc=168979، بتاريخ ١١/٧/٥.

(٣٢) مصدر الصورة. http://tipaza.typepad.fr/mon_weblog/2012/08/ بتاريخ ٢٠١٦/١٢/١٢.

(33) URI :http://www.algerie1.com/actualite/le-temps-d'une-halte-pour-mesurer-le-chemin-parcouru-et-les-virages-mal-negocies-depuis-50-ans/attachment/117-algeria-independence/. Consulté le: 2/8/13.

(٣٤) موسوعة: 2006 ® **Encarta** ® Microsoft"DVD .

(35) Anne-Laure Anizan, "**Pierre Bourdieu. Images d'Algérie, une affinité élective, jeu de paume hors les murs**", château de Tours, 16 juin au 4 novembre 2012.La revue numérique du Centre d'histoire de Sciences Po,Histoire@Politique,no14,pp.1.8.http://www.histoire-politique.fr/ index.php?numero= 14 &rub=comptes-rendus&item=384#hautpage . Consulté le:15/11/2012.

(٣٦) بنفس العنوان تمّ عرض الفيلم الوثائقي ''هنا نُغرق الجزائريين'' (90 د) بقاعة ''الموقار'' بالعاصمة، بتاريخ ٢٠١١/١٠/٢٢ للمخرجة "ياسمينة عدّي" تعالج فيه موضوعًا –تقول عنه- "أنّه من الطابوهات في فرنسا، والمتمثّل في جرائم ١٧ أكتوبر ١٩٧١"




www.kanhistorique.org

**Historical Kan Periodical**
ISSN: 2090 – 0449 (Online).
Peer-reviewed, open-access journal, indexed and abstracted in several international databases.

info@kanhistorique.org